رياض نجيب الريس

قبل أن تبهت الألوان

صحافة ثلث قرن



رياض نجيب الريس

■ ولد في دمشق عام ١٩٣٧، ونشأ وتربى في بيت صحافي وسياسي.

■ والده نجيب الريس صاحب جريدة «القبس» الدمشقية، التي صدرت عام ١٩٢٨، واقفلت عام ١٩٥٨، حين تم تأميم الصحافة في سورية في عهد الوحدة.

■ تلقى دراسته الابتدائية في دمشق والثانوية في لبنان والجامعية في كيمبردج بانكلترا.

■ عمل في معظم مجالات الصحافة اللبنانية بعد تخرجه عام ١٩٦١، اطولها كان عشر سنوات في جريدة «النهار» البيروتية.

■ هاجر الى لندن عام ١٩٧٦ واصدر «المنار» اول صحيفة عربية تصدر في اوروبا.

■ كتب في اغلب الصحف العربية، واشتهر كمراسل متجول وكمعلق سياسي معني بشؤون الخليج والجزيرة العربية.

■ اسس عام ١٩٨٦ دار «رياض الريس للكتب والنشر» في لندن، واصدر حتى الآن اكثر من ٢٠٠ عنوان.

■ اصدر عام ١٩٨٨ مجلة «الناقد» الثقافية الشهرية التي يرأس تحريرها.

■ افتتح عام ١٩٨٩ مكتبة عربية جديدة باسم «الكشكول» في حي نايتسبردج في لندن والتي تحتوي على حوالي ١٠٠٠٠ ، ٢٠ عنوان بالعربية والانكليزية.

■ اقام مهرجان الشعر العربي في لندن عام ١٩٨٧، واسبوع لندن الثقافي العربي عام ١٩٨٨.

■ انشأ «جائزة يوسف الخال للشعر» عام ١٩٨٧، و«جائزة الناقد للرواية» عام ١٩٨٨، التي تمنح سنويا لشاعر وروائي شاب لم يسبق له ان نشر من قبل.



لوحة الغلاف: لؤي كيالي


تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب



قبل أن تبهت الألوان

صحافة ثلث قرن


تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

قبل أن تبهت الألوان

صحافة ثلث قرن

رياض نجيب الريّس



BEFORE THE COLOURS FADE AWAY

30 YEARS OF JOURNALISM

BY

RIAD NAJIB EL - RAYYES

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.
CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data.

El-Rayyes, Riad Najib
Before The Colours Fade Away
30 Years of Journalism
1. Lebanon, Journalism
I. Title
079.5692

ISBN 1-85513-016-5

الطبعة الأولى: تموز / يوليو ١٩٩١

إلى ذكرى نجيب الريّس،
أبي الذي لم يترك لي خيار مهنة أخرى.



المحتويات

العالم العربي

أوروبا

آسيا

افريقيا

قمم

صحافة

نقاط وفواصل

اخوانيات

مقدمة

مجازفة العودة إلى الماضي

كنت اعرف انني رجل له طموحات مثالية، وان مثاليـة طموحـاتي تصل إلى حد السذاجـة في أحيان كثـيرة. ولكنني ظننت ان تجارب الحيـاة قد صقلتني إلى درجة معقولة، اعرف من خـلالها ان اتـدارك ارتكاب حمـاقة مـا وان اتجنّب الوقوع في خطا مميت.

وكنت اعرف أيضا ـ بحكم انني رجل واقعي وعملي عـلى الرغم من مثـاليتي ـ انّ مهنتي، مهنة الصحافة العربية، وقد مارستها محترفا ثلث قرن حتى الآن، قد وصلت إلى مستوى من السقوط ربما لم تعرفه في كل تاريخها، وانّ تراجعها في مثالياتها وقواعدها واسلوبهـا وممارستها، قد فاق تراجعها في حرياتها وكراماتها واستباحة الانظمة والناس لها.

وكنت اعرف ايضاً وايضـاً انها تقـدمت تقنياً واقتصـادياً وصنـاعياً، واتسـع انتشارهـا وتعددت آفاقهـا وتوزعت مشاربها، ولكنهـا انهارت داخليـاً: انهارت حـريتها، وانهـارت اخلاقياتها، وانهارت قواعدها.

كنت اعرف كل ذلك، وانا مستسلم استسلام من يريد ان يحافظ على ما تبقى من مهنة هي كل حياته وإرثه، ولـو انه تعلمهـا في بيت اختلفت قيمه ومقـاييسه عمـا يمارس اليـوم، وتعامل معها في مؤسسات علّمته في حينه ـ ان هناك شروطاً واصولاً واهدافـاً للاحتـراف الصحافي غير الذي يراه يطبّق اليوم.

ظـل ذلك كلـه نوعـا من الترف الفكـري والطمـوح الحـالم بـالنسبـة لي. وكنت اتفـادى باستمرار الاصطدام بين واقع الصحافة كما تمـارس فعلاً وبـين مثاليتي ـ حتى لا اقـول سذاجتي ـ المهنية. إلى ان التقيت احد الزملاء من معاصريّ في الصحافـة، فسألني ـ وفي جدية متناهية ـ عما إذا كان مـا اكتبه يلقى «دعم» جهـات معينة. وكم شعـرت باحتقـار الزميل لي ـ وربما بشفقته اكثر ـ عندما اكدت له ان ما اكتبـه هو رأيي الشخصي وان من «المؤسف» (في محاولة مني لكسب احترامه) ان ليس هناك من «يدعم» آرائي ـ ولم يحاول احد ذلك اساسا. ولما حاولت ان اشرح له ان الصحافـة هي ايضا رأي شخصي وتحليـل لمعلومات يسعى إليها الصحافي بدافع منه وحده لأنه شغوف بها، تطلع إليّ الزميل وقـال

لي: «أتريد أن تقنعني أنـك تكتب في سبيل الكتـابة، ومن أجـل أن تتقاضى راتبـك في آخر الشهر»؟.

ومرّت الأيام. وعدت إلى لقاء مجموعة من الزملاء الصحـافيين في أحـد اسفاري. وأخـذنا نتناقش في مواضيع المهنة وماذا تكتب الصحف هذه الأيـام. وانهالت الآراء: أحـدهم قال إن الموضوع كذا جيد، ولكنه لحساب العراق. وآخر قال إن المقال الفلاني عظيم، ولكنه لحساب السعودية. وثالث قال إن التحقيق كذا ممتاز، ولو انـه لصالـح الكويت. ورابـع تفضّل قائلاً إن التحليل الأخباري كذا رائع، ولو انه لصالح اليمن.

ولما استوقفت مجموعة الزملاء عن الاستمرار في إبداء هذه الآراء لتراكم حسابات الـدول أمامنا في تلك السهرة، متسائلاً: أليس هناك في كل الصحافة العربية من لا يكتب لحسـاب أحد؟ انتفضوا جميعاً دفعة واحـدة وأجابـوا: «أجادٌ أنت في سؤالـك أم تسخر منـا؟ هل هناك من يكتب اليوم لحساب المهنة لأنه شغوف بهـا، أو لحساب المطبـوعة التي ينتمي إليها لأنه يتقـاضى أجره منهـا. أي ولاء لقواعـد المهنة تتحـدث عنه أنت؟ الكل يكتبون لحساب الدول والأنظمة والأحزاب والشركات. لا أحد يكتب حتى لحساب نفسه».

وفجـأة أدركت سبب هزيمتي. ورفضت أن أنـاقش وأبحث في أسباب سقـوط الصحـافـة العربية ـ وإن كنت لم أدرك حتى تلك اللحظة كم كان سقوطها سحيقاً.

□

أروي هذه الحكاية التي كتبتها منذ سنوات، لا لأقول إنني أعرف كل هذا وذاك. أو لأؤكد أن مقالات هذا الكتاب كانت كلها لحسابي خلال ثلث قرن من العمل الصحافي. إنمـا لأقول إنني كتبت هذا الكتاب بدافع من الحب، وفي محاولة للخروج من كوابيس هـذه المهنة ـ العشيقـة. ولأقول أيضـاً إنني جمعت مقالاتـه دفاعـاً عن مهنة هي كـل عمـري. ولعلني أعددته كتاباً لأثبت لنفسي في الدرجة الأولى قبـل الآخرين، من جيـل قراء تسعينـات هذا القرن، أنّ الصحافة العربية لم تكن أبداً كما عرفوها اليـوم. لكن هذا الكتـاب ليس قطعاً كتاباً عن الصحافة، ولا كتاباً يحاول أن يؤرخ مرحلة معينة من مسار الصحافة العربية. إنه مجرد كتاب لصحافي، وليس كتاب صحافي.

لماذا؟

لأن الصحافي هي الصفة الوحيدة التي أملكهـا، وأنا لا أملـك أيّ أوهام حـول الصحافـة وأهميتها أو نفوذها، ولا غرور حول كونها «السلطة الرابعة» كمـا تعلمناهـا في المدارس. مهنة عرفتها في أحسن أيامها وفي أسوأ أيامها. مهنـة فتحت لي أبوابـاً كثيرة، عـرفت فيها العـالم، وعـرّفتني إلى أحسن النـاس وإلى أسـوئهم. مهنـة أعطتني مـا يمكن أن يسمى بـ «الثقافة المتأخرة»، فعلمتني وتعلمت فيها. مهنة عـانيت من عذابهـا كثيراً، وعشت في لذائذها بقدر ما عرفت من متـاعبها. مهنـة ما زالت أهم صنعـة في الدنيـا، مهما حط بهـا الدهر اليوم. مهنة، إذا نظرتُ إلى الوراء الآن وقد فتحت جميع ملفاتها أمامي، لا أستطيع أن أقول إنني قد أختار غيرها.

أرجو أن يوضح هذا الكتاب لماذا.

ولأنه كتاب لصحافي، فإن فيه كثيراً من المجازفة في العودة إلى الماضي. والمجازفة تكمن في ان حياة الصحافي هي عبارة عن قصاصات جرائد تقبع في ملفات تحمل تواريخ معينة لأحداث وحكايات ومواقف تفاجئه بعد زمان طويل مرّ. ينظر إلى بعضها ساخراً، ويريد طرد بعضها الآخر من ذاكرته او إنكاره وجحوده. إلا انها شاء ام ابى، كلها هناك سجل لحسابه باق اطول مما سيبقى هو على هذه الارض. ولكن عندما يقرأ الصحافي ملفاته بعناية، يكتشف في زواياها جملة كانت نبوءة، وموقفاً حمل حساً بالتاريخ، ومغامرة وفرت له دوراً في قضية، ورأياً شارك في حل ازمة، وحديثاً ساهم في إحراج شخص آخر. الأهم من ذلك انها كلها كتبت تحت ضغوط الزمان والمكان ومن مواقعها وفي ساعتها، حتى جاءت، في غالبيتها، بمعلومات تحفل بها اكثر من احتفالها باناقة عباراتها وحسن صياغتها.

ولأنه ايضاً كتاب لصحافي، فيجب ان لا نقع في وهم الاعتقاد بانه ادب. فالصحافيون ليست صنعتهم الادب. وكثير منا، نحن معشر الصحافيين، يعزّون انفسهم ـ ويخدعونها في الوقت نفسه ـ بإيهامها انهم ادباء، وانّ ما يكتبونه من مادة صحافية هو ادب. إن الادب الحقيقي لا يعترف بالصحافة، وليس من مهمة الصحافة ان تؤدي مهمة الادب. وعلينا الاعتراف بذلك، إن ما يتمايز به صحافي عن آخر، هو الأسلوب، والأسلوب وحده لا يخلق اديباً، لأن المادة التي بين يديه وطبيعة صياغتها لا تحتمل أن تصبح جنساً ادبياً، كالقصة أو الشعر او الرواية او المسرحية.

وقد انتابني شعور وانا اقلب أوراقي القديمة، بأنني اقلب مجموعة من الجثث في براد بشري لتاريخي المهني. وقد ذكرني هذا باصطلاح تستعمله الصحافة البريطانية، تعلمته اثناء عملي فيها في الستينات، اسمه The Morgue، ويقابله عندنا في الصحافة العربية اصطلاح «الأرشيف». وهذه الكلمة بالعربية تعني بالمعنى القاموسي تحديداً:

«١ ـ معرض الجثث: موضع تعرض فيه الجثث المجهولة ليتعرف عليها من يهمه الأمر.
٢ ـ مجموعة المراجع في دار جريدة او مجلة ما».

ابتسمت بيني وبين نفسي وانا اقارن بين التعبير الانكليزي والتعبير العربي، لانني وجدت نفسي اقرب إلى الاصطلاح الصحافي الإنكليزي. وشعرت بالبرد.

كذلك اذهلني تنوع اوراقي، بقدر ما اذهلني اكتشافي كم كنت اعرف عن اشياء كثيرة في يوم من الايام، لم اعد اعرف عنها شيئاً الآن او انني نسيتها اليوم. وتبادر إلى ذهني، وانا في معرض الجثث الصحافية الذي امامي، انه لا يمكن ان اكون انا الذي اخترت الخوض في كل هذه الموضوعات، ولا بد ان الظروف ورؤساء التحرير الذين عملت معهم في تلك السنوات، هم الذين اختاروها لي. وانتابني شعور وانا اقلب مجموعة ضخمة من الصور إلى جانب القصاصات (وكنت اصور كثيراً في تلك الايام) بأنني كحفار القبور الذي يزعج الموتى بنبش قبورهم بعد سنوات وسنوات من مواراتهم الثرى. وشعرت بالبرد من جديد.

وادركت ان كل هذه المواضيع قد كتبت تحت ضغط اساسي يعرف في الصحافة باسم الموعد الاخير للتسليم قبل دوران المطبعة. وهنالك مصطلح في الصحافة الغربية ايضاً

يسمى Deadline. واكتشفت أن المصطلح الغربي متشائم مقارنة بالمصطلح العربي. فالقاموس يشرح معناه: «١ ـ خط الموت ـ وهو خط ضمن سجن أو حوله لا يجوز للسجناء تجاوزه وإلا اطلقت عليهم النار. ٢ ـ الموعد الأخير ـ آخر موعد لإنجاز عمل ما».

وأعاد لي هذا الشرح التساؤل عن المجازفة التي يتعرض لها الصحافي الذي يريد ان ينبش ماضيه، فشعرت بقشعريرة في داخلي وانا اقف بين «معرض الجثث» و«خط الموت». وتذكرت ما حذرنا منه صحافي بريطاني مخضرم حاضر فينا في مؤسسة طومسون في مدينة كارديف في مقاطعة ويلز في بريطانيا قبل ثلاثين سنة، كيف ان الصحافة قد لا تجعل الطامح فيها غنياً، ولكنها من المؤكد تجعل حياته مغامرة خطرة.

ولعل الخطر يزداد بعد سنوات عندما يجلس الصحافي امام اوراقه القديمة ليبيضها من جديد، والخوف يلفه اكثر فاكثر من ان القارىء سيمسك به اليوم، بعد ان افلت منه طوال السنوات الماضية. لكن هذه المرة لن يستطيع القارىء اللحاق بنا. فهذه فرصة، قليل منا نحن معشر الصحافيين، يملك تفويتها عليه. فالتاريخ هو الرقيب الذي لم يعد جالساً وراء مكتبه، بل أصبح جالساً في راسنا ـ وما زال خطره يلاحقنا.

وفي داخل كل صحافي يُعنى بالاحداث، صراعٌ دائم بين الآراء والمعلومات او بين الخبر والتعليق. لذا يحار الصحافي وهو يقف على حصيلة ثلث قرن ونيّف من كتاباته الصحافية ايها يرمي وعلى ايها يبقي. ولم اتردد في ان ارمي في «مزبلة الصحافة»، كل ما له علاقة مباشرة بالخبر الآني والراي السيّار والمعلومة التي فات وقتها والتعليق الذي لم يعد يحمل اي معنى. ولم تكن مهمتي بإزاء هذا الخيار سهلة على الإطلاق. لقد جنحت بلا تحفظ نحو ما اعتقدت انه يشكل رواية او قصة تحمل اسلوباً خاصاً ولوناً مميزاً كُتِبَتْ من موقع معين وفي ظروف تاريخية معينة. وبذلك فقد حملت اغلب مقالات هذا الكتاب طابع الريبورتاج، والرحلات والذكريات، بقدر ما حمل بعضها طابع الراي الداعي إلى قضية والمطالب بموقف والمثير لذكرى ما. وفي مجمل مقالات هذا الكتاب تنوع واضح يتمثل في مختلف اساليب الكتابة الصحافية التي مارستها، والتي اعتقدت ـ ويدي على قلبي ـ انها يمكن أن تصمد لامتحان الزمن، دون ان تفقد نكهتها وعبيرها، إذا ما أعيدت قراءتها في إطارها التاريخي وزمان ومكان حدوثها.

وقد استبعدت من هذا الكتاب كل ما كتبته في قضايا الخليج العربي ـ وما اكثره ـ وكل الكتابات الأدبية والنقدية، التي لا تحمل طابعاً صحافياً. كما استبعدت الأحاديث الصحافية التي فقدت طعمها واندثرت مناسبتها. لقد كان كل الجهد في أن يبقى هذا الكتاب، كتاباً لصحافي وليس شيئاً آخر.

هذا ويحضرني الآن بيت من الشعر قديم لا اعرف قائله، يقول:

لعمرك ما ضاقت بلاد باهلها ولكن اخلاق الرجال تضيق

اتمنى ان لا يضيق أحد بهذا الكتاب ولا بصاحبه!

رياض نجيب الريّس

لندن ـ شتاء ١٩٩١

مجموعة المقالات المثبتة في هذا الكتاب صدرت خلال الفترة الممتدة بين العام ١٩٦٠ والعام ١٩٩٠ وذلك عبر الصحافة اللبنانية (الصياد، الأنوار، المحرر، الجريدة، الأسبوع العربي، الحياة، والنهار)، والصحافة العربية، (المنار [لندن]، المستقبل [باريس] والأنباء [الكويت]).



مدخل

شبه سيرة صحافية

كان لي شرف ومتعة احتراف العمل في الصحافة اللبنانية حوالي عشرين عاماً، منذ أن حلمت أن الصحافة هي مهنتي وطريقي وقدري. لكن قبل ذلك كله كنت من نتاج ذلك الجيل العربي الذي جاء لبنان وهو في أوجه وعنفوانه، فدخل مدارسه وتخرج من جامعاته وانضم إلى أحزابه وتعلم السياسة في مقاهيه وتنشق حريته وتسكع في مكتباته. على أن الأهم من ذلك كله أنه قرأ صحافته وعرف من خلالها أن للرأي أكثر من وجه وأن للفكر حرمة هي في اتساع العقل الإنساني، وأن حرية الإنسان هي في حرية رأيه وفكره.

وكان من الطبيعي لواحد من جيلي أن يأتي لبنان في طفولته، فيدخل مدارسه ويتعلم في كلياته ويعيش صباه وشبابه في كنف صداقاته اللبنانية. ولم يكن لدينا أي شعور في شبابنا، بتمايز ما بيننا، نحن غير اللبنانيين وبين اللبنانيين. كان التطلع خارج الحدود القطرية العربية لكل منا أمراً طبيعياً، وكان التقوقع داخل الحدود اللبنانية أمراً انعزالياً. وكانت بيروت وقتئذٍ امتداداً حقيقياً لدمشق، وكان الوصول إلى الشام أسهل من الوصول إلى طرابلس. وكانت الحزبية السورية ـ اللبنانية حزبية أشخاص عاشوا معارك الانتداب معاً وسعوا إلى الاستقلال معاً. كانت العلاقة طبيعية. وكان «الميثاق الوطني اللبناني ـ العربي» في عزّه.

وعندما جئت لبنان، لم أكن هارباً من اضطهاد. ولم أكن لاجئاً سياسياً. ولم أكن أبحث عن عمل. كنت صاحب مهنة لم يكن مسموحاً بممارستها إلاّ في لبنان. وكان لبنان يعتز في ذلك الزمان بأنه أمسى البلد الوحيد في الوطن العربي القادر على احتضان صحافة حرة. لم يكن هناك خداع نظر. كانت التقاليد الصحافية اللبنانية في حينه استمراراً للصحافة العربية التي نشأت في مصر وسورية وفلسطين منذ بداية هذا القرن. كانت الأرض الصحافية محروثة ومؤهلة للغرس الفكري.

سعيد فريحة وكامل مروة وجورج نقاش وغسان تويني كانوا امتداداً تراثياً لحلمي

الصحافي الذي بدأ في دمشق وانتهى في بيروت. لذلك لم يكن غريباً ولا مستهجناً أن يعمل واحد مثلي عند ومع هؤلاء في البلد الذي ربيت وترعرعت وتعلمت وصادقت وأحببت فيه. وقبلت في هذه المهنة من دون السؤال عن جنسيتي، لأنني كنت امتداداً لهذا التقليد وذلك التراث. وكانت الصحافة اللبنانية تضم في مطلع الستينات عدداً لا بأس به من السوريين والفلسطينيين العاملين فيها، وكان ذلك أمراً طبيعياً. وكنت من بين القلائل من غير اللبنانيين الذين عملوا في الصحافة اللبنانية ولم يتلبننوا بالجنسية.

■ البيت

نشأت وربيت في بيت صحافي وسياسي. والدي نجيب الريس صاحب جريدة «القبس» الدمشقية التي عاشت بين عامي ١٩٢٨ و١٩٥٨، كان صحافياً وسياسياً. فتشربت حب هذه المهنة بطبيعة الأجواء التي كانت محيطة بي في طفولتي وصباي. كنت أزور برفقة والدي المطابع ومكاتب الصحف وأرى مجموعة الصحافيين والسياسيين، باستمرار، في بيتنا. ولم يخطر في بالي في أيّ فترة من فترات نشأتي، أن أعمل في أيّ مهنة سوى مهنة الصحافة والكتابة. لقد كانت خياراتي محددة ومقررة سلفاً. ولعل السبب الرئيسي في ذلك أن والدي توفي عام ١٩٥٢، وأنا في الرابعة عشرة من عمري، مما ولّد عندي الرغبة بالتحدي للإستمرار. واستمرت «القبس» بالصدور حتى تأميم الصحافة السورية في عهد الوحدة المصرية ـ السورية عام ١٩٥٨. وكنت أقضي العطل المدرسية في مكاتبها ومطابعها محاولاً تعلّم أسرارها مما زاد عندي عشق رائحة الورق والحبر وسماع هدير المطابع. وأذكت ذلك كله محاولات بدائية في الكتابة كانت تنشر لي على أساس أنني ابن صاحب الجريدة.

لذلك لم يكن عندي شك، منذ اليوم الأول الذي تركت فيه الدراسة، في أن يقودني الدرب إلى أول صحيفة تقبل أن أعمل فيها. فقد كان هناك اتفاق واضح بيني وبين نفسي أنه عندما اكمل تعليمي سوف أقرع باب أول صحيفة لأدخل إليها صحافياً. ولما كانت الصحافة السورية قد أمّمت و«القبس» قد أغلقت، فإنني ما أن تركت الجامعة في صيف عام ١٩٦١، حتى طرقت باب سعيد فريحة في «دار الصياد»، بحكم الصلة والصداقة التي كانت تربط بينه وبين والدي. وعرض علي سعيد فريحة أن احتل أول طاولة فارغة وأبدأ حياتي المهنية.

وهكذا تقاضيت أول راتب لي من مجلة «الصياد» في تموز عام ١٩٦١، وكان مقداره ٣٠٠ ليرة لبنانية. وهكذا بدأت احترافي المهني. وعملت نهاراً محرراً للشؤون العربية في «الصياد»، وليلاً محرراً للشؤون الدولية في جريدة «الأنوار»، إلى جانب الإشراف على صفحتها الثقافية.

«المحرر»

عندما كنت في «الصياد» كان هشام أبو ظهر يرأس تحريرها. وكان هشام يريد إصدار جريدة خاصة به. فعرض عليّ العمل معه، وكنت حديث العودة من الدراسة في انكلترا ومتأثراً بالصحافة البريطانية، فأقنعته بأن يصدر «المحرر» على غرار صحافة الأحد الأسبوعية في بريطانيا. وتركنا «دار الصياد» معاً، وأصدرنا «المحرر» في ١٨ حزيران عام ١٩٦٢، كأول جريدة أسبوعية عربية مقلدين فيها «الصنداي تايمز» و«الأوبزرفور». أي جريدة بعدة أجزاء، واحد للسياسة والأخبار، وآخر للثقافة والمتنوعات. وكان هشام رئيس تحريرها، وكنت أنا مدير التحرير. وظهر اسمي للمرة الأولى بمنصب مهني في «ترويسة» الجريدة.

تأثرت «المحرر» بمدرسة «أخبار اليوم» الصحافية في المضمون، وبمدرسة صحافة الأحد البريطانية في الشكل. واستطاعت أن تلعب دوراً متميزاً باستقطابها مجموعة كبيرة من الأقلام الصحافية التي لعبت أدواراً بارزة فيما بعد في الصحافة والسياسة والأدب. وكان الشهيد غسان كنفاني قد عاد مؤخراً من الكويت، حيث كان يعمل مدرساً للرسم، إلى بيروت، ويعمل في جريدة «الحرية»، التي كانت لسان حال حركة القوميين العرب. فدعوته إلى الكتابة في «المحرر»، إلى جانب عمله في «الحرية». وكانت عبقرية غسان الصحافية أنه يستطيع أن يملأ أي مساحة بيضاء في أي موضوع بدقائق. وهذا هو حلم أي مدير تحرير. وتوثقت علاقة غسان بـ «المحرر»، ونمت صداقة شخصية وأدبية بيني وبينه عاشت حتى استشهاده عام ١٩٧٢.

وأتاحت لي «المحرر» أول فرصة لتغطية حدث صحافي من موقعه، وكانت ثورة ٨ آذار عام ١٩٦٣، وسقوط الانفصال في سورية، هي المهمة الأولى. تبع ذلك المهمة الأشق والأخطر وهي تغطية اضطرابات الأردن إثر سقوط حكومة سمير الرفاعي وإنزال الجيش إلى شوارع القدس وعمّان بعد إعلان ميثاق ١٧ نيسان عام ١٩٦٣، للوحدة الثلاثية بين مصر وسورية والعراق. وكانت الزيارة الأولى والأخيرة لي إلى القدس. وانفردت «المحرر» بين الصحف العربية كلها بوجود مراسل لها داخل الأردن وبتقارير مطولة عن وقائع تلك الأيام المثيرة. كان ذلك أول احتكاك مباشر لي مع الخطر الذي يواجه الصحافي وهو يحاول أن يكتب من قلب الأحداث، وأول تجربة حقيقية لي كمراسل متجول.

وبحلول عام ١٩٦٤، قرر هشام أبو ظهر إصدار «المحرر» يومياً. في ذلك الوقت بالذات حصلت على منحة من «مؤسسة طومسون» البريطانية، وهي مؤسسة أنشأها لورد طومسون، صاحب جريدتي «التايمس» و«سكوتسمان» حينئذ، وعدد من محطات التلفزيون والإذاعة، في كل من بريطانيا وكندا. وكانت مهمة المؤسسة تدريب صحافيين وإذاعيين وتلفزيونيين من العالم الثالث في دور الاعلام البريطانية. وكنت أول صحافي عربي ينال هذه المنحة. واغرتني «مؤسسة طومسون» بالسفر مجدداً إلى بريطانيا.

فقبلتها ورشحت غسان كنفاني لتولي رئاسة تحرير «المحرر» اليومية. وكان غسان مؤهلاً أكثر مني لتولي المشروع الجديد، بحكم التزامه السياسي والحركي، وأقرب مني إلى السياسة الناصرية التي عبرت عنها «المحرر» في حينه.

■ انكلترا

سافرت في مطلع عام ١٩٦٤، إلى انكلترا لمدة ستة أشهر تقريبا. في كارديف عملت في جريدة «الوسترن ميل» المسائية التي يملكها طومسون لمدة ثلاثة أشهر، إلى جانب المحاضرات والاختبارات العملية التي كانت تعدها المؤسسة. وبعدها عدت إلى لندن، حيث عملت لمدة شهر واحد في «الديلي ميرور» ولشهر بعدها في «الصنداي تايمز». وعدت في صيف عام ١٩٦٤ إلى بيروت مراسلاً لجريدة «الديلي ميرور» في الشرق الأوسط. ولم تستمر مراسلتي أكثر من أشهر قليلة لأن «الديلي ميرور» لم تكن تهتم بالرسائل السياسية التي كنت أبعث بها، قدر اهتمامها بنوع معين من التغطية الإخبارية ـ الاجتماعية التي تعني القارىء البريطاني. وفشلت في مهمتي وتركت. بالطبع، أتاحت لي هذه الفرصة الاطلاع على الصحافة البريطانية عن قرب، وتعلم الكثير من أساليبها وتقاليدها المهنية.

مع عودتي إلى بيروت في العام ١٩٦٤، عملت لبضعة أشهر محرراً للشؤون العربية والثقافية في جريدة «الجريدة»، التي كان يصدرها جورج نقاش صاحب جريدة «الأوريان»، وكان يرأس تحريرها باسم الجسر. وكان جورج نقاش خصم والدي السياسي والصحافي أيام الانتداب الفرنسي، إنما كان رفيقه وزميله، وكانت الخصومات في ذلك العصر، خصومات حضارية. فرحب بي جورج نقاش، وكنت العربي ـ الأنكلوسكسوني الوحيد في مؤسسة لبنانية فرنكو فونيه. وبقيت في الجريدة حتى نهاية عام ١٩٦٤.

في هذه المرحلة، عملت وكتبت في صحف عدة ولفترات متقطعة، فإلى جانب عملي في «الجريدة»، عملت كمحرر اقتصادي في «النهار»، وفي جريدة «السياسة» التي كان يصدرها عبدالله اليافي رئيس وزراء لبنان الأسبق، ويرأس تحريرها أسعد المقدم، وفي «الأسبوع العربي» التي كان يرأس تحريرها ياسر هواري. إلى جانب غيرها من المطبوعات التي غابت عن الذاكرة. وانتهت المرحلة الأولى من حياتي الصحافية بعرض جاءني من كامل مروة في «الحياة».

■ «الحياة»

في ذلك الوقت، كان كامل مروة صاحب «الحياة» يبعث لي بالأخبار بواسطة مجموعة من الأصدقاء عارضاً علي العمل معه. وكنت أرفض لاعتراضي على خط «الحياة» السياسي في حينه. فقد كنت معارضاً لانفصال سورية عن مصر، وكان هو مؤيداً له، وكنت ناصري النزعة والتوجه، وكان هو معارضاً لهذا التوجه.

وذهبت متردداً لمقابلة كامل مروة، لانني كنت على خلاف كبير في الرأي السياسي معه. ففي تلك الأيام كنت محسوباً على من يسمّون بـ «التقدميين»، وكان هو محسوباً على من يسمّون بـ «الرجعيين». في اللقاء الأول اصطدمنا. وفي اللقاء الثاني اختلفنا. وفي اللقاء الثالث اتفقنا. وقبلت عرض العمل في «الحياة»، على أن أتولى مسؤولية تحرير الشؤون العربية والدولية، مع كتابة تعليق يومي في الصفحة الأخيرة، غالبا ما كان في القضايا العالمية. واستمرت زاوية «مع العالم» يومياً من غير انقطاع حتى تركت «الحياة».

عملت مع كامل مروة قرابة السنتين وكان له فضل أساسي في تكوين شخصيتي الصحافية. فعندما تم الاتفاق على العمل معه، كان شرطي الأساسي، أن لا يتدخل إطلاقا في أي شيء اكتبه، وخاصة المقالات او التعليقات الموقعة. والتزم كامل مروة بهذا الشرط حتى آخر يوم من حياته، ولم يحاول قط الاطلاع على أي مقالة لي قبل دفعها إلى المطبعة. على الرغم من معرفتي، عن طريق الزملاء، بالعديد من الاعتراضات التي كانت تصله من قراء «الحياة» التقليديين على ما أكتبه. ولم ينقل لي احتجاجاً واحداً. وعلينا أن نتذكر أن «الحياة» في الستينات، كانت جريدة تقليدية ومحافظة بالمعنى السياسي إلى أبعد الحدود، وكنت شاباً «غير تقليدي» وصحافياً يحمل أفكاراً «تقدمية»، لا تتناسب مع هكذا جريدة.

وعلّمني كامل مروة معنى حرية الرأي، وأنه من الممكن في الصحيفة الواحدة، مهما كان اتجاهها السياسي، أن تجد مجالاً لحرية التعبير بين محرريها. صحيح أننا كنا نأخذ بعين الاعتبار الخط العام للجريدة، لكن، والشهادة اليوم للتاريخ، كان هذا الرجل ـ وقد أصبح في رحاب الله ـ يناقشني في المقال بعد صدوره، وليس قبله. وعلمني كامل مروة أمراً آخر لعب دوراً هاماً أيضاً في صقل مفاهيمي الصحافية. كان يصر على فصل الخبر عن التعليق وضرورة احترام مصادر الخبر. كان يقول لي: «عندك زاوية فاكتب رأيك فيها ـ ولكن حذار إقحام رأيك في الخبر». إلّا ان أهم ما تعلّمته من كامل مروة، كان كيفية بناء جسر من الثقة المتناهية بين صاحب الجريدة أو رئيس التحرير وبين المحرر، من دون أن تصفها كلمات معينة أو تحددها حوافز مالية، فيصبح ولاء المحرر للجريدة ونجاحها بحجم ولاء صاحبها.

وأتاح لي كامل مروة أيضا فرصة نادرة في صحافة تلك الأيام. وهي فكرة الصحافي ـ المراسل المتجول ـ أي تغطية الحدث من موقعه، لا من وراء الطاولة ولا عبر نشرات وكالات الانباء. وكانت الحرب الفيتنامية (١٩٦٥) في أوجها. فأرسلني إلى فيتنام، وكنت فعلاً أول صحافي عربي ذهب إلى فيتنام لتغطية وقائعها يومياً، كأي مراسل حربي. وكانت «الحياة» أول جريدة عربية تقوم بمثل هذا العمل. وبقيت في فيتنام ثلاثة أشهر. اتبعتها بجولة في بلدان جنوب شرق آسيا، وكانت تجربة رائدة لم تتكرر. وعدت إلى بيروت قبل اغتيال كامل مروة بأسبوع واحد. وظلت «الحياة» ـ ومعها شقيقتها بالإنكليزية «ديلي ستار» تنشران تقاريري وتعليقاتي عن فيتنام وجنوب شرق آسيا بعد موت كامل مروة بحوالي شهر، وكأن شيئاً لم يتغير.

لكنني ادركت فور اغتيال كامل مروة في ١٦ أيار عام ١٩٦٦، بأن «الحياة» تغيرت، ولن تبقى «الحياة» التي عرفتها وأحببتها وأتاحت لي كل هذه الفرص، في غياب صاحبها. فقدمت استقالتي بعد أربعين يوماً، وودعت الخندق الغميق وشارع الغلغول إلى غير رجعة. لقد كان شعوري بالفاجعة والخسارة الشخصية أعمق من أن أفسره او يفهمه أحد. وكانت نهاية المرحلة الثانية من حياتي الصحافية.

■ «النهار»

في جريدة «النهار» عملت عشر سنوات كاملة. وكنت أعرف غسان تويني أيضاً عن طريق صداقة والده لوالدي. وكان هناك صداقة تاريخية معروفة جمعت «نهار» جبران تويني و«قبس» نجيب الريس في الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن. وكان جيله اقرب إلى جيلي من سعيد فريحة وجورج نقاش وكامل مروة. وأذكر أن أول لقاء معه كان عام ١٩٥٥، وكان هو في أوج شبابه الصحافي والسياسي. كنت تلميذاً في «مدرسة برمانا العالية»، ورئيساً للنادي الثقافي العربي فيها. وكنت معجباً كثيراً به. فدعوته إلى إلقاء محاضرة في المدرسة عن فؤاد سليمان. وكان فؤاد سليمان كاتباً وشاعراً لبنانياً يكتب في «النهار»، وكنت من أنصار كتاباته.

لذلك لم يكن مستغربا أن يعرض عليَّ غسان تويني الالتحاق بـ «النهار» بعد وفاة كامل مروة. وكانت قد تكونت لي سمعة مهنية معقولة في «الحياة»، وكان غسان تويني يريد أن ينتزع دور «الحياة» العربي في الصحافة اللبنانية. وقد كانت «النهار» في ذلك الوقت جريدة لبنانية صرف، فأراد محرراً عربياً غير لبناني وصحافياً ذا ثقافة إنكليزية مقابل معظم محرري «النهار» اللبنانيين ذوي الثقافة الفرنسية. وكانت هذه المواصفات تنطبق عليَّ. وبالطبع، فإن غسان تويني كان شخصية تختلف كليا عن كامل مروة. كان لاعباً أساسياً في السياسة اللبنانية، وكانت اهتماماته العربية ضيقة ومحدودة، ومعرفته بالعالم العربي ضئيلة، بعكس كامل مروة، إلا انه كان رجلاً مثقفاً وقارئاً جيداً صاحب عقل مستنير وحاسة صحافية نادرة. يطرب للأفكار الجديدة والجريئة ويتقبل النقد برحابة صدر واسعة، ويهيم بالمغامرة الصحافية. إلى جانب كونه صاحب أسلوب متميز في الافتتاحية السياسية، إلا أن أهم جانب صحافي فيه، والذي بنى عليه نجاح «النهار» في عصرها الذهبي بين عامي ١٩٦١ و١٩٧٦، هو في رأيي، قدرته على «قيادة» فريق صحافي من مختلف المواهب والنزعات والأفكار ليصب في خدمة جريدته. وهو قطعا أبرع «مايسترو» صحافي عرفته ومن المؤسف أنه ملَّ الصحافة وهام بالسياسة، فخسرته الصحافة، ولم تربحه السياسة.

في جريدة «النهار»، بدأت محرراً في القسم الخارجي، من دون أن يكون لي دور محدد. وكان علي أن أبحث عن دور في مؤسسة لبنانية صرف، كل من فيها له قاعدة، لا يسمح لأحد بالتسلل إليها. ومن دون المساس «بمراكز القوى» الداخلية التي اشتهرت بها «النهار»، أقنعت غسان تويني بأن يتيح لي فرصة السفر إلى مناطق الاضطراب في

العالم العربي كمراسل متجول. وكان يشاركني الرأي في أن العمل الصحافي هو عمل فريق، وليس عملاً فردياً، وأنه في الصحافة لا يحل شخص محل الآخر، فالمجال واسع لأن يثبت الصحافي كفاءته من دون أن يلغي الآخر، والكتابة الصحافية عملية إبداع وإثبات للذات قبل كل شيء. وكانت الحرب بين الملكيين والجمهوريين في اليمن دائرة على أشدها. واقنعته. وكانت بداية دوري كمراسل متجول لـ «النهار» في بقاع العالم العربي التي لم يكن أحد من محرري «النهار» يريد السفر إليها. وسافرت إلى صنعاء عن طريق أسمرة وجيبوتي والحديدة، متسلحاً بخبرتي الفيتنامية. ومنذ صيف عام ١٩٦٦ حتى نهاية عام ١٩٧٠، قمت بتغطية أحداث الحرب الأهلية في اليمن الشمالي، وحرب الاستقلال ضد بريطانيا في اليمن الجنوبي.

عن طريق اليمن بدأت اهتماماتي الخليجية. وكان الخليج منطقة مجهولة كلياً من العرب، وكانت معلوماتهم عنه محدودة جداً. وبدأت بتغطية الجزيرة العربية كلها، وكنت شاهداً على عدة أحداث تاريخية فيها. عشت انقلاب الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان على أخيه الشيخ شخبوط في أبو ظبي عام ١٩٦٦. وانقلاب السلطان قابوس على أبيه سعيد بن تيمور في مسقط عام ١٩٧٠. وحضرت المفاوضات الاتحادية التي سبقت جلاء بريطانيا عن دول الخليج عبر جميع مراحلها، ورصدت تقلبات كل مؤتمر ما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧١. وصاحبت تطورات زوال المطالبة الإيرانية بالبحرين عام ١٩٧٠، واحتلال إيران لجزر الخليج الثلاث عام ١٩٧١]. وكنت أول صحافي عربي دخل سلطنة عمان عام ١٩٧٠، بعد عزلتها التي دامت ٣٨ سنة. ورافقت حرب ظفار، حيث عشت تطوراتها السياسية والعسكرية على امتداد الجزيرة العربية منذ عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٧٦.

منذ انضمامي إلى «النهار»، وملازمتي لمعظم التغييرات التاريخية التي عصفت في منطقة الجزيرة العربية والخليج، وتعرفي على أكثر شخصياتها، ازددت خبرة وثقافة. وكنت ما أن أعود من رحلة إلى الخليج أو اليمن، حتى يقع حدث دولي ما، فأجد نفسي في أول طائرة مغادرة بيروت، لتغطيته. ولم يكن لي في «النهار» مكتب صغير أجلس إليه. كنت أعود إليها بين المهمة والمهمة، كالزائر الغريب قبل أن أتوجه إلى أي بقعة أخرى من العالم.

لم تكن مراكز الاضطراب في العالم العربي فقط من نصيبي، بل شمل بقاع العالم الأخرى. كمراسل متجول لـ «النهار» كنت أول صحافي عربي وصل إلى براغ واستطاع أن يدخل إليها بعد الغزو السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا في آب عام ١٩٦٨، وبعد القرار الرسمي الذي صدر بمنع الصحافيين. وكانت «النهار» الصحيفة الوحيدة من الشرق الأوسط كله التي شكلت جزءاً من الكتيبة الصحافية العالمية التي رصدت تطورات القضية التشيكوسلوفاكية من كل زاوية ممكنة منذ اليوم الأول للغزو حتى انحسار المد الإخباري بعد أسبوعين. أكثر من خمسة عشر يوماً و«النهار» تحمل الرسالة تلو الرسالة مني، من دون أن أترك مكاناً قريباً أو بعيداً من الأزمة التشيكية لم أزره. بالقطار

وبالسيارة وبالطائرة ومشياً على القدمين. وبعد سنة تماماً من الغزو السوفياتي، عدت إلى براغ مرة أخرى، لأشهد ذكرى مرور عام على غزو قوات حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا، والتطورات السياسية التي نشأت.

بعد يوم واحد من انقلاب اليونان العسكري في نيسان عام ١٩٦٧، كنت في أثينا. وجدت نفسي الصحافي العربي الوحيد بين ٣٠٠ صحافي، متوسط أعمارهم ٤٥ سنة، ومتوسط خبراتهم المهنية ٢٥ سنة، وكنت أصغرهم سناً وأقلهم خبرة، والوحيد الذي يكتب العربية. الانقلابيون قطعوا خطوط البرق والتليفون، وفرضوا رقابة على كل الرسائل والتحركات الصحافية. استطعت أن أقنع جو الكس موريس مراسل جريدة «تايمز» الذي كان يتأهب لمغادرة أثينا إلى بيروت مع زوجته بأن يحمل لي رسالتين إلى «النهار». وكانت بداية الغيث. في أثينا، قابلت جورج باباندريو (والد اندرياس باباندريو) رئيس الحكومة السابق، التي تسببت بالانقلاب العسكري، في سجنه، وركبت في طائرة شحن مع أحد أنصاره أقلعت مرتين من أثينا، في طريقها إلى سالونيكي معقل باباندريو السياسي. فقد أصابها عطل وهي في الجو، فعادت من حيث أتت، ووصلت سالمة.

تغطية أحداث قبرص عبر تقلباتها ومؤتمراتها وانقلاباتها كانت من نصيبي لعدة سنوات. كذلك رومانيا، الدولة الوحيدة التي لم تشارك بقوات كجزء من حلف وارسو في غزو تشيكوسلوفاكيا. كنت في بوخارست لتغطية زيارة ريشارد نيكسون في آب عام ١٩٦٩، التي اعتبرت زيارة أول رئيس أميركي لبلد شيوعي منذ زيارة الرئيس فرانكلين روزفلت ليالطا قبل ربع قرن من ذلك الوقت، وبعدها لتغطية اجتماعات المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الروماني، الذي اعتبره المراقبون الدوليون أخطر اجتماع للحزب الشيوعي خلال ٢٥ سنة من توليه الحكم. وكنت أول من كتب في الصحافة العربية من داخل رومانيا عن حكم تشاوشسكو وسياسته وعلاقاته الخارجية المختلفة.

من بوخارست إلى بلفاست، ومنها إلى لندندري، مركز الاضطرابات التي اشتعلت في أولستر ومن لندندري كتبت إلى «النهار» عن الحرب الأهلية التي تمزق إيرلندا الشمالية، والصراع الدامي الذي يبدو أن لا نهاية له بين الأكثرية البروتستانتية والأقلية الكاثوليكية، وذلك في العام ١٩٦٨. هذا فضلاً عن تغطية الانقلاب العراقي ضد حكم الرئيس عبدالسلام عارف عام ١٩٦٨، ورحلات عدة إلى أثيوبيا والصومال والجنوب اليمني في حضرموت بين المكلا وسيؤون وشيبان بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٠.

مع مرور الوقت علمتني «النهار» ضرورة استنباط أفكار جديدة، تتيح لي مجال التحرك والتقدم. وخرجت بفكرة «ملف النهار»، انطلاقاً من فكرة صحافية بسيطة، هي إصدار عمل صحافي أخباري موسع لا تتسع له الجريدة اليومية، بل يكون كالجريدة في متناول العدد الأكبر من القراء. وكانت الفكرة أن لا يكون الملف كتاباً أو مجلة، بقدر ما يكون مرجعاً صحافياً، يعايش الأخبار، ويكمل الأنباء، ويعاصر الأحداث؛ وبالتالي يكون مؤهلاً للحفظ. وكان الهدف أن يصدر الملف ويصل إلى القارئ، إثر وقوع الحدث مباشرة. ولم

يكن هنـاك توقيت لصـدوره إلّا وقوع الحـدث واختياره. وأذكـر أن «ملف النهار» الأول صدر في تشرين الأول عام ١٩٦٧، وكان موضوعه تشي غيفارا، الذي كـان قد قتـل قبل أيام في بوليفيا. وصدر من هـذا الملف ثلاث طبعـات، بلغت ٢٠,٠٠٠ نسـخة. وهـذا رقم قيـاسي في أي زمن. وكان «ملف النهـار» يصدر بمعـدل مرتـين كـل شهـر. واستمـر في الصدور حتى بداية الحرب اللبنانية عام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦.

«ملف النهار» كان بداية بذرة فكرة تأسيس شركة خارج «النهار» الجريدة، تتـولى تنفيذ أفكار ومشاريع عديدة لا تتسع لها عادة أي جريدة. كمـا كان بـداية تجـربتي في عالم النشر. فتـأسست «شركة النهـار للخدمـات الصحافيـة» عام ١٩٧٠، وتـوليت إدارتهـا العـامة. وكـانت «الخدمـات الصحافيـة» تُعنى في الدرجـة الأولى بالعـلاقـات العـامـة والمطبوعات الخاصة التي كان أهمها «النهـار آراب ريبورت» An-Nahar Arab Report الذي كان أول نشرة من نوعها تصـدر بالإنكليـزية في العـالم العربي وتـوزع عن طريق الاشتراك فقط، تنشر أسبوعيا الأخبار والتعليقات والمعلومـات الخاصـة غير المتـوفرة في أي مطبوعة أخرى إلى جانب سلسلة كتب دورية بالإنكليزية عن أحداث الشرق الأوسط. واستمرت هذه النشرة بالصدور أيضاً حتى العام ١٩٧٦، حيث دمجت بمطبوعة أخرى، ثم توقفت عن الصدور.

وإذا مـا سئلت ما هي حصيلـة عشر سنوات كـاملة من العمـل الصحافي في «النهـار»، فـأقول بـلا تردد، إن هـذه السنوات العشر (١٩٦٦ ـ ١٩٧٦) كـانت «العصر الذهبي» للصحافة العربية لا اللبنانية فقط، وإنني كنت من جيل المحظوظين الذين عـاشوا هـذا العصر وعملوا في صحافته. وإن «النهار» وفرت لي مجموعة تجارب وفـرص صحافيـة ما كان يمكن أن تتوفر لي في مكان آخر، والفضل في ذلـك يعود إلى رجـل واحد فقط اسمـه غسان تويني، مهما اختلفت فيما بعد المواقع المهنية لكل منا، وفرقت الحرب اللبنانية في المواقف السياسية بيننا، وجرفت ظروف الحياة كلاً منا إلى هموم متبـاعدة. كـان للعمل مع غسان تويني نكهة التحدي الذي لا يُجارى. وكان للسفر معه متعة تطول أطـول من الرحلة نفسها، وتخزن في سجل الذكريات التي لا تنسى.

أهم ما خرجت به من «النهار» هو ثروة من الأصـدقاء والـزملاء تشكلت لي فيهـا خلال عقد كامل من الزمن. أسماؤهم كثيرة ولا تحصر. ربما بعضهم لا يريـد أن يعتبرني من الأصدقاء، والبعض الآخر لا يريد أن يُحرَج بصداقتي. وكانت نهاية المرحلة الثالثة من حياتي الصحافية.

■ «المنار»

مـع بدايـة الحرب اللبنـانية عـام ١٩٧٥، بدأت أفكـر بالخـروج من لبنان. وأخـذ حلم إصدار جريدة عربية من لندن يـراودني. أما لمـاذا لندن، وليس بـاريس أو روما مثـلاً، فأقول إنها محض مصادفة جغرافية. فأنـا أعرف لنـدن بحكم خلفيتي، كخريـج إحدى

جامعاتها، ومتدرب في صحفها، وأجيد لغتها؛ وليس هناك سبب آخر. ربما لو كنت أجيد الفرنسية أو كنت من ذوي الثقافة الفرنسية، لوجدت نفسي في باريس. وفعلاً كلفت شركة «أيكونوميست انتليجنس يونيت» Economist Inteligence Unit التابعة لمجلة «الأيكونوميست»، والمختصة بأبحاث ودراسات الأسواق بإعداد دراسة عن جدوى إصدار جريدة يومية بالعربية من لندن. وغامرت في حينه بمبلغ كبير من المال ثمنا لهذه الدراسة.

المهم أنني تمكنت من إقناع مجموعة من الشباب الصحافيين بدخول هذه المغامرة معي، على أساس أنه أول مشروع شراكة تعاوني بين العاملين فيها في الصحافة العربية، وأول مشروع قومي في الصحافة العربية، بمعنى أن فيه السوري واللبناني والفلسطيني والمصري والسعودي وغيره وغيره، يصدر جريدة عربية قومية الاتجاه، لا جريدة قطرية، سورية أو لبنانية أو مصرية مثلاً. وفي أواسط عام ١٩٧٦، أتينا إلى لندن مسلحين بكل ما كان لدينا من أموال زهيدة في بيروت، وما تلقيناه من تعويضات، وما ادخرناه، وبدراسة «الأيكونوميست» الميدانية. واليوم بعد مرور حوالى ١٥ سنة على هذه التجربة، يكتشف المرء كم كانت الدراسة مليئة بالفجوات والأخطاء، وكم كان المال الذي معنا قليلاً بل تافهاً. وكان معظمنا في ذلك الوقت في العشرينات والثلاثينات من العمر، وكنت أكبرهم سناً. وبدأنا الإعداد لإصدار «المنار».

وصدرت «المنار» في ٢٨ تشرين الأول عام ١٩٧٧، وكانت أول جريدة عربية اسبوعية تصدر من أوروبا، وسط صحراء مهنية مقفرة. بمعنى أنه لم يكن هناك في لندن آنذاك مراكز لصف الأحرف وتنضيدها، كما هو اليوم بالمئات، ولا مؤسسات لتوزيع الصحف وتسويقها كما هو اليوم أيضاً بالعشرات، ولا شركات للإعلان يهمها جريدة عربية، ولا غيرها من المراكز المهنية التي نعتبرها اليوم من البدهيات في الحياة الصحافية العربية في لندن.

وصدرت «المنار» بضجيج لم يتوفر لأي صحيفة عربية حتى الآن. ولما كان معظمنا من خريجي مدرسة الصحافة اللبنانية الليبيرالية، أردنا ممارسة قدر كبير من الحرية في الكتابة ومن الموضوعية في الخبر والتعليق، مما جعلنا على امتداد سنة كاملة مدار أخبار الصحافة البريطانية ووكالات الأنباء العالمية التي كانت تتناقل عنا باستمرار خبطاتنا الصحافية وأخبارنا الخاصة. وبكل تواضع استطيع الادعاء بأنه ليس هناك صحيفة عربية عاشت مثل هذا العمر القصير، وحققت هذه النجاحات الصحافية الباهرة. وليس هناك صحيفة عربية استطاعت أن تستقطب على صفحاتها مجموعة من الأقلام الصحافية الشابة التي اشتهرت فيما بعد ولعبت أدواراً مختلفة في الصحافة العربية في أوروبا.

وكثيراً ما كنت أُسأل عند صدور «المنار»: لماذا «المنار» وليس «القبس»؟ لماذا لم تحمل هذه الجريدة اسم القبس»، وهو اسم التصق بي طوال حياتي، بل حملت اسم «المنار»، وهو اسم - يبدو للوهلة الأولى - ان لا علاقة لي به؟

الجواب يكاد يكون صعباً وسهلاً في آن واحد. إنه صعب، من حيث إنه يعني الانتماء العاطفي والالتزام التراثي لاسم «القبس». وهو سهل، من حيث إنه يعني أن استمرارية الاسم ليست هي القصد، بقدر ما هو القصد من استمرارية الانتماء إلى تراث هذا الاسم ومعانيه.

لقد كانت الصعوبة تكمن في اتخاذ القرار الواقعي بأن «القبس» انتهت بوفاة نجيب الريس عام ١٩٥٢. وبذلك انتهى دورها الوطني والسياسي والمهني الذي أدته كما أرادها صاحبها أن تؤديه بكل صدق وأمانة وشرف. و«القبس» التي أصدرها نجيب الريس في دمشق عام ١٩٢٨، والتي توقفت عن الصدور نهائياً عام ١٩٥٨ مع العدد الآخر من الصحف السورية في بداية عهد الوحدة السورية ـ المصرية، كانت بالدرجة الأولى جريدة رأي. وتحديداً، لقد كانت جريدة افتتاحية صاحبها التي اشتهرت بها؛ عندما كانت الجرائد انعكاساً لأفكار أصحابها وشخصياتهم؛ وعندما كانت الأخبار مواقف هؤلاء الأشخاص من الانتداب ومن الاستعمار ومن الوحدة وأبطالها.

وإذا كان لكل زمان دولة ورجال. فلكل زمان كذلك صحافته وصحافيوه. فـ «القبس» كانت استمراراً لـ «المقتبس» التي كان يصدرها في مطلع هذا القرن محمد كرد علي، العلامة والمؤرخ ورئيس المجمع اللغوي العربي؛ بالتشارك مع شكري العسلي، أحد شهداء ٦ أيار ١٩١٤، والتي بدأ فيها نجيب الريس حياته الصحافية. ومن الممكن أن تكون «المنار» الصادرة في الربع الأخير من هذا القرن، استمراراً لـ «قبس» نجيب الريس بقدر ما هي استمرار لـ «منار» الشيخ محمد رشيد رضا في أوروبا، و«منار» بشير العوف في دمشق، و«منار» كامل ومحمود الشريف في القدس. ومن الصدف أن تصدر «المنار» بعد ٢٥ سنة تماماً من غياب نجيب الريس.

نحن في العالم لا نعرف كيف ومتى ننهي أدوارنا. ولو عرف سياسيونا متى يتقاعدون، وحكامنا متى يرحلون، وكتابنا متى يتوقفون، لوفروا على أمة العرب أعظم بلاء. هذا يسري على صحافتنا وصحافيينا. وانطلاقاً من هذا الامتناع كان لا بد من اتخاذ القرار بأن احياء اسم «القبس»، لمجرد ارتباطي العاطفي به، لا معنى ولا مبرر له، وان كرامة هذا الاسم تقتضي الحفاظ عليه في ملف التاريخ لنجيب الريس وحده، إلى أن يجيء من يكتب تاريخ الصحافة السورية والنضال الوطني السوري في النصف الأول من هذا القرن، وكما يجب أن يكتب.

لذلك، أكدت في تعريفي لـ «المنار» في عددها الأول، بأن هذه الجريدة جديدة في كل شيء إلا في قيمها التي هي أرثها من ماضي «القبس» المشرف. وأنها «ليست بديلاً عن صحافة الوطن العربي. بل استمرار لها وامتداد لتراثها، تؤدي رسالة مهنية مختلفة ولو أنها متممة لها». لقد كنت أعني، تحديداً، أن «المنار»، كما نطمح بها ونريدها، هي امتداد للصحافة السورية ـ اللبنانية، عندما كانت الصحافة السورية ـ اللبنانية جسماً واحداً في الربع الثاني من هذا القرن. وكنت أعني، تحديداً، أن «المنار»، كما نسعى إليها ونعمل لها، وبحكم انتماء أكثر العاملين فيها إلى هذين البلدين، هي انبعاث جديد لقيم

«ألف باء» في شخص يوسف العيسي. و«الأيام» في شخص نصوح بابيل. و«فتى العرب» في شخص معروف الأرناؤوط صاحب «سيد قريش». و«النصر» في شخص وديع صيداوي. و«المضحك المبكي» في شخص حبيب كحالة.

ليس هذا فقط. كنت أعني أن «المنار» كما نطمح إليها ونصورها، هي أيضاً جزء من تراث جبران تويني في «الأحرار» و«النهار»، ومحي الدين نصولي في «بيروت»، ويوسف وأسعد عقل في «البيرق»، وميشال زكور في «المعرض»، وميشال أبو شهلا في «الجمهور»، وكامل مروه في «الحياة»، وسعيد فريحة في «الصياد»، كما هي جزء من تعاظم انجازات الصحف اللبنانية والسورية التي حررها شباب «المنار» خلال حياتهم المهنية.

لذلك، فإن «المنار» لا تصدر في فراغ تاريخي، ولا في أرض بور، ولا من جذور ضحلة. هي في هذا المعنى، جريدة «محافظة» وجريدة «تراثية» وجريدة «ملتزمة»: محافظة في انتمائها التاريخي، وتراثية في استمراريتها الزمنية، وملتزمة في قيمها المهنية. وكون «المنار» تصدر من لندن، لا يجعلها أبعد عن الوطن العربي وهمومه أكثر من الصحف الصادرة في عواصم هذا الوطن، بقدر ما يجعلها ـ بحكم العامل الجغرافي ـ أبعد رؤية وأكثر حرية وأقدر على الحركة. لقد تغير الزمان، لكن القيم لم تتغير.

وواجهت «المنار» منذ أعدادها الأولى غضب الأنظمة العربية. كنا مهووسين باستقلاليتنا وفهمنا المجرد للصحافة الذي مارسناه في عصر الليبيرالية الصحافية الذهبي في لبنان، وأردنا امتحانه في بلد الحريات الصحافية، في بريطانيا. وبدأت الأنظمة العربية تضع العراقيل في وجهنا وكان أبسطها الرقابة والمصادرة والتأخير، إلى جانب الحصار الإعلاني والاقتصادي. إلى أن جاء يوم تبخر فيه رأس المال المتواضع وشحت الموارد. وبدأت الديون تنهش «المنار». ووجدنا أنفسنا أمام أحد أمرين: إما أن نبيع الشركة بخسائرها لأحد المتمولين ـ إن وجد ـ أو أن نُقفل الدكان. واخترنا الحل الثاني. لقد فضلنا إقفالها بشرف، وأن يتوجه كل واحد منا إلى بيته. وما زال شباب «المنار» يعملون في مؤسسات صحافية في لندن وغيرها حتى الآن.

قبل صدور «المنار» بسنة كاملة، كنت أصدر مطبوعة أسبوعية بالإنكليزية باسم Arabia And The Gulf «أرابيا اند ذي غلف»، متخصصة في شؤون الخليج والجزيرة العربية، توزع عن طريق الاشتراك. وكانت أنجح المطبوعات من نوعها، ومربحة اقتصادياً إلى حد كبير. وعند إقفال «المنار» في صيف عام ١٩٧٨، اضطررنا إلى بيعها لتسديد جزء من الديون المترتبة علينا. وكانت نهاية المرحلة الرابعة من حياتي المهنية.

■ «المستقبل»

وورثت بعد إقفال «المنار» كل كلفتها من ديون وهموم وأعصاب، كان عليّ أن أعمل. لقد تعودت طوال حياتي المهنية أن أشغل نفسي دائماً. إذ لم يكن هناك مَنْ يُشغِّلني. فلجأت إلى تجربتي في النشر، وبدأت العمل في النشر التجاري: كتباً ومطبوعات سياحية

ونشرات إعلامية، لكي أجفف مستنقع الديون الذي وقعت فيه، مما أعانني فترة كبيرة من الزمن، حققت فيها نجاحاً لا بأس به في هذا المجال وزادني خبرة في صناعة الكتاب وفن وأصول العلاقات الإعلامية. في هذه المرحلة، كانت مجلة «المستقبل» تصدر في باريس، فعرض عليَّ الصديق والزميل نبيل خوري الكتابة فيها. فبدأت بكتابة مقال أسبوعي في «المستقبل» كزاوية ثابتة بعنوان «الفترة الحرجة»؛ عالجت فيه معظم الأحيان قضايا خليجية، وتابعت عبره تطورات الخليج العربي المستجدة، كما تابعت سفري واتصالاتي واهتماماتي في منطقة الخليج كلها، وقد انعكس هذا أسبوعياً في زاويتي في «المستقبل». واستمرت كتاباتي فيها من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٦، إلا أنني منذ عام ١٩٨٤ بدأت أقلّل من مساهماتي في «المستقبل»؛ حيث بدأ هامش حرية الكتابة يضيق أكثر فأكثر مع مرور الوقت، وقدرت أنه قد حان الوقت لأتوقف عن الكتابة في «المستقبل» قبل أن تتوقف هي عن الصدور. وهذا ما حصل فعلاً. وأدركت أن الحياة المهنية لكل منا لها مراحل لا نحددها بتواصل زمني، ولكن بفواصل نفسية يقررها واقع الظروف. فكرة تستهويك فتنفذها، ثم تمل منها. عمل ينضب معينه، فتستنبط عملاً آخر يحل محله، وهلمجرا... وكانت نهاية المرحلة الخامسة من حياتي المهنية.

■ الأحلام

كثيراً ما أُسأل عن دوافعي الحقيقية للهجرة إلى لندن والدخول في مغامرة صحافة عربية بعيداً عن العالم العربي. ولا أملك جواباً واحداً. إلا أنني أذكر حواراً جرى عندما كنت في البحرين، كان الغزو الإسرائيلي للبنان قد دخل أسبوعه الثاني في منتصف حزيران عام ١٩٨٢. وكنت قد التقيت بزميل بحريني شاب امتهن الصحافة منذ فترة قصيرة وحمل عند امتهانه لها كل مثاليات وطموحات وأحلام تلك المهنة. جاء لعندي لأنني كنت أمثل فرداً من أفراد ذلك الجيل الصحافي المخضرم الذي عاش الصحافة، ومارسها في عزها وفي انحدارها كما قال لي. وكانت زيارته في أحلك فترات السقوط العربي.

جاء ليسألني ببساطة عن سوء حال الصحافة العربية، وقد بدأت بعض المرارة تتسلل إلى قلبه وبعض الخيبة تتخلل كلامه، وهو يشاهد التلفزيون ينقل صور الحرب ساعة بعد ساعة بواسطة وكالات الأنباء الغربية، ويقرأ ما يكتبه المراسلون الأجانب المتواجدون في بيروت عن حرب إسرائيل في لبنان في الصحافتين الأوروبية والأميركية، من دون أن يقرأ قلماً عربياً واحداً أو يشاهد صورة عربية واحدة.

قلت له: «ان حال الصحافة العربية سيىء لأن الواقع السياسي العربي سيىء. والصحافة لا يمكن أن تعيش خارج الاطار السياسي الذي يحيط بها. فإذا أحاطت الحرية بالصحافة العربية فهي صحافة حرة. وإذا أحاطت بها الديموقراطية فهي صحافة ديموقراطية. وإذا أحاط بها الطغيان فهي صحافة خانعة. وإذا أحاط بها الارهاب فهي صحافة جبانة. وإذا أحاط بها السوء فهي صحافة سيئة».

ويبدو أن اجابتي لم تقنع الزميل البحريني الشاب، فسألني بمزيد من اللهفة، وكأنه يريد أن ينزع الشك الذي بدأ يتسرب إلى أحلامه: ولكنكم أنتم الصحافيين العرب الذين هاجرتم إلى أوروبا، ألم تفعلوا ذلك طلباً للحرية، وتحقيقاً لحلم كان قد أصبح صعب التحقيق في لبنان في ظل الحرب الأهلية وممارساتها؟

قلت له، من دون أن أحاول التخفيف من فجيعته: «هاجر بعضنا، إن لم يكن أكثرنا، وهم يحملون حلماً وطموحاً ووهماً.

«الحلم: أن نصدر صحافة عربية حرة في أوروبا بعيدة عن الضغوط السياسية والأحقاد الحزبية والارهاب السلطوي.

«الطموح: أن نصدر صحافة عربية فيها شيء من نَفَس الرواد الأوائل من الذين هاجروا من بلدانهم في المشرق العربي إلى مصر وأوروبا في نهاية القرن التاسع عشر - مطلع القرن العشرين، كرشيد رضا وشكيب أرسلان ومحمد عبده وأحمد فارس والشدياق ورفاعة الطهطاوي وعبد الرحمن الكواكبي، وعشرات غيرهم ممن هم أقل شهرة تاريخية. بل أن يكون فيها شيء من استمراريتهم، ومحاولة تقليدهم في أحيان كثيرة.

«الوهم: أن نصدر صحافة عربية في أوروبا بأسلوب متميز وصادق، وبحرفية مهنية لا تستهين بذكاء القارىء، ولا تستخف بعقله، وبحرية حُرمت من ممارستها في بلادها الأصلية.

«ماذا كانت النتيجة؟ تحقق الحلم باصدار صحافة عربية في أوروبا من غير حرية ومع كل الضغوط التقليدية التي تمارس في العالم العربي. وفشل الطموح، لأن الصحافة العربية لم تكن استمراراً تاريخياً للرواد الأوائل من النهضويين الذين كانوا رواداً للحرية. وانهار الوهم، لأن الصحافة العربية التي صدرت في أوروبا، لم تكن افضل حالاً من الصحافة التي تصدر في اي بلد عربي. كل ما في الامر أنها أصبحت تحرر من عواصم أوروبية وتشحن إلى العالم العربي بشروط وأسعار العالم العربي نفسه».

وكأن زميلي البحريني لم يقتنع من اجابتي، فكرر ملحاً السؤال: لكن لماذا؟ كيف؟

أجبته، محاولاً التخفيف من وقع صدماتي المتلاحقة: «اسمح لي أن أعود إلى الوهم الذي تبخر. كان الوهم بأن مجرد صدور صحافة عربية في أوروبا سيتيح لها حرية غير موجودة في بلادها وحماية غير متوفرة هناك. إلا انه اتضح أن هذه الصحافة إذا أرادت أن تصل إلى العالم العربي فلا بد من أن تتعامل مع أجهزة الاعلام العربية، وأن تخضع للمقاييس العربية السائدة والتي هي ضد كل ما هو حرية أو نقد او رأي مستقل غير معلب. فالأنظمة العربية إن لم تكن معها، فأنت ضدها. إن اي وزير اعلام عربي يستطيع أن يخضعك لهذا التصنيف الجدلي ذي اللونين الأسود والأبيض.

«إلا أنها لم تكن المشكلة الوحيدة التي واجهت الصحافة العربية في أوروبا. فالأنظمة لم

تعد تكتفي منها أن تكون حيادية أو موضوعية أو حتى تشجيعية في مواقفها. بل طالبت وتطالب بأن تكون منحازة انحيازاً كاملاً إلى وجهة نظرها. وإذا أخذت بعين الاعتبار أن هناك ثلاثاً وعشرين وجهة نظر عربية مختلفة، أدركت صعوبة هذا الأمر، وكم من معجزة تحتاجها لاجتراح هذا الموقف. فكان سيف الترهيب يسلط عندما يفشل سيف الترغيب.

«لذلك، كانت الصحافة العربية المهاجرة أمام خيارين: إما أن تُرضي كل الأنظمة العربية، وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً؛ وإما أن تصبح ادارة سياسية اعلامية في يد هذا النظام أو ذاك، وهذا أمر ممكن وخيار مفتوح. يبقى خيار ثالث وهو أن تصدر بحرية نسبية معقولة، وأن تمارس مصداقية مهنية محتملة، وهذا أمر شاق ومضنٍ ومرفوض من أكثر الأنظمة. لذلك، لم يكن أمام الصحافة العربية المهاجرة إلا أن تموت جوعاً. ولأن حب البقاء هو أقوى غرائز الإنسان، فقد قررت صحافتنا أن تموت شبعاً».

اكملت جوابي وتطلعت في زميلي الشاب محاولاً أن أخفف عليه من غلواء اجابتي، عندما بادرني بشيء من الهلع بالسؤال: لكن ما البديل؟

أجبته، بصوت أوشك أن يكون همساً: «الحرية. لا يمكن انقاذ الصحافة العربية إلا بعودة الحرية إليها. لا حرية ـ لا صحافة. صحيح أن هناك صحفاً جيدة وانيقة، وأقلاماً تكتب دون أن تجرح أو تدمي. لكن كل هذا لا يكفي. لنوقف الكذب الاعلامي. ليس هناك أكثر من تعريف واحد للحرية الصحافية: الحرية».

«هي الحرية، مهما أدخل عليها من مصطلحات كالحرية المسؤولة أو المنضبطة أو المقننة أو النسبية. كل هذه المصطلحات تساهم في وأد الحرية، فتوصلنا إلى ما وصلنا إليه. لذلك يجب أن يتوقف الكذب على الحرية باسم الحرية. يجب الاعلان جهاراً أن لا حرية للاعلام العربي إلاّ من خلال مفاهيم كل نظام لها. وليس هناك فضل لنظام عربي على آخر في مفهومه للحرية.. الكل يمتازون بتفسير واحد لحدود القوانين الصحافية والممارسة الاعلامية في العالم العربي لا تصدق أنه يمكن للصحافة إلا أن تكون ابنة بيئتها. فكما تكونوا يُوَلّ عليكم. وكما تكن أنظمتكم تكن صحافتكم».

وما زال زميلي البحريني يعمل في الصحافة.

■ الأدب

بدأت حياتي الكتابية شاعراً، وبدأت حياتي المهنية محرراً ثقافياً. بين الدراسة وأول خطوة خطوتها في الصحافة كانت الثقافة. أيام الدراسة في إنكلترا، كنت أبعث برسائل عن الحياة الأدبية في بريطانيا ومراجعات لدواوين من الشعر الإنكليزي صادرة حديثاً إلى مجلة «شعر» ومجلة «الأديب». كان ذلك بين عامي ١٩٥٦ و١٩٦٠. كنت متابعاً جيداً للقضايا الأدبية وعاشقاً كبيراً للشعر. استهوتني صحبة عدد كبير من الشعراء

الذين قادتني الظروف للإلتقـاء بهم في مراحـل مختلفة من بـداياتي. في بـيروت، عرفت يوسف الخال وجبرا إبراهيم جبرا وعلي الجندي ومحمد المـاغوط وأنسي الحـاج وشوقي أبي شقرا وغيرهم. وفي كمبردج، حيث كنت أدرس، عرفت توفيق صايـغ وخليل حـاوي وآخرين. هذا الشغف بالشعر والشعراء جعلني على اطـلاع كشاب نـاشىء على مختلف مراحل نشوء حركة الشعر العربي الحديث، إلى جانب الحركـات الشعريـة الجديـدة في انكلترا.

وعندما بدأت حياتي الصحافية في لبنان، كنت أقوم بتحرير الصفحات الثقافيـة في أكثر الصحف التي دخلتها، إلى جانب عملي في الصحافة السياسية، التي كانت مصدر رزقي الأساسي.

وكنت شاباً مسيّساً، في إبان المد الناصري وحركات القومية والوحدة العربية. وبـالتالي، كانت الصحافة السياسية تعبيراً مباشراً عن طموحاتنـا وأفكارنـا في تلك الفتـرة. ولكن صلاتي وصداقاتي، التي كانت كلها من داخل الوسط الأدبي، ارتبطت ارتباطاً عضويـاً بحياتي الاجتماعية. فعرفت أكثر من كان يتعاطى الأدب في بيروت في الستينـات، وعشت في مجـالس الشـعر والشعـراء، وشاركت في كـل الندوات والتجمعـات، التي كانت تبحث وتنظر وتناقش في قضية الشعر العـربي الحديث بـاتجاهـاته المتعـددة، وخضت معارك أدبية على صفحات الجرائد والمجلات. فقد كنت أعتبر نفسي حينـذاك جزءاً من الشـأن الثقافي والشعري تحديداً.

وصدرت لي أول مجموعة شعريـة بعنوان «مـوت الآخرين» عـام ١٩٦٢، قدّم لهـا جبرا إبراهيم جبرا، وصدرت لي دراسـات نقدية عام ١٩٦٦، بعنوان «الفتـرة الحرجـة»، وهو كتاب يرصد الحركة الأدبية والكتّاب الجدد بين عام ١٩٦٠ وعـام ١٩٦٥. كما صـدرت لي مجمـوعة شعـرية أخـرى بعنوان «البحث عن تـوفيق صايـغ» عـام ١٩٧٥، ولكنهـا احترقت في المطبعة عند بداية الحرب اللبنـانية، ولم تـوزع. هذا، وقـد شاركت بتحـرير مجلة «حوار» مع توفيق صايغ في بدايتها، كما شاركت بتحرير مجلة «شعر» مـع يوسف الخال في نهايتها.

اتسمت حياتي المهنية بنوع من الازدواجية. العمل الصحافي الذي كان شـأناً سيـاسياً متعـدد الأطراف ومصـدر عيشي، والعمل الثقـافي الذي كـان نشاطـاً وشغفـاً في شؤون الشعر والأدب. كان طموحي أن يكون الشعر والثقافـة هما مسـاراي الأساسيـان. لكن عند النظر إلى الوراء بعد خبرة ثلاثين سنة من الممارسة المهنيـة، يتضح لي، أن ذلـك لم يكن ممكناً، لأن الصحافة مهمة لا تلتقي مـع التأليف والإبـداع والمزاج. فهي بـالوعـة تلتهم كـل المواهب، وتطحن كـل الامكانـات الإبداعيـة، وتمتص كل الكفـاءات الأدبية، لتصب في النهاية في صحيفة تتجدد يوماً بعد يوم، أو مجلة تصدر أسبوعاً بعد أسبوع. ولعل السبب الأهم أنني كنت صحافياً بالدم والوراثـة والفطرة، أكثـر مما كنت شـاعراً مبدعاً يملك أدوات الشعر وعدته أو غرور الشاعر ونرجسيتـه. لذلـك، ما زلت صحـافياً ممارساً، بينما صرت شاعراً سابقاً. إنما يبقى الشعر والأدب حبي الأول، وربما الأخير.

■ النشر

اعتدت عند كل منعطف من مراحل حياتي الصحافية، أن أقف وأسأل: ماذا بعد؟ ولما كنت لا أجيد إلا مهنة الكتابة والقراءة، ولا طموح لي خارجها، كان عليّ أن أخلق كعادتي الحيز الشاغر، وأحشر نفسي فيه. كانت بيروت عاصمة الكتاب العربي، تحترق كل يوم ومساحة الحرية المتاحة في الوطن العربي تتقلص باطراد. ولم يعد هناك للكتاب العربي وجود، كما أن عادة القراءة: قد بدأت بالإنقراض. سنوات مرت ولا أذكر أن كتاباً عربياً واحداً حديثاً قد صدر وأثار أو لفت الأنظار. وكما حلمت قبل عشر سنوات بأول جريدة عربية تصدر من أوروبا، تجدد الحلم بمغامرة جديدة؛ بإنشاء أول دار نشر عربية من لندن، تصدر الكتاب العربي من أوروبا. وكان ممكناً اقتحام هذه المغامرة اقتصادياً، فهي لا تحتاج إلى رسملة مالية كبيرة، في حين أن أي مشروع صحافي جديد يحتاج إلى الملايين.

كيف نبدأ؟ وأين نجد المؤلفين والكتاب والمواضيع؟

وجهنا إلى مجموعة كبيرة من الكتاب والأدباء والصحافيين والمثقفين والسياسيين على امتداد ساحة الوطن العربي بياناً نشرناه في الصحف، دعوناهم فيه إلى التعاون معنا في إطلاق مشروع دار نشر عربية من لندن. وقلنا إن هدفنا هو قيام دار نشر عربية تُعنى بإبداع الكاتب وحرية الكتاب معاً، في جو من حرية التعبير عن الرأي، مهما كانت اتجاهاته السياسية أو ميوله العقائدية. فالوطن العربي في أزمة يعاني منها كل من يمسك قلماً أو يرفع صوتاً أو يطلق رأياً، لا تحتاج إلى أكثر من التذكير بأنها أزمة حرية الفكر والرأي، والاجتهاد والتحليل والتعليق بجميع صورها وأشكالها. وأن الأمل أن تصبح الكتب التي نصدرها على مر السنوات منابر ومراجع لكل الأقلام والأصوات.

وعلى الرغم من أنني لست من محترفي التفاؤل، فإن ما حصل كان مدهشاً ومفاجئاً. لقد تلقيت خلال ثلاثة أشهر ما يزيد عن ٨٠ مخطوطة من ٨٠ كاتباً لا أعرفهم، وفي مواضيع تتراوح ما بين السياسة والتاريخ والمذكرات والتراثيات والأدب والشعر. وشكلت هذه المخطوطات بداية برنامجنا النشري. وكانت كلمة السحر هي الحرية.

وكنت قد قررت الالتزام كناشر بأربع قواعد:

الأولى: أن لا أنشر إلّا لكتّاب عرب وفي مواضيع عربية، وعدم الدخول في ترجمة أو نشر أي كتاب لكاتب أجنبي، مهما كانت أهميته. والسبب الأساسي هو إتاحة فرص النشر لأكبر عدد ممكن من الكتّاب العرب. فأنا لست أسير عقدة الأجنبي، وعلى قناعة تامة بأنه لو أتيح للكاتب العربي حرية الكتابة والبحث بالشكل الذي يتاح للكاتب الغربي، وخاصة في مواضيع بلاده، لقدم إنتاجاً يفوق بأهميته نتاج أي كاتب أجنبي. ورغم قراري عدم التعاطي بالترجمة، إلّا أن هناك مجموعة من الكتاب العرب، الذين يعيشون

في الخارج، ولا يكتبون العربية. فقمت بتشجيعهم على الكتابة باللغة التي يريدونها، على أن نقوم نحن كناشرين بترجمتها.

الثانية: عدم التدخل كناشرين في موضوع النص المقدم إلينا. فإما أن نقبله أو نرفضه. أي أن لا نمارس أي نوع من الرقابة على الكاتب. فالرفض أو القبول يخضع لجودة النص وأهمية الموضوع ومدى اهتمامنا به وقدرة برنامجنا النشري لسنة معينة على استيعابه.

الثالثة: الاهتمام بشكل الكتاب ورفع مستواه الإخراجي إلى مصاف الكتب الأوروبية والأميركية. فمن أهم المآخذ على الكتاب العربي أنه كتاب مهلهل الشكل سيء الورق بشع الحرف مليء بالأخطاء المطبعية وهزيل التجليد. فأصدرنا كتبنا بمواصفات الكتاب الأجنبي. فكنا أول ناشرين يصدرون كتبهم مجلدة تجليداً فنيا بغلاف صلب مع قميص خارجي. واستطعنا عن طريق الشكل الخارجي وحده أن نوصل الكتاب العربي إلى مكتبات بريطانية وأوروبية كانت ترفض من قبل استقبال الكتاب العربي.

الرابعة: اتبعنا أسلوب الناشرين البريطانيين بإنزال كتبنا إلى الأسواق بشكل موسمي. أي أن لا ننزل إلى السوق كتاباً واحداً، بل مجموعة كتب دفعة واحدة، على أساس أربعة مواسم في السنة. كتب الصيف وكتب الخريف وكتب الشتاء وكتب الربيع. والفكرة أنّ إنزال كتاب واحد يبدو ضعيفاً، مهما كان الكتاب هاماً. في حين أن إنزال حوالي عشرة كتب أو يزيد مع بعضها البعض دفعة واحدة يجعل تسويقها أسهل، حيث يسند كل كتاب كتاباً آخر. فعندما يأتي قارىء ليشتري كتاباً معيناً، سيغريه كتاب آخر لم يكن في باله أصلاً فيشتريه، وهكذا...

«الناقد»

فكرة إصدار «الناقد» كانت جزءاً من هواجس الثقافة، التي كانت وما زالت تعيش في داخلي، والحنين المزمن إلى عوالم الشعر والأدب، لا سيما بعد انقطاعي عن الكتابة في الصحافة السياسية بعدما ضاقت المنابر. لكن الدافع الأساسي وراء دخولي في هذه المغامرة المجنونة والخاسرة سلفاً، هو أنني بعد أن خضت غمار النشر بدأ «الحيوان الثقافي» يصطرع في داخلي إلى جانب «الحيوان السياسي» الذي هو أنا أصلاً، حتى انتصرت الثقافة في محاولة دمج السياسة معها في إطار عريض تمثله «الناقد» اليوم.

ولكن الحافز العملي الذي جعلني أقفز إلى هذه المغامرة، هو أنه خلال سنتين من نشر الكتب أحرزنا تراكماً محترماً من العناوين وانتشاراً لا بأس به. واتضح لي ـ ولم يكن اكتشافاً ـ أن الصحافة العربية لا تقرأ الكتاب العربي، وأن كل ما ينشر عن أي كتاب هو غالبا عن إصداره وعنوانه وموضوعه ومؤلفه وعدد صفحاته في صيغة إخبارية، تقريرية، ليس فيها حدٌّ أدنى من الجهد النقدي. وشعرت بضرورة إيجاد منبر يُعنى بالكتّاب في جو من الإبداع لا تحده إلا الحرية، ويشجع على قيام حركة نقدية جديدة في

الوطن العربي، انطلاقا من مفهوم أن الكتاب هـو القيمة الحضـارية والـرصيد الثقـافي الذي تشكله هذه الأمة.

وعندما استعرضت المجلات الثقافية الصادرة في العالم العربي، اتضح لي أن أغلب هذه المجلات، تصدر عن مؤسسات رسمية أو وزارات أو اتحاد كتّاب أو منظمـات حكوميـة. وكلما جلت بنظري في المجلات الثقافيـة الصادرة كلمـا ازددت اقتناعـا بضرورة إصدار مجلة تهتم بالكتاب ونقد الكتاب. إلى جانب أن إصدار مجلة ثقـافية يعتبـر أمراً متممـاً لنشر الكتب ودعمـاً لها، بـدأ اليوم بعـد حوالي الثـلاث سنوات يعطي مـردوده الهائـل والمشجع.

واتضح لي أن من الممكن من خلال عملية النشر المستمرة التي نخوضها أن نصدر مـجلة شهرية، وأن نغطي مصاريفها عبر ايرادات الكتب. بالإضافـة إلى أننا ننشر حـوالى ٥٠ كتاباً في السنة، فعوضاً عن ذلك نصدر ٣٠ كتاباً مع مطبـوعة شهـرية، وهكـذا صدرت «الناقد» في تموز عام ١٩٨٨.

وهناك من الظواهر في العالم العربي ما يجعلك تعيد الثقة في أمور، كنت قد فقدت الثقـة بها، وأن الدنيا العربية ما زالت بخير. فعندما عزمنا على إصـدار «الناقـد» وجهنا بيـاناً تأسيسياً، وارسلنا رسائل إلى حوالى ٤٠٠ كـاتب عربي نـدعوهم إلى المسـاهمة في هـذا المشروع الجديد. وكـانت أحلى المفـاجآت أن الإقبـال على الكتـابة في «النـاقد» فـاق كل توقعاتنا. انهالت علينا الكتابات من كل بلد وزاوية وقطر على امتداد العالم العـربي، من مشرقه إلى مغربه ومن صحرائه إلى بحره. كانت الكلمة السحـرية التي جـذبت الكاتب، كما شدت القارىء، هي قدرتنا على ممارسة الحرية من على صفحات «النـاقد». واليـوم فإن إحدى مشاكل «الناقد» أن لديها مادة صالحة للنشر تكفي، بلا مبالغة، لإصدار ٣٠ عدداً على الأقل. وبالتالي لا خوف من نقص الإبداع في العالم العربي.

المفاجاة المدهشة الأخرى أننا وجـدنا «النـاقد» وقـد قفز تـوزيعها من ٢٠٠٠ عـدد إلى ٥٠٠٠ عدد بعد العـدد الخامس وإلى ٧٠٠٠ عـدد بعد العـدد العاشر، ومن ثم أصبـح لاحقا ٨٠٠٠ نسخة، وهو الحد الاقتصادي الأعلى الذي نستطيع أن نصـل إليه. هـذا على الرغم من أن «الناقد» لا تدخل إلّا إلى ستـة أقطار عـربية فقط من أصـل ٢٣ بلداً. و«النـاقد» لا تسعى إلى الانتشـار بقدر مـا تسعى إلى التواجـد في الأقطـار العـربيـة. فالتوزيع الواسع عملية خاسرة بالنسبـة إلينا، لأن «النـاقد» لا تحمـل إعلانـاً تجاريـاً. وبالتالي، فـإن الاشتراك السنـوي هو دعـامتها الأسـاسية، وبـالتالي، فنحن نسعى إلى زيادة الاشتراك أكثر من زيادة التوزيع. وطموحنا أن يصـل مشتركـونا من المئـات إلى الآلاف خلال السنوات المقبلة. وإذا شئت أن ألخص ببساطة نجاح «الناقد» فهـو يكمن في قدرتها على نشر ما لا يجرؤ غيرها على نشره، لأنها تتيح لكل المواهب أن تزدهر وتبدع من دون قوالب جاهزة أو افكار مسبقة أو مواقف جـامدة من قضـايا مطـروحة. فهي لا تتدخل في عملية الإبداع إطلاقاً. إلى جانب اهتمامها بقضايا الرقابة على الكتابـة والنشر

والإعلام. إن «الناقد» تتيح للكاتب مجال أن يكتب ما يريد، وبالأسلوب الذي يـريد من دون أي توجيه، وهو أبسط ما حلمت به عندما فكّرت بإصدارها.

■ «الكشكول»

كما فكرت في إصدار «الناقد» كمجلة ثقافية تتحدث عن الكتاب وتـروج له، واعتبـرت إصدارها عملاً متمماً لعملية دار النشر، كذلـك فكرنـا بضرورة فتح مكتبـة «الكشكول»، لعرض الكتاب وبيعـه.وبذلـك يتكامـل العمل النشري: دار لنشر الكتب ومجلـة ثقافيـة ومكتبـة. وهكذا ولـدت «الكشكول» في نيسـان عام ١٩٨٩، كمكتبـة في حي أسـاسي من أحياء غرب لندن التجاري وهو «نايتسبريدج» حيث كل البيوت التجارية الهامة والكثافة العربية. و«الكشكول» مكتبة تحتوي حتى الآن على حوالي ٢٠,٠٠٠ عنوان. فتجد فيها، وتحت سقف واحد، كل كتاب أساسي صادر في العالم العـربي، من صنعاء إلى الـرياض إلى بغداد إلى دمشق، ناهيك عن المغرب العربي والقاهرة وبيروت. وتجـد فيها كـل كتاب صادر بالإنكليزية عن العالم العربي والشرق الأوسط في بريطانيـا أو الولايـات المتحدة. وهذا ما سيميزها عن غـيرها من المكتبـات المتواجـدة في لندن. وفي اعتقـادي أن لندن، والقارئان العربي والإنكليزي المتواجـدان فيها بحـاجة إلى هكـذا مكتبة. وطمـوحي أن تصبح «الكشكول» نواة نشاطات ثقافية متعددة هدفها الجمـع بين الكـاتب والقـارىء. ولكنها في النهاية مغامرة تجارية قد تربح أو تخسر. وهي ليست أول مغـامرة أخـوضـها، ولن تكون آخرها.

■ المهرجانات

في ربيـع عام ١٩٨٧، تـوفي الشاعـر يوسف الخـال مؤسس مجلة «شعـر»، الذي كـان صديقاً عزيزاً لي. فطرحت فكرة تكريمه، وهو الذي قضى فقيراً معدمـاً وصاحب أفضـال كثيرة على العديد من شعـراء اليوم. وتـراءى لي أن أفضل طـريقة لتكـريمه هي إقـامة مهرجان للشعر العربي في أمسية واحدة، دعونا إليها مجموعـة من الشعراء العـرب من مختلف الانتماءات والمدارس، يقرأ كل واحد منهم فيها قصيـدة من قصائـده، من دون أن يكون تأبينـاً له أو مـديحاً. أي أن يكـون يوسف الخـال هو الخيمـة التي تضم كل هؤلاء الشعراء، معتبراً أن إعادة الاعتبار إلى الشعـر هي أفضل تكـريم للشاعـر ـ أي شاعر. وفوجئنا بالإقبال الكبير على مهرجان الشعر العربي في حزيران عـام ١٩٨٧. فقد تجلى أمامنا فجأة ونحن في غربة المهجر أن الشعر لا يزال صناجة العرب رغم كل شيء، وأن الناس في لندن مستعدون لأن يملأوا ١٠٠٠ كرسي في قاعـة، ليستمعوا إلى الشعـر، ويصفقوا لمبدعيه، ويتفاعلوا مع شعرائه. وكان كل ذلك في ليلة واحدة، صاحبها كل هذا الضجيج.

حرك هذا العطش وتلك الحماسة للثقافة في عالم الاغتراب، شهوة المغـامرة، لإقـامة مـا

أسميناه «أسبوع لندن الثقافي العربي» في تموز عام ١٩٨٨. فأقمنا معرضاً للكتاب العربي، شارك فيه ٧٠ ناشراً عربياً من مختلف الأقطار العربية؛ ومعرضاً لفن الغرافيك العربي، شارك فيه ٢٧ فناناً عربياً من ١٧ قطراً. وأمسيات شعرية، شاركت فيها مجموعة ضخمة من الشعراء العرب، وأمسيات موسيقية، شاركت فيها ثلاث فرق موسيقية من ثلاثة بلدان عربية. وكان معدّل الزوار لهذا المهرجان ١٢٠٠ زائر يومياً وعلى مدى سبعة أيام، وهو رقم قياسي بالنسبة لمدينة كلندن. وما فعلناه هو أننا جمعنا في هذه العاصمة البعيدة ما لم يمكن جمعه في العالم العربي نفسه. فقد أحيينا فكرة الجماعة الثقافية التي ينبغي أن تكون قاسماً مشتركاً يجمع العرب تحت مظلة واحدة، ولا سيما أننا مؤسسة خاصة ولسنا طرفاً، لا في الصراعات الأدبية ولا في الخلافات السياسية، فالهدف كان مجرد توفير لأجواء من الديموقراطية والحرية وبعيداً عن أي دور رسمي لأيّ حكومة أو منظمة أو سلطة أو جهة معنية.

■ الجوائز

فكرة نشر الشعر جاءت على أثر مهرجان الشعر العربي الأول في صيف عام ١٩٨٧، حين أعلنت الدار عن جائزة سنوية باسم «جائزة يوسف الخال للشعر»، تمنح لشاعر عربي شاب لم يسبق له أن نشر ديواناً من قبل. ومنحت الجائزة للمرة الأولى لثلاثة شعراء جدد عام ١٩٨٨، وللمرة الثانية عام ١٩٨٩، حيث فاز بها ثلاثة شعراء آخرون. وأرسيت تقليد الجوائز الأدبية المستقلة التي لا تأخذ بالاعتبار إلا حرية الابداع وجودته. كذلك أعلنت «الناقد» عن جائزة للرواية باسم «جائزة الناقد للرواية». وتمنح هذه الجائزة أيضا لروائي عربي لم يسبق له أن نشر رواية من قبل، وقد أعلنت نتائجها للمرة الأولى في صيف العام ١٩٩٠. وفازت ثلاث روايات لثلاثة روائيين جرى تكريمهم وطبع رواياتهم.

لذلك اقتحمت ميدان نشر الشعر الجديد، كما اقتحمت ميدان نشر الرواية الجديدة. فأنا أعتبر أن لي مهمة ثقافية. فكما غامرت بمشروع تجاري أردت أن أغامر ثقافياً. الفكرة هي طرح أسماء جديدة وتأهيلها من ثم للشهرة، مثلما تأهل غيرها من قبل. إنها عملية تحريض لهؤلاء الشباب الذين يكتبون، بأن نقول لهم، إنه بالإمكان أن ننشر لهم، وعلى مستوى جيد، وليواجهوا بعد ذلك حظهم من النجاح أو الفشل. وكما نشرت ١٣ ديواناً لـ ١٣ شاعراً أغلبهم غير معروف في السلسلة الشعرية الأولى التي صدرت عام ١٩٨٨، كذلك صدرت السلسلة الشعرية الثانية في خريف العام ١٩٨٩، وفيها مجموعات لـ ١٥ شاعراً، بعضهم معروف وبعضهم غير معروف. كذلك صدرت الروايات الأولى من السلسلة الروائية الأولى بدءاً من نهاية العام ١٩٩٠، والمؤلفة من حوالي ١٣ رواية لروائيين عرب طالعين، والأساس فيها تلاقي الأعمار والتجارب المختلفة على أساس من الإبداع الصرف، معتبراً أن جزءاً من مهمتي الثقافية هو أن أتيح فرصاً للنشر الخلّاق قد لا يتيحها غيري. والهدف من وراء ذلك كله، في النهاية، خلق جلبة ثقافية تلفت

الأنظار وتذكي روح النقد والتقويم. وفي الشعر والرواية لا أنشر أساساً للمعروفين، بل أرغب في أن يأتيني نص جيد بغض النظر عن اسم كاتبه. فأنا لا أبحث عن المعروف أو المشهور. لكن إذا جاءني هذا كان ممتازاً، إلا أن النص في النهاية هو الذي يفرض نفسه، وعليك أن توفر له الفرصة الجيدة كي يرى النور. فالساحة ليست وقفاً على الأسماء اللامعة فقط.

■ الكتاب

الكتاب العربي ليس بخير، ولكن القارىء العربي بخير. أما الأزمة الحقيقية للكتاب العربي، فتتلخص بكلمة واحدة مزدوجة: الحرية ـ الرقابة. إن حرية الكتاب كل لا يتجزأ. فما دام الكتاب يعامل في العالم العربي، من أدناه إلى أقصاه، معاملة المخدرات، ويعامل مؤلفه معاملة المهرب، ويعامل ناشره معاملة الإرهابي، ويعامل قارئه معاملة اللص، فلا أمل لهذا العالم العربي بأن يلحق بركب القرن الواحد والعشرين.

وعندما ندرك، كعرب مثقفين، أنه لا يفصل بيننا وبين القرن المقبل سوى عقد واحد من الزمن، لا نستطيع إلا أن نرفع أيدينا تضرعاً ـ حتى لا اقول استسلاماً ـ بأن تراأف بنا الرقابات العربية.

والكتاب العربي مضطهد كالقارىء، وعلى القارىء أن يقابل هذا الاضطهاد بالإقبال على شراء الكتاب وبالصمود في وجه المنع، حتى يعيد للقراءة متعتها وللكتابة بهاءها، وحتى تبقى الحماسة للقلم والكتاب والإبداع.

■ العودة

المغامرة ـ الحلم الباقية هي البدء بالهجرة المعاكسة بعد ١٦ سنة من الإقامة والعمل في لندن وأوروبا. العودة إلى الوطن. إلى أي مكان في الوطن العربي. العودة بالذات إلى دمشق وبيروت، إلى عاصمة القارىء وعاصمة الكتاب. وأرجو من مُقبل الأيام أن تحقق لنا حقبة التسعينات من القرن العشرين حلم العودة إلى أرض عربية من دون أسوار، ووطن عربي من غير أحقاد.

لندن ـ خريف ١٩٩٠

العالم العربي



١- اليمن شمالاً

تعز: طريق الصبر

الزمان ـ خريف عام ١٩٦٦
الطريق ـ تعز، العاصمة الجنوبية لليمن.

الدروب إلى اليمن في حينه كانت مقفلة، وكانت صعبة، وكانت طويلة. ولم أشعر في عمري أن خيالي قد قصر مرة واحدة، إلا عندما وصلت تعز. لقد ردم الواقع في لحظات الهوة العميقة التي كانت تفصل بينه وبين الخيال. وقوض الحلم بصفعة واحدة.

النصف الثاني من القرن العشرين ـ ومن ضمنه حوالي أربع سنوات من قيام الثورة ـ لم يفتح أكثر من كوة صغيرة على اليمن. ولم تكن النافذة التي تطل منها اليمن على العالم إلا طائرة صغيرة قديمة من طراز «دي ـ سي ـ ٣»، كان قد اشتراها الإمام أحمد قبل أكثر من عشر سنوات، كانت في ذلك اليوم كل ما يسمى بالخطوط الجوية اليمنية.

وكانت هذه الطائرة اليتيمة تحمل المسافرين مرة أو مرتين في الأسبوع ـ حسب الظروف ـ من أسمرة في أثيوبيا إلى الحديدة أو تعز أو صنعاء؛ كيفما تيسر لها الركاب. فالسلطات البريطانية في الجنوب، كانت قد أغلقت الحدود مع اليمن من عدن، عقاباً لليمنيين أو للعدنيين على حوادث العنف المسلح ضدها. والأحباش أوقفوا الطيران الأثيوبي عن السفر إلى اليمن، لخلاف الشركة الأثيوبية مع الحكومة اليمنية. والسفر من القاهرة في حينه كان غير مرخص به، إلا إذا كان مهمة رسمية، بعد أن توقف الطيران التجاري بين القاهرة وصنعاء منذ أكثر من سنة. والحرب الأهلية مستعرة. ولم يبق في الميدان إلا «أير جيبوتي»؛ وهو عبارة عن طائرة قديمة من طراز «داكوتا»، وطيار فرنسي هرم من مخلفات حرب الهند الصينية، تطير في الأسبوع مرة من جيبوتي إلى تعز.

وكان على الصحافي القادم من بيروت أن يختار إما أن يطير من أسمرة على اليمنية أو

من جيبوتي على الجيبوتية. وركبت الطائرة اليمنية اليتيمة من أسمرة إلى صنعاء. وبعد ساعتين ونصف الساعة، هبطت الطائرة في صحراء الحديدة ـ أو مطارها كما قيل لي ـ لأن هناك ركاباً سينزلون في الحديدة. وأقلعت الطائرة من جديد بعد ساعة ولكن إلى تعز وليس إلى صنعاء، لأن الركاب الباقين سينزلون في تعز، وليس هناك راكبٌ غيري يريد السفر إلى صنعاء.

إذن فلتكن تعز. ولتذهب صنعاء ـ ولو مؤقتاً ـ إلى جحيم وقت آخر. وهكذا كان: لملمت نفسي من بين الأمتعة التي تكدست مع الركاب في الطائرة، وقفزت من فوق سلال الخضار وصرر الثياب، ودخلت اليمن من الباب الوحيد المفتوح أمامي.

في الرقعة الصحراوية الكبيرة التي كانت ممتدة أمامي، التي اسمها تعز، وأمام مدخل بناء مظلم قديم من مخلفات العهد العثماني؛ يستخدم كمركز للأمن العام والجمارك، تذكرت أمين الريحاني.

كان بيني وبين فيلسوف الفريكة حوالى ٤٥ سنة، هو زار اليمن عام ١٩٢٢، وانا ازورها عام ١٩٦٦. وإذا بيننا حوالي نصف قرن من الجمود، وكأن الزمن لا يتحرك، وكأن السنين لا تعني لأحد في اليمن شيئاً.

كنت قد حملت معي من بيروت «ملوك العرب»، كتاب أمين الريحاني الشهير عن رحلته إلى الحجاز واليمن وعسير والنواحي المحمية في أوائل العشرينات. ولم اكن قد قرأته من قبل. وبين بيروت وأديس أبابا وأسمرة وتعز، كنت قد أجهزت على الكتاب وعرفت اليمن من خلال صحافي ذكي «وريبورتر» قدير اسمه أمين الريحاني، لا فيلسوف الفريكة. ولم أستطع أن أنسى أمين الريحاني طوال الأيام العشرة الأولى التي قضيتها في اليمن.

تعز عاصمة الجنوب والمدينة الكبرى المفضلة في كل اليمن. جبل «صبر» يطل عليها من فوق ويحاصرها وقد تغطّت قممه وجروده وسفوحه بشجر القات، حتى قيل إن القات الذي يأتي من «صبر» هو أفضل أنواع القات وأجوده.

ومن جبل «صبر» وعبر تعز تورد اليمن القات أهم صادراتها ـ إلى جانب البشر ـ إلى عدن والجنوب اليمني. وكان أكثر ما يقلق العدنيين في حينه أن إغلاق الحدود قد حرمهم من القات اليمني الجيد، مما اضطرهم إلى استيراد القات الرديء والغالي من الحبشة. وكانت أشجار البن في يوم مضى تغطي كل هذا الجبل، عندما كانت زراعة القهوة أهم من «تخزين» القات.

ووطأت قدمي أرض اليمن ـ بل أرض الجزيرة العربية للمرة الأولى. وكانت بداية قصة الحب.

وكان لا بد لصنعاء أن تنتظر، ولو طال السفر.

صحافي من بيروت؟ ترى ماذا جاء يفعل في تعز؟

هذا السؤال كان مرسوماً بوضوح على وجه ضابط الأمن وهو يقلب جواز سفري. فهو لم يسمع عن صحافي من لبنان جاء اليمن، إلا واحداً حضر لأيام قليلة بعد الثورة مباشرة عام ١٩٦٢. فليكن، وعلى الرحب والسعة. واتسعت ابتسامة ذلك الوجه اليمني الصبوح وهو يختم جوازي.

كان الوقت ظهراً. وفي اليمن يبدأ الناس في بالتململ بعد الساعة الثانية عشر ظهراً، مستعجلين انتهاء وقت العمل وبدء فترة الغذاء ومن بعدها فترة «التخزين» أي مضغ القات. ليصاب كل شيء بالشلل في تلك الساعة.

حمل أمتعتي إلى التاكسي شاب في وسطه خنجر كبير، مما اضطرني أن أعطيه ما اعتقدت أنه أجر زائد. .

ـ إلى أين؟ كان السؤال.

إلى الفندق، أم أن هناك أكثر من فندق واحد، كان الجواب.

ـ لا، «فندق الأخوة» فقط. إنه أحدث ما عندنا.

واقلع التاكسي عبر الطريق المعبد إلى تعز. ولاحظت أن السائق يمضغ شيئاً ويكوره في فمه. ثم يشرب من زجاجة ماء إلى جنبه. وشعرت ايضا أنه بدا مستعجلاً وأن السرعة التي كان يسير فيها لا تنسجم كثيراً مع الطريق. ولم أكبت فضولي طويلاً فسألته، وقد بدت مشارف تعز أمامنا، عن السبب الذي يستدعي كل هذه العجلة. فتطلع إليّ، وكنت إلى جانبه، وقال لي بمنتهى الجدية: إن الوقت قد تعدى الظهر وأن عليه أن يلحق حفلة «التخزين» ولم يزدني شرحاً. ولم أزده استيضاحاً.

وتطلعت ورائي. وعلى امتداد أرض المطار الصحراوية في تعز كانت طائرات «الميغ» المصرية بألوانها الفضية تلمع في بريق الشمس. بعضها يطير، وبعضها يهبط بين خيام كثيرة واكواخ خشبية كانت مبعثرة في كل مكان وكأنها تشكل بداية تكوين معسكر كبير. وكان لقائي الأول مع القوات المصرية في حربها الطويلة في اليمن.

على قمة جبل عال، بدت تحته تعز وكأنها مدينة مصنوعة من الورق، كان يقبع «فندق الأخوة» مفخرة السياحة في اليمن ذلك الوقت. فهو الفندق الوحيد الذي فيه حمام ودوش. ولو كنت قد زرت اليمن قبل الثورة، لاضطررت أن ابقى في دار الضيافة، وهو عبارة عن بيت قديم لا تستطيع أن تغادره إلا بإذن الإمام.. فأنت سجين هناك برضا الإمام. فهو الذي يقرر مدة إقامتك وموعد سفرك. لذلك كان «فندق الأخوة» في تعز متعة الضيافة وقمة الحرية.

□

كان همي الأول أن أبحث عن محافظ تعز. فهو الرسمي الأول هناك. وكان محافظ تعز في تلك الأيام هو السيد عبدالغني مطهر ـ لا أدري أين هو الآن ـ لقد أردت أن أمسك

بأول خيط رسمي في اليمن. سألت عنه، فقالوا لي في القصر. ألقيت حقائبي في الفندق وذهبت إلى القصر قبل أن تغلق الظهيرة أبوابه. وظننت القصر قصراً. وإذا به بيتٌ قديمٌ من الطين أمامه عشرات اليمنيين المسلحين بالبنادق والمتمنطقين بأمشاط الرصاص والخناجر متحلقين حول راديو. تلك الأيام كانت أيام «صوت العرب»...

وسألت عن المحافظ. فقالوا لي فوق. وصعدت إلى فوق وسط درج لولبي مظلم، ضيق وقذر. ولم أكد أصل إلى فوق وأرى النور من إحدى النوافذ حتى أخذت أشعر أن صدري قد بدأ يضيق. كان المحافظ جالساً في غرفة ذات نوافذ واطئة وضيقة، وراء طاولة خشبية قديمة مغطاة بحرام أخضر وحوله عشرات من اليمنيين بكامل أسلحتهم متجمهرين حول طاولته وبأيديهم أوراق صغيرة يدفعونها كلهم معاً إلى المحافظ لتوقيعها.

ولفت نظري أن أكثر الأوراق مستطيل الشكل وأن الكتابة كانت في الجزء الأسفل من الورقة. ولما استوضحت ذلك فيما بعد، قيل لي إنها عادة من أيام الإمام، حيث كان لا يجوز أن يوقع الإمام على العرائض والطلبات تحت توقيع المواطنين. فكان يُترك الجزء الأعلى من الأوراق لتوقيع الإمام. وما زالت هذه العادة دارجة.

وظننت بادىء الأمر أن السيد عبدالغني مطهر موظف بسيط. لكنه فاجأني بأن قدم نفسه على أنه المحافظ. ولعل مفاجأة المحافظ بأنني صحافي قادم من لبنان كانت أكبر. لكن الظهر كان قد داهمنا وموعد «التخزين» أهم من حديث مع صحافي ولو كان قادماً من لبنان.. فإلى موعد في المساء.

إذا كان لا بد من صنعاء ولو طال السفر، فإن الطريق إلى صنعاء كان لا بد وأن يمر في الحديدة. وحملتني الطائرة اليمنية القديمة نفسها إلى الحديدة بعد أيام. وكان فندق ـ الأخوة ـ الآخر ينتظرني هناك. وكان الحر لا يطاق. والتكييف اختراع لم يصل بعد إلى اليمن. والحديدة ذلك الميناء القديم على البحر الأحمر أحر مكان عرفته في كل أسفاري. وهناك رأيت وللمرة الأولى الناس تمشي في الشوارع وهي حاملة على أيديها مناشف صغيرة لتمسح بها العرق المنهمر طوال الليل والنهار.

وظلت صنعاء تلح. وكان الطريق بين الحديدة وصنعاء، الطريق المعبد الوحيد في كل اليمن. كان معجزة من البناء. وكان أقدم المشاريع الصينية في اليمن. بنته الصين في عهد الإمام عام ١٩٦٠، مستخدمة لشقه وتخطيطه وتزفيته مهندسين ورؤساء ورش صينيين. إلّا أن اليد العاملة كانت يمنية كذلك معظم مواد البناء وخلال عملية إنجاز الطريق حصل حادث أودى بحياة أحد المهندسين الصينيين، فأقيم له ضريح على نسق «الباغوداء» الصينية أصبح بمثابة محطة لكل خارج من صنعاء ولو متنزهاً.

والطريق بين صنعاء والحديدة كان يستغرق حوالي خمس ساعات. وكان على المسافر أن يصل إلى أي من البلدين قبل الساعة السادسة مساء، لأن السفر ممنوع بعد المغيب.

فالناس لم تتعود السفر ليلاً في اليمن والطريق غير آمن على الرغم من وجود عشرات المعسكرات المصرية على امتداده.

وبدت مشارف صنعاء بعمارتها المميزة وسورها القديم ـ الذي هدم للأسف فيما بعد ـ وكأنها مدينة أسطورية لا يمكن أن تشاهدها إلا في رسوم الكتب القديمة المجنحة. كانت أجمل المدن. كانت تستاهل طول السفر. كانت تستحق الانتصار في الحرب.

ولأنني تمنيت أن تطول الأيام العشرة التي قضيتها في زيارتي الأولى لليمن، لذلك لم يكن أحد من الذين أردت مقابلتهم في صنعاء على عجلة من أمره. فالصحافي الذي جاء من بيروت ليكتب عن أخطر ما تتمخض عنه ثورة اليمن يستطيع الانتظار. ما وجه العجلة في الموضوع؟

تعز ـ (١٩٦٦/١٠/٨)

السلال: القاهرة في صنعاء

لحقت به من صنعاء إلى تعز، ومن تعز إلى الحديدة حتى قابلته. كان يظهر على المسرح ثم يختفي، ولكنه عاد إلى المسرح من جديد بعد غياب طويل، ليلعب الدور الذي لم يكن معداً له في الأصل. فدور البطولة والزعامة كان يحتاج إلى رجل من غير طراز المشير عبدالله السلال. وبقي دائماً دور الرجل القوي لغيره.

عاد المشير عبدالله السلال يتصدر الواجهة من جديد كرئيس لجمهورية اليمن ورئيس لوزرائها وزعيم لثورتها في أخطر مرحلة تمر بها البلاد منذ أكثر من أربع سنوات. صوره الصقت من جديد في الشوارع إلى جانب صور الرئيس عبدالناصر. وموكبه المسلح من وإلى القصر الجمهوري تتقدمه دائماً مصفحة فيها جنود مصريون، وأربع سيارات مسلحة فيها جنود يمنيون وبعض رجال القبائل المسلحين، ووراءه رتل آخر من السيارات المحملة برجال الشرطة العسكرية المصرية.

هذا الرجل يبدو رمزاً لوضع انقسم اليمن الجمهوري حياله. أصبح اليوم يمثل الفئة التي تعتبر «القاهرة صنعاء، وصنعاء القاهرة» على حد تعبيره، وتعبير كل مسؤول يمني قابلته.

المصريون في اليمن هل يبقون هناك إلى أجل غير محدود، أم يرحلون؟ ليس هذا هو السؤال الذي اختلف حوله اليمنيون. بل، ما هي طبيعة علاقة مصر معنا. أين تبدأ وأين تنتهي. ومن وراء الوجود العسكري والسياسي لمصر في اليمن؟ بقي السلال، رغم تقلبات، الظروف، الواجهة التي لا تستطيع القاهرة إلا أن تعمل من خلالها.

عندما وصلت صنعاء كانت علامات الاستفهام حول الوضع الجديد قد ازدادت غموضاً، وكان الجو قد بدأ ينذر بالانفجار. وكان الحديث مع السلال بعد عودته من القاهرة على رأس الحكم الجديد منذ أكثر من شهر، يبدو على شيء من الأهمية، وربما الطرافة.

وفي خلال أربعة أيام وأنا ألحق به من مكان إلى آخر في مختلف انحاء اليمن، بمواصلات هي من بقايا العصور الوسطى، والمواعيد بيننا تنقض وتضيع في سرعة تنقله بالطائرة العسكرية المصرية الخاصة. شعرت بأن السلال كان يتفادى العاصمة صنعاء ويتفاداني معها، وكأن أمراً عظيماً سيحدث وهو يريد أن يكون بعيداً عنه.

وفي مساء السبت في ٢٢ تشرين الأول عام ١٩٦٦، بعد رحلة بالسيارة من صنعاء إلى الحديدة (استمرت ست ساعات) عبر الطريق الوحيد المعبد في اليمن الذي بناه الصينيون، كنت أطرق باب القصر الجمهوري في الحديدة وفي يدي رسالة من وزير الإعلام يحيى بهران الذي بذل قصارى جهده ليؤمن لي المقابلة. وتسلم السلال الرسالة، وكان جالساً في غرفة استقبال واسعة مفروشة على الطراز اليمني، أي السجاد والطنافس على الأرض. وكان يبدو بروب النوم الأبيض والطاقية البيضاء، بكرشه الكبير

وذقنه غير الحليقة، رجلاً عادياً طيباً، يحيط به جنود مسلحون، يستعد للنوم، أو يستعد للرحيل.

كانت عاديته أهم ما لفت نظري. وكانت البساطة، لولا كثرة السلاح الذي حوله، أهم ما يحيط به. وحدد لي موعداً في اليوم التالي في السابعة والنصف صباحاً قبل أن يسافر إلى تعز.

وهكذا كان. في صباح الأحد الباكر كنت أطرق باب القصر الجمهوري من جديد. بيد أن الرئيس لم يكن هناك. قالوا لي إنه في بيته. والسلال كان محافظا للحديدة في فترة ما خلال حكم الإمام، قبل أن يصبح رئيسا للحرس، وله بيت هناك.

واستقبلني اللواء عبد الله جزيلان، نائب رئيس الوزراء ونائب القائد الأعلى، والرجل القوي اليوم في اليمن، والحاكم بأمره.

وأخذني اللواء جزيلان في سيارة الرئاسة وبرفقته محافظ الحديدة عبدالله الضبي إلى بيت السلال. وامام البيت القديم كان هناك عشرات النساء والرجال ينتظرون خروجه وفي أيديهم أوراق يحملون فيها ظلاماتهم. وفي داخل البيت انتظرنا، وفي غرفة فيها «تخوت» عالية وفرشات عادية، يتسلقها المرء تسلقاً حتى يجلس، انتظرت مع جزيلان والضبي وعدد من الرسميين خروج السلال. وخرج السلال من الداخل بلباس الماريشالية وتدافعت الناس من الباب تريد أن تصل إليه وفي أيديها أوراق وعلى السنتها كلام. وخرجنا نحن من الغرفة ولم نستطع أن ندركه. وهمس جزيلان في أذنه انني على موعد معه. وقال السلال: ليلحقني إلى القصر.

ولحقت به إلى القصر الجمهوري وراء الموكب المسلح، او كجزء منه، لا أدري. وفي الغرفة الواسعة ذاتها، التي رأيته فيها من قبل، بدا هذا الصباح وكأنه اكثر إشراقاً وحيوية بلباسه العسكري، بل اكثر هيبة. ودخلت عليه، برفقة جزيلان، والضبي، وكان معنا وزير الزراعة. فوقف ليصافحني، وبدا أيضاً أطول مما تصورته. وكان بشوشاً ومرحباً، وقال لي وهو يمد يده نحوي: أعرف أنني أخلفت في مواعيد كثيرة معك، ولكنها الظروف. ما رأيك أن تذهب معي إلى تعز اليوم. واعتذرت شاكراً لأنني كنت مضطراً للعودة إلى صنعاء. ولم أكن أدري ما وراء الدعوة.

صنعاء - (٢٦/١٠/١٩٦٦)

صنعاء: الإعدامات الأولى

شهدت أول عملية إعدام بالرصاص في تاريخ اليمن، تحت راية الأمم المتحدة، في ميدان التحرير. فقد تم إعدام سبعة أشخاص في أقل من ربع ساعة هم الهادي عيسى ومحمد الرعيني وحسين الأهجري وحسين العواجي وعبدالحميد الرياشي وعلي محسن هارون ومحمد احمد العميسي. وكان سياف الدولة من أيام الإمام يحمل المحكومين من مصفحة قريبة مكبلين بالسلاسل ويلقيهم على الأرض حيث كان النقيب سعيد ريحان يطلق النار عليهم من مدفع رشاش في الظهر أو في الرأس.

وكان هناك ثلاثة صحافيين مصريين حضروا خصيصا لتغطية عملية الإعدام. كما أن السلطات المصرية صادرت الفيلم الذي صورته انا واتلفته، بينما سمحت للمصريين بالتصوير. وبعد الإعدام هجمت الجماهير على الجثث وسحلتها في الشوارع إلى مقر الجانب السعودي في لجنة السلام. ثم عُلقت الجثث على باب السجن.

وكانت المحاكمة قد بدأت في الصباح بشكل سري ولم يسمح إلا للصحافيين المصريين بحضورها، ومنعت من الدخول مع صحافيين صينيين وبعثة تلفزيونية من المانيا الشرقية.

هذا وأُخضع القادمون من وإلى صنعاء لتفتيش دقيق، كما منع تجول السيارات من الساعة السادسة مساء حتى الفجر، أما الأفراد فمن الساعة العاشرة مساء.

صنعاء - (٢٩/١٠/١٩٦٦)

■ جمهورية «النفس الطويل»

الناس كلها تتحدث عن اليمن. في اسمرة، في جيبوتي، في عدن، في حضرموت، وفي الخليج العربي من أقصاه إلى أقصاه. فاليمن قد دخل اليوم حلقة السياسية العربية المفرغة من بابها الواسع. ولم يعد من الممكن التراجع.

أشياء كثيرة تشغل البال في اليمن اليوم، ربما لا تكفيها عشرة أيام مضطربة قلقة قضيتها في صنعاء والحديدة وتعز، مروراً بالبيضاء والحجرية وأب، لترفع علامات الاستفهام الكثيرة عن كاهل أخطر قضية عربية اليوم.

المهم من بين هذه الأشياء الكثيرة تحديد العلامات السياسية الفارقة، عند عتبة موقف خطر، قد يحدد مصير اليمن، لسنوات طويلة قادمة.

أربع سنوات من عمر الثورة مرت، ومرت معها ذكرى اتفاق جدة (٢٣ أيلول عام ١٩٦٥) الذي دفنه السلال وأعلن جزيلان بطلانه. وانتهت سنة طويلة من الهدنة.

الشيء الأول والأهم أن ليس هناك يمنان. بل ثمة يمن واحد جمهوري. أما الملكيون، فهم بعض القبائل التي فشل المصريون والجمهوريون في شرائها، ووجدت من يدفع ثمناً ـ مادياً ومعنوياً ـ أكبر. والملكيون ـ جغرافيا ـ هم جيوب في جيزان ونجران وعسير على الحدود السعودية. فالخلاف في اليمن ليس على الجمهورية أو الإمامة، بل مَنْ في الجمهورية. وهنا بداية المأساة الحقيقية.

اليمني العادي في شوارع صنعاء أو تعز إذا سألته يجيبك على الفور: «لقد جمهرنا»، أي أصبحنا جمهوريين و«الجمهرة» تعني شيئين. أولاً، أنه لا يحب الإمامة ولا يريد عودة البدر، وثانياً، أنه ليس بالضرورة مغرماً بالوجود المصري أو بالسلال. إنما حتماً يريد الجمهورية.

فبعد سنة من هدوء شبه مصطنع، لم تعرفه اليمن في السنوات الأربع الأخيرة، ولا قبلها على أيام الإمام، عاد الوضع إلى الإنفجار في الصيف قبل الذكرى الرابعة للثورة باستقالة حكومة العمري وعودة السلال وظهور جزيلان على المسرح، واحتجاز الزعماء في القاهرة، وبعد ذلك أيام الرعب، التي شملت تصفية جميع العناصر المعادية للمصريين والسلال، ومن ثم إعدام الرعيني والرياشي وهادي عيسى ورفاقهم. فالقضية ـ الأزمة ـ الخلاف في اليمن اليوم (ببعض من التبسيط) هي الوجود العسكري والسياسي والمعنوي والاقتصادي المصري هناك. وتجد هذه القضية من الفرقاء مَن يستغلها خارج هذا الإطار كله.

المطلوب واحد. تحديد نوع العلاقة بين الجمهورية اليمنية وبين مصر. فالسؤال المطروح هو، ما نوع العلاقة بين القاهرة وصنعاء؟ فلا يكفي أن تكون «القاهرة صنعاء، وصنعاء القاهرة» كما يردد كل مسؤول يمني اليوم إذا سألته هذا السؤال. المهم تحديد أبعاد هذه العلاقة بوضوح تام.

هل نحن في وحدة مع مصر؟ هل صحيح أن القاهرة صنعاء وصنعاء القاهرة؟

«يا ليت تكون صنعاء مثل القاهرة»، يصرخ الكثير من اليمنيين بتمن. هل الوجود المصري احتلال عسكري؟ هل هو استعمار من نوع جديد؟ هل هو استغلال سياسي واقتصادي؟ هل نحن قاعدة عسكرية مصرية؟ أم هل نحن كبش المحرقة في أتون الخلافات العربية؟

عشرات من الأسئلة تختلف الناس حولها في اليمن. ومن هذه الأسئلة تخرج بعض العلامات الفارقة في ظلمة التناقضات اليمنية إلى النور... أو القليل من النور.

سأل أحمد شكري السفير المصري في اليمن، حسن العمري رئيس الحكومة اليمنية السابق أثناء الأزمة الأخيرة التي فجرت الوضع وسبقتها عودة السلال إلى صنعاء، وهو يحاول أن يجد حلولاً للأزمة!

ـ ماذا تريد اليمن بالتحديد من مصر؟

ـ أجابه العمري: أن تعترف مصر بالجمهورية اليمنية.

روى لي هذه الحادثة أكثر من شخص في اليمن. ومهما كان نصيبها من الصحة، إلا أنها تضع بعض النقاط على القليل من الحروف الصدئة التي يحاول الناس أن يقرأوا بها أخبار اليمن.

طبعاً، هناك أكثر من فريق في الخلافات اليمنية. إلا أن هناك طرفين لا يختلفان على الجمهورية ـ مهما تعددت القوى، من أولى وثانية وثالثة ـ ويهمهما سلامتها بالدرجة الأولى.

الفريق الحاكم، الذي يمثله السلال وجزيلان، والفريق المعارض ـ المحتجز الذي يمثله العمري ـ النعمان ـ الأرياني.

الفريق الأول، هو الفريق الذي يدعم الوجود المصري بكافة أشكاله، والذي يدعمه الوجود المصري بكافة أسلحته. هذا الفريق الذي قطع الجسر الأخير ونسفه وراءه بعد عمليات التصفية الأخيرة، بحيث لم يعد هناك مجال أمامه، إلا أن يستمر بدعم المصريين محاولاً استقطاب فئات يمنية مترددة أو خائفة، أو أن يسقط. وإذا سقط هذا الحكم، فمعناه تعديل أساسي وجذري في العلاقات المصرية ـ اليمنية، قد تؤدي إلى نتائج خطيرة، منها، حكم مصري مباشر، أو تعديل في كيفية الوجود المصري كله في اليمن.

ورجل هذا الفريق، هو اللواء عبدالله جزيلان. فهو الرجل القوي، وهو الحاكم الفعلي. أما السلال فهو الرمز، وهو الدلالة الفعلية على أن القاهرة صنعاء، وصنعاء القاهرة. ونهاية هذا الفريق، هي نهاية السلال الفعلية، الذي لم يكن راغباً في عمليات التصفية والعنف أصلاً.

وهذا الفريق لا يريد انسحاب القوات المصرية، ويدعو إلى أقصى التعاون مع القاهرة، ويقاوم كافة الأحزاب السياسية التي بدأت تتغلغل في اليمن. فهناك حظر تام على حركة القوميين العرب بالدرجة الأولى، ومن ثم على البعثيين وإلى حد ما على الشيوعيين، وهم قلة في الأساس. ومن أقطاب هذا الفريق أيضاً، الدكتور عبدالغني علي وزير الاقتصاد والخزانة. وهو دكتور في الاقتصاد تخرج من أميركا، ويتزعم فريقاً من الشباب اليساري الذي يتحدث بطلاقة عن «الصراع الطبقي» في مجتمع اليمن القبلي، وعن «الاشتراكية الصينية»، و«الثورة العالمية» وكيف يمكن أن تسهم اليمن فيها. وكل مَن لا يرى هذا الرأي، فهو من أعوان «الامبريالية والاستعمار». ومن الممكن تسمية هذا الفريق «بالفريق الناصري» وخاصة بعد إعداد التنظيم الشعبي، برئاسة يحيى بهران وزير الإعلام، وإدخال هؤلاء الشباب إليه. بالإضافة إلى كرهه لكافة الأحزاب العربية الأخرى.

أما الفريق الثاني، أو «الفريق المحتجز» كما يسمى اليوم، أي العمري ـ النعمان ـ الأرياني وشركاهم فله موقف كامل من الوجود المصري وموقف مجزأ.

الموقف الكامل، هو ضرورة كف يد المصريين عن التدخل في شؤون اليمن الداخلية والسياسية، وترك اليمن السياسي الداخلي بعيداً عن النفوذ المصري، اي بعيداً عن مئات «الخبراء العرب» المحشورين في كل وزارة وفي كل دائرة. وبالتالي التوقف عن حكم اليمن حكماً غير مباشر، والاكتفاء فقط بالقضايا العسكرية والدفاعية. فهم لا يريدون من المصريين أن يعاملوا اليمنيين كمواطنين من الدرجة الثانية. ويقولون، إن مهمة الخبراء ـ واليمن بحاجة إليهم ـ يجب أن تنحصر فقط في الشؤون الإدارية المكلفين بها، وبإشراف المسؤولين اليمنيين مباشرة وليس بإشراف السفارة المصرية مثلاً. وهذا الفريق يحتج بشدة على تصرفات الخبراء المصريين، وتعاليمهم ومعاملتهم ونفوذهم وتصرفاتهم. فعقدة العقد عنده، هي وجود أناس آخرين يديرون دفة الأمور السياسية من غير اليمنيين.

ومن هنا تنطلق نقطة الأزمة الحقيقية من حيث أن مصر لا تريد أن تعطي هذه الصلاحيات إلى أيد يمنية، لا تثق كثيراً بولائها، وتخاف من أن تطعن في الظهر، أو تباع رخيصاً. لذلك فهي مصرة على التمسك بصلاحيات الحكم الحقيقي في اليمن، وبدفة السياسة الفعلية.

أما الموقف المجزأ الذي يقفه «الفريق المحجوز» فهو بين من يدعو إلى انسحاب القوات المصرية من اليمن بكاملها والإبقاء فقط على وحدات صغيرة رمزية، ذات قوة ضاربة، ومن يدعو إلى بقاء القوات العسكرية المصرية كما هي لحماية اليمن، من دون التدخل في الشؤون السياسية الداخلية في البلد، وأن تبقى مهمتها محصورة في نطاق الشؤون العسكرية ـ الدفاعية فقط لا غير.

الجزء من الفريق الذي يطالب بالانسحاب يقول إن باستطاعته الحصول على ضمانات

عربية ودولية بالحفاظ على الجمهورية وسلامة أراضيها من الاعتداء، إذا خرجت مصر، والجـزء الآخر من الفـريق، لا يثق كثيرا بهـذه الضمانـات، ولا مانـع عنده من وجـود القوات المصرية إذا عرفت حدودها.

غـير أن مصر لن تنسحب من اليمن لأسبـاب كثـيرة. منهـا أنهـا تخـاف عـلى النظـام الجمهوري من الانهيار، ومنها أنها مصممة على حرمان السعـودية من اي مـوطىء قدم مهما صغر في اليمن، ومنها أن عدن والجنـوب العربي سيستقـل بعد حـوالي سنة وأن البريطانيين سيخرجـون وهي بحاجـة إلى هذه القـاعدة لتـوجيه حمـلاتها إلى الجنـوب العربي منها. وطبعاً منها قضية «المعنويات» و«الكرامة» فالبقاء قد يعني الانتصـار، أما الانسحاب فيعني الهزيمة حتماً.

والوجود المصري ظاهر بوضـوح في كل مكان في اليمن. العسكري منه، تـراه في المخيمات والمعسكرات المزروعة في كل مدينة يمنية. فهم موزعون على طول الطريق من صنعـاء إلى الحديدة، ومن صنعاء إلى تعز. شاحناتهم تنقل يومياً المؤن من ميناء الحديدة إلى كـافة انحاء اليمن، عبر الطريق الوحيدة المعبدة في اليمن كله، التي بناها الصينيون وما زالوا يرممونها إلى اليوم. ويسمونهم في اليمن «النفس الطويل». فيقولون لك، هـذه معسكرات النفس الطويل، وهذه سيارات النفس الطويل، وهذه سياسـة النفس الطويـل، من دون أن يتلفظوا بكلمة «المصريين». وبالطبع فالجنود المصريون يقومون بحماية وحراسة أكثر المنشآت والمباني العسكرية والحكومية. فهم يحرسـون منزل السلال والقصر الجمهـوري والوزارات والمؤسسات.

أما الوجود المدني، فهو في كل وزارة ومؤسسة عشرات من «الخبراء العرب». ففي مكتب كل وزير طاولتان. واحدة للوزير، واخرى للخبير. ومن الصعب جدا أن تقـابل اي وزيـر من دون الخبير.

وأذكر أنني عندما طلبت مقابلة السلال، طلب مني وزيـر الإعلام يحيى بهـران الأسئلة التي سـأوجهها للسـلال مقدمـاً حتى يطلع عليهـا. وجلست لأكتب الأسئلـة. وقبـل أن أنتهي من كتابتها، سحب الورقة من يدي «خبير عربي» كان يشارك الوزير مكتبه، قبـل أن أنتهي منها أنا أو يطلع الوزير عليها. ولما قرأ «الخبير» اسئلتي، أعاد الورقة وقدمتها بدوري إلى الوزير. ويبدو أن الأسئلة لم تعجب «الخبير» وأعجبت الوزير.

والحكومة الحالية، قد ركبت مد القوة والبطش، واعتبرت أن عمليات التصفية ـ تصفيـة كل من هو معاد للسلال أو معارض للمصريين ـ ضرورة حتمية لبقائها. وجاءت عمليـات المحاكمة والإعدام، فكانت الضربة التي هزت اليمن كله.

محمد الرعيني كان أخطر وأهم الذين أعدموا. فهو وزيـر لشؤون القبائـل في الحكومـة التي أعدمته، وهو نائب سابق لرئيس الجمهورية وقائم بأعمال الرئاسة فترة طويلة إبّان غيبة من غيبات السلال الطويلة في القاهرة. وله أنصار كثيرون، وخاصة من بين القبائل، وقد يسبب إعدامه مضاعفات خطيرة على الصعيد القبلي المحلي.

أما هادي عيسى فقد قوبل إعدامه بارتياح كبير. وهادي عيسى كان في يوم ما أكبر وأهم من يدعم السلال. وهو بطاش كبير، في عنقه آلاف الضحايا الأبرياء. وكان السلال يهدد به القبائل والناس. وكان دائماً يقول للذين يقاومونه: سأرسل لكم هادي عيسى. وأروني في صنعاء بئراً، اسمها «بئر هادي عيسى» كان يلقي بها الناس أحياء ثم يقذف فوقهم قنابل محرقة ويتركهم يموتون أشلاء في القعر. والناس كلها تتحدث في اليمن عن فظاعات هادي عيسى، إلى درجة أصبح يدخل معها على السلال وفي يده الرشاش مهدداً به.

ومع هادي عيسى أعدم سيافه محمد العميسي الذي كان سياف الإمام من قبل لفترة تزيد عن ١٠ سنوات.

أما اتفاق جدة فقد انتهى رسمياً وعملياً بانقضاء مدته من دون أن يتجدد. إلا أن هذا لا يعني تجدد القتال الفعلي في اليمن. فلجنة السلام السعودية ـ المصرية المشتركة لم تنسحب من اليمن بعد، والكتيبة السعودية ما زالت في صنعاء تحت الحراسة. ولم يعلن الطرف السعودي أو الطرف المصري بعد موتها.

وتجدد القتال على نطاق واسع مستبعد حاليا، لعدم رغبة الفريقين في ذلك أولاً، ومن ثم لضعف الجانب الملكي من ناحية ولانقسام الجانب الجمهوري من ناحية ثانية. وبالتالي لتقلص الامتداد العسكري المصري إلى داخل مثلث المدن الرئيسية، بعيداً عن الجبال مناطق القتال.

وهكذا لا يبقى بين هذه الأشياء الكثيرة التي تشغل بال اليمن، وعند هذه العلامات السياسية الفارقة، إلا ممرات قليلة للتفاؤل.

صنعاء ـ (١٩٦٦/١٠/٣٠)

■ الانتقال إلى القرن العشرين

«غيرنا يقرر مصيرنا، ومستقبل اليمن يقرر خارج اليمن. أما نحن اليمنيين فمهمتنا أن نقف مع فريق ضد آخر».

قالها زميل يمني رداً على سؤال طرحته على فريق من الشباب الذي يجتمع كل ليلة في ساحة «فندق صنعاء» بعد الساعة السادسة مساء حيث تكون جلسات «تخزين» القات قد انتهت.

لذلك، فليكن البحث موقتاً عن موطىء الأقدام الصغيرة، وعن مناطق للنفوذ من غير نفوذ.

طبعاً المصريون هم كل شيء وفي كل مكان. والسفارة المصرية في صنعاء هي السفارة الأولى، حتى في غياب السفير أحمد شكري في القاهرة منذ أزمة حكومة العمري. ويقال إنه لن يعود إلى اليمن، لخلافه مع السلال. أما الذي يتولى دفة السفارة اليوم، فهو أحد أبطال عملية «الرجل الصندوق» في روما. ولكن الرجل الأول هو اللواء طلعت حسن قائد القوات المصرية هناك. واليمنيون يتحدثون بظرف عن «وزير المستعمرات»، أنور السادات، وعن الوزارة المؤلفة من جهاز «الخبراء العرب».

اما البعثات الديبلوماسية العربية فهي موزعة، بين السفارة السورية، والسفارة العراقية، والسفارة الجزائرية. عروض سورية بإرسال مدرسين رفضت، وعروضها لاستقبال بعثات طلاب يمنيين في الجامعة السورية رفضت أيضاً. والسبب هو الخوف من انتشار مبادىء حزب البعث بين الطلاب اليمنيين، في الخارج والداخل. أما السفارة العراقية فمهمتها العناية بالمدرسين العراقيين الستة الذين وصلوا حديثاً والتحقوا ببعض المدارس، بعد رفض طويل. والسفارة الجزائرية مجرد علم مرفوع على سارية.

والصينيون هم أكثر الناس شعبية في اليمن. والسبب طريق لها حكاية. لعل طريق صنعاء ـ الحديدة، كانت أول فجوة في جدار الظلام الذي أحاط به حكم الأئمة اليمن طوال مئات السنين. ولما قامت الثورة، جاءت الإمدادات عبر هذه الطريق، ووصلت عبرها القوات المصرية من مرفأ الحديدة إلى العاصمة اليمنية.

فقد بنت الصين الشيوعية هذه الطريق خلال ست سنوات وتركت ورشات من المهندسين والعمال الصينيين معسكرة على طول الطريق لتعبيدها وترميمها، خاصة بعد وقوع عدة معارك حولها، ومرور الدبابات والأسلحة الثقيلة عليها. وأطرف المناظر، منظر الصينيين بقبعات القش الكبيرة وهم يعملون في الطريق.

وهذه الطريق تجرنا إلى طريق أخرى تعتبر من أسباب النفور الأميركي ـ اليمني المباشر. ففي الوقت الذي كان الصينيون يبنون طريق صنعاء ـ الحديدة، كان الأميركيون يبنون طريق صنعاء ـ تعز. ولكنهم اقترفوا الغلطة المميتة بأنهم لم يعبدوا

الطريق كما فعل الصينيون، وتركوا عملية ترميمها لليمنيين. وإذا بالطريق التي تمر عبر أجمل مناطق اليمن عبارة عن حفر ومنحدرات.

واليمنيون يصنفون الناس والأشياء كثيراً. فمحمد أحمد النعمان رئيس الحكومة الأسبق، هو «نوري السعيد» بالنسبة لدهائه وقدمه في السياسة. وحسن العمري هو «عامل سلك» - أي موظف تلغراف.

وهجرة اليمنيين مستمرة، إلا أنها أولاً هجرة من الظلم وهجرة من الاستبداد، وهجرة من قرون طويلة من الظلام عاشوها تحت حكم الأئمة. لذلك، فالمهاجرون (الذين يزيد عددهم عن المليون نسمة) هم مع الجمهورية والثورة، من دون أن يعرفوا مَن يحكمها ولماذا، ما دامت الجمهورية قد قضت على الإمامة. ولما قامت الثورة عاد دفق كبير من المهاجرين على أمل أن تحتضنهم الجمهورية. ولكن ظروف الثورة والحرب المستمرة والخلافات الداخلية أصابت أكثرهم بخيبة أمل خاصة وقد ظنوا أن صنعاء والحديدة وتعز ستفتح أذرعها لاستقبالهم.

وعاد أكثرهم من حيث أتوا. أما الفئة القليلة التي بقيت أو وظفت أموالها فهي سبب هذا الازدهار القليل الذي يشاهده الناس في اليمن. فالمحلات التجارية والفنادق والمطاعم - إذا كان من الممكن تسميتها بذلك - والبنايات القليلة هي من أموال المهاجرين القلائل اذين أعادوا ارتباطهم بالوطن الأم. ورجع الباقون من حيث أتوا إلى عدن ونيروبي وعصب وجيبوتي وكارديف ونيويورك وسان فرانسيسكو.

وأكثر المهاجرين اليمنيين من «الحجرية»، وهي بلدة تقع جنوب تعز. وهي منطقة النعمان وأكبر أثرياء اليمن. وقد خاف هؤلاء من استثمار أموالهم بالشكل الذي أرادوه لعدم توافر ضمانات رسمية لحماية هذه الأموال، على الرغم من تطمينات الحكومة. وقال عبدالله جزيلان ونحن في السيارة معاً في الحديدة «إننا نريد أن نجعل منها بيروت ثانية». وأكد وزير الإعلام يحيى بهران، بأن لا تأميم في اليمن، فليعد المهاجرون. إلى جانب أن خلاف النعمان مع الحكم الحالي، قد أعاد الكثير من أموال «الحجرية» إلى المهجر.

ولا يزال مجتمع اليمن قبلياً، شكلاً ومضموناً. الرجل هناك ينتمي دائماً إلى قبيلة ما. ويقاس وزن السياسي بالقبيلة التي ينتمي إليها أو تناصره. ومن أسباب ضعف السلال والعمري مثلاً أن لا قبيلة كبيرة وراء كل منهما لتدعمه. وسر نفوذ النعمان أنه ابن منطقة كبيرة ثرية. وهذه القبائل يهمها «البندق» - أي السلاح، و«الظلط» - أي المال. وإذا توافر هذان الشيئان، توافرت القبيلة. والقتال يسوى دائماً بالمال، إذا أرضيت به القبائل، وبالسلاح إذا أخضعت له، أو أغريت به.

ويبقى الشيء الأول والأهم اليوم، هو أن ينتقل اليمن من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين. وعملية الانتقال هذه من أصعب ما في الدنيا. ليس فقط لأن مئات السنين لا تقطع في عشر سنوات، بل لأن هناك في اليمن من لا يشعر بهذا الفرق، وهناك من لا يريد أن يشعر به.

صنعاء - (١٩٦٦/١١/١)

ما بعد سقوط السلال

صنعاء مدينة قاسية، لا تبتسم حتى للغريب القادم إليها من بعيد. ولم تكن صنعاء محاصرة، ولم يكن الملكيون على الأبواب. فبعد ٥ سنوات من الثورة، كانت الجمهورية أبعد شيء عن السقوط. وكان مطارها مفتوحاً وطائرتا «الداكوتا» اليتيمتان من طراز عام ١٩٤٠ التابعتان للخطوط الجوية اليمنية، تعملان بقيادة طيار يمني وآخر يوغوسلافي، بين أسمرة والحديدة وصنعاء وتعز بانتظام كبير. شوارعها بدت أكثر اتساعاً، أسوار الطين القديمة بدأت تختفي، الناس، وإن لم تتغير وجوههم ولا خناجرهم أو بنادقهم، بدوا أكثر ابتساماً وراحة. وماذا حدث؟ إن صنعاء لم تحترق.

لقد تغيرت أشياء كثيرة في اليمن. سقط المشير عبدالله السلال وحكومته وأعوانه، وانسحب المصريون، جيشاً وعتاداً «ومخابرات» وحتى سفارة، ولم يبق إلا بعض الدبلوماسيين في الحديدة. ووجد اليمنيون، للمرة الأولى منذ قيام الجمهورية، أنهم وحدهم، يدافعون بسيوفهم وخناجرهم وبنادقهم العتيقة وأسلحتهم الكثيرة الحديثة، عن كيان الحياة أو الموت عندهم. لا سيف إلا سيفهم يضربون به، ولا رصاص إلا رصاصهم يطلقونه على الأعداء. لكن ماذا يحدث في اليمن اليوم، لماذا صرخت صحف العالم كلها منذ ١٠ أيام أن صنعاء مهددة بالسقوط وأن الملكيين قد يتربعون على العرش من جديد قبل العيد المقبل؟ الأجوبة كثيرة وبسيطة. كثيرة لأن لليمنيين آراء متعددة حولها. وبسيطة، لأن اليمنيين، كل اليمنيين، يضحكون ساعة يسألون عنها.

الذي حدث أن الملكيين عندما تم انسحاب المصريين قرروا معاودة الهجوم. أولاً: ظناً منهم بأن الجمهورية قد أصبحت ضعيفة وحدها ولا تستطيع الدفاع. ثانياً: محاولة واضحة لاستغلال سياسة الحكومة الجديدة السلمية ودعوتها للتفاهم. ثالثاً: القيام بعرض للعضلات والقوى أمام مؤتمر وزراء الخارجية العرب الذي انعقد في القاهرة، وقرب انعقاد مؤتمر القمة، محاولة لفرض حل عن طريق الأمر الواقع قبل اجتماع الزعماء العرب من جديد، وبحث القضية اليمنية. فبدأ الملكيون بالتسلل عبر الطرق التقليدية من الشمال، بعدما قاموا بتوزيع السلاح والمال وشراء عدد من القبائل، فوقعت المعركة الأولى والأساسية في خولان، على بعد ٦٥ كيلومتراً جنوب شرق صنعاء، التي استمرت يوماً واحداً، حيث تصدت القوات الجمهورية، التي أشرف عليها بنفسه القائد الأعلى للقوات اليمنية المسلحة وعضو المجلس الجمهوري الفريق حسن العمري، للملكيين، وأنزلت بهم خسائر فادحة، منها ضرب أكثر من ١٨ سيارة شحن كبيرة محملة بالسلاح وقوافل عديدة من الجمال محملة بالذهب والأسلحة الخفيفة. وكانت هذه المعركة في يوم ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٦٧ وقد استعمل فيها الجمهوريون الطائرات والدبابات والمدفعية الثقيلة.

وعندما فشل الهجوم المباشر عن طريق المواجهة في معركة واحدة كبيرة، لجأ الملكيون إلى شيء من «حرب العصابات»، وهو إرسال فرق صغيرة من المتسللين إلى قرب صنعاء

وضربها من هناك. ويبدأ هؤلاء المتسللون في الأيام العشرة الأخيرة عملية تمركز في الجبال المحيطة بالعاصمة اليمنية، وبدأوا ضرب صنعاء بالبازوكا ومدافع الهاون. وكانوا جماعات صغيرة، كل جماعة مؤلفة من ٥ أو ٦ أشخاص، يتسللون إلى أماكن معينة ويقصفون منها. فقد حاولوا ضرب مبنى الإذاعة، فوقعت ٣ قنابل على مبنى السفارة السوفياتية القريب من الإذاعة، مما عجل برحيل العائلات السوفياتية إلى القاهرة وموسكو، والديبلوماسيين من أعضاء السفارة إلى الحديدة وتعز. كما أصيبت السفارة السورية الواقعة خارج سور المدينة والمجاورة للسفارة الصينية، بشظايا من قنابل الهاون حطمت زجاجها. ووقعت قنابل عديدة في حديقة منزل أحد الديبلوماسيين الألمانيين الغربيين العاملين برعاية السفارة الإيطالية بعد قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية منذ سنتين. وحاول المتسللون أيضاً ضرب معمل النسيج الذي بناه الصينيون إلا أنهم فشلوا. وضربوا مطار الرحبة المدني (الذي كان المطار العسكري أيام المصريين) لقربه من الجبال المحيطة بصنعاء. فانتقل الطيران إلى المطار المدني القديم، الذي أصبح الآن المطار العسكري، لبعده عن الجبال وعن العاصمة.

ويتابع المتسللون عمليات القصف بهذا الشكل في محاولة لإلهاء الحكومة وإحراجها. فهم لا يستطيعون التركيز والهجوم من جبهة واحدة، فيكتفون بالقيام بأكبر كمية من عمليات الإرهاب. وبالرغم من أن طريق صنعاء ـ الحديدة (الذي بناه الصينيون) وطريق صنعاء ـ (الذي بناه الأميركيون) ما زالا مقفلين في وجه السيارات، خوفاً من هؤلاء المتسللين، فإن القوافل العسكرية الكبيرة والسيارات التي تغامر في حمايتها، تمر عليها. كما أن الطائرات من حربية ومدنية لا تبيت في صنعاء خوفاً من قصف مطارها، إنما في الحديدة.

وكان رد فعل الحكومة ـ وكانت قد اتهمت باللّين وعدم الحزم عند تسلمها الحكم في ٥ تشرين الثاني عام ١٩٦٧ ـ الطبيعي والوحيد، هو القضاء على هؤلاء المتسللين بضربهم بشدة. وعلى امتداد الليل والنهار، يسمع في صنعاء صوت القنابل ويرى دخانها عن بعد، كما يختلط أزيز الرصاص مع مدافع رمضان التي تطلق ٥ مرات في اليوم، ويبرّر المسؤولون اليمنيون الضرب الذي يسمع في صنعاء كلما سئلوا عنه، بأنه مدفع من مدافع رمضان. وقد شاهدت وأنا أنتظر في مطار صنعاء الطائرة لتقلني إلى تعز، إحدى الطائرات اليمنية من طراز «اليوشين» وهي تقصف تجمعات بعض المتسللين في إحدى القرى القريبة من العاصمة، كما تشاهد كثيراً في الليل القنابل المضيئة والصواريخ وهي تبحث عن المتسللين.

وكان الشيء الآخر الذي قامت به الحكومة هو إعلانها قيام المقاومة الشعبية في المدن. فوزعت السلاح على الناس، وبدأت بتدريبهم على استعماله يومياً. وتسلم الشبان اليمنيون زمام الأمن في الشوارع. فتراهم حاملين الرشاشات والقنابل وهم وراء مكاتبهم في الوزارات والشركات والمتاجر. كما يقومون بالحراسة والتفتيش في الليل. وبالرغم من أن اليمني يحمل السلاح ابتداء من سن العاشرة، ويجيد إطلاق الرصاص

ـ حتى أنه يقال في بيت كل يمني مدفع هاون أو بازوكا إلى جانب جبخانة سلاح كاملة ـ فإن الحكومة تحاول تدريب اليمنيين في المقاومة الشعبية على الانضباط العسكري وفن استعمال السلاح الحديث والعمل الحربي الجماعي. فالمقاومة الشعبية مقسمة قطاعات مختلفة، كقطاع الطلاب، (وبعضهم دون الرابعة عشرة من عمرهم) وقطاع الموظفين وقطاع التجار (وبعضهم فوق الخمسين من العمر). ويقوم ضباط من الجيش اليمني بتدريبهم يومياً.

وقال وزير الداخلية بالوكالة العقيد عبدالله بركات إن فرقة الصاعقة اليمنية اعتقلت أحد وزراء الإمام السابق البدر، وهو أحمد نصر السياغي في «الخيمة» في المناطق الغربية، كما اعتقلت مدير إذاعة الملكيين يحيى الدليمي. وذكر بركات أن بين المتسللين مرتزقة من الأجانب، بلجيكيين وفرنسيين وبريطانيين وأميركيين، وأنهم يعملون كخبراء في التخطيط الاستراتيجي والاتصالات اللاسلكية والأسلحة الحديثة. وقد قتل أحد هؤلاء المرتزقة، ويعتقد أنه بلجيكي، وسحلت جثته في شوارع صنعاء قبل أسبوعين. كما عثر على أسلحة أميركية صنعت في اليابان.

وقد أطلعني على الأسلحة الأميركية التي صودرت والموجودة في وزارة الداخلية. كما جرح قائد إحدى فرق التسلل قاسم منتصر، وهو عسكري سابق في الجيش الجمهوري، في معركة قرب صنعاء. ويقال إن إصابته خطرة وأن أحد أطباء الصليب الأحمر الموجودين مع الملكيين يعالجه. وكان قد أعلن منتصر عن هدنة بينه وبين الحكومة الجديدة عند سقوط السلال، إلا أنه عاد ونقض تعهده. ويقال في صنعاء، إن من بين اليمنيين الستة الذين أعدموا يوم الخميس في ٧ كانون الأول عام ١٩٦٧، بتهمة التخريب والتسلل، واحداً من المرتزقة الإيرانيين.

ومما زاد في تضخيم هذه الأحداث، أن أكثر البعثات الديبلوماسية الأجنبية قررت مغادرة صنعاء عند بدء الاضطراب؛ وسبب ذلك أن أكثر هذه البعثات خشيت أن يحدث، في حال دخول الملكيين صنعاء، ما حدث عام ١٩٤٨ عندما اقتحمت القبائل العاصمة وأخذت تفتك بالمواطنين، بعد فشل الثورة ضد الإمام يحيى. وكانت أولها السفارة السوفياتية التي رحلت عائلاتها إلى موسكو والقاهرة بطائرات نقل سوفياتية خاصة، ثم تبعتها السفارات الشرقية، كالسفارة التشيكية واليوغوسلافية والمجرية والبعثة الألمانية الشرقية، وبعثة الأمم المتحدة المؤلفة من موظفي منظمة الصحة العالمية و«اليونيسيف». وأكثر هذه البعثات لها قنصليات في تعز، التي كانت المقر الرسمي أيام الإمام، أو الحديدة. ولم يبق في صنعاء سوى السفارة الإيطالية ومعها الديبلوماسيون الألمان الغربيون الملحقون بها، والسفارات العربية، المؤلفة من السفارة السورية والعراقية والجزائرية. أما السفارة المصرية فكانت قد أغلقت أبوابها في صنعاء وقنصليتها في تعز عند بداية رحيل القوات المصرية، وانتقلت إلى الحديدة، حيث أبقت على عدد قليل من الديبلوماسيين.

وعلق ديبلوماسي صيني (رفض ذكر اسمه أو منصبه) في السفارة الصينية في صنعاء

على رحيل السفارة السوفياتية والسفارات الشيوعية الأخرى عن العاصمة، بقوله: «في الموقف الحرج والخطر عرف الشعب اليمني من هم أصدقاؤه الحقيقيون». وقلت للديبلوماسي الصيني، الذي يتكلم العربية بطلاقة ويجيد الإنكليزية، وهذه هي السنة الثالثة التي يمضيها في اليمن من دون أن يعود مرة واحدة إلى الصين، إن إذاعة الملكيين قد هددت بالقضاء على كل الشيوعيين إذا احتلت صنعاء. فانتفض الديبلوماسي الصيني وقال: «لكن هؤلاء ليسوا شيوعيين. إنهم مجدفون انحرافيون». وعلق مصدر ديبلوماسي أوروبي شرقي على هذا القول، «بأن الصينيين حاولوا إيجاد طائرة لنقل موظفي سفارتهم إلى تعز، وعرضوا ١٠ آلاف دولار لقاء رحلة واحدة من صنعاء إلى تعز ولما عجزوا عن العثور على طائرة استسلموا للأمر الواقع وبقوا في العاصمة».

هذه هي حقائق الأحداث الأخيرة في اليمن. تبقى التفسيرات لهذه الأحداث، ويبقى الوجه «الصحيح» لليمن، الذي بدأ يبتسم، ربما للمرة الأولى في تاريخه، منذ رحيل القوات المصرية وقيام الحكومة الجديدة، وهو أكثر ثقة بنفسه وبإمكاناته، يواجه المستقبل هذه المرة وحده. وقصة اليمن الحقيقية بعد اتفاق الخرطوم وانقلاب ٥ تشرين الثاني عام ١٩٦٧ تبدأ من هنا.

صنعاء - (١٩٦٧/١٢/١٨)

الوحدة أم جليس السوء؟

كل شيء كان طبيعياً بين أسمرة والحديدة. الطائرة القديمة نفسها، ومعها الطيار اليمني الوحيد الذي لم يتغير منذ استقالة زميله اليوغوسلافي الآخر بعد الثورة. الوجوه اليمنية الصغيرة السمراء ما زالت تحمل ابتسامات العودة القلقة، وفي وسطها «الجنبيات» أو الخناجر التقليدية المعقوفة والأحزمة المزخرفة، وعشرات «البقج» تبحث عن مكان بين أرجل المسافرين في «الداكوتا». الناس تتزاحم عند مكاتب الشركة للحصول على مقعد في الطائرة العتيقة التي تقوم برحلتها الأسبوعية اليتيمة بين الحبشة واليمن، ناقلة المزيد من المهاجرين اليمنيين إلى أرض الوطن بعد عشرات السنين من الإغتراب. كان كل شيء يبدو عادياً في مطار أسمرة ذلك الأحد.

إلا ان اليمنيين هذه المرة كانوا في رحلة الساعتين ونصف الساعة بين أسمرة والحديدة أكثر تفاؤلاً بالعودة، وأكثر حرصاً على وصول الطائرة في موعدها. الثورة أكملت السنوات الخمس والمصريون وجيوشهم رحلوا. السلال وحكومته وأعوانه سقطوا. والملكيون؟ طريق الحديدة ـ صنعاء مغلقة؟ الطيران إلى تعز متعذر؟ الاماميون على أبواب العاصمة؟ ابتسم معظمهم عندما رفعت علامات الإستفهام هذه كلها، وأزيز محركي الطائرة يعرقل الحديث بيني وبين رفاق الرحلة. كان الجواب التفاؤل، مزيداً من التفاؤل. «سترى بنفسك عندما نصل إلى الحديدة» ـ قالوا.

وكانت قطعة الصحراء الممتدة على الساحل، تعج بالطائرات. مطار الحديدة هو نفسه، غارق في الرمال، والحر الرطب الذي يلفح الوجوه حتى في كانون الأول، قد أحال معدن الطائرات إلى نار لاسعة، واحتمت الناس تحت أجنحتها إتقاء ـ او ظناً منهم انها تقي من الحر. حمولة الطائرة تلقى على الرمال، الناس تلتقي بعضها بعضاً عند باب الطائرة. لا تستطيع أن تميز بين رجال الأمن أو الجوازات أو الجمارك أو المستقبلين. المطار ممتلىء بالطائرات الحربية اليمنية، ومعها ٩ طائرات نقل سوفياتية من طراز «أنطونوف» تحمل العلم الأحمر. كل الطائرات اليمنية بقيت في الحديدة، خوفاً من ضربها أو قصفها في صنعاء.

طريق البر بين الحديدة وصنعاء غير آمنة هذه الايام. ولماذا السفر براً؟ كانت طائرة «الداكوتا» الأخرى التابعة للخطوط الجوية اليمنية قابعة تنتظر أن تقلع إلى صنعاء دون موعد. تراكضنا إليها. بدأ الناس يلقون بأمتعتهم في داخلها ويرفعون بعضهم بعضاً إليها. هي، وإلا البقاء في الحديدة.

كان الوصول إلى صنعاء في ساعة واحدة بعد الإقلاع من الحديدة. تنهدة ارتياح كبيرة من الركاب. ولعل منظر صنعاء وهي وسط سهل منبسط محاط بأربعة جبال شاهقة، من المناظر النادرة في الدنيا التي تلتصق بذاكرة الإنسان إلى بقية العمر. ولم يكن مطارها مغلقاً، ولا مقصوفاً. المطار القديم ذاته وقد لاح ارحب وأوسع في غياب الطائرات

المصرية. الملكيون ليسوا على أبواب صنعاء، وأبواب صنعاء تهدمت كلها، ولم يبق إلا واحد، هو الباب الحجري الوحيد، الذي يستخدم لتعليق الرؤوس بعد إعدامها. وقد شهد باب صنعاء رؤوساً حتى نسي أسماء مشاهيرها من كثرتهم. شوارعها اتسعت وانهار السور الطيني الذي كان يفصلها عن الأرض الخضراء التي كانت تحيط بها. وللمرة الأولى، ربما في اليمن، برزت حدائق صغيرة وسط الشوارع الجديدة والبيوت، وأشرفت عليها القرى الخضراء الصغيرة المنتشرة حول العاصمة.

كان الفندق الجديد في صنعاء ـ فندق المخا ـ العلامة الفارقة الأساسية التي يحسها الغريب القادم إلى العاصمة اليمنية بعد غياب طال حوالي السنة. في البدء، بعد الثورة، تحول قصر الإمام البدر إلى فندق بإسم «الحرية»، وشيد آخر بإسم فندق «السلام»، حتى كان «المخا»، الذي أصبح الملتقى اليتيم في صنعاء لكل الغرباء. في الصباح وفي الظهر وفي المساء ملتقى السلك الديبلوماسي. فترى القائمين بالأعمال في سفارات سورية والعراق والجزائر، مع السوفياتيين واليوغوسلافيين والتشيكيين والألمان الغربيين في اجتماع دائم مزمن يعبون القهوة والشاي والمياه المعدنية الروسية وكوكاكولا، وارد الحبشة. وتحول «المخا» بقدرة قادر، إلى «دولشي فيتا» و«فيصل» و«هورس شو».

إلا أن المحلات التجارية والدكاكين التي كانت تبيع للمصريين، من الترانزيستور إلى الكاميرات حتى السخانات والبرادات والغسالات بدأت تحس بالغبار يأكل ما تبقى من البضائع التي لا تعني اليمنيين ولا يحتاجونها كثيراً. المقاهي ازدادت، حتى أن واحداً يتوسط ساحة التحرير ويحمل إسمها يرفع صوت أم كلثوم كل ليلة من الإفطار إلى الإمساك.

ولعل الشيء الجديد الذي يلفت أن اليمني العادي صار يحمل بندقية ورشاشاً عوضاً عن بندقية واحدة، إلى جانب مسدس وعشر قنابل يدوية وأيضاً ما لا يقل عن ٥٠٠ أو ألف رصاصة في أمشاط تحيط بصدره كله.

الناس متفائلون يشعرون بمسؤولية. الجمهورية وحدها والشعور بلحظات مصيرية يغلب على الجميع. حكومة السيد محسن العيني، قبل أن تستقيل، لم تكن تهمهم بقدر ما تلفت انتباههم باختلاف وتناقضات أشخاصها. ولم تكن تقلقهم بقدر ما كانت تريحهم من السلال. التصميم على المقاومة واضح. ورفض المساومة على الجمهورية ليس مثار جدل، على الإطلاق.

والحديث لا يدور على محسن العيني، ولا على هويته البعثية السابقة، ولا على رئيس مجلس الرئاسة القاضي عبدالرحمن الارياني أو زميله السيد محمد علي عثمان، بل على العضو الثالث ورئيس الحكومة الحالية، والقائد الأعلى للقوات المسلحة الفريق حسن العمري (٥٠ سنة). هل هو سلال آخر؟ أغلب الظن لا. فقد باشر العمري حياته السياسية بمحاربة الإمام، وتنقل من سجون الإمامة إلى سجون الثورة. وبعد الثورة عيّن عضواً في مجلس الثورة، ثم غدا وزيراً للنقل ثم للمواصلات قبل أن يعين نائباً

لرئيس الجمهورية عام ١٩٦٣. وعمل رئيساً للوزراء مرتين لفترتين قصيرتين. الأولى بين كانون الثاني ونيسان عام ١٩٦٥، والثانية بين تموز وأيلول عام ١٩٦٦، عندما اعتقل ووضع قيد الإقامة الجبرية في القاهرة بعد اختلافه مع السلال. واليوم يعود على أثر الإنقلاب على السلال، ليكون الرجل الأول، والرجل القوي، ورجل التطرف.

الصينيون أكثر الأجانب لفتاً للنظر. أزرار ماوتسي تونغ الحمراء تزين صدر كل يمني، لا إيمانا به أو بأفكاره بل لأنها حمراء ذهبية جميلة. واليمني يحب أن يتزين بالأشياء الملونة البراقة. والصينيون أكثر الأجانب حضوراً وعدداً وسفارتهم أكبر السفارات. خدماتهم، تبدو أنها الأكثر ذكاء، لأنها مشاريع ملموسة. طريق صنعاء ـ الحديدة، من أجمل وأبدع الطرق، وهي الوحيدة المعبدة في اليمن جمعاء. في نهايتها، عند مشارف صنعاء، معبد ومظلة صينيان ملونان، تحية للمهندس تشانغ تشي شوان الذي قتل في حادث سيارة على الطريق قبل أن ينتهي منها بأسابيع.

وقال لي دبلوماسي صيني عندما زرته في السفارة وهو يتحدث عن المشاريع الصينية في اليمن: «إن الأميركيين قالوا إن طريقاً بهذه الصعوبة وهذا الطول (حوالى ٢٥٠ كيلومتراً) لن تكتمل في ثلاث سنوات إذ المعدات ليست كافية. لكننا انتهينا في أقل من ثلاث بفضل همة ونشاط العمال اليمنيين. واليوم ها نحن نشق طريق صنعاء ـ صعدة، وهي بصعوبة الأولى، وإن كانت أقصر قليلاً». (٢٢٦ كيلومتراً).

وإلى جانب الطرق، هناك مصنع نسيج بناه الصينيون أيضاً، هو الأول في تاريخ اليمن، لا شيء يوحي بأنه صيني إلا صورة ماوتسي تونغ التي تتصدر كل قاعة فيه. ولا تشاهد من الصينيين إلا خبيرين أو ثلاثة، وتختفي بعدها المعالم الصينية كلها. وللمرة الأولى في تاريخ اليمن أيضاً، تعمل المرأة. فمعمل النسيج يضم حوالى الف عامل، نصفهم على الأقل من النساء، دربن كلهن في صنعاء من قبل خبيرات صينيات. أما مدير المعمل فيمني درس في ألمانيا الغربية ويحب أن يتكلم الألمانية باستمرار. ولا يتدخل الصينيون في شؤون العمال، أو أفكارهم السياسية، التي هي في أيد يمنية، مكتفين بصور ماو ومقتطفات من أقواله على الجدران.

في تعز، المدينة المعلقة على مدارج جبلين، مزروعين قاتاً، والعاصمة الديبلوماسية لليمن منذ الإمام إلى ما بعد الثورة، كان الناس اكثر هدوءاً واسترخاء والسلاح اقل صفعاً للعين الغريبة. إلا أن أهم ما يلفت في تعز هو حركة البناء غير العادية التي تشغل الكل. عشرات البيوت الحديثة الملونة، ترتفع على الهضبات الصغيرة، حتى تكاد تعز إذا استمرت هذه الحركة، تصير مدينة حديثة كلياً في بضع سنوات، فالناس في تعز في أمان، بعيدون عن الملكيين ومراكز التسلل، وأشد إتصالاً بعدن والجنوب. وسر البيوت الحديثة التي تبنى، أن معظمها، إن لم تكن كلها للمغتربين اليمنيين الذين عادوا بعد هجرة عشرات السنين إلى الوطن. واكبر مصادر الهجرة اليمنية هو «الحجرية»، وهي

قرية بجوار تعز أغلب المهاجرين الأثرياء فيها، رجعوا ليبنوا في العاصمة الثانية مراكز جديدة لوجاهتهم. وتعز بوابة اليمن إلى الجنوب، وعبرها تستورد اليمن من عدن ما تحتاجه وتصدر القات.

وفي تعز، حديث الوحدة اليمنية، حديث مفتوح، كحديث الوحدة العربية في مقاهي بيروت. وشعار «وحدة التراب اليمني» شعار مطروح. وتبدو وحدة شمال اليمن (الجمهورية العربية اليمنية) وجنوبه (جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية ـ عدن والجنوب العربي) بكل مقوماتها، حديثاً عقائدياً مقنعاً إلا أن واقعها كوحدة سورية ولبنان، حتى لا نقول كالوحدة السورية ـ المصرية. واليمنيون ـ أي الشماليون ـ من رسميين ومثقفين يتكلمون عن الوحدة بشروطهم الخاصة. فالوحدة مع الجنوب، في رأيهم، يجب أن تكون كاملة مباشرة غير مجزأة إقليمياً أو فيدرالياً. العاصمة صنعاء، ولها حكومة واحدة. الجنوب فيها محافظات كبقية محافظات البلاد. وعند الحكومة اليمنية مشروع للوحدة الفورية خلال سنة إذا قبل به الجنوب. لكن حديث الوحدة اليمنية سيطول. فالشمال مشغول بجمهوريته وملكيته والجنوب مشغول بجبهته القومية وجبهة التحرير. والعلاقات من جراء ذلك باردة بين صنعاء ومدينة الشعب، عاصمة الجنوب. فالحكومة اليمنية تحمي في أراضيها ما لا يقل عن ٤ آلاف مسلح من جبهة التحرير، وتخاف الجبهة القومية الحاكمة في الجنوب، أن يترك الشمال لهم حرية التسلل وإثارة المتاعب. فاليمن الجمهوري، بتأثير من المصريين، أيد باستمرار جبهة التحرير وحمى زعماءها ووفر لها مراكز التدريب والعمل. واليوم رغم استيلاء الجبهة القومية على الحكم في الجنوب، وجلاء المصريين عن الشمال، وتغيير نظامي الحكم، فإن العلاقة بين الحكومتين ما زالت تقتضي الدبلوماسية والتقارب لتغدو عادية.

والطريق من تعز إلى عدن، طويلة ووعرة، تستغرق في السيارة بين ٦ و٨ ساعات. وتتوقف السيارة خلالها عند أكثر من ٦ مراكز للتفتيش قبل أن تصل إلى «كرش»، الحدود الأولى مع الجنوب. وعندما كان الناس يعرفون أن السيارة متجهة نحو عدن، يتقدمون ويكتبون بأصابعهم على غبار السيارة «فلوسي» Flosy. (وهي الأحرف الإنكليزية لإسم جبهة التحرير). وكان أغلب هؤلاء الناس المنتشرين في قرى الحدود من العدنيين والجنوبيين أنصار جبهة التحرير الذين لجأوا إلى اليمن بعد الحرب الأهلية الدموية وإعلان الإستقلال.

كان علم الجبهة القومية الأحمر والأبيض والأسود يرفرف على كل هذه المراكز، إلى جانب علم جيش الجنوب العربي الأخضر. والناس في تلك المراكز مسترخون يبيعون القات، أو ينتظرون الإفطار حتى يبدأوا «التخزين». ذلك أن اليمن، بلسان وزير اقتصاده الدكتور محمد سعيد العطار، يضيع ٢ مليارات ساعة عمل في السنة الواحدة من جراء القات. أما الطريق، فحدث عنها ولا حرج، حتى تصل إلى مشارف لحج حيث إهتم البريطانيون ببناء طريق معبدة، تمر بين الإخضرار الوحيد في الصحراء. فلحج، هي المصدر الفريد للخضار والقطن والزراعة القريب من عدن. أما البقية فمن اليمن.

وكان الدخول إلى عدن عبر متاريس ومراكز التفتيش البريطانية السابقة. كل ما فعلته الجبهة القومية أنها ورثت وسائل الأمن البريطانية عند الإستقلال، وأخذت تطبقها بحذافيرها بعده كأن لم يتغير شيء. وبدت مدينة محروقة، في النواهي، دكان واحد فقط، من كل عشرة مفتوح. وفي المنصورة منزل واحد من كل عشرة مهدم، وفي الشيخ عثمان بيت ودكان من كل عشرة ممشطين بالرصاص والقنابل وملونين بشعارات الجبهة القومية وجبهة التحرير. فبقايا الحرب الأهلية تصفع الزائر في وجهه منذ الإطلالة.

ولا أحد يحسد جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية على التركة التي خلفتها بريطانيا. ولولا آثار زينة الإحتفالات بالإستقلال، لظن الزائر القادم من بعيد أن الناس في حزن شديد. الفراغ شيء، والحياة شيء، وعدن كانت مدينة بلا حياة. البيوت فارغة هجرها الإنكليز، الأنوار الصفراء ما زالت تضيء ليلاً نهاراً كأن البريطانيين نسوا أن يطفئوها أو أن يقولوا للوطنيين من أين تطفأ الأنوار! الأسلاك الشائكة وأكياس الرمل كما تركها الإنكليز مهجورة ولا حراسة، يستخدم الجيش بعضها والجبهة القومية بعضها الآخر.

الناس، أصحاب المتاجر والأملاك، وقد أرهقهم إغلاق قناة السويس وتعطيل مرفأ عدن أكثر مما أرهقهم غياب البريطانيين، يخافون التأميم والمصادرة. سجن المنصورة البريطاني الذي كان يضم الوطنيين السياسيين، أصبح يضم عشرات من أعداء الجبهة القومية باعتراف السلطات. الكل يعلن أن جبهة التحرير لم تنته. مهما قال الحاكمون، شيء ما يجب أن يقع بعد العيد. وكان هذا واضحاً في الشيخ عثمان وفي كريتر حتى في المنصورة. زعماء جبهة التحرير فروا إلى تعز واليمن، السلاح كثير ومتوافر في أيدي الجميع.

وإذا كانت الحرب في اليمن، هي حرب القادر على الدفع وتوزيع النقود والغنائم على القبائل، فمن يدفع أكثر، ربما يربح، على اعتبار أن صناعة الحرب بالنسبة إلى القبلي اليمني حرفة ومهنة مثل سائر الحرف والمهن. إلا انها في الجنوب حرب موقف تحتاج إلى النقود وإلى السلاح وإلى التأييد، لا إلى الشراء. واليوم والأمر الواقع هو الأقوى دائماً. أصبح تأييد الدولة لجبهة التحرير محرجاً، ومساعدتها مادياً أشد إحراجاً. والمعركة بين الجبهتين لا بد آتية، مهما كانت النتائج.

وإلى جانب الحديث عن أشخاص الوزراء والحاكمين الجدد في الحكومة والحزب، يطغى دائما الحديث عن الجيش. فالمراقبون عرباً وأجانب، يرون أن يتحرك الجيش، وهو القوة القادرة على الوقوف والتغلب على الجبهتين معاً إذا اندلعت الحرب الأهلية من جديد.

التصفيات التي يقوم بها الحكم الحالي، انتهت بالخلاص من ١٨ ضابطاً، من بينهم قائد الجيش العقيد محمد أحمد العولقي، وقائد الشرطة والأمن العام العقيد عبدالهادي شهاب الذي عيّن غداة الإستقلال في منصبه لأنه من أنصار الجبهة القومية. وكانت

حجة الجبهة، في هذه التصفيات، أن هؤلاء الضباط ينتمون إلى الأسر السلطانية وأنهم من مؤيدي الإستعمار البريطاني، والمتهمين بالعمالة له. فوجودهم، في رأي الحكومة، عائق للثورة!

وهذه التصفية لم تتم إلا لأن الحكومة شعرت بأن هناك محاولة إنقلابية للإطاحة بها من قبل الجيش، رغم محاولة تلقيح الجيش خلال السنوات الماضية بعناصر من الجبهة القومية. لذلك كان الجيش، وسيظل، سيف ديموقليس المسلط على رقبة الجبهة القومية والحكومة، مهما استمرت التصفيات أو تباعدت. والناس يتساءلون إذا كانت التصفيات تمت للتخلص من الأسر السلطانية الحاكمة في حين أقالت قائد الجيش لأنه عولقي، وعينت قائداً جديداً للأمن العام هو عولقي آخر؟

فالقائد الجديد العقيد عبدالله صالح بن سبعة العولقي، قريب قائد الجيش المقال، ورغم أن العوالقة يشغلون مناصب كثيرة في الجيش، فحتى ذلك يعتبر تبريراً غير مقبول.

يبقى الحديث عن الحزب الذي هو الجبهة القومية وعن الحكومة ووزرائها، الذين هم أعضاء فيها. ويقول السيد عبدالله الخامري، وهو واحد من ثلاثة سكرتيرية للجنة التنفيذية للجبهة، «إن تنظيم الجبهة القومية هو السلطة الأساسية، والحكومة هي السلطة التنفيذية. فهناك قيادة عامة لتنظيم الجبهة القومية. والقيادة العامة هي السلطة التشريعية، وهي التي تشترع للسلطة التنفيذية. والسلطة التنفيذية، أي الحكومة، مسؤولة أمام القيادة. أما عدد أفراد القيادة فيبلغ العشرين وللقيادة لجنة تنفيذية من ٣ أشخاص. وقد دخل حوالي ٧ من القيادة العامة الوزارة، وهناك ٣ وزراء في الحكومة لا ينتسبون إلى الجبهة، هم وزراء الصحة والتربية والأشغال. والحزب هو السلطة الأساسية، والحزب لا يتمثل في عشرين شخصاً في القيادة العامة فحسب بل في مختلف إطاراته. ودور الحزب، دور طليعي مهمته أن يقود التحالف الثوري. لذلك توقف البحث في طلبات الإنتساب إلى الحزب، بانتظار التعديل في قوانينه بعد الإستقلال».

ويقول عبدالله الخامري أيضاً، «نؤمن بالحزب الواحد، ونؤمن بالديموقراطية الشعبية. وتحت هذه يمكن لعدة عناصر أن تشترك في العمل السياسي. وهناك فرق بين الديموقراطية الليبرالية والديموقراطية الشعبية. وأستراتيجية الحزب التي قامت واتبعت خلال الثورة والمطالبة بالإستقلال تبقى، إنما تكتيك الحزب يختلف الآن، ونحن في الحكم، عما كان قبله».

من خلال كل ذلك، يبدو الهدوء في عدن، هدوءاً مفتعلاً، لكنه حزين. فالتساؤلات والفراغ تحيط بكل شيء. والناس ينتظرون الأسود دائماً. أما «وحدة التراب اليمني»، فشعار مرفوع دائماً، وخاصة في الطرف الجنوبي، ولعله سيبقى إلى اليوم البعيد الذي سيأتي فيه رجل يستطيع أن يسقطه ويجبله بذلك التراب، محققاً الوحدة الحقيقية.

والإنتظار، انتظار الوحدة طويل. والإنفجار الجديد على الأبواب.

صنعاء - (١٩٦٧/١٢/٢٤)



٢- اليمن جنوباً

عدن تحترق

كان المتفائل الوحيد الذي قابلته في عدن تاجر أصواف بريطانياً يبتسم فرحاً لأن مبيع منتوجاته الصوفية ازداد بنسبة ٢٠ بالمائة. قال لي: «إن تجار عدن يرسلونها إلى اليمن ليشتريها الجنود المصريون، وعندما ترحل بريطانيا سيزداد بيع الأصواف لأن المصريين سيأتون إلى عدن ليشتروا الأكثر منها».

كان ذلك في أواخر عام ١٩٦٦. أما اليوم فأشك أن التاجر البريطاني ما زال هناك، وما زال... متفائلاً. ولعل التفاؤل أصعب ما في الحديث عن قضية عدن والجنوب العربي.

هيتشكوك (المخرج السينمائي) وحده يستطيع أن يعطي للرعب في عدن معناه الحقيقي. بنادق، مدافع، أسلاك شائكة، متاريس، نقاط تفتيش عند كل منعطف، دوريات عسكرية، أنوار كاشفة في الليل، انفجارات متوالية طوال الأربع والعشرين ساعة، قنابل لم تنفجر أمام البيوت والفنادق، رصاصات تبحث عن تسديد حسابات مستحقة: كل هذا جزء من الحياة اليومية في عدن. فلا مكان للتفاؤل إلا عند تجار الأصواف... والسياسة. واكتملت حلقة الرعب في عدن بوصول بعثة الأمم المتحدة قادمة من نيويورك، عبر لندن، القاهرة وجدة، سعياً وراء حل للقضية التي دخلت دوامة الانهيار السياسي، وسط حملة إرهاب لم تشهدها عدن في كل تاريخها. وزاد تشابك الخيوط، وأصبح البحث عن بداية للقصة أصعب من إيجاد مخرج.

مجموعة متداخلة من القرارات الخاطئة والفرص غير المستغلة والمصالح السياسية الدولية والمحلية والخلافات الشخصية، تقف وراء السياسة التي ساقت الجنوب العربي نحو حافة اللارجوع. فبعد قيام ثورة اليمن في عام ١٩٦٢ وإعلان الجمهورية ووصول القوات المصرية إلى الأراضي اليمنية وسط مد وحدوي عارم كان اجتاح المنطقة كلها منذ عام ١٩٥٨ اثر إعلان الوحدة بين مصر وسورية وألهب الجماهير بحماسة دافقة، وقف

وزير المستعمرات البريطاني دنكان ساندز ذلك العام ١٩٦٢، ليعلن عن مشروع ضم المحميات البريطانية في اتحاد فدرالي مع عدن، تستطيع بريطانيا أن تمنحه الاستقلال قبل نهاية عام ١٩٦٨. وألزم ساندز وحكومة المحافظين وقتئذ بريطانيا بهذا الموقف واليوم قام هو يطالب بالتراجع عنه.

وكان نجاح مشروع ساندز يستند إلى عاملين أساسيين. الأول: قيام اتحاد فدرالي بين ٢٣ سلطنة ومشيخة تشكل مجموع محميات عدن الغربية والشرقية المحيطة بعدن، وبين مستعمرة عدن نفسها، بزعامة الحكام التقليديين. والثاني: تأمين استمرار الوجود العسكري البريطاني في قاعدة عدن، بواسطة معاهدة دفاعية تعقد مع حكومة الجنوب العربي بعد الاستقلال.

وفشل مشروع ساندز وفشلت أيضاً الحكومة الاتحادية رغم مساعدة بريطانيا العلنية والسرية لها، في فرض سلطتها على الجنوب العربي ولا سيما عدن. وازدادت مقاومة الوطنيين وأخذت تتخذ طابع العنف المسلح، الذي تحول عبر الأيام إلى تصاعدية إرهابية. ولم يبق من سياسة ساندز عندما تسلم حزب العمال الحكم في بريطانيا عام ١٩٦٤ إلا حكومة اتحادية عاجزة، ووجود عسكري بريطاني قلق، والتزام واضح بالدفاع عن الحكومة والمؤسسات المتوافرة في الجنوب.

وكانت بريطانيا قد بدأت منذ عام ١٩٥٠ تطرح فكرة اتحاد المحميات مع عدن، دون أن تقوم بخطوة إيجابية في هذا المضمار. حتى عام ١٩٥٩، عندما راودتها الفكرة من جديد، وأعلن حكام ست محميات غربية، هي: بيحان، العواذل، الفضلي، مشيخة العوالق العليا، الضالع، يافع الساحل، إقامة ما سموه «اتحاد إمارات الجنوب العربي». ووقع الاتحاد معاهدة صداقة وتعاون مشترك مع بريطانيا، محتفظاً بمعاهداته الفردية السابقة معها. وطفقت بقية المحميات تنضم إلى هذا الاتحاد شيئاً فشيئاً، حتى خريف عام ١٩٦٢ حيث تغير اسم الاتحاد إلى اسمه الحالي «اتحاد الجنوب العربي» وأصبح يضم ١١ محمية هي إلى جانب الست السابقة: لحج، الداثنة، العقربي، العوالق السفلى، والواحدي. وانضمت مستعمرة عدن إلى الاتحاد في السنة نفسها، وتبعتها الشعيب والحوشبي في عام ١٩٦٣، فسلطنة العوالق العليا، والعلوي والمفلحي في عام ١٩٦٥. وبلغ عدد أعضاء الاتحاد ١٧ سلطنة ومشيخة. وبقيت سلطنة يافع العليا الوحيدة بين المحميات الغربية خارج الاتحاد بالإضافة إلى المحميات الشرقية الثلاث: القعيطي والكثيري، والمهرة، بما في ذلك جزيرة سقطرة وجزر كوريا موريا.

واقتضى مرور سنتين على تسلم حكومة العمال للحكم، لتقرر سياستها تجاه الجنوب والاتحاد. فقد حاولت في البدء إعادة فتح الحوار بين الاتحاديين والوطنيين إلا أن المحاولة سقطت لأن موقف بريطانيا لم يكن واضحاً بالنسبة إلى دورها العسكري في المنطقة، ولا بالنسبة إلى دور الأمم المتحدة وضرورة إدخالها في اللعبة الدائرة هناك. وفي عام ١٩٦٦ أعلنت الحكومة البريطانية قراراتها الثلاثة: ١ ـ الانسحاب من قاعدة عدن قبل نهاية عام ١٩٦٨، ٢ ـ التخلي عن أي التزام دفاعي بعد استقلال اتحاد الجنوب

العربي، ٣ ـ دعوة الأمم المتحدة للمشاركة في تهيئة الفترة الانتقالية للاستقلال. وظنت بريطانيا أن الأمر انتهى عند هذا الحد. وتفاقم جو الإرهاب في عدن، وتدهورت حالة الأمن وإذا بالرصاصة والقنبلة تصنعان الملوك.

والقراءة الحقيقية لما يجري اليوم في الجنوب تتطلب تحديداً واضحاً لأهداف الوطنيين التي هي تحطيم ما تبقى من سلطة الحكومة الاتحادية، بحيث أنها لا ترث تلقائياً الحكم من بريطانيا بعد انسحابها، لذلك يقع الهجوم على الاتحاديين وحماتهم الحاليين ـ الجنود البريطانيين. ويزيد الإرهاب العنف ويوصله إلى نقطة حساسة من الصراع اللامجدي الهادر للدماء.

فالأحزاب الثلاثة المناهضة للاتحاد بشكله الراهن وللوجود البريطاني، والتي تمثل التيار الوطني الشعبي، تحاول أن يمسك بعضها بخناق بعض عندأول فرصة، كما وقع في نيسان عام ١٩٦٧ بين المتنافستين الرئيسيتين، «جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل» و«الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل»، حيث ألقى أحدهم قنبلة على الطرف الآخر حين اصطدمت التظاهرتان، بدلاً من الاصطدام بالبريطانيين كما كان مقرراً، وحين اتهمت جبهة التحرير الجبهة القومية بقتل أحد أفرادها.

وجبهة تحرير جنوب اليمن المحتل كانت بدايتها في الخمسينات عندما تألف أول تنظيم نقابي في عدن، باسم «مؤتمر العمال العدني» الذي كان يضم في مطلع نشوئه مختلف التيارات السياسية، وكانت أغلبية أعضائه من العمال اليمنيين الذين يعملون في عدن. وبرز فيه عبدالله الأصنج (عدني) كأمين عام للمؤتمر ونقابي ناجح. ومع تطور الأحداث بدأ مؤتمر العمال العدني يتحول إلى حزب سياسي مغذياً طموح الأصنج السياسي. وبعدما قامت ثورة اليمن في أواخر عام ١٩٦٢ واجتاحت الاضطرابات عدن في مستهل عام ١٩٦٣، أعلن الأصنج تأسيس «حزب الشعب الاشتراكي»، ليكون الواجهة السياسية للمؤتمر العمالي. وكانت مبادىء الحزب الواضحة تقول إن عدن والجنوب العربي هما منطقتان يمنيتان، يجب أن تنضما فوراً إلى الجمهورية اليمنية في ظل أنظمة اشتراكية.

ومع وضوح النيات البريطانية بالنسبة إلى جلاء قواتها وإعلان استقلال الجنوب العربي، واستقرار القوات المصرية في اليمن، طرحت فكرة تحويل حزب الشعب الاشتراكي إلى جبهة تضم الفرقاء كافة في الأحزاب والمنظمات الأخرى، لمحاربة النفوذ البريطاني في المنطقة والتعجيل بموعد الاستقلال والقضاء على حكومة السلاطين. إلا أن الجبهة القومية التي كانت تمثل بمعظمها حركة القوميين العرب رفضت حل نفسها، كما رفض حزب «رابطة الجنوب العربي» حل نفسه أيضاً. وخرج من الحزبين عدد من الأعضاء الذين قبلوا بالانضمام إلى الجبهة. وأعلن عن ولادة «جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل» في أواخر عام ١٩٦٤. وانتقل نشاط جبهة التحرير إلى تعز في اليمن التي غدت المركز الرئيسي لعملياتها. وأصبح الأصنج رئيساً لها وعين عبد القوي مكاوي

أميناً عاماً، بعدما علقت بريطانيا الدستور في عدن وأعلنت حالة الطوارىء إثر تفاقم عمليات الإرهاب والعنف، وأقالت الوزارة التي عينتها برئاسة مكاوي. ولم يجد مكاوي مجالاً للبقاء مع الطرف الثاني بعد إقالته فانضم إلى الجبهة وقبل بدور ثانوي إلى جانب الأصنج.

ووضعت القاهرة ثقلها بكامله إلى جانب جبهة التحرير، بعدما فشلت مساعيها في دمج الجبهة القومية مع جبهة التحرير. وكانت الجبهة القومية قد تأسست في تموز عام ١٩٦٤ بقيادة حركة القوميين العرب ممثلة بقحطان الشعبي وطه مقبل وعلي السلامي وفيصل الشعبي وسيف العولقي. إلا أنها عانت من انسحابات كثيرة في أواخر عام ١٩٦٦، إما احتجاجا على قيادتها وإما على تحولها إلى فرع آخر لحركة القوميين العرب في الجنوب. وكانت فكرة دمج الأحزاب السياسية بجبهة التحرير، قد طرحت جدياً كما كانت القاهرة قد بدأت تبدي بعض الجفاء نحو الحركيين. فرفضت الجبهة القومية بقيادة قحطان الشعبي حل نفسها والعمل مع الأصنج وجماعته. وخرج منها طه مقبل وعلي سلامي لينضما إلى جبهة التحرير. ونزلت الجبهة القومية إلى الشارع وكانت سباقة إلى قيادة حملة العنف والإرهاب ضد البريطانيين والسلاطين. وتحولت المنافسة بين الشعبي والأصنج إلى مزايدات إرهابية في الشوارع.

ثم انفجر الصراع علناً بين جبهة التحرير والجبهة القومية. فقد وفرت الظروف السياسية للمرة الأولى منذ بدء تصاعدية العنف والإرهاب في عدن، لقاء القوتين جهاراً وجهاً لوجه في الشارع الواحد. فتحول استعراض العضلات من المزايدات في إلقاء القنابل على البريطانيين ـ العدو المشترك ـ إلى إلقائها بعضاً على بعض. وبدأ تسديد الفواتير القديمة المجمدة، منذ اختلاف الجبهة القومية مع جبهة التحرير، ومنذ نفور قحطان الشعبي من عبدالله الأصنج. والقاهرة التي دعت منذ البدء إلى توحيد القوى الوطنية في جبهة واحدة وقفت إلى جانب الأصنج وحزبه، ومن ثم إلى جانب جبهة التحرير التي ما فتئت تدعمها إلى أقصى حد بالمال والسلاح والخبرة وتؤيد مواقفها وأعمالها.

وكانت القاهرة ترغب في أن تنضم الجبهة القومية إلى جبهة التحرير، فرفضت لكون أكثر أعضائها من الحركيين الذين آثروا البقاء كحزب له حضوره في أنحاء العالم العربي كافة كما رفض الشعبي أن يخضع لسيطرة الأصنج، وعلى هذا لجأت الجبهة القومية إلى الشارع لإثبات قوتها. وكانت القاهرة ذلك الوقت حريصة أيضاً على ضم أكبر عدد ممكن من التنظيمات الشعبية إلى جبهة التحرير، بما فيها «منظمة تحرير الجنوب المحتل» التي كانت ائتلافاً حزبياً تشكل عام ١٩٦٤ من حزب رابطة الجنوب العربي وحزب الشعب الاشتراكي، (قبل أن يخرج الأصنج ويعلن عن تشكيل جبهته) وحزب المؤتمر الشعبي وفئات مستقلة صغيرة تضم بعض السلاطين السابقين كعلي عبدالكريم الفضلي وغيره. ولما رفضت الرابطة حل نفسها أيضا وخرج الأصنج وحزبه من هذا التنظيم، انهارت «منظمة التحرير» وعاد كل حزب إلى قواعده القديمة.

وتدفق إلى صفوف الجبهة القومية الوطنيون المعارضون لسيطرة القاهرة على جبهة التحرير، والمختلفون معها لأسباب سياسية وغيرها، والمختلفون أكثر وأكثر بين بعضهم البعض، إذ أن التنافس الشخصي ما زال يلعب دوراً كبيراً في تقرير ولاء الأفراد في الجنوب. ومن بين الذين تدفقوا الشيوعيون على قلتهم، وبعض البعثيين القدامى الذين رأوا أن تصفية خلافاتهم مع الحركيين أسهل من تصفية خلافاتهم مع القاهرة، وعدد من المستقلين الباحثين عن هوية سياسية وطنية دون أن يكون لهم ولاء خارج حدود الجنوب.

لكن جبهة التحرير بقيت هي الأقوى والأكثر عدداً في الجنوب وإن كانت قوتها متركزة في عدن ولا تتعداها إلى أيٍّ من دويلات الاتحاد. وكذلك الجبهة القومية، فقوتها ـ على ضعفها ـ هي أساساً في عدن وليس لها خارج المستعمرة نفوذ. أما حزب الرابطة فهو الأضعف في عدن، وخاصة شارعياً إلا أنه الوحيد الذي له نشاط وفروع في دويلات الاتحاد، رغم خطر نشاطه في أكثرها. فهو أقوى الأحزاب في لحج وفي حضرموت ولدى الطبقة المتوسطة والمثقفة في عدن، وبين بعض الشبان الاتحاديين الذين يرفضون فكرة كون الجنوب جزءاً من اليمن، أو فكرة الالتحاق باليمن.

أما حزب رابطة الجنوب العربي فهو أقدم الأحزاب في المنطقة. تأسس عام ١٩٥٠ برئاسة محمد علي الجفري، وطرح فكرة وحدة عدن مع محميات الجنوب كله. واصطدمت هذه الدعوة أول ما اصطدمت بالبريطانيين. وكان يضم في بدايته معظم الاتجاهات السياسية في العالم العربي. فدخله الشيوعيون والبعثيون والحركيون. إلا أن هذا التعايش العقائدي لم يدم طويلاً فخرج الجناح البعثي بزعامة محمد سالم علي في عام ١٩٥٥، وانضم فيما بعد إلى حزب الشعب الاشتراكي، وبدا عطف البعثيين في العالم العربي على الأصنج واضحاً منذ ذلك التاريخ. وبقي الأمين العام الحالي للحزب شيخان الحبشي، بعدما كان أول من انتمى إلى حزب البعث في الجنوب في عام ١٩٤٢. وفي عام ١٩٥٧ خرج الشيوعيون بزعامة عبدالله باذيب، أول شيوعي في الجنوب وصاحب صحيفة «الأمل» في عدن. وفي عام ١٩٦٠ خرج الحركيون بزعامة طه مقبل. وبقيت دعوة الرابطيين تقول إنهم الحزب المحلي الصحيح والوحيد في الجنوب وإن الجنوب العربي ليس جزءاً من اليمن، بل مستقل ويجب أن ينال استقلاله وحده. وإن اي لقاء بين الجنوب واليمن يجب أن يتم على أساس وحدوي لا على أساس إقليمي.

إلى جانب هذه الأحزاب الثلاثة ثمة أحزاب صغيرة تستمد قوتها من مراكز تجمعها، كحزب «الجمعية العدنية» الذي كان يدعو إلى «عدن للعدنيين»، وهو تجمع صغير يضم التجار وبعض الاقتصاديين من عرب وصوماليين وهنود، لمع في فترة الخمسينات الأولى. وحزب «المؤتمر الشعبي» الذي يتزعمه محمد لقمان، أحد وجهاء عدن. و«حزب الشعب» الذي يتزعمه فريق صغير من غير العدنيين العرب الذين يدعون للحفاظ على المصالح العدنية. و«الحزب الوطني الاتحادي» الذي يرئسه حسين علي بيومي وزير الطيران في الحكومة الاتحادية، ومن أعضائه عبدالرحمن جرجره وزير الإرشاد في الحكومة

الاتحادية أيضاً، والذي ورث أمجاد «الجمعية العدنية» ويحاول أن يدخل عدن إلى الاتحاد عن طريق إعطائها شروطاً أفضل وتمثيل العدنيين تمثيلاً نسبياً كبيراً في الدولة ومؤسساتها التشريعية، مدخلاً لعبة التوازن بين الاتحاديين من المحميات وبين العدنيين الذين يمثلون الطبقة المثقفة والفعاليات الاقتصادية.

إلا أن الحديث عن المستقبل في عدن واتحاد الجنوب العربي الذي يفرضه وجود بعثة الأمم المتحدة، هو حديث عن التفاؤل. وهذا، ما زال صعباً. فالبعثة الدولية التي اختارها يوثانت ووافقت بريطانيا عليها وأقرت لجنة تصفية الاستعمار إيفادها، تواجه مهمة من أصعب وأدق المهام. وعندما يرفع «الحكماء الثلاثة»، أعضاء البعثة، تقريرهم إلى الأمين العام للأمم المتحدة، سيصبح التقرير وثيقة إدانة نادرة للأطراف المعنية جميعاً في الجنوب. و«الحكماء الثلاثة» الذين يحاولون اختراق أصعب دوامة سياسية في الشرق الأوسط هم نخبة من الرجال غير السياسيين. رئيس البعثة الدكتور مانويل بيريز غوريرو من فنزويلا، خدم في الأمم المتحدة ٢١ سنة، ويتكلم ست لغات من بينها العربية؛ وعمل وزيراً للمالية والصناعة في بلاده وسفيراً لها في اقطار أخرى، منها القاهرة. والرجل الثاني عبدالستار الشاليزي من أفغانستان، كان نائبا لرئيس حكومة بلاده؛ وبنى سمعته في لجان التخطيط والإنماء في الأمم المتحدة. أما الثالث فهو موسى لبو كيتا مندوب مالي في الامم المتحدة ورئيس مجلس الأمن الدولي في العام ١٩٦٦.

وبدأت بعثة الأمم المتحدة رحلتها من نيويورك إلى لندن، حيث استمعت إلى وجهة النظر البريطانية، وطارت من هناك إلى القاهرة حيث استمعت إلى وجهة النظر المصرية وحاولت أن تتصل بعبد القوي مكاوي هناك، دون جدوى. ومن القاهرة سافرت البعثة إلى جدة لتستمع إلى وجهة النظر السعودية ولتلتقي بممثلين عن الهيئات العدنية والجنوبية وتتحدث إليهم. وفي الثاني من نيسان عام ١٩٦٧ وصلت البعثة الدولية إلى عدن، لتحاول أن تمسك بأول خيوط الحلقة المفرغة.

جبهة التحرير أعلنت عن مقاطعتها للبعثة، إلا إذا اعترفت بأنها الممثلة الوحيدة لشعب الجنوب العربي. ورغم أن البعثة اجتمعت في القاهرة بالمسؤولين المصريين وبالمسؤولين في الجامعة العربية، فقد فشلت في الاجتماع بمكاوي الذي كان همها أن تجتمع به. وبذل مكاوي جهوداً كبيرة حتى لا يظهر رفضه وكأنه نوع من عدم الاحترام للأمم المتحدة. وكان حريصاً جداً على أن يؤكد، بواسطة سكرتيره، أن رفضه لقاء البعثة إلى جانب أعمال العنف في عدن، ليس موجهاً ضد الأمم المتحدة، بل إنه إلحاح من جبهة التحرير على نيل استقلال حقيقي في المنطقة، وكونها الممثلة الوحيدة لشعبها. وأظهرت البعثة منذ البداية مرونة سياسية، حين أعلنت، بلسان الأمين العام المساعد للجامعة العربية الدكتور سيد نوفل، أنها لن تفاوض حكومة اتحاد الجنوب العربي كحكومة، إنما كأفراد، بعضهم يمثل أحزابا سياسية في المنطقة. وكان الهدف من تصريح البعثة محاولة إقناع جبهة التحرير بالتخلي عن المقاطعة، وربما الاشتراك في أية مائدة مستديرة تقترحها الأمم المتحدة. وكان قد سبق للبعثة أن أعلنت أنها ستتفاوض مع

السلاطين كأفراد، بالإضافة إلى أن القاهرة كانت حريصة جداً على أن لا تسافر البعثة الدولية دون أن تجتمع بممثلين عن جبهة التحرير. لذلك طرحت الصحف المصرية فكرة زيارة البعثة لصنعاء وتعز ومقابلة زعماء الجبهة بعد انتهاء زيارتها لعدن والجنوب.

غير أن مشكلة ادعاء جبهة التحرير أنها الممثلة الوحيدة لشعب الجنوب العربي، هي عقبة أساسية في طريق البعثة. فهذا الادعاء بعيد جداً عن الواقع ولا يفيد جبهة التحرير إلا كورقة مساومة على طاولة المفاوضات. إذ لا أحد يعرف في عدن، مَن مع مَن ومَن ضد مَن، وعلى الأخص داخل دويلات الاتحاد نفسها. وعندما يقول مكاوي إن الجبهة هي الممثلة الوحيدة للشعب، والدليل التظاهرات الأخيرة في عدن، فهو يلغي الجبهة القومية وأنصارها كلهم، ويلغي الرابطة وأنصارها، كما يلغي الناس التي بقيت في بيوتها خوفاً أو حكمة. إلى جانب صعوبة معرفة ولاء القبائل في الداخل وولاء التجار في عدن، الذين سينضمون في الأخير الأخير إلى الطرف الرابح. فالجبهة تحاول أن تمنع الحكام الفدراليين الحاليين من أن ينزلقوا إلى حكام حقيقيين بعد الاستقلال. لذلك هي على استعداد للاستمرار في مقاومتها، للحؤول دون وقوع هذا التغيير السهل. وموقف البعثة من هذا، على الأرجح، أن تساعد الجبهة على ايجاد مخرج معقول، يجعلها تقبل بالحوار معها، وبالتالي تتنازل شيئاً فشيئاً عن ادعائها، دون أن تفقد ماء وجهها، وحتى لا تتكرر إضاعة الفرص، كما اعتادت الجبهة أن تفعل منذ إنشائها، ومن قبلها حزب الشعب الاشتراكي.

وبعد ماذا يمكن بريطانيا أن تفعل؟ فنجاح البعثة الدولية في مهمتها قد يوفر لها الحل الأخير لانسحاب مشرف من الجنوب العربي. أما إذا فشلت فليس أمام بريطانيا، إلا خياران: الأول أن تنسحب كما هي تاركة وراءها الفوضى ذاتها التي تركتها عند جلائها عن فلسطين، والثاني أن تبقى مع تعديلات طفيفة في السياسة لتدعم الحكومة الاتحادية الحالية إلى ما لا نهاية. لكن الخيار الصعب ليس هنا. فعندما ستزور البعثة الدولية مدينة الاتحاد، عاصمة الجنوب العربي، ستقول لها الحكومة الاتحادية إنها لا تعترف بأية سلطة غير سلطتها، وأن وراءها حوالي عشر فرق عسكرية لتدعم موقفها. وكذلك السؤال الكبير لم يطرح بعد. هل تتدخل بريطانيا لتخفف من هذه اللهجة، أم تقبل بحل الحكومة، حرصاً على بناء جسر، ولو ضعيفاً، بينها وبين الطرف الآخر؟ ثم ماذا لو اقترحت البعثة حل الحكومة الاتحادية وبدء محادثات دستورية حول الاتحاد واستقلاله فهل تقبل بريطانيا بهذا؟ وماذا سيكون موقفها لو تقدمت الأمم المتحدة بمشروع كهذا؟ وهل تقبل بريطانيا بقوات دولية، إذا توافرت الأموال لذلك، لتحل محل قوتها، خلال فترة انتقالية، وتؤمن انسحابها من قواعدها بسلام؟

لكن البعثة الدولية سافرت فجأة احتجاجاً على عدم توافر التسهيلات التي كانت تتوقعها من بريطانيا، وعلى منع إذاعة بيانها من الراديو والتلفزيون. ونسف سفرها الاحتمالات التي تمناها كل الفرقاء المعنيين، ما عدا جبهة التحرير، وجعل التفاؤل بمصير الجنوب العربي مهمة شاقة.

إذن الخيوط تتشابك، والحلقة المفرغة أعمق مما يظن الكثيرون. يضاف إليها الصراع السعودي ـ المصري، أولاً حول مشكلة اليمن المستعصية، وبالتالي اهتمام السعودية بحرمان الرئيس عبدالناصر من موطىء قدم له في الجزيرة العربية. لذلك، فالسعودية تدعم الفئات المعارضة للسياسة المصرية في المنطقة، كحزب الرابطة، وتؤيد موقف المحميات الشرقية (حضرموت) الراغبة في الابتعاد عن الاتحاد، وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بها. (آلاف الحضارمة يعملون في السعودية بعدما سدت سبل الشرق الأقصى في وجوههم).

وكان الهدف الأساسي من البعثة الدولية كما أوصت قرارات الأمم المتحدة، هو أن تكون بمثابة سقف محايد يغطي الأطراف المعنية في الجنوب العربي، ويستطيعون في ظله أن يتوصلوا إلى إجراء انتخابات حرة، والاتفاق على دستور للبلاد، وتحديد موعد للاستقلال ضمن المهلة المحددة. وعلى هذا الأساس قبلت بريطانيا بقرارات الأمم المتحدة ولو متأخرة أربع سنوات.

يبقى احتمال في الصورة المتشابكة للأحداث في عدن هو الجيش الاتحادي، الذي أصبح عشر فرق مدربة تدريباً حديثاً بسلاح حديث، مع فرقة سلاح طيران قيد التدريب وتحت حماية الطيران البريطاني. هذا الجيش الذي يتألف جنوده وضباطه من دويلات الاتحاد، هو الأمل الوحيد لحماية القلاع الرملية من الانهيار؛ كما أنه الخطر الأول عليها. فقد بدأ البريطانيون يسلمونه مراكز دفاعية حساسة في عدن والمناطق المجاورة لها. ولن يكون أكفأ من الجيش البريطاني في قمع الإرهاب. فعند موعد الاستقلال، وحيث تبدأ الحكومة الاتحادية في التفكك، قد يحدث الانهيار على الطريقة الكونغولية.

هنا يبدأ دوره التاريخي. فالجيش الاتحادي، الذي يقود كل فرقه ضباط عرب، والذي سيتسلم قيادته العقيد ناصر بوليق العولقي من قائده البريطاني عند الاستقلال، هو كمعظم جيوش الدول النامية، قد يأخذ بيده زمام المبادرة في اللحظة الحرجة ويتسلم الحكم. أما لحساب من، فالجواب صعب. كبار ضباطه من المحافظين الذين لهم ولاء قبلي ولذلك يؤيدون الحكومة الاتحادية. والضباط الشبان، ينتقدون بعنف النظام القبلي، وحكم السلاطين لكنهم يصرون على أنهم جيش محترف لا علاقة له بالسياسة. لكنهم لا يخفون شعورهم تجاه المصريين وخاصة بعد احتكاكهم بهم في اليمن. فهم لا يحبون المصريين، إلا أنهم يظهرون إعجاباً وتقديراً كبيراً للرئيس عبدالناصر. من هنا أيضاً، قد تتشابك الأحداث ثانية ويدخل الجيش في عالم الانقلابات، وتصبح الطريقة الكونغولية هي الوسيلة الوحيدة المعترف بها. وفي موعد الاستقلال لن تسمع قرقعة زجاجات الشمبانيا، بل أزيز الرصاص. وعندئذ لا مجال للتنبؤ. ويضيف تراكم الأحداث اليومي في عدن ظلالاً قاتمة وسريعة للصورة، تجعل التفاؤل، حتى بالنسبة إلى التجار أمراً صعباً.

عدن ـ (١٩٦٧/٤/٩)

تأميم الفقر

لا بد لحصار الصمت وجدار الرقابة السميك المضروبين حول عدن من أن يجيبا وحدهما عن التساؤلات التي يحملها الصحافي القادم إليها من أجل البحث عما يجري في الجنوب اليمني. وحيال التعتيم الكامل المطبق على عدن، لم يعد مهماً السؤال عمن يحكم الجنوب اليمني بعد أقل من ستة أشهر مضت على الاستقلال، بقدر ما أصبح مهماً التساؤل: لماذا، كيف، وإلى أين؟

ثلاث علامات استفهام ترتفع في وجه الباحث عن أجوبة لها، وتصفعه تحت وطأة التفتيش الدقيق والرقابة الصارمة اللامجدية اللذين تمارسهما الجبهة القومية الحاكمة في الجنوب اليمني على الصحافيين إلى درجة اضطرت المراسلين المقيمين في عدن إلى الإضراب عن إرسال أي خبر، حتى إشعار آخر. فلماذا الحصار؟ ترى لأن ما يجري في الداخل هو من الخطورة بحيث يجب أن لا يعرف به العالم الخارجي؟ أم لأن ما يحدث في الجمهورية الجديدة حدث قبل أوانه في رأي الحكومة، وعلى الصحافيين أن لا يُطلعوا العالم عليه إلا عندما تنتهي عمليات «التسوية» القائمة حالياً؟ أم أن سياسة «الخوف من الضوء» و«الحساسية الشديدة» حيال ما قد يقال عن الحاكمين في الخارج، انتقلت إليهم بالعدوى من أنظمة حكم عربية أخرى؟ وهل يخاف الحكم القوي ـ وقد ورث حزب الجبهة القومية الاستقلال عن بريطانيا كأفضل ما يكون عليه الإرث ـ من أن يفتح نوافذه بعد ثورة فريدةٌ؟ أم أنه كتب للثورة دائماً أن تصاب بالاختناق؟

الأجوبة كثيرة، وكذلك الأخبار. وهي غير الأخبار المسموح بإرسالها والتي يذيعها فقط راديو عدن، وتوزعها وزارة الإرشاد القومي. هي الأخبار غير المسموح بها برقياً ولا تلفونياً ولا حتى شفهياً. هي الأخبار التي يكاد يعرفها كل الناس في عدن، ويتفادى كل مسؤول الخوض فيها، خوفاً من تأكيدها.

إن ما حصل بين ١٥ أيار عام ١٩٦٧ وتاريخ هذه الرسالة، هو أن تمرداً مسلحاً وقع في بلدة «أبين» في المحافظة الثالثة (سلطنة الفضلي سابقا) ضد الرئيس قحطان الشعبي والحكومة المركزية والجيش، بزعامة «الفريق اليساري المتطرف»، الذي على رأسه من أعضاء القيادة العامة وتنظيم الجبهة القومية: سالم ربيع وعلي عنتر وعلي صالح عباد وعبدالله الأشطل. وهذا الأخير وصفه رئيس الجمهورية في بيانه بأنه هرب من الاعتقال، «حيث كان رهن التحقيق لجرائم مدنية ارتكبها في المحافظة الخامسة ولمخالفات تنظيمية في غاية الخطورة». وانضم إلى هؤلاء في بلدة جعار كل من: محمد صالح يافعي وعوض الحامد وعبدالعزيز عبدالوالي، متخذين جعار مقراً لتمردهم. أما الأسباب الحقيقية فهي يأس «اليسار المتطرف» نهائيا من فرض سلطته على الجبهة القومية ومن تنفيذ القرارات التي كان اتخذها المؤتمر القومي الرابع للجبهة القومية في آذار الماضي، والتي مؤداها «تصفية الدولة القديمة» بكل مؤسساتها.

وفي هذه الأثناء تحرك الجيش بصفته يمثل «الشرعية الحكومية» باتجاه أبين ليجرد

الحرس الشعبي المؤيد للتمرد من سلاحه. وتحركت معه من الجبال قبائل آل شداد التي كانت معروفة بولائها للسلطان السابق أحمد الفضلي، والتي جاءت تصفي حساباً قديماً لها مع الحرس الشعبي تسبب فيه طرد أحد أبنائها رشيد الحاج، السكرتير الإداري السابق في السلطنة. واستعان الحرس الشعبي بقبائل آل يافع، لانتماء أكثر زعمائه إلى يافع. وهكذا وقع «قتال وحشي لا إنساني»، كما وصفه رئيس الجمهورية في بيانه، سقط فيه من الضحايا حوالي ٢٠٠ قتيل و٣٠٠ جريح. وأسر الحرس الشعبي عدداً من آل شداد، ورفض تسليمهم للسلطة. ثم انضم إلى الجيش في زحفه عدد من القبائل الموالية لآل شداد، وما لبثت قواته أن دخلت مع قوات الأمن العام إلى أبين وزنجبار وجعار وشقره، فسيطرت على المحافظة الثالثة كلها. وفر زعماء «اليسار» وبعض زعماء الحرس الشعبي إلى الجبال حيث حماية آل يافع. وتم الاستيلاء على عدد كبير من مخابىء الأسلحة في المنطقة.

ولقد سمى قحطان الشعبي أشخاص التمرد «باليسار الانتهازي الذي يلتقي مع الثورة المضادة وأقصى اليمين». واتهمهم في بيان القيادة العامة للجبهة «بالطفولة اليسارية» كأنما هو لينين يتهم تروتسكي «بالمراهقة الاشتراكية». واتهمهم أيضا «باقتحام بيوت الناس تنفيذاً لأحقاد شخصية، وتشجيع النهب والسلب وتعذيب عدد كبير من شباب الجبهة القومية، حيث ضربوا وأحرقت أماكن حساسة من أجسامهم بالحديد المحمى»، ووضع اللوم عليهم لإساءتهم إلى العلاقات مع حكومة الشمال (الجمهورية اليمنية)، وتعزيزهم عدم الثقة بالوضع الاقتصادي ومحاولة نشرهم الفوضى، و«التطاول بإدانة تجارب الشعب العربي ومحاولاته لبناء مجتمع اشتراكي في مصر والجزائر».

وكانت ردود فعل الشارع متباينة. ومن ذلك أن عدن أضربت وخرج الطلبة في تظاهرة تضامناً مع المتطرفين، اثر اذاعة بيان الشعبي يوم الخميس ١٦ أيار عام ١٩٦٧. وفرق الجيش والشرطة التظاهرة بالقوة وبالقنابل المسيلة للدموع، وذلك للمرة الأولى منذ خروج البريطانيين، وأغلقت المدارس التي اعلن في ما بعد أنها ستفتح أبوابها في أول حزيران. وبالطريقة ذاتها فرقت تظاهرة ثانية خرجت في جنازة واحد من أفراد الحرس الشعبي يدعى بدر حسين قتل في مدينة الشعب يوم ٣ أيار عام ١٩٦٧، خلال الاشتباك الذي حاول الجيش فيه أن يجرد أفراد الحرس من سلاحهم، ويستولي على مخازن الأسلحة هناك. وقد وقع الاشتباك بينهما قبل نشوب التمرد، وقتل فيه ضابط من الجيش برتبة ملازم وثلاثة من معاونيه، الأمر الذي دفع الجيش إلى التحرك بسرعة إلى أبين لضرب الحرس الشعبي انتقاماً لقتلاه في مدينة الشعب.

وبعد إعلان التمرد وصدور بيان الشعبي وبيان القيادة العامة ترك عضو القيادة العامة ووزير العدل أحمد خليفة منصبه، والتحق بالمتمردين في يافع، وجهر بمعارضته للرئيس وللسلطة المركزية. وفي الوقت ذاته وصل وزير الدفاع السابق علي سالم البيض إلى حضرموت في محاولة منه لتعزيز اليساريين المتطرفين في المكلا بزعامة فيصل العطاس.

وأرسلت الحكومة وفداً برئاسة فيصل عبداللطيف الشعبي العضو المتفرغ للتنظيم ووزير الاقتصاد والتخطيط السابق، للبحث مع المتمردين عن صيغة للتسوية وتفادي شق الجبهة القومية، وذلك بعدما رفض سالم ربيع أن يرد على دعوة الرئيس إياه للحضور إلى عدن لهذه الغاية. وذهب فيصل عبداللطيف الشعبي إلى جعار، ومنها إلى جبال يافع يوم السبت ١٨ أيار عام ١٩٦٨. وعاد يوم الأربعاء ٢٢ أيار ومعه واحد من المتمردين لم يذكره الرئيس في بيانه، هو علي عنتر.

وعلي عنتر من أساطير وأبطال الجبهة القومية اللامعين في حرب الاستقلال، إلى جانب عبدالفتاح إسماعيل (قائد الفدائيين في عدن ووزير الإرشاد السابق، الذي كان يعالج نفسه من القرحة في بلغاريا) وسالم ربيع. ولم يذكر علي عنتر في البيان عن قصد، لسببين، أولهما ان قحطان الشعبي لا يريد أن يظهر أن كل أبطال الجبهة القومية هم مع التمرد وضده. وثانيهما أن علي عنتر ليس بالفعل «يساريا»، ومن الممكن أخذه بالحسنى، إذا فشلت المفاوضات مع سالم ربيع ولم يأت. أما لماذا انضم علي عنتر إلى المتمردين فذلك لاعتقاده وخوفه من أن الجيش ينوي تصفية جميع ذوي «الأسماء الكبيرة» في الجبهة حتى لو كانت «بدوية ومحافظة» كما يقول عن نفسه، تحت ستار كونها «حركية» (أي من حركة القوميين العرب). وكان هو نفسه قد هدد حركة تمرد في المحافظة الثانية (الضالع) قبل وقوع حركة تمرد أبين، ولما وقعت انضم إليها.

واجتمع علي عنتر بالرئيس الشعبي بحضور فيصل عبداللطيف وأشيع أنه قال للشعبي: «إذا كنت أنا شيوعياً، كما تتهمني، فأنت شيوعي أيضاً. لأنني أنا وأنت من حزب واحد ومن مبادىء واحدة».

وحاول قحطان الشعبي أن يصل مع علي عنتر إلى «تسوية»، وان يعيده إلى يافع لإقناع الباقين بإنهاء التمرد، لئلا يضطر إلى استعمال العنف، وينقسم الحزب. فأصر علي عنتر على الشعبي أن يعطيه ضمانات أكيدة بعدم «تصفيتهم»، وحمايتهم من الجيش فيسرح عشرين ضابطاً يعتبرهم «اليسار» خطراً عليهم. لكن قحطان الشعبي رفض.

وخلال ذلك كان «اليسار» يشدد من قبضته على حضرموت «المحافظة الخامسة» بزعامة فيصل العطاس الذي وصل وزير الدفاع السابق علي سالم البيض لدعمه، مع بدء تمرد أبين. وكانت حضرموت قد أصبحت «مختبراً» لما قد يفعله «اليساريون» اذا سيطروا على بقية المناطق. فأرسلت الحكومة وفداً برئاسة وزير الإدارة المحلية سعيد عمر عكبري (وهو حضرمي) إلى المكلا للتفاهم مع البيض والعطاس، فيما انتشرت إشاعات كثيرة في عدن عن أن سفناً صينية تمون المكلا بالسلاح، وأن خبراء شيوعيين وصلوا من لبنان وبلغاريا لتدريب «اليسار» في حضرموت ومساعدته. وفشلت محادثات العكبري وخرجت حضرموت عن سلطة الحكومة المركزية. وقام الجيش متوجهاً لحصار المكلا، بعد عملية الاستيلاء على البنك الشرقي البريطاني التي قام بها «اليساريون» في المكلا، ومصادرتهم السيارات الخاصة وتأميمهم شركة كهرباء سيؤون وشركة المحروقات

المحلية، وسينما صيفية، ناهيك بتأليفهم مجالس شعبية مباشرة وحلهم قوى جيش البادية والشرطة في المنطقة.

ولما وصلت قوى الجيش إلى مشارف المكلا، وفصلت حضرموت الداخل عن حضرموت الساحل هرب فيصل العطاس ورجاله إلى «وادي عمد» في حضرموت لكون العطاس ينتمي إلى قبائل هذا الوادي لجهة أخواله. ومن هناك حاول أن يزحف برجال القبائل الموالية له إلى حضرموت الداخل ويستولي على سيؤون وشيبام. إلا أن الجيش حاصر الوادي وهدد بقصفه إذا لم يستسلم العطاس. فما كان منه إلا أن استسلم وجاء به الجيش إلى عدن لمقابلة الرئيس، ونزل في فندق «الحرية». لكنه فر عند الساعات الأولى من تمرد أبين على متن سفينة شراعية عائداً إلى المكلا. وأرسل الجيش كاسحة ألغام باسم «الغزال» تابعة للبحرية لحصار المكلا التي ما زالت خارجة على سلطة المحافظ والحكومة المركزية وتحت الحصار حتى كتابة هذه السطور.

إن خلف التطورات في عدن تساؤلات عدة. وأهميتها في الدرجة الأولى أنها أزاحت الستار نهائياً وعلناً عن الصراع بين فريقي الجبهة. فريق قحطان الشعبي الذي لم يستعمل قوته الحزبية داخل الجبهة القومية، بل استعمل الجيش بصفته رئيساً للدولة للقضاء على تمرد هو حزبي في الأساس، قبل أن يكون تمرداً على الدولة. وفريق «اليسار المتطرف» الذي ما انفك يملك القاعدة والاكثرية في التنظيمات الحزبية، لكنه لا يملك القدرة على تنفيذ أي قرار يتخذ داخل الجبهة القومية، لأن التنفيذ في يد القيادة العامة، وبالتالي الحكومة. وفي الوقت نفسه فإن اعتصام «اليساريين» في جبال يافع وفي حضرموت الساحل، قد طرح خلافهم مع القيادة على مستوى الأمة وبشكل علني، وبرغم اعتصامهم، فإن قوتهم الحقيقية هي في داخل التنظيم وليست في الجبال.

ومع أن تاريخ الجبهة القومية حافل بالمساومات، فليس أمام قحطان الشعبي وفريقه في الحكم، إلا طريقان: إما استمراره في الخط «المعتدل المحافظ» الحالي مستنداً إلى الجيش، وبالتالي قسم الحزب والتنظيم نهائياً، وإما البحث عن حل وسط. وأما الحل الوسط المطروح والمحتمل جداً فهو الآتي: إن قحطان الشعبي سيزور القاهرة رسمياً في أوائل حزيران عام ١٩٦٧. وبعد انتهاء زيارته، يبقى في مصر للعلاج، فيتألف في عدن مجلس رئاسة من ثلاثة أشخاص (وبمعرفته أي الشعبي) هم: وزير الخارجية سيف الضالعي، وزير الداخلية محمد علي هيثم، وقائد الجيش العقيد حسين عثمان عشال. ويكون المجلس برئاسة الضالعي. وبالطبع، فإن هذا الحل يُخرج قحطان الشعبي من الحكم، وهو ما أصبح مطلباً من مطالب «اليسار». لكن وجود سيف الضالعي في الرئاسة لن يرضي الجيش، لأن الضالعي كان من بين المطالبين بحله وتطهيره. وبما أنه، هو وزير الخارجية، ومن المناورين البارعين، فقد يستطيع أن يحصل على براءة من الجيش لقاء وعد بعدم التصفية، ويحصل على رضى اليسار بأن يأتي برئيس للوزراء منهم (عبدالفتاح إسماعيل على الأغلب) ويشرك الطرفين بضمانات في الحكم، ويؤجل انقسام الجبهة الحتمي بضعة أشهر أخرى.

ثم إن الأوضاع الوزارية مهترئة. فوزير العدل عادل خليفة انضم إلى المتمردين من دون أن يستقيل. ووزير التربية والتعليم محمد عبدالقادر بافقيه وهو ليس عضواً في الجبهة القومية، معتكف في بيته احتجاجاً وفي حكم المستقيل. وفيصل عبداللطيف الشعبي ترك وزارة الاقتصاد والتخطيط ليتفرغ لتنظيم الحزب. ووزير الدفاع الجديد محمد صالح عولقي يحاول إصلاح ما أفسده سلفه الوزير المتمرد علي سالم البيض، فيعلن عن وصول طيار عربي ليحل محل الطيارين البريطانيين الذين طردهم البيض، وأعلنت الحكومة في ما بعد أن ذلك كان خطأ. وذلك الطيار هو عبدالقادر التهامي، الذي كان طياراً للرئيس الجزائري السابق أحمد بن بللا وهو يمني الأصل من تهامة، ومن مواليد باريس، ومن أم فرنسية وأب يمني هاجر إلى الجزائر. وقد كان طياراً مدنياً يعمل على طائرة «كارافيل». وجاء في الإعلان الرسمي عن قدومه: «لقد كان عبدالقادر التهامي يعمل في الجزائر وله خبرة واسعة في قيادة الطائرات وهو الآن يقوم بقيادة الطائرات المقاتلة».

والعلاقات مع اليمن الشمالي (الجمهورية اليمنية) سيئة. وقد قال قحطان الشعبي إن اللوم في ذلك يقع على «اليسار المتطرف»، كما أنه حاول أن يجعل من «اليسار» ممسحة لكل الأخطاء التي ارتكبت منذ الاستقلال. وأسباب توتر العلاقات بين البلدين (أو الإقليمين بالتعبير الرسمي المتعارف عليه محليا) كانت من جراء تأييد الحرس الشعبي وتشكيلات الفدائيين لمحاولة الانقلاب التي قامت بها المقاطعة الشعبية في الحديدة ضد نظام حكم القاضي الأرياني والفريق العمري في نيسان عام ١٩٦٧، بنية استيلائها على شحنة من الأسلحة السوفياتية وصلت إلى الحديدة، والزحف بها إلى صنعاء. كما أن الحكومة اليمنية (وهي حكومة محافظة بالطبيعة) لا تستريح إلى تطرف الجنوب ولا إلى شعاراته وسياسته. وكذلك استاء الشمال من قانون الجنسية الذي صدر في عدن مانعاً جنسية الجنوب عن اليمنيين ما داموا لم يقيموا فيه عشر سنوات. وهناك مكتب تنسيق يمني في عدن لا يفعل شيئاً. وليس من سفارة أو تمثيل ديبلوماسي بين البلدين لأنهما بلد واحد، حسب الشعارات الرسمية.

والحركة الفدائية الفلسطينية بالنسبة إلى حكومة الجنوب اليمني والجبهة القومية، هي «الجبهة الشعبية»، وما ذلك إلا لأنها تابعة لحركة القوميين العرب. وكل الأعمال الفدائية التي جرت وتجري في الأراضي المحتلة هي من صنع «الجبهة الشعبية» وحدها التي افتتحت مكتباً رسمياً في عدن، وتقوم بحملة لجمع التبرعات.

وأخبار فدائيي الجبهة الشعبية تملأ يومياً صفحة كاملة من جريدة «١٤ أكتوبر» الرسمية الوحيدة الصادرة في عدن أو الجنوب، بعدما منع بيع جريدة الشرارة «التي يصدرها الفريق اليساري في حضرموت، في عدن، وثمة محاولات لإيقافها مثلما أوقفت صحيفة «الثوري» الأسبوعية في عدن. وإذا قلت لأحد أعضاء الجبهة القومية ان منظمة فدائية فلسطينية هي أقدم وأعرق وأكثر فعالية في العمل الفدائي من «الجبهة الشعبية» واسمها «فتح»، وجناحها العسكري اسمه «العاصفة» أجابك على الفور: «إن

فتح منظمة رجعية أكثر أفرادها من الإخوان المسلمين». ولا يجدي النقاش معهم حول هذا الموضوع أبداً.

والأوضاع الاقتصادية منهارة، وكل شي يعتمد على المساعدات الخارجية. وقد رفضت بريطانيا أن تدفع أكثر من مليون جنيه، لكنها رفعت المبلغ إلى مليون وربع مليون جنيه استرليني في ما بعد. والحكومة من جهتها تطالب بـ ٦٠ مليون جنيه استرليني أخرى جاءت في سياق وعد تقدمت به بريطانيا إلى الحكومة الاتحادية السابقة قبل الاستقلال. وتجيب بريطانيا، حول هذا الوعد، أنها قطعته للحكومة الاتحادية لا للجبهة القومية، وهي غير ملزمة به، فضلاً عن أنه تم قبل تخفيض الاسترليني وقبل الضائقة الاقتصادية البريطانية. والحكومة تجيب أنه حق لها عند بريطانيا بعد ١٢٩ سنة من الاستعمار. وفشلت المحادثات التي جرت حوله في ٢٠ نيسان عام ١٩٦٧، وعاد الوفد البريطاني إلى لندن. أضف إلى ذلك أن قناة السويس مغلقة وميناء عدن فارغ فلا سفن ولا سياح. وعشرات المتاجر مقفلة، ومئات البيوت فرغت اثر رحيل البريطانيين، والأسعار ارتفعت حوالي ٢٠ بالمئة.

والحكومة، في كل ذلك، تحاول إشاعة الاستقرار لكسب ثقة عالمية وطلب قروض للتنمية والإدخار. إنما لا أمل بقروض عربية، ولا بغربية. فالاتحاد السوفياتي ليس من عادته أن يقدم مساعدات لأحد ما عدا كوبا التي هي الدولة الوحيدة في العالم التي يمنحها مساعدة مباشرة لموازنتها.

كما أن لا حماسة كبيرة لدى موسكو لنجدة بلد غير مستقر، لا يعرف أين تجنح به مصالحه فضلاً عن أن أصدقاءها قلائل فيه، وهي غير مرتاحة إلى المحاضرات التي يلقيها عليها الجناح اليساري في الجبهة القومية، «في الثورية والاشتراكية ومحاربة الامبريالية»، مما أشار الرئيس الشعبي إليه في بيانه. والصين كالاتحاد السوفياتي لا حماسة كبيرة أيضاً عندها، برغم تأييد اليسار المتطرف لها والشهرة الكبيرة التي يتمتع بها ماوتسي تونغ في عدن.

وليس للصين هناك إلا صحافيان يقيمان معاً في فندق «كريسنت» ويمثلان وكالة انباء «شينخوا» ويوزعان صور ماو. ولن يمضي شهران، - في أواخر آب - حتى تنضب الميزانية، ويصبح العاملون في الدولة من دون رواتب. ما العمل؟ ماذا يحدث؟ لا احد يعرف. الجميع ينتظر معجزة. وكما قال لي فيصل عبداللطيف الشعبي: «لم يبق لنا شيء لنؤممه سوى الفقر». إلا إذا جاء الجيش ليؤمم «المجد»!

عدن - (١٩٦٧/٥/٣٠)

الخصم والحكم

دخلت الجبهة القومية في الجمهورية الجديدة وهي منقسمة فريقين وهذان شكلا الحكومة الأولى برئاسة قحطان الشعبي، مقتسمين في ما بينهما الحقائب الوزارية بالتساوي تقريباً، ما عدا ثلاثة وزراء من المتعاطفين مع الجبهة، جيء بهم من الخارج. الفريق الأول «المحافظ» ـ أو أعضاء المجلس التنفيذي القديم ـ يمثله في الحكم: قحطان الشعبي، سيف الضالعي، فيصل عبداللطيف الشعبي، محمد علي هيثم، عبدالملك إسماعيل، وسعيد عمر عكبري. والفريق الثاني «المتطرف» ـ أو «جماعة المؤتمر الخاص» والقيادة الجديدة ـ يمثله في الحكم: عبدالفتاح إسماعيل، عادل خليفة وعلي سالم البيض.

وأراد الفريق «المحافظ» عدم المسّ مبدئياً ـ ولمرحلة طويلة مقبلة ـ بمؤسسات الدولة التي ورثها عن البريطانيين، بمن فيها الجيش والشرطة، على النقيض من الفريق «المتطرف» الذي أراد أن ينسفها من الاساس، بما في ذلك تسريح قوى الجيش والشرطة. وأخذ فريق قحطان الشعبي يبحث عن صيغة للتعاون مع الجيش كقوة رئيسية في الدولة، تستطيع أن تدعمه، وتحمي ظهره. بينما أخذ فريق عبدالفتاح إسماعيل ينظر بريبة وحذر إلى هذا التعاون ويطالب بالتسريح وبالتصفية. إلى أن أصدرت الحكومة أمراً في منتصف كانون الاول عام ١٩٦٧، بطرد ٤٠ ضابطاً من الجيش والشرطة لانتمائهم إلى الأسر السلطانية والاقطاعية السابقة. وبرغم ذلك لم تضمحل مخاوف «المتطرفين»، هذه المخاوف التي بدأت منذ انحاز الجيش إلى الجبهة القومية في تشرين الثاني عام ١٩٦٧، وأوقف الصراع بين الفريقين إذ ذاك، كما قضى على آمال جبهة التحرير المناوئة، ورجح الكفة نهائياً لمصلحة الجبهة القومية. وكانت المخاوف تدور حول «هوية» الجيش الحقيقية، وإلى اي حد سيمكنهم من دفع «آمالهم الثورية» صعداً في الدولة الجديدة.

والجبهة القومية طيلة فترة حرب الاستقلال كانت تمكنت من استمالة فريق من الجيش، كما أنها استطاعت الوصول إلى عدد من الضباط الصغار والجنود وأدخلتهم في تنظيمها. إلى جانب أن سياستها العامة كانت تقوم على مد الجسور بينها وبين المؤسسة الوحيدة القوية في الدولة، وعلى عدم استعدائها. لذلك لم تصدر على مدى فترة حرب الاستقلال ايّ كلمة من الجبهة تطعن في الجيش أو في وطنيته، وإن كانت تهاجم بعض كبار ضباطه من أبناء الأسر السلطانية وتتهمهم بالعمالة لبريطانيا. لذلك أيضا حرصت على أن تدخل في «تحالف» مع كبار الضباط، مؤكدة لهم أن الجبهة القومية هي القادرة وحدها على الحفاظ على مصالح «المؤسسة العسكرية» بعد الاستقلال. وعليه دخلت في تنظيم الجبهة طائفة كبيرة من الضباط الكبار ذوي المراكز الحساسة، من غير أن يبدأوا من «الكادرات» الأولى.

والجيش في الجنوب اليمني تربى تربية بريطانية حديثة، ويقال عنه إنه أفضل ما قام به

البـريطانيـون منذ تـأسيس الجيش العربي في الأردن في عهـد غلوب بـاشا. و«الجيش الاتحادي» ـ كما كان معروفاً من قبل ـ يتألف من عشر فرق بين مدفعيـة ومشاة وفـرقة طيران غدت اليوم مشلولة من جراء طرد الطيارين البـريطانيـين، بالإضـافة إلى «جيش البادية» في حضرموت. ثم ان الجيش ـ ومعه قوى الشرطة والأمن العام ـ هو المؤسسـة الوحيدة التي كانت تمثل في الجنوب اليمني قطاعـات الشعب كلها، من القبـائل والأسر السلطانية إلى الناس العاديين، ومن الحضريين إلى القبليين. إلا أن أكثر ضباطه وجنوده هم من أهالي المحميات أو الأرياف، ومن «المحافظين» أصحاب الـولاء القبلي. وكثـيراً ما كان ينتقد حكم السلاطين ويصر على كونه جيشاً محترفاً لا عـلاقة لـه بالسيـاسة. ومن مزاياه أن ٧٢ بالمئة من أفراده يجيدون القراءة والكتابة، وهي نسبة عالية جـداً، كذلـك نسبة رواتبه، إذ يتقـاضى أعلى الـرواتب بين جيـوش العالم العـربي، ما عـدا الكويت. فالجندي يبدأ براتب قدره ٢٢،٥ جنيه استرليني شهرياً، والعقيد يصـل راتبه إلى ٢٥٠ جنيهاً. وينال الجيش سنوياً ١٤ مليون جنيه استرليني رواتب والشرطة ٥ ملايين جنيـه استرليني، من أصل الموازنة العامة البالغة ٣٣ مليون جنيه استرليني.

ولم يكن انحياز الجيش في ربع الساعة الأخيرة نحو الجبهـة القوميـة عملية «تكتيكيـة» وحسب بل كان بـالفعل يؤدي دوراً وطنيـاً عن طريق ضبـاطـه المنتمـين إلى الجبهـة القومية. كما أنه كان مصدراً رئيسياً في فترة حرب الاستقلال للسـلاح والذخـيرة الذين مون بهما الجبهة، وقام ضباطه بتدريب الفدائيين التابعين لها مغطيـاً عدة عمليـات لهم ضد الجنود البريطانيين. فدوره الوطني، بحكم ظروف نشأته، دور سليم. إنمـا رفض ـ وما زال ـ أن يكون لـه دور حزبي، مكتفيـاً بأن يكـون «الحكم» بين فـريقين أسـاسيين يتنازعان السلطة بحد السلاح.

وعندما جاء الاستقلال، وجد الجيش نفسه، من حيث أراد أو لم يرد، فريقاً ثالثاً وسطاً بين اثنين متصارعين، ولم تكن صيغة التعاون مع الجيش، التي طرحها قحطان الشعبي ورفاقه أكثر من كونها حماية مسبقة متوقعة له ولهم من المؤسسة التي اطمـأنوا إليهـا. وبالتالي وقع الجيش عرضة لإتهامـات الفريق الثـاني، حتى قبل أن يطـرح هذا قضيـة «التحول الاجتماعي والاشتراكية العلميـة» على بسـاط البحث، لاعتقاده، «وطنيـاً»، بأن الجيش لم يحارب في صفوف الثورة، و«اجتماعياً»، بأنه مؤسسة محافظة ومعتدلة بحكم تركيبها وتكوينها وتقاليدها.

وما أن مضت حوالى ثـلاثة اشهـر على الاستقـلال حتى بدأ الفـريق الثاني يكشف عن يسـاريتـه، من دون أي وضـوح عقيـدي. وطـرح الفـريق شعـار «الثـورة الـوطنيـة الديموقراطية» على أساس تصفية مؤسسات الدولة القديمة كـافة وعـلى رأسها الجيش والشرطة وإحلال جيش التحرير والحـرس الشعبي وتشكيلات الفـدائيين محلهـا. فكان أول ما فعله عند استيلائه على السلطة في حضرموت (المحافظة الخامسة) بزعامة فيصل العطاس، أن حل جيش البادية، ورفّع الجنود إلى رتب عسكرية عـالية وسلمهم قيـادات هامة في الجيش والشرطة، وأعطى الفدائيين المنتمين إلى تنظيم الجبهة مراكز حساسـة،

وشكل كتائب عمالية مسلحة أطلق على واحدة منها اسم «كتيبة تشي غيفارا» وعلى أخرى «كتيبة أول أيار». إلى جانب أنه رفع صورة كبيرة لماوتسي تونغ في مطار «الريَّان» الذي يؤدي إلى العاصمة «المكلا». كما أنه دعا إلى تعيين «مرشدين سياسيين» في صفوف الجيش والشرطة «لترجمة الثورة ونقل ثقافتها السياسية إلى الضباط والجنود».

وكل هذا أوجد، بالطبع، مخاوف عند الجيش. فلجأ إلى الضغط على الحكومة ـ أي قحطان الشعبي ورفاقه ـ لوقف التيار الزاحف، مشيراً بوجه خاص إلى تنظيمات جيش التحرير والحرس الشعبي وتشكيلات الفدائيين. وتجاوبت الحكومة فصدر قرار عن القيادة العامة (وهي السلطة التشريعية المؤقتة) بحل المنظمات الثلاث وتجريد الفدائيين من الأسلحة. ولم يكن هذا القرار سوى حبر على ورق، إذ رفضت قواعد الحزب الانصياع له. وتراجعت الحكومة بضغط من قواعدها، وسحبت القرار. وتراجع الحكومة لم يعجب الجيش فبدأ يشن حملة مركزة على ضعفها وفقدانها سلطتها في حضرموت، ملمحاً للمرة الأولى إلى أسماء زعماء التيار اليساري، ومنهم: عبدالفتاح إسماعيل (وزير الإرشاد)، علي سالم البيض (وزير الدفاع)، سلطان العمر (عضو متفرغ للتنظيم)، عبدالله الخامري (رئيس محكمة أمن الدولة)، حسين الجابري (عضو تنظيم حضرموت)، ومتهماً إياهم «بالشيوعية والانفصالية». وكان وراء الحملة «فريق العقداء» المؤلف من قائد الجيش العقيد حسين عثمان عشال وقائد الأمن العام العقيد عبدالله صالح بن سبعة، وكل من العقداء: محمد أحمد بلعيد، محمد السياري، أحمد علي زنجبيلة. وهؤلاء طالبوا بإقصاء تلك العناصر عن القيادة، كما طالبوا لأنفسهم بإشراكهم باسم الجيش في مؤتمر الجبهة العام والقيادة العامة، وأن لا يتم الاتصال بالجيش «فكرياً وتنظيمياً وسياسياً» إلا من خلالهم.

ورد «اليسار» على مطالب الجيش في اجتماع للقيادة العامة عقد في ٣٠ كانون الثاني عام ١٩٦٨، إذ فرض قراراً إجماعياً بتطهير أجهزة الدولة القديمة بدءاً بالجيش. إلا أن الحكومة عطلته. وفي هذه الأثناء أطلقت الدعوة لعقد المؤتمر القومي الرابع ـ وهو سنوي ـ للجبهة القومية، فانعقد بين ٢ آذار عام ١٩٦٨ و٨ منه في زنجبار وفي المؤتمر كشف «اليسار» أوراقه كاملة، وأعلن عن أسماء أشخاصه بالنسبة إلى مراكز القوى وبالنسبة إلى ولائهم لأفراد القيادة، كما تقدم بطلب واضح صريح هو «حل الجيش والشرطة حلاً كاملاً، على أن يجري دمجهما مع جيش الثورة الرئيسي باسم «الجيش الشعبي الثوري» الذي يضم جيش التحرير والحرس الشعبي وتشكيلات الفدائيين، ويحاط بميليشيا شعبية في حدود الـ ١٠٠ أو الـ ١٥٠ ألف رجل، على أن يبقى الجيش الشعبي الثوري جيشاً محترفاً لا يتجاوز عدده ٤ إلى ٥ آلاف رجل، برواتب متواضعة، لا تتخطى ربع الرواتب الحالية، مع إلغاء الامتيازات والرتب والألقاب كافة، وعلى أن تنتخب قيادته وأركانه من قبل الجنود»..

لكن المؤتمر الذي حضره ستة من كبار الضباط، لم يسفر إلا عن مجموعة قرارات وتوصيات شملت كل شيء ولم تشمل شيئاً، وعن انتخاب قيادة عامة جديدة من ٤١

عضواً، معظمها من «اليساريين الجدد»، جاء ترتيب قحطان الشعبي فيها السادس عشر. وفي الاجتماع الأول لهذه القيادة اتضح أن الخلافات بين الفريقين قد عمقت، وفيه أيضا قرر الجيش أن ينتظر اللحظة المناسبة ليدخل من جديد «حكماً» بين الفريقين تحت شعار «ان القوات المسلحة يجب أن تظل جيشاً لا ينغمس في السياسة». إنما هذه المرة يكون «حكماً» لمصالحه ولحماية مؤسساته. وأتاح «اليسار» هذه الفرصة للجيش في ١٩ آذار عام ١٩٦٨. في ذلك اليوم دعت القيادة المحلية لتنظيم الجبهة في عدن إلى مهرجان جماهيري دعماً لقرارات المؤتمر. إلا أن قحطان الشعبي ورفاقه عارضوا وأرسلوا ـ بصفتهم الحكومة، أو معظمها على الأقل ـ قوات من الجيش والشرطة لفض المهرجان بالقوة، متسلحين بقانون كان صدر في العهد البريطاني، بمنع التجمعات والتظاهرات في حالات الطوارئ. ووجد الجيش نفسه أمام فرصة لا تعوض. وكان عليه أن يتحرك بسرعة.

وفي فجر ٢٠ آذار عام ١٩٦٨ وقع الانقلاب الأول، وتحركت قطعات من الجيش فاحتلت الإذاعة والمراكز الرئيسية في شوارع عدن واعتقلت العناصر المتطرفة في الجبهة ومن بينها ثمانية من أعضاء القيادة العامة في مقدمتهم عبدالفتاح إسماعيل وعلي سالم البيض. وأخذ راديو عدن يذيع البيانات موقعة من «الجيش والأمن العام وقطاع الفدائيين». وكان هذا القطاع الفدائي مقرباً إلى الجيش لأنه بعد حرب الاستقلال، اعتبر أن دوره انتهى فارتضى أكثره وظائف عرضها عليه الجيش والحكومة.

ولم يكن قحطان الشعبي ورفاقه على علم بالانقلاب سلفاً، إنما كانوا من المشجعين عليه (وبعض المصادر الموثوقة في عدن تقول إنهم حرضوا عليه) كوسيلة من وسائل الخلاص «من اليسار المتطرف». لذلك لم يُظهروا أي انزعاج. وطفقت بيانات الإذاعة تشيد بالجيش كمنقذ للبلاد من «براثن الشيوعية». ورد «الفريق الثاني» منظما حملة مضادة قوامها الشارع بغية الضغط على الشعبي ورفاقه لتبرئة أنفسهم مما حدث ومعاقبة مسببي الانقلاب والإفراج عن المعتقلين وتنفيذ مقررات المؤتمر. كما نظم عملية هروب لعدد من رجاله من السجن، من بينهم البيض وعبدالله الخامري، الذي قفز من مكان عال فكسر ظهره، وعولج في جيبوتي. وصادف وجود الملحق العسكري الأميركي الكوماندر بيري في زيارة لمنزل صديق له هولندي يعمل طياراً في الجيش، داخل معسكر اللواء السادس، ليلة الانقلاب، مما اضطره إلى البقاء حتى الصباح في المعسكر نظراً لمنع التجول. وكانت تلك مناسبة سانحة لاتهامه بأنه وراء العملية، خصوصاً بعد البيانات المعادية «للشيوعية» التي أصدرها الجيش. ولذلك أمرت الحكومة بترحيله في ٢٦ آذار عام ١٩٦٨، مع نفي لأية علاقة للمخابرات الأجنبية بالانقلاب. ولم يكن هدف الجيش من الانقلاب تسلم الحكم، بل القضاء على العناصر اليسارية المناوئة له، والحصول من الحكومة على وعد بعدم التطهير أو الحل. لذلك لم يأت على ذكر الحكومة مطلقا في بياناته وعاد إلى ثكناته لما انتهى من عمليات الاعتقال، وكان ما حدث هو مجرد إنذار لمن يهمه الأمر بأنه لن يتساهل. ورأى الشعبي ورفاقه، أن الفرصة مؤاتية لإثبات

حسن النية حيال الطرفين. لذا أمر بعد شهر بالإفراج عن المعتقلين وصدر عفو عام عن الجميع كما اعتبر في التقرير الحزبي الذي رفعه إلى القيادة «أنّ ما حدث كان اجتهاداً فردياً مخلصاً وخاطئاً للضباط، إلا أن اللوم يقع على الإطارات التقدمية في القيادة العامة، وعلى القواعد التي استفزت الجيش ومارست سياسات يسارية متطرفة».

وابان ذلك كان الجيش يرد على اليساريين في مجلة «الجندي» التي يصدرها. فكتبت المجلة، مثلاً، في عددها الصادر في أول أيار عام ١٩٦٧ افتتاحية عن «الدين والاشتراكية» تقول فيها: «إن الاشتراكيين إن لم تكن لديهم معايير اخلاقية تحدد لهم ما يرفضونه وما يسعون إليه، وتحدد لهم السلوك الاشتراكي، لن يستطيعوا أن يقيموا بناء اشتراكياً. والدين هو أساس المعيار الأخلاقي. والمعيار الأخلاقي لازم بصورة أكثر وضوحاً للاشتراكيين وهم يدعون الناس إلى صفوفهم ويحاولون الوصول إلى السلطة». وتعلق «الجندي» في افتتاحية عددها الأخير الصادر في ١٥ أيار عام ١٩٦٧ على التغييرات التي شملت مصر من خلال «بيان ٣٠ مارس» والاستفتاء حوله فتقول: «إن أسباب النكسة في مصر كانت الفساد وكم الأفواه عن انتقاد الحكومة وتقييد حرية الصحافة وتعيين أفراد معينين في مراكز حساسة يجهلون إدارتها. وكانت إدارة البلاد بيد أفراد لا هم لهم سوى المصالح الشخصية لا المكاسب الثورية. ونحن هنا في جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية مطالبون بتعلم هذا الدرس، وأن نبدأ من النقطة التي وصلت إليها مصر، لا أن نبدأ من النقطة التي بدأت منها مصر وأدت إلى النكسة، حتى لا نكرر الخطأ نفسه ونصادف النتيجة نفسها».

ولم يتردد «اليسار» في اتهام الجيش والشعبي وفريقه «باليمينية» و«بتصفية الثورة لحساب الاستعمار الجديد». وتحددت المواقع نهائياً. لكن هل الجيش يريد الحكم؟ الجواب حتماً لا. لأنه لو أراد لأخذه فوراً من غير صعوبة كبيرة. أو لكان استأثر به اثر انقلاب ٢٠ آذار عام ١٩٦٧. ولماذا لا يريد الحكم؟ لا عفة منه، إنما خوفاً من أنه إذا دخله فلن يستطيع أن يخرج منه سالماً، وسيقع أسير دوامة الانقلابات التي سبقته إليها معظم الجيوش العربية، ويصبح ركوب الدبابات واحتلال الإذاعة عملية سهلة لكثير من الضباط. إذن ماذا يفعل وماذا يريد؟ في الدرجة الأولى إنه يحاول أن يتصرف بذكاء وبلا أي ضجيج، كي يُظهر نفسه انه المؤسسة الوحيدة التي من الممكن أن تجمع على كفايتها وحيادها ونزاهتها الأمة كافة، وبالتالي أن يبقى له دور الحكم بين فريقين متنازعين أو أكثر، لكنه يدعم الفريق الاقرب إليه وإلى مصالحه واتجاهاته. وهو إذا كان يكره الحكومة الحالية ـ قحطان الشعبي ورفاقه ـ فإنه يكره «اليسار» كرهاً أقوى. لذلك يسعى إلى إيجاد حكومة متجانسة تستطيع أن تفرض سلطتها على البلاد، وأن تنقذها.

ولذا أصبح الجيش في الأيام الأخيرة مدار استقطاب الناس، وللمرة الأولى في تاريخه يسمع هتافات في التظاهرات بحياته «كمنقذ للبلاد» من «الشيوعية والفوضى». وللمرة الأولى يغدو ملجأ لشكاوى المواطنين، بعدما صارت الحكومة في معزل عنهم. ويتساءل

المواطنون عن حالة الأمن، فلا يجدون إلا الجيش، ويتطلعون إلى الحالة الاقتصادية المتدهورة، فلا يجدون إلا الجيش.

إذن، فلماذا لا يفرض الجيش حلاً بالقوة، إذا كان هو نفسه لا يريد الحكم؟ الجواب، لأنه لا يريد أن يفرض حلاً على الشعب، بقدر ما يريد أن يسعى إلى حل يريده الشعب. لذلك اعتقل حوالي ١٥٠٠ شخص، بينهم ٥٠٠ امرأة، من جماعة جبهة التحرير وأودعهم سجن المنصورة، عندما حاولت جبهة التحرير القيام بشبه محاولة انقلاب في ٤ أيار عام ١٩٦٧، في أعقاب العفو العام عن حوادث ٢٠ آذار عام ١٩٦٧. وكانت هذه الجبهة بقيادة عبدالله الأصنج وعبد القوي مكاوي في تعز قد وزعت منشورات في عدن تدعو إلى التفاف المواطنين حولها «كمنقذ للوطن»، وتحركت بسببها قبائل «العزيبية» في الجنوب الموالية لجبهة التحرير نحو مقاطعة «الصبيحة» الواقعة في لحج على الحدود اليمنية ـ الجنوبية. إلا أن الجيش أوقفها وطوقها واعتقلها. كل هذا، لا لعداء مستأصل فيه ضد جبهة التحرير أو أشخاصها، بل لأنه لا يريد أن يستبدل الجبهة القومية بجبهة التحرير.

لذلك، فإن الحل السياسي الذي قد يفرضه الجيش بالقوة، إذا وقفت البلاد على شفير حرب أهلية، أو قتال دموي مسلح، هو «الحل المثالي» الذي تدعو إليه معاً الديبلوماسيتان المصرية والسعودية. ومؤداه قيام «حكومة ائتلاف وطني» من الأحزاب الوطنية الثلاثة: الجبهة القومية، على أساس أنها الحزب الحاكم. وجبهة التحرير، على أساس أنها الحزب الموالي للسياسة المصرية. وحزب الرابطة، على أساس أنه الحزب الموالي للسعودية. لكن «الحل المثالي» ـ وهناك شبه اتفاق عليه بين السياستين المصرية والسعودية ـ قد يصطدم بعراقيل الأشخاص. فمن غير المعقول، بل يصعب التصور، أن يجلس كل من قحطان الشعبي وسيف الضالعي عن الجبهة القومية، مع عبدالله الأصنج وعبدالقوي مكاوي عن جبهة التحرير، ومحمد علي الجفري وشيخان الحبشي عن الرابطة، حول مائدة واحدة، فكيف بحكم بلد واحد. غير أن هذا ليس بمستبعد في السياسة.

ثم إن الحل بعيد المنال، لأنه أجمل من أن يتحقق. فإذا لم يلعب الجيش دور الحكم بين الفرقاء الثلاثة، وتقضي السعودية على المشكلة الاقتصادية بدفع المساعدات المطلوبة، ومصر تمنح بركتها الثورية وتفسح في مجال التحرك العربي أمام الجنوب اليمني فمن يفعل ذلك؟ من يقبل بذلك؟ يقبل الجميع، ما عدا القادر وحده على أن يتيح تحقيق حل من هذا النوع، ألا وهو الجبهة القومية! إنما كل ذلك أحلام وأضغاث أحلام!

ثم من يريد حكومة تنادي بالخبز قبل الشعارات؟ إنه الجيش الذي يريد كلا الأمرين معاً. الخبز للأفواه الجائعة، والشعارات للرؤوس الحالمة. لذلك وقف بسرعة وحماسة إلى جانب الحكومة وقمع تمرد أبين وحصار حضرموت، ليوفر الاستقرار من أجل الخبز، وليحفظ الشعارات من أجل الشرعية. وكل الشعارات ستمر عليه ليغربلها، وكل الحلول

ستعرض عليه ليختار منها مـا يلائمـه. وسيبقى قائـده، العقيد حسـين عثمان عشـال، وعضو التنظيم العسكري للجبهة القومية، الرجل القوي، وسيبقى العقيد محمد صـالح بن سبعـة، قائـد الأمن والضابط في الجيش سـابقاً وعضـو التنظيم العسكري أيضـاً، الرجل الأقوى، لقربه من قواعـد الحزب واحتكـاكه الطـويل بـالجبهة، ولكـونه الـرجل المناسب في المكان المناسب.

وأما الجيش فسيبقى في الجنوب اليمني، الخصم والحكم، لزمان طويل آتٍ.

عدن - (١٩٦٧/٥/٣١)

الثورة تأكل أبناءها

لماذا يذوب الجليد سريعاً تحت أقدام الوطنيين بعد الاستقلال؟ لماذا تنهار الدولة المرجوة عند جلاء آخر جندي أجنبي عن البلاد؟ بل لماذا تزول أحلام الاستقلال، وفي كل منزل شهيد لم تجف دماؤه بعد.

هذه الأسئلة، وكثير غيرها، تبدو مرسومة على وجوه عشرات المواطنين في عدن وفي لحج وفي حضرموت وفي يافع، وهم يواجهون تهافت الثورة وانهيارها، وكأن ما حدث في الجنوب اليمني منذ الاستقلال لم يكن إلا تصديقاً لنبوءة العرافين السياسيين.

إن الجواب عما حدث في أقل من ستة أشهر مضت على استقلال الجنوب اليمني وتسليم بريطانيا السلطة للجبهة القومية وإعلان جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، يكمن في التكوين السياسي للجبهة القومية، وما تبعه من تغيير في مراكز القوى فيها، منذ ساعة ارتقائها سدة الحكم.

لقد دقت أجراس الاستقلال في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٦٧، وعاد وفد الجبهة القومية إلى عدن من جنيف حيث جرت محادثات استمرت أسبوعاً ولم تكن إلا عبارة عن تسلم وتسليم بين بريطانيا والجبهة القومية، ولم تسفر إلا عن «شكليات الاستقلال». ومنذ دقت تلك الأجراس لم يدرك أكثر المراقبين أن هناك فريقين في الوفد العائد «مظفراً» ليتسلم تركة الاستعمار الثقيلة: فريق «محافظ»، وفريق «متطرف»، من ضمن إطار المفهوم «اليساري الوطني» الذي كانت تحتويه الجبهة القومية. وكان الفريقان اثنين أيضاً. فريق يمارس العمل والوجاهة السياسية في الخارج، وفريق يمارس العمل الثوري الفدائي الحقيقي في الداخل. فريق يلقي الخطب ويندد بالاستعمار من القاهرة وتعز وبيروت، وفريق يلقي القنابل ويطلق الرصاص على الجنود البريطانيين في خورمكسر والتواهي وكريتر. الفريق السياسي فريق «محافظ»، والفريق الثوري فريق «متطرف».

ولم يكن هذا الخلاف بجديد، إذ كان ثمة خلاف قديم عمره من عمر الجبهة القومية التي تأسست عام ١٩٦٣، قائماً بين «الواجهة السياسية» و«العاملين تحت الأرض». إلا أنه خلاف تأجل البت فيه أو «أجلّ» بسبب ظروف حرب الاستقلال. ثم إن «الواجهة السياسية» التي كانت في المنفى، لم تعرف لطول غيابها طبيعة تمركز القوى الداخلية ولا تفاعل التركيبات الاجتماعية داخل تنظيم الجبهة القومية نفسها الذي أوجدته طبيعة حرب الاستقلال. وأما «العاملون تحت الأرض» فكانوا وصلوا إلى نهاية الطريق، وقرروا أنه لم يعد من مبرر بعد الاستقلال لتأجيل الخوض في أمور كثيرة ناموا عليها فترة ولا بد من طرحها علناً في هذا الوقت.

وكل هذا يرجع إلى تكوين الجبهة القومية المؤلف من تسعة تنظيمات سياسية، أبرزها وأهمها فرع حركة القوميين العرب في الجنوب والحزب الاشتراكي العربي الذي يتزعمه

فيصل العطاس في حضرموت. وكان في هذه التنظيمات تباين من حيث مفاهيمها العقائدية اليسارية، إلا أنها تلتقي على العمل الوطني من أجل الاستقلال، وعلى أن استعمال العنف هو الوسيلة الوحيدة الفعالة لإرغام بريطانيا على الرحيل. وكان «الميثاق الوطني» للجبهة القومية، الذي تمت صياغته والاتفاق عليه أثناء المؤتمر الأول للجبهة المنعقد في حزيران عام ١٩٦٥، مستوحى من «الميثاق القومي» المصري ومن ميثاق حركة القوميين العرب، ومصوغاً بشكل يتيح لأي فريق التفسير الذي يريده لآرائه. ولم تكن عند الفريق «المتطرف» أيّ مفاهيم سياسية محددة، بل إن ثقافته اليسارية، من ماركسية ـ لينينية، كانت ثقافة سطحية تعتمد على الترجمات الرخيصة والهضم السيء والشعارات البراقة، كما كانت ثقافة الفريق «المحافظ» تعتمد على خليط من مفاهيم القومية العربية والناصرية والاشتراكية المحلية، رافعة شعارات التنديد بالاستعمار، التقليدية.

وبين بدء ثورة جبال ردفان في ١٤ تشرين الأول عام ١٩٦٣، والتي تعتبرها الجبهة القومية الانطلاق الحقيقي للثورة في الجنوب أجمع، وبين ١٣ كانون الثاني عام ١٩٦٦، تاريخ أول حادث تصدع في الجبهة، ظهرت فوق السطح مجموعة خلافات أساسية وشخصية لم تصفّ حساباتها. فقد أخذ «الصف الثاني»، وهو الفريق «المتطرف»، يقاوم جمود «القيادة» التي هي الفريق «المحافظ» ويطالبها بمواقف أكثر جذرية ويندد بسياستها علناً، ويرفض أية دعوة من «الصف الأول» للاتفاق مع جبهة التحرير. وبإلحاح من «الصف الثاني» وقواعد الحزب الداخلية، عقد مؤتمر خاص في تعز باليمن في تشرين الأول عام ١٩٦٥، ورفض المجلس التنفيذي حضوره. وكان غرضه البحث في الانتقادات التي وجهت إليه وإلى القيادات العامة. وسجلت في هذا «المؤتمر الخاص» ملاحظات القواعد وانتقاداتها على تجربة الحزب ككل وعلى المجلس التنفيذي على الأخص الذي كان المؤتمر بمثابة محاكمة له. بيد أن جلساته كانت أشبه بالتفكير بصوت عال وممارسة الانتقاد حيال أشخاص المجلس التنفيذي.

حتى جاء ١٣ كانون الثاني عام ١٩٦٦، حيث استطاعت السياسة المصرية وأجهزتها في القاهرة وتعز أن تخترق نطاق الحصار الذي ضربه «الصف الثاني» حول قيادة الجبهة، وأن تنتزع من الصف القيادي الأول كلاً من علي السلامي وطه مقبل وسالم زين وتدخلهم في جبهة التحرير. واعتبرت الجبهة القومية بقواعدها أنّ ما حدث كان بمثابة محاولة لشقها. فأخذت تلتف حول «القيادة» وتحاول الضغط عليها، لمنعها من الانزلاق مع جبهة التحرير المتهمة «بالبورجوازية والرجعية والثورة المضادة والعمالة»، ولذا ارجأت خلافاتها وسعت لدعم الجبهة ككل. وجاء تخلي السياسة المصرية وأجهزتها عن الجبهة بالذات وقطعها المساعدات المالية والعسكرية عنها، وطردها أفرادها من تعز، وتحويلها عاصمة اليمن الثانية إلى قاعدة لجبهة التحرير المناوئة، وضربها حصاراً سياسياً وإعلامياً مستمراً عليها، ومحاولتها استمالة أفرادها بمختلف وسائل الترغيب والتهديد إلى جبهة التحرير، جاء كل ذلك ليرجىء البت في الخلافات الداخلية المستفحلة.

وعادت القواعد بقيادة «الصف الثاني» تفكر بما حدث بعد ١٣ كانون الثاني عام ١٩٦٦، وبخطر انقسام الجبهة وتفتتها. واعتبرت «جماعة المؤتمر الخاص» أن المجلس التنفيذي والصف القيادي الأول هو المسؤول عما حصل، إذ مكن السياسة المصرية من أن تنجح في اجتذاب قسم من الجبهة القومية إلى جبهة التحرير، وتسبب بتعطيل «الديموقراطية الصحيحة» داخل الحزب. فأصدرت قراراً بتجميد المجلس التنفيذي المؤلف من: قحطان الشعبي (رئيس الجمهورية)، فيصل عبد اللطيف الشعبي (وزير الاقتصاد والتخطيط السابق والمتفرغ لتنظيم الجبهة القومية، وهو صهر وابن عم رئيس الجمهورية)، جعفر علي عوض (مستشار رئيس الجمهورية)، سيف الضالعي (وزير الخارجية)، علي الشعبي، طه مقبل، علي السلامي، سالم زين (أعضاء مفصولون). كما منعتهم من ممارسة القيادة وعلقت عضويتهم وأحالتهم إلى لجنة تحقيق حزبية.

وشكلت قيادة عامة جديدة من ١٥ عضواً، كلها من «الصف الثاني» و«جماعة المؤتمر الخاص» ومن المقيمين في الداخل، كان أبرزها عبد الفتاح اسماعيل (قائد الفدائيين في عدن ووزير الثقافة والإرشاد حتى انقلاب ٢٠ آذار)، أحمد صالح الشاعر (نقابي ووزير للزراعة، علي سالم البيض (وزير الدفاع حتى انقلاب ٢٠ آذار)، علي عنتر (من قادة الفدائيين والمتمردين على الحكومة)، فيصل العطاس (رئيس الحزب الاشتراكي العربي في حضرموت وقائد المتطرفين فيها)، سالم ربيع (قائد فدائي وزعيم حركة تمرد «أبين»)، ومحمد أحمد البيشي (فدائي ومن المتمردين).

لكن عملية الشد والجذب لم تنته عند هذا الحد. فالقيادة المركزية لحركة القوميين العرب أيدت محاولة ١٣ كانون الثاني عام ١٩٦٦، لدمج الجبهة القومية مع جبهة التحرير، وسعت لتعزيز نفوذ الجبهة القومية في القيادة التنفيذية لجبهة التحرير، ومارست ضغطاً على القيادة الجديدة كي تقبل بفكرة الدمج. واستمرت محاولات الضغط والتطويق للجبهة القومية، حتى تموز وآب عام ١٩٦٦، حيث عقد في الاسكندرية مؤتمر اشترك فيه أعضاء المجلس التنفيذي المجمد (قحطان الشعبي ورفاقه) وفريق من القيادة الجديدة (عبدالفتاح إسماعيل ورفاقه) أتى خصيصاً من عدن لحضوره. وجرت في المؤتمر عملية نقاش مضنية لفكرة الاندماج مع جبهة التحرير، أسفرت عن إيجابية، فوقع «اتفاق الاسكندرية» بين الجبهتين: القومية والتحرير.

واصطدم «اتفاق الاسكندرية» عند عودة فريق القيادة الجديد إلى عدن، برفضه من قواعد الجبهة القومية وتنظيماتها، خوفاً من أن يتعرض للتصفية على يد جبهة التحرير. وأصبحت القيادة العامة مشلولة وقواعدها رافضة، وبقي الأمر معلقاً حتى ١٤ تشرين الأول عام ١٩٦٦، عندما أصدر فدائيو الجبهة القومية في عدن، لمناسبة الذكرى الثالثة للثورة، بياناً سياسياً أعلنوا فيه: «أن الجبهة القومية عادت تشق طريق المستقبل في العمل الوطني وفك الارتباط القسري بجبهة التحرير المفروض عليها». واعتبر هذا بمثابة «انقلاب داخلي» في الجبهة.

ورفض معظم أعضاء القيادة العامة السابقة، الذين لم يقتنعوا بالخط السياسي الجديد، الاشتراك في القيادة الجديدة واكتفوا بعضوية الجبهة. كما جمدت الأمانة العامة المركزية لحركة القوميين العرب علاقاتها التنظيمية مع الجبهة القومية، لرفضها خطوة العمل المستقل عن جبهة التحرير. وتصاعدت الثورة صيف عام ١٩٦٧، وبريطانيا على أبواب الرحيل، والبعثة الدولية تقف عاجزة فوق أطلال الدماء والنار في عدن، لا تعرف من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. وحتى ذلك التاريخ بقي الفريقان في الجبهة اثنين. حتى دخلت ثلاثة عوامل في الصراع. الأول: انحياز بعض القبائل والأسر الكبيرة في المحميات إلى الجبهة القومية عند تعاظم نفوذها بزعامة جعبل الشعوي محافظ المحافظة الثالثة اليوم. الثاني: دخول الجبهة القومية في سياسة تحالف مع كبار ضباط الجيش والشرطة، ملوحين لهم بأن تحالف الجيش معهم هو القادر على المحافظة على «المؤسسة العسكرية» بعد الاستقلال. الثالث: نكسة ٥ حزيران عام ١٩٦٧، وما أسفر عنها من تخلي مصر عن مخططاتها في الجنوب، وبالتالي انسحابها العسكري من اليمن، مما أضعف جبهة التحرير وقضى على آمالها.

ودخلت جبهة التحرير في صراع دموي مع الجبهة القومية في عدن والمحميات لتقرير الفائز الذي ستسلمه بريطانيا الحكم. وكانت «الديبلوماسية المصرية» تلعب دوراً حاسماً من وراء الكواليس لدفع الفريقين المتخاصمين إلى محادثات «وحدة وطنية» جديدة في القاهرة، بدلاً من الحرب الأهلية المستعرة في الداخل. ورحب بها أعضاء المجلس التنفيذي القديم أنفسهم، أو «الصف الأول» (قحطان الشعبي ورفاقه) وقاومها رجال «الصف الثاني». وكادت المفاوضات تصل إلى مشارف الاتفاق، حتى انفجر الصراع الأهلي بين الجبهتين في عدن، واتخذ الجيش الخطوة المنتظرة وألقى بثقله في جانب الجبهة القومية، حاسماً الصراع ومنهياً المفاوضات. وانطلقت دوامة الصراع الحقيقي الجديد منذ الاستقلال. لكن أين كان يقف كل من الفريقين؟

أصبح الحكم في الاستقلال مطالباً بحل معضلة الثورة يومياً. وفتح «الصف الثاني» النار على «الصف الأول» متهماً قحطان الشعبي ورفاقه أولاً: بالمحافظة على المجتمع القديم وحمايته بقوة الدولة والقانون. ثانياً: بعدم تأميمه شركة النفط البريطانية والمصارف وشركات التأمين والمؤسسات الرأسمالية. ثالثاً: بالمحافظة على مؤسسة «الجيش والأمن العام» برغم ضغط القواعد. رابعاً: بوقف الجبهة عن العمل الفعلي وشل حركتها وبتحويلها إلى «جبهة تحرير جزائرية» أخرى. خامساً: بحل اللجان الشعبية التي كانت تمارس الديموقراطية الشعبية وتتمتع بسلطات تشريعية، وبمحاولة حل الحرس الشعبي وجيش التحرير وتشكيلات الفدائيين. سادساً: بعدم حل المسألة الزراعية حلاً جذرياً.

لذلك تقدم اليساريون ببرنامج عمل كامل اعتبر محاولة «ماركسية ـ لينينية» في التطبيق العملي، خلال المؤتمر القومي الرابع للجبهة في آذار عام ١٩٦٨. وكان أهم ما جاء فيه: أولاً ـ حل الجيش والشرطة كلياً وإحلال الحرس الشعبي وجيش التحرير وتشكيلات

الفدائيين محلهما. ثانياً ـ إحداث انقلاب جذري في الملكية الزراعية في الريف، عن طريق مصادرة أراضي الإقطاع من دون تعويض وتوزيعها من دون ثمن على الأجراء والفقراء من الفلاحين، على أن يكون التوزيع طبقاً لإنتاج الأرض وحسب عدد الأفواه. ثالثاً ـ تأميم المؤسسات المالية والرأسمالية والتجارة الخارجية، وإلغاء ميناء عدن الحر، وفرض ضرائب تصاعدية وحماية جمركية. رابعاً ـ إلغاء الخدمة المدنية وتخفيض الرواتب بما يتناسب مع إلغاء الامتيازات، بحيث لا يتعدى الحد الأعلى ربع الرواتب الحالية. خامسا ـ تشكيل مجالس للعمال والفلاحين والفقراء والجنود من مستوى الحي إلى مستوى المحافظة إلى مجلس عموم الجمهورية، على أن تكون السلطة التشريعية في يد «مجلس عموم الجمهورية»، المؤلف من مجموع مجالس المحافظات، وله سلطات الرقابة المركزية على الحكومة والقيادة، ومنه تنبثق الرئاسة والوزارة المركزية. سادساً ـ الأخذ بمبدأ القيادة الجماعية، وتكوين مجلس جمهوري من خمسة أعضاء ومجلس وزراء برئيس للوزراء، وفي المحافظات مجلس محافظة، وفي القوات المسلحة (إذا لم تحل) قيادة عليا جماعية من أربعة أعضاء، وأن تتم الانتخابات الحزبية من أسفل إلى أعلى من دون أي تدخل، وأن يكون الترشيح إفرادياً.

بهذا البرنامج خاض «الصف الثاني» معركة انتخاب القيادة العامة، وفاز بالمراكز العشرة الأولى من أصل ٤١ عضواً.

إلا أن الصف الأول طوق خطوة القيادة الجماعية فطرح فكرة ضرورة «الانسجام في الحكم» وطالب بوزارة مركزية قوية. وكان «الصف الثاني» قد طرح اسم عبدالفتاح إسماعيل كرئيس للوزراء إلا أن قحطان الشعبي رفض البحث في إعادة تشكيل السلطة المركزية، ولوح بالاستقالة من الرئاسة أثناء المؤتمر، حتى انتزع قراراً ببقائه رئيساً، ملغياً بذلك فكرة المجلس الجمهوري، ومتمسكاً بميثاق الجبهة الوطني كأساس برنامج للعمل، لا برنامج عبدالفتاح إسماعيل ورفاقه. وكان «الصف الثاني» يعتبر أن الميثاق هو برنامج نظري فقط لا يصلح أن يكون أساساً لأي تطبيق عملي. ورد «اليسار» بتنفيذ برنامج عبدالفتاح إسماعيل عند استيلائه على حضرموت، ليبرهن على أنه علمي.

إنما ماذا بعد؟

أذكر أنني وأنا في عدن في كانون الأول عام ١٩٦٧، وذلك للمرة الأولى على أثر الاستقلال، جاءني صديق عدني من الجبهة القومية إلى الفندق في الليلة التي أعلنت أثناءها الحكومة عن تسريح وطرد ٤٠ ضابطاً من الجيش والشرطة. وقال لي ببرودة شديدة: «لقد بدأت». أجبته باستغراب: «ماذا؟ دوامة الانقلابات؟ أبهذه السرعة؟». قال ببرودة أشد: «لا. بدأ ما كان توقف بعد الاستقلال وفي أثناء الثورة، وعاد اليوم إلى طريقه الطبيعية. صراع الثوار. يمينهم ويسارهم. تطرفهم واعتدالهم. شبابهم وشيوخهم. قديمهم وحديثهم. إنه أول درب طويلة». أجبته: «ظننت وبغباء شديد، ولو لفترة قصيرة، أن الثورة في الجنوب اليمني قد تكون الوحيدة التي لن تأكل أبناءها».

ضحك صديقي العدني وقال: «التاريخ. هل نسيت التاريخ!؟ وهل ثورتنا أفضل من ثورة الجزائر!؟ التاريخ يا صديقي، التاريخ الذي لا مفر من قدره ولا من حكمه». قلت له: «صحيح». وهكذا كان.

عدن - (١٩٦٧/٦/١)

الفرح أم البكاء؟

منذ عام تماماً، وعلى مدخل فندق «كريسنت» في حي المعلا في عدن، وقف موظف في المندوبية السامية البريطانية، جاء ليرافقني إلى مقابلة المندوب السامي البريطاني وقتئذ السير ريتشارد تورنبول، وقال لي: «إذا عدت إلى عدن عند موعد الإستقلال، فقد لا تجد فيها من يستقبل الصحافيين لأنها ستكون مشغولة بين الفرح بالإستقلال والبكاء على ضحاياه».

قالها دافيد روز، بكل ما في الإنكليزية من سخرية ولؤم ومرارة. وفي أوائل تشرين الأول عام ١٩٦٧ أصابت رصاصة، أطلقها أحد الوطنيين العرب، روز في ظهره، أمام مدخل الفندق، وأردته قتيلاً، وكان ـ حتى كتابة هذه السطور ـ آخر الضحايا المدنيين من البريطانيين الرسميين.

ولم تنته سخرية روز عند هذا الحد. كان موعدي مع تورنبول ـ أو «الدوق الحديدي» كما كانوا يسمونه، وهو سلف المندوب السامي الحالي السير همفري تريفليان ـ في «بيت الحكومة»، في أعلى نقطة من منطقة التواهي المطلة على خليج عدن، يتطلب إجابة واحدة عن سؤال يتعلق بتوقيت الإنسحاب البريطاني وموعد الإستقلال. وطلع الجواب من تورنبول: «إن الجلاء العسكري أسهل من الجلاء السياسي». وضحك روز بعد المقابلة وقال لي وهو يوصلني بسيارته إلى باب الفندق: «لا تخف. صدقني إننا سنجلو عن عدن ـ كما انسحبنا من مناطق أخرى كثيرة قبلها ـ وسنترك الرمال العربية وراءنا تطالب بحصتها من هذا الجلاء». وأضاف روز إلى الإنكليزية مفردات جديدة تزيد من إمكاناتها في اللؤم والمرح الساخر.

واليوم، أصبح روز إسماً آخر ضمن لائحة البريطانيين الذي ابتلعتهم الرمال العربية في تحركها المستمر في النصف الثاني من هذا القرن، منذ أقبل الكابتن هانيز، أول بريطاني تلوّح له شواطىء الجنوب العربي، ووطىء خليج عدن عام ١٨٣٩. لكن الرمال العربية المتحركة بدأت تطالب بضحايا من عندها، وقد أشعل البريطانيون الفتيل واستعدوا للرحيل الحتمي القريب، وبدأ الإنفجار، قوياً عنيفاً دامياً، وهو متوقع ومستمر.

الجو المحموم الذي كانت تعيشه عدن منذ عام، وهي تتساءل عن موعد الإستقلال، غدا لهيباً يحرق مناطق المنصورة والشيخ عثمان وكريتر وخودمكسر والمعلا والتواهي. لم تعد القنابل تنفجر كل ليلة فقط ولم تعد الرصاصات المجهولة تبحث عن صدور مفتوحة أو ظهور منحنية لتسدد حسابات قديمة، مع البريطانيين والعرب على حد سواء، بل إن عدن تتساءل عمن سيتسلم الإستقلال وكيف بل من سيدفع فواتيره. فتركة الإستقلال ليست بالهينة.

الجثث في الشوارع تنهشها الكلاب ولا من يدفنها. المخازن مغلقة، بعدما كانت تحتوي

من البضائع ما أعطاها لقب «هونغ كونغ العرب». تجارها من عرب وهنود وصوماليين ويمنيين وسوادنيين، باعوا ما استطاعوا بيعه وتركوا مخازنهم تحت رحمة اللصوص، فجوات الرصاص والقنابل تزين كل نافذة وكل باب وكل واجهة في عدن. المرفأ يتطلع فارغاً إلى المحيط الهندي يفتش عن سفينة تائهة ترسو في شواطئه. قناة السويس المغلقة حرمته سفن الشحن، والإرهاب والرصاص والثورة حرمته السياح، أما المصفاة فتعمل بنصف قدرتها، وتأمل أن تستمر عاملة بالنصف الثاني من القدرة، على الأقل، حتى يرحل البريطانيون في آخر تشرين الثاني عام ١٩٦٧، وحتى تستطيع أن تكرر النفط المصري الذي ما زال ينتظر في باخرتين مصريتين وباخرتين سوفياتيتين في الخليج الصغير، موافقة لندن.

لم تعد النار تأكل عدن ببطء محرق. ولم تعد بريطانيا تطمح أن تترك في الجنوب العربي «مؤسسات ديموقراطية قوية تتلاءم مع ظروفه وخصائصه، وحكومة قوية مستقرة تتاح لها فرص النمو والتطور»، كما قال لي تورنبول في ذلك اللقاء. لقد أخذت النار تلتهم كل شيء، وإذا هم بريطانيا يصبح أن ترحل في أسرع وقت، قبل الموعد الرسمي الذي حددته للإستقلال وهو ٩ كانون الثاني عامَ ١٩٦٨، وخلفها اكبر عملية فوضى غير مشرفة في تاريخ دولة مستعمرة. من منكم يذكر فلسطين؟ ربما تاريخ الإستعمار البريطاني يعيد نفسه في كل مكان. فليس أمام بريطانيا من دور مشرف، إلا الإنسحاب. لقد خسرت كل الأوراق.

ومع شوارع عدن المقفرة، التي غادرها ١٠٠ ألف عربي في السنة الأخيرة من أصل ٢٥٠ ألف عربي هم سكانها، بعضهم إلى السعودية، وبعضهم عاد إلى بلاده في اليمن، وآخرون إلى الحبشة، والقادر منهم إلى لبنان أو الخليج العربي، ومن ليس معه درهم إلى قبيلته أو قريته في الداخل. ومع فنادقها الفارغة، وقد كانت الطريق الوحيدة إلى غرفة في «الكريسنت» هي بضعة دنانير في جيب موظف الإستقبال. حتى الصحافيون الذين يترددون إلى عدن باتوا أقل من أصابع اليد. ومن آلاف الأوروبيين، موظفين حكوميين ومستخدمين وتجاراً، الذين كانوا يعيشون في عدن، لم يبق إلا أقل من ٥٠٠. ومن ٢٣ الف جندي بريطاني كانوا ينبثّون في الزوايا ما عاد باقياً إلا ٦ آلاف، ينتظرون الرحيل النهائي بعد أسابيع. مع هذا كله تنتظر عدن، ببراكينها الخامدة ورمالها، من يسدد حساباتها ويدفع ثمن الدماء الكثيرة التي أهرقت على ارضها في الصراع على القوة. ولم تكن بريطانيا إلا الخاتمة في سلسلة المستعمرين الذين وطئوا أرض الجزيرة العربية، ووجودها كان الأبقى والأقوى والأقسى منهم كلهم. الرومان، الفرس، البرتغاليون، الأتراك، المصريون. جميعهم هزموا على أرض الجزيرة وشواطئها، تاركين لا شيء إلا قلاعهم متهدمة دليلاً على إندحارهم. وظلت الجزيرة.

هكذا وجدها الكابتن هاينز والبحرية الهندية، عندما أعلن باسم الملكة فكتوريا ضمّ عدن إلى الامبراطورية البريطانية قبل ١٢٨ سنة. وجد عدن، بعدما تركها الأتراك بـ ٢٠٠ سنة، قرية مهملة لا يزيد عدد سكانها عن ٥٠٠ نسمة، «يعيشون في وضع لا

يوصف فقراً وإهمالاً، ويخشى من التاريخ، إذا استمرت الدماء وما تجرفه في دربها، أن يعيد نفسه.

وقصة الكابتن هاينز التي انطلقت قبل قرن وربع قرن، انتهت اليوم «بتصفية» أمور عدة، من الممكن أن تبدأ بها رواية القصة الدامية في الجنوب العربي: أولاً، تصفية الإستعمار البريطاني وانسحاب القوات البريطانية الحتمي. ثانياً، تصفية الحكومة الإتحادية وانهيارها نهائياً ومعها السلاطين والمشايخ والأمراء. ثالثاً، تصفية الأحزاب السياسية في البلاد، وفوز «الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل» بمركز الصدارة، وبروزها على مسرح الأحداث المفاجيء وسيطرتها سيطرة كاملة على مقاليد الأمور. رابعاً، استسلام بريطانيا للأمر الواقع، وإعلان استعدادها لتسليم الإدارة للفريق الأقوى عند الرحيل. خامساً، تصفية جيش اتحاد الجنوب العربي من العناصر المتعددة الميول، وتأييده للجبهة القومية، بل قفزه إلى عربتها المسرعة لإنقاذ نفسه متبنياً إسماً جديداً هو «القوات المسلحة في جنوب اليمن المحتل» ومعه المقررات التي لا يأتي عليها الزمن، «كالعملاء والرجعيين والإنتهازيين والإستعماريين». سادساً، تكريس فكرة الحرب الأهلية تكريساً أكيداً، وفتح الطريق لمزيد من التصفيات، بانتظار «معجزة الإستقرار» التي قد تكون انقلاب الجيش على الكل، واستلامه زمام السلطات، كجزء من التقليد الذي درجت عليه البلدان المتخلفة بعد الإستقلال.

فلنبدأ إذن بقصة التصفية الأهم: تصفية الاحزاب السياسية. فبدايتها وتشكيلاتها تؤلف شبكة من المتناقضات تتيح التعرف على العديد من الظروف المعقدة التي تصفع المراقب كل يوم بألف علامة استفهام. إن الصراع الثوري العنيف، وموجات الإرهاب وحمامات الدم لم تباشر هديرها إلا عام ١٩٦٤ بتأليف «جبهة تحرير الجنوب اليمني المحتل». وقتئذ كانت المعارضة السياسية ممكنة في ظل الدستور الموقت الذي وضعه البريطانيون لعدن. وكان عبدالله الاصنج، أبرز الوجوه المعارضة، كأمين عام «لمؤتمر العمال العدني»، الذي كان أول تنظيم نقابي في عدن، والذي ضم في مطلع نشوئه في الخمسينات مختلف التيارات السياسية، وكانت اغلبية اعضائه من العمال اليمنيين الذين يعملون في عدن. وكنقابي ناجح، دخل الأصنج العمل الحزبي السياسي، فأسس «حزب الشعب الإشتراكي»، وأصبح الواجهة السياسية للمؤتمر العمالي. وجاء الأصنج إلى لندن خلال المؤتمر الدستوري للجنوب العربي عام ١٩٦٤ محتجاً على وضع الإتحاد في يد «السلاطين الإقطاعيين» ومن لندن طار الأصنج إلى تعز، العاصمة الثانية لليمن، ليجتمع و«منظمة تحرير الجنوب اليمني المحتل» التي كانت تألفت نواتها هناك بعد ثورة اليمن وإعلان الجمهورية في أيلول عام ١٩٦٢، بتشجيع ومساندة وتدريب من المصريين لمقاومة الوجود البريطاني في الجنوب.

وبعد ٣ أشهر سافر الاصنج إلى القاهرة للبحث مع المسؤولين المصريين في أمور تنسيق المنظمة. وإثر هذه الزيارة، وفي أواخر عام ١٩٦٤، أعلن عن تشكيل «جبهة تحرير جنوب اليمن المحتل». وقرر الأصنج، وكان قد اعتقل فترة في عدن بتهمة القيام بنشاط

ضد الإتحاد، الإنتقال إلى المنفى واتخاذ تعز مركزاً لنشاطه.

في هذه الأثناء كان عبدالقوي مكاوي، موظفا في شركة «بيس» الفرنسية في عدن، وسيصير رجل أعمال ناجحاً، وقد دخل السياسة عبر مجلس عدن التشريعي. وعارض مكاوي في المجلس انضمام عدن إلى إتحاد الجنوب العربي، لتأييد بريطانيا الواضح للحكام الإتحاديين، ولتمثيله المصالح العدنية التجارية. وعلى أثر فترة معارضة، قوي فيها نفوذ الوطنيين، دعت بريطانيا مكاوي لتولي رئاسة حكومة عدن في آذار عام ١٩٦٥. وعينّ كوزير أول. وكان موقف مكاوي ضد الإستعمار واضحا. فطلب من بريطانيا تنفيذ مقررات الأمم المتحدة وإزالة القاعدة البريطانية من عدن ومنح شعب الجنوب العربي حق تقرير مصيره. وخلال رئاسته، منع مكاوي دخول لجنة دستورية بريطانية إلى عدن، وسافر إلى الإسكندرية حيث عقد محادثات مع علي صبري رئيس الحكومة المصرية إذ ذاك. وضاق صدر الحكومة البريطانية بتصرفات مكاوي، ونفد صبرها عندما اغتيل السير آرثر تشارلز رئيس مجلس عدن التشريعي، ولم يدن مكاوي، كرئيس للحكومة العدنية، قاتليه. وفي أيلول عام ١٩٦٥ علقت بريطانيا دستور عدن وعزلت مكاوي. فطار هذا إلى القاهرة لينضم إلى وفد الجنوب العربي الذاهب إلى الأمم المتحدة عارضاً قضيته. ومع الحكم البريطاني المباشر وتعليق الدستور، بقي الوطنيون دون متنفس، فانضم مكاوي إلى جبهة التحرير وغدا أمينها العام، وانضم إلى الأصنج في تعز، وبقي يتنقل بين اليمن ومصر، بعيداً عن عدن. وطلق السياسة، واختار العمل المسلح.

وكانت الحركة الوطنية قد أخذت تنشق على نفسها منذ تم تشكيل جبهة التحرير. والجبهة القومية كانت تأسست في تموز عام ١٩٦٤ بقيادة حركة القوميين العرب ممثلة بزعيمها في الجنوب العربي قحطان الشعبي ومعه علي السلامي وفيصل الشعبي وسيف الغالقي وطه مقبل. وكان هناك جفاء تقليدي وتلقائي بين الأصنج والشعبي، كما أن القاهرة كانت باشرت تغيير شيء من سياستها، مع شيء من الفتور نحو الحركيين. وكانت فكرة دمج الأحزاب الوطنية قد طفقت تروج في الأوساط المصرية. فطلبت القاهرة من الجبهة القومية حل نفسها والإنضمام إلى جبهة التحرير. ورفضت الجبهة القومية بقيادة قحطان الشعبي حل نفسها والعمل مع الأصنج وجماعته. وخرج منها طه مقبل وعلي السلامي إلى جبهة التحرير. ونزلت الجبهة القومية إلى الشارع لتعلن الثورة المسلحة، وتقود حملة الإرهاب والعنف ضد البريطانيين والحكومة الإتحادية والسلاطين قبل أن تلتقي وجهاً لوجه في الشارع الواحد مع خصمها الحقيقي جبهة التحرير في حملة التصفية الكاملة.

والمرة الأولى التي برزت فيها الجبهة القومية هي في الثورة التي شنتها على الجنود البريطانيين في جبال ردفان، بالقرب من الحدود اليمنية، عام ١٩٦٤، وما زالت تعتبرها منطلق الثورة الحقيقي في الجنوب العربي. ومنذ البدء استخفت جبهة التحرير بالجبهة القومية، كقوة منافسة، كما استخفت بها الحكومة الإتحادية والسلاطين ناهيك

ببريطانيا. وعندما أصبح معظم الزعماء الوطنيين، مطلع عام ١٩٦٦، في المنفى الطوعي أو القسري خارج عدن أو الجنوب العربي، بقي زعماء الجبهة القومية متخفين داخل البلاد. وأثبتت أحداث الأيام الأخيرة ـ من مجموع من قتل من العسكريين والمدنيين على الأقل ـ أن الذين ظلوا يعملون في الداخل، لا يتنقلون بين اليمن ومصر، كسبوا الجولة. إلا أن الكثير من تاريخ الجبهة القومية سيبقى غامضاً ومتناقضاً إلى أن تكتب يوماً، حقيقة الصراع الوطني في الجنوب العربي.

وفي الأيام الأولى لتأسيس الجبهة القومية، وزعماؤها يتجولون في صنعاء وتعز، كانت مصر تؤيدهم وتوفر لهم الدعم المادي والعسكري. وبعد فترة قصيرة تبدلت الأحوال وانتقل الدعم إلى جبهة التحرير. وحملت جبهة التحرير إلى اليوم وزر وعبء مساوىء تأييد المصريين لها، مما جعلها في أعين الكثيرين من الجنوبيين كأن وطنيتها مشروطة بمصريتها أو ناصريتها.

ومنذ اليوم الأول الذي اعلن فيه تورنبول، حين خلف السير كنيدي تريفاسكيس كمندوب سامٍ في عدن، أن الجبهة القومية مؤسسة إرهابية محظورة، وغرور جبهة التحرير يدفعها إلى الإعتقاد والإصرار والمطالبة بأنها الوحيدة الممثلة لشعب الجنوب العربي ـ مما أضعفها كثيراً ـ بدأ السباق للفوز باليد الأولى في الحركة الوطنية. ولم تستطع بريطانيا أن تعترف بجبهة التحرير كممثلة شرعية وحيدة، ولا اعترفت بعثة الأمم المتحدة بوحدانيتها.

وسقطت جبهة التحرير في الصراع الدامي السريع مع الجبهة القومية. وعندما شعرت جبهة التحرير بخطر الجبهة القومية وأحست بامتداد نفوذها، أخذ التساؤل يحيط بها وبأشخاصها، حتى قال الأصنج لصحافي بريطاني إنه «يهنىء الإستخبارات البريطانية في خلقها كجبهة منافسة لحزبه». وتساءل مكاوي في مؤتمر صحافي عقده في بيروت في أيلول عام ١٩٦٧: كيف يمكن الجبهة القومية أن تحقق هذه الإنتصارات كلها بين ليلة وضحاها، وهو العارف بأمور عدن وبميزان القوى الحقيقي؟ وكانت وراء التساؤل دهشة واضحة لتطورات الأمور، بقدر ما كان فيه خطأ في حسابات رجل سياسي من المحسوبين على الأذكياء. ذلك أن قحطان الشعبي ورفاقه غير معروفين شخصياً لدى الرأي العام والناس، كأنهم رجال بلا وجوه، برزوا على سطح الأحداث من «تحت الأرض». لكن السر في شخصيتهم نابع من سر تنظيماتهم.

غير أن الخطورة الضخمة التي قلبت ميزان القوى هي جيش إتحاد الجنوب العربي الذي انضم بكل قواه إلى صف الجبهة القومية، مشتركاً معها في تصفية خصومها، حامياً ظهرها، داعياً بريطانيا ومنادياً العرب للاعتراف بها. فالذي حدث يمكن أن يكون انقلاباً كما قالت لندن، إنما خطورته تكمن في أبعد مما حدث وسيحدث حتماً، خلال ما هو آت من أيام.

فالجيش الإتحادي، هو المؤسسة الوحيدة في الجنوب العربي التي تمثل قطاعات الشعب

كله، من السلاطين والمشايخ إلى الناس العاديين، ومن الحضريين إلى القبليين، لكن أكثر جنوده وضباطه من أهالي المحميات في الداخل، وليسوا من أهالي عدن في الساحل. وبالتالي، فإن مستقبل الجنوب العربي هو في العلاقة التي يمكن أن تنتج بين الجيش والجبهة القومية التي تمثل القطاع السياسي الثوري. فالجيش وحده قادر على ضربها، متى شاء، عسكرياً وسياسياً. والجيش وحده ـ كما أراد اليوم ـ قادر على أن يدعمها ويحميها ويعطيها السلطة.

والإحتمال الذي كان قائماً قبل اشهر ان يتولى الجيش الإتحادي حماية قلاع الجنوب العربي الرملية من الإنهيار، وقد ذهب هباءً مع استباق الجيش الأحداث واتخاذه موقفه سلفاً. والجيش المؤلف من عشر فرق بين مدفعية ومشاة، والمدرب تدريباً بريطانياً حديثاً، فضلاً عن فرقة طيران ما زالت قيد التدريب، يقول المراقبون إنه من أفضل ما قام به البريطانيون منذ إشرافهم على الجيش العربي في الأردن، عهد غلوب باشا. و٧٢ بالمئة من أفراد الجيش من المتعلمين، وهي نسبة عالية جداً هناك، ويتقاضى أعلى رواتب، عاملاً ومتقاعداً، في جيوش العالم العربي، ما عدا الكويت، تدفعها له بريطانيا. وإذا هو حافظ على وحدته حتى الآن، فالسؤال: هل يستمر محافظاً عليها إذا توقفت بريطانيا بعد الإستقلال عن الدفع؟ لكن الدور الذي أعده التاريخ لهذا الجيش يبدو أكبر منه. فهو الذي رفض تسلم السلطة من الحكومة الإتحادية عند انهيارها في آب الماضي، إذ عرضها عليه رئيس الحكومة الإتحادية وقتئذ علي مساعد البابكري. وأعلن الجيش في بيان مشهور أن «القوات المسلحة يجب أن تظل جيشاً لا ينغمس في السياسة».

على أن الجيش مع انتصارات الجبهة القومية خلال الشهرين الماضيين واستيلائها على مناطق الجنوب العربي وسقوطها واحدة واحدة في أيديها، وعلى مرأى ومسمع منه، دون أن يطلق رصاصة، وضع نفسه موضع «المتواطىء» مع المنتصر، أياً كان المنتصر. وكان هذا المنتصر الجبهة القومية مما دفع أنصارها داخل الجيش، إلى محاولة إزاحة العناصر الموالية لعدوتها التي ارتكبت خطأ فادحاً عندما كشفت عن وجهها في مؤتمر صحافي عقده عشرة ضباط في تشرين الأول عام ١٩٦٧، مصرحين بولائهم لها. وبعدها بدأت عملية التصفية بالإرهاب اغتيالاً وخطفاً، حتى فرضت الإستقالة على قائد الجيش العربي المعين حديثاً العقيد ناصر بوليق العولقي، والمتهم بموالاته لبريطانيا. وبدلاً من أن يكون الجيش الحكم، إذا به الخصم فجأة، ليس لجبهة التحرير فقط، بل لكل معارض للجبهة القومية. ودخل جيش الجنوب العربي الدوامة الإنقلابية، من باب جديد، قد يخرج منه بعد فترة، ليدخل من الباب التقليدي، فيتسلم زمام السلطة في الجنوب العربي بشكل مباشر غير متردد، تحت الشعار العسكري التقليدي، «الإستقرار والحكم المجدي»، ويمثل قطاعات الشعب كافة، ضد الفوضى المدنية ومخلفاتها.

وهنا يصدق، إذا فعل، مع شعاره.

وبهذا الموقف، وضع الجيش الإتحادي العربة أمام الحصان. فالإنقلاب الذي يستبق

الإنقلاب لمصلحة فئة معينة، لا بد أن يلحقه إنقلاب يكون عادة لمصلحة الجيش، لا السياسيين. لذلك، فإن ما قاله جعفر عوض ممثل الجبهة القومية: «إن للجبهة القومية أصدقاء في الجيش، والعناصر الوطنية متوافرة في كل المؤسسات، وللجبهة القومية مواقع فيها كلها»، قد يكون واقعاً تحقق، إلا أن من الممكن أن تنتهي هذه الصداقات سريعاً كما بدأت. والأمثلة عديدة في العالم العربي. وطموح الجيش المحترف الذي لا يتعاطى السياسة والذي كان يمثله الجيش الإتحادي، إنهار مع قلاع الإتحاد الرملية. وإذا بالعنف الطريق الوحيدة المعبدة في وجه المؤسسات العسكرية.

وإذا عمَّد الدم الفوضى في الجنوب العربي، وأنبت جذوراً عميقة في الأرض الصخرية الصحراوية تلك، فذلك ـ ربما ـ جزء من التقليد «الثوري» في العالم العربي ـ وحتماً ـ هو جزء من التقليد الإستعماري البريطاني. حتى لم تستطع تظاهرة النساء والأطفال والشيوخ العزل في الشيخ عثمان والمنصورة وقفه بين الجبهتين. فانتعشت الطلقات مجدداً، وتراكمت الجثث على الأرصفة وانقطعت أغرب أنواع المحادثات في القاهرة. وكانت هذه المرة من المرات القليلة التي وقف فيها الجنود البريطانيون يتفرجون على المذابح العربية بشماتة مضحكة. وفشل الجيش الإتحادي في إطفاء لهيب القتال، وكان هذا الموقف محكه، ولم ينجح، إلا عندما انضم إلى أحد الجانبين وخرج عن حياده التحكيمي فانحاز. أما الشرطة، فسقط دورها وانتهت قدرتها في ضبط الأمن وفرض القانون.

وعندما ارتفعت الآمال، وقد تلكأت طويلاً، بالوصول إلى اتفاق بين الجبهتين في القاهرة، رغم تعثرها المستمر ومسيرتها العسيرة، وقد وصلها الأصنج متأخراً ١٢ يوماً، إنفجر مرجل الأحقاد في عدن واحترقت الأصابع التي حملته زمناً وجاء الحل، فرضاً عن طريق الأمر الواقع، بل «الواقع الإنقلابي» الذي هيأت له المحادثات اللامجدية، فرصة العمر الذهبية.

وعلى طرفي الجبهتين، بين أكوام الضحايا الذين دفعوا ثمن الإنتقاد ـ الحالي واللاحق ـ والهزيمة ـ الحالية واللاحقة ـ يقف الفارق العقائدي الذي حدده ـ ممثل الجبهة القومية بقوله: «إن جبهة التحرير، جبهة بورجوازية تعتمد على الحالة الدعائية في الخارج وعلى الأروقة والديبلوماسية، وليست لها قواعد جماهيرية في الداخل. أما الجبهة القومية فتعتمد على قواعد شعبية في الداخل، وهي حريصة على أن توجد التحاما بين الثوريين من المواطنين والعمال والضباط والجنود الأحرار. ونحن نفهم التحرر على أساس سياسي عسكري اقتصادي، فيما جبهة التحرير تفهمه من خلال المواقف السياسية فقط، وربما العسكرية أحياناً». وتقول جبهة التحرير بلسان علي عبدالرحمن الأسودي، رئيس المؤتمر العمالي العدني بالنيابة: «إن الإستعمار البريطاني خلق الجبهة القومية وحاك حولها هالة مزيفة من النضال، بعدما فشلت أساليبه القديمة في الاعتماد على أصدقائه التقليديين من الحكام الإتحاديين. فالجبهة القومية نبذها الشعب من صفوفه النضالية، بعدما حاربت كل التنظيمات الثورية العاملة في المنطقة،

وكانت ولا تزال سبباً من أسباب الشقاق بين كل المنظمات الوطنية». ولم ينفع هذا الكلام إلا في تحديد الأبعاد، وكان الرصاص أقوى في تحديد مواقع السلطة.

ولم يعد يعني الأمم المتحدة من هذا الأمر، وقد تعبت بعثتها تسكعاً من جنيف إلى عدن مروراً بلندن وبيروت والقاهرة، إلا كلمة «الإستقلال»، التي قدمتها بريطانيا برضى الخاسر الشامت، واستعدت صفارات البواخر في «ستيمر بوينت» للإنطلاق تحية، أو وداعاً لـ ١٢٨ سنة ـ من اللاسياسة واللااستعمار، تاركة إرثاً مأساوياً للعرب، يكاد يفوق الإستعمار بشاعة.

وسيكون البكاء آخر هذا الشهر أكثر من الفرح. والكارثة وراء الكارثة.

عدن ـ (١٩٦٧/١١/١٢)

سقف الجزيرة العربية

وادي حضرموت يمتد كنهر كبير بين ضفتين من الجبال العالية المتقاربة. وسيؤون تقبع في وسطه كمدينة اهملت التاريخ فتناساها. وإلى الجنوب منها تريم الكثيرية، وإلى الشمال شبام القعيطية، كأنهما مدينتان خرافيتان وسط لا شيء، إلا واحات كبيرة من النخيل وناطحات سحاب عالية من الطين.

كل ما في غراف، القرية الصغيرة التي تقع في منتصف الطريق تماماً بين سيؤون وتريم، والتي زودت الطائرات بفسحة صغيرة من الصحراء وسط الوادي تدعى مطاراً، يوحي بالوهم، ويشعر بعزلة محببة عن الواقع، فليس فيها ما يربطك بالعالم الذي تعرفه.

وعندما يسألك الموظف اللبق الجالس إلى طاولة بثلاث قوائم، عن التأشيرة التي منحتك إياها الدولة الكثيرية، تتذكر انك لم تسمع بهذه الدولة من قبل، وانك ترجوه أن يمنحك إياها الآن وأنت في غرفة المطار الطينية البيضاء، وقد تكدس فيها المسافرون مع الأمتعة، وضاع جواز السفر الغريب بين كومة أوراق ملفوفة كطائرات الورق.

ويسألك الموظف ثانية بلطف، إذا كنت قد جئت للعمل أو للزيارة، فتضحك لأنه آخر مكان في تصورك يصلح لأن يعمل فيه الإنسان. وتنتهي معاملات الدخول إلى السلطنة الصغيرة المحاصرة بالدولة القعيطية، الأكبر والأغنى، غرباً، ودولة المهرة، وقبائلها الموزعة في أقاصي الجزيرة العربية بين عاد وثمود، بعضها لم يبلغها الإسلام بعد، وبعضها لا يتكلم العربية، شرقاً، وسلطانها بعيد في جزيرة سقطرة، لم يزر يابسة السلطنة منذ أكثر من عشر سنين.

وتحملك سيارة اللاندروفر من صحراء المطار عبر الوادي الأخضر المفتوح على نهر جف منذ ما يزيد عن قرن. الأمطار لم تهطل منذ سنوات وسنوات، والنخيل هو الخضرة الدائمة. والطريق المرصوفة بحجارة صوانية، تمر بغراف، القرية الصغيرة ذات الكهوف الطينية والبيوت الواطئة القليلة.

وتدخل سيؤون عبر ممر من أشجار النخيل، وكأنك في حلم سينمائي اجترحته هوليوود. وتلمع القباب البيضاء، وتبدو سيؤون من بعيد، واحة من الألوان، البيوت خضراء، وحمراء، وبيضاء، وزرقاء، كلها زاهية. الشوارع ترابية مرصوفة ونظيفة، والناس كأنها لا تعمل إلا في البناء والزراعة.

- إلى الفندق؟

- وهل ثمة فندق؟ سألت سائق اللاندروفر.

- نعم، أجاب بإصرار.

ووصلت السيارة إلى أجمل ما رأيت من فنادق. غرف صغيرة حديثة، مزروعة بين

النخيل، وحولها برك ماء صاف تصلح للسباحة، وربما للشرب. وكراسٍ مصفوفة إلى جانب النوافير، وكأنها معدة خصيصاً للحلم أو للشعر.

وتلقي بأمتعتك في الفندق لتباشر البحث عن عاصمة الكثيري، قبل أن تبحث عن السلطان أو السلطنة، لأنك تشعر بأن المدينة هي، ربما، أهم من حاكمها أو ساكنيها.

كل شيء في سيؤون من الطين والألوان. لا حجر ولا اسمنت. الشوارع فسيحة ترابية ونظيفة. والنظافة تلفت النظر في كل مكان في الكثيري، وخاصة القادم من اليمن وعدن. فالهندسة صناعة محلية، تكاد تكون أهم ما يميز حضرموت عن الجزيرة العربية كلها. وزراعة الذرة والخضار، هي مهنة الحضارمة، المقيمين الذين لم يسعدهم الحظ بركوب البحر إلى أبعد. وتتطلع إلى أعلى، فترى البيوت الطينية ترتفع إلى عشر طبقات أو أكثر، وتمتد كقصور من ألف ليلة وليلة، حولها حدائق وخضار وماء، وفيها ألوان وألوان.

ورحت في شوارع سيؤون أفتش عن التاريخ. وجدت قصر السلطان الأبيض الممتد بأسواره العالية فوق هضبة صغيرة تشرف على السوق وأمامه ساحة كبيرة فيها مقاه ودكاكين تبيع الصور. وكأن بيع الصور هو تجارة رائجة في تلك البلاد. صور مجموعة من السلاطين ضاعت أسماؤهم في بطون التاريخ تتصدر الأمكنة ومعها صور لعبد الناصر وأيوب خان وشاه إيران وفرح ديبا والملكة اليزابيت. كلها في دكان واحد، تستطيع أن تطلب منه أيّ صورة، فيطلعها لك من بين الغبار. فطلبت صورة عنتر بن شداد على سبيل التجربة، فأخرج لي البائع فارساً أسود يمتطي جواداً رافعاً السيف ليبتر رأس فارس آخر مقبل عليه. ولم أطلب غيرها.

وراح فضولي يبحث بين الناس عن تاريخ الكثيري.

عرفت أن الكثيري عمرها أكثر من ٨٠٠ سنة. وكانت حضرموت كلها كثيرية قبل نصف قرن. وكان جد السلطان الحالي حسن بن علي بن منصور الكثيري، الذي فر إلى السعودية بعد استيلاء الجبهة القومية على البلاد وإلغاء نظام السلطنة في أيلول عام ١٩٦٧، مؤسس الدولة الكثيرية في حيدر أباد في الهند، على رأس فرقة من المرتزقة تعمل في خدمة النظام، كعادة الحضارمة تلك الأيام. وقامت ثورة على النظام قضى عليها جيش الحضارمة، فأعطى النظام الجد مالاً وجنوداً، عاد بهم إلى حضرموت فأسس مملكته الواسعة التي كانت تشمل حضرموت كلها. ومات الجد، واختلف الكثيريون حول من يخلفه، واستعان فريق ضد آخر بمنطقة يافع، الجارة. ونجح فريق في السيطرة على العرش.

وعاد الخلاف حول الملك. وهذه المرة دخل أهل يافع في الصراع، حين عاد زعيمهم عمر القعيطي، وهو مؤسس الدولة القعيطية من الهند، حيث كان في خدمة نظام حيدر أباد، وقد ورث عنه الكثير من المال. وكانوا طلبوا منه أن يعود بسرعة ليملكوه وقد اشتد الخلاف بين الكثيريين. ووقعت الواقعة، وانقسمت الدولة بين كثيري وقعيطي.

وكان كلما تأزم الموقف، يعود السلطان الفاشل إلى الهند، ليأتي بمزيد من الرجال والمال والسلاح. والحضارمة كانوا وقتها على اتصال مستمر وهجرة دائمة إلى الهند الشرقية، وحيدر آباد وطنهم الثاني.

وبدأت المعركة بين غالب بن محسن الكثيري وعمر بن عوض القعيطي، اليافعي الأصل، وقد انقسم الحضارمة في الهند على من يؤيد من. وبقيت الحرب سجالاً، وكانت العاصمة وقتها في مكان قريب من المكلا، اندثر. ودار الصراع على الساحل. فمن يستولي عليه، يحصل على الداخل. وكان الساحل في أيدي يافع، حتى استتب الأمر للقعيطيين وانسحب الكثيريون إلى الداخل.

أما المهرة فهم الطرف الثالث في مثلث حضرموت. فثمة علاقات قديمة بين المهرة والقعيطيين، وقبائل كثيرية في أراضي المهرة، كقبيلتي الرواشد وبيت كثير. ففي مناطق المهرة قبائل لم يبلغها الإسلام بعد. وفيها أكثر من سلطان. واحد في قشن، وآخر في سيحوت. وثالث في جزيرة سقطره، وسلطانها لا يحكم أي جزء من البر، رغم أنه الذي يعترف به الإنكليز ويوقعون معه المعاهدات.

ولكن من المؤكد أن المهرة عرب. فهم قبائل قديمة لا يعرف أحد أصلها، لها سمات أفريقية ـ حبشية، شاء الإنكليز أن يستغلوها للتدليل على عدم عروبتها. لغتهم ذات ثلاث لهجات. فلهجة أهالي سقطرة مثلاً غير لهجة أهل الساحل. بعضهم يقول ـ ومنهم البروفسور سارجنت الخبير في اللهجات الحضرمية ـ إنها لغة سريانية، وإن القبائل المهرية نزحت من الشاطىء السوري واستقرت في الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرون. وآخرون يضيفون إنها قبائل نزحت من أفريقيا الشرقية، وإن لغتهم قريبة من اللغة الأمهرية في الحبشة. والرأي الأكثر شيوعاً أنهم حميريون، وأن لغة أهلها هي الحميرية القديمة، إلا أن طه حسين يقول إن لا صلة لها باللغة الحميرية، بل هي سامية جاءت من الشمال ثم انقرضت.

وليس لدى المهرة لغة مكتوبة، إلا أن الإنكليز بدأوا منذ مدة قصيرة بوضع أحرف للغتهم وكتابتها وتعميم مصطلحاتها. فلغتهم فيها الكثير من المفردات العربية، وأكثرهم قادر على فهم العربية وان كان لا يتكلمها إلا بصعوبة. وجبال المهرة مناطق غنية بالنفط، وهذا أحد أسباب سيطرة بريطانيا عليها.

فقد جاءت شركة «بان أميركان» وحفرت أربع آبار للنفط في المنطقة، وكانت في البدء متفائلة بوجود النفط بكميات تجارية إلى درجة كبيرة. وفجأة أعلنت أن لا نفط هناك، وحملت معداتها ورحلت.

والحضارمة لا يعتبرون أنفسهم جزءاً من اليمن. فلا ميل هناك نحو اليمن، ولا يمنيين عندهم، والعلاقات بينهم معدومة من ٢٥٠ سنة وأكثر. والحضارمة تطلعوا واتصلوا بالشرق الأقصى، ولم يتطلعوا أو يتصلوا باليمن. فعادتهم وطبائعهم مختلفة.

والدخل الأساسي لدولة الكثيري من الجمارك. ومشكلتهم هي في الجمارك. فهم محاطون من كل جانب بالدولة القعيطية. فالبضائع التي تصل إليهم تدفع عليها الضرائب مرتين. مرة للقعيطيين ومرة لهم. ومبدأ «الترانزيت» غير معترف به، بل لا تريد الدولة القعيطية الاعتراف به. ورغم وجود مشاريع اقتصادية مشتركة بينهم، بقيت المشكلة بلا حل. دخلهم من الجمارك لا يزيد عن ٩٠ ألف جنيه استرليني في السنة، تضاف إليها المساعدة البريطانية التي هي حوالي ١٠٠ ألف جنيه استرليني. إلا أن موازنتهم السنوية لا تتعدى ١٥٠ ألف استرليني، تصرف كلها على الصحة والمعارف والشرطة والتنظيم الإداري.

وانطلقت سيارة اللاندروفر في حر بعد الظهر عبر الطريق المرصوفة في الوادي البني اللون الأغبر الجاف. وكانت تريم في الجانب الآخر تسبح في واحة من النخيل والألوان والماء. وكانت الكثيري في عزها.

وإذا بتريم مدينة مسورة، بابها ضيق، ومن خلف السور الطيني تطل ناطحات السحاب الطينية، ومعها مآذن على مد النظر. وأمام الباب، احتشد جمع غفير من الناس وقد علت أصواتهم واختلطت بإطلاق الرصاص في الهواء، وقد مشى أمامهم فتيان يحملون حراباً على رأسها ما لم أتبينه من بعيد.

وسألت رفيق الطريق الحضرمي، فقال هؤلاء الناس قد عادوا من صيد الغزلان، وقد حملوا رؤوسها على الحراب، وهم يطلقون الأهازيج بين كل وقفة ووقفة. وإنه تقليد من تقاليد الصيد، وصيد الغزلان عندهم فن قديم.

ودخلنا الباب وراء الجماهير، فإذا نحن في ساحة كبيرة خلفها جبل كبير وقد التصق السور وجدرانه الثلاثة به، وكان هو الجدار الرابع. ووسط الساحة مقابر ذات شواهد قصيرة وكأنها مجموعة تحف صغيرة صفّت بشكل هندسي أنيق في واجهة متحف من المتاحف.

لعل هذه المقابر وجدت قبل تريم، وبعضها منذ أيام الحميريين. أجيال وراء أجيال تدفن هنا في وسط البلدة.

وكانت جموع الصيادين والناس قد اختفت من الساحة وتوزعت في الأزقة الترابية الضيقة. وإذا بتريم تختلف عن سيؤون وشبام. إنها مدينة حدائق مسورة: داخل السور الكبير، أسوار صغيرة تدور حول قصورها وعماراتها المرتفعة، وإذا بالجو، جو اريستوقراطي بعيد عن التجارة والمقايضة والأسواق التي تملأ سيؤون والمكلا.

وأثارتني كثرة المآذن، فسألت رفيقي الحضرمي عن كل هذا، فقال: في تريم ٣٦٥ مسجداً. كل يوم من أيام السنة له مسجد. فأغنياء حضرموت كانوا ينذرون بعد موتهم ببناء مساجد عن أرواحهم، بدلاً من أن يبنوا مدارس أو مستشفيات. أما اليوم وقد اتفق عدد الجوامع مع عدد أيام السنة، فنرجو أن يبدأ بناء المدارس والمستشفيات.

ووصلنا إلى منزل الدليل، فإذا به قصر من القصور. ونعبر البوابة الخارجية فإذا قطعة من الشرق الأقصى، ونمر إلى الحديقة، وإذا بها جزء من الملايو أو سنغافورة. كل شيء أخضر، وكأنك في غابة استوائية. واصطفت مائدة طويلة، فيها من أنواع الشراب والمرطبات والأطعمة، وكأنك عند سلطان من سلاطين ماليزيا، أضيفت إليها كل اللمسات العربية الجميلة، فاختلطت حضارتان في الطريق إلى المعدة. وأكلنا وشربنا وتحدثنا.

وسقطت الشمس وراء السور الكبير، وبدأت النساء في العباءات البرتقالية والبراقع السوداء ينسحبن إلى بيوتهن من الحقول، ولمعت انوار المآذن الكهربائية كمنارات على شاطيء مهجور، وتحولت تريم عند المغيب إلى مهرجان من الألوان الأريستوقراطية، وبدت سيؤون في الطرف الآخر من الوادي كأنها خرافة.

وكانت سيؤون وتريم.

□

شباك كثيرة، ومراكب قديمة راسية، وصيادون وأشرعة ممزقة، وطريق يتيمة تمر عبر منحدر جبلي ضيق، وشاطيء واسع كله حبال وأسماك وناس، وناس، لعلهم تجار أو بحارة أو ربما قراصنة.

كان هذا هو المدخل إلى المكلا، نافذة حضرموت المفتوحة على العالم، وعاصمة الدولة القعيطية. كل ما فيها يوحي بالحركة، وكل ما فيها كأنه ذكرى من ذكريات.

والطائرة لا تصل من عدن إلى المكلا. فلا بد أن تهبط في الريان، وهي قرية صحراوية على مشارف المكلا من الداخل. وانتظرنا في شمس الريان المحرقة بعد طيران أكثر من ثلاث ساعات في طائرة الداكوتا القديمة، أن يتراجع المد ويصبح من الممكن لسيارة اللاندروفر أن تمشي بمحاذاة الشاطيء في ساعات الجزر حتى تصل بعد ساعة، إذا لم تغص في الرمال أو تتلف إحدى عجلاتها، إلى طريق المكلا الضيق.

وأقلعت السيارة براكبيها اليتيمين، أنا وزميل أجنبي، على الشاطيء الاستوائي وهي تغوص تارة وتقف طوراً لإصلاح ما أفسده الحر من محركها، أو أتلفته الرمال في عجلاتها، مروراً فوق آلاف الأسماك الملونة القريبة التي تركها المد على الضفة قبل أن يرحل، وحولها تموج مئات السلاحف الكبيرة الجميلة فتلتهمها، وطيور البحر تضرب زجاج نافذة السيارة بالأجنحة والقوارب الغارقة ترسو بعيداً عن الشاطيء وقد سحبها المد معه، فعلقت بالشباك التي تركها الصيادون على الرمال.

وتطل المكلا من فوق الطريق الذي سد بالصخور، حتى يلوح في نهايته شارع ضيق كله بياض مفتوح على البحر، كرصيف طويل لميناء كبير، وقد تكدست أكوام الأخشاب والبضائع في كل مكان حتى لم يعد من مكان للمشاة، واختلطت اشكال الوجوه الغريبة بعضها مع بعض في الجو.

ومن المكلا أبحر الحضارمة إلى العالم ليجمعوا ثروات ويبنوا أمجاداً، ويعودوا بحضارات وعادات تندمج في بيئتهم وتراثهم، ومن ثم تكافح في أرض غريبة لتثبت أهليتها وفرديتها وخصائصها. فالحضارمة المهاجرون أكثر من الحضارمة المقيمين، والمسافر منهم يعيل المقيم، والثروة الوحيدة هي ثروة الهجرة.

من أندونيسيا إلى سنغافورة إلى الملايو، حيث أسسوا دولاً وممالك، حتى الهند وسيلان في آسيا. ومن زنجبار وكينيا وتنجانيقا والحبشة والصومال في أفريقيا، كان مد الحضارمة يتدفق إلى جنوب الجزيرة العربية، معه أموال، ليبني. وتتحول الرمال في بلاده إلى ناطحات سحاب من الطين، وينقل من الشرق الأقصى وأفريقيا التوابل والخشب والحرير والقصب. ولا يحمل معه من الجزيرة إلا الإسلام، فيعطيه لأندونيسيا والملايو وزنجبار، «نحن فاشلون في بلادنا، وناجحون في الخارج..»، كان تعليق رفيق حضرمي في المكلا لملاحظتي على بدائية تفريغ البضائع من السفن في المكلا؛ مع وجود عشرات من الحضارمة العاطلين عن العمل.

ولكن يبدو أن المد الذي ركبه الحضارمة عاد بهم من الشرق الأقصى وأفريقيا الشرقية. فكانت أندونيسيا وقد توقفت ثرواتهم فيها وتعطلت أعمالهم في عهد سوكارنو. وكانت الهند وفقرها، وقد جفت ينابيع الخير فيها. وكانت زنجبار وثورتها حين ذبح الأفارقة العرب؛ وكانت كينيا وقد فرضت قيوداً على غير الأفريقيين. وعاد الآلاف من الحضارمة وخاصة من أفريقيا إلى الوادي الأخضر دون مال ولا عمل ليعايشوا الفقر من الأول.

بدأت هجرة ثانية: إلى السعودية. إلى الكويت. إلى الخليج العربي. فثمة اليوم ٢٥٠ ألف عائلة حضرمية في السعودية وحدها، ترسل في الشهر ١٠٠ ألف جنيه استرليني إلى البلاد. ونصف هذا العدد في بلدان الخليج العربي.

ودخلت السياسة لتفسد. وأصبح همّ الحضارمة التجار أن يرضوا مصالحهم في الدول التي لهم تجارة فيها. ووقع الصراع. فإذا أغضبوا السعودية، يا ويلهم. وإذا أغضبوا أندونيسيا يا ويلهم، وإذا أغضبوا سنغافورة والملايو، فيا ويلهم أيضاً. إذن، ليمشوا على الحبل بمهارة.

ولكن المشكلة التي تشغل بال أهل القعيطي، هي مشكلة اللاجئين الحضارمة الذين وفدوا إلى المكلا من أفريقيا. عددهم يفوق العشرة آلاف، من العمال والبحارة والفقراء. فالعمل قليل عندهم، والإمكانات ضعيفة، والأرض ليس عندها من الغنى ما يسمح لهم باحتضان الجميع. إنهم الحضارمة الذين ذهبت بهم الرياح في الاتجاه الخطأ. فرست سفنهم على شواطىء أفريقيا، بدل أن ترسو على شواطىء جنوب شرق آسيا. فكان الفقر في أفريقيا والغنى في آسيا.

وعلى الشاطىء الرملي، أمام قصر السلطان الصغير، وفي مواجهة المستشارية البريطانية، كانت ثلة من الجنود الحفاة تأخذ التحية لمركب شراعي كبير عليه عدد كبير من الناس يبحر إلى أرض جديدة ـ إذا بقي في العالم ثمة أرض ـ ليلقي عليها حمولته.

فإما أن تثمر، وإما تعود بمراكب غارقة صغيرة إلى شاطىء الصدف والأسماك والرمال، فتلقي شباكها في فقر بيوت الطين. ويكون التاريخ قد أوقف المد ومزق الشراع.

وكانت المكلا، رحلة خرافة.

□

وبقي السلطان. سلطان الدولة القعيطية. ورحت أبحث عنه. لعله كان أصغر من يحكم دولة في العالم اليوم. فالمدينة تذكرك بمرفأ من مرافىء القرصان في القرن الثامن عشر. والقصر يذكرك ببيت من البيوت الدمشقية العتيقة. والرجل يذكرك بشاب سقط سهواً من نظام حيدر آباد في الطرف الثاني من البحر. وكل شيء حولك يصر على أنك تعيش في عالم ليس فيه من الواقع شيء. كانت سماته الهندية تطغى على الخليط من الملابس التي يرتديها. الكوفية والعقال على الراس، كإصرار على الملامح العربية. السترة الهندية الطويلة ذات القبة الضيقة، كتحية لأجداده الهنود. والسترة اليمنية الملونة، للأمر الجغرافي الواقع الذي يعيشه. كان غالب بن عوض القعيطي، سلطان الدولة القعيطية، حتى تنازله - أو إرغامه على التنازل - عن السلطة بعد استيلاء الجبهة القومية أيضاً على دولته في أيلول عام ١٩٦٧، واقفاً على رأس الدرج الخشبي الطويل، عندما استقبلني في القصر السلطاني في المكلا، الذي لا يبعد إلا خطوات عن المستشارية البريطانية في الطرف الآخر من الشارع الترابي الضيق، الذي يفصل بينهما.

وحسبته بادىء الأمر، وأنا أصعد الدرج الخشبي الطويل احد المرافقين الذين في انتظاري، حتى يقودني إلى الحضرة السلطانية، لأنه لم يكن أمام السور الخارجي للقصر إلا جندي واحد حاف يحمل بندقية عتيقة، لم يسألني إلى أين وأنا أمر بكل حرية.

ولم أكتشف أنه السلطان غالب، إلا وهو يمد يده ليصافحني مرحباً بإنكليزية سليمة ويقودني بنفسه إلى غرفة الاستقبال. كان شاباً في الثامنة عشرة، خجولاً، يسير وفي يده عصا من البامبو الهندي المطعم وكأنه يعرج.

وبدا مرتبكاً، وكأنه يستقبل إنساناً من عالم غريب، مطرقاً في الأرض يفرك يداً بيد ويتحدث بصوت لا يكاد يكون مسموعاً.

بدأ السلطان الصغير حديثه بحياء شديد، وقال بصوت منخفض، أنا الابن الأكبر من بين ثلاث بنات وصبي. والدي السلطان عوض، كان متزوجاً من ثلاث نساء. أمي ابنة عم نظام حيدر آباد، وهي اليوم في الهند. وأنا من مواليد حيدر آباد، وقد عشت وتلقيت قسطاً من تعليمي في الهند، وأتكلم الأوردية بطلاقة.

- والعربية؟

سألته.

ـ عربيتي المكتوبة ما زالت ركيكة، فمن الأفضل أن نستمر بالإنكليزية، خوفاً من اختلاف اللهجة.

ـ ومن بعد الهند إلى أين؟

ـ ارسلني والدي إلى السودان لأتعلم العربية، وبقيت هناك سنتين كنت أعود خلالهما إلى القعيطي. وبعدها ذهبت إلى بريطانيا، حيث اتممت تعليمي الثانوي في كلية «ميلفيلد»؛ وكنت أنوي دخول الجامعة، لولا موت والدي. لقد كان طموحي أن أدرس في أوكسفورد، كنت مؤهلاً للدخول إليها، ولكن.

وأطرق السلطان غالب من جديد، وقد اختنق صوته مع الجملة الأخيرة، وارتسمت على وجهه إمارات حزن، وكان هذا القصر، وهذا المكان، وهذا الحديث، آخر ما يتمناه في الدنيا.

ولم أعد أسمع صوته. فكنت استعيد الكلمات منه. وانتقلت من مقعدي إلى جانبه. ولم يتحسن الوضع قط.

ـ قلت له: لا بد أن يكون لك كشاب مثقف آراء سياسية معينة، فهل تستطيع أن توضح لي بعضها؟

ابتسم السلطان غالب بفخر وقال: أريد أن أرفع كاهل الفقر عن بلدي. وقلت له: وصور الرئيس عبدالناصر لفتت نظري في كل دكان في المكلا وعلى أكثر السيارات، مع صور السلال وعامر وعارف، حتى أنَّ هناك دكانا لا يبيع إلا صور عبدالناصر.

ـ هذا صحيح. فنحن الحضارمة نحب عبدالناصر، ونسمع إذاعة صوت العرب، والشعب يعتقد ان عبدالناصر رجل عمل الكثير من أجل العرب.

ـ وأنت ما رأيك فيه؟

ـ عبدالناصر رجل وطني.

وسكت السلطان الخجول، وكأنه أزاح عن كاهله عبئاً.

ـ وهل تعتقد ان الزمن سينتظرك؟

ـ لا يهم. المهم انني اسعى لكي أؤمن لشعبي حياة كريمة، يكون هو سيداً على مقدراته وخيراته.

ورأيت، وقد جاء الخادم بالشاي ثانية، ان أبتعد عن السياسة.

ـ اي كتب تقرأ؟

ـ لا أقرأ الروايات، ولا الشعر، وعندي مجموعة كبيرة من الكتب. واقرأ الآن كتاباً عن الدستور السوري بالعربية لمؤلف نسيت اسمه، وكتاباً آخر عن علم قراءة الكف.

ولم أسأل السلطان عن أي دستور من الدساتير السورية يقرأ.

ـ قل لي، ما طموحك الحقيقي؟

وقف السلطان الصغير ونحن نسير عبر الغرفة في طريقنا إلى الباب وقال: بصراحة، طموحي أن أدرس الفلسفة في أوكسفورد.

وأخذني بيدي في جولة قصيرة في غرف القصر. وكانت الغرفة الأولى غرفة العرش، يتصدرها مقعد قديم مصنوع من الفضة هدية من الهند، وعلى جدرانها صور السلاطين الذين حكموا دولة القعيطي خلال أربعمئة سنة. أما أثاثها ومحتوياتها، فهي كما في غرف القصر الأخرى. وأي بيت قديم في حي السراسقة يحوي من الأثاث والتحف أحسن مما في قصر السلطان بألف مرة.

وافترقنا عند الدرج. وودعت الشاب الصغير الذي كان يحكم أكبر سلطنة في الجنوب العربي، وشعرت بأنني تركت إنساناً وحيداً بين جدران قصر قديم نسيته الأيام. رجل صغير يحاول أن يزيح عنه عقارب الزمن التي صدئت، وكله أمل وطموح وتفاؤل. فالساكن الجديد لقصر الأشباح في عالم تجتاحه الثورات اليوم، لم يكن يدرك بعد أبعاد المأزق الذي يواجهه، ولا عمق المأساة التي قد تطيح به ـ وقد فعلت ـ في ساعة غضب ثوري.

ورحت أبحث في شوارع المكلا عن صورة للسلطان. وعند كل دكان كنت أسأل عن صورة له، وكان الجواب: عندنا صور لعبدالناصر، لعامر، لعارف، للسلال. أما للسلطان فلا.

وفي صباح اليوم التالي، وكان السلطان الصغير قد عرف حكايتي، أرسل إلي الصورة الوحيدة التي يملكها وتوقيعه عليها. وشعرت أن المكلا في هذا الصباح، بلدة حزينة، يغسل أقدامها بحر طاهر، ويحكمها أمير فقير، بينه وبين الغد سباق. فإما أن يغرقه مد الثورة وكل نياته الحسنة، وإما أن يركب الجزر إلى شاطىء بعيد. وأغرقته الثورة وسبقه الغد، فرحل إلى أرض غريبة بعيدة.

المكلا ـ (١٩٦٧/١١/٢٩)

٣- اليمن شرقاً وغرباً

عدن «وارسو» العرب

للمرة الأولى في تاريخ العلاقات الدولية تصبح دولة عربية عضواً في حلف وارسو. صحيح أنها عضوية شرفية، إلا أنها سابقة لا مثيل لها حتى الآن. وللمرة الأولى في تاريخ العلاقات الاقتصادية تصبح دولة عربية عضواً مراقباً في منظمة «كوميكون» ـ السوق الشيوعية المشتركة لدول أوروبا الشرقية. هذا الشرف منح لليمن الجنوبية عندما زار عبدالفتاح إسماعيل رئيس جمهورية اليمن الجنوبية موسكو قبل أسبوعين، متيحاً للرئيس السوفياتي ليونيد بريجنيف فرصة ظهوره أمام الناس، عند استقباله الرئيس اليمني الجنوبي في المطار بعد الإشاعة التي عمت الأوساط الدبلوماسية والصحافة الغربية عن وفاته.

في موسكو وقّع الرئيس إسماعيل معاهدة صداقة بين بلاده والاتحاد السوفياتي لمدة عشرين سنة مع عدد من الاتفاقات التعاونية في الحقول الاقتصادية والتقنية، الذي كان قد أعد لها عند زيارة رئيس الوزراء السوفياتي ألكسي كوسيغين لعدن في أيلول عام ١٩٧٩. عند تلك الزيارة أعلن عن انضمام عدن إلى سوق «الكوميكون»، وفي زيارة إسماعيل لموسكو أعلن عن انضمام اليمن الجنوبية إلى حلف وارسو كعضو شرف. وبين الزيارتين تضاعف استعمال الاتحاد السوفياتي للتسهيلات البحرية والجوية التي تتيحها عدن.

ليس عند اليمن الجنوبية ما تمنحه لموسكو إلا موقعها الجغرافي. وليس عندها ما تعطيه لموسكو كحليف لها إلا هذا الموقف السياسي الفريد من نوعه ـ الدوران الكامل في المحور السوفياتي سياسياً واقتصادياً ـ واليمن الجنوبية هي إحدى أكثر الدول العربية تخلفاً اقتصادياً، لا وزن كبيراً لها في الصراعات العربية أو في تقرير السياسة العربية في إطارها الشرق أوسطي. لها دور أساسي فرضه واقعها الجغرافي في جنوب الجزيرة العربية، وفرضه نظامها الماركسي، وهو النظام الشيوعي الوحيد المعلن في العالم العربي.

ولم تجد موسكو أفضل من هكذا حليف في هكذا موقع وفي هكذا وقت.

ومنذ مقتل الرئيس السابق سالم ربيع علي عام ١٩٧٨ والانقلاب المضاد الذي وقع من جراء ذلك، وتركيبة الحكم الحالي في عدن تعتمد على أربع ركائز:

- عبدالفتاح اسماعيل (وهو يمني شمالي من بلدة الحجرية قرب تعز)، رئيس الجمهورية والأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني الموحد.
- علي ناصر محمد نائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس الأمن القومي (المخابرات).
- علي عنتر وزير الدفاع.
- محمد صالح مطيع سكرتير اللجنة المركزية للحزب وعضو المكتب السياسي ومسؤول الشؤون الخارجية في الحزب.

أعمدة الحكم الأربعة هذه استقرت في مناصبها المذكورة اثر التغييرين الوزاري والحزبي اللذين تما في آب عام ١٩٧٩، حيث خرج من الحكومة أربعة من أهم الوزراء هم: صالح مصلح وزير الداخلية. محمد صالح مطيع وزير الخارجية. محمد سعيد عبدالله (المعروف باسم محسن) وزير الأمن القومي. عبدالعزيز عبدالولي وزير التخطيط. وسبق هذا التغيير الحكومي سلسلة صدامات بين علي عنتر ومحسن حول من يتولى الأمن في البلاد وخاصة أمن الجيش، عندما حاول عنتر بحكم كونه وزيراً للدفاع إنشاء جهاز خاص لمخابرات الجيش. واعترض محسن بحكم كونه وزيراً للأمن القومي على تصرف عنتر على أساس أن لا حاجة لجهاز مخابرات جديد خاص بالقوات المسلحة ما دام هناك وزارة للأمن القومي التي تشمل البلاد والحزب، وأن الحزب هو أهم ما في الدولة، وهو بدوره يتولى أمن الجيش. وانقسم النظام حول هذه المسألة. عبدالفتاح اسماعيل أيد محسن، وعلي ناصر محمد ومحمد صالح مطيع أيدا عنتر. وحسم الخلاف بين محسن وعنتر في اجتماع عاصف للجنة المركزية للحزب، تقرر في أعقابها إجراء التعديل الوزاري الذي تم حسماً للإشكال وخوفاً من تصعيد الخلاف إلى حد المواجهة المسلحة بين الفريقين، مما سيضعف الحزب والدولة معاً. فعيّن محسن سكرتيراً آخر للجنة المركزية للحزب مناطاً به شؤون مجلس الوزراء، واعفي من منصبه كوزير للأمن القومي. وعيّن مطيع سكرتيراً للجنة المركزية للحزب مناطاً به مسؤولية الشؤون الخارجية وأعفي من منصبه كوزير للخارجية. وعيّن سالم محمد (ابن أخت مطيع) وزيراً للخارجية. وكانت نتائج هذه التعديلات خسارة جناح إسماعيل مقابل جناح ناصر - مطيع. إذ طارت وزارة الأمن القومي من يد محسن، بينما بقيت الشؤون الخارجية عملياً في يد مطيع. وانصرف عنتر إلى إنشاء جهاز مخابرات خاص بجيشه.

أما الذي فرض هذا التغيير في صيغة الحكم اليمني الجنوبي، وفجّر المواجهة بين فريقي النظام، فكان حادثة الهجوم على السفارة العراقية في عدن في حزيران عام ١٩٧٩ اثر اغتيال كردي شيوعي عراقي لاجىء يعمل أستاذاً في جامعة عدن. وكان هناك رأيان في أوساط الحكم في عدن للرد على عملية الاغتيال المذكورة.

رأي لعلي ناصر محمد ومطيع يقول بالقيام برد شكلي على العراق لعدم قدرة اليمن الجنوبية على الاستغناء عن مساعدات العراق وحل الخلاف بالتي هي أحسن.

ورأي لمحسن الذي يقول بضرورة الهجوم على السفارة العراقية، لأن عملية اغتيال الأستاذ الكردي الشيوعي اللاجىء فيها تحد لأجهزة مخابراته. وانتصر رأي محسن وقاد الهجوم بنفسه على السفارة العراقية. ووقع الخلاف ووصل إلى ذروته بين اليمن الجنوبية والعراق، الذي قام بدوره باعتقال مجموعة من الديبلوماسيين اليمنيين الجنوبيين في سفارة عدن في بغداد رداً على اعتقال الديبلوماسيين العراقيين والهجوم على سفارة العراق في عدن. ولم يفرج الفريقان عن معتقليهما إلا في تشرين الأول عام ١٩٧٩. كذلك صعد الخلاف بين جناحي الحكم في عدن.

كانت العلاقات بين بغداد وعدن طوال السنتين الماضيتين تتراوح بين أخذ ورد رغم المساعدات العراقية المباشرة لليمن الجنوبية والتي تبلغ ١٠٠ مليون دولار سنوياً، إلا أن أهمية المساعدات العراقية تكمن في تصدير النفط الخام إلى عدن ليجري تكريره في المصفاة هناك لتشغيلها. إلى جانب ذلك ـ وهذا الأهم ـ هو أن العراق هو الكفيل المالي لليمن الجنوبية أمام مختلف صناديق النقد الدولية التي تقرض عدن حاجتها من العملة الصعبة لاستيراد المواد الأولية الاستهلاكية كالسكر والشاي وغيرهما من المواد الأساسية.

كان قد سبق الخلاف العراقي ـ اليمني الجنوبي الوساطة العراقية ـ السورية المشتركة التي قام بها عبدالحليم خدام وعدنان حسين في آذار عام ١٩٧٩ اثر الحرب بين اليمنين الشمالي والجنوبي، وردة الفعل السعودية الفريدة من نوعها في استنفار قواتها المسلحة نتيجة لهذه الحرب، وكأن السعودية تعلن للمرة الأولى منذ قيام النظام الماركسي في اليمن الجنوبي، أن الأمر أخطر من أن يكون صراعاً بين النظام المحافظ في صنعاء والنظام الماركسي في عدن. وان النقيضين بازدواجية الولاء المستمرة بين الشمال والجنوب، سيجران الجزيرة العربية إلى حرب جدية. وتوقفت المساعدات السعودية لليمن الجنوبية. وأخذ اليمنيون الشماليون المبادرة بعد أن أدركوا أن سقوط النظام في الجنوب أمر صعب. فانفتحوا على المعارضة الشمالية الموجودة في الجنوب، والممثلة بجماعة الجبهة الوطنية التي هي مزيج من أحزاب البعث السوري والعراقي والشيوعي والجبهة القومية. وتم لقاء في إحدى العواصم العربية بين يحيى العرشي وزير الإعلام اليمني الشمالي وأحد أركان النظام في صنعاء، وبين يحيى الشامي أحد أصدقاء الجبهة الوطنية المعارضة.

وأسفر الاجتماع اليمني ـ اليمني عن «تفاهم» بين صنعاء وعدن. الرئيس اليمني الشمالي علي عبدالله صالح يريد استئناف محادثات الوحدة مع اليمن الجنوبي، لكن مع علي ناصر محمد نائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، لا مع عبد الفتاح إسماعيل رئيس الجمهورية بحجة أنه شمالي. فكيف يتحدث شمالي مع شمالي حتى إذا كان هذا

يرأس نظام الجنوب. وساعد موقف علي عبدالله صالح في تعزيز موقع علي ناصر محمد كقوة أساسية في الجنوب. وقام علي ناصر محمد بزيارة صنعاء رسمياً في احتفالات العيد الوطني لليمن الشمالي في أيلول الماضي. وسبق الزيارة خلال أعياد الثورة زيارة قام بها علي عنتر ومحمد صالح مطيع إلى صنعاء في الوقت الذي كان فيه عبدالفتاح إسماعيل يتعالج في بلغاريا. وعززت هذه الزيارات والاتصالات مع الشمال الجناح المضاد لإسماعيل في الجنوب.

كل هذا يحدث من ضمن اتجاه داخل النظام في عدن للتخفيف من الجلوس في حضن موسكو. هذا الاتجاه يمثله بوضوح علي ناصر محمد ومحمد صالح مطيع اللذان يعرفان التركيبة اليمنية القبلية والتوازن القبلي المطلوب والمفروض في وضع كوضع اليمن الجنوبي، والذي يدعو إلى المحافظة والتركيز على الصداقة مع الاتحاد السوفياتي من دون أن تكون بلادهما شرطي حراسة لمصالح السوفيات في المنطقة. ويعتبر هذا الاتجاه اليمني الاستقلالي تتمة لسياسة الرئيس السابق سالم ربيع علي (المعروف بسالمين) الذي قتل في الانقلاب الأخير. بينما يدعو جناح عبدالفتاح إسماعيل إلى الانتماء الكامل للموقف الروسي في المنطقة وإلى سوفياتية النظام، لا ماركسيته فقط وإلى ما حققه حتى الآن من أن يكون اليمن الجنوبي دولة كاملة الولاء للاتحاد السوفياتي في انضمامها إلى حلف وارسو وإلى منظمة «الكوميكون». بالإضافة إلى أن إسماعيل بحكم شماليته لا يقيم وزناً للتوازن القبلي والجغرافي في لعبة الحكم في الجنوب. إلى جانب أن علي ناصر محمد وجه شعبي معروف في عدن، بينما وجه عبدالفتاح إسماعيل غير معروف شعبياً، وهو أصلاً لا يظهر ولا يحب الظهور.

حتى الآن لن يؤدي هذا «الخلاف» إلى مواجهة بين جناحي ناصر وإسماعيل، وإن اعتبر أن عبدالفتاح إسماعيل قد «هزم» في التغييرات الحكومية والحزبية الأخيرة. وحدود «المواجهة» ستبقى بين أنصار الفريقين ولن تتعدى مرحلياً أبعد من ذلك. الخوف من أن تتحول تدريجياً إلى محاولة من إسماعيل وأنصاره داخل الدولة والحزب إلى الإنفراد بالسلطة، عن طريق إعداد انقلاب ضد ناصر ومطيع يربط البلاد نهائياً بالاتحاد السوفياتي وبشكل أكبر مما هو عليه الآن، وبتحريض مباشر من موسكو وعلى الطريقة الأفغانية. وخاصة إذا ازداد الشعور لدى جناح إسماعيل بأن التباعد مع موسكو، الظاهرة التي بدأها سالمين خلال أيامه الأخيرة في الحكم، ستجر إلى مزيد من التقارب مع السعودية والعراق ودول الخليج. وذهب سالمين ضحية خلافاته الشخصية مع علي ناصر محمد ومحمد صالح مطيع وعلي عنتر لمعاملته إياهم كديكتاتور، لا ضحية خلافه معهم في الرأي أو الاتجاه السياسي. ومقتل سالمين لم ينه الخط السياسي الذي كان يدعو له.

من قبل زيارة عبدالفتاح إسماعيل إلى موسكو التي كانت مقررة قبل شهرين، والتي سبقها علاجه في بلغاريا، وزيارة مطيع لبرلين الشرقية لتمثيل اليمن الجنوبية في احتفالات مرور ٣٠ سنة على قيام ألمانيا الديمقراطية كدولة شيوعية، والجناح المعارض

له يحاول أن يجد لنفسه أنصاراً في الداخل عن طريق تقليص نفوذ مراكـز القوى التي تؤيده. وفي الخارج عن طريق كسب أنصار لسياسة اليمن الاستقلالية من ضمن الدول الأوروبية الشيوعية والتي بدأها مطيع مع ألمانيا الشرقية، محـاولاً إقناعهم بـأن في ذلك كسباً أكبر للاتحاد السوفياتي من تحويل عـدن إلى دولة سـوفياتيـة كاملـة الانتماء إلى العالم الشيوعي، وخاصـة في عصر استقلال الحركات الشيوعية أولاً، ولاستحالـة تحقيق هذا الوضـع في دولة فقيرة متخلفة كاليمن الجنوبي ثانياً. وجـاءت أحداث إيـران وهلهلة الأوضـاع الثورية هناك لتضيف إلى مخاوف العرب إمكـانية تـدخل أجنبي في الجـزيرة العربية، قد يجر إلى حرب خطيرة، ربما تبدأ بإحياء ثورة ظفار وتنتهي بـاحتلال منـابع النفط. لـذلك اعتبـرت «ضبضبة» الأوضـاع في اليمن الجنوبي أمـراً حيـويـاً اليـوم في الخليج: بقدر ما هو مسؤولية عربية جماعية.

كيف يمكن لليمن الجنوبي أن تخرج من حضن موسكو لتقـع في حضن العرب؟ صعب، ما دام الاتحاد السوفياتي وكوبا وألمانيا الشرقية تقوم بدعم القوات المسلحة والميليشيا الشعبية والمخابرات. فمنذ حرب اليمنين في شباط الماضي، بدأت روسيا بتزويد النظام في عـدن بطائـرات ميغ ـ ٢١ وميـغ ـ ٢٣ وسوخـوي ـ ٢٠. كما زودت القـوات المسلحـة اليمنية الجنوبيـة بأعـداد كبيرة من الـدبابـات والمدمـرات البحريـة. كل هـذا بإشراف مجموعة من الخبراء والمدربـين تقدر بحـوالي ألف خبير عسكـري روسي وكوبي وألمـاني شرقي. بالإضافة إلى مجموعة من الطيارين الروس الذين يقومون بقيادة بعض طائـرات الميـغ ـ ٢١. وأكثر الخبـراء السوفييات هم في الجيش والطيران والبحـرية، أمـا الألمان الشرقيون فهم في المخابرات والأمن، والكوبيـون في الميليشيات الشعبيـة. وكان السـلاح السوفياتي يصل إلى عدن في الوقت الذي بدأ السلاح الأميركي يتدفق على صنعاء، عـلى شكـل مدافـع مضادة للطـائرات وصـواريخ ودبـابات «أم ـ ٦٠» وسيـارات مصفحـة وطائرات «اف ٥ ـ أي» وطائرات نقل «هيركيليس ـ سي ١٣٠»، مع مجموعة محترمة من الخبـراء العسكريـين الأميركيـين بمن في ذلك طيـارون صينيـون من تـايـوان، لقيـادة الطائرات الحربية وتدريب اليمنيين عليها.

كـل هذا لم يمنـع الروس من تـوقيع اتفـاق لبيع السـلاح لليمن الشمالي في أيلـول عام ١٩٧٩ خوفاً من أن لا يصمد عبدالفتاح إسماعيل لهم طويلاً في عدن، وحتى لا يفقـدوا صنعاء كلياً خاصة وأن نفوذهم كان قد بدأ فيها عند قيـام الثورة اليمنيـة عام ١٩٦١. إلا أن الاتحـاد السوفيـاتي سيستمر في الضغط للحصـول على مـزيـد من التسهيـلات العسكرية في اليمن الجنوبي وتحت السيطرة السـوفياتيـة الكاملـة، إذ أن أهمية عـدن بالنسبة لموسكو قد ازدادت كثيراً اثر الحرب في القرن الأفريقي بين أثيوبيا والصومـال، وأصبحت كقاعدة بحرية سوفياتية بديلاً لقاعدة بربرة في الصومال التي نقلت منشآتهـا إليها. وبالطبع، فإن الاتحاد السوفياتي يطمح إلى إعلان عدن قاعدة بحـرية رسميـة له في المحيط الهنـدي، لولا خـوفه من الحـرج الباقي عنـد بعض أصدقـائـه من الأنظمـة العربية التي ترى في مثل هذا الإعلان أو الوجود، تحريضاً غير مباشر للتدخل الأميركي

دفاعا عن منابع النفط في الخليج، أو دعوة لبعض دول الخليج لدعـوة أميركـا للتدخـل. وفي كلا الأمرين خسارة.

وقد لا يسفر صراع القوى داخل النظام في اليمن الجنوبي عن نتائج حاسمة لصالح أي من الفريقين المتنازعين. وقـد لا يتغير الـوضـع لـزمن طويـل قادم. لكن الـذي يجب أن يدركه المراقبون العرب هو أن الانفجار المقبل في الجزيرة العربية قد يقع في اليمن عنـد بداية الثمانينات، كما وقع في اليمن قبل عشرين سنة مع بداية الستينات، وكانت الثورة اليمنية بداية التغييرات السياسية في صـحراء الهموم العربية.

فلا بد من صنعاء وعدن وإن طال السفر... أو طال الانتظار!

لندن - (١٩٧٩/١١/١٧)

■ صنعاء «أطلسي» العرب

هناك من يقول إن صليل سيوف الحرب الإيرانية ـ العراقية التي لم تقع حتى كتابة هذه السطور، قد ألهت العالم ـ والعربي بالذات ـ عمّا يجري في اليمن. وأن اليمن قد سقط تحت سنابك خيل الأزمات المتراكمة في الخليج، وأن فيافي هذه الصحراء الحارة الواسعة لا تتسع حالياً لأزمة يمنية جديدة.

كل هذا قد يكون صحيحاً. إلا أن الأصح أن الأوساط الخليجية تعاني من قلق واضح خوفاً من أن يحذو اليمن الشمالي حذو أفغانستان ويقع كلياً تحت السيطرة السوفياتية. إن المتشائمين في العواصم الخليجية وفي واشنطن بالذات قد أخذوا في الأسابيع الأخيرة يرون أحلاماً مزعجة، يخافون أن تتحول إلى كوابيس لو صحت توقعاتهم ـ أو مخاوفهم.

□

المخاوف الخليجية ـ الغربية بدأت عندما أخذ الرئيس علي عبدالله صالح وحكومته يتجهان نحو الوحدة مع اليمن الجنوبي، الماركسية الحكومة والسوفياتية الارتباط والشيوعية العقيدة. وازدادت هذه المخاوف عندما بدأت المحادثات بين حكومة اليمن الشمالي والجبهة الوطنية الديموقراطية المعارضة للحكومة الشمالية، والمدعومة من قبل اليمن الجنوبي، للاشتراك في حكومة جديدة في الشمال. وتضاعفت هذه المخاوف، بل تأكدت، عندما وصلت كميات من السلاح السوفياتي وعدد من الخبراء السوفيات إلى اليمن الشمالي عام ١٩٧٩، بعد صفقة الأسلحة الأميركية والخبراء الأميركيين التي تمت في العام نفسه اثر الحرب الشمالية ـ الجنوبية والوساطة العربية التي أوقفتها في شباط عام ١٩٧٩.

وأعطيت هذه التطورات اليمنية حجماً كبيراً عندما ساءت العلاقات بين صنعاء والرياض، وأوقفت السعودية على إثرها مساعداتها المالية للشمال. وتلبد الجو السياسي في الجزيرة العربية بالغيوم. لكنه سرعان ما انقشع عندما عاودت السعودية مساعداتها الاقتصادية خلال الأسابيع الماضية، اثر رفض حكومة اليمن الشمالي إعطاء الجبهة الوطنية الديموقراطية المعارضة مقاعد في الحكومة الجديدة الموحدة، وبعد أن أكدت حكومة صنعاء لدول الخليج والدول الغربية أنّ أي مشروع وحدوي مع اليمن الجنوبي، لن يكون على أساس تشكيل حكومة ماركسية أو قيام نظام شيوعي.

وتنفست عواصم الخليج الصعداء. لأن أيّ سيطرة سوفياتية أو نفوذ سوفياتي متعاظم في الشمال مع ارتباط شبه وحدوي مع الجنوب، حيث للاتحاد السوفياتي قواعد عسكرية في عدن، لا بد وأن تشكل خطراً على دول الجزيرة العربية، وهنا تكمن عقدة الخوف الخليجي ـ الغربي من السياسة اليمنية.

وبالطبع، فإن الموقف السياسي في اليمن الشمالي لا ينظر إليه من منطلق الصراع

الغربي ـ السوفياتي في المنطقة. فدولة اليمن الشمالي، عبر تاريخها السياسي كله، كانت تمشي على حبل مشدود بين العناصر المحافظة والعناصر التقدمية، في تركيبتها السياسية التي تمليها ظروفها الداخلية الخاصة بها وضغوط جيرانها المختلفة. والرئيس علي عبدالله صالح ما زال يلعب اللعبة اليمنية التقليدية، إنما بشطارة واضحة. فقد استطاع أن يحصل على السلاح السوفياتي والمال العربي والتأييد الأميركي (وإن كان بتحفظ) وأن يسجل نجاحاً كبيراً في هذا المضمار. إلا أن الذي يزيد من خطر هذه اللعبة في هذه الظروف الحرجة بالذات، أن الاتحاد السوفياتي قد أصبح في وضع ممتاز للاستفادة من هذه الفرصة، لتوسيع مطامعه في جنوب الجزيرة العربية.

ولعل مشكلة اليمن الشمالي تكمن في علاقاته العربية. فعرب الخليج الذين يريدون صنعاء أن تبقى بعيدة عن المعسكر الشيوعي، وبعيدة عن أي تقارب حقيقي مع عدن لا يوفرون لها الوسائل الاقتصادية والعسكرية لكي تصبح دولة ذات كيان سياسي قوي ووضع اقتصادي مريح. والعرب يعترفون بأن اليمنيين شعب نشيط وذكي ومنفتح. فهناك ستة ملايين يمني في الشمال ومليون ونصف المليون في الجنوب وأكثر من خمسة ملايين يمني موزعين في دول الجزيرة العربية عدا اليمنيين الموجودين في مختلف أرجاء العالم. لذلك يخشى الخليجيون قيام زعيم يمني قوي يستطيع توحيد شطري اليمن، خوفاً من قدرة هذا الشعب على العمل والاستيعاب التي تتميز وتفوق القدرة الخليجية العادية. لذلك كان العرب ينظرون بشيء من الحذر دائماً إلى أيّ محاولة جدية للوحدة اليمنية.

ففي شباط عام ١٩٧٩، عندما دعمت حكومة اليمن الجنوبي محاولة الجبهة الوطنية الديموقراطية المعارضة لحكومة صنعاء في غزوها للشمال، وكادت بواسطة التأييد العسكري الجنوبي أن تحقق انتصاراً لولا الوساطة العربية التي أسفرت عن مؤتمر قمة خاص بالوضع اليمني في الكويت، وعن اتفاق بين صنعاء وعدن يقر الوحدة بين شطري البلدين. وكان من نتيجة هذا المؤتمر ـ الاتفاق، والحرب الخطرة والقصيرة التي سبقته، أن دفعت حكومات الجزيرة العربية إلى الضغط على واشنطن، التي ظلت مترددة حوالي أربع سنوات، إلى تزويد اليمن الشمالي بصفقة سلاح احتوت ١٦ طائرة من طراز (أف ـ ٥) و٦٤ دبابة من طراز (أم ـ ٦٠) ومجموعة من المدافع المضادة للدبابات والطائرات. وقامت السعودية بدفع قيمة هذا السلاح الأميركي وتكاليف التدريب عليه.

لكن السلاح الأميركي تأخر في الوصول إلى اليمن الشمالي لاعتبارات وصفتها واشنطن بأنها «فنية». وعندما وصل السلاح الأميركي ليجري عرضه في احتفالات الثورة اليمنية في أيلول عام ١٩٧٩، لم يرجح الكفة العسكرية لصالح الشمال، وبقي اليمن الجنوبي متفوقاً عدة وعتاداً. ولما كان اليمن الشمالي منذ قيام الجمهورية العربية اليمنية ومن قبلها أيام الإمام قد اعتمد كلياً على السلاح السوفياتي والتدريب السوفياتي، وهناك عدد كبير من الضباط اليمنيين الذين يجيدون اللغة الروسية، فقد عاد التفكير في صنعاء

إلى الاتجاه نحو موسكو لإصلاح الخلل في التوازن العسكري مع عدن. وبدأت مفاوضات خلال الصيف والخريف، في البدء مع بولندا ثم مع الاتحاد السوفياتي، لتزويد اليمن الشمالي بدبابات «تي ـ ٥٥» وطائرات «ميغ ـ ٢١». وبدأ وصول الدبابات والطائرات السوفياتية في تشرين الثاني بعد شهر واحد فقط من توقيع الاتفاق، حتى بلغ عدد الدبابات التي وصلت في حينه ٤٠٠ دبابة.

وفي مرحلة من المراحل ـ وبالأسلوب اليمني التقليدي الذكي ـ كان هناك فنيون سوفيات يدربون اليمنيين على طائرات «الميغ ـ ٢١» وفنيون أميركيون وتايوانيون يدربون اليمنيين على طائرات «أف ـ ٥» في وقت واحد في مطار صنعاء. وبالأسلوب اليمني ذاته دفعت حكومة صنعاء ثمن بعض السلاح السوفياتي من المال العربي الذي تقدمه لها دول الخليج. إلا أن الحكومة اليمنية أكدت أن صفقة السلاح السوفياتي لن ترفع نسبة الخبراء العسكريين السوفيات في البلاد إلا قليلاً. من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ خبير بالمقارنة مع ٧٠٠ خبير سنة ١٩٧٤.

ومع تحسن العلاقات اليمنية ـ السعودية، استمرت محادثات الوحدة بين صنعاء وعدن. واستمرت لجان الوحدة بين البلدين تعمل بشكل طبيعي. لكن ما زال هناك شيء من الوهم في محادثات الوحدة. كلا الطرفين يعتقدان أن الوحدة أمر مرغوب فيه نظرياً، ولكن على أساس أن يتحقق بشروطه. اليمن الجنوبية دولة شيوعية تحكم بالأسلوب الأوروبي الشرقي، نصف سكانها هارب أو لاجىء أو مهاجر إلى اليمن الشمالي. واليمن الشمالي، حيث الحكم فيه أقل سيطرة على مرافق الحياة نجد أن معدل النمو الاقتصادي أعلى والتطور فيها أسرع والحكومة فيها مجموعة ائتلافية تريد الوحدة مع الجنوب لكنها ليست على استعداد للقبول بنظام ماركسي وبالشروط العدنية لكن هذا لم يمنع الجبهة الوطنية الديموقراطية من أن تحقق شيئاً من السيطرة على بعض القرى في جنوب البلاد وخاصة في سهل تهامة الساحلي، حيث انتزعت ولاء عدد لا بأس به من السكان بعيداً عن شيوخهم التقليديين. كما بدأت بتشجيع عدد من قبائل الشمال على معارضة الحكومة في صنعاء لقاء مدها بالسلاح والمال.

لا بد هنا من التوقف قليلاً لرواية قصة العلاقات الأميركية ـ اليمنية، لا لأهميتها ـ بل لطرافتها ـ من جهة، ولارتباطها بما يجري اليوم في باقي الجزيرة العربية من جهة ثانية. وكان الاهتمام الاميركي باليمن قد عاد بعد الغزو السوفياتي لأفغانستان، وقد تنبهت كل الحواس الأميركية من سياسية وعسكرية واقتصادية. فقد اكتشفت أجهزة المخابرات الأميركية من إلكترونية وأقمار صناعية وبشرية ان مخزون السلاح والعتاد السوفياتي في عدن يفوق حاجات اليمن الجنوبي حتى لو أراد أن يغزو اليمن الشمالي، وأن موسكو تستعمل عدن وتسهيلاتها ومعاهدة الصداقة معها كقاعدة ومخزن لسياسة التوسع السوفياتي في المنطقة. وإذا دخل هذا القول في علم البديهيات، فإن واشنطن لم تعد في وضع يسمح لها بالتردد. فإذا كانت فوضى الحكم والأوضاع والرهائن في إيران تؤثر على كرامة الحكم الأميركي، فإن تهديد منابع النفط في الجزيرة العربية يؤثر على

كينونة الغرب كله. كذلك لم يعد التغاضي عن وجود الخبراء من سوفيات وألمان شرقيين وكوبيين في اليمن الجنوبي أمراً عادياً. لذلك رأت الولايات المتحدة أن من الضروري كسب ود الرئيس علي عبدالله صالح. فأعطت اليمن الشمالي السلاح الأميركي بأموال سعودية اثر الحرب اليمنية ـ اليمنية ووساطة الجامعة العربية العام ١٩٧٩، وأرضت بذلك دول الخليج والجزيرة التي احتارت بهذا الحليف الأميركي المتردد الخائف.

لكن واشنطن، وهي ما زالت مترددة وحائرة لم تشأ أن ترسل أكثر من ٧٠ خبيراً أميركياً إلى اليمن الشمالي لترشد اليمنيين إلى صناديق الدبابات وصناديق الطائرات. وقررت أن الحل المثالي يكون باستئجار طيارين ومدربين صينيين من تايوان. وكان هذا الحل من ضمن تقاليد المنطقة العسكرية. فهناك خبراء ومدربون بريطانيون وأميركيون وباكستانيون وأردنيون في مختلف بلدان الجزيرة العربية. وهناك أعداد أكبر من الخبراء السوفيات والكوبيين والألمان الشرقيين والتشيكيين في اليمن الجنوبي وأثيوبيا. وهناك الفرنسيون في جيبوتي.

ونسيت أميركا اليمن. فبين حرب شباط عام ١٩٧٩ والوساطة العربية، وقعت عدن معاهدة الصداقة مع موسكو وانضمت إلى حلف وارسو كمراقب وإلى منظمة الكوميكون الاقتصادية. وأصبحت الدولة العربية الأولى والوحيدة المنتمية انتماء كلياً إلى النظام الماركسي والكتلة السوفياتية. وتفاقمت أحداث إيران ووقعت أحداث أفغانستان وتعثرت مفاوضات كامب دايفيد واضطربت دول المنطقة. وعادت أميركا وتذكرت فجأة اليمن. واكتشفت واشنطن أن الرئيس علي عبدالله صالح، رئيس يمني عربي يجيد اللعبة السياسية بأحسن شروطها وأفضل تقاليدها، وأنه ليس في جيبها، ولا هو حليفها. هو حليف اليمن ومصالحه فقط. وإذا بعلي عبدالله صالح «سيهانوك الشرق الأوسط» الذي لا يريد لبلاده أن تتحول إلى كمبوديا أخرى بفعل الحب الأميركي الزائد والمساعدات الأميركية المشروطة ولا الكرم الأميركي الذي لا يعرف حداً، حتى تبدأ المطالبة بسداده.

ولم تقنع السياسة الأميركية تجاه اليمن، ولا السلاح الأميركي إلى اليمن بقيمة نصف بليون دولار، حلفاء واشنطن في المنطقة الخليجية أن هذه هي الطريقة المثلى للدفاع عنهم وعن مصالحهم تجاه المد السوفياتي. ولا اقتنعت أميركا أنها لا يمكن أن تشتري اليمن بصفقة سلاح واحدة وطيارين من تايوان. كذلك لا تستطيع استئجاره بعد أن فشلت في شرائه. واتضح أن السياسة الأميركية في الجزيرة العربية، ما زالت حتى الآن من نوع الكتابة على الرمال.

ماذا يبقى؟ أن يتذكر العرب، كل العرب، خليجيين ومشارقة وأفارقة أن اليمن هو باب عالمهم الجنوبي اليوم، كما كان في الماضي، وأن لا حلول خليجية من دون حلول يمنية، وأن الحل اليمني يكمن في أيديهم وهم يعرفونه، ولا يحتاجون إلا إلى الجرأة ليعترفوا به.

هذا إذا أردنا أن لا ينهار سد مأرب مرة ثانية وأن لا يتشرد العرب في الآفاق من جديد،

وأن لا يصبح باب المندب مندباً حقيقياً على قصر فهم واستيعاب وجرأة السياسة العربية في الجزيرة والخليج. وإذا انهارت مآرب اليمن هذه المرة، فسيكون طوفانها عظيماً، ولن تنفع فيه كل السدود الأميركية...

لندن - (٢٦/٤/١٩٨٠)

ومن بعد اليمن الطوفان

بيني وبين اليمن اليوم أكثر من عشر سنوات من الغـربة، كـانت اليمن أول بلد عرفته في الجزيرة العربية. وكانت الحديدة أول مدينة وطئتهـا. وكان لا بد من صنعاء ولو طال السفر.

تغيّرت ظروفي المهنيـة وانقطعت عن اليمن ـ شمالهـا وجنوبهـا ـ بعد أن جبت أرجـاءها وعرفت معظم شخصياتها بين أوائل الستينات وأوائل السبعينات. وظل الثقل السيـاسي يتأرجح بين صنعاء وعدن. وظلت أحداث اليمن تطغى على كل أحداث الخليج والجزيرة العربية. وعلى الرغم من انتقال دائرة الضـوء إلى دول أخرى في الجـزيرة، ظـل اليمنان يتحكمان إلى حد كبير في مجرى الأمور في الخليج. وفي السنـوات العشر الأخيرة اتسعت لعبـة التوازن السيـاسي، واتسع معهـا الدور المقـرر الذي يمكن أن تقـوم بـه اليمنـان بالنسبة لمقدرات الخليج العربي.

وبقيت أرقب أحـداث اليمن عن بعد، طـامحاً إلى تـوفر ظـروف تـدفعني إلى زيـارتهـا. وأدركت أمام ما يحدث في اليمن أن بلقيس ملكة سبـأ، التي استطاعت أن تحكم اليمن في تاريخها الغابر، هي اليوم أحوج ما تكون إلى سليمـان الحكيم، ليواجـه معها أكـوام المشاكل التي تكدست بمشاغلهـا أمام الحكم في اليمن، وشغلت بـانعكاسـاتها كـل دول مجلس التعاون الخليجي.

أهم الأحـداث الشاغلة هي قضية الـوحدة اليمنيـة. وقضية الـوحدة اليمنيـة كقضية الوحدة العربية ـ قضية الحلم التاريخي الذي يضيع في الصحو على تفـاصيل الـواقع. ولأنها كذلك، فإن الخليج الذي بدأت دوله تجـربة تعـاون عمرهـا اليوم حـوالى سنتين، ويطمح مستقبلاً إلى نوع من الاتحاد ـ يخاف هذا الخليـج دائماً من أن يتحقق القليـل القليل من هذا الحلم وأن يؤدي بطريقه إلى نـوع من الحقيقة. لكن دول الخليـج ليست قلقة، فهي تعرف أن من المشاكل بين الشمال والجنـوب ما يجعـل أمر الـوحدة اليمنيـة عسيراً.

عظمة اليمن التي حملها التاريخ من سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ٤٠٠ بعد الميلاد، ضاعت في مجاهل عصور الظلم والتخلف في عهد إمامة آل حميد الدين. لكن أمجاد ذلك التاريخ ظلت تطوف حولها على شكل هندسة معمارية خلاّقـة وزراعة غنيـة وشعب ذكي مقتدر. وإذا ظل الجمال الأثري اليمني إلى اليوم، وظل الشعب اليمني متفوقاً في ذكـائه واقتـداره، إلا أن الزراعـة في اليمن ضاعت في غيـاهب التدهـور الاقتصـادي، عنـدمـا استبدل الناس البنّ بالقات، كما استبدلوا الزراعة والفلاحة بعمالة النفط عند جـيرانهم الأغنيـاء. إنما ظـل الشعب اليمني في الشمال بمـلايينه السبعـة وفي الجنوب بمـلايينه الثلاثة، عنوان العنفوان الضارب في أرض الخليج الواسعة سعيـاً وراء الرزق الحـلال. وبقي هذا العنفوان يخيف الدول المضيفة للعمالة اليمنية يوماً بعد يوم.

ليس من الضروري العودة إلى الكثير من التاريخ المعاصر، إلا للتذكير فقط بأنه منذ قيام الجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٦١، ومن بعدها استقلال اليمن الجنوبي عن بريطانيا عام ١٩٦٧ وتولي نظام ماركسي ـ لينيني (هو الأول من نوعه في تاريخ الدول العربية) الحكم في عدن، وقضية الوحدة اليمنية تتراوح بين المفاوضات والحرب، من دون أن تؤدي لا المفاوضات ولا الحرب إلى تحقيق شيء من هذا الحلم القديم.

وتمحور اليمنان منذ أيام الاستقلال هذه. ومع تغير العهود التي حكمت في صنعاء وعدن خلال السنوات الخمس عشرة الماضية، ظل الاتحاد السوفياتي الحليف الأساسي للجنوب اليمني من دون أن يتخلى عن علاقته بالشمال اليمني ـ الذي بقي حريصاً على أفضل العلاقات مع المملكة العربية السعودية والدول الخليجية الأخرى. وكانت مزايا الدعم السوفياتي لليمنين من وجهة نظر موسكو ترتكز على أربعة أمور:

ـ **الأول**: بيع أكبر كمية من السلاح للطرفين والحصول على بعض العملة الصعبة من جراء هذه الصفقات.

ـ **الثاني**: ممارسة أكبر قدر من النفوذ والضغوط على النظامين اليمنيين من جراء اعتمادهما على السلاح والتدريب السوفياتيين.

ـ **الثالث**: اعتماد اليمن الجنوبي اعتماداً كلياً ووحيداً على مصادر السلاح السوفياتي والدعم السياسي السوفياتي، بحكم طبيعة العلاقة بين النظام الماركسي العربي والنظام الماركسي الروسي.

ـ **الرابع**: قدرة الاتحاد السوفياتي على تحريك المعارضة اليمنية الشمالية العاملة من أراضي الجنوب عن طريق إمدادها بالسلاح لخلق المتاعب في الشمال، إذا وجدت موسكو أن نظام الحكم في صنعاء قد أخذ يميل نحو الغرب بشكل يهدد التوازن الدولي القائم حالياً بين اليمنين.

وعلى الرغم من أن العلاقات بين الاتحاد السوفياتي واليمن الشمالي تعود إلى عام ١٩٢٨، فإن هذه العلاقات ظلت تتأرجح من دون أن تسوء أبداً. فاليمنيون يعتقدون أنهم يجيدون التعامل مع الاتحاد السوفياتي ويفهمون عقليته ومصالحه إلى حد بعيد. لكن هذا كله لم يدفعهم إلى توقيع معاهدة صداقة مع موسكو على غرار معاهدات الصداقة المماثلة التي وقعها الاتحاد السوفياتي مع دول عربية أخرى، كما لم يمنع اليمن الشمالي من إدانة الغزو السوفياتي لأفغانستان. ولم يمنع صنعاء أيضاً من أن تقف مواقف سياسية عدة مغايرة لسياسة موسكو في المنطقة.

وحاول الاتحاد السوفياتي خلال العام ١٩٨٢ على الأقل، أن يمارس بعض الضغط على اليمن الشمالي، بعد قيام مجلس التعاون الخليجي خوفاً من استقطاب دول المجلس لليمن من جهة، واستغلالاً لخوف اليمن من أن يؤدي قيام مجلس التعاون إلى فرض عزلة عليها. فقامت موسكو بتحريك الجبهة الوطنية الديمقراطية «الماركسية البنية والتي

تضم أيضاً في صفوفها مجموعة المعارضين من مختلف الميول السياسية. وطار الرئيس اليمني علي عبدالله صالح إلى موسكو في حينه وقابل بريجنيف محاولاً وقف الدعم السوفياتي للجبهة. وفوجيء الرئيس اليمني ليس فقط برفض بريجنيف التخلي عن الجبهة واستعمالها، بل بمطالبته بتسديد الديون المتأخرة الناتجة على شراء السلاح السوفياتي الذي باعته موسكو لليمن عام ١٩٧٩ والبالغة قيمته ٦٠٠ مليون دولار، بعد أن كانت اليمن قد اشترت قبل ذلك من الولايات المتحدة سلاحا أميركيا في عهد الرئيس كارتر بلغت قيمته ٤٠٠ مليون دولار، دفعت ثمنه السعودية في حينه.

واستدار الرئيس علي عبدالله صالح نحو السعودية بالذات ودول مجلس التعاون الخليجي محاولاً الرد على «التعامل المزدوج» الذي تقوم به موسكو. ووعدت السعودية بدعم الموقف اليمني. والمملكة العربية السعودية التي تعرف اليمن جيداً وتتعامل معه منذ قيام المملكة مروراً بكل تراكمات تاريخ العلاقات بين البلدين منذ مطلع هذا القرن، تعرف أماكن الشد والجذب في ذلك البلد، بقدر ما تعرف أصول لعبة التوازن. فالزيود الشيعة في الشمال (الملكيون بميولهم) والشوافع السنّة في الجنوب (الجمهوريون بميولهم) يشكلان قطبي الرحى في اليمن. والاستقرار في اليمن يعتمد على دوران هذين القطبين باتجاه واحد.

لذلك استطاع نظام الرئيس علي عبدالله صالح أن يبقى بعيداً عن الدوران في الفلك السوفياتي، ليس فقط لأن مجموع ما تقدمه السعودية من دعم مباشر يبلغ أكثر من بليون دولار سنوياً، يضاف إليه بليون دولار آخر من باقي دول الخليج، بل لأن التركيبة القبلية اليمنية المحافظة، بشقيها: الزيدي والشافعي معادية في تفكيرها وتقاليدها لما يمثله الاتحاد السوفياتي من سياسة وعقيدة وفكر. كذلك هناك أكثر من ٣٠٠ ألف يمني جنوبي يمثلون الطبقة المتوسطة التي هاجرت إلى تعز وباقي أنحاء اليمن الشمالي عندما استولى النظام الماركسي الحالي على الحكم في عدن. وتعد هذه المجموعة المهاجرة أكثر الأطراف اليمنية حدة في عدائها للشيوعية.

وقد ساعدت استقلالية الشخصية اليمنية التقليدية ـ أو تحديداً الفردية اليمنية ـ في إبعاد اليمن عن الوقوع في الحضن السوفياتي. إلى جانب تمسك الفرد اليمني بالملكية الخاصة من زراعية وتجارية وصناعية. فهناك حوالى ثلاثة أرباع الأرض الزراعية في اليمن مجزأة إلى ملكيات صغيرة. واستطاع اليمنيون التوصل إلى أسلوب زراعي ناجح يتلخص في إنشاء الجلول والتلال. إلا أن أكثر اليمنيين تجار صغار في المدن. وعلى الرغم من مرور خطتين خمسيتين على اليمن، حاولت الحكومة خلالهما أن تدفع إلى الأمام بفكرة التعاون الزراعي عن طريق تزويد المزارعين بالمعدات الآلية وبالتعليم الابتدائي، محققة نجاحا لا بأس به. إلا أن خطة الحكومة ظلت طريقاً بعيداً عن الاشتراكية.

لكن اليمني الفرد هو المبادر الأول في السياسة وفي الاقتصاد. فالشخصية اليمنية ما زالت هي ضمانة الاستقلالية في المضمارين ذاتهما. كذلك هي سبب مأساة التمزق

اليمني وعدم الوصول إلى تحقيق ذلك الحلم التاريخي: الوحدة اليمنية.

في الوقت الذي كان يسعى هذا اليمني الفرد، بقبليته وبأنظمته السياسية المختلفة ومصالحه المتضاربة، نحو الوحدة اليمنية، خطا جيرانه عرب الخليج خطوة أساسية عن طريق قيام مجلس التعاون نحو شيء مستقبلي فيه رائحة الوحدة. وخافت اليمن أن تقع في عزلة اقتصادية وسياسية تجاه تكتل دول مجلس التعاون إذا سمحت له بالتغاضي عن مطالبها في الدعم الاقتصادي والتأييد السياسي. وعبرت اليمن بأكثر من وسيلة عن امتعاضها من طريقة تعامل مجلس التعاون الخليجي معها. ولم يغب عن بال اليمنيين بأن يُذكروا جيرانهم الخليجيين بأن باب الوحدة مفتوح بين صنعاء وعدن لو شعر اليمن ـ شماله وجنوبه ـ أن حزام الفقر قد بدأ يضيق على خاصرته. وكان الموقف ـ أو الخوف ـ اليمني واحداً بين صنعاء وعدن من مجلس التعاون الخليجي، وإن اختلفت درجة العلاقات الثنائية بين اليمنين من جهة وبينهما وبين كل دولة خليجية على حدة. وقد ساعدت عودة العلاقات بين عدن ومسقط والمصالحة التي تمت بين اليمن الجنوبي وسلطنة عُمان على تسهيل أمر تمرير المساعدات الاقتصادية إلى عدن، كما ساعد أمر الحفاظ على مسافة في التعامل بين صنعاء وموسكو على إبقاء التوازن الاقتصادي والسياسي قائما في حكم اليمن الشمالي.

ولعل أهم ما سيواجهه مجلس التعاون الخليجي بعد أن مر في فترة بناء أجهزته ومؤسساته، هو الخروج بسياسة واضحة بل باستراتيجية طويلة الأمد، تدرس علاقاته حاضرا ومستقبلاً بكل من اليمنين الشمالي والجنوبي، بحيث لا يبقى أهم دولتين ـ بشراً وجغرافية ـ خارج إطار مصالحه الحيوية المباشرة ولا تخطيط مستقبله الوحدوي.

إن دول مجلس التعاون الخليجي تحتاج إلى خبرة في شؤون اليمن، أكثر ممّا تحتاج إلى خبرة في شؤون الشرق الأوسط الأخرى. فليس اليمن إلا الحلقة الوحيدة المفقودة ـ أو المحتمة ـ لقوس التعاون في الجزيرة العربية. وبغض النظر عما إذا كان مجلس التعاون هو نادي أغنياء الجزيرة، أو مجتمعا للأنظمة المتشابهة سياسياً والمنسجمة اقتصادياً أو المتفاهمة اجتماعياً، فإن لا خليج بعيداً عن اليمن ولا تعاون بمعزل عن اليمن، وقطعاً لا جزيرة عربية من غير اليمن.

مَنْ قال إن اليمن بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى حكمة سليمان؟

لا أحد منا يريد أن يكون من بعد اليمن الطوفان!

لندن ـ (١٩٨٣/٢/١٩)



انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨

ملامح بغداد هي ملامح مدينة اعتادت الانقلابات خلال عشر سنين من تجربة الاستماع إلى البلاغ الرقم ١. فلا شيء يهزها ولا شيء يثيرها. وليس لها من ملامح الانقلاب ـ أو الثورة كما يحب أن يسميه العراقيون ـ إلا بعض الدبابات القديمة الحاملة أسماء مثل «ثورة ١٤ رمضان» أو «عبدالوهاب الشواف»، الواقفة بحياء داخل سور القصر الجمهوري، أو المختبئة وراء النخيل عند مفارق بعض الطرق. والجديد الوحيد في هذا الانقلاب انه «ابيض»، وهو لون لم تعرفه بغداد من قبل. وأما الحياة فعادية، كأن ما جرى لا يعني الناس. لا جنود في الشوارع ولا مظاهر عسكرية، حتى منع التجول لا يكاد يوحي بأكثر من أن الأهالي متعبون ويريدون أن يأووا إلى بيوتهم باكراً.

هذه هي بغداد الناس. ولكن ماذا عن بغداد الانقلاب؟

إنها بالدرجة الأولى بين القصر الجمهوري وقيادة الجيش ووزارة الدفاع. وإنها أيضاً بالدرجة الأولى ممثلة ببطلي الانقلاب الفعليين: المقدم الركن عبدالرزاق النايف الذي اختير رئيساً للحكومة الجديدة، والمقدم الركن إبراهيم عبدالرحمن الداود الذي اختير وزيراً للدفاع بعد ترفيعه إلى رتبة فريق وتعيينه نائباً للقائد العام للقوات المسلحة. والمقدم النايف كان نائباً لرئيس شعبة المخابرات العراقية، وضابط ارتباط المخابرات في القصر الجمهوري. والفريق الداود كان قائداً للحرس الجمهوري. وكلاهما نفذا الانقلاب معاً بمعرفة سائر الفرقاء المعنيين.

والذي حدث فجر ١٧ تموز عام ١٩٦٨، هو أن القطعات الموالية للنايف والداود تحركت واعتقلت رئيس الحكومة السابق الفريق طاهر يحيى وعدداً من وزرائه وأركانه ومن بينهم الستة والعشرون شخصاً الذين حجزت أموالهم. ثم تم التركيز على الرئيس

السابق عبدالرحمن عارف في القصر الجمهوري. ولما كان النايف والداود من العاملين في القصر، فإن أمر السيطرة على عارف كان عملية سهلة. إذ أن حرس عارف، عندما عرف هوية القادة الزاحفين، أوقف المقاومة بعد حوالي عشر دقائق من دون ضحايا. وما زالت آثار الرصاص ماثلة للعيان على جدران بعض غرف القصر وعلى أبوابه، وفي النوافذ المكسورة والزجاج المنثور في الأرض.

وكان مع النايف والداود ٢٥ ضابطاً من مختلف الرتب والأسلحة، هم ضباط الانقلاب الحقيقيون. وهؤلاء اجتمعوا ليلة الانقلاب في منزل مجاور للقصر لوضع الخطة النهائية. وعند ساعة الصفر، ٢,٣٠ صباحاً، ركبوا سيارة شحن عسكرية وهم يرتدون ملابسهم الكاكية متجهين إلى القصر حيث أدخلهم إليه المقدم سعدون غيدان (رفع إلى رتبة عميد وعين رئيساً للحرس الجمهوري) الذي كان بينهم، بواسطة شقيقه الذي كان من ضباط الحرس الجمهوري. وتلاقى الجميع أمام منزل عارف القريب من القصر. ودخلوا المنزل بعدما جردوا حرس عارف من السلاح، وطلبوا إليه الاستسلام. ورفض عارف بادىء الأمر، حتى اتصل به أحمد حسن البكر تلفونياً ووعده بالأمان إذا سلم نفسه من دون مقاومة. إلا أن عارف استمر بالرفض، حتى أطلقت إحدى الدبابات المحاصرة للقصر قذيفتين فوق المنزل. فرضخ عندئذ واستسلم.

وخضع عارف لاستجواب طويل من قبل ضباط الانقلاب، وبقي في القصر إلى الساعة الرابعة بعد ظهر الأربعاء ١٧ تموز، حينما جرى تسفيره في أول طائرة إلى اسطنبول. ومن هناك سافر إلى لندن. أما «السر» في عدم المقاومة وبقاء «الثورة بيضاء»، فهو أنه لم يكن أحد ليعتقد بأن نظام عارف ـ يحيى، نظام جدير بالدفاع عنه.

وعندما سيطر الانقلابيون على الوضع العسكري كله، وسفّر عارف، وانتهت حملة الاعتقالات، اجتمع الـ ٢٥ ضابطاً الذين يؤلفون مجلس الثورة وانتخبوا أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية. واثر «النجاح العسكري»، بدأت الاتصالات السياسية لتأليف حكومة موسعة، تضم أكبر عدد من الاتجاهات فيها، بعد صدور مرسوم بفك ارتباطات الوزارات المندمجة بعضها ببعض واستحداث بعض الوزارات الجديدة.

وقد حاول الانقلابيون إعطاء الحكومة طابعاً مدنياً، بعدم ذكر الألقاب والرتب العسكرية للضباط الأعضاء في المراسيم. كما أن المدنيين من أعضائها، لا علاقة لهم بالانقلاب ولا علم لهم به. وأغلبهم من «الموظفين» كوزير الخارجية سفير العراق السابق في لبنان الدكتور ناصر الحاني. وجيء بأربعة وزراء أكراد في الحكومة، وهي أكبر نسبة تمثيل كردي في أية حكومة عراقية سابقة، بينهم واحد يمثل الزعيم الكردي الملا مصطفى البرازاني، هو وزير إعمار الشمال السيد محسن ديزعي. كما أنها المرة الأولى التي تمنح فيها هذه الوزارة لكردي.

أما الإلحاح على الصيغة المدنية فتجلى في رفض الرئيس أحمد حسن البكر تصويره بحجة انه يرتدي ملابس عسكرية. ثم إن أبرز المعتقلين إلى جانب طاهر يحيى هو

الفريق شاكر محمود شكري وزير الدفاع السابق، الذي سيقدم إلى المحاكمة بتهمة المسؤولية في هزيمة ٥ حزيران عام ١٩٦٧. وكلاهما الآن في معسكر الرشيد. كما أعتقل السيد علي صالح السعدي. لكن معظم الوزراء سيفرج عنهم في فترة قصيرة إذا لم يدانوا بتهمة الاختلاس. وأكثر المعتقلين من الناصريين والمحسوبين على القاهرة.

ومن الصعب إعطاء «هوية» واضحة للانقلاب. إنما من المؤكد أنه لا يحمل هوية «حزب البعث» على الإطلاق. فالبكر وعماش والتكريتي من البعثيين المحافظين القدامى، و«الخارجين عن الإطار الحزبي»، كما أكّد لي مصدر عراقي مطلع. والصبغة البعثية الوحيدة، التي ظهر لها أثر هي إبراز برقية الرئيس السوري السابق أمين الحافظ مع صورته في صحف بغداد هذا الصباح. كما من المؤكد أن جماعة العقيلي، الذي وصل من لندن صباح اليوم، والبزاز الذي ما زال في لندن، لا علاقة لهما بالانقلاب، ولا علم لهما به.

بغداد - (١٩٦٨/٧/٢٠)

خفايا «لص بغداد»

مع كل ساعة تمر في بغداد، كانت تكتمل ملامح الصورة الحقيقية لأحداث العراق. وقصة الانقلاب بجميع ملابساتها بدأت تتضح، وبشكل نهائي، ضمن عدد من الخطوط العريضة. ومعالم هذه الخطوط أخذت ترسو على شكل فكرة في أذهان خمسين شخصاً، من عسكريين ومدنيين وضباط سابقين ووزراء متقاعدين، منذ أكثر من ستة أشهر. وكان من بين هؤلاء الخمسة والعشرون ضابطاً الذين تولوا في النهاية تنفيذ الإنقلاب وتحملوا مسؤوليته وشكلوا مجلس قيادة الثورة. كما كان بينهم، موقعو «بيان ١٦ نيسان عام ١٩٦٧» الذين قاموا بمهمة التخطيط السياسي، وعلى رأسهم ناجي طالب وعبدالعزيز العقيلي وأحمد حسن البكر وصبحي عبدالحميد ورجب عبدالمجيد.

وكان قد اتفق مبدئياً على تنفيذ الانقلاب في ١٤ تموز، الذكرى العاشرة للثورة الأولى. إلا أن الموعد تم تأخيره لسببين رئيسيين.

الأول: أن السيد ناجي طالب طلب التريث ريثما ينتهي السيد محسن حبيب، سفير العراق في موسكو، من مشاوراته لتأليف حكومة تخلف حكومة طاهر يحيى، على أمل أن تكون الجديدة «حكومة إنقاذ» تتبنى ما جاء في «بيان ١٦ نيسان»، وبالتالي يصرف النظر عن الإنقلاب. وكان الرئيس السابق عبدالرحمن عارف قد استدعى محسن حبيب من موسكو قبل أسبوع من الانقلاب، وسأله تأليف هذه الحكومة الجديدة. واشترط حبيب أن يترك له أمر اختيار الأشخاص وأن تطلق يده في معالجة الأمور. وعلى هذا الأساس استدعي الدكتور ناصر الحاني من مركزه كسفير للعراق في بيروت ليستشار حول اشتراكه كوزير للخارجية. إلا أن عارف أصر على بضعة أسماء ورفض إطلاق يد حبيب في البرنامج الذي سيقترحه، مما دفع حبيب إلى الإعتذار.

والسبب الثاني: كان إحساس الناس الواضح وحديث المجالس في بغداد المستمر عن أن انقلاباً سيحدث، إلى درجة وصل معها الرهان على اليوم والساعة. وكان الشعور بضرورة تأجيله قائماً لعل الرئيس السابق عارف وحكومة يحيى يكونان متنبهين فيعملا في ضوء ذلك.

وكان الرأي قد استقر لدى مخططي الانقلاب على أن يكون أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية، وناجي طالب نائباً لرئيس الجمهورية، ورجب عبدالحميد رئيساً للحكومة وصبحي عبدالمجيد وزيراً للخارجية. لكن ناجي طالب اشترط قبل الانقلاب، عدم إحداث أية ترفيعات استثنائية ما بين الضباط نتيجة للانقلاب، «لإبقاء الثورة نظيفة وبعيدة عن المطامع الشخصية»، على حد تعبيره. ورفض الضباط الانقلابيون الذين بقي عددهم عند التنفيذ ٢٥ ضابطاً، شرط ناجي طالب. وهذا اشترط أيضاً «إيضاحاً» حول عدم ضرورة تبعية الانقلاب الجديد للقاهرة، وعدم إدخال «ناصريين» في الحكومة. وكان الإيضاح متفقاً عليه لدى الجميع.

وانسحب نــاجي طالب من الانقــلاب لما رفض شرطـه. ومعه رجب عبـدالحميد وصبحي عبدالمجيد. وفوتح عبدالعزيز العقيلي بحكم انضمامه إلى «مجمـوعة الخمســين»، واطلع عـلى الخطة. إلا أن العقيــلي وضع شروطـاً أيضاً لاشتـراكه النهـائي اعتبرهـا الضباط «صعبة». وأهمها اعتراضه على حل مشكلة الشمال وحل القضية الكـردية التي أولاهـا الانقـلابيون اهتمـاماً كبيـراً، عن غير طـريق السلاح إذا رد الأكـراد شروط الحكـومـة العراقية. وهكذا أصبح أكثر موقعي «بيان ١٦ نيسان» خارج الانقلاب.

عندئذ تلفت الانقلابيون حـولهم بحثاً عن بقيـة الرفـاق موقعي «بيـان ١٦ نيسان»، فلم يجدوا منهم إلا البعثيين الممثلين بأحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش. لذلك أخـذوا يبحثون عن أشخاص ذوي اتجاهات أخرى لتقويـة التمثيل الحـزبي والسياسي المـدني بـين صفوفهم، فلم يـروا من خارج صفـوف ضباط الجيش سـوى بعض الحيـاديـين. وكرروا المحاولة ثانية مع موقعي «بيان ١٦ نيسان»، فأصر هؤلاء على شروطهم، ورفضها أكثر الضباط ثم استقلوا بالعمل.

أما الملا مصطفى البرازاني فوافق عـلى التعاون بتـردد وحذر، مشتـرطاً إعطـاءه وزارة إعمار الشمال، وهي الـوزارة التي تعنى بالشؤون الكـردية، بـانتظار أن تفي الحكـومة الانقلابية بوعدها بعودة الحياة البرلـمانية وحـل مشكلة الأكـراد. وتدليـلاً على تحفظـه اشترك بوزيـر «عادي جـداً» هو السيـد محسن ديزه ئي الـذي لم يسبق أن تسلم أي منصب وزاري أو إداري من قبل. أما الأكراد الثلاثـة الذين هم في الحكـومة، فـلا لون سياسياً لهم، كـالسيد مصلـح النقشبندي الـذي كان عضـواً في كل حكـومة تـألفت في العراق منذ أيام عبدالكريم قاسم، لأنه كردي فقط.

وحيال كل هذه الصعوبات تأخر إعلان تأليف الحكومة الجديدة، خاصـة أن العراقيـين اعتادوا أن تعلن فوراً مع كل انقلاب. ورست رئاسة الحكومة على منفذ الانقلاب المقـدم الركن عبدالرزاق النايف، ورست الوزارات على الآخرين من موقعي «بيـان ١٦ نيسان» الذين لم ينسحبوا، وعلى «الخبراء والموظفين» من المدنيين كناصر الحاني.

وعبدالرزاق النايف، شاب عسكري في الخامســة والثلاثــين من عمره، مـربوع القـامة، خجول، لكنه ذكي. وهو لم يسمع به العراقيون لذلـك ظلوا يتسـاءلون فتـرة عن أسمه: النايف أم النايب؟ كما أن قليلين يعرفون شكله.

والمدني البارز في الحكومة الجديدة هو الدكتـور ناصر الحـاني، الذي لكـونه في مـوضع الخبـرة والاختصاص أصبـح من حيث لا يدري، ولم يـدر، الشخصية المدنية المؤهلـة للعب دور أساسي في سياسة الوضع الانقلابي. فإنه مؤهل أن يقوم بـالدور نفســه الذي قام به الدكتور عبدالرحمن البزاز عندما اختير نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجيـة في حكـومة عـارف عبدالـرزاق الأولى. غير أن الفـارق بين إمكـانـات الشخصـين وظـروف المرحلتين قد يجعل دور الدكتور الحاني أشد صعوبة.

ومن الممكن إعطاء الملامح الآتية لإنقـلاب ١٧ تموز: أولاً هـو انقلاب داخـلي ـ عراقي،

حصل لإثبات وجود العراق كقوة في العالم العربي. فالتركيز على العراق ودوره الأساسي والحيوي في المجموعة العربية، والهجوم على «التبعية والذيلية» يجعلانه بوضوح بعيداً عن الالتزام بخط مصر، إنما ليس في صف معاد للقاهرة. إن استقلال السياسة الخارجية والعودة إلى ممارسة دور مستقل رائد في العالم العربي، هما مطلب واضح من مطالب الحكم الجديد. لذلك استبعد كل «الناصريين» من الحكومة وكل من له علاقة قريبة بالقاهرة. ما عدا الكبار من هؤلاء الذين اعتقلوا وحجزت أموالهم، لأنهم يعتبرون من غلاة المتعاونين مع القاهرة ومن المؤيدين لاتباع الخط الناصري في الداخل والخارج. وهذا يفسر إلى اليوم تحفظ الحكومة المصرية وبرودها تجاه الحكم العراقي الجديد. أما بالنسبة إلى دمشق، فإن الانقلاب العراقي هو بمثابة هاجس مخيف لنظام الحكم السوري، نظرا إلى وجود أقطاب من حزب البعث القومي على رأسه، وإلى إبراز برقية الفريق أمين الحافظ وشبلي العيسمي والدكتور إلياس فرح، مع صورة الحافظ، في صدر الصفحة الأولى من صحيفة «الجمهورية» الحكومية الرسمية صبيحة اليوم الثاني للانقلاب، مما يؤلف إحراجاً واضحاً للبعث القطري الحاكم في سورية. وما زالت ردود فعل دمشق متحفظة وباردة.

وكل هذا لا يجعل من الانقلاب الجديد، انقلاباً بعثياً، برغم وجود البكر وعماش والتكريتي في مراكز حساسة ضمنه. فإن رجلي الإنقلاب القويين، النايف والداود، هما الحاكمان الفعليان وهما غير بعثيين. وقد هاجم منشور أصدره حزب البعث قبل الإنقلاب بمدة قصيرة شخص النايف واتهمه «بالتسلط». ومفاتيح القوى الحقيقية هي أيضاً في أيدي النايف والداود، وليست في أيدي بكر أو عماش.

أما على الصعيد المحلي العراقي فكانت غاية الانقلاب القضاء على «فساد» عهد طاهر يحيى. فالذي قيل في طاهر يحيى لم يقل في أحد سواه في العراق منذ أيام نوري السعيد. و«لص بغداد» هو أخف العبارات التي أطلقت عليه. والتركيز على الرشوة و«الزمرة» التي كانت تحيط به، والعجز الاقتصادي الذي أصاب العراق في عهده، تكشف عن أمور كثيرة ينوي الحكم الجديد في العراق أن يتعظ بها. ومن ثم فلا تهويل بالاشتراكية ولا مزيد من قوانين الضغط الاقتصادي، فالذي يصلح في القاهرة لا يصلح في بغداد. وستوضح محاكمات الـ ٢٦ شخصاً الذين حجزت أموالهم، مهازل في تطبيق الاشتراكية.

وأهم الفضائح الاقتصادية ستكون اتفاق «إيراب». وستعمل الحكومة الجديدة على التشهير به وكشف نصوصه بحيث يظهر كم هو مجحف بحق العراق، على غير ما كان يدعي العهد السابق. وهذا الموقف قد يحرج العلاقة بين فرنسا والعراق، وخاصة فيما يتعلق بصفقة طائرات «الميراج» التي كان تم الاتفاق عليها عند زيارة الرئيس السابق عبدالرحمن عارف لباريس واجتماعه بالجنرال ديغول أوائل هذا العام. ومن المنتظر أن يرسو حقل الرميلة على شركة نفط العراق، ومشروع الكبريت على شركة «بان أميركان» التي يديرها السيد روبرت أندرسون وزير الخزانة الأميركي في عهد الرئيس ايزنهاور،

والذي سبق أن زار بغداد قبل ثلاثة أشهر وأجرى محادثات مع عارف. ويتوقع من الحكومة الحالية أن تقلص الضغوط الاقتصادية القائمة، في محاولة من قبلها لإعادة الانتعاش إلى الأسواق.

يبقى شيء هام وبارز في الذي يحدث في بغداد اليوم، هو ما جاء في البيان الوزاري عن حرية ممارسة العمل السياسي، و«خلق الأجواء الكفيلة بعودة الحياة الديموقراطية السليمة لتكون فاتحة لعودة الحياة البرلمانية».

فهذه المرة الأولى التي ترد فيها كلمة «برلمانية» ضمن بيان وزاري أو بلاغ انقلابي خلال عشر سنين في العراق. ويعتبر العراقيون أن هذه كلمة أساسية وعليها يتوقف مصير الانقلاب. والبغداديون يشعرون بجدية هذا الوعد، ويتوقعون الالتزام به. والكلمة تلك ستكون محك نجاح النظام الجديد أو فشله.

ولكن ماذا يبقى؟ يبقى شعور أكثر الناس بأن عبدالرحمن عارف دفع ثمن عهد طاهر يحيى، بكل «أميته وجهله ولصوصيته»، على ذمّة البلاغ رقم ١، فكان الضحية، وكان الشهيد «الأبيض» للإنقلاب «الأبيض».

بغداد - (١٩٦٨/٧/٢١)

أحلام الحياة الديموقراطية

لم يكن مستغرباً في بغداد أن يكون السيد ناجي طالب قد فوجىء، وهو في بيروت، بنبأ تشكيل الحكومة العراقية الجديدة. المستغرب في بغداد أن لا يكون السيد ناجي طالب قد عرف قبل وصوله إلى بيروت، قادماً من لندن، في طريقه إلى بغداد أن «رفاق الثورة» رفضوا شروطه نهائياً وأسقطوه من حسابهم.

ولكن كان هناك واحد على الأقل يعرف السر، وأدرك ما قد يحدث، فأسقط من تلقائه نفسه من حساب رفاقه في الساعة السابعة من صباح الأربعاء ١٧ تموز، بعدما كان قد دخل وإياهم في الانقلاب الساعة الثالثة صباحاً.

إنه اللواء عبدالعزيز العقيلي، القابع بصمت في بيته في بغداد اليوم. ولكن ماذا حدث بين الساعة الثالثة والساعة السابعة صباحاً؟ هذا ما تسأل عنه بغداد كلها.

تقول مصادر مقربة من العقيلي إن تلك الساعات الحاسمة قررت انسحابه في النهاية من العملية الانقلابية. لماذا؟ لا أحد يريد أن يصرح. والسبب ليس شروط العقيلي الكردية فحسب، بل هناك من يقول إن العقيلي طالب بوزارة الدفاع، فرفض الضباط الخمسة والعشرون، لذا آثر الانسحاب في اللحظة الأخيرة. والصمت هو مفتاح الجواب عند العقيلي. لكن المصادر ذاتها المقربة من العقيلي تقول عنه إنه سعيد بالانقلاب لأنه «خلص العراق على الاقل من اللصوص». وتضيف أن العقيلي يخاف على الانقلاب من تمركز البعثيين فيه، وتحويله إلى حكم حزبي فيما بعد. لكنه أكد أن اتجاهات كل من رئيس الوزراء المقدم عبدالرزاق النايف ووزير الدفاع الفريق إبراهيم عبدالرحمن الداود، هي «غير حزبية ولا بعثية، بل إسلامية عراقية منفتحة نحو الغرب». ويقال أيضاً إن العقيلي، لأنه يخشى عودة الضباط البعثيين المسرحين والمتقاعدين إلى الجيش، أصر على تولي وزارة الدفاع إذ أن البعث حزب لا يؤمن بالانتخابات ولا بالديموقراطية البرلمانية. لذلك، فإنه يخشى انتكاسة هذا الانقلاب. وتؤكد مصادر أخرى مقربة منه أن في الحكومات اتجاهات إسلامية واضحة ممثلة بوزير الأوقاف الدكتور عبدالكريم زيدان.

ومن الأخبار التي أثبتتها التطورات في بغداد، أن السيد عارف عبدالرزاق برغم أنه من موقعي «بيان ١٦ نيسان» وبرغم تخليه عن الخط الناصري في الفترة الأخيرة، وتخلي القاهرة عنه، كان هناك إجماع على استبعاده لعدم الثقة به. وعدم الثقة هذا نتج، عند الفرقاء كافة، عن «تصرفاته» السابقة المعروفة. ومن هنا أنه كان خارج الانقلاب، وخارج «لجنة الخمسين» التي فكرت به.

ويواجه العهد الإنقلابي الجديد أزمة مع فرنسا، مهددة بالإنفجار في أية لحظة. والأزمة تعود بالدرجة الأولى إلى اتهام أشخاص عهد عارف ـ يحيى «بالاختلاس والرشوة واللصوصية»، في ما يتعلق بالاتفاق مع شركة «ايراب»، وإلى ما قد ينتج من مضاعفات

إذا قدم هؤلاء الأشخاص، وعددهم ستة، إلى المحاكمة. لذلك يدور التفكير جدياً بالتحقيق معهم داخل السجن، وكشف ما أمكن كشفه من ملابسات القضية، من غير محاكمة علنية قد تؤدي إلى معرفة هوية الوسطاء الفرنسيين وتسبب حرجاً للحكومة الفرنسية. أضف أن ليس لدى الحكومة الجديدة اية ادلة مادية ملموسة، تشكل إدانة قضائية، بحق المتهمين الرئيسيين.

كما أن الحكومة الجديدة تفكر، جدياً، بإلغاء الاتفاق المتعلق بشراء مقاتلات «ميراج» الذي عقدته الحكومة العراقية السابقة مع فرنسا، عند زيارة الرئيس عبدالرحمن عارف للجنرال ديغول. وعلمت من مصادر ذات اطلاع على تفكير الحكومة بهذه الأمور، أن التساؤل يسود المعنيين بالشؤون العسكرية فيها، حول الفرق بين أسعار طائرات «ميراج»، على مختلف أنواعها، وبين أسعار طائرات «ميغ» السوفياتية على مختلف أنواعها أيضاً. فهذا الفرق يراوح بين ثلاثة وستة ملايين دولار. وتقول هذه المصادر إن «ميراج» طائرة باهظة الثمن وشديدة التعقيد الفني، وإن الجيش العراقي لم يسبق له أن استعمل أسلحة فرنسية. في حين أن طائرات «ميغ» قد اعتادها الجيش العراقي، وأصبح تدريبه يتناسب معها، مع العلم أن أسعار «ميغ» السوفياتية هي سياسية، أصبحت بحكم الظروف الدولية، والعلاقات العربية ـ السوفياتية، أسعاراً اقتصادية لا يمكن التراجع عنها. وإذا كان لا مفر من شراء طائرات ودفع ثمنها، فلتكن «ميغ» لا «ميراج».

وفي سيرة العلاقات الفرنسية ـ العراقية، ذكر لي في بغداد، أن عدداً من الضباط (الذين قاموا فيما بعد بالإنقلاب) قابلوا الرئيس السابق عارف اثر توقيع اتفاق «ايراب»، وانتشار اللغط حوله، وقالوا له إنهم يعرفون أن هناك ٢٢ شخصاً، هم المسؤولون عن توقيع الاتفاق، قد قبضوا ٦ ملايين دينار رشوات وعمولة لقاء دفع الحكومة العراقية إلى الموافقة عليه. ورد عارف عليهم أنه لو قسم مبلغ الستة ملايين دينار على الـ ٢٢ شخصا، لما نال أحدهم مبلغاً كبيراً يستحق التحقيق والعقاب. وقيل إن الضباط سكتوا وخرجوا غاضبين من الغرفة.

وأكدت أوساط مقربة من الحكم الجديد، أن الخطوط الأساسية لسياسة الحكومة الإنقلابية هي التركيز على عودة الحياة الديموقراطية تمهيداً لقيام برلمان يضم الفئات والأحزاب كلها. وسوف يسمح بالعمل الحزبي بعد تنظيم قواعده، بشكل يحفظ معه الإطار العراقي التقليدي. ولن يكون ذلك قبل اتخاذ قرار بحل الاتحاد الاشتراكي العربي في العراق، ومصادرة ممتلكاته وتحويلها إلى المجلس الوطني، نواة البرلمان الموعود. ثم إن هناك نية بشأن إعادة العلاقات التقليدية المعروفة بين العراق والغرب، ومن ضمنها إيران وتركيا. كما جرى البحث جدياً في إعادة العلاقات الديبلوماسية المقطوعة مع الولايات المتحدة (برغم نفي وزير الخارجية الدكتور ناصر الحاني) تأكيداً لاستقلال السياسة الخارجية للعراق، واقتناعاً بأن قطع العلاقات لا يخدم لا العراق ولا القضية الفلسطينية، بل يشكل غياباً عن المسرح الدولي. ناهيك بأن الأسباب الموجبة

لذلك قد زالت، وهي عدم اشتراك الولايات المتحدة الفعلي مع إسرائيل في ٥ حزيران عام ١٩٦٧، وكون قطع العلاقات كان «مجاملة ذيلية» للقاهرة.

وتأكد أن الغرض من وراء تقديم وزير الدفاع السابق اللواء شاكر محمود شكري وعدد من الضباط إلى المحاكمة بتهمة المسؤولية في هزيمة ٥ حزيران عام ١٩٦٧، ليس لمحاكمة شكري وضباطه، الذين هم غير مسؤولين أساساً، بل لأجل تبرئة العراق من الهزيمة التي لم يسهم فيها، وتوجيه أصابع الإتهام إلى المسؤولين الحقيقيين عنها في دول عربية أخرى. وتقول المصادر: «كيف هزم العراق وهو لم يصل إلى الحدود الفلسطينية؟ وفي الوقت نفسه لماذا لم يصل الجيش العراقي قبل الهزيمة؟».

غير أن الذي يشغل بال العراقيين حقاً، إلى جانب تطورات الإنقلاب الجديد، هو ما يحدث في الجنوب العراقي. فالثورة ـ كما يحب أن يسميها بعض العراقيين ـ التي يقوم بها الزعيم الشيوعي عزيز الحاج في المستنقعات، ليست أكثر من محاولة تمرد على غرار الأسلوب الحديث في عصر «تشي غيفارا». إن الذي حدث، هو أن عزيز الحاج انشق عن جناحي موسكو وبكين في الحزب الشيوعي العراقي، وهرب إلى الجنوب بعدما حاول أحد رفاقه الشيوعيين اغتياله بتهمة شق الحركة الشيوعية.

وهناك في مستنقعات «حورا الحمر» القريبة من البصرة وفي مستنقعات الحلة، نظم الحاج حملة من سكان هذه المناطق الفقيرة وأعلن تمرده على الحكومة. وانضم إليه عدد من الضباط الشيوعيين واليساريين الذين كانوا معتقلين في البصرة. ويقال إن الحاج يقتدي بـ «تشي غيفارا» ويرفع صورته ويحاول أن يقتبس من تعاليمه، وجاءه أخيراً عدد من «المثقفين» العاطلين عن العمل. وحاولت الحكومة السابقة ضربه بالطائرات، لكنه، كما يقال، أسقط طائرة هليكوبتر للجيش كانت تحوم فوق المستنقعات، وقتل قائدها وهو برتبة مقدم، ويقال إن طائفة من جماعة الملا مصطفى البرازاني انضمت إليه، فضلاً عن طائفة من الشيوعيين الذين انشقوا بعده، وتركوا موسكو وبكين.

والخوف هو أن يواجه العراق مشكلتين. الأكراد في الشمال، والتمرد «الغيفاري» اليساري في الجنوب. وعندئذ تطول القصة.

بغداد ـ (١٩٦٨/٧/٢٢)

تأصيل الديموقراطية

إذا سألت مواطناً سودانياً، وأنا اقترح أن يكون سائق تاكسي، عن تعريف للديموقراطية السياسية التي يمارسونها في السودان اليوم، لأجابك وهو ينقلك في سيارته من المطار إلى الفندق، عبر رحاب الخرطوم: «أن نلعب كلنا اللعبة نفسها، إنما بالشروط ذاتها». وإذا اتفق وكان هذا المواطن من الصحافيين الساهرين في «غراند أوتيل» حتى ساعات الصباح الأولى، لأضاف: «الديموقراطية هي المسرحية التي نشارك كلنا في تمثيلها، عن أصالة فينا أولاً، وعن اقتناع بها، وعن تجربة مرة من دونها، وعن إصرار على استمرارها. نحن جمهور يحب المسرح، ويحب أن يختار ممثليه على خشبته، مع حقه في أن يصفق لهؤلاء أو يصفر».

والسودان اليوم يشهد بداية مسرحية جديدة بعد انتخابات طويلة اختار فيها ممثليه، وينتظر رفع الستار عن الوجوه القديمة التي عرفها، وعن وجوه جديدة يأمل أن تدفع بالقديم إلى الإسراع في الإنتقال من فترة «تجربة» الديموقراطية إلى فترة «تأصيلها». لكن الحديث في الانتخابات الأخيرة، والتي خاضتها الأحزاب السودانية كلها بضراوة، وخاضها كل من حزب الأمة وحزب سانو الجنوبي بجناحين وبضراوة أشد، انتهت بفوز الحزب الاتحادي الديموقراطي الذي يتزعمه السيد إسماعيل الأزهري بأكثر مقاعد الجمعية التأسيسية «١٠١ من أصل ٢١٨ مقعداً» من دون أن تؤهله لتأليف حكومة وحده، لو أصر عليها لما عاشت طويلاً.

ويبدو أن انقسام حزب الأمة جناحين، جناح الصادق المهدي وجناح عمه الإمام الهادي، قد سهل فوز الحزب الاتحادي الديموقراطي بهذا العدد، بفضل الدعم الذي أمنه الإمام الهادي لمرشحي حزب الأزهري، نكاية بابن أخيه، حتى أنه كان هناك تنسيق كامل بين الحزبين أدى إلى سقوط الصادق المهدي نفسه ومعه أكثر من ١٥ شخصاً من كبار مساعديه هم أغلبية أعضاء المكتب السياسي. وقد أحرز حزب الأمة

(جناح الصادق) ٣٦ مقعداً، وأحرز حزب الأمة (جناح الإمام) ٣١ مقعداً. وعندما حل موعد تأليف الحكومة وانتخاب أعضاء مجلس السيادة، حل أيضاً موعد اقتسام الغنائم على شكل نسب من عضويتي الحكومة ومجلس السيادة، وبقي حزب الأمة (جناح الصادق) في المعارضة.

وكان الإنقسام قد وقع بعد سقوط حكومة الصادق المهدي عام ١٩٦٧، لخلاف بين الصادق وعمه، ولإصرار الصادق على أن يبتعد الإمام عن السياسة ويحتفظ بزعامته الروحية لطائفة الأنصار، تاركاً السياسة لابن أخيه. ورفض العم الرضوخ متذرعاً بأن زعامة الأنصار تشمل الحقلين الروحي والسياسي. وكان الصادق قد اعترض في الأصل على اختيار عمه للإمامة بعد وفاة والده المهدي الكبير، وحجته أن الإمامة هي من حقه ولو كان شاباً، أي إنها وراثية من الأب إلى الابن، كما كانت منذ البدء. وسكت الصادق على مضض بانتظار الوقت المناسب لإزاحة عمه، من الواجهة السياسية على الأقل. لكن يبدو أن الصادق قد استخف بقوة الإمام، فدفع الثمن في الانتخابات الأخيرة ووقع الانشقاق الذي قطف ثماره الحزب الاتحادي.

على أن «شهر العسل» قد لا يدوم طويلاً بين الحزب الاتحادي الديموقراطي وحزب الأمة الحكومي برئاسة السيد محمد أحمد محجوب أول ضحاياه. هذا الائتلاف الذي عاش سنة كاملة، حتى حل الجمعية التأسيسية السابقة في ٧ شباط عام ١٩٦٨، والذي تم الاتفاق عليه مجدداً بعد انتخاب محجوب رئيساً للوزراء مرة أخرى في الجمعية التأسيسية الجديدة. ومن الأسباب التي قد تقف في وجه هذا الائتلاف وتعجل في سقوطه، ولو شدت أزره كل الأحزاب الكبيرة الحاكمة، الخلافات الشخصية بين أعضائه وطموح هؤلاء إلى الحكم والمصالح السياسية والحزبية المتشابكة فيما بينهم. وقد بدأت هذه الخلافات والمصالح تلعب دورها. حتى قبل الاتفاق على الائتلاف الجديد، عندما أصر الشيخ علي عبدالرحمن نائب رئيس الحزب الاتحادي الديموقراطي على أن تكون رئاسة الوزراء من حق صاحب الأكثرية في المجلس الجديد، وإلا فما معنى مئة نائب ونائب ولا رئيس؟ إلا أن أنصار الشيخ علي عبدالرحمن في الحزب، تفادياً لانقسام في الداخل، اقنعوه بالعزوف عن فكرة تأليف حكومة حزبية ذات أغلبية ضعيفة «تكون سبباً في القلق والاضطراب. ولذلك كان لا بد للحزب من قبول هذا الوضع مع انه صاحب الأغلبية».

وكانت الاجتماعات بين زعماء الأحزاب السياسية قد بدأت للاتفاق على من يحكم السودان. إلا أن الصراع اتخذ شكلاً حقيقياً في الاجتماع الحاسم الذي عقد في القصر الجمهوري في الخرطوم بين السيد إسماعيل الأزهري والإمام الهادي المهدي والسيد محمد عثمان الميرغني (زعيم الطائفة الختمية التي تشكل أغلبية الحزب الاتحادي). وكان هذا أول اجتماع «للثلاثة الكبار» منذ إعلان نتائج الانتخابات، كما كانت أول جلسة للتفاوض المباشر بين الحزبين الحليفين. أما ما حدث قبله، فلم يتعد نطاق الاتصالات غير المثمرة، التي جمعت بين عدد من قادة الحزبين. وكان الموضوع الرئيسي

المطروح على بساط البحث، رئاسة مجلس الوزراء، ولمن تكون: اللحزب الاتحادي أم لحزب الأمة ـ جناح الإمام؟ ودار الحديث بعيداً عن الأسماء، حتى تم الاتفاق على أن تعلن الرئاسة للأمة، «حفاظاً على الائتلاف في الدرجة الأولى، وتقديراً ـ كما قال أحد زعماء الاتحاديين ـ للتعاون الكبير الذي لقيه الحزب الاتحادي الديموقراطي من حليفه حزب الأمة ـ جناح الإمام، وتأكيداً لإستقرار البلاد وسعياً إلى إصلاحها». وكان المرشح لرئاسة الوزراء من جناح الإمام، بالطبع، السيد محمد أحمد محجوب الذي يتولى الرئاسة ـ بعدما اختارته الجمعية التأسيسية ـ للمرة الثالثة.

وكانت هناك ثلاثة آراء في ضرورة الائتلاف أو عدمه. الأول، رأي السيد إسماعيل الأزهري الذي يقول إن القضية الأساسية التي تواجه السودان هي قضية الدستور الدائم الذي يجب أن يكون «دستوراً إسلامياً ينبع من الشريعة الإسلامية». ويقول الأزهري إنه إذا ما تجاهل الحزب الاتحادي الديموقراطي حزب الأمة ـ جناح الإمام، فلا بد له من البحث عن حليف آخر يكون رأيه كرأي الحزب في موضوع الدستور. وليس هناك سوى حليفين محتملين: إما «جبهة الجنوب» ومعها الجنوبيون الذين يمكن أن يناصروها وهؤلاء بطبيعة الحال يعارضون فكرة الدستور الإسلامي ويطالبون بدستور علماني للبلاد، ويخشى أن يشترطوا عند إشتراكهم في الحكومة استبعاد هذه الفكرة. وإما حزب الأمة ـ جناح الصادق، وبينه وبين الحزب الاتحادي وأركانه ما صنع الحداد، فضلاً عن كونه حزباً قاسياً في شروطه، مشاكساً، وبالتالي مثيراً للمتاعب إذا صار حليفاً.

الرأي الثاني، كان للإمام الهادي المهدي، الذي يعتبر أن قضية رئاسة الوزراء هي قضية كرامة بالنسبة إليه، وبالنسبة إلى الانصار. فهو لا يقبل أن تكون الرئاسة لغير حزبه، وهو الذي خاض المعركة الانتخابية بكل ثقله إلى جانب الحزب الاتحادي، حتى أسقط ابن أخيه وأنصاره. ويرى أن الجمعية التأسيسية الحالية هي امتداد لجمعيته السابقة، ولذا وجب أن تكون الحكومة امتداداً لسابقتها. وهو، إذا كان قد دعا إلى حل الجمعية السابقة، فللأسباب نفسها التي استند إليها الحزب الاتحادي. والجمعية الحالية ستنتهي إلى صياغة دستور دائم وانتخاب رئيس للجمهورية، وليس ما يوجب تغيير شكل الائتلاف الحكومي السابق.

الرأي الثالث كان للسيد محمد عثمان الميرغني، وقد استغل الشيخ علي عبدالرحمن عدم وضوحه ليعلن أن رئاسة الوزراء هي من حقه ومن حق الحزب. إلا أن موقف الميرغني كان متردداً. فهو لا يريد أن يقف ضد الإمام الهادي ويعرض الختمية لعتاب الأنصار، كما يقولون في الخرطوم، خصوصاً أن والده الراحل وضع أساساً للتعاون بين الطائفتين الكبيرتين. فإذا رفض أن يتولى محجوب رئاسة الوزراء، قد يعتبر متخلياً عن أساس التعاون هذا، ومتسبباً في دفع الخلافات والحزازات بين الانصار والختمية إلى السطح. ثم إنه لا يريد أن يغضب الشيخ علي عبدالرحمن، ولا يريد أن يسود الاعتقاد داخل الحزب الاتحادي بأنه هو الذي أعاق وصوله إلى رئاسة الحكومة. لذلك وقف يقول

بضرورة إعطاء الرئاسة لحزب الأمة ـ جناح الإمام، على أن تعرض القضية على الحزب ومكتبه السياسي، ليتخذ منها موقفاً نهائياً ويتحمل التبعات إذا فشل الائتلاف الحالي في المستقبل. وهكذا تم الاتفاق على محجوب رئيساً للحكومة، وترك أمر «الشكليات الحزبية» لتنظيمات الأحزاب نفسها.

والشكليات الحزبية كانت ذات أهمية بالنسبة إلى الحزب الاتحادي الديموقراطي، لأنها أوضحت طبيعة الصراع وتعدد الاتجاهات في صفوفه، وهو الذي قام على اندماج حزبين: حزب الأزهري «الاتحادي» وحزب الشيخ علي «الشعب الديموقراطي». واجتمع المكتب السياسي للحزب الاتحادي الديموقراطي وكان فيه الاتجاهان السابقان: اتجاه الشيخ علي عبدالرحمن الذي يرى أن الحزب قد فوض من الشعب ليحكم، وينبغي ألا يفرط في هذا التفويض. والاتجاه الآخر الذي يرى أن الحزب لم يفوض ليحكم لأنه لم ينل الأغلبية التي تمكنه من الانفراد بالحكم، كما أنه لم يخض المعركة الانتخابية ببرنامج محدد بل بخطة هجوم على جناح الصادق في حزب الأمة ومؤتمر القوى الجديدة، وعلى الجمعية السابقة لأنها فشلت في وضع الدستور الدائم وكان هذا الاتجاه، المناصر للسيد محمد أحمد محجوب، يرى أيضاً «أن جهود الإمام يجب أن تقدر وأن كرامته ينبغي أن تحفظ». وقد رجحت كفته بالنتيجة. وفي أعقاب ذلك انطلقت دعوة من داخل الحزب إلى حل المكتب السياسي، لأنه في الأساس لا يستطيع اتخاذ أيّ قرارات، ولأنه تكوين أوجده اندماج الحزبين الاتحادي والشعب الديموقراطي فضلاً عن أنه لا يشكل أي ثقل سياسي في البلد بدليل فشل أعضائه في الانتخابات. وكان معظم أصحاب هذا الرأي من النواب الذي يريدون حصر السلطة السياسية للحزب في هيئته البرلمانية، لأنها في رأيهم تنطلق من قاعدة أوسع، وتستند إلى تمثيل شعبي. أما إذا كان لا بد من وجود المكتب السياسي، فلينتخبه نواب الحزب وليكن تفويضه من هؤلاء.

تبقى مواقف الأحزاب الأخرى. أولها موقف حزب الأمة (جناح الصادق) الذي يتولى المعارضة الفعلية للائتلاف، والذي رشح السيد أحمد إبراهيم دريج رئيساً للوزراء في اجتماع الجمعية التأسيسية، فنال ٥٠ صوتاً بينما فاز محجوب بـ ١٤٦ صوتاً، وبذلك يصبح دريج، الموظف في دائرة الإحصاء الذي جاء به الصادق وزيراً للعمل في حكومته، ليرضي به إقليم غرب السودان، زعيماً للمعارضة داخل الجمعية التأسيسية في غياب الزعيم الحقيقي القابع في بيته. وهناك محاولات لتوحيد شقي حزب الأمة، أو لإعادة الوئام بين الإمام وابن أخيه الصادق. ويقول الصادق عن هذه المحاولات إنها صحيحة، وإن بعض الشخصيات الانصارية الكبيرة تقوم بالاتصال به، رغبة منها في أن «يلتئم بيت المهدي ويعود الصفاء بين أفراد الأسرة». إلا أن الصادق طالب بمشروع محدد يمكن إجراء الحوار على أساسه، لأن توحيد الشقين، «لا يتم بالأماني». وبالفعل هناك عدد من الشخصيات الأنصارية تعكف على صياغة اتفاق ليتم بموجبه اللقاء. ويقف إلى

جانب جناح الصادق حزب سانو (جناح دينغ) وحزب اتحاد جبال النوبة (٤ مقاعد) وحزب مؤتمر أبجة (مقعدان) وبعض المستقلين.

وعدوى الإنشقاق انتقلت إلى حزب سانو الجنوبي، بجناح وليم دينغ وجناح الفرد وول. وقد تكرس هذا الانشقاق باغتيال دينغ قبل إعلان نتائج الانتخابات. وقد فاز حزب سانو (جناح دينغ) بـ ١٥ مقعداً وفاز جناح وول بـ ٣ مقاعد. أما التحقيق في مقتل دينغ فمستمر على مستوى عال، وقد ذهبت لجنة التحقيق برئاسة قاض من المحكمة العليا إلى منطقة «شوديت» الواقعة بين مقاطعتي «واو» و«رومبيك» في جنوب السودان، واستمعت إلى شهود الحادث. ومن المتوقع أن تنهي اللجنة أعمالها وتعود إلى الخرطوم لتعلن نتائج تحقيقاتها، وحزب سانو هو حزب معتدل يمثل الجنوبيين وقد شارك في معظم الحكومات الائتلافية التي تشكلت في السودان بعد انهيار النظام العسكري، حتى انشقاقه قبل عام. وقد عارض دينغ، ودخل وول الائتلاف ولا يزال والحزب الثاني الذي يشكل قوة فاعلة في الجنوب هو جبهة الجنوب، وقد فاز بـ ١٠ مقاعد في الجمعية التأسيسية الحالية. أما موقفه من مفاوضات الائتلاف، فهو، كما قال أمينه العام السيد هيلاري باولو، أنه يحبذ التعاون مع الحزب الاتحادي الديموقراطي، وسيؤيد من يتم عليه الاتفاق لرئاسة الوزراء ومجلس السيادة، إلا أنه يصر على أن يكون المنصب الشاغر في مجلس السيادة من حقه، وأن يكون ممثل الجنوب مقبولاً من كل الأطراف. وعلى هذا تم الاتفاق، وانتخب السيد غيرفاس ياك محافظ الخرطوم عضواً في مجلس السيادة كممثل للجنوبيين باعتبار انه لا يرتبط بحزب معين. لكن الذي حدث أن أكثر نواب الجنوب صوتوا في انتخابات أمس إلى جانب السيد وليم أرو مرشح حزب سانو (دينغ)، لأن احداً لم يستشرهم في ترشيح ياك، الذي فاز بأصوات الحزب الاتحادي الديموقراطي والأمة (الإمام). أخيراً حزب جبهة الميثاق الإسلامي (الإخوان المسلمون) الذي فاز بـ ٣ مقاعد والحزب الشيوعي الذي فاز بمقعدين.

جبهة الميثاق قررت تنسيق أعمالها مع المعارضة، متهمة محجوب بالضعف والتقاعس، قائلة إن الائتلاف الذي تم الوصول إليه يجعل محجوب رئيساً لا يختار وزراءه إذ يكون الاختيار من حق الثلاثة الكبار في الحزبين: الإمام الهادي وإسماعيل الأزهري ومحمد عثمان ميرغني. وضحك محجوب عندما سئل عن صحة هذا القول واكتفى بالضحك.

أما الحزب الشيوعي بنائبيه السيد عبدالخالق محجوب أمينه العام والسيد الحاج عبدالرحمن الأمين العام لاتحادات العمال، فهو إلى صف المعارضة بالطبع، من دون تنسيق معها. ويرى الحزب الشيوعي أن ليس «هناك جديد في الائتلاف الحالي، وما هو إلا استمرار للسياسات التقليدية التي سارت عليها البلاد في ظل سيطرة الأحزاب اليمينية». وامتنع النائبان الشيوعيان عن التصويت في انتخابات أمس، إلا أحدهما للآخر.

لكن انتخابات الجمعية التأسيسية جرت في جو رائع من الديموقراطية السودانية. فقد

بدأت الجلسة بانتخاب رئيس للجمعية ففاز السيد الفاضل المبارك شداد، وهو طبيب للأمراض النسائية والرئيس السابق للجمعية السابقة، من بين ثلاثة مرشحين بأكثرية ١٤٠ صوتاً. ونال السيد عابدين إسماعيل صوتين، صوته وصوت عبدالخالق محجوب، ونال مرشح المعارضة لويجي أدوك ٦٨ صوتاً. وانتقد دريج شداد بعد انتخابه ووصفه بالحزبية، مطالباً بأن يكون حيادياً في رئاسته هذه المرة، لأن منصبه يتطلب ذلك. واتهم دريج الرئيس الجديد، بأن عهده الماضي لم يتصف بالموضوعية ولا بالحياد. ثم تم انتخاب أعضاء مجلس السيادة ففاز السادة: إسماعيل الأزهري (١٤٦ صوتاً)، داوود خليفة (١٤٤ صوتاً)، خضر حمد (١٤٣ صوتاً)، الفاضل البشري المهدي (١٤٣ صوتاً)، وجيرفس ياك (١٣٠ صوتاً). واختير الأزهري لرئاسة المجلس. وهنا انسحب نواب المعارضة من الجلسة، قائلين إنهم «لن يشتركوا في اختيار رجل متهم بخرق الدستور». وهناك دعوى أقامتها المعارضة على الأزهري في آخر عهد الجمعية السابقة واتهمته فيها بخرق الدستور كانت عالقة أمام محكمة الدولة العليا. وأخيراً جرى انتخاب محجوب رئيساً للوزراء، ضد أربعة مرشحين آخرين.

وواجه محجوب صعوبة في تأليف الحكومة. والصعوبة تكمن في المساومات التي تدور وراء الكواليس والتي تعودت السودان أن تعيش في أتونها. لكن التشكيلة الوزارية، والتي قد يعلن محجوب عنها، لن تختلف عن سابقتها، وستدخلها الوجوه القديمة ذاتها، مع احتمال إدخال وجهين جديدين فقط. وكان قد تم الاتفاق في تشكيلة الائتلاف على ٩ وزراء من الحزب الاتحادي الديموقراطي، و٤ وزراء لحزب الأمة (جناح الإمام) وواحد من حزب سانو (جناح وول). وقد تم الاتفاق على هذا الائتلاف لمدة سنة واحدة كحد أقصى، تجري بعدها انتخابات رئاسة الجمهورية، ويتولى من يفوز بالرئاسة تشكيل الحكومة المقبلة من دون ائتلاف. كما تم الاتفاق على أن يكون الشيخ علي عبدالرحمن نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية وزعيماً للجمعية التأسيسية (أي رئيساً للأكثرية البرلمانية).

إلا أن مفاجأة جديدة حدثت في التشكيلة الائتلافية، عندما طالب الإمام الهادي بمقعد رابع إلى جانب رئاسة الوزراء في الحكومة الجديدة. وجاءت ردود فعل الحزب الاتحادي عنيفة، إذ قال عدد من قادته «إن الموقف كان يقتضي من الإمام، بعد تنازل الحزب عن رئاسة الوزراء له، أن يقبل الاتفاق الذي لم تستطع جماهير الحزب الاتحادي قبوله حتى الآن». ويعتقد الحزب الاتحادي أن التنازلات التي قدمها للإمام قد بلغت حدها الأقصى. وقد أبلغ كل من السيدين علي عبدالرحمن والشريف حسين الهندي الإمام ذلك عند اجتماعهما به. وأوضح الإمام لهما أن هذا المقعد هو في الأصل من نصيب حزبه وأنه قد تنازل عنه في السابق نزولاً عند رغبة إسماعيل الأزهري، وهو يطالب باستعادته الآن. وبالفعل أكّد الأزهري قول الإمام، لكنه أوضح أنه لا يستطيع أن يخالف إجماع الحزب في رفض طلبه.

بهذا المأزق يبدأ محجوب استشاراته. ومن المآزق الأخرى التي تواجه الديموقراطية

السودانية بعد تأليف الحكومة هي مشكلة اختيار دستور دائم خلال تسعة أشهر. فالجنوبيون يعارضون وضع دستور إسلامي، ومعهم الشيوعيون الذين يصرون على أن يكون الدستور علمانيا يحفظ الحقوق الأساسية للمواطنين كحرية التعبير والقول والعقيدة. كما أن لكل فئة تحفظات على البنود المتعلقة بها. فالجيش يعترض على طريقة اختيار قائده، والقضاة يصرون على توفير مزيد من الحصانة لهم. وبعد وضع الدستور، سيجري انتخاب أول رئيس لجمهورية السودان والأزهري هو صاحب الحظ.

معنى هذا أن ما هو آتٍ في السودان أهم بكثير مما وقع حتى الآن.

الخرطوم - (١٩٦٨/٥/٢٩)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاردن

القدس تتظاهر لعبد الناصر

بدت لي القدس، عندما وصلتها متعبة بعد معركة مفاجئة وطويلة. إنما كانت ما زالت تلهث بحماس وثاب، وكأنها تتحفز لجولة جديدة.

ولم تكن القدس منهكة فعلاً، بالرغم من كل آثار التعب البادية عليها، من منع التجول إلى مفارز الجيش ودوريات الحرس المنتشرة في كل زاوية من زوايا المدينة، حتى بقايا الأسلاك الشائكة التي اقامها الجنود على مفارق الطرق، أو نتف صور الملك الذي مزقتها الجماهير أو قصاصات العلم الأردني الذي انتزعت منه النجمة لتلصق على علم الجمهورية العربية المتحدة الجديدة نجمة رابعة!

كان كل هذا واضحاً منذ اللحظة الأولى لوصولي إلى القدس، والسيارة تنقلني من المطار إلى المدينة التي يبعد عنها أكثر من عشرة كيلومترات. إنما القدس كانت هادئة، وبدت لي تلك المدينة الأزلية غريبة جداً. مدينة التلال والقباب والأسوار والكنائس، المدينة المقدسة فارغة، مهجورة ساكنة، وكأنها على عتبة قيامة جديدة. وبدت القدس مذهلة من الترقب والقلق، والإحساس العصبي.

واستقبلتني على مشارف المدينة دورية عسكرية، أمسك أحد الجنود بتصريحي «بالمقلوب»، وحدق في وجهي وقال لي، تفضل. وتفضلت إلى القدس الحزينة، وقد هجرها آخر خبر كان يبحث عنه الصحافيون في هذه المدينة المقدسة.

ورغم ذلك فقد كان الجزء الأكبر ابرز من أن يبحث عنه صحافي. ففي مشارف المدينة وداخلها ووراء كل منعطف وعند كل ركن كانت العين تصطدم بجندي من جنود البادية. وكان هذا له معنى. إنّ هؤلاء الجنود الذين اقتصر دورهم تقليدياً على العمل في الصحراء على امتداد الحدود الأردنية العراقية يمثلون آخر خطوط الدفاع عن الملك. ولذلك، فإن استقدامهم إلى هنا يعني بأن «القضية» قد وصلت إلى مستوى في غاية

الخطورة. إن هذه القوات لم تدخل المدن الأردنية، مثلما تفعل الآن، إلا جزئياً جداً عام ١٩٥٧.

لقد كان لذلك كله دلالة كبيرة في المدينة شبه المهجورة. ولم يكن في فنادق القدس إلا عدد من السياح اختصروا إقامتهم فيها بعد منع التجول وحدوث الاضطرابات وزرع شوارعها بالجيش، وقرروا الرحيل إلى بيروت أو دمشق أو القطاع المحتل منها. ولم يكن في شوارعها إلا جنود البادية وأثواب سوداء تجلل عدداً من الرهبان، أو فلول السواح وهم يلقون نظرة أخيرة على المدينة المقدسة المهجورة.

وكان لا بد أن أبدأ الطريق من أوله! كيف بدأت التظاهرات، وكيف امتدت، وكيف اتخذت طابع العنف، وإلى أي حد تطور الوضع في الأردن من جرائها.

وكانت القدس قد أصبحت خالية من مصادر الأنباء، فالصحافيون قد غادروها إلى عمان حيث انتقلت التظاهرات إلى هناك، وحيث كان الملك يعقد مؤتمراً صحفياً، ويترقب نتائج الأحداث في قصره.

ولم يبق من مصدر إلّا المتظاهرون أنفسهم، من لم يصب منهم أو يعتقل، لينقل الصورة الحقيقية لما حدث في القدس في تلك الأيام الباسلة، كعلامة فارقة في تاريخ هذا البلد الصغير.

قال لي شاهد عيان موثوق وأحد الذين اشتركوا في التظاهرات، ونحن نعبر احد أبواب المدينة المقدسة عند الظهر، بصوت متهدج يريد أن يخفي حماسه، وعلى ذراعه آثار كدمة أصيب بها من «خيزرانة» أحد رجال الجيش: «هل تدري كم جندي يحتل القدس؟». قلت: لا. قال: خمسة آلاف جندي من مؤيدي الملك في حرس البادية أتى بهم الملك عندما فشلت قوى الشرطة في قمع التظاهرات وكبح جماحها، وعندما شعر الملك، أنها أكثر من تظاهرة عادية أو تعبير عن الفرحة بإعلان حدث معين. لقد أردناها الرصاصة الأولى لبداية الثورة!

ومضى يقول لي وهو يلحظني وأنا أتطلع إلى الدوريات الغزيرة التي لا ينقطع سيلها لحظة في ساعات رفع حظر التجول القليلة: «هل تدري أن الملك حسين لم يكن يريد أن يستخدم هذه الفرقة ـ وهذه المرة فقط، على الأقل ـ لقد كان يريد أن يثبت بأي ثمن بأن الجيش في المملكة مدين بالولاء له. إلا أنه لم يستطع».

وليس هذا الشاهد العيان هو أول من قال لي بأن كتيبة الملك طلال رفضت الأوامر واعتصمت في معسكراتها. لقد قال لي الخبر رجل قابلته في الفندق، ثم أكدته لي مصادر موثوقة في القدس وعمان.

لقد أمر الملك «كتيبة الملك طلال» بأن تتحرك لإحتلال القدس ومشارفها إلا أن قيادة الكتيبة وجنودها رفضوا ذلك واعتصمت الكتيبة في معسكراتها القريبة من الحدود. لقد رد رجال «كتيبة الملك طلال» على أوامر الملك بقولهم إن مهمتهم في الجيش العربي

الأردني هي حماية الحدود وليس حماية مبنى المحافظة في القدس. وإنهم وإن كان لا بد من إطلاق الرصاص، فسوف يطلقونه على العدو.

وبالنسبة للملك لم يكن الوقت يتسع للحوار والتفكير فاستدعى، على جانح السرعة، رجاله في حرس البادية. ولأول مرة تشهد القدس قطعاً كبيرة من هذا السلاح تجوب شوارعها لأغراض تتعلق «بالأمن»!

والتظاهرات كيف بدأت؟ قلت لشاهد عيان:

قال: خرجت التظاهرات من المدرسة الإبراهيمية في القدس ـ وهي مدرسة ثانوية ـ يديرها الأستاذ نهاد أبو غربية، وهو من الاشتراكيين المعروفين، وقد سبق أن اضطهد كثيراً في السنوات الماضية، ومن ثم اشتركت معها المدرسة الرشيدية وهي من أكبر المدارس الثانوية، وانضمت إليها المدرسة المأمونية للبنات، وخرجوا في تشكيلة ضخمة، تضم الفتيات في الوسط، يحيط بهن الفتيان بشكل نصف دائرة كحدوة الحصان، واتجهوا نحو مبنى المحافظة، الذي يقابله مبنى الإذاعة، وهم يرددون الهتافات الوحدوية ويهتفون بحياة الرئيس جمال عبدالناصر، ويضعون صورة العلم الوحدوي الجديد.

وكان قد سبق هذه التظاهرة تظاهرة طافت في شوارع القدس ولكنها كانت صغيرة سلمية من الشباب والطلاب ينشدون أغاني وأهازيج وحدوية ويحملون صور الرئيس عبدالناصر ويهتفون للوحدة العربية. وكانت تشكل نوعاً من التهنئة بالحدث التاريخي الرائع في الأقطار الثلاثة بإعلان الجمهورية العربية المتحدة. وتصدى رجال الشرطة لهذه التظاهرة الصغيرة بعنف واضح لا مبرر له، فسقط عدد من الجرحى، وتفرقت التظاهرة.

وشعرت الجماهير في اليوم التالي أن عملية استفزاز طويلة تجري ضدها عندما وجدت قوات عسكرية كبيرة بدأت تحتل مواقع المدينة، وبعد صلاة الجمعة خرجت تظاهرة ضخمة من مسجد عمر في القدس القديمة، انضم إليها واشترك فيها، عدد ضخم من الرجال والنساء والأطفال بجانب الشبان والطلاب رفعت فيها أعلام الوحدة الجديدة. واتسع نطاق التظاهرة، وجرى إطلاق رصاص في الهواء فتدخل الجيش في محاولة لقمعها واستعملت العصي والهراوات وتفرقت التظاهرة.

إلى ذلك فقد كانت الأمور ناضجة حيث اندفعت التظاهرة ـ وهي من أضخم ما عرفت القدس في السنوات الأخيرة ـ نحو مبنى المحافظة. وهناك كانت بانتظارها مفرزة ضخمة من قوى الجيش لتردّ المتظاهرين بعنف دون استعمال فعلي للسلاح. ولكن المتظاهرين استطاعوا أن يجتاحوا مبنى المحافظة وفي مقدمتهم الفتيات، ونزل محافظ مدينة القدس داود أبو غربية محاولاً تهدئة المتظاهرين، فما كان من إحدى الفتيات إلا أن أخرجت صورة للرئيس عبدالناصر ووضعتها أمام وجه المحافظ وصرخت في وجهه طالبة منه أن يقبلها. وفي وسط هياج لا مثيل له وهتافات عالية تكاد تشق السماء، لم يكن من محافظ

المدينة إلا أن قبل صورة الرئيس العربي وهنا ألقت عليه الطالبات علماً كبيراً للجمهورية العربية المتحدة بنجومه الأربعة ولففنه به.

وفي الوقت نفسه كان أحد الطلاب يصعد على مبنى المحافظة القديم وينزل العلم الأردني ليضع مكانه علم الجمهورية العربية المتحدة بنجومه الأربعة وفي هذه اللحظة سمع دوي الرصاص وسقط الطالب شهيداً من أعلى المبنى وساد هرج بين المتظاهرين. وتضاعفت الطلقات وكان الجيش يطلق رصاصه من على سطوح المباني المجاورة. وسقط المتظاهرون مضرجين بدمهم في الشوارع. واستمر إطلاق الرصاص حوالي الساعتين، ولم يتجرأ أحد على إنقاذ الجرحى المرميين خوفاً من أن يقتل برصاصة طائشة.

في الوقت نفسه كانت القدس القديمة ـ قدس ما وراء السور تغلي وخرجت تظاهرة أخرى ـ يقال إن تعدادها بلغ حوالي ثلاثة آلاف متظاهر بين أزقة ومنعطفات تلك المدينة. وقال لي أحد الرهبان الأنطونيين إنها ذكرته بالجلجلة وهو يرقبها من نافذة ديره العالية.

ولم يستطع أن يدخل الجيش في بادىء الأمر إلى المدينة ووقف عند أبوابها المختلفة، ودخل الجيش عندما سيطر على الأبواب كلها، وحاول حصر المتظاهرين في أحد الشوارع الضيقة. وهنا سمع دوي انفجار زجاجات الأسيد وقنابل مولوتوف. وابتعد الجيش قليلاً، غير أنه سرعان ما بدأ بإطلاق الرصاص وخر عدد جديد من القتلى والجرحى وتفرقت التظاهرة.

وبينما كانت المظاهرة الضخمة أمام مبنى المحافظة، انقسمت فئة من المتظاهرين واتجهت نحو الإذاعة التي تبعد بضعة أمتار عن مبنى المحافظة في محاولة للاستيلاء عليها. واقتحموا المبنى، ولم يكن فيها إلا بعض الموظفين الصغار وبعض الفنيين، وأرادوا أن يذيعوا منها بعض البيانات الوطنية، غير أن انعدام وجود مهندس بينهم ضيع عليهم هذه الفرصة. وهنا اقتحمت قوات الجيش الإذاعة واعتقلتهم.

وكان يدير العمليات من القدس عاطف المجالي، الحاكم العسكري للضفة الغربية، الذي أمر بتطويق مخيمات اللاجئين كلها حول القدس، وخاصة في الخليل ونسكوبس. أما الذي تصدى للمتظاهرين فكان العقيد محمد المطلق القائد العسكري لمنطقة القدس. أما المخيمات فقد كانت فعلاً محاصرة حصاراً حربياً، وبالإجمال اتصفت المعركة بصفات الثورة الشعبية الحقيقية فقد اقتلع المتظاهرون الأشجار من بعض الشوارع وأغلقوا المحلات التجارية ومزقوا صور الملك عن بعض السيارات ورشقوا بعض الباصات التي لم تتوقف عن السير بالحجارة، وحملوا أحد رجال الشرطة ومعه صورة للرئيس عبد الناصر وهو يهتف بحياته وحياة الوحدة وانشأوا المتاريس وأنزلوا إلى الشارع أسلحتهم.

وفرض نظام منع التجول طوال اليوم وسمح بالتجول بين الساعة الثانية عشرة ظهراً والرابعة فقط.

وغـادرت القدس بـالسيـارة في الصبـاح إلى عمـان، وكـانت سيـارات الجيش تـدور في الشوارع تعلن رفع منع التجول من الساعة الثامنة حتى الثانية ظهـراً. وفي الطريق إلى عمان، وأنا أودع أسوار المدينة المقدسة، كنت أتطلع إلى بلد صامـد رائع، مـا زال يقف في الصف الأول، يحاول دائماً أن يكوّن التاريخ في بلد ما أغناه بالتاريخ!

القدس ـ (١٩٦٣/٤/٢٩)

وعمّان تتظاهر للوحدة

في عمان كان كل شيء يختلف عن القدس لولا سيارات البدو المسلحة المتمركزة في كل زاوية من زوايا العاصمة الأردنية دلالة واضحة على أن عمان تمر في مرحلة غير عادية هذه الأيام.

وعندما تركت القدس مهجورة، بدت لي عمان، بأنها مدينة مزدحمة بالناس بشكل غريب. وكان كل شيء يتحرك في عمان، ما عدا السيارات المصفحة ومدافعها الرشاشة المصوبة في زاوية كل شارع، يحيط بها جنود البادية بألبستهم الطويلة الغريبة، وأمشاط الرصاص تحيط بصدورهم، والخناجر الكبيرة تتدلى من أحزمتهم، ومدفع رشاش يعبثون به. ومن خلال الازدحام الكبير، كان يمر رتل من السيارات المصفحة مع سيارات ميدان خفيفة تحمل مدافع رشاشة وجنوداً كثيرين، كأنها تصر على تذكير الناس، بأن هناك تظاهرات اجتاحت الوطن، ومعتقلين في السجون، ووزارة سقطت، وملكا محتارا بأمره!

كانت الضفة الغربية قد التهبت بأجمعها وكانت الفرق الموالية للملك قد احتاطت لما يمكن أن يحدث في عمان. فملأت الشوارع ونصبت الرشاشات عند الزوايا ومدافع البازوكا في أرجاء المفارق. ولكن ذلك لم يحل دون اندلاع مظاهرات صغيرة كانت تقتلع وتقمع بعنف.

تجمع بعد الظهر عدد من الشباب بالقرب من مبنى البنك العثماني وعند موعد إقفاله. وبدأوا يهتفون للملك حسين. ولكن سرعان ما انضم إليهم عدد آخر من الناس، وأصبحت تظاهرة تضم حوالي مئة شخص أو أكثر، ازداد حجمها بخروج موظفي البنك واختلاط المارة. وتحول الهتاف من يعيش الملك حسين إلى: ناصر ناصر ناصر، وحدة وحدة وحدة، وداهمتهم دورية من البدو وفرقتهم بالهراوات واعتقلت عدداً منهم. إلا أن ذلك كان علامة فارقة بأن السيل في الطريق.

وكانت التظاهرة الثانية. فقد كان الجميع يتوقع أن يخرج المصلون بعد صلاة الجمعة في تظاهرة ضخمة. وانتظرت أمام مسجد الحسين وقد طوقته عشرات من سيارات الجيش المصفحة من مختلف الزوايا، وتمركزت على السطوح المجاورة رشاشات البدو ووقف رجال الشرطة بخوذاتهم وهراواتهم ينتظرون خروج المصلين.

وعلى الرصيف المقابل وقفت مع عدد من الصحافيين والمصورين الأجانب. وقال لي أحدهم ـ لعله مصور وكالة «موفيتون» للسينما ـ:

«هل تعتقد أن مظاهرة ستخرج الآن، وهل سيطلق الجيش الرصاص أم سيستعمل العنف؟» قلت للزميل: «سيجيبونكم هم على هذا السؤال».

وجلست في مقهى شعبي مواجه للمسجد تماما ننتظر خروج المصلين. وعندما انتهت الصلاة، وبدأ الناس يخرجون من المسجد، ونزل الجيش من سياراته وأحاط بهم من

كل الجوانب. كانت هذه هي المـرة الأولى في حياتي التي كنت أتـرقب فيها مـع عشرات الصحافيين الأجانب اندلاع مظاهرة عنيفة يعرف عنها كل النـاس قبل وقـوعها ويـأخذ الجيش كل احتياطاته لإحبـاطها. حتى ليغـدو مذهـلاً سماع هتـاف واحد، صـادر عن متظاهر، وسط كل هؤلاء الجنود.

وتكاثر الناس وهم يخرجون من المسجد، وتراجعت قوات البدو قليلاً إلى الوراء، ولم يبد أن في نية المصلين التظاهر. غير أن مع خروج الناس تشكـل عبر الـرصيف تجمع كبـير من البشر بدوا كمظاهرة ممتدة وفجأة سمعت بعض الهتافات لم تعرف كلماتها من بعد. وعلت الهتـافات وهجمت قـوى الشرطة والجيش، وانتـزعت شابـاً من بـين الجمـاهـير، وأخذت تشبعه ضرباً بالأيدي وبكعب البنادق وهـو يقاوم وسـاقته إلى إحـدى السيارات المصفحـة المنتظرة، وذهبت بـه بعيداً وفجـأة طافت في الجمهـور همهمـة هي أكبـر من مظاهرة فقد كان الحادث مخجلاً!

وكان كل شيء يبدو وكأنه تظاهرة أجهضتها قـوى أضخم منها، ومنعتهـا من أن تنطلق كإرادة شعبية تريد أن تقول كلمتها. لقد اختنقت الهتافات في الزحام، وخضعت الإرادة لمنطق القوة.

وتقدم نحوي ضـابط من الجيش وبرفقتـه عدد من الجنـود يريـد منعنا من التصـوير، وجرت مشادة عنيفة انتهت بالتفاهم. والتفاهم كان يعني عدم مصادرة الكاميرات.

وحدثت أثناء التظاهرة الواقعة التالية:

«تقدم جندي ـ ولعله شاويش ـ من عدد من الشبان الواقفين على الأرصفة وصاح فيهم بعـد أن استوقفهم: «هـل أنتم طلاب؟» فقـالوا لـه: «لا، نحن تلاميـذ» فرد عليهم: إذن امشوا. وطبعا مشوا».

وضحكنا كلنا. فالأوامر كانت أن يعتقل الطلاب فقط!

وتركت عمان وهي هادئة هدوء المياه العميقة. ولكن في جو صريح من الحذر والتململ.

وأخبار عمان لم تنته بعد، فهي تلتقط أنفـاسها. وشعـوري ـ وأنا أغـادر عمان ـ بـأنها أخبار لم تبدأ بعد!

عمّان ـ (١٩٦٣/٤/٢٩)

أول حكومة تسقط

لقصة الأحداث الأخيرة في الأردن حكاية تبدأ من قبل الاضطرابات ومن قبل وزارة سمير الرفاعي وسقوطها. إن الحكاية تبدأ من الأيام الأخيرة لوزارة وصفي التل.

لقد اتضح لحكومة الأردن بعد ثورة العراق مباشرة، وفي خلال الشهر الذي عاشته حتى ثورة سورية، أن المنطقة العربية مقبلة على تغيير جذري، عليها أن تكيف نفسها وفقاً لهذه التطورات الجديدة فكان اعترافها المباشر بثورة العراق. ومن ثم حدثت ثورة سورية، فاعترف الأردن أيضاً بها فوراً، وقرر أن يحدث التغيير فعلاً!

وكان على وصفي التل أن يستقيل أولاً لأن دوره قد انتهى بانتهاء الظروف التي استقدمته ثم للأسباب التالية:

إن وجوده في الحكم كرئيس لوزراء الأردن حوالي سنة ونصف، شكل مدة طويلة من الناحية السياسية البرلمانية، وكافية لأجل أن تقيم له عداوات سياسية محلية، تلح على تغييره واستبداله برئيس جديد. فكان الإتيان برئيس آخر للوزراء عملية تفرضها اللعبة البرلمانية.

لقد حكم وصفي التل طوال فترة من أسوأ الفترات عربياً أي في أثناء المد الرجعي وخلال فترة الانفصال فاقترن اسمه بكل معالم تلك الحقبة، ولم يعد يصلح للقيام بأي تغيير في سياسة الأردن العربية فكان لا بد من أن يذهب!

وأتى سمير الرفاعي.

أما لماذا سمير الرفاعي بالذات؟ فهناك ـ هكذا تقول الأجواء في عمان ـ أكثر من تفسير.

أولاً: قال سمير الرفاعي إنه يحمل مشروع تقارب عربي تعهد بتنفيذه.

ثانياً: إن سمير الرفاعي يلتقي مع السياسية الأميركية في الشرق الأوسط وهناك من يعتقد، داخل القصر، أن لعب ورقة أميركا الآن يؤدي إلى خسارة أقل من ورقة انكلترا.

ثالثاً: إن هناك بداية لعملية «غزل» بين سمير الرفاعي وبين بعض العناصر «التقدمية الوحدوية» داخل الأردن من تلك التي يمكن لها أن تلعب دوراً بالنسبة لوضعها، مؤخراً في المنطقة.

وهكذا كان.

وجاء سمير الرفاعي بعد أن قام وصفي التل ـ قبله بمحاولة لتصفية رواسب الجو العربي حول الأردن. وتعهد الرفاعي بأن «يواصل» ما بدأه من اتصالات مع جهات «قومية»، يمكن لها أن تقدمه إلى الأحداث العربية بصورة لائقة. وأشاع الرفاعي حوله بأن علاقات «طيبة» قد قامت مؤخراً بينه وبين بعض «الجهات» القومية.

وفي الوقت نفسه كان عبدالمنعم الرفاعي مندوب الأردن الدائم في الأمم المتحدة وشقيق سمير الرفاعي يشيع ـ هو الآخر ـ بأنه قد قطع شوطاً في المساعي مع وفود عربية في الأمم المتحدة للوصول بالخلاف مع الأردن إلى نقطة «اتفاق». ومن ثم تقارب!

ولكن القضية، وراء ذلك، تبدو أوضح في الأوساط الشعبية. فكل هذه الشائعات التي أطلقها القصر والرفاعي كانت غايتها تقديم الرفاعي من جديد، وبوجه آخر وهو المعروف جيداً بأنه الباطش، شديد الرجعية. وكان قدوم الرفاعي ـ بالنسبة للأوساط النضالية ـ يعني ردة عنيفة لعام ١٩٥٧ وتمزيقاً لكل الأقنعة التي كومها القصر فوق النظام مع الاحتفاظ بقناع واحد هو أن سمير الرفاعي يأتي هذه المرة بوجه «تقدمي»!.

إن هذه المظاهرة قد دعمت بمظاهر جانبية من بينها ـ على سبيل المثال ـ إيقاف الحملات الإذاعية التي قادها صلاح أبو زيد.. ومحاولة إظهار الإذاعة بشكل «أقرب» إلى البلدان العربية المتحررة. على أن ذلك لم يكن بوسعه ـ أيضاً ـ إنقاذ الموقف!

وجاءت وزارة سمير الرفاعي نسخة مهزوزة من وزارة وصفي التل. أي حملت نفس نوعية، وإلى حد ما أسماء الشباب الذين كانوا في وزارة التل. وجاء سمير الرفاعي أيضاً وفي جيبه البيان الوزاري وهو مشروع «تقارب» عربي بل محاولة لدخول الاتحاد نفسه!!

هل كان يخطر ببال سمير الرفاعي أن وزارته سوف تسقط في البرلمان لأن الأوساط الشعبية المراقبة في عمان تعتقد أنه لم يكن يتوقع أن يقابل بذلك التجاهل المر من قبل البلاد العربية المتحررة. على أن الصورة عن سمير الرفاعي لم يكن من السهل أن تمحى بكل ذلك اليسر. فالتاريخ «الحافل» لسمير الرفاعي كان وراء كل مناوراته قاعدة كبيرة للقياس.

وهكذا تفجر الموقف في جلسة البرلمان. فخذل نواب الملك الرجل الذي اختاره الملك. وكان الخذلان رهيباً لأن البيان الوزاري الذي ألقاه الرفاعي كان صورة شبه كاملة لكتاب التكليف الملكي فالذي سقط في الواقع، هو كتاب التكليف.

وتقول مصادر عليمة في عمان إنه قد مهدت لوصول سمير الرفاعي إلى الحكم اتصالات على مختلف المستويات، أهمها علاقته بالحزب الوطني الاشتراكي الذي يتزعمه سليمان النابلسي وقرر الحزب الوطني دعم سمير الرفاعي ـ دون الاشتراك في الحكم ـ على أساس أن في نيته تحسين الجو العربي حتى أنّ حكمت المصري أحد أقطاب الحزب، قام بمساع هامة أثناء تشكيل الوزارة، وذلل عقبات كثيرة بالنسبة لانضمام بعض الأشخاص إليها. ولكن ذلك، أيضاً، لم يستطع إنقاذ الموقف!

وتم الاتفاق في القاهرة على أسس الوحدة، ووقع البيان التاريخي في ١٧ نيسان عام ١٩٦٣، وخرجت التظاهرات في اليوم التالي أول ما خرجت في نابلس تهتف للوحدة. وتبعتها القدس فهتفت للوحدة، وهتفت بسقوط سمير الرفاعي واستاء سمير الرفاعي من

ذلك، بالرغم من أنه كان مكيفاً نفسه «للجو الوحدوي»، معتقداً أنه سيصبح بطلاً يهتفون بحياته لا بسقوطه!

واشتدت التظاهرات في اليوم التالي وهي تهتف بحياة جمال عبدالناصر وبسقوط سمير الرفاعي. ووقعت المجزرة التي ذهب ضحيتها ذلك العدد الكبير من القتلى والجرحى. وتكهرب الجو في الأردن كله، وخاصة الضفة الغربية، وتوترت الأوضاع في الوقت الذي كان على سمير الرفاعي أن يقف أمام مجلس الأمة طالباً منه الثقة على أساس البيان الوزاري «الوحدوي».

إن عملية طلب الثقة عملية روتينية شكلية إلى حد بعيد، ولم يكن يخطر على بال سمير الرفاعي قط بأن وزارته سوف لن تحرز الثقة وأنه، بذلك، سوف يكون أول رئيس وزراء يسقط أمام البرلمان في تاريخ الأردن كله!

إذن، كيف، سقطت وزارة الرفاعي؟

يعتقد كثير من العناصر الوطنية في الأردن أن ذلك «المجلس» لم يكن هو بالضبط المجلس المعد لشخص مثل سمير الرفاعي. فمن المعلوم ـ هكذا تقول تلك العناصر ـ أن الملك يحضّر مجلساً نيابياً خاصاً للوزارة التي يريدها... أي أنه «يفصل» المجلس للوزارة، وكان هذا المجلس هو الملائم لدور التل وليس لدور الرفاعي.

وتمضي هذه الجهات فتقول بأن الاضطرابات التي بدأت تجتاح الأردن في ذلك الحين وسقوط الضحايا قد كان شيئاً مفاجئاً لكثير من النواب الذين كانوا على قناعة بأن الأردن إنما يتجه إلى الديموقراطية!

ولذلك لم يملكوا إلا أن يخذلوا الرفاعي. وقد كان الرفاعي بالذات الرجل الذي يستطيع أن يجمع أكبر عدد من النواب المعارضين!

على أن ذلك ليس كل الصورة. فبين «المعارضين» من النواب من عارضوا على أساس شخصي وبسبب من كراهية خاصة للرفاعي. وتقول الجهات الوطنية في عمان إن هؤلاء النفر من النواب لو عرفوا بأن الرفاعي سوف يسقط لكانوا قد صوتوا إلى جانب بيانه. فهم في الواقع لا يعارضون الملك، ولا سياسة الملك... لأنهم رجاله وأبناء «نعمته». وبالنسبة للجهات الوطنية فهم ما زالوا في مكانهم الصحيح وموقفهم «المصادف» في البرلمان لن يجعلهم في صفوف الوطنيين!.

عمان ـ (١٩٦٣/٤/٢٩)

الحبيب بورقيبة: الممثل المحترف

إن اسم الحبيب بورقيبة، أكثر الأسماء شيوعاً في تونس. ليس ممثلاً فقط في «المجاهد الأكبر» رئيس الجمهورية، أو في ابنه «بيبي» وزير الخارجية، إنما في كل بلد ومدينة وقرية، وفي كل مظهر من مظاهر الدولة في تونس. الشوارع، المدارس، المساجد، المؤسسات، كلها تحمل اسم الحبيب. ان «عبادة الشخصية» تكاد أن تكون فناً متقناً في تونس.

وفي قصره، المبني حديثاً في قرطاج «أو قرطاجة» بالقرب من العاصمة ـ وهو واحد من عدة قصور للرئيس في أنحاء الجمهورية التونسية ـ استقبلنا الحبيب بورقيبة، رئيس الجمهورية. وعندما وقف أمام باب غرفة مكتبه ليصافحنا فرداً فرداً، كان يبدو شاباً بالنسبة لسنه، في عينيه لمعان غريب، وفي حركاته حيوية أخاذة. وكان يبدو مرتاحاً، أمام أكثر من عشرين صحافياً، بل كان يبدو وكأنه سعيد.

غير أن فخامة القصر كانت تسرق الأضواء من الرئيس. وتكاد كلمة «فخامة» تكون غير لائقة، بأبهة وروعة وعظمة وأناقة القصر، من مدخله إلى ممراته إلى أثاثه، حتى سقوفه وجدرانه والتفاصيل الصغيرة الدقيقة التي تملأ كل مكان. فحرفا «ح.ب»، يتوجان كل شيء، من الطاولات حتى كؤوس الشراب. فاسم الحبيب، هو أكثر الأسماء شيوعاً في تونس!

وجلس الحبيب بورقيبة وراء مكتبه، وبجانبه السيد عبد المجيد شاكر، كاتب الدولة للأخبار والارشاد (وزير الاعلام)، ووراءه خارطة كبيرة لتونس مشغولة بالزجاج والصدف، وعلى جوانبها رفوف ضخمة من المجلدات المذهبة، وأمامه على طاولة أخرى ذكريات صغيرة ـ أو لعلها كبيرة جداً بالنسبة له ـ من أيام نضاله. صورة لنص الحكم

بإعدامه مع بصمات أصابعه ورسمه الشمسي، مؤرخ في ١٣ نيسان عام ١٩٣٨، مع حيثيات الحكم. وعدد من الشهادات المدرسية الصغيرة، وصور أخرى لأوامر باعتقاله وملاحقته وتغريمه.

وبدأ الرئيس بورقيبة معدداً الروابط التي تجمع شعوب المشرق بالمغرب، وكيف ساهموا معاً في عصور قديمة بتركيز دعامة المدنية والحضارة في البحر المتوسط. وكيف مرت علينا فترات من الانحطاط ـ في المشرق والمغرب ـ فصلت هذه الشعوب عن بعضها، في مرحلة سبقت مرحلة الاستعمار.

وقال الرئيس بورقيبة، ان فترة الاستعمار التي تلت فترة الانحطاط، كانت فترة احتلال واستثمار واذلال وتفقير ومسح شخصية وادخال في بوتقة أجنبية. غير أننا جاهدنا ـ والكلام للرئيس بورقيبة ـ لايقاظهم من سباتهم العميق، وخلقنا فيهم روح الكفاح من أجل جعل شؤونهم بأيديهم. فلا يمكن أن يتوفر لهم المجد إذا كان الحكم بأيدي غيرهم. وكانت السيادة واسترجاع الحكم، «الجهاد الأصغر» وكان يرمي إلى جعلنا مسؤولين عن مصيرنا.

وارتاح الرئيس بورقيبة على كرسيه، وكاتب الاخبار يتطلع اليه باعجاب كبير. وكان بورقيبة يعبر بواسطة يديه أكثر من أي شيء آخر. كان يحاول ان يعطي معاني للكلمات بواسطة حركات يديه وأصابعه. وكان يتكلم بعربية سليمة، يلقحها ببعض الكلمات الفرنسية، لاعطائها أبعادها التكنيكية، أو ليعبر بوضوح أكثر عما في ذهنه. وقد بلغ التمثيل عنده مستوى الاحتراف!

وتابع الحبيب بورقيبة كلامه قائلاً: ان المرحلة الكبرى ، كانت مرحلة «الجهاد الأكبر»، المرحلة التي تلت الاستقلال، وهي ماذا سنعمل في دواليب السلطة؟ كانت الأحزاب في بعض الأقطار تتلاشى وتتفكك بعد الاستقلال في تنازعها على السلطة ومتعة الحكم ومكاسبه. أما الحزب الدستوري (الحزب الحر الدستوري وقتئذ، والحزب الاشتراكي الدستوري اليوم) فقد كان من الأحزاب القليلة التي صمدت أمام الانتصار كما صمد هذا الحزب أمام الهزيمة.

فمشاكل النصر ـ أردف الحبيب بورقيبة ـ لا تقل خطورة عن مشاكل الهزيمة، وقد عرفنا هذا من خلال كفاح ٢٥ عاماً متواصلة. واليوم وقد وفقنا في اقامة دولة مستقرة، حازت على ثقة الشعب ومحبته وعرفانه بالجميل، فإننا ندخل مرحلة الجهاد الأكبر، من أجل تنسيق جهود الشعب ورفع مستواه وتمكينه من ممارسة حرياته التي كفلتها له الدساتير. ونحن اليوم في قلب المعركة حيث نعمل حسب مخطط، يستوجب الحد من حرية الفرد والملكية الفردية، وذلك من أجل فائدة الفرد، عندما نكون قد أقنعناه، أن فائدة المجتمع ككل، هي فائدته أيضاً.

وأضاف الرئيس التونسي قائلاً، ان تحويل الذهنيات، والأوضاع الذهنية للأفراد هي من أصعب الأمور، وخاصة في جو من الاقناع والفرح، وليس في جو من الضغط والارهاب

والخوف. وهذا ما تحاول أن تفعله تونس. ونحن اليوم قد اختبرنا المرحلة الانتقالية ما بين الحكم الاستعماري والحكم القومي، إذ وضعنا أسساً قوية للدولة باعتبارها وسيلة العمل، وركزنا هيبتها. فالهيبة ليست في المدافع والطائرات، إنما في نظافة رجالها وماضيهم، ونتائج أعمالهم.

وبدت دلائل النشوة على وجه الرئيس التونسي، وارتاحت يداه على الطاولة في تشابك غير عصبي، وبرقت عيناه الزرقاوان بدهاء واضح، وابتسم كاتب الدولة للأخبار من وراء نظارتيه السوداوين، وكأن رئيسه قد أدى المهمة كما يجب.

واتجه الحبيب بورقيبة من مكتبه الى طاولة صغيرة أخرى في الغرفة عليها «أوسمة جهاده»، أو ذكرياته حيث تجمهر حوله الصحافيون اللبنانيون، مما اقلق الضابط المرافق له. وكان يبدو مرتاحاً لعملية الإطباق حوله، وكان هذا يزيده استعمالاً ليديه، ولصوته بصورة خطابية بارزة.

غير أن الصفة الغالبة التي تبقى كانطباع عن الحبيب بورقيبة، هي إعجابه الشديد بنفسه، والذكاء الداهي الذي يمارسه على الجميع. فضلاً عن صفة الصراحة والغمز المستمر من قناة الآخرين ـ من دول وأشخاص ـ دون أن يأبه لذلك. من هنا تصبح النظرة العملية التي يتمتع بها، نظرة منطقية من وجهة نظر تونسية بالنسبة لعلاقته مع الدول والزعماء. فهو يرى هدفه واضحاً، ويعرف ماذا يريد، ويعلن ذلك صراحة، ولا ينساه، بل يعتبره طموحاً اساسياً، فتونس أولاً، وهذا يعني بورقيبة شخصاً وعبادة ومركزاً. فقد أصبح الرجل الذي يشخص تونس ويتقمصها اليوم. وأصبحت عبادة بورقيبة، هي تحية لتونس، وليس العكس. وقد اختلط الأمر، إلى درجة أن السؤال الذي أصبح مطروحاً اليوم، ايهما أهم، بورقيبة أم تونس؟ وأصبح الجواب، ان لا تونس بلا بورقيبة اليوم، بل ان بورقيبة أولاً!

تونس ـ (١٩٦٥/٢/١٥)

■ «أربعون» الجامعة العربية

مرت الذكرى «الأربعون» لتأسيس الجامعة العربية. ولم يدر أحد في العالم العربي ما إذا كان الواجب أن يعزي أو يهنىء في هذه الذكرى، خاصة وأن مناسبات الأتراح كاحتفالات الأفراح في هذه الأمة. فالفارق بسيط بينها سواء في الشكل أو في المضمون. وهكذا مر «أربعون» الجامعة العربية في ٢٢ آذار ١٩٨٥، من دون أن يستوقف مواطناً عربياً واحداً في طول وعرض هذا الوطن.

منذ أن أطلق انطوني ايدن، وزير خارجية بريطانيا تصريحه الشهير، عام ١٩٤٣، معلناً تشجيع بلاده (عندما كانت بريطانيا في حينه الدولة الكبرى والعراب الأكثر نفوذاً لدى الأنظمة العربية) لفكرة قيام الجامعة العربية، والعرب يعيشون منذ ذلك الحين أسرى ذلك الاستنباط البريطاني، الذي أثبت مع مرور الزمن أنه الأكثر مقاومة للمتغيرات التي عصفت في العالم العربي، والاطار الأكثر صموداً في وجه الاهمال العربي والتقصير العربي والتجاهل العربي.

بين قصر انطونيادس في الاسكندرية، وقصر الزعفران في القاهرة، وبين العام ١٩٤٣ والعام ١٩٤٥، وبين بداية محادثات مصطفى النحاس باشا، رئيس وزراء مصر مع رؤساء المشرق العربي لاقناعهم بفكرة الجامعة خوفاً من تحقيق فكرة سورية الكبرى أو وحدة الهلال الخصيب، ونهاية بمباحثات محمود فهمي النقراشي باشا، رئيس وزراء مصر الذي خلف النحاس، تم التوقيع أخيراً على بروتوكول الاسكندرية في ٢٢ آذار ١٩٤٥، من قبل ٧ دول عربية. وما زال ذلك الميثاق بعد أربعين سنة أهم وثيقة عربية في عصر ما بعد الاستقلال. وما زالت تلك التواقيع السبعة، هي التواقيع الوحيدة في تاريخ أصحابها السياسي، التي لم يندموا عليها ولم يخجلوا بها.

أربعون سنة مرت وما زالت الجامعة العربية، البيت العربي الوحيد الذي يبسط ظل خيمته الواسعة على ٢١ دولة عربية، بعضها لا يستحق أن يكون داخل حركة ذلك البيت، والبعض الآخر تركها مذنباً ولا يريد أن يعود إليها نادماً. ومنذ ذلك اليوم الربيعي الأول الذي وقع فيه ميثاق الجامعة في القاهرة، والبيت العربي يبحث عن سقف. تارةً يجده، وتارةً تنهار جدرانه تحت وطأة ثقله، وتارة أخرى يجد ذلك البيت العربي نفسه في العراء، من دون سقف ولا جدران.

أربعون سنة وأحمال الوطن العربي تلقى على ذلك البيت المتواضع البناء، الهش الأساس، الضيق الأبواب. وغرابة ما في الأمر، ان هذا البيت اتسع - على الرغم من كل ذلك - لكل أثقال وأوزار وهموم وذنوب الأمة العربية بتعقيداتها ومشاكلها وخلافاتها وحروبها. ظل البيت واقفاً. صحيح انه كان - أحياناً - من غير ابواب وأحياناً أخرى من غير سقف، إلا أنه ظل واقفاً بعناد وبالحد الأدنى من الجهد العربي والرغبة العربية والتمسك العربي. إنما في اللاوعي العربي كان هناك شعور أنه إذا ما زال هذا البيت، فإن الريح العاتية ستعصف بالخيمة العربية، وتقتلع أوتادها. وعندئذ لن يبقى للعرب

ما يأويهم، وربما لن يعادل في التاريخ سقوط تلك الخيمة إلا انهيار سد مأرب، إذ يتفرق العرب أثرها «ايدي سبأ».

العام ١٩٤٥ كان بروتوكول الاسكندرية الحد الأدنى لجمع الشمل العربي. وفي العام ١٩٨٥، ما زال ذلك الميثاق بتعديل أو من غير تعديل، هو الحد الأدنى لجمع الشمل العربي. أربعون سنة والحلم بدور طليعي للجامعة العربية يتكسر أمام الواقع العربي. أربعون سنة ومشاريع الوحدات من ثنائية وثلاثية وتعاونية واندماجية واقليمية تسقط في بحر التجربة وفي آلم الخيبة. ومعها تسقط أحلام جيل عربي بكامله، وتنتحر أحلام الوحدة العربية أمام الردة الاقليمية والقطرية، وتنهزم الافكار القومية في وجه موجات التعصب الطائفي والشرذمة القبلية.

ويتطلع المواطن العربي إلى الوراء أربعين سنة. فيرى كم كان الأمس أفضل من اليوم، وكم أن البارحة ستكون أفضل من الغد، ويتأكد له أن أمته العربية لم تكن أحوج إلى الوحدة ـ في الموقف وفي الاستراتيجية وفي المواجهة ـ مما هي عليه اليوم. ويدرك لماذا فشلت هذه الأمة في أن تبني مدماكاً واحداً في صرح هذه الجامعة، ويتأكد له أن التيه العربي لم ينته في الأربعين سنة الأولى، وأن التيه القادم أفدح وأقسى.

تونس ـ (١٩٨٥/٣/٣٠)



الجزائر

■ عثمان هدهد:
كنز الحرب الضائع

أضاعت خمس رصاصات قاتلة في مدريد في كانون الثاني عام ١٩٦٧، ثروة تقدر بحوالي الستين مليون فرنك سويسري، بعد أن اغتالت الزعيم الجزائري المعارض السيد محمد خيضر في أحد شوارع العاصمة الاسبانية. وفي اللحظة التي سقط فيها خيضر قتيلاً، بدأ البحث عن «كنز الحرب الجزائرية» وقد مات حارسه.

ومن مدريد الى الدار البيضاء، ومن الجزائر الى جنيف، ومن بيروت إلى طوكيو كانت علامات الاستفهام تلاحق «جريمة الملايين» مع حكومة بومدين وزعماء المعارضة الجزائريين، وورثة خيضر الشرعيين، بينما كانت اصابع الاتهام تشير إلى أكثر من مصدر يقف وراء الجريمة، وإلى أكثر من عاصمة ـ بينها بيروت ـ تخبىء ملايين الفرنكات الضائعة.

لنحاول أن نكشف اليوم عن مصير «كنز الحرب» الضائع، ونروي القصة منذ مراحلها البدائية، مستندين الى معلومات مصدر مصرفي عربي كبير في جنيف مثل دوراً بارزاً في القضية، مر في بيروت أمس وغادرها صباح اليوم. وكان هذا المصدر المصرفي العربي أحد الذين مثلوا دوراً في تحويل الأموال التي كانت بحوزة خيضر من البنك التجاري العربي في جنيف، إلى بنوك أخرى خارج سويسرا، قبل أن تضع الحكومة السويسرية يدها بساعات قليلة على حسابات خيضر في الرابعة من بعد ظهر يوم ١٤ تموز عام ١٩٦٤، بناءً على دعوى مستعجلة رفعتها الحكومة الجزائرية في سويسرا مطالبة بحجز الأموال.

ولكن علاقة خيضر بالأموال تبدأ قبل ذلك التاريخ بكثير. فقد كان خيضر مع بن بيلا من

ضمن الأشخاص الذين سطوا على دائرة البريد في مدينة الجزائر عند بداية الثورة عام ١٩٥٤. وأودعت الأموال التي وجدت في دائرة البريد وقتئذ بحوزة خيضر لأنه أقرب الثوار فهماً بالأرقام، نظراً لعمله السابق كجاب في شركة ترام الجزائر. وكانت جبهة التحرير الوطني الجزائرية في طور النمو. واستلم خيضر المهمات المالية فيها، وأصبح المفوض صاحب التوقيع بالقبض والدفع، حتى أصبح أميناً عاماً للجبهة عام ١٩٥٣، وبقي حاصراً المهام المالية بشخصه. وجاء الاستقلال وعين خيضر وزير دولة مسؤولاً عن حزب جبهة التحرير. وبقي المسؤول عن أموال الجبهة حتى انفصاله في حزيران عام ١٩٦٤ بعد خلاف بينه وبين الرئيس الجزائري السابق بن بيلا.

وعام ١٩٥٩، كانت أموال جبهة التحرير والتبرعات التي كانت ترد إليها قد تراكمت في بنوك سويسرا العديدة. وتقرر ايداع هذه الأموال كلها في حساب واحد في «أونيون بنك دو سويس» في جنيف باسم جبهة التحرير. وكان خيضر صاحب حق التوقيع الوحيد. وكان قد تأسس في جنيف عام ١٩٥٨ «البنك التجاري العربي»، بأموال سورية - لبنانية - سويسرية. وكان بين أعضاء مجلس ادارته السيد فرنسوا جونو، والسيد زهير مردم بك المدير العام للبنك.

في ذلك الوقت كان خيضر مع بن بيلا وبقية الزعماء الجزائريين الستة، سجيناً في فرنسا، بعد حادث خطفهم من الطائرة التي كانت تقلهم من الرياض إلى تونس في ٢٢ تشرين الأول عام ١٩٥٦. وكان جونو من القلائل الذين كانوا يزورون الثوار الجزائريين في السجن، مع محاميهم الفرنسي السيد انطوان هافز، ومرات كثيرة بدونه، حيث كان يقوم بدور الوسيط بين الثوار داخل السجن والثوار في الخارج، وبين الحكومتين الفرنسية والسويسرية من جهة، والثورة الجزائرية ككل من جهة ثانية.

وفرنسوا جونو عضو سابق في الحزب النازي السويسري، وله صداقات واسعة وحميمة مع العرب والجزائريين ومن أكبر المناهضين للصهيونية في أوروبا، ويتمتع بنفوذ قوي في الأوساط السويسرية والفرنسية، كناشر (أول من نشر أوراق غوبلز بعد الحرب) ورجل أعمال كبير واقتصادي. وبحكم هذه الصلات اصبح جونو مستشاراً اقتصادياً غير رسمي لجبهة التحرير داخل السجن، كما أصبح هافز محامي الحكومة الجزائرية فيما بعد ومحامي البنك التجاري العربي في الوقت نفسه. واستطاع أن يقنع صديقه خيضر داخل السجن، أن ينقل أموال جبهة التحرير من المصرف السويسري إلى المصرف العربي المؤسس حديثاً، نظراً لوجود جونو في عضوية مجلس ادارته وقدرته المباشرة في الاشراف على أموال جبهة التحرير. فضلاً عن الخدمات التي كان قد أداها البنك التجاري العربي للثورة الجزائرية، كعدد من صفقات الأسلحة التي كانت تتم عن طريقه والتحويلات المالية للثوار المشتتين. وانتقلت الأموال بواسطة جونو، وبتوقيع من خيضر، من «أونيون بنك دو سويس» الى البنك التجاري العربي في أواخر عام ١٩٥٩.

ولكن دور جونو لم ينته هنا. حتى جاء الاستقلال، وكان جونو من الذين هيأوا لمؤتمر

«ايفيان»، وأقنع الحكومة السويسرية، بما لديه من نفوذ عندها، بتزويد المتفاوضين الجزائريين بطائرات الهليكوبتر وفتح الحدود، وتولى عملية العلاقات العامة لها في أوروبا. إلى أن وقع الخلاف الحاسم بين خيضر وبين بيلا في صيف عام ١٩٦٤، وكانت الأموال ما زالت بأوضاعها القانونية القديمة في البنك التجاري العربي، وخرج خيضر من الجزائر ليعلن عن انه سينفق هذه الأموال التي تبلغ الستين مليون فرنك سويسري في معارضة حكومة بن بيلا. وانحاز جونو إلى جانب خيضر.

وتحركت الحكومة الجزائرية بالبطء القانوني التقليدي للمطالبة بالأموال التي باسم الجبهة - وليست باسم خيضر - على أساس أنها اليوم ملك الحكومة الجزائرية. وفي ٧ تموز عام ١٩٦٤ بدأت الحكومة الجزائرية محاولات جدية لاقناع سلطات جنيف بضرورة الكشف على حسابات خيضر وجبهة التحرير وتجميدها. ودخلت القضية مرحلة أخرى من التعقيدات القانونية حول قانون سرية المصارف السويسري. و«شم» خيضر عن طريق صلته الوثيقة بالبنك أن الحكومة السويسرية قد ترضخ للطلب الجزائري، فتقدم في صباح ١٤ تموز عام ١٩٦٤ بطلب سحب أمواله من البنك التجاري العربي في جنيف.

وسأترك هنا للمصدر المصرفي العربي الكبير ان يحدثنا عن ذلك اليوم، قال: «دخل خيضر الى البنك الساعة العاشرة صباحاً وطلب سحب الستين مليون فرنك التي كانت في حسابه وتحت سلطته القانونية. وبعد مقابلة قصيرة مع مدير البنك تم سحب ٤٠ مليون فرنك بشكل ٤٠ شيكاً من شيكات البنك التجاري العربي. وكان كل شيك بمليون فرنك وباسم «عثمان هدهد». وعثمان هدهد هو أحد حراس خيضر ومعاونيه. وحول العشرين مليون فرنك الباقية باسمه بواسطة «التلكس» الى «أونيون بنك دو سويس» في جنيف. وأبقى ١٠٠ ألف فرنك فقط في حسابه الجاري وباسمه في البنك التجاري العربي. وكانت هذه الشيكات من النوع العادي التقليدي الذي يقبض من اي بنك أو يودع في أي حساب. وكان الشيك - كالعادة - يحمل توقيعين من قبل البنك، هما توقيعا رئيسي الأقسام المعنية في هذا الموضوع. (وكان مصدري أحد الشخصين اللذين وقعا على هذه الشيكات).

وانتهت المعاملة الساعة الثالثة بعد الظهر. وفي الساعة الرابعة أصدر روجيه دوسيه قاضي التحقيق في جنيف أمراً بتجميد أموال جبهة التحرير وأموال خيضر المنقولة وغير المنقولة. وطلب الكشف على حسابات خيضر وتفتيش البنك. فوضع البنك التجاري العربي جميع التسهيلات بتصرف قاضي التحقيق.

واكتشف دوسيه أن المعاملة تمت قبل ساعة من صدور قراره وأن التحويل تم بالفعل. لكنه لم يقتنع، ولم تقتنع الحكومة الجزائرية من ورائه، ان البنك كان عنده من السيولة ما يمكنه أن يدفع او يحول ٤٠ مليون فرنك في أقل من خمس ساعات. وأوقف قاضي التحقيق أحد رؤساء اقسام البنك والموقع على الشيكات لمدة ٢٤ ساعة بتهمة اخفاء معلومات حسب ما يسمح به القانون السويسري، معتقداً أن الأموال ما زالت في البنك.

وطلب دوسيه أن يجتمع بـزهير مـردم بك مـدير البنـك وأعضاء مجلس الادارة، الـذين أكدوا أن الأموال قد تحولت فعلاً وانها ليست بحوزة البنك، وقد تم ذلك قبـل أن يصدر الأمر بالقاء الحجز عليهـا وتجميدهـا وطلب قاضي التحقيق من المـدير أسمـاء أصحاب الحسابات «المرقمة»، فرفض مردم هذا الطلب، باسم قـانون سريـة المصارف. واعتقـل دوسيه مردم لـمدة أسبوع، ثم أفـرج عنه بعـد ثبوت بـراءته. وأقـام مردم دعـوى على الحكومة السويسرية مطالباً بمبلـغ كبير من المـال، كعطل وضرر، في الـوقت الذي كـانت دعوى الحكومة الجزائرية مستمرة.

وعـاد دوسيه في تشرين الأول عـام ١٩٦٤ وطلب تفتيش البنك من جـديد. ووجـد قاضي التحقيق هذه المرة أن أربعة حسابات «مرقومة» قد دخلها ٢٠ مليون فرنك وخرج منهـا ٢٠ مليون فرنك بشكل مجزأ خلال خمسة أيام. وطلب دوسيـه من البنك أن يكشف عن أسماء أصحاب هـذه الحسابـات، فرفض البنـك. ولم يستطع قـاضي التحقيق أن يدعم طلبـه قانـونياً. واستمـرت الدعـوى، حتى نيسان عـام ١٩٦٦ حين بـرأ قاضي التحقيق السـويسري خيضر من تهمة «اسـاءة استخدام امـوال الجبهـة»، ورد طلب الحكـومـة الجزائرية. وربح خيضر والبنك الدعوى على أساس أن جبهة التحرير ـ وهـو أمين عـلى أموالها ـ ما زالت قائمة، وأن خيضر لا يعترف بالحكومة الجزائرية.

في هذه الأثناء، وطوال الأشهر المـاضية دارت أمـوال خيضر دورة كاملـة، كان أولهـا في المـانيا حيث قبض خيضر شيكـات البنك التجـاري العربي من بنـك «أوف أمـيركـا» في دوسلدورف، بعد أن جـيرها لـه عثمان هـدهد (وكـان مسؤول في «بنك اوف أمـيركا» في فرانكفورت قد ذكر لصحيفة «الصنداي تايمز» اللندنية، ان خيضر قبض شيكات مجيرة الى اسمه من أحد فروع البنك في المانيا). وكان طموح خيضر أن يستقر في المانيا ويضع امواله هناك، بعد أن طلبت السلطات السويسرية منه مغادرة البلاد في تشرين الأول عام ١٩٦٤ أي عند التدقيق الثاني في حسابات البنك التجاري العربي، بتهمة قيامـه بنشاط سياسي غير مشروع. ولكن الحكومة الألمانية رفضت طلبه، فحمل خيضر أمـواله وحـاول أن يـدخل فـرنسا، ولكن الحكـومة الفـرنسية رفضت طلبـه ايضاً. وتـوجـه خيضر الى اسبانيا. وهذه المرة قبل طلبه».

وعدت أسأل مصدري، المصرفي المطلع عن المكان المحتمل لوجود الأموال. قال المصدر:

□ على الأغلب أن الأموال موزعة بين مدريد ولندن وطوكيو. ولكن الجزء الأكبر منهـا في اسبانيا. والسبب في ذلك أن جونو، المستشار والصديق المقرب لخيضر والنازي السابق، على علاقة وثيقة بالاسبان ومن المقربين إلى جماعة فرانكو، وقـد توسط لخيضر فمنحتـه اسبانيا حق اللجوء السياسي وضمانات على حياتـه (لم تنفع) وعـلى أموالـه كما وعـدته بأنها لن ترضخ لأي ضغط من الحكومة الجزائرية لتسليمه او تسليم أمواله. ويومها لم تكن عنده أموال تذكر في سويسرا.

ـ والأموال، ما زالت كما هي من دون زيادة أو نقصان طوال السنوات الماضية؟

سألت المصدر

□ لا. أعتقد ـ قال المصدر ـ ان ستين مليون فرنك قد أصبحت أربعين مليون فرنك، لأن خيضر صرف على جبهات المعارضة المتعددة طوال هذه السنوات واستنفذ هو شخصياً جزءاً كبيراً منها.

ـ والـ ١٠٠ ألف فرنك التي بقيت في حسابه الجاري في البنك التجاري العربي؟

□ حتى هذه سحبها بعد أن برأته المحكمة.

ـ واحتمال وجود جزء من هذه الأموال في بيروت، كما ذكرت مجلة «الاكسبرس» الفرنسية؟

□ اعتقد أن هذا مستبعد، بل أكثر من ذلك، غير صحيح. فخيضر لم يكن يخطو خطوة واحدة من دون استشارة جونو وكان خيضر يتفادى أن تكون له علاقة مالية مع أية دولة عربية لأنه لا يثق بمصارفها وسريتها. فضلاً عن أن جونو لا يمكن أن يكون قد نصحه بأي من البنوك اللبنانية، وخاصة بنك انترا، إذا كانت الاشاعة تهدف إلى هذا، لأن جونو ـ وخيضر الى حد ما ـ كان يعرف يوسف بيدس معرفة شخصية وكان يكرهه. يضاف إلى ذلك أن جونو كان عضواً في مجلس ادارة بنك عربي يعتبر منافساً لانترا، أو أي بنك لبناني آخر في هذا المجال، وعلى علم صحيح بأوضاع انترا المادية، فلا يعقل أن يكون قد نصح خيضر بايداع أمواله في العاصمة اللبنانية.

وفي الوقت نفسه كنت قد سألت عدداً من العاملين في المصارف الأجنبية في لبنان، والذين هم على اطلاع على مجريات الأمور، عن امكان وجود جزء من أموال خيضر في بيروت، فاستبعدوا هذا ونفوا علمهم بوجود أموال جزائرية ـ باسم الجبهة أو باسم خيضر ـ في أحد بنوك العاصمة.

بقيت النقطة الأساسية في قضية «كنز الحرب» الضائع، وهي: من يرث هذه الأموال، وما هو مصيرها، إذا تحدد مكانها في أي بلد من البلدان التي ذكرت؟

أجاب المصدر المصرفي على سؤالي بقوله: السؤال الأهم الآن هو: هل الأموال ـ أو جزء منها على الأقل ـ ما زالت باسم جبهة التحرير أم باسم خيضر؟ إذا كانت باسم خيضر فإنه يحق لورثته الشرعيين حسب قوانين البلد الذي توفي فيه أن يرثوها كلها. ويحق لأي شخص يحمل شيكاً بتوقيع خيضر بتاريخ سابق لوفاته ـ طبعاً ـ أن يقبضه. كما يحق لأي شخص يحمل تفويضاً من خيضر بمبلغ معين أن يقبضه أما الذي يحمل وكالة عامة أو تفويضاً كاملاً، فلا يحق له أبداً التصرف بهذه الأموال، أو قبض أي جزء منها.

اما إذا كانت هذه الأموال ـ أو جزء منها ـ ما زالت باسم جبهة التحرير، فيجب تحديد الصيغة القانونية لجبهة التحرير.

أولاً: هـل هناك شيء اليـوم اسمه جبهـة التحريـر، ومن يمثل هـذه الجبهة، الحكـومـة الجزائرية أم المعارضة.

ثانياً: هل الحكومة الجزائرية ـ حكومة بومدين اليوم وحكومـة بن بيلا من قبلهـا أو أية حكومة أخرى من بعد هذه ـ هي الوريث الشرعي الدائم لجبهة التحرير، وكيف ولماذا؟

ثالثاً: إذا كانت المعارضة هي جبهة التحرير اليـوم، أو صاحبـة الحق في أموالهـا، فأي جناح من أجنحة المعارضة الثلاثة ـ أو ربما الأربعة ـ هو الوريث الشرعي الحقيقي؟

بيروت ـ (١٩٦٧/١/١١)

يوسف بيدس:
شهود الأيام الأخيرة

إذا كان لا بد لقصة يوسف بيدس أن تنتهي في مكان ما، فإن لوسين كانت، حتماً، آخر الأمكنة التي أراد لها صاحبها أن تنتهي فيها. وإذا كان لا بد للمغامر أن يستريح في وقت ما وفي مكان ما، فإن سجن لوسين المركزي ليس المكان الذي تمنى يوسف بيدس أن يمضي فيه عيد الميلاد المقبل. حتى لوسين نفسها، المدينة السويسرية التي تنام في الشتاء من البرد ومن قلة السياح، لم تكن تحلم بسجين بهذه الأهمية بين جدرانها.

قصص كثيرة وروايات مختلفة متضاربة رويت عن اعتقال بيدس، بعضها استسلم للخيال، وبعضها استرسل بدافع التشفي، والبقية الباقية انساقت وراء الشائعات. لكنني رحت وراء القصة الحقيقية أبحث خلال ٦ أيام من التحقيق المضني بين جنيف وبرن ولوسين وبالعكس، عن أبطالها الحقيقيين وعن خيوطها التي تربطها بعضها ببعض، محاولاً أن اصل إليها من أولها.

لكن قصة اعتقال بيدس لا تبدأ من اليوم الأول الذي أعلنت فيه شرطة لوسين رسمياً عن اعتقاله، الاثنين ٢٧ تشرين الثاني عام ١٩٦٧، إنما من يوم الأحد ١٩ تشرين الثاني، عندما دخل بيدس، في اعتقاد السلطات، الأراضي السويسرية، الى حين اعتقاله يوم الخميس ٢٣ تشرين الثاني أمام مبنى البريد المركزي في لوسين. وقد تأخر الاعلان الرسمي لاعتقاله ٤ أيام ـ أي من الخميس ٢٣ إلى الاثنين ٢٧ ـ حتى تأكدت شرطة لوسين من هويته الحقيقية، وهو اجراء يبدو انه متعارف عليه في سويسرا.

الشاهد الأول

وبطل القصة الحقيقي لم يكن يوسف بيدس، بل شيء آخر اسمه «الصدفة» أو «الحظ»

أو ما سماه العرب «ساعة التخلي». وللقصة أكثر من ٤ شهود ـ ما عدا بيدس نفسه ـ ظللت استصرحهم وأسألهم ساعات طويلة خلال الأيام الستة. وكان الشاهد الأول والمصدر الحقيقي الوحيد لعملية الاعتقال، ضابط التحري العامل في شرطة لوسيرن الجنائية والخبير الاختصاصي بشؤون التزوير، جون هرزيك (٤٣ سنة، يجيد لغات عديدة، عازب) الذي روى لي خلال ٤ ساعات بعد ظهر الثلاثاء ٥ كانون الأول عام ١٩٦٧، القصة من بدايتها.

باشر هرزيك، بعدما قابلنا معاً رئيس شرطة لوسيرن الجنائية الدكتور هانس شرايبر واستحصل على اذن منه بالتحدث إلى صحافي من لبنان جاء خصيصاً ليسمع القصة منه، وهو شاعر بأهميته وأهمية السجين الذي في عهدته.

وجلسنا، أنا وهرزيك، وحدنا في غرفة الانتظار في مبنى شرطة لوسيرن المركزي. وهي غرفة رمادية واسعة فيها مقاعد مريحة وطاولة اجتماع طويلة حولها كراس، وعليها مجلات عديدة، وفي جدرانها رفوف عليها كتب مختلفة، بما في ذلك قواميس وموسوعة ومراجع قانونية، لا توحي أنها غرفة تستعمل للتحقيق أيضاً، إلا أن بابها يغلق من الخارج، وفيها ساعة كهربائية وشارة كهربائية تضيء اسم الشرطي المطلوب ورقمه. ولعلها تبدو إلى حد ما غرفة انتظار في عيادة طبيب.

قال هرزيك: «بعد ظهر الخميس ٢٣ تشرين الثاني اتصل بالشرطة أحد المواطنين وقال انه شاهد في الصباح سيارة أميركية ضخمة أمام مبنى البريد المركزي في لوسيرن، وحولها ٣ رجال وسائقها في داخلها ومحركها دائر، وهو يخشى أن تكون هناك عملية سطو على مبنى البريد أو أحد المصارف التي حوله لأنه عاد بعد ٣ ساعات ووجد وضع السيارة كما رآه من قبل، والأشخاص الثلاثة حولها والسائق وراء المقود كأنه يستعد للاقلاع بها في أية لحظة... ومن عادة المواطنين في لوسيرن أن يتعاونوا كثيراً مع الشرطة، وغالباً ما تصلنا مكالمات من هذا النوع من مواطنين شاهدوا عمليات سطو أو سرقة أو خطف. لذلك كانت هذه المخابرة من النوع الروتيني الذي نتلقاه باستمرار.

«وهرعت مع زميلي ضابط الشرطة جوزف ستادلمان، في سيارة من سيارات التحري العادية (فولكسفاكن صغيرة سوداء مجهزة بلاسلكي، وليس فيها ما يكشف أنها من سيارات الشرطة) إلى المكان الذي دلنا عليه أمام مبنى البريد، فوجدنا سيارة أميركية كبيرة سوداء من طراز لينكولن مقفلة وواقفة وليس فيها أو حولها أحد. وانتظرت أنا وزميلي ستادلمان حوالي الساعة نراقب السيارة من على بعد معقول... حتى جاء رجل أنيق المظهر يرتدي معطفاً أسود، حاملاً معه أغراضاً مشتراة، كأنه كان يتبضع. وحاول فتح باب السيارة، وكانت الساعة قد قاربت السادسة مساءً، فتقدمنا منه، وقلنا له: «نحن من الشرطة»، وأبرزنا له بطاقتينا، فمد يده إلى جيبه وأبرز لنا بهدوء تام جواز سفره، كما هي الحال في هذا الوضع. وأمسكت بجواز السفر، فإذا هو برازيلي، فسألته بالبرتغالية ـ مفترضاً ـ: «هل تتكلم البرتغالية سيدي؟».

(وهرزيك يتكلم الألمانية والفرنسية والايطالية والانكليزية والاسبانية والبرتغالية).

وكأنه فهم ما قلت، فرد عليّ بانكليزية سليمة:

ـ «انا لا أتكلم البرتغالية. لقد ولدت فقط في البرازيل، وعندما كان عمري أربع سنوات جئت إلى بريطانيا حيث تلقيت تعليمي وبقيت».

وتابع هرزيك: «ورأيت ان انكليزيته ليست انكليزية الانكليز مئة بالمئة ـ فقد درست أنا في بريطانيا سنة كاملة ـ لكنني لم أقل شيئاً. وتطلعت في جواز سفره، وكان يحمل اسم جوزيه كارلوس كوري، ومهنته تاجر. فسألته أي نوع من التجارة يتعاطى؟ فأجاب: «تجارة الجلود الوحشية، كجلد النمر والفرو». وعدت أسأله إذا كان يعرف أياً من تجار او وكالات المجلود في لوسيرن. فرد انه وصل تواً بعد ظهر اليوم من المانيا، وأنه وحده، ولم يقابل ولا يعرف أحداً.

«وعدت أدقق في جواز سفره البرازيلي ـ ونحن ما زلنا وقوفاً أمام السيارة ـ فبدا لي أنه جواز صحيح صادر عن برازيليا، إلا أنني شككت بالختم الذي على حافة الصورة، لأنه غير مطبوع بكامله على بقية زاوية الصفحة، كما هي العادة. ومثل هذا يحدث غالباً، ولا يشكل اثباتاً على عدم صحة الجواز. لكن عناصر الشك كانت تجمعت عندي، وهي: عدم اجادته البرتغالية، الاشتباه بجواز السفر، واصراره على أنه وحده وأنه قدم من المانيا اليوم. وكان التأكد من السبب الثالث صعباً، لأن السلطات السويسرية لا تختم جوازات سفر القادمين اليها من أوروبا براً، إلا إذا طلبوا منها ذلك. فسألته أن يأتي معنا إلى المكتب».

وأضاف هرزيك: «وفي المكتب عاد الى اصراره على أنه برازيلي اسمه جوزيه كارلوس كوري وأنه قدم من المانيا. وطلبنا تفتيشه، فوجدنا في جيوبه بطاقات هوية عدة عليها صورته وتحمل اسم يوسف بيدس. واحدة برازيلية صادرة عن برازيليا، وأخرى هوية مكسيكية صادرة عن سفارة المكسيك في بيروت، وبطاقات غيرهما باسم يوسف بيدس أيضاً تحمل لقبه كمدير لبنك انترا. وتلقائياً في مثل هذه الحالة، بحثنا في ملفاتنا عن اسم بيدس، فرأينا أنه ملاحق من الأنتربول بناءً على طلب من الحكومة اللبنانية. وعندئذ فقط، وكان مر أكثر من ساعة على استجوابه في المكتب واصراره بثقة على شخصيته البرازيلية، اعترف بيدس بهويته الحقيقية. فاعتقلناه، وأعلمنا الأنتربول فوراً. وبعد يومين جاءنا تأكيد من الأنتربول أنه بيدس المطلوب.

«وأثناء تفتيشنا له، عثرنا في جيوبه على ٧ آلاف دولار نقداً، وحوالي ألف فرنك سويسري نقداً أيضاً. وفي الحقيبة الوحيدة التي في السيارة، لم يكن إلا ملابسه العادية وعدة حلاقة وتوابعها. ومضت ثلاثة أيام فاتصل بنا فندق «شاتو غوتسش» في لوسيرن وقال ان رجل أعمال أميركياً لم يعد الى الفندق منذ ثلاثة أيام، وقد ترك حقائبه. فأدركنا أن من المعقول أن يكون بيدس. وعند تفتيشنا للحقائب الثلاث في الغرفة، عثرنا على أوراق باسم يوسف بيدس وملفات لها علاقة ببنك انترا، وعلى مجوهرات، من خواتم

وأساور وأقراط، غير مستعملة وملفوفة بأغلفتها، ومـا زالت أوراق الأسعار معلقـة فيها. كما وجدنا عدداً كبيراً من الشيكات السياحية والخاصة. (تقدر بعض المصادر الخاصة المقربة من بيدس في جنيف قيمتها بأكثر من ٣٠ ألف دولار). وعثرنا أيضاً على مفـاتيح لصناديق حديدية عديدة، ومـلاعق وشوك وسكـاكين تحمـل علامـات فنادق مختلفـة في أوروبا».

وتابع هرزيك: «وأعدنا فتح التحقيق مع بيدس لسؤاله عن المجوهرات الجديدة. فقال ان الشيكات هي له وان المجوهرات اشتراها من بيروت منذ سنوات وهي لزوجته. اما لمـاذا احتفظ بـأوراق الأسعار عليهـا، فلكي يعرف قيمتهـا دائماً إذا احتـاج أن يبيعها. أمـا الملاعق والشوك والسكاكين، فهي هدايا تذكارية «سوفنـير» من الفنادق التي كـان ينزل فيها. وعاد فأقر أنه كان مقيماً في هذا الفندق، وأنه مرت أربعة أيام وهو في لوسيرن قبل أن يعتقل. إنما أصر على أنه وحده ولا يعرف أحداً، وأنه قدم من المانيـا. لكن، في ضوء اقوال بيدس الجديدة، والتراجع والتناقض عن ومع الكثير الذي قاله من قبل، كان لا بد لنا أن نفترض أن المجوهرات مسروقة، وخاصة أنه لا يذكر اسم المحلات التي اشتراها منها. وما زلنـا نوالي تحقيقـاتنا في المـوضوع، رغم تـأكيد زوجتـه، ان المجوهـرات هي ملكها، لأن هذا اجراء قانوني لا مفر منه. أما الشـوك والسكاكـين والملاعق فهي حتماً غير مسروقة ولا تستحق الاهتمام. وبيدس غير متهم بالسرقة، على عكس ما ذكر في بعض الصحف، انما التحقيقات تجري لمعرفة مصدر هذه الموجودات.

«أما التهم الموجهة إليه من السلطات السويسرية فهي الدخـول إلى البلاد بطـريقة غـير قانونية (وكان قد منع من دخول سويسرا منذ حوالي سنة، إثر صدور تعميم الأنتربـول، ولأسباب لم يستطع أحد أن يفسرها لي)، بجواز سفر مـزور. وهي تهم عقوبتهـا خفيفة، لا تتجاوز في أسوأ الحالات غرامة ضئيلة».

واستراح هرزيك على كرسيه الى رأس الطاولـة، وقد انتهت روايتـه. فسألتـه إذا كان بيدس أهم شخص ألقى القبض عليه حتى الآن فأجاب: «خلال ٢٣ سنة من الخدمة في الشرطة يمر العديد من الحوادث على المرء. لكن بيدس كان أهم «صدفة» مرت عـليّ. ولا شك أن اعتقاله أثار اهتماماً في الخارج اكثر مما كان يخطر على بالي». وأخذني هـرزيك ليريني سيارة بيدس في كاراج المركز، وهي تحمل رقم ولاية نيو جرسي. «N.J. JZA-617» «Garden State» وما زالت اعداد ـ «التايمس»، «تايم»، «الهـيرالد تـريبيون» ـ الصـادرة يوم الخميس ٢٣ تشرين الثاني الفائت، على مقعـدها الأمـامي ورفض هرزيـك أن التقط صـورة له، مـع السيارة، قـائلاً: «لا تصـورني، فأنـا ضـابط تحـر، يجب أن لا يعـرف المجرمون صورتي، وإلا ما الفائدة».

وسألت هرزيك وأنا أودعه، كيف تصرف بيدس عندما اعتقـل وانكشف أمره؟ فـرد وهو يضغط يـدي: «كجنتلمان. ارتـج عليـه لبعض الـوقت ودهش. انمـا كجنتلمـان لا شيء معيباً». وأضـاف وهو يرافقني الى الباب: «أتمنى أن أزور لبنان، ليس بـرفقة سجـين في

اهمية بيدس. لقد سمعت عن عجائب الأب شربل. هل هي صحيحة؟ إنني أريد زيارة ديره. لكن ليس برفقة مستر بيدس. ربما قريباً، من يدري؟».

■ الشاهد الثاني

ومن «الصدفة» إلى «الحظ» حتى «ساعة التخلي» التي دفعت بيوسف بيدس إلى اختصار طريق الهرب الطويلة عبر سجن لوسين المركزي، كان الشاهد الثاني محامي بيدس في لوسين الدكتور كيسلين يروي لي طرفاً آخر من القصة. وفي مكتب متواضع ذي فوضى غريبة من الأوراق والكتب والمطبوعات، جلس كيسلين، وهو رجل في الخمسين، بدين، له شخصية محببة قريبة من القلب، يدخن سيكاراً غليظاً، ليحدثني عن «الزبون» الجديد الذي جاءه بغتة، دون سابق انذار، لينفجر أهمية في أيام قليلة بعد افصاحه عن شخصيته.

قال كيسلين: «إذا جئت لتسألني عن كيف اعتقل يوسف بيدس، ولماذا، فأنا لا أعرف أكثر مما نشر أو قيل. اذهب واسأل الشرطة عن ذلك. أما إذا جئت لتسألني عن الوضع القانوني، فأقول لك ان السلطات السويسرية، وبالتالي سلطات لوسين، لا تملك اتهاماً ضده. وفي أقصى ما تحمله تهمة دخول البلاد بجواز سفر ـ لم يثبت أنه مزور ـ يحمل اسماً غير اسم صاحبه الحقيقي، هو غرامة مالية ضئيلة. لكن السلطات الفيدرالية السويسرية، بناءً على طلب من الحكومة اللبنانية لاسترداده، تحقق بواسطة سلطات لوسين القضائية، في التهم الموجهة إليه من حكومة لبنان. ولا تنوي حكومة لوسين المحلية أن تقيم عليه أية دعوى».

وأضاف كيسلين، ونحن نتحدث صباح الثلاثاء ٥ تشرين الثاني عام ١٩٦٧، وبداية ثلج يضرب نوافذ المكتب من الخارج: «صدقني لا أعرف يوسف بيدس من قبل. ولم أقابله إلا أمس ـ الاثنين ٤ تشرين الثاني ـ للمرة الأولى. وكان اللقاء الأول بيننا. فالقانون السويسري، وقانون لوسين، لا يبيحان للمحامي أن يقابل موكله إلا بعد انتهاء التحقيق معه، وخاصة في قضية كالتي اعتقل في الأساس من أجلها. أما الآن وقد أصبحت هذه القضية هامشية، فإن مهمتي تتعلق بطلب الاسترداد اللبناني الذي علمت أن السلطات الاتحادية في برن تسلمته اليوم. وبانتظار دراسة الملف كله، لا أستطيع أن أقول شيئاً، سوى أن يوسف بيدس سيبقى عندنا طويلاً».

وسألت كيسلين عمن اختاره ليتولى قضية بيدس، فأجاب، وكأنه ارتاب في سؤالي: «زوجته السيدة وداد بيدس؛ بعد اعلان نبأ اعتقاله بحوالي أسبوع جاءت إليّ وكلفتني الدفاع عن زوجها».

وما هي الخطوة التالية الآن؟ سألت المحامي الذي كان مستعداً للحوار معي. قال: «ستكلف السلطات الاتحادية سلطات لوسين التحقيق في التهم الواردة في الاسترداد اللبناني، في الوقت الذي درست أنا كمحام ملف القضية كلها. وإذا وجدت السلطات القضائية في لوسين ان في الملف نواقص أو نقاطاً بحاجة إلى ايضاح، فإنها تطلب من

الحكومة الاتحادية، في برن رفع هذه الايضاحات إلى الحكومة اللبنانية. وهي عملية، كما ترى، تستغرق وقتاً طويلاً».

قيل لي في جنيف ان القرار الذي أصدرته الحكومة الاتحادية بمنع بيدس من دخول الأراضي السويسرية، قد يضطرها الى مقاضاته بتهمة الدخول إلى البلاد بطريقة غير مشروعة. وعدت أسأل كيسلين. لكنه ابتسم هذه المرة، وأجاب:

«هل هذا ما يقال عندكم في لبنان؟ صحيح أن الحكومة السويسرية منعت بيدس من دخول أراضيها بعد تعميم الأنتربول، لكن الحكومة السويسرية لم تبلغه أمر منعه لأنها لا تعرف أين هو ولأنه كان مجهول الاقامة. وبما أنه لم يبلغ فهو قانونياً غير ممنوع. وهناك أكثر من اجتهاد في هذا الموضوع. أما أمر مقاضاته فلم يبلغني بعد».

وقلت للمحامي: ما هو انطباعك عن لقائك الأول مع يوسف بيدس؟ أجاب كيسلين: «بدا لي انه رجل متماسك، لا يمكنه أن يكون مهرباً او مزوراً أو سارقاً. كانت كبرياؤه أوضح ما لمست. سألني هو: «إلى متى سأبقى هنا؟» رددت: وقتاً طويلاً يا سيدي. ورغب إليّ أن أخبر زوجته أنه لا يريد أن يرى أولاده في عيد الميلاد وهو في السجن».

وما زال محامي بيدس، ينتظر نسخة من ملف الاسترداد اللبناني لدراسته، دون أن يستعجل الزمن، كأن بيدس مصطاف في لوسين لا سجين. وبلباقة ذكية ماكرة، ابتسم كيسلين وقال لي: «إنه ضيفنا!».

■ الشاهد الثالث

وصباح الأربعاء ٦ تشرين الثاني عام ١٩٦٧، كنت في مكتب مدعي عام مقاطعة لوسين الدكتور فالكر، استمع إليه يروي قصة بيدس بدقة الساعات السويسرية المتناهية. قال: «ان يوسف بيدس سجين عندنا، فقط لأن الحكومة الاتحادية طلبت منا أن نبقيه. وليس لشرطة لوسين أو قضائها أية دعوى ضده. وهو نزيل في عهدتنا إلى أن تقرر حكومة برن ما تراه مناسباً فنحن نعمل بالنيابة عن الحكومة الاتحادية. ولولا ذلك لأطلقنا سراحه من زمان.

فقط هو مسجون لأن هناك طلباً من الحكومة اللبنانية لاسترداده، ما زالت برن تنظر فيه. هذا كل ما استطيع أن اخبرك واجهل غيره».

وسألت الدكتور فالكر إذا كنت أستطيع أن أقابل بيدس في السجن؟ قال: «أنا لا مانع عندي، وكنت أمنحك فوراً اذناً، لو كان سجيني، طبعاً مع الافتراض أن بيدس لا يمانع في ذلك. لكن ـ وللأسف ـ هو سجين الحكومة الاتحادية، ولا أملك سلطة فوقها. آتني باذن من المدعي العام الاتحادي، على شرط أن يقبل بيدس نفسه، فأسمح لك بالتحدث اليه ولقائه».

وودعني الدكتور فالكر الى الباب معتذراً عن «قانونية القانون وصعوبته»، وقال: «اذهب

الى برن وأنني باذن منها وأنا بانتظارك. وسأرى بيدس بعد الظهر وأقول له أنك ترغب في التحدث اليه».

■ الشاهد الرابع

وبعد ظهر اليوم نفسه، الأربعاء ٦ تشرين الثاني، كنت في مكتب نائب المدعي العام الاتحادي الدكتور مولر في مبنى وزارة العدل والشرطة في برن. (والمسافة بين لوسيرن وبرن في القطار تستغرق حوالى ساعة ونصف ساعة). وقلت للدكتور مولر أريد أن أعرف أولاً أين صارت قضية بيدس بالنسبة إلى الحكومة الاتحادية، ثم إذا كنت أستطيع التحدث اليه وزيارته في السجن.

وأجاب نائب المدعي العام الاتحادي وهو جالس وراء مكتب متواضع في غرفة تتميز بكل الأناقة والنظافة السويسريتين: «لقد سلم اليوم ـ الأربعاء ـ السفير اللبناني في بيروت وزارة الخارجية السويسرية ملف الاسترداد بحق بيدس ونحن في وزارة العدل لم نتسلمه بعد، لأنه يجب أن يمر بالطرق التقليدية في الروتين الحكومي. وسندرس نحن الملف خلال ثلاثة أشهر كحد أدنى. وإذا وجدناه ناقصاً أو غير واضح في نواح معينة، فإننا نطلب من الحكومة اللبنانية المزيد من الايضاحات، حتى نصل إلى قناعة قانونية في الموضوع. وسيستغرق ذلك، ولا شك، وقتاً. وإذا رأينا أن الطلب اللبناني غير مستوف الشروط أطلقنا سراحه فوراً. إذ ليس للحكومة السويسرية أي اتهام ضده.

«أما مقابلته فمستحيلة. ومع تقديري للمشاق التي تكبدتها فإن القانون ينص صراحة، على انه لا يحق لأحد أن يقابله إلا محاميه وزوجته وأولاده. وإذا أراد هو أن يتحدث الى الصحافة، او يقول شيئاً، فيجب أن يقوله للحكومة السويسرية وبواسطتها، وليس للصحف مباشرة. لذلك لم يقابله اي صحافي حتى الآن، سويسرياً كان أم لبنانياً أم اجنبياً. أما وضعه القانوني تماماً، فنحن في وزارة العدل بانتظار دراسة الملف».

■ الشاهد الخامس

وتجمعت لدي خيوط القصة الكاملة لاعتقال بيدس وحقيقة وضعه القانوني من فم أصدق الناس وأصحاب العلاقة المباشرين. بقي الشاهد الإنساني الأخير، وهو زوجته المقيمة في لوسيرن منذ أكثر من أسبوع، وقد قابلته ثلاث مرات، كان آخرها اليوم. وتتم المقابلات في غرفة المدعي العام، لا في غرفة السجن حيث هو في الانفراد ويسمح لها بأطول وقت ممكن معه. وهو يأكل طعاماً خاصاً وسلطات لوسيرن تعامله معاملة خاصة ضمن ما يسمح به القانون، كما انها سهلت مهمة زوجته. ويطلب بيدس الصحف الانكليزية باستمرار، لأن الصحف الوحيدة التي تصله هي الألمانية. وستقيم زوجته في لوسيرن بانتظار ما سيسفر عنه التحقيق.

وفي جنيف علمت أن «أنترا جنيف»، وهو بنك سويسري مستقل، قد طلب من محاميه ومحامي بيدس السابق الدكتور جان لاليف عدم التوكل عن بيدس في هذه الدعوى، لأن

هناك دعوى عالقة بين البنك في جنيف منـذ حادثـة الإفلاس، وبيـدس، ولأنه يخشى من تضارب في الولاء. وقبل لاليف، وهو يعمل على تصفية «انترا جنيف» عـلى مهل، تمهيـداً لبيعه من أحد المصارف السويسرية قريباً.

وتبقى قصة يوسف بيـدس الشخصية السجـين البعيد المـرفه في لـوسيرن تعـد الأيام، لتروى مرة أخرى على حقيقتها، بعد أن يكون ملف الاسترداد اللبناني قد مر على جميع الأيدي التي تريـده، وتكون العيـون قد تعبت من قـراءته، أو عـلى الأغلب ملت، فتطلق سراحه أو تعيده، لتعود القصة فتبدأ كما في الأصل، من لبنان.

لوسيرن/برن - (١٩٦٧/١٢/٩)



أوروبا


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تشيكوسلوفاكيا

■ مفكرة الغزو

كنت الوحيد الذي استطاع أن يدخل براغ بعد القرار الرسمي الذي صدر عن الحكومة التشيكية بمنع الصحافيين.

وكانت «النهار» الصحيفة الوحيدة من الشرق الأوسط كله التي شكلت جزءاً من الكتيبة الصحافية العالمية التي رصدت تطورات القضية التشيكوسلوفاكية من كل زاوية ممكنة منذ اليوم الأول للغزو حتى انحسار المد بعد اسبوعين. أكثر من خمسة عشر يوماً كاملاً و «النهار» تحمل الرسالة تلو الرسالة مني أنا الذي لم يترك مكاناً قريباً أو بعيداً من الأزمة التشيكية لم يزره. من الحدود النمساوية ـ التشيكية. من بيرغ. من بوخارست. من غموند. من الحدود الالمانية ـ التشيكية. من فيينا. من الحدود القريبة من براتيسلافا. من الحدود القريبة من برنو. من براغ. بالقطار. بالسيارة. بالطائرة، ومشيا على القدمين. من كل هذه الأمكنة كتبت هذه «المفكرة»:

ـ **الاربعاء ٢١ آب ١٩٦٨**: بدأ الغزو السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا عند الفجر. وفي الصباح، عندما عرف الناس به، كانت الحدود والمطارات التشيكوسلوفاكية قد أغلقت. انقطع الاتصال الخارجي ببراغ. وعزلت العاصمة التشيكية عن العالم. ما زالت البرقيات الصحافية تصل من الداخل من دون رقابة.

ـ **الخميس ٢٢ آب ١٩٦٨**: كنت في أول طائرة تغادر بيروت الى فيينا عبر فرانكفورت.

في فرانكفورت كان فوج كبير من الصحافيين ينتظر دوره على الطائرة نفسها الذاهبة الى فيينا. في المطار قيل لي أن الحدود بين المانيا الغربية وتشيكوسلوفاكيا مغلقة. القطارات أوقفت. الحشود السوفياتية والالمانية الشرقية كبيرة. لا أمل في الوصول الى براغ عن هذه الطريق. فيينا أفضل مكان استماع الى الأحداث التشيكية واقرب عاصمة أوروبية الى براغ.

في المساء كنت في فيينا. كان الحصول على غرفة في أي فندق شبه مستحيل. منظر الصفوف الطويلة من الصحافيين أمام أبواب الفنادق وهم يفتشون عن مكان ينامون فيه، مع معداتهم من كاميرات وآلات سينمائية وتلفزيونية وحقائب، شيء لم تشاهد العاصمة النمساوية مثله منذ أيام الحرب الأخيرة.

نمت في غرفة في «بنسيون» بقرب غابات فيينا على بعد ساعة من العاصمة.

- **الجمعة ٢٣ آب ١٩٦٨**: في الصباح استطعت أن أجد غرفة في فندق انتركونتيننتال فيينا مع عدد كبير من الصحافيين. قيل لي أن هناك حوالي ٤٠٠ صحافي ومصور واذاعي وتلفزيوني من مختلف أنحاء العالم، يمثلون كل صحيفة أو إذاعة أو تلفزيون يمكن أن تخطر على بال. أكبر تغطية صحافية لحدث منذ الحرب العالمية الثانية.

من الفندق الى السفارة التشيكوسلوفاكية طلباً لتأشيرة دخول. عشرات الناس تغص بهم ردهات مبنى السفارة. الطريق الى السفارة تكاد تكون مقطوعة بالبشر والسيارات. العلم التشيكي منكس على السارية. «رود برافو» - صحيفة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي - التي صدرت أمس تحمل أنباء الغزو، ملصقة على الجدار.

التشيكوسلوفاكيون يبحثون عن وسيلة للعودة. ينتظرون تأشيرة من سفارتهم. الصحافيون هم الغرباء الوحيدون. وفي تنظيم منقطع النظير تحضر «الفيزا» بعد ربع ساعة تماماً.

من السفارة الى اقرب نقطة حدود نمساوية من تشيكوسلوفاكيا.

المحاولة الأولى للدخول. بيرغ، آخر بلدة نمساوية على الحدود، على بعد ساعة من فيينا بالسيارة. أصل اليها ظهراً. عشرات الصحافيين أمام الحاجز الخشبي الفاصل بين الحدود. براتيسلافا تطل من بعيد. عاصمة سلوفاكيا اقرب مدينة الى النمسا. العلم التشيكي يظهر منكساً على نقطة الحدود التشيكية. سلطات الحدود النمساوية تنصحني بعدم عبور الحدود لأن التشيكيين سيعيدونني.

يرتفع الحاجز. امشي ربع ساعة مع حقائبي في الأرض المحايدة. أصل الى نقطة الحدود التشيكية التي هي عبارة عن هضبة تشرف على جسر براتيسلافا والدانوب. للمرة الأولى يبدو منظر الدبابات السوفياتية على الجسر أضخم من كل توقعاتي. الجنود السوفيات موزعون في سيارات مصفحة في الحقول المجاورة.

يستقبلني ضابط تشيكي شاب يجيد الانكليزية. يبتسم وهو يتفحص جواز سفري. يسألني: «هل تعرف معنى الاحتلال؟ إذا كنت لا تعرف انظر الى الجسر. تطلع الى الحقول. اذا سمحت لك انا بالمرور، هل يسمح لك الروس بالوصول الى براتيسلافا. الا ترى الضابط السوفياتي جالساً في الداخل وراء الطاولة؟»، يعيد جواز السفر مع ابتسامة. يمشي معي خطوات في الأرض المحايدة. يودعني. ارجع ماشياً الى الأراضي النمساوية. يرتفع الحاجز. يبتسم ضابط الجوازات النمساوي شامتاً.

انتظر في بيرغ مع عشرات الصحافيين العائدين من تشيكوسلوفاكيا لنسمع آخر

الأخبار. يخيم الظلام. أعود مع زميل ياباني في سيارة كعلبة الكبريت الى فيينا.

- السبت ٢٤ آب ١٩٦٨: المحاولة الثانية لدخول الأراضي التشيكوسلوفاكية. القطار يغادر فيينا في التاسعة والنصف صباحاً ويبلغ براغ في الخامسة والنصف بعد الظهر. في القطار كان التشيكيون العائدون يسألونني: «انت صحافي؟» وكأن هناك لافتة كبيرة على صدري تعلن عن هويتي. وإلا فأي غريب يذهب الى براغ الآن اذا لم يكن صحافياً؟ في غموند، نقطة الحدود النمساوية، اسمع النصيحة القديمة ذاتها بعدم الذهاب. نعبر الحدود. بعد نصف ساعة يصل القطار الى الأراضي التشيكية. وصلنا. يذهب الضابط التشيكي بجواز سفري. يغيب ربع ساعة ثم يستدعيني. ضابط روسي شاب يجيد الانكليزية. مسدسه الطويل على الطاولة، يسألني: لماذا اريد أن أذهب الى براغ؟ الجواب معروف. يعيد الي الجواز. يبتسم. انتظر القطار العائد أربع ساعات في المحطة. بدأ الليل في فيينا كئيباً ومتعباً.

- الأحد ٢٥ آب ١٩٦٨: المحاولة الثالثة. بواسطة الباص الى غموند مع عدد كبير من التشيكيين العائدين. ما عاد هناك معنى لنصيحة النمساويين بترك المحاولة. التشيكيون يبذلون جهودهم لادخالي. الاحتلال السوفياتي للمخافر واضح وسافر. أعود عبر الأرض المحايدة ماشياً مسافة ٣ كيلومترات. المطر هذه المرة يزيد من وعورة الطريق. انتظاري يطول في غموند بحثاً عن سيارة ذاهبة الى فيينا. بدأت أكره فيينا.

- الاثنين ٢٦ آب ١٩٦٨: المحاولة الرابعة. صدفة جمعتني بدبلوماسي هولندي، عرض علي أن يوصلني بسيارته الى براتيسلافا. كان العرض أكثر اغراء مما تصور هو. وصلنا الى بيرغ. عندما نظر ضابط الجوازات النمساوي إلى جوازي ضحك هذه المرة. القصة القديمة تتكرر. يسمح لرفيقي الهولندي بالمرور لصفته الديبلوماسية وأنا أعود. الطريق قصيرة. سيارة انكليزية راجعة حملتني الى الحدود. شعرت برغبة هائلة في الضحك أو البكاء. لا أدري. بدت بيرغ بلدة مقفرة. لم أنتظر طويلاً. عدت الى فيينا.

- الثلاثاء ٢٧ آب ١٩٦٨: المحاولة الخامسة. من بوخارست. ساعة ونصف ساعة طيراناً من فيينا الى العاصمة الرومانية. يومين في بوخارست. السفر منها الى براغ غير معقول. المجر الفاصلة بين رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ستعيدني من حيث أتيت قبل أن أصل الى الحدود التشيكية. مسؤولون رومانيون ينصحونني بعدم المحاولة. يومين شعرت خلالهما أن كابوس بوخارست لا يطاق. براغ ما زالت تلح.

- الخميس ٢٩ آب ١٩٦٨: مساء في فيينا. وداعاً يا بوخارست. بيني وبين اليأس مسافة قصيرة جداً. التقي في الفندق صحافياً قديماً عرفته من أيام أثينا حيث جمعنا الانقلاب اليوناني. عائد من براغ. غير معقول. يدلني على نقطة حدود صغيرة لا يمر بها الناس، ولم يحتلها السوفيات بعد. ربما نسوها. في الليل بدأت أحلم بـ «نيونولونبورغ» من دون أن أعرفها. وبدت براغ قريبة.

- الجمعة ٣٠ آب ١٩٦٨: استأجرت سيارة من فيينا. أخذت أؤمن بالحظ. هذه المرة

لم تختم سلطات الحدود النمساوية جوازي، لاعتقادها بأنني سأعود. وصلت الى الحدود التشيكية. لا أحد على الحدود. ضابط في منتهى التهذيب واللطف. ظهرت الرغبة واضحة في مساعدتي. مررت. لم أصدق. مررت مع تعليمات تقول أي طريق أسلك. ووصلت الى براغ. خيل الي أنها أجمل مدينة في العالم.

- السبت ٣١ آب ١٩٦٨: ما لا يقل عن ٢٠٠ صحافي من انحاء العالم يحتلون كل فنادق براغ. اكثرهم كان قبل الاحتلال، وأكثرهم كان مستعداً له. لم يدخل تشيكوسلوفاكيا بعد الاحتلال الا أربعة. من أين دخلت؟ كان سؤال الكل. وبقي الجواب سراً عند الصحافيين. «نيونولونبورغ» كانت نافذة الكل الى العالم الخارجي.

وكيف نتصل بالعالم؟ «التلكس» هو طريقة الاتصال الوحيدة غير المراقبة أو المقطوعة. انما هناك خطان فقط مع أوروبا. المطلوب الاستئذان من الزملاء أولاً لاستعماله ١٥ دقيقة فقط في الـ ٢٤ ساعة.

- الأحد ١ أيلول ١٩٦٨: من يستطيع أن يتصل بالتلكس؟ حسناء صغيرة شقراء تعمل في «بالطا» تستطيع أن تدير التلكس للصحافي القادم من بيروت. الاتصال غير ممكن ببيروت. فليكن عن طريق لندن. وخرجت الرسالة الأولى لـ «النهار» من براغ الى اليونايتدبرس في لندن، ومنها الى «النهار» في بيروت. كانت عملية الانتظار مضنية. إلا أن لذة الوصول لم تكن تعادلها لذة.

- الاثنين ٢ أيلول ١٩٦٨: أين فتاة التلكس؟ اختفت. هربت مع صحافيين تشيكيين الى النمسا. من سيدير التلكس؟ مستر يان! من هو؟ بواب الفندق. تشيكي يجيد سبع لغات. يعمل ببطء. لكنه يعمل. قضيت كل الليل، أنا ومستر يان نحاول أن نبعث بالرسالة الثانية الى بيروت. كان تحدي الآلة أقوى منا. ربحنا المعركة. وصلت الرسالة. وكان التعب كبيراً.

- الثلاثاء ٣ أيلول ١٩٦٨: همّ التلكس تضاعف اليوم. خفت أن يضيع مستر يان. لكنه وفى بوعده. كان الانتظار بين الصحافيين على هذه الآلة العجيبة من المناظر النادرة. بعضنا فوق بعض في غرفة صغيرة. تتعطل الآلة. يضربها زميل ايطالي بقدمه فتعود الى الدوران. كلنا مرتبطون بالعالم بواسطة هذين الخطين. أيها السادة ١٥ دقيقة فقط. ويصبح ربع الساعة ساعات حتى ينتهي دورنا. ويصبح النوم ترفاً في براغ في انتظار الآلة. لعل مراقبة الصحافة العالمية وهي تعمل كانت من أهم دروس المهنة على الاطلاق. لذة العمل تفوق الوصف. يومان آخران في براغ قبل العودة الى بيروت. التعب سيد الموقف.

- الجمعة ٦ أيلول ١٩٦٨: سؤال واحد في بيروت يهم. هل وصلت الرسائل؟ كيف؟ ومتى؟ لا أحد يسأل. وتعود الابتسامة مع التعب. ونضحك.

فيينا - براغ - (١٩٦٨/٩/٢٢)

ما قبل براغ

■ مطر ودموع

لم يكن كل شيء هادئاً على الحدود الشمالية. وبيرغ، نقطة الحدود النمساوية التي تبعد حوالي ١٠٠ كيلومتر شمال فيينا، لم تر وجوهاً بمثل هذا الحزن ولا دموعاً بهذه الغزارة، منذ ثلاثين سنة وأكثر. كان هناك عشرات التشيكيين ينتظرون العودة الى الوطن الذي وطئته أحذية الروس قبل ثلاثة أيام. كانوا يقفون الى الجنوب من بلادهم. وراء الحاجز الخشبي الرفيع الذي ينتصب على الحدود النمساوية، فاصلاً بين فسحة الأرض الحيادية الضيقة، والحدود الشيكوسلوفاكية.

كانت الوجوه المتشنجة من البكاء والعيون المنتفخة من الدموع تتطلع الى براتيسلافا، عبر الأميال العشرة القليلة التي هي المسافة القائمة بين الدبابات السوفياتية الواقفة على الجسر، وراء نقطة الحدود التشيكية، وأرض النمسا الحرة. وكانت قلعة براتيسلافا العالية تطل، من بعيد، من بين حقول الخضرة وأشجار السرو، برغم أن هذا اليوم - الأحد - كان ممطراً غائماً. وفي سماء تشيكوسلوفاكيا، وفوق قلعة براتيسلافا، كانت الطائرات السوفياتية (وأكثرها ذو أربعة محركات) تحوم فوق الرؤوس. (كان من الممكن جداً رؤية الطائرات بالعين المجردة أو بعدسة الكاميرا). وكانت قلوب التشيكيين تقفز من أمكنتها عندما يرتفع الحاجز ليستقبل اجنبياً قادماً او يودع تشيكياً ذاهباً. كلهم تجمهروا يريدون العودة الى الوطن قبل أن يضيع.

والدموع كانت في عيون الكل، ما عدا الأطفال. والأسى المركان مرسوماً على وجوه الكل، ما عدا الأطفال. الحقائب مرمية في عرض الشارع يلعب بها الهواء البارد ويغسلها رذاذ المطر ويجلس عليها الأطفال. وفي بيرغ لا أحد يروي الحكاية التي تتجدد منذ ثلاثين سنة. ذلك أن هذه الأيام هي للحزن، وهذا الحاجز الفاصل هو جدار الحزاني. ولا أحد يسأل هنا إلا الأطفال والصحافيون.

أصوات جزمات السوفيات لا يسمع صداها في الحدود، ولا صرير جنازير الدبابات كما

كانت تسمع أصوات جزمات النازيين ودباباتهم قبل ثلاثين سنة. فقط تبدو لك طائراتهم. وفقط تسمع حكايات الغرباء القادمين من أرض المقاومة الجديدة، وفقط ترى براتيسلافا، (عاصمة سلوفاكيا) التي ما عادت بمثابة الوطن القريب وحسب، بل أصبحت رمز الخداع والمناورة والتخلي عن الأمانة، يوم وقعت فيها الدول الخمس الغازية ـ الحليفة، في ٣ آب، وثيقة براتيسلافا التي ظن الناس أنها أعطت الأمان لتشيكوسلوفاكيا.

لقد كان التشيكيون يروون لي على الحدود اليوم، كيف وقف رئيس المجلس الوطني التشيكوسلوفاكي جوزف سمركوفسكي يؤكد للناس الذين تجمهروا بعد نهاية اجتماع براتيسلافا: «انتهى كل شيء على ما يرام... الحياة الطبيعية تستأنف غداً». وجاء الغد، بالدبابات، والأحذية، والجيوش الغازية.

وحكايات العائدين كثيرة. ست ساعات كاملة وأنا أقف أمام ذلك الحاجز الخشبي استقبل عشرات الهاربين من داخل تشيكوسلوفاكيا، وأودع القليلين من التشيكيين الذين قرروا العودة. ومعظم هؤلاء من الذين استطاعوا الحصول على تأشيرة عودة من سفارتهم في فيينا، وهم من سكان براتيسلافا أو القرى المحيطة بها، الذين يستطيعون السير على الأقدام حتى أقرب قرية. وأول القادمين عند الظهر كانوا أربعة أشخاص: سوريان ولبناني وعراقي في سيارة مرسيدس المانية. وبدأت الشتائم بالعربية تتطاير. فالعراقي لا يملك تأشيرة دخول. وتأشيرة الدخول ثمنها ٧٥ شلناً نمساوياً، والشباب ليس معهم قراطة. ولا تأشيرة بلا عملة نمساوية وبلا قراطة. ويدورون يسألون عن الذي يصرف لهم. لا أحد يفهم العربية ولا الالمانية الركيكة التي يتكلمون بها، الا هذا الصحافي. وتنحل عقدة التأشيرة وعقدة اللسان.

السوريان، واحد من دمشق وآخر من حلب. اللبناني من زحلة، والعراقي من الموصل. الأسماء أمانة. سياح التقوا في براغ صدفة ومن دون معرفة سابقة قبل يوم واحد من الغزو السوفياتي. فجر الأربعاء يستيقظون على صوت الدبابات وهي تطوق فندقهم في براغ. ويمضي يوم كامل في براغ وهم يشهدون مطلع المأساة. المقاومة تبدأ، عدد من القتلى يسقط، الرصاص يلعلع، الناس حيارى، الأعلام التشيكية تغمس بالدم وترفع على الدبابات السوفياتية. الروس والمجر هم الذين دخلوا براغ. السياح يحاولون الهرب الى الحدود بأسرع وسيلة. العرب الأربعة يقررون مغادرة تشيكوسلوفاكيا، فيركبون سيارة العراقي المشتراة من المانيا. الخميس يغادرون براغ الى براتيسلافا. ينامون في براتيسلافا يوماً ثم يوماً آخر ويصلون اليوم ـ الأحد ـ الى النمسا.

كانت المقاومة في براغ، وهم يتركونها يوم الخميس، تتخذ اشكالاً عدة. شباب يكتبون على الجدران وعلى الأرض: «سفوبودا دوبتشيك. دوبتشيك. دوبتشيك». وسفوبودا تعني بالتشيكية الحرية. كانت تجمعاتهم حزينة صامتة. بعضهم أخذ يعلق معطفه أو قبعته على فوهات مدافع الدبابات السوفياتية. وبعضهم أخذ يسأل الجنود السوفيات بعناد: «لماذا، لماذا، لماذا؟». الكل علقوا شارة الحداد السوداء على صدورهم. وفي

الطريق من براغ الى براتيسلافا كانت المقاومة ذات طابع آخر: فجر الجمعة كانت شارات الطريق وأسماء المدن التي توصل اليها وأرقام المسافات قد تحطمت، أو دهنت بالأسود في محاولة ساذجة لتضليل الجيوش الغازية. لا يعرفون كم قتل في حوادث اطلاق الرصاص، إنما يعرفون حتماً أن هناك أشخاصاً قتلوا.

في براتيسلافا، عندما بلغوها ليل الخميس، كان الناس يتحدثون عن مقتل ٦ فتيات و٨ رجال بقذائف الدبابات السوفياتية أمام ناد للشبان لأنهم رفضوا الانصياع للأوامر. وصباح الجمعة، كانت الاشاعات انتشرت عن عودة الشرطة السرية السلوفاكية الى العمل واعتقالها البعض. ومع هذه الاشاعة انتشرت على الجدران، بالطبشور والدهان، أرقام السيارات الخاصة التي استعملتها الشرطة السرية في اعتقالاتها مع أسماء بعض أفرادها، حتى يحذرهم المواطنون. وعلى جدران أخرى كانت كتابات جديدة تحذر من بعض «الناس الخونة» الذين يتعاونون مع الجيوش المحتلة. وصباح السبت، وهم في طريقهم من براتيسلافا الى الحدود، كان عشرات الشبان يحاولون إزالة اسماء الشوارع، في محاولة ثانية لتضليل الشرطة السرية. وقبل وصولهم الى الجسر الذي تسيطر عليه ٥ دبابات روسية. وعلى بعد ٢ كيلومترات من الحدود، سمعوا في محطة بنزين أن امرأتين حاملين سقطتا برصاص الجنود السوفيات وهما تحاولان الهرب عبر الحدود. وتنتهي قصص السياح العرب.

ويرتفع الحاجز لتمر من تحته ثلاث سيارات انكليزية من نوع «الميني»، تحمل ثمانية أشخاص ومعدات موسيقية من طبول وأبواق. وتترجل منها، عند موظف الجوازات، أشكال غريبة من «الهيبيز»، شعورهم طويلة وأقدامهم حافية وثيابهم فاقعة الألوان. ويتراكض اليهم السبعون صحافياً المتجمهرون عند الحدود، من كتاب ومصورين واذاعيين، ليعرفوا من هم وما هي آخر الأخبار. واذا بـ «الهيبيز» فرقة موسيقية انكليزية كانت تعزف في نادي الطلبة في براتيسلافا، قررت الجلاء عن المدينة عندما اغلقت القوات السوفياتية والمجرية المحتلة النادي، واعتقلت لجنته الادارية، وصادرت الميكروفونات والمعدات التي تستعملها الفرقة في عزفها، وأركبتها على احدى الدبابات وبدأت تذيع منها انذارات للسلوفاكيين بالتفرق. واضطرت الفرقة أن تهرّب ما تبقى لها من نوافذ النادي وتحمله في سياراتها، وهي ملفوفة بالعلم البريطاني الى الحدود.

والفرقة تتألف من امرأتين وستة رجال، وتعرف باسم «فلاف» - FLUFF - وروت لي ولبعض الصحافيين الصابرين قصة أيام الاحتلال الثلاثة الماضية في براتيسلافا، بينما كانت احدى المرأتين تعالج جرحاً في رأس محدثنا قائد الفرقة، من جراء سقوط قطعة خشب على رأسه وذراعه من النافذة، وهو ينقل آلاته خارج النادي: الجنود السوفياتيون في براتيسلافا شبان تراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والعشرين. بعضهم لم ينبت الشعر في ذقنه، عدد كبير منهم من جمهوريات آسيا السوفياتية. اشكالهم بدت غريبة جداً للموسيقيين الانكليز. لم يأكلوا أو يناموا منذ يوم الاربعاء الماضي، والسبب أن أكثرهم كان يظن انه يقوم بمناورات عادية. وفي المناورات، تأكل الجيوش عادة من

المناطق التي تتدرب فيهـا. ولم يبلغ أحـد منهم خبر الغـزو. لذلـك صعقوا عنـدما كـان السلوفاكيون يسألونهم: «انتم اصدقاء أم اعداء. اذا كنتم أصدقاء، عودوا الى بلادكم. نحن لسنـا بحاجـة اليكم». وكان الجـواب في أحيان كثـيرة الصمت، وفي أحيان قليلـة: «عندنا أوامر»، وفي أحيان نادرة، الرصاص. وبدأوا يصـادرون الخبز والمـواد الغذائيـة من البيوت والأسواق.

ولاحظ المـوسيقيـون الانكليـز أن معظم الشعـارات المعـاديـة التي كتبت عـلى جـدران بـراتيسلافـا وارصفتها كـانت ضد بـريجنيف. لم يكتب شيء ضـد كـوسيغـين. صـور دوبتشيك تلصق على الـدبابـات وتوزع عـلى البيوت. بعض المحـلات التجاريـة ألصقت صوره تحدياً على نوافذها. ولم يزلها أحد. وأغلقت كل المحلات ابوابها، ولم تفتح صباح السبت إلا مخازن المواد الغـذائية التي كـانت تبيع فقط لمن بقي من السيـاح الأجانب. وهمّ الناس الوحيد في براتيسلافا كان الاستماع الى الاذاعات السرية الحرة. اخر إذاعة سمعت من هنـاك صباح اليـوم ـ الأحد ـ كـانت من «بانسكـابيستيكا» عـلى بعد ١٢٠ كيلومتراً جنوب براتيسلافا. وعند الظهر اختفى صوتها.

وحاولت القوات السوفياتية والمجرية المحتلة تجريد الشرطـة المحلية في بـراتيسلافـا من أسلحتها. رفضت الشرطة السلوفاكية. كانت ساعة الاضراب الصـامتة التي جـرت ظهر الجمعة الماضي، كاملة ومؤثرة. المئات جلسوا على الارصفة وفي الشوارع عنـدما انطلقت ابواق السيارات وأجراس الكنائس تعلن الساعة الثـانية عشرة. وتـوقف كل مـا ومن في المدينة. لم يتحرش بهم جنود الاحتلال. القوات المجـرية تـأتي بتعزيـزات اضافيـة الى الجنوب الشرقي من تشيكوسلوفاكيا. المجريون متوترو الأعصاب وسريعو الغضب. كانوا وراء أكثر حوادث اطلاق الرصاص. لافتات ظهرت في الشوارع تطـالب بتعقب «الخونـة المتعاونين مع جيوش الاحتلال» وقتلهم، وتسمي خمسة أسماء.

العشرات من المـواطنين في بـراتيسلافـا يدورون حـاملين العـرائض ويطلبـون تـواقيـع المـواطنـين. الكـل يـوقـع من دون أن يقـرأ. بعض هـذه العـرائض يطـالب بحيـاد تشيكوسلوفـاكيا، وبعضهـا بخروج القـوات المحتلة، وبعضهـا بالافـراج عن دوبتشيك ورفاقه. الغضب في العيون، والحزن على كل وجه، ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من أن يديروا ظهورهم الى الدبابات، لا شيء. بلى، ترتفـع الهتافـات عندمـا تمر احـدى سيارات الجيش التشيكوسلوفاكي حاملة صـور دوبتشيك. اليوم يديرون ظهورهم، ولكن غداً يفتحون صدورهم اذا اقتضى الأمر.

وارتفع الحاجز من جديد، هذه المرة ليودع ثلاث نساء وطفلين. بكين كثيراً عندما عانقن رجلين كانا في وداعهم على الحدود النمساوية. الرجـلان تشيكيان آثـرا البقاء في هـذا الطرف من الحدود، والنساء قررن العودة الى بيوتهن ليسألن ماذا حـل برجـالهن. كان الخيار صعباً جداً لعشرات التشيكيين الذين مارسوا هذا الصيف متعة السفر والحرية، للمرة الأولى منذ عشرين سنة. هل يعودون اليوم أو غـداً، في انتظار أن تتضـح الأمور.

وأكثر الذين عادوا كانوا من النساء اللواتي تركن أزواجهن وأطفالهن. لا أحد من التشيكيين يفكر باللجوء، برغم التسهيلات التي وفرتها حكومة النمسا لهم. كلهم يريدون العودة، الا أنهم ينتظرون شكلها ومعناها. لا أحد منهم يستبعد المقاومة.

ويهبط الحاجز، ثم يرتفع. وتتجمد أطراف الصحافيين من البرد، وتحل الظلمة على آلات التصوير فتعطلها، وتجف الدموع في المآقي، ويبدأ الأطفال بالبكاء. وكان صباح وكان مساء، يوم آخر من المأساة التشيكوسلوفاكية.

فيينا - (١٩٦٨/٨/٢٩)

الشيوعيون الطيبون

فجأة، استعاد معظم الناس ذكرياتهم الأليمة في أوروبا.

وفيينا أغنى المدن بالذكريات. وحدها ما زالت تذكر صدى وقع اقدام النازيين عندما دخلتها بإسم هتلر فاتحاً. وتمر ثلاثون سنة. آذار، عام ١٩٣٩: القوات الالمانية النازية ومعها القوات البولونية والمجرية تدخل تشيكوسلوفاكيا. وتمر عشرون سنة. أيار، عام ١٩٤٨: القوات السوفياتية تدخل براغ تدعمها طوابير من الجيوش المجرية والبولونية الحليفة، بعد انقلاب شيوعي على مازاريك الابن. وتمر أيام. آب، عام ١٩٦٨: القوات السوفياتية وقوات حلف فرصوفيا تغتصب تشيكوسلوفاكيا بالأسلوب القديم نفسه. وفيينا وحدها، ربما بين مدن اوروبا كلها، تذكر ذلك جيداً.

كانت الأعلام السوداء ترتفع فوق عدد من المسارح والأندية وتجمعات الشباب في العاصمة النمساوية عندما بلغتها صباح الجمعة الماضي. الأعلام النمساوية منكسة على صواريها الى جانب الأحمر والأبيض والأزرق، الوان العلم التشيكوسلوفاكي. شرائط بالألوان الثلاثة وبالأسود تزين صدور الشبان والشابات في فيينا. الناس كلهم ممسكون بأجهزة الترانزستور يستمعون الى آخر الانباء. اكثر من ٤٠٠ صحافي من مختلف أنحاء العالم هبطوا في فيينا خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، واحتلوا كل فنادقها، حتى أصبح وجود غرفة خالية في عز الموسم السياحي شاقاً وغالياً.

أين الناس؟ أمام السفارة التشيكوسلوفاكية في فيينا، كان مئات التشيكيين يحاولون الحصول على تأشيرة عودة الى بلدهم. العشرات يبكون. الكل يتدافع بالمناكب. الطاولات انتصبت على الرصيف توقع العرائض وتجمع النقود للمقاومين وللذين انقطع اتصالهم بالوطن. والعدد الأخير الذي صدر من «رود برافو» صباح يوم الاحتلال، ملصق على باب السفارة. اللافتات على النوافذ. «لا نعترف الا بسفوبودا ودوبتشيك وبرلماننا». «لم ندع قوات حلف فرصوفيا لدخول بلادنا». «أبرقوا الى يوثانت». «الحكومة الجديدة، حكومة خونة».

ويتراكض الناس الى احدى السيارات ليسمعوا نشرة الأخبار. الدموع كثيرة، والحبيس منها يزيد على المنهمر. الحزن في كل مكان. مئات داخل السفارة. اعطاء التأشيرات اعجب عملية تنظيمية شهدتها. فجأة يتعالى الصياح. مجموعة من الشبان والشابات يحيطون برجل وامرأة. لا أفهم شيئاً. يصبح الصياح نوعاً من الهتاف. الرجل والمرأة مسمران صامتان. يأتي رجل ويقودهما الى احدى الغرف. ما القصة؟ الرجل والمرأة مواطنان مجريان جاءا للحصول على تأشيرة دخول الى تشيكوسلوفاكيا للالتحاق بأولادهما الذين يقضون اجازة عند اقارب لهم في مدينة برنو. يلحظ احد التشيكيين جواز السفر المجري. يسألهما ماذا يفعلان هنا. يبدأ الحوار. يتجمهر الناس: «هل انتم حلفاء أو اعداء». «قولوا لكادار ان دوبتشيك ليس إيمري ناجي». «هل نسيتم عام ١٩٥٦». والمجريان محرجان لا يجيبان. تتحول الأسئلة الى هتافات: «قولوا لنا

الحقيقة». «لا تدخلوا بلادنا» «كادار الى الجحيم». «سفوبودا دوبتشيك». «لماذا، لماذا، لماذا». وتبدأ المرأة بالبكاء، ويبدأ التدافع بالمناكب ويزيد المتجمهرون، ويأتي الموظف لينقذ الموقف في الوقت المناسب.

أصوات النحيب لا تضيع بين الصياح بأسماء حملة الجوازات من الميكروفون. يخيم الصمت، الميكروفون يذيع آخر الأخبار التي وصلت الى السفارة. هل قتل دوبتشيك؟ يزداد النحيب. يغمى على امرأة مسنة من الزحمة. لا شيء، كوب ماء يكفي. المقاومة تنطلق من هنا. الكل يريد أن يعود. من منهم يريد أن يبكي؟ لا أحد.

«حكومة خونة». هكذا كانت عناوين الصحف النمساوية في فيينا ذلك اليوم. ولكن ما رأي المراقبين في العاصمة النمساوية، بصفتها أقرب مركز استماع بالنسبة الى تشيكوسلوفاكيا وأهمه. الآراء كثيرة، وقد لا يكون وقتها الآن. ومعالم الأخبار يمكنها أن تدور حول الخريطة العريضة الآتية: يؤكد المراقبون الغربيون أن الغزو قد أعد له منذ منتصف تموز ١٩٦٨، وإن محادثات تشيرنا وبراتيسلافا، والقبلات بين الزعماء الشيوعيين والابتسامات امام المصورين، لم تكن الا كسباً للوقت، وان البيانات المشتركة التي صدرت عن المحادثات لم تكن إلا حبراً على ورق. ويضيف المراقبون ان القوات السوفياتية كانت تخطط مع بقية قوات حلف فرصوفيا، اثناء المناورات الأخيرة، عملية الغزو كما تمت تماماً. وأن موسكو، اتخذت هذا القرار ليل الجمعة ١٦ آب، وابلغته كلاً من المانيا الشرقية وبولونيا وبلغاريا والمجر غداة اليوم التالي. واستعدت عسكرياً ايام السبت والأحد والاثنين حتى تم الغزو فجر الاربعاء ٢١ آب عام ١٩٦٨.

وتذكر مصادر المراقبين في فيينا، أن الغزو الأساسي جاء عن طريق القوات السوفياتية المرابطة على حدود المانيا الشرقية، وأنّ الدبابات قد حملتها ناقلات سيارة، وأنها لم تنزل الى الأرض الا على أبواب براغ والمدن الكبرى. وهذا يفسر سرعة وصول الغزاة المفاجيء الى العاصمة التشيكوسلوفاكية وبراتيسلافا وبرنو. وكانت القوات السوفياتية هي الأولى التي وطئت الأراضي التشيكوسلوفاكية قادمة من المجر وبولونيا. ثم تبعتها قوات من المانيا الشرقية ومن الدول الشيوعية المجاورة. وعندما احتلت القوات السوفياتية براغ والمدن الرئيسية، وسيطرت على مراكز المواصلات والوقود ومكاتب الحزب الشيوعي، بدأت الامدادات السوفياتية تصل بالطائرات من اوكرانيا الى براغ. وفي اليوم التالي، الخميس، أخذت المجر تزيد قواتها. وقوات المانيا الشرقية هي الأكثر عدداً في تشيكوسلوفاكيا، وبعدها المجر ثم بولونيا. أما بلغاريا، فيكاد اشتراكها يكون رمزياً. فهي تركز قواتها على الحدود مع رومانيا، أمام احتمال غزو جديد للبلد الآخر الخارج عن طاعة موسكو. وكان أكثر القوات السوفياتية مجمعاً في الحدود الجنوبية لالمانيا الشرقية والحدود الجنوبية لبولونيا، قبل ستة أسابيع من الغزو.

ووجود هذه القوات السوفياتية كان معروفاً لدى الزعماء التشيكوسلوفاكيين. إلا أن الضعف في مخابراتهم غير الموثوق بها، قد فشل في اعطاء الاشارة الحمراء وقت الغزو، كما فشل في تحديد موعده أو احتماله. وهذا لم يمنع دوبتشيك ووزير دفاعه الجنرال

مارتن دزور من تعيين ضباط يدينون بالـولاء لهما ولنظـام الحكم، وهو تـدبير قضى عـلى احتمال انقلاب الجيش على دوبتشيك أو الانضمام الى قوات حلف فرصوفيا المحتلة. كما ظهر في التجربة الأخيرة. لكن الجيش التشيكوسلوفاكي أساساً، غير معد لمقاومة تدخـل سوفياتي أو الماني شرقي، وكلا الجيشين يفوقانه عـدداً وعتاداً. وهـذا ما يشرح صمت الجيش التشيكي وعـدم مقاومتـه. أما عـدد القوات المحتلـة، فيقدر بحـوالى ٢٠٠ الف عسكري.

وتؤكد أوساط المراقبين في فيينا، رواية سوفياتية تقول إن رئيس الحكـومة السـوفياتيـة الكسي كوسيغين كان ضد فكرة التدخـل العسكري، ممـا يفسر أيضاً تـأجيل الغـزو الى اليـوم. وبرغم مظـاهر «الـوحدة» بـين «الترويكـا» السوفيـاتية الحـاكمة، وخـاصـة في الاستقبال الصوري الذي اعدته لرئيس الجمهورية التشيكوسلوفاكية الجنرال سفوبودا في مـوسكو في الأيـام الأولى للغزو، فـإن الخلاف بـين الأمـين الأول للحـزب الشيـوعي السوفياتي ليونيد بريجنيف وكوسيغين حول القضية التشيكوسلـوفاكيـة ما عـاد سراً. وهذا يفسر، مرة ثانية، بقاء سفوبودا في موسكو، بعدمـا وعد بـالعودة الى بـراغ في يوم وصوله. وسر بقائه ليس استمرار المحادثـات وحسب بل «الأمـل» في أن استمرارهـا قد يعطي كوسيغين فـرصة لاقنـاع سائـر زملائـه في اللجنة المـركزيـة «بتصحيح» غلطـة الاحتلال، وانقاذ الممكن انقـاذه مع سفـوبودا. وذلـك لا يعني أن كوسيغـين وقف ضد اتخاذ قرار الغزو الحاسم. فإنه خضع لأكثرية اللجنة المركزيـة المحافظـة بعدمـا اعلن وجهة نظره. ويذكر المراقبون تأكيداً لروايتهم، موقف كوسيغين عنـدما طـار الى براغ في أيار ١٩٦٨، اذ كان وزير الدفاع السوفياتي الماريشـال غريشكـو ومعه ٣٠ جنـرالاً في بـراغ، يحاولـون أن يمارسـوا ضغطاً مخيفـاً على دوبتشيـك ونظامـه. واعتبرت زيـارة كوسيغين هذه نوعاً من «الوساطة» بين الطرفين.

إلا أن السؤال المطروح في فيينا هو إمكان المقاومة التشيكوسلوفاكية في الداخل ونـوعها ومداها. وقد ذكر لي مهندس تشيكوسلوفاكي، كان يسيح مـع زوجته وطفليـه في النمسا وينتظر العودة الى «نيتـرا» حيث يعمل في مجلس تخطيط البلـدة، أن من الصعب القيام بـأيّ محاولـة لمقاومـة جيوش الاحتـلال على طـريقة «الحـرب الشعبية» أو «المقـاومـة الفرنسية» أو «الفيتكونغ»، «لاننا نحن التشيكوسلوفاكيين لا نريد أن نعيد الـراسماليـة الى بـلادنا، ولا نـريد التخـلي عن الاتحاد السـوفياتي ولا عن التـزاماتنـا تجـاه حلف فـرصوفيـا. نريـد فقط أن نعيش بحريـة داخل بـلادنا. غلطتنـا الوحيـدة المميتة أننـا شيوعيون طيبون. والمقاومة لن تتخذ أكثر من شكل عصيان مدني. لا سلاح عندنـا، ولا رغبة لدى بعضنا في خلق عداوة دم بيننا وبين السوفيات، وهناك رفقة سلاح طويلـة لنا معهم. فالدم إذا جرى، قد يجبرنا أن نغير مجرى حياتنا كله. عندئذ لن نبقى شيوعيين. والأيام المقبلة، قد تحدد مستقبل المقاومة ومستقبل تشيكوسلوفاكيا».

والآراء الأخرى متعددة بين الأربعمئة صحـافي الذين يـذرعون حـدود النمسا كلهـا مع تشيكوسلوفاكيا. ولا تبقى في فيينا الا الذكريات الحزينة، يـرددها النـاس مع اجـراس

الكنائس التي تقرع منذ الصباح الباكر معلنة في كل ساعة عن قداس من أجل الأحـرار التشيكوسلوفاكيين الذين اغتصبت أرضهم للمرة الثـالثة في ثـلاثين سنـة. وكانت المـرة الأخيرة بعد صيف قصير، أقصر صيف عرفته تشيكوسلوفاكيا من الحريـة، وانتهى على أبواب مأساة.

فيينا - (١٩٦٨/٨/٢٧)

ورثة «الدومينو»

اصبح لـ «الدومينو» ورثة في موسكو وبودابست وصوفيا وبرلين الشرقية وفرصوفيا. هل سمعت بـ «الدومينو»؟ لا بد. فأحجارها عادت تقرقع من جديد بين أصابع المراقبين السياسيين في النمسا.

و «الدومينو» نظرية سياسية اخترعها الأميركيون، ولها اليوم ورثة شرعيون في عواصم حلف فرصوفيا. وقامت أساساً لتبرير السياسة الأميركية في فيتنام وجنوب شرق آسيا، وتقول اذا سقطت فيتنام الجنوبية في أيدي الشيوعيين، فسوف تسقط دول المنطقة كلها، في الهند الصينية وماليزيا.

وفجأة، انتقلت النظرية الى المعسكر الآخر اذا سقطت تشيكوسلوفاكيا في آيد الليبراليين الشيوعيين ـ أو «التحريضيين» على لغة القاموس الماركسي ـ وانتقلت عدوى الحريات والديموقراطية الى داخل المعسكر الشيوعي في حلف فرصوفيا، فإن عواصم أوروبا الشرقية ستتساقط كأحجار «الدومينو» واحدة بعد اخرى، بعيداً عن ارثوذكسية الكرملين وباباوية فالتر اولبريشت.

وبدأ الصحافيون في فيينا يحاولون جمع حجار «الدومينو» من مصادر كثيرة، بعضها متناقض، في محاولة لتفسير كيف اتخذت موسكو ولماذا، قرارها المفاجيء باحتلال تشيكوسلوفاكيا، وقت صار لدى أشد المراقبين اطلاعاً، شبه قناعة بعدم احتمال وقوع هذا الشيء.

ما الذي أخر اتخاذ قرار الغزو؟ لم يكن مؤتمر براتيسلافا ولا مقررات المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي بالاتفاق مع الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، ولا الخوف من أيّ مضاعفات ـ لا خارجياً بالنسبة الى الرأي العام الدولي، ولا داخلياً بالنسبة الى العالم الشيوعي ـ اذا تم القيام بأي عمل عسكري ضد تشيكوسلوفاكيا. لم تكن هذه كلها مصدر التأخير. فالتهديد بالتدخل العسكري كان قائماً منذ اللحظات الأولى لتسلم دوبتشيك والليبراليين زمام الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي.

التفسير الذي أخذ يحرز أنصاراً بين المراقبين في فيينا، هو أن أزمة حقيقية ذات جذور واضحة داخل الكرملين تسببت في اتخاذ قرار بهذا «الغباء الأسطوري»، على حد تعبير زميل نمساوي. وإلا فما معنى غزو عسكري كامل الترتيبات، عظيم التنظيم، من دون سند سياسي داخلي؟ ما قيمة الدبابة السوفياتية في شوارع براغ، إذا لم تجد سياسياً تشيكوسلوفاكياً يدعمها من داخل؟ أين الحكومة البديلة لسفوبودا ودوبتشيك التي ستأتي على حراب السوفيات؟ أين كادار التشيكوسلوفاكيين؟

اذن، فلعل الأزمة السوفياتية نفسها تفجرت في قلب براغ. منذ زمان، والمراقبون يسمعون صوتين مختلفين من موسكو. واحد، يمثله ليونيد بريجنيف الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي، وآخر يمثله الكسي كوسيغين رئيس الحكومة السوفياتية. الصوت

الأول: بريجنيف، يدعو الى الابقاء على انضباط الحزب وبيروقـراطيته. الصـوت الثاني: كوسيغين، يدعو الى التغيير والاصلاح، وبخاصة في الأمـور الاقتصاديـة. والى جانبهمـا عدد كبير من رجال بلا وجوه، وأسماء غير ممكن تحديد ولائها أو اتجاهها نحـو أي من الصوتين. وجاءت الأزمة التشيكوسلوفاكية لتظهر بوضوح الفارق المميز بين الصوتين.

في السنتين الأخيرتين، كان صـوت بريجنيف واضحـاً في ما يتعلق بـالانضباط الحـزبي الداخلي، وتعزيزه لقوى الشرطة السرية المعروفة بـ «ك. ج. ب»، وتوجيهها نحو المثقفـين والكتاب. لذلك وقف موقفاً مؤيداً لزعيم الحزب الشيوعي الأوكراني شيلست، في حملتـه ضد كتّاب أوكرانيا ومثقفيها. وكان شيلست أعنف من وجّه كلاماً الى دوبتشيك ورفـاقه في اجتمـاع تشيرنـا نادتيسـو. والى ذلك فـإن في المكتب السياسي السـوفياتي واللجنـة المركزية للحزب، رجالاً وصلوا الى مراكزهم عن طـريق القفز فـوق جثث رفاقهم في أيـام ستالين، وفيه أيضاً الستالينيون الجدد.

بانفصام هذين الصوتين بوضـوح، برغم عدم تحديد المواقع والرجال لكل منهمـا، جاءت الأخبار تقول ـ ولها من يروجها في فيينا ـ أن قرار الغزو اتخذته الاكثـرية المحـافظة في اللجنـة المركـزية للحـزب الشيوعي وفـرض فرضـاً على كـل من بريجنيف وكـوسيغـين وبـودغورني، الـذين استـدعـوا ـ ليـل الجمعـة المـاضي، صبـاح السبت ـ من عطلتهم الأسبوعية وأبلغوا القرار. ويقول المراقبون، أن هناك سابقة مماثلة للجنة المركزية، وذلك عندما اقصت خروشوف عن الحكم في اجتماع مفاجيء عقـدته بسرعة، واستدعتـه من عطلته وابلغته اياه. والزعماء الثلاثة كانوا واجهوا المصير الخروشوفي نفسه ليل الجمعة ـ السبت الماضي، لو رفضوا الانصياع، أو الانجراف مع قرار اللجنة المركزية.

اذا صح هذا الخبر، وهناك من يؤكده من كبار الثقاة في أمور الكـرملين في فيينـا، فإنـه يعني أن أكثرية اللجنة المركزية لم تكن راضية عن الاتفاقات التي تم التوصل اليها مع دوبتشيك ورفاقه، في تشيرنا وبراتيسـلافا قبـل ثلاثـة أسابيـع. ولذا استغلت الأكثـرية غياب «الترويكا» الحاكمة في عطلة نهاية الأسبوع، واتخذت القرار وفرضته فرضاً.

لماذا؟ يجيب المراقبون، أن أكثر أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي هـم من البـيروقراطيـين ورثة العقليـة الستالينيـة، الذين يـدينـون بمنـاصبهم وامتيـازاتهم وثرواتهم، للآلة الحزبية التي يعملون فيهـا. فإذا تغـير سير الآلـة، أو تعطلت وحدة من وحداتها ـ كما يحبون أن يسموها ـ فقدوا كل مبـررات وجودهم. فـولاؤهم هو لـلآلة ـ النظام أكثر من ولائهم للفكرة ـ الحزب ـ والستالينيون الجدد يدركون أن الآلة ـ النظام معرضة للخطر اذا نجحت تجربة دوبتشيك في تشيكوسلوفاكيا. واذا نجح الليبراليون في تغيير النظام الذي صدره لهم ستالين حرفياً فذلك يعني أن نجاحاً مماثلاً قـد يحصل في الاتحاد السوفياتي. وبالتالي فإن ادعـاء موسكـو اكتشاف سر التطـور التاريخي لـلأمم والشعوب يسقط نهائياً.

هنا، تعود نظرية «الدومينو». فالنظريـة التي تقول بـأن السماح بـالتغيير والحـريات في

تشيكوسلوفاكيا سيضعف حتماً من سلطة غومولكا ونفوذه في بولونيـا وكادار في المجـر، تقول أيضاً بأن أولبريشت ـ الذي ذكر في فيينا أنه قام بالضغط عـلى اللجنة المـركزيـة السوفياتية بعد عودته من زيارة براغ في الأسبوع الماضي، لاتخـاذ قرار الغـزو ـ ونظام حكمه، مرتبطان نهائياً بوجود القوات السوفياتية في بلاده. لذلك فهو لا يخشى فتح نوافذ الحريات في تشيكوسلوفاكيا بـالنسبة الى بـلاده. إلا أنه يخشى، إذا تـأصلت عادة فتـح النوافذ، الى درجة اقتنع معها الاتحاد السوفياتي بها، أن تفكر موسكو بسحب وجودها العسكري في المانيا الشرقية، وبالتالي تعبد الطريق لرجل آخر، اكثر إيمـاناً بـالستالينيـة الجديدة، وربما، بمستقبل التغيير.

وهكذا فإن الاتحاد السوفياتي غدا أسير مخاوفه. فالتطويق المحكم الذي وقـع في أسره، قد جعل القيادة السوفياتية في حالة حصار دائم، أصبح من الصعب معها الاقتراب من حقائق التاريخ ومواجهتها، أو حل المشاكل الناتجة عن هذا المأزق التاريخي بذكـاء، أو بحلول واقعية. بل أن الاتحاد السوفياتي نفســه غدا اليـوم «الولـد الشقي» أو «الولـد المشكلة» للعالم الشيوعي. اذ للمرة الأولى يجد شيوعيو العالم ـ على مختلف نزعـاتهم ـ أن الخلاف ليس على الشيوعية، فـالشيوعيـة لم تغتصب تشيكوسلـوفاكيـا. إنما الـذي اغتصبها هو الاتحاد السوفياتي.

ومهما حاول المراقبون في فيينا أن يجدوا من تفسيرات للأحـداث التشيكوسلـوفاكيـة في موسكو، فإن معاندة الاتحاد السوفياتي للتـاريخ، لا بـد لها من أن تضعف أمـام رياح التغيير، القوية والخصبة، في العالم الشيوعي.

فيينا ـ (١٩٦٨/٨/٢٩)

كلمة الوداع

«سفوبودا»، كلمة تعني باللغتين التشيكية والروسية، «حرية»، مع اختلاف الأسلوب والطريقة في لفظها. وحديث التشيكوسلوفاكيين المنتشرين في العاصمة النمساوية يمتزج دائماً بهذه الكلمة، مع اصرار على الاحتفاظ بالتفسير التشيكي لها لا الروسي. ومعظم هؤلاء الذين في فيينا، هم من المحسوبين على طبقة «المثقفين»، اي المهندسين ومعلمي المدارس والكتاب والطلاب والإقتصاديين وموظفي الادارة، الذين كانوا في اجازة، اجهضت قبل أسبوع بالغزو السوفياتي لبلادهم.

«سفوبودا، سفوبودا». كلمتان كانتا مفتاح الحوار بيني وبين عدد منهم في نادي المراسلين الأجانب في فيينا أمس. مراسل من لبنان، من الشرق الأوسط، جاء يستقصي أخبارهم، ويحاول دخول بلادهم، ويكتب عن قضيتهم؟ الدهشة كانت كبيرة. لماذا؟ لأن الشرق الأوسط بالدرجة الأولى بعيد، وله مشاكله. ولأن العالم العربي بالدرجة القصوى، لم يقف معهم في محنتهم، ولأن الاتحاد السوفياتي يتهم كل حركة ليبرالية في الدول الشيوعية بالصهيونية.

المزيد من الدهشة. بدأ الحديث بالاستفزاز. لودفيك سيزار سيرنيا مهندس تشيكوسلوفاكي في الخامسة والثلاثين من عمره باشر حياته مدرساً، سألني قبل أن اسأله:

«ماذا تفعل هنا؟ هل جئت تبحث عن اليهود بيننا؟»

ابتسمت وقلت له:

«لا، جئت أبحث عن الأحرار بينكم. جئت أسمع قصتكم».

«أنتم ضدنا. لم يرتفع صوت عربي واحد يدافع عنا. نسيت دمشق والقاهرة خدمات تشيكوسلوفاكيا دفعة واحدة. الشيوعيون العرب مع موسكو، فلماذا لا يكون على الأقل غير الشيوعيين معنا. ايدناكم في قضيتكم ضد اسرائيل. بيننا عشر سنين من التعاون. الا تؤمنون بالحرية؟ الا تحسون؟».

حاولت أن ابتسم ثانية، وقلت له:

«لا خلاف بيننا على الحرية. لعل حكوماتنا ملزمة بتبني خط موسكو حفاظاً على تأييدها لقضية فلسطين وموقفها ضد اسرائيل. اكثرنا يستنكر الغزو السوفياتي لأراضيكم. حاولوا أن تفهمونا. لنا قضية معلقة أصعب من قضيتكم».

«افهمنا انت، قبل أن نفهمك. نحن معكم. مع العرب. سياستنا منذ عشر سنين هكذا. زودناكم بالسلاح. اعطيناكم مساعدات اقتصادية. كل شيء. صحيح لأن موسكو ارادت

ذلك، بل أيضاً لأننا نحن أردنا كذلك. من حقنا أن نختلف في نوعية التأييد. إنما نحن كموسكو، ضد ازالة اسرائيل. الا تعرف أن الاتحاد السوفياتي ضد ازالة اسرائيل؟ لماذا تبدو مدهوشاً؟ اسمع جيداً، نريد أن نحكم أنفسنا كشيوعيين على طريقتنا الخاصة من دون تدخل موسكو. نحن أحرار، والأحرار ليسوا صهيونيين. الخروج عن طاعة موسكو ليس الحادا وكفرا. الصهيونيون قلة بين اليهود عندنا، الذين هم بدورهم قلة. كتابنا ومثقفونا ليسوا يهوداً كلهم. هل الحرية تعبير صهيوني؟ لا، ولا تعبير ماركسي. الحرية لا تجزأ. الا تدرسون التاريخ في مدارسكم؟ نحن استنكرنا الهجوم الاسرائيلي، ونستنكر كل عدوان ضد الدول العربية. لم نسمع ولا صوتاً عربياً واحداً من عندكم. أم انكم نسيتم صديقكم تيتو فجأة؟».

وسكت محدثي. وكان التجمع التشيكي حولنا قد كبر ونحن لا ندري. فقلت له:

«هذا رأيك. شكراً. سأحاول أن انقله، لكنني لم أجيء لاتحدث عن مشاكل بلادي. جئت ابحث واتحدث عن مشاكل بلادك».

اجاب محدثي:

«عظيم، ولكن لا تنس أن تؤكد أننا غير صهيونيين، وان الصهيونية ليست رديفاً لكلمة الحرية. سفوبودا. حرية. لا صهيونية».

وبدا على حلقة التشيكوسلوفاكيين التي كبرت حولي، والتي اختلط فيها ما تيسر من اللغات الأوروبية، أنها تجمع شيئاً مما تمكن تسميته بـ «الانتلجنسيا»، التي تتهمها موسكو بأنها السبب الرئيسي في «الانحراف» عن خط الكرملين، وتعتبر الكتاب هم رأس الحربة فيها. لذلك كان مطلب موسكو الحد من حرية النقاش والقراءة والانتقاد. وكان معظم أفراد الحلقة يحملون أجهزة ترانزستور، يستمعون الى الاذاعات السرية الكثيرة، التي تظهر ثم تموت بغتة، والتي كانت العماد في استمرار المقاومة في الداخل والخارج. فهذه المحطات السرية أخذت مكان الكتاب والصحافيين وحملة الأقلام، في غياب صحفهم واغلاق مطبوعاتهم.

وعاد محدثي المهندس الي، وقد غابت الاذاعات التشيكية الحرة في ضجيج أمواج التشويش، ليقول لي:

«في البدء اتهموا حفنة من المثقفين، بعضهم يهود لمعلوماتك، بأنهم وراء الليبرالية الديموقراطية في بلادنا. ولم يلبثوا أن اكتشفوا أن كل تشيكوسلوفاكيا تريد الحرية، وانها سعيدة، وانها غير محرجة أو خجولة من حكومتها منذ أكثر من عشرين سنة. وحدة من نوع جديد ولدت عند الشعبين التشيكي والسلوفاكي. تجربة لم تحدث من قبل في تاريخ تشيكوسلوفاكيا إلا ربما مرة أو مرتين. لم يكن هناك عبء الماضي. كان فقط طموح المستقبل. شعرنا بأننا نضع للمرة الأولى أسساً انسانية للنظام الاشتراكي والعقيدة الشيوعية. لعله كان فكرة «يوتوبية» الجمع بين الديموقراطية والشيوعية».

وتسلم الحديث جوزف اميل هاجيك (لا قرابة بينه وبين وزير الخارجية) مدرس في برنو، يبدو أكبر سناً، يحيط به طفلان. وقال:

«للمرة الأولى في تاريخ العلاقات الشيوعية يفجر بيـان للمثقفين اخطـر أزمة منـذ ولادة الماركسية ـ اللينينية. إن ما تعارضه موسكو، هو حرية تبادل الأفكار والمعلومات. تصور أن موسكو اعترضت رسمياً على بيان الـ ٢٠٠٠ كلمـة. أن المثقفين والكتـاب هم الذين جاؤوا بالاصلاحات الـديموقـراطية وسيستمـرون حاملـين اعباءهـا مهما كلفهم الثمن. ولتنتقل العدوى الى موسكو وبرلين وصوفيا وفرصوفيا. الحرية لا تجزأ، والحرية ليست ضد الماركسية. قد تكون ضد العباقرة الحاكمين سعداء في الكرملين فقط».

وتعاظم الضجيج، وارتفعت اصوات الترانـزستور تبحث مجـدداً عن الاذاعات الحـرة، وآخر اخبار البلاد المحتلة. وأخذت انسحب مودعاً رفيقي وجموع المنصتين الى النقاش.

لكن هاجيك، كأنه نسي شيئاً ما، امسك بيدي وقال لي:

«لا تنس آخر اخبار المقاومة في براغ. هل سمعت بها؟ إن الشعار المرفوع على الدبـابات السوفياتية يقول للجنود السوفيات: اذهب الى بيتك يا ايفان، فإن زوجتك أولغا تنام مـع جارك ايغور».

وضحك الكل. سفوبودا، سفوبودا، كانتا كلمتي الوداع.

فيينا ـ (١٩٦٨/٨/٣٠)



براغ

جنازة مضاءة بالشموع

ست محاولات في عشرة أيام. ست محاولات فاشلة. فقد كانت هناك أوامر من الحكومة التشيكوسلوفاكية لا تقبل الجدل: الأجانب ممنوعون من الدخول، وخاصة الصحافيون.

المحاولة السابعة، ذات صباح، كالعادة، انطلاقاً من فيينا، التي غادرتها في سيارة صغيرة استأجرتها، الى أن وصلت الى نقطة صغيرة الى الحدود النمساوية ـ التشيكية لم يحتلها السوفيات بعد.

كانت الطريق من الحدود النمساوية الى براغ طويلة وحزينة وخالية، فلم نصادف سوى سيارة تشيكية عتيقة كانت آتية من النمسا بتمهل يشبه التردد. وعلى طول الطريق، كانت اللافتات قد نزعت، ورفع التشيكيون مكانها لافتات أخرى تقول: الطريق الى موسكو.

لذا، كان الوصول الى العاصمة صعباً. ولم يكن ممكناً اكتشاف الطريق المؤدية اليها، بالتطلع الى الأعلام التشيكية المنكسة فوق المباني والتي ربطت بأشرطة سوداء فبدت كأطفال صغار يرتدون ثياب الحداد. ولا كان ممكناً الاستفسار عنها من الجنود السوفيات الذين انتشروا على جانبي الطريق، من دون أيّ محاولة للتمويه، وفوق رؤوسهم ملصقات تنادي بالانسحاب: «أيها الروس عودوا الى بلادكم»، «عد الى ناتاشا يا ايفان» وغيرها من الشعارات التي الفها الفريقان، الغازي والمقاوم.

وصلت الى براغ من غير أن تعترض سيارتي أيّ دورية سوفياتية أو مركز تفتيش، وطالعتني، هذا الصباح، مدينة حزينة حزينة، فالبراغيون لم يتركوا اسم شارع الا نزعوه، ولم يتركوا رقماً على منزل الا محوه. لقد سلموا الغزاة مدينة لا معالم لها، وأرادوا أن تجد الشرطة السرية السوفياتية عناء في البحث عن المطلوبين.

لكن هذه لم تكن مظاهر الحزن الوحيدة: ساحة فينشيسلاس الرئيسية، كانت هناك جنازة صامتة مضاءة بالشموع، طول الليل والنهار، حداداً على ٢٣ شخصاً قتلوا منذ بدء الغزو. لكن التشيكيين الذين استسلموا لتفوق الأمر الواقع رفضوا، ساعة الحداد، أن يستسلموا لحظر التجول وراحوا صبيحة الأحد ينثرون الزهور فوق صور شهدائهم.

في العاشرة والنصف أطل على الساحة رئيس الجمعية الوطنية جوزف سمركوفسكي، وقد جاء يؤدي دوره مع الآخرين. فوقف في صمت ثم أضاء شمعة أمام تمثال فينشيسلاس، الملك القديس، فيما تجمع الناس حوله بطريقة مؤثرة، وراحوا يصافحونه بهدوء. وعندما اندفع نحوه الأطفال والنسوة محاولين تقبيله، بدأت الدموع تنهمر من عيون الرجال الذين راحوا يرددون بصوت متهدج: «سفوبودا، سفوبودا».

وهمّ سمركوفسكي بالتوجه الى سيارته، يرافقه مساعد لم يكف عن النحيب، فرفعت الجموع السواعد والمظلات وأخذت تهتف بحياته.

بعد عشر دقائق، وصلت مجموعة من السيارات السوفياتية المسلحة، فتفرق الحشد ببطء نحو كنائس فتحت أبوابها التي ظلت مغلقة سنوات عدة.

من الساحة الرئيسية، الى الشوارع الأخرى، الدبابات والمصفحات السوفياتية انتقلت من النقاط الرئيسية، الى نقاط أقل عرضة للمشاهدة، غير أن دوريات المشاة والسيارات تجوب العاصمة باستمرار.

وفي الأيام التي تلت، تجمع شبان وشابات حول الجنود السوفيات، وغرقوا معهم في مناقشات حادة حول الغزو. مناقشات من دون نتيجة. مناقشات كل يوم. اللجنة المركزية طالت اجتماعاتها، والذين حاولوا تسقط أنباء الاجتماع لم يحظوا بالكثير من المعلومات. لكن هناك من يقول إن جميع محرري مجلة «ليتراني ليستي» تواروا عن الانظار خوفاً من الاعتقال، وجريدة الحزب «رود برافو» أصدرت عدداً خاصاً في ظل الرقابة، لكن الناس وقفوا في صفوف طويلة لشراء نسخهم منها.

«الرفيق دوبتشيك في صحة جيدة» قالت الصحيفة لقرائها. إلا انها لم تذكر شيئاً عن الاشاعات التي تملأ براغ والتي تقول إن وزير الداخلية جوزف بافيل، عدو السوفيات الأول، قد انتحر، وعن اشاعات اخرى تقول إن السوفيات قتلوه رمياً بالرصاص.

وفي الليل جرت ـ كما قيل ـ حملات اعتقال واسعة. وقيل إن قرع الأبواب منتصف الليل عاد من جديد موضة رائجة.

كذلك، انتعشت مجدداً حرب الملصقات على الجدران. بالرسوم الكاريكاتورية والقصائد يقول التشيكيون للسوفيات عودوا الى بلادكم. نعم للاشتراكية لا لروسيا. نعم للحرية لا للغزو.

وملصقات غير قليلة العدد تقول بـ «تحييد» تشيكوسلوفاكيا. تشيكوسلوفاكيا التي يبدو أنها تنتظر الأسوأ.

المئة مراسل أجنبي هنا في يأس هم أيضاً، ينتظرون سيف الرقابة على برقياتهم في أية لحظة. وقد تصدر البرقيات من براغ غداً مقطعة مشوهة أو بيضاء... هذا إذا صدرت.

براغ - (١٩٦٨/٩/٢)

■ ضحايا الرقابة

أفاقت براغ ، صباحاً، متوترة، في أعقاب حملة اعتقالات واسعة شنتها الشرطة السوفياتية السرية ليلاً إثر رمي قنبلة على القوات السوفياتية التي تحتل مبنى وكالة «تشيتيكا» في ساحة فينشيسلاس. وكان الجنود السوفيات قد احتلوا المركز الرئيسي للوكالة منذ اليوم الأول للغزو. واتهمت السلطات السوفياتية في براغ «القوى المعادية للثورة» بمحاولة «عرقلة الاتجاه نحو اعادة الحياة الطبيعية الذي بدأ منذ اتفاق موسكو».

عبثاً حاولت الدخول، في ذلك الصباح، الى مبنى الوكالة التي تحطم زجاج واجهتها وتناثر أمام المبنى. وعندما أصررت على الدخول، بحجة أن هناك مسؤولاً أريد مقابلته، أفهمني الضابط السوفياتي ورشاشه مصوب الى صدري أن لا أحد في الداخل... لأن الجميع اعتقلوا.

صديقي التشيكي، الذي كان يترجم لي أقوال الضابط، أكد نبأ الاعتقالات، لكنه أبلغني ان الكثيرين استطاعوا الفرار والاختفاء.

وبرغم عودة الأمور الى «طبيعتها» عبر مشاهد الناس الذين توجهوا الى أعمالهم، ومن خلال استئناف المواصلات العادية، فقد ظلت براغ مليئة بالملصقات التي تحمل عبارات معادية للاتحاد السوفياتي ولحلف فرصوفيا، مع أن الحكومة التشيكية بذلت مجهوداً لنزعها.

الى ذلك، كانت الأضرار التي تسبب بها الجنود السوفيات منذ أول أيام الغزو، بادية بوضوح، فالواجهة الأمامية للمتحف الوطني في ساحة فينشيسلاس كانت مزروعة بالرصاص، ودار الاذاعة القائمة في الساحة نفسها، والتي قام الجنود السوفيات على حراستها، مهدمة الجوانب. الأضرار كانت واضحة أيضاً في مبنى الجمعية الوطنية ومبنى اتحاد الكتاب ومقر الحزب الشيوعي الذي اقيمت حوله حراسة مشددة.

وأكد لي مصدر تشيكي مطلع اليوم أن التقديرات الرسمية الأخيرة لعدد القوات السوفياتية والقوات التابعة لحلف فرصوفيا التي تحتل تشيكوسلوفاكيا تقول إن هذا العدد يبلغ حوالي ٦٠٠ الف جندي. وهناك أيضاً ٧ آلاف دبابة ومصفحة، و ٣٥٠ طائرة، و٨٠ صاروخاً موجهاً، وضعت في أماكن استراتيجية في مواجهة براغ. ويقول المصدر نفسه أن ٨٠ بالمئة من الجنود هم سوفيات والـ ٢٠ بالمئة من بلغاريا وبولونيا وألمانيا الشرقية والمجر.

وذكر مصدر تشيكي آخر، أن وزير الداخلية السابق السيد جوزف بافيل الذي أقيل قد اعتقل في موسكو وأنه من المرجح أن يكون مصاباً بجراح لأنه قاوم الجنود السوفيات الذين جاؤوا لاعتقاله. وفي هذا، إذا صح، ما ينفي الرواية التي انتشرت في براغ عن انتحاره.

من جهة أخرى، يستبعد أن يعود وزير الخارجية السيد جيري هاجيك، الموجود حالياً في فيينا، الى براغ. وقد بدا ذلك شبه مؤكد بعد تعيين السيد بالسكوت وزيراً للخارجية بالوكالة، وكان احد نواب وزير الخارجية طوال السنتين الماضيتين.

وثمة اشارات الى أن عدداً من الوزراء سيقالون من الحكومة، كجزء من اتفاق التسوية الذي تم التوصل اليه في موسكو. وعلى رأس هؤلاء يرجح أن يكون وزير الثقافة غالوسكا المعروف بميوله المعادية للسوفيات، مما يتناسب في أيّ حال مع التغييرات التي ادخلت على اللجنة المركزية، أو مجلس الرئاسة كما يسمونه هنا.

بين الكثيرين من البارزين الذين أعتقلوا كان الكاتب مناتشكو الذي فر الى اسرائيل بعد حرب حزيران احتجاجاً على قرار حكومته الخاص بقطع العلاقات مع اسرائيل، والذي عاد الى براغ في مطلع هذه السنة ولعب دوراً بارزاً في حركة التحرر.

كذلك كان بين المعتقلين البروفسور إدوار غولد شتوكر رئيس اتحاد الكتاب والسيد بروشاسكا رئيس تحرير صحيفة «ليترارني ليستي» الأدبية التي أوقفت عن الصدور بعد ظهور آخر عدد منها في ٢٨ آب عام ١٩٦٨.

واذ يتوقع أن تعقد الجمعية الوطنية جلستها في أيّ لحظة لاقرار انتخابات مجلس الرئاسة الجديد، اعلن عن تأجيل مؤتمر الحزب الشيوعي الى اجل غير مسمى، مع العلم أن قرارات الجمعية اصبحت مجرد اجراءات شكلية.

وأوقفت البنوك التشيكية التعامل بالعملات الأجنبية كما أوقفت تحويل العملة الصعبة الى الخارج. وباستطاعة الناس الآن أن يبدلوا ما يملكون من عملة أجنبية لكنهم لا يستطيعون شراءها. وبإمكانهم تلقي الأموال بالدولار أو الاسترليني، غير انهم لا يستطيعون شراءها هنا. أما الحديث عن الرقابة فإنه حديث طويل. فهناك رجال سوفيات من خبراء اللغتين السلوفاكية والتشيكية يسيطرون على الاذاعة والتلفزيون والصحف، فيكتبون كل شيء، تاركين الظهور المرير أمام المواطنين لموظفين تشيكيين مكرهين.

وأول ضحايا الرقابة من الأجانب كانوا أربعة صحافيين: كنديان والماني غربي واسوجي، طلب منهم مغادرة البلاد بعد انتهاء مدة تأشيراتهم التي رفضت السلطات تجديدها.

لكن برغم كل شيء، بدت براغ اليائسة، صامدة ومستعدة للصمود أكثر.

براغ - (١٩٦٨/٩/٣)

■ إنهيار مذبح الزهور

انهار مذبح الزهور والشموع في ساحة فينشيسلاس، آخر معاقل المقاومة الصامتة الحزينة في براغ. وبدت العاصمة التشيكوسلوفاكية لأول مرة بعد اسبوعين كأنها استعادت انفاسها بعد كابوس الاحتلال. لكن الأمر الواقع المر ما زال جاثماً على صدرها. فالمحتل لم ينسحب إلا من الساحات العامة، من بين تجمعات الجماهير التي تطوقه، ولجأ هرباً من رنين السؤال الملح المستمر «لماذا، لماذا، لماذا؟» الذي يصم أذنيه، الى عزلة الحدائق العامة وزوايا الشوارع المعتمة. والانسحاب النهائي من المدن الرئيسية لن يتم الا عند ازالة آخر معالم المظاهر المعادية للاتحاد السوفياتي.

وكانت تجمعات الشباب التشيكوسلوفاكي عند قاعدة الملك فينشيسلاس حيث وضعت الورود والشموع أمام الصور ونعي ٢٣ شهيداً سقطوا برصاص المحتلين، كقربان لقديس تشيكوسلوفاكيا الأول، لعله يشفع لهم عند الغزاة. فالقديس فينشيسلاس الذي ولد العام ٩٠٣، وأصبح دوق بوهيميا من ٩٢٨ الى ٩٣٥، وقتله أخوه بوليسلافو على درج كنيسة آلت ـ بنزلاو في بوهيميا في ٢٨ أيلول، عام ٩٣٥، ومن بعد صار قديس بوهيميا، هو البطل والشفيع الدائم الذي لا خلاف حوله. إنه ليس مازاريك الأب ولا الابن ولا بنيس. إنه الشفيع ولم تستطع الشيوعية ان تجرد تشيكوسلوفاكيا منه خلال اكثر من عشرين سنة.

لكن حكاية الانسحاب تطول، خاصة أنها مرتبطة بشروط صعبة ومطاطة، تفسر على عشرين وجهاً، وتخضع لعامل الزمن الذي لا صفة استعجال فيه عند الجيوش المحتلة. وهناك ١٧ شرطاً للانسحاب، هي غير الشروط التي نص عليها اتفاق موسكو الغامض الذي يعتبر أساساً لأي مستقبل ـ إذا كان ثمة مستقبل ـ لبقايا الحرية في تشيكوسلوفاكيا.

من يعرف الـ ١٧ شرطاً سرياً التي تتحدث عنها براغ؟ رحت أبحث عند واحد من محرري «ليترارني ليستي»، هارب، ينام كل ليلة في بيت، ورئيس أحد الحلقات الدوبتشيكية. وكان اللقاء في بيت خارج العاصمة، عند امرأة عجوز، هي أمه، حولت غرفتها الصغيرة على السطح الى معمل للمنشورات السرية والملصقات، والى ندوة للفنانين والكتاب والشعراء. ما هي الـ ١٧ شرطاً؟ قال المصدر:

١ ـ خروج القوات المحتلة لن يتم نهائياً الا بعد «توطيد» الوضع حسب رأيها. وكلمة «توطيد» تخضع لأي تفسير ممكن في القاموس الروسي لا التشيكي.

٢ ـ انسحاب القوات بالشكل الآتي: القوات البولونية أولاً، ثم القوات البلغارية، بعدها القوات المجرية، بعدها القوات الالمانية الشرقية، أخيراً القوات السوفياتية. طبعاً تغير هذا الترتيب، انسحبت القوات الالمانية الشرقية أولاً، وتراجعت القوات

الأخرى في حلف فرصوفيا الى حدود كل منها ثانياً، وبقيت ـ وستبقى لزمن طويل مقبل ـ القوات السوفياتية.

٣ ـ لن تترك هذه القوات الأراضي التشيكوسلوفاكية ومناطق الحدود المجاورة لكل بلد منها، إلا إذا استطاع الجيش التشيكوسلوفاكي حراسة هذه الحدود والسيطرة على الوضع. وطبعاً فإن تقييم قدرة الجيش التشيكي تعود بالدرجة الأولى الى رأي موسكو.

٤ ـ للجيش السوفياتي الحق في اجراء ما يراه مناسباً من تغييرات في قيادة الجيش التشيكوسلوفاكي، وبنائه وتدريبه، بحيث يكون قادراً في رأيه على «حماية» البلاد و «توطيد» الأوضاع. وهذا يعني اخضاع الجيش التشيكي نهائياً لسيطرة القوات السوفياتية.

٥ ـ اجراء التغييرات الآتية في الحكومة التشيكية الحالية: بافيل، وزير الداخلية «اقيل وقيل إنه مجروح وسجين في موسكو»، تشيك، نائب رئيس الوزراء «قبلت استقالته بناء على طلبه»، غالوشكا، وزير الثقافة (أقيل ومعتقل)، كادلتيس، وزير الثقافة (أقيل واعتقل)، سوفاردا، النائب الثاني لرئيس الوزراء (أقيل ومعتقل). تحقق معظم هذا الشرط.

٦ ـ اعادة تنظيم الأمن العام التشيكوسلوفاكي باشراف الـ «ك. ج. ب.» الشرطة السرية السوفياتية على أسس «ماركسية ـ لينينية». لم يبدأ بعد.

٧ ـ اعادة الرقابة على أجهزة الاعلام، من صحف واذاعة وتلفزيون. تحقق.

٨ ـ على تشيكوسلوفاكيا أن لا تسمي الجيوش الغازية «محتلة» بل «أجنبية».

٩ ـ يحبذ الحزب الشيوعي السوفياتي القرارات التقدمية التي اتخذها الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي في كانون الثاني ونيسان وأيار، عام ١٩٦٨، ويوافق على تطبيقها. وانه الشرط الوحيد المطمئن، والذي يعتبر مناقضاً لبقية الشروط.

١٠ ـ يراقب الاتحاد السوفياتي السياسة الخارجية للحكومة التشيكوسلوفاكية مراقبة كاملة.

١١ ـ لا يعترف الحزب الشيوعي السوفياتي بالاجتماع الرابع عشر الذي عقده الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي أيام الاحتلال، ويدعو الى اجتماع آخر جديد وانتخابات جديدة.

١٢ ـ على الحكومة التشيكوسلوفاكية واللجنة المركزية للحزب أن تطبقا المقررات في مباحثات تشيرنا وبراتيسلافا.

١٣ ـ يحق للاتحاد السوفياتي اعتبار كل خلل في الأمن الداخلي علامة على عدم مقدرة الحكومة التشيكية على ضبط البلاد وعدم صلاحيتها للحكم.

١٤ ـ تعتبر محادثات موسكو التي جرت مع الرئيس سفوبودا في ٢٣ آب عام ١٩٦٨، نهائية ومبرمة.

١٥ ـ الاتحاد السوفياتي على استعداد لتعويض الخسائر التي احدثها الاحتلال في تشيكوسلوفاكيا، إلا أن تقديرها يعود اليه وحده.

١٦ ـ ابلغ الحزب الشيوعي السوفياتي، جيوشه أنها مكلفة خنق كل محاولات المقاومة التي قد تقوم ضدها وضرب أيّ «ثورة مضادة» في البلاد.

١٧ ـ لدى الشرطة السرية السوفياتية لائحة كاملة بأسماء الاشخاص المطلوبين بتهمة «الثورة المضادة» والعداء للاتحاد السوفياتي. وهو يطلب من السلطات التشيكية مساعدته في القاء القبض عليهم. كما يطلب وقف الحملات داخل البلاد ضد الاشخاص «المتعاونين» مع موسكو، والكف عن التشهير بهم.

من خلال هذه السبعة عشر شرطاً المستحيلة، تقف براغ تحت تمثال شفيعها فينشيسلاس، متسائلة بحرارة وأسى أن يحميها من ذل الانكسار، وتركض الى تمثال بطلها الوطني «يان هاس» لتعصب عينيه حتى لا يرى مأتم الحرية في وطنه بلا زهور ولا شموع.

براغ ـ (١٩٦٨/٩/٦)

■ حياد الرفيق «يورجي»

ليل، ومنع التجول ما زال سارياً وصديقي التشيكي يقودني ماشياً في شوارع براغ التي اختفت اسماؤها. الى أين؟ الى لقاء احد كتاب تشيكوسلوفاكيا ورئيس احدى الحلقات المسمية نفسها «الحلقة الدوبتشيكية»، والمسؤول عن عدد كبير من المنشورات السرية والملصقات التي تملأ العاصمة.

الى أين؟ كان السؤال من جديد. الى عند يورجي، ولنكتف بتسميته هكذا. ماذا يعمل؟ في السابق كان محرراً في صحيفة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي «رود برافو»، واستاذاً للأدب الروسي في احدى كليات براغ، وعضواً في الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. وبعد الاحتلال صار كاتباً لعدد من المنشورات السرية وضابط اتصال بين فناني الملصقات واللافتات، ومطلوباً للـ «ك. ج. ب» - الشرطة السرية السوفياتية - بتهمة «الثورة المضادة» والعداء للاتحاد السوفياتي.

الدرج طويل ومعتم. نصل الى البيت. لا إسم عليه ولا رقم. نخاف أن نقرع الجرس. قد لا يكون المكان المقصود. لقد ضاعت معالم العاصمة، أسماؤها وأرقامها فجأة. لنقرع. تفتح الباب امرأة عجوز بدينة. من هي؟ قريبة. أين يورجي؟ في الداخل يطبع على الآلة الكاتبة آخر منشور في تلك الليلة ليوزع في الغد. اللقاء ودي من دون تحفظ. المرأة تعمل القهوة. القهوة لا تشرب. نلحظ أن الضوء خافت وأن الستائر مسدلة.

يبدأ يورجي الكلام، ومعه شاب صغير كان يملي عليه من ورقة أمامه، والشاب يتطلع اليه باعجاب شديد. وأسأله:

ما هي الحلقات الدوبتشيكية؟ ما نوع المقاومة التي تقومون بها ما دام الاحتلال باقياً؟

- الحلقات الدوبتشيكية مهمتها مساعدة المؤسسات الشرعية التشيكوسلوفاكية، كالحزب الشيوعي والحكومة والمجلس الوطني، في الداخل والخارج. إنها المعارضة اذا شئت. ليست عندنا معارضة مسلحة، لأن من الغباء مقاومة قوة كروسيا بالسلاح القليل القليل الذي نملكه. مهمتنا اعلامية وديبلوماسية، عندنا وثائق تدين التدخل السوفياتي وتشهد على لاانسانيته. سنعرضها على محكمة العدل الدولية والصليب الأحمر الدولي. القوات السوفياتية كانت تطلق الرصاص على سيارات الاسعاف التشيكية وهي تلملم الجرحى والقتلى صبيحة يوم الاحتلال. سنساند المؤسسات الشرعية والسلطة الحكومية في نقاشها مع موسكو ومناهضتها لشروط هذه حتى ينتهي الاحتلال.

واذا انتهى الاحتلال، ماذا تفعلون؟ كيف سيكون المستقبل؟

- نحن كممثلين لجميع الطبقات الاجتماعية في تشيكوسلوفاكيا من فنانين وموظفين وعمال، سنحاول أن نزيد من الرباط الذي يشدنا بعضنا الى بعض، لنبني مجتمعاً اشتراكياً انسانياً على أسس تجربة الحركة العمالية العالمية. سنحاول قدر استطاعتنا، ان ننهض بشعب تشيكوسلوفاكيا. أن نرفع من مستوى اقتصادنا الوطني. أن نعيد

حرية الانسان في العمل، وأن ندفع ببرنامج الحزب الاصلاحي الذي اتخذ في كانون الثاني الماضي الى التحقيق. أن نطور صناعتنا على دعائم حديثة وأن نستغلها استغلالاً كاملاً بعيداً عن رقابة الكوميكون (السوق الأوروبية الشرقية).

والحياد، هل له مستقبل في تشيكوسلوفاكيا؟ ما وراء الشعارات المطروحة على الجدران؟

ـ الحياد ليس مطلباً جدياً. كل ما تراه كان موجهاً لاغاظة الاتحاد السوفياتي. والحياد غير ممكن في تشيكوسلوفاكيا لسببين. الأول: أن المواطن العادي لا يستطيع فهم حقائق ـ أو حتى بديهيات ـ العلاقات الدولية وخاصة في ما يتعلق بالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. ولا يستطيع أن يفهم سر العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وبولونيا ورومانيا، ولا سبب وجود أميركا في فيتنام وكوريا. كما أن الحياد غير ممكن اقتصادياً ولا عسكرياً. فالأمم المتحدة تتطلب سبعة ضمانات معينة في كل بلد يريد الحياد، وهي غير متوافرة في تشيكوسلوفاكيا. منها قدرة البلد على حماية نفسه عسكرياً وقبول الشرق والغرب بحياده، طبعاً.

والحلقات الدوبتشيكية، مرة ثانية، ما برنامجها وما هي؟

ـ الحلقات الدوبتشيكية تجمعات طوعية لمقاومة الاحتلال، وليس من الضروري أن يكون أعضاؤها من الحزب الشيوعي. عملهم توعية الشعب على برنامج الحزب الاصلاحي وآراء زعيم الحزب دوبتشيك، بالتركيز على امكان اعتماد تشيكوسلوفاكيا على نفسها وبناء اقتصادها من دون تدخل الاتحاد السوفياتي. ومهمة الحلقات أيضاً الإيضاح للناس أن ليس هناك من تدخل رأسمالي وأن الرأسمالية لن تعود الى البلاد. وقد نمت الحلقات منذ اجتماع الدول الخمس في فرصوفيا وتوجيه رسالتها الشهيرة الى حزبنا وحكومتنا، قبل اتفاق تشيرنا وبراتيسلافا. كل ما نريده بناء مجتمع اشتراكي مختلف عن الاتحاد السوفياتي.

وهل هذا ممكن؟

ـ طبعاً. مستوى ٤٠ بالمئة من مواطني تشيكوسلوفاكيا الحياتي أعلى من مستوى مواطني الاتحاد السوفياتي. فضلاً عن الامكانات الثقافية والفكرية التي تعتبر أعلى بكثير من امكانات الاتحاد السوفياتي ـ لا روسيا ـ بكل جمهورياته ومقاطعاته. مثل اقتصادي بسيط: المرأة التشيكية العاملة في تنظيف القطارات تتقاضى عندنا ١٢٠٠ كرون، بينما المرأة السوفياتية تتقاضى ٨٠٠ كرون. عامل البناء في تشيكوسلوفاكيا يتقاضى ١٤٠٠ كرون، بينما يتقاضى في الاتحاد السوفياتي ١٠٠٠ كرون. البضائع الاستهلاكية عندنا أكبر. الطبقة العاملة عندنا أكثر اهتماماً وتتبعاً واشتراكاً في الأمور السياسية مما هي عليه في الاتحاد السوفياتي. كل ما نريده أن نبني مجتمعاً اشتراكياً على طريقتنا، لا على الطريقة السوفياتية.

والتأثير الفوري لنشاطكم، كيف سيكون؟

ـ من الممكن أن يكون تأثيرنا على الجنود السوفيات كبيراً من خلال التحامنا المباشر بهم عن طريق النقاش المستمر، لعلهم يفهموننا ويفهمون أننا لسنا من أبناء «الثورة المضادة»، وأن الحرية شيء مشروع في الماركسية ـ اللينينية. لا نريد منهم أكثر من أن يتفهمونا، ولا نريد حتى أن يصابوا بعدوى الحرية. لهم بيتهم ولنا بيتنا. إلا أننا لا نضمن عدم تسرب أفكارنا التحررية الى أوكرانيا، أشد الجمهوريات السوفياتية تململاً وأقربها الى الحدود التشيكوسلوفاكية. والخير في الحرية دائماً.

سؤال أخير، من في الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي طلب مساعدة موسكو المباشرة التي نتج عنها الاحتلال. وما القصة الحقيقية لهذا الأمر الغامض؟

ـ حسب معلوماتنا وكما ظهر في المؤتمر الرابع عشر للحزب فإن هناك فريقين محافظين في الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، فريق صغير يتألف من أشخاص أمثال بربيريك وريغو وعدد آخر من المحافظين العتاق خريجي مدارس موسكو. والفريق الثاني يتألف من كولدر وايندرا وبيلاك وشفستتشكا وياكيش. الفريق الثاني هو الأقوى، وهو الذي طلب المساعدة العسكرية السوفياتية. ذهب في ١٩ آب الى اوسترافا على الحدود حيث تم اجتماع مع بعض القادة السوفيات واعدت الترتيبات العسكرية النهائية للغزو. من الناحية السياسية هيأ الفريق الثاني تشكيلة وزارية، على الطريقة المجرية أغلبها من تكتلات عمالية وفلاحية، لترث الحكم الشرعي من دوبتشيك. وعقدت هذه التشكيلة اجتماعاً في ١٨ آب في السفارة السوفياتية في براغ، أي قبل ٤٨ ساعة من الاحتلال، وحضر الاجتماع لينارت ـ رئيس الوزراء السابق من خارج التشكيلة، وفيه تقرر استدعاء الجيوش السوفياتية ووضعت الصيغة النهائية للحكومة «المتعاونة» مع السوفيات. وفيه أيضاً اعترض الرفيقان ملينار وسادوفسكي على فكرة استدعاء قوات احتلال. قالا بوجوب تصحيح الأوضاع من الداخل. شجبا فكرة التآمر، فهددهما السفير السوفياتي تشيرفو منسكو، وطلب صيغة نهائية للحكومة. ارفضّ الاجتماع بخروج ملينار وسادوفسكي من دون اتفاق. لذلك فرضت التشكيلة السياسية لتكون في استقبال الغزاة. الا أن الثلاثة الذين كانوا عارفين بالاحتلال وتوقيته وتفاصيله هم كولدر وايندرا وياكيش، ومعهم من المساعدين المدير السابق لوكالة الانباء التشيكية «تشيتيكا» سولك، ومدير المواصلات هوفمان والمدير السابق للاذاعة ماركو ونائب وزير الداخلية شاكوفيتش ورئيس الأركان السابق الجنرال ريتيرج. هذه هي القصة.

وطال الليل. وفرغت الشوارع. وجاءت من جديد القهوة التي لا تشرب، وحل التعب. وكان لا بد من فراق، يبحث فيه يورجي عن بيت جديد ينام فيه هرباً من عيون الشرطة السرية، ونحن عن مزيد من الأخبار، من بين ركام الورود والشموع والكلمات الكثيرة التي تتدفق كل يوم ليقاوم بها الشعب التشيكي الارهاب والرصاص والظلام.

أما الغد في براغ فله حديث آخر.

براغ ـ (١٩٦٨/٩/٧)

المقاومة بالفنون

كيف يمكن أن تكون مقاومة شعب صغير اعزل؟ لا أحد يسأل هذا السؤال في براغ، ولا حتى الصحافيون. لماذا؟ لأن الكل يقاومون، والمقاومة الحقيقية هنا لا تعرف الحدود. التشيكوسلوفاكيون يقاومون بكل طريقة أو وسيلة تخطران على بال انسان.

ولا بد للمراقب، أياً كان، من أن يحني رأسه احتراماً لأروع نوع من المقاومة يمارسه شعب في وجه محتل كبير ـ وهل هناك أكبر من الاتحاد السوفياتي؟ ـ جاء بدباباته وأحذيته ليدوس، صيف حلم الحرية، الذي لم تعشه تشيكوسلوفاكيا أكثر من تسعة أشهر، في عشرين سنة.

لا رصاص، لا قنابل، لا عنف. لقد انتهت طفرة المقاومة اليائسة ومحاولة حرق الدبابات في اليومين الأولين. وتحولت المقاومة الى ما هو بعيد عن متناول الرصاص. تحولت، بالكلمة، بالصورة، بالرسم، بالشعر، بالحرف. وفوق هذا كله، بالورود والحمام.

فجأة، عندما غابت أسماء الطرق والشوارع في كل مدن تشيكوسلوفاكيا واختفت معها ارقام المنازل، ظهرت على الجدران حملة شعارات تعتبر من أطرف واذكى وأحلى ما جابه به شعب محتل غازياً. وكانت الشعارات واللافتات منقسمة قسمين. قسمٌ موجهٌ الى الجيش السوفياتي وجنوده وجيوش حلف فرصوفيا، وقسمٌ آخر الى التشيكيين انفسهم.

القسم الموجه الى التشيكيين كان الأقل والأكثر جدية. معظمه كان يحض على التمسك بالحرية ومناهضة المحتلين وتشجيع الزعماء.

«برافو ايتها الاذاعات السرية. ولكن لا تتركينا». ذلك واحد من الشعارات. «سفوبودا دوبتشيك» ـ الحرية لدوبتشيك ـ: كان الشعار الأكثر شيوعاً وانتشاراً. «الحرية مع سفوبودا، ودوبتشيك بعد مازاريك»: شعار آخر دهنت به واجهات المحلات. صور دوبتشيك وسفوبودا وسموركوفسكي في كل مكان. الأعلام التشيكية بألوانها الثلاثة مع شارة الحداد السوداء كانت على كل السيارات وعلى كل الصدور. الوصايا العشر ـ أو أكثر ـ التي وزعت على التشيكيين لحسن التصرف، كانت كالكلام المنزل.

وكان القسم الموجه الى الجيوش المحتلة، هو الأهم. هنا استعمل التشيكوسلوفاكيون جميع ما يملكون من فن وروح نكتة وطرافة. الكاريكاتور كان سلاحاً أساسياً في الملصقات، والشعر كان السلاح الرومنطيقي. القصائد بخط اليد، وعلى الآلة الكاتبة، كانت على الجدران والواجهات. كل من يجيد قرض الشعر كان يجرب حظه. يكتب قصيدة من بضعة أبيات ويلصقها على الحائط. ويلتف الناس حولها وينقلونها ويلصقونها على حائط آخر.

هكذا راج الشعر في براغ. أشهر القصائد المعلقة، كانت قصيدة بعنوان «نوفوتني»،

تعبر بسخرية عن أحوال تشيكوسلوفاكيا في أيام الرئيس السابق وأحوالها اليوم، وتذكر نوفوتني بأصدقائه الروس وحبهم لتشيكوسلـوفاكيـا. قصيدة أخـرى كانت تعبـر برقـة وحزن عن أوضاع البلاد. الشعر والكاريكاتور كانا كالمطر.

ثم الشعارات المدهونة على الجدران، والتي أزعجت الاتحـاد السوفيـاتي الى درجة ربط انسحابه من براغ بازالتها أولاً. منها: «ايفان، أليست عندك مشكلة جنسية؟».

براغ - (٨/٩/١٩٦٨)



ما بعد براغ

حكاية ليلى والذئب

في براغ، ما عاد هناك وقت للدموع. انهارت الذكريات كلها ساعة أصبح واقع المستقبل أهم من مأساة الحاضر، وأصبح الماضي تراثاً من التاريخ يتراكم.

في بوخارست، ما عاد الخوف ينفع. العناد غدا جزءاً من شخصية الوطن والمواطن معاً.

وتحولت الواقعية من سياسة شجاعة الى شجاعة لا تخاف الخوف. الكل في رومانيا يعرفون أن الاستقلال يؤخذ ولا يُعطى.

في فيينا، أحس الناس بالبرد فجأة بعد غزو تشيكوسلوفاكيا. وخافت النمسا من أن تجتاح العاصفة حيادها الهش، وهي فاتحة صدرها لتحضن الخوف الهارب عبر الحدود، والمقاومة الطرية التي يطاردها الارهاب.

انها محطات ثلاث، ومجموعة أيام من الحرية والاحتلال.

الطريق الى براغ كانت طويلة، شاقة وصعبة. وكان الانتظار مراً ومضنياً. لكن براغ تستحق كل هذا الانتظار وكل تلك المشاق. في فرانكفورت، في فيينا، في بلغراد، كانوا يروون لي قصة ليلى والذئب، كلما حدثتهم عن رغبتي في الوصول الى براغ. ليلى والذئب؟ نعم، القصة القديمة نفسها، استعادت فجأة كل رمزيتها وأهميتها. الجدران امتلأت في براغ بصورة ليلى وقبعتها الحمراء واقفة أمام الذئب الروسي، تسأله: عن أسنانه الكبيرة وعينيه الواسعتين المنتفختين وفمه الكبير. وكان جواب الذئب الروسي لليلى التشيكوسلوفاكية: حتى آكلك والتهمك. الجواب القديم نفسه. وتهرب ليلى وتطير قبعتها الحمراء، ويلحق بها الذئب.

وغدت قبعة ليلى الحمراء وعليها صورة الذئب الروسي علامة من علامات المقاومة. صورة

ليلى الجميلة أمام أنياب الذئب الروسي المرسوم عليها المنجل والمطرقة، كانت معلقة على أكثر الصدور.

وليلى لم تكن في انتظاري على جسور الفلتافا المئة التي تحفل بها واحدة من أجمل عواصم أوروبا وأعرقها، النهر الذي ينساب عبر تعرجات المدينة، كان وحده يروي التاريخ التشيكوسلوفاكي الذي بدا غير مدهوش لما رأى وسمع وشاهد في ٢١ آب عام ١٩٦٨، عندما عبرت الدبابات السوفياتية أول الجسور.

وبراغ لم تكن بحاجة الى الذكريات. كانت بحاجة الى حساب الوقائع. لماذا حدث ما حدث وكيف؟ صار التاريخ عبئاً. حتى اسم «يالطا»، ذلك المرفأ الايراني على البحر الأسود الذي اجتمع فيه ستالين وتشرشل (وبعده اتلي) وروزفلت (وبعده ترومان) ليقتسموا غنائم العالم في نهاية الحرب العالمية الثانية، صار عاراً يجب أن يمحى. في يالطا أعطيت تشيكوسلوفاكيا للامبراطورية السوفياتية. وعند دخول قوات الاحتلال السوفياتية، ازال التشيكيون اسم «يالطا» من على واحد من أهم فنادق العاصمة وأعرقها. اختفى اسم «فندق يالطا» في ساحة فينشيسلاس. في ذلك المؤتمر، منذ أكثر من عشرين سنة لم يؤخذ رأي الشعب التشيكي يوم باع الغرب جمهورية توماس مازاريك الأب، باسم ابنه جان، من الاتحاد السوفياتي. انهم لا يريدون أن يذكروا الاسم. فليزل مع بقية اسماء الشوارع وأرقام البيوت حتى لا تراه عيون المقاومين فتدمع.

ماذا يحكون في براغ؟ عن فيلم «ماي فير ليدي» الذي يعرض أم فيلم «هلب» للبيتلز. أم آخر الاسطوانات الغربية التي وصلت الى الأسواق. أو عن الفتيات الجميلات بالميني - جوب، اللواتي ازددن جمالاً، وأناقة عندما أخذن يلصقن اللافتات المناهضة للاحتلال على شوارع العاصمة ويشعلن الشموع ويلقين الازهار في الأمكنة حيث سقط شهداء برصاص الغزاة. ولم ينسين الحب.

لا، في براغ يحكون أشياء. يحكون القصة من البداية. من حلم الديموقراطية والحرية الذي ما عاش أكثر من تسعة أشهر. يحكون كل شيء للاضدقاء.

يردون الأمور الى أسباب شتى. لعل السبب الاقتصادي هو الأكثر الحاحاً. العهد عهد نوفوتني وبقايا الستالينية. وكلما زادت الأوضاع الاقتصادية سوءاً، كان الناس يضعون السوء على رأس الحزب الشيوعي. منذ عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٨، عشرون سنة من الحكم الشيوعي. وفي أيام تلك الفترة وسنواتها حدث الانهيار. اذن فالحزب الشيوعي هو المسؤول وحده. لكن هناك حزبين آخرين مؤتلفان مع الحزب الشيوعي الحاكم. الحزب الاشتراكي وحزب الشعب. والثلاثة معاً يؤلفون ما يسمى بالجبهة الوطنية. ولكل واحد وزير في الحكومة. ولا واحد يريد أن يعترف بأن الجبهة الوطنية مسؤولة أو شريكة في الحكم. وسقط نوفوتني. وجاء دوبتشيك الذي ارتفعت معه معنويات الحزب الشيوعي، بعدما وصلت الى الحضيض من قبل. قال دوبتشيك

للشيوعيين عليكم أن تستعيدوا ثقة الشعب. انزلوا الى الشارع، اسألوا الناس عن شكواها. اتركوا مكاتبكم. نظموا كادراتكم من جديد. تشيكوسلوفاكيا ليست كلها شيوعية. قولوا للشعب إن الشيوعية ليست إفقاراً أو إرهاباً أو قوانين جائرة. قولوا إنّ الشيوعية لا تتعارض مع الحرية وإن الحل الاقتصادي في يدنا. همكم الأول استعادة ثقة الناس.

وجاء مؤتمر الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي الرابع عشر. وانتخب دوبتشيك وسقطت «النوفوتنية» نهائياً كسياسة للبلاد، وأقر برنامج الحزب الاصلاحي التقدمي في كانون الثاني، عام ١٩٦٨. وفتحت النوافذ وقفزت شعبية الحزب الى القمة. شعبية لم تعرفها الشيوعية في أي بلد منذ فكر بها ماركس وطبقها لينين.

الحرية. ولا شيء غير الحرية كانت الورقة الرابحة. إنها الغاية. أما الوسيلة فكانت الديموقراطية. وللمرة الأولى تنتخب جمعية وطنية انتخاباً حقيقياً صحيحاً مباشراً. وللمرة الأولى تفوز لجنة مركزية بالصوت الحر لا برفع الاصبع الخائفة. طبعاً الحزب الشيوعي جناحان. والآخر الجناح المنتفع «بالنوفوتنية»، المحافظ، الخائف من التجديد. جناح البيروقراطيين المحتل مناصب الادارة والحكومة والصناعة بسبب مركزه في الحزب وتقربه من الستالينية، لا بسبب كفايته. وباحلال الولاء للحزب مكان الكفاية، تدهور الاقتصاد ومعه الدولة. وعارضت هذه الطبقة ـ طبقة المديرين ـ كما يسمونها في براغ، أي تغيير.

وذلك طبيعي. فقد كانت مهددة في مصالحها ومراكزها. وجاءت الدوبتشيكية. طلبت منهم أن يقدموا استقالاتهم وأن يختاروا الوظائف الأخرى التي يحبون أن يعينوا فيها. إنه طراز من المعاملة غير معروف في الأسلوب الشيوعي. وهكذا حلت فرق الشرطة السرية وجيوش المراقبين على الصحف والاذاعة والتلفزيون. ووجدوا لهم عملاً ثانياً.

وإذ تحركت الأحداث، اكتشف الناس أن لتلك العناصر «المتحجرة» وزناً أكبر مما قدروه.

واتضح ان الاتحاد السوفياتي كان يعتمد عليها. وعلى هذا تمت محاولة تأليف حكومة من بين هذه العناصر غداة يوم الاحتلال وقبل سفر رئيس الجمهورية سفوبودا الى موسكو ليل الجمعة ٢٣ آب. كان رفض سفوبودا قاطعاً. كما كانت وحدة الشعب وصموده ومقاومته للاحتلال غير قابلة للتأويل.

ولم ينس «البيروقراطيون» أصحاب الامتيازات المتضررة من التغييرات ورقة أخرى رابحة في جيبهم. المانيا الغربية. بعبع تشيكوسلوفاكيا الدائم. وطرح الرعب الالماني الغربي في سوق الشائعات. جاء فالتر أولبريشت زعيم المانيا الشرقية، وباني جدار برلين، ليمسك بالعصا في وجوه التشيكوسلوفاكيين. خاف من البذرة ـ الحرية ـ أن تنمو في أرضه. أن تنقل العدوى الى شعبه. كان لا بد من القضاء عليها مهما يكن الثمن. لقد بنى جدار برلين ليمنع مواطنيه من الهرب الى الغرب. وصار الالمان الشرقيون يأتون الى

تشيكوسلوفاكيا ويهربون منها الى الغرب، أو الى رومانيا أو يوغوسلافيا. خاف من آلاف السياح الالمان الغربيين الذين وفدوا الى تشيكوسلوفاكيا.

خاف من إمكان اعتراف الحكومة التشيكية ببون واقامة علاقات ديبلوماسية من دون أن تعترف المانيا الغربية بدولته الالمانية الشرقية. قال اولبريشت لدوبتشيك: على الاقل اطلبوا من بون أنْ تعترف بنا. ولم يكن هذا شرطاً تريد براغ ان تطرحه على بون. لقد أراد دوبتشيك ووزير خارجيته هايك أن ينهيا مع كيسنجر وبراندت عقدة الخوف من المانيا. كما كانا يريدان مساعدات اقتصادية المانية تخفف من حدة الأزمة التي تعانيها تشيكوسلوفاكيا. ولم يكن من وقت للأسئلة المحرجة.

ولم ينس أولبريشت الاستقبال الفاتر ـ الى حد العداء ـ الذي قابله به التشيكيون عند زيارته لبلادهم قبل أسبوع من الغزو. وكان اولبريشت الجلاد الأول في حفلة الاعدام. وجاءت القوات الالمانية الشرقية في بدء الاحتلال كأكبر رديف للقوات السوفياتية. وفجأت تذكر أولبريشت ـ أو تذكرت موسكو الذكريات الألمانية التشيكية الأليمة، وانتبهت للمرة الأولى منذ عشرين سنة، الى أن اللباس العسكري لجيش المانيا الشرقية يشبه لباس النازيين. وظروف المقارنة متوافرة باستمرار. فسحبت قوات اولبريشت الى ما وراء حدودها، واستعيض عنها بقوات سوفياتية.

رومانيا كانت بعيدة ومن الخوارج. مَنْ يعين تشيكوسلوفاكيا من الداخل. المجر. اكثر البلاد القريبة من موسكو غير الخارجة عن طاعتها فهماً لما يجري عند التشيكيين. صحيح أن كادار رجل موسكو ووارث إيمري ناجي. إلا أن كادار مجري ويدرك عمق ما حدث في بلاده العام ١٩٥٦، لذلك كان العطف المجري على كل ما يجري في تشيكوسلوفاكيا واضحاً، وإن كان غير معلن أو صريح. كانت المجر وسيلة من وسائل الحوار الدائمة بين موسكو وبرلين الشرقية وبين براغ. كادار ووفده في فرصوفيا كانوا وراء تخفيف حدة الرسالة التي بعث بها حلف فرصوفيا بتواقيع دوله الخمس الى تشيكوسلوفاكيا رداً على رسالة الـ «٢٠٠٠ كلمة». وتحولت رسالة فرصوفيا من انذار علني الى تهديد مبطن. وظل كادار يجتمع ودوبتشيك سراً فترة طويلة لمحاولة إيجاد مخرج. وظل كادار على علاقات طيبة مع دوبتشيك حتى الغزو. ولم يأت أمر الغزو من بودابست، بل جاء من موسكو.

وخضع كادار. لذلك كانت أكثر حوادث اطلاق النار في البدء من قبل القوات المجرية. لأنها كانت خائفة ووجلة ومصابة بانفصام في الشخصية عندما دخلت الأراضي التشيكوسلوفاكية، كما كانت الأكثر شعوراً بالمأساة. وايضاً كانت بودابست أشد عواصم حلف فرصوفيا حزناً وصمتاً وخجلاً.

وخيّم الاحتلال. وعادت الذكريات. ذكريات الحرية التي ما استمتع شعب بها في فترة قصيرة بقدر ما استمتع التشيكيون. أصبح عندهم «هايد بارك» في الحديقة العامة المقابلة لمحطة سكك الحديد في براغ. سموها بالأمس «هايد بارك» تيمناً بهايد بارك

اللندنية. اليوم احتلتها القوات السوفياتية وغدت مركزها الرئيسي في العاصمة. ومن على صحاحير «هايد بارك» براغ كان التشيكيون يعلنون أقوالاً وآراء في الشيوعية والاتحاد السوفياتي، ما ينسي مالكاً وكل ما قاله في الخمر.

وبغتة ارتفعت مبيعات الصحف. كثر كتاب القصة والنقد والمقالة والشعر. زاد توزيع «رود برافو» ـ العلم الأحمر ـ صحيفة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي من ٥٠ ألف نسخة الى ٢٧٥ ألفاً، وبلغ توزيع صحيفة «لودوف ديموكراسيا» ـ ديموقراطية الشعب ـ ١٨٠ الف نسخة بعدما كان ٤٠ ألفاً. «العمل» ـ صحيفة نقابات العمال ـ التي ظن الناس أنها ستعارض المد التحرري في البلاد، صارت لسان حال العمال المثقفين والمفكرين والنقابيين. وقد قفز توزيعها الى أرقام لم تحلم بها. ومع القراء، علت نسبة الكتاب والفنانين والشعراء، وعدد الأندية التي كانت بديلاً للأحزاب السياسية، حتى غدا نادي «٢٣١» ـ هكذا اسمه نسبة الى رقم المنزل الذي يحتله في الشارع ـ أهم ما يقلق موسكو.

ولكن ماذا كان أهم ما يقلق العرب. الصهيونية. عودة العلاقات مع اسرائيل. تغلب العنصر اليهودي. كل هذه الأمور مجتمعة. ربما. ولكن الصحيح هو أن عناصر صهيونية يهودية اندست في الحركة التحررية، وحاولت أن تستغلها وتوجهها عن طريق الضغط على الأوساط الحزبية التقدمية لاعادة العلاقات الديبلوماسية المقطوعة مع اسرائيل. كانت حجتهم في مطالبة الحكومة التشيكوسلوفاكية بتعديل موقفها أنّ قطع العلاقات كان بأمر من موسكو، وكحكومة مستقلة عليها أن تعيدها حتى تظهر استقلالها عن موسكو، أسوة برومانيا، وأن تتبنى موقفاً وسطاً بين العرب واسرائيل. إلا أن العناصر الصهيونية اليهودية لم تصنع التحرر ولم تخلق موجة الحرية. كل ما فعلته هو محاولة ركوبها لمصلحتها. وكان موقف الحكومة التشيكوسلوفاكية كما أكدته لكل الديبلوماسيين العرب في براغ، في فترة دوبتشيك، صلباً واضحاً لا يتغير. «نحن لن نعيد العلاقات مع اسرائيل ولن نؤيدها ضد العرب اطلاقاً. ونريد أن نؤكد رسمياً للدول العربية أننا لن نغير موقفنا من اسرائيل ما دامت اسرائيل لا تمتثل لقرارات الأمم المتحدة، وما زالت محتلة لأجزاء من الأرض العربية». ولم يتغير هذا الموقف ولم يتبدل. كل ما تغير هو أن التشيكيين أخذوا يسخرون من العرب الذين من المفروض أن يكونوا أدرى الشعوب بالاحتلال ووطأته ومعناه، عندما أيدوا الاحتلال السوفياتي أو وقفوا صامتين ازاءه.

والتشيكيون يعرفون السبب في الصمت أو التأييد العربيين لكنهم يعرفون أيضاً أن شجبه ممكن مهما كانت الصلات بموسكو. هذا اذا كانت صلات الصداقة قائمة نداً لند لا صلات التابعين. وطبعاً فإن من كسب في تشيكوسلوفاكيا على حساب العرب، ولسنوات طويلة مقبلة، هي اسرائيل. ولم يبق لنا في الغد إلا أن نتلو فعل الندامة. لماذا؟ لأننا لا نعرف شيئاً من التاريخ ولا شيئاً من الديبلوماسية، ولا متى يجب أن نتكلم ولا متى يجب أن نصمت، ولا نعرف حتى الجغرافيا البسيطة.

وإن تشيكوسلوفاكيا غير رومانيا أو بولونيا.

ليس في تشيكوسلوفاكيا عقدة «الغيتو» كما في بولونيا، ولا عقدة المهاجرين كما في رومانيا. اليهود في تشيكوسلوفاكيا اقلية ضمن اقلية تفعل فعلها ساعة يكون الغباء العربي مسيطراً. وما أكثر تلك الساعات. وبعدها نعود نادبين النفوذ الصهيوني في أوروبا ـ غربية وشرقية ـ دون أن نعرف سره. وسره بسيط.

ماذا بعد عن براغ؟ الاحتلال باق، والجندي التشيكوسلوفاكي الطيب «شفيك» الذي طلع من كتاب مرح يروي سيرته وصار رمزاً وطنياً الخ، ما زال طيباً فوق اللزوم. الوعود بحر. الألم واضح على الوجوه. الدموع تختفي في العيون، والحزن خبز الكل. الفلتافا يستمر في غسل اقدام براغ، وبطلها «يان هاس» الذي احترق على مذبح الخروج عن طاعة روما بتهمة الالحاد، يدرك جيداً ـ حتى وهو معصوب العينين ـ ماذا يجري في بلاده وما هو ثمنه.

وفينشيسلاس، شفيع تشيكوسلوفاكيا البوهيمي، ما عاد يسقي حصانه كعادته من النهر الكبير الدامي، فالتاريخ أخذ يتراكم عند كل مأساة تشيكية.

□

بوخارست كانت عاصمة أخرى. صحيح خائفة، إلا أنها كانت واثقة أن حذرها لن يؤدي بها إلى التهلكة. عواطف رومانيا كانت الى جانب التشيكيين بوضوح. لذلك لم تتماد كثيراً في المهاترة الكلامية مع موسكو. وبرغم ارتفاع درجة الرطوبة في العاصمة الرومانية، فإن المسؤولين الحكوميين والحزبيين كانوا يحاولون التخفيف من ارتفاع درجة الحرارة بين بوخارست وموسكو. الأسلوب هنا غيره في براغ. ومن مآخذ الرومانيين على التشيكيين هو الأسلوب الذي عاملوا به الاتحاد السوفياتي. يقولون: لو اخذوا رأينا ـ ونحن أعرق في خروجنا عن طاعة موسكو ـ لقلنا لهم كونوا أكثر لباقة مع الكرملين.

لكن الخلاف العقائدي جذري بين بوخارست وبراغ. الماركسية ـ اللينينية هنا شيء، وفي براغ شيء. الناس هنا قليلو الكلام. وبرغم موسيقى «الجيرك» في أندية الشباب وأسطوانات البيتلز في الأسواق، ونسخ من كتاب «أوليفر تويست» لديكينز في المكتبات، الى جانب كتب أخرى عن كوبا وفيتنام الشمالية، فإن الناس مغلقة على أنفسها.

في براغ ـ حتى أيام الاحتلال ـ كل الناس تريد أن تحدثك. في بوخارست، كل الناس تريد أن تحدثك، انما تخاف. الحديث بالهمس والنظرات مريبة، والالتفاتة الى الوراء صارت عادة. حتى الطلاب يخافون الاختلاط بزملائهم الأجانب خوفاً من استجواب الشرطة لهم.

الرومانيون لم يسافروا إلى أبعد من بلغاريا أو المانيا الشرقية. الدولة ماركسية، والناس ماركسيون بحكم الضرورة. الأغنية الترفيهية الأكثر انتشاراً هي «ساعد دولة اشتراكية وكن غجرياً». كلماتها فرنسية ـ والرومانية لغة لاتينية وليست سلافية وقريبة من الفرنسية الى حد ـ وموسيقاها رومانية غجرية.

طرازان، بطولة جوني ويسملر كان من الأفلام المعروضة في بوخارست الأسبوع الماضي. صف طويل كان يقف على أبواب السينما طوال اليوم. أفلام فرنسية في صالات أخرى. الكتب الفرنسية في الأدب والتكنولوجيا في المكتبات. المطاعم دائماً ملأى. الأكل من أطيب ما تتذوقه في أوروبا الشرقية. الريف الروماني من أجمل ما في أوروبا من طبيعة. الناس حذرون وجلون، إنما طيبون.

تلك الأيام، هي أيام الدعوة للوحدة الوطنية والصمود. فرصة نادرة وجدها زعيم الحزب الشيوعي الروماني تشاوشسكو ليدعم موقفه في الداخل. والدعوة للوحدة الوطنية ذات أهمية خاصة، أمام التهديد السوفياتي بالغزو. في رومانيا اقلية كبيرة يبلغ تعدادها مليوني شخص (١٠ بالمئة من السكان) من أصل مجري تعيش في ترانسيلفانيا على الحدود المجرية. وولاء هؤلاء مشكوك فيه عند حصول غزو تكون المجر فريقاً فيه. وترانسيلفانيا كانت جزءاً من المجر حتى الحرب الأخيرة. وتاريخ رومانيا ليس إلا سلسلة من تعديلات في حدودها.

هذا التاريخ يقلقها، وإن كانت تحاول ان تنساه.

والسياسة الرومانية، كما يشرحها مسؤولون رومانيون باختصار، ترتكز على ايمانها بصداقة كل الدول الشيوعية والتعاون مع الأخرى جميعاً. فرومانيا لا تؤمن بسياسة الكتل أو بحق دولة في التدخل في شؤون دولة. وتشاوشسكو كديغول يؤمن بالسياسة الوطنية الاستقلالية لكل دولة، إلا أنه يرفض المقارنة بينه وبين الجنرال، ويعتقد أن تشابه السياستين هو محض صدفة. القومية والوطنية الرومانية اولاً. وبوخارست تسعى جادة كي لا تصبح شوكة في جنب موسكو. فلا بد للأشواك من أن تقتلع.

□

فيينا وحدها تموت من البرد. منذ أيام الامبراطورية النمساوية ـ المجرية، وتشيكوسلوفاكيا هي الأقرب والأهم. منذ أن كانا بلداً واحداً، والعلاقات متينة وصلة القرابة وثيقة. وجاء الغزو. واشتد شعور النمسا بالخوف والوحدة. فحدودها مع تشيكوسلوفاكيا التي تزيد على ٥٠٠ كيلومتر، لم تمنعها من استنفار جيشها الصغير، ومن أن تعلن رأيها بصراحة في الاحتلال السوفياتي.

قلبها كان في موضعه، في براغ. انها تعرف معنى الاحتلال السوفياتي. ذلك أن الجيش السوفياتي لم يخرج من أراضيها حتى العام ١٩٥٥، حين قبل حيادها واعترف بها دولياً.

فيينا لم تكن غريبة عن أورشليم براغ. حتى الحزب الشيوعي النمساوي الصغير، كان أول الأحزاب الأوروبية التي أدانت الغزو السوفياتي. وواحة الحرية المحاطة ببحر من الدول الشيوعية، لم تخش مد الاحتلال. كانت معاهدة الحياد التي وقعها الاتحاد السوفياتي، الولايات المتحدة، بريطانيا، وفرنسا، أقوى من كل الجيوش.

في فيينا، التشيكيون لا يسجلون في مراكز اللاجئين. التشيكيون يحاولون العودة الى الوطن. شعب لا يحب أن يكون لاجئاً. يعود برغم الاحتلال. لا احد يفر الا المطلوبون للشرطة السرية ورجال الـ «ك. ج. ب» السوفياتيين. الوطن أثمن من المحتلين. الوطن يبقى والمحتل يزول.

هكذا كانت أصداء براغ في فيينا. هكذا كانت القصيدة المعلقة على جدار في براغ في اليوم الأخير للمقاومة الصامتة الرائعة:

«اهلاً بالاصدقاء،
لقد جئتمونا اخوة،
والآن دماؤنا على الارض.
شكراً للورود وللشموع
على قبور اولادنا.
مرحباً يا اصدقاء،
بملح في عيوننا
بخبز في ايدينا.
اهلاً عندنا».

براغ - بوخارست - فيينا - (١٩٦٨/٩/١٥)

العائد بعد سنة

كانت يدي على قلبي، وبواب فندق «يالطا» في براغ، يحدثني في السياسة. ومَن يجسر على التحدث في السياسة في براغ في ذلك اليوم؟ البواب العجوز، الذي يحمل عشر حقائب دفعة واحدة، ويتكلم أربع لغات بطلاقة نادرة، ويدعي انه دكتور في الحقوق من جامعة بارتيسلافا عام ١٩٢٥.

قال لي ـ وما زالت يدي على قلبي ـ:

«ظننا نحن التشيكوسلوفاكيين أن الخلاف الصيني ـ السوفياتي سيكون كاكتشاف عم غني لنا، يوزع ثروته علينا في حياته ويورثنا ما يتبقى منها بعد مماته. ظننا أن هذا الخلاف سيدفع الاتحاد السوفياتي الى تخفيف ضغطه علينا، متيحاً لنا مجالاً أكبر من الحرية، ليتفرغ هو لمعالجة قضاياه مع الصين. كما ظنت دول آسيوية أخرى أن الصين «ستحل عن ظهرها» لتركز على خلافها مع موسكو. واتضح ان ما حدث كان العكس. مات العم الغني قبل أن يورثنا شيئاً، واتضح فيما بعد أنه كان مقامراً، بدأنا نحن تسديد ديونه».

وضحكت. ثم اعتذرت عن ضحكتي. لقد كانت الضحكة الوحيدة التي سمعتها في ذلك اليوم. شعرت أن تمثال فينشيسلاس، الملك ـ القديس لكل شعب تشيكوسلوفاكيا، القابع على بعد خطوات قليلة مني، ينظر اليّ شزراً ثم يعود فيبتسم مشجعاً. صحيح أن الذكرى لا تدعو الى الضحك لكن التشيكوسلوفاكيين شعب يحب الابتسام والفرح والنكتة اللاذعة. ألم يحاربوا الدبابات السوفياتية بالنكات والكاريكاتور والقصائد والرسوم؟ بلى. وحاربوها بالزهور والشموع والتضحية والفداء. وغداً ـ ٢١ آب عام ١٩٦٩ ـ تخاف موسكو أن يحاربوها بالدم وبالرصاص وبالتحطيم وبالتظاهر وبالغضب، مهما كان الثمن وأياً ما كانت الوسيلة.

لا. لن يحدث كل هذا. فالنهار التالي ـ «الخميس الأسود» كما يسمونه في براغ ـ سيكون يوم الحزن، ويوم الصمت، ويوم العار، ويوم السواد. منذ سنة، وكأن عمر الغزو السوفياتي مجرد أيام، قلت إن براغ مدينة حزينة. لا. ساعتئذٍ فقط شعرت بأنني كنت مخطئاً. يومها كانت براغ مدينة مذهولة، مدينة حائرة، مدينة تقاوم، ومدينة لا تعرف مصيرها. أما في ذلك اليوم ـ ٢٠ آب عام ١٩٦٩ ـ وهو «أربعاء الرماد» الذي كتب عنه الشاعر تي. أس. اليوت و «أربعاء الرماد» الذي مجدته المسيحية. الغد قد يكون ربما «خميس الصعود». أما اليوم فهو يوم الحزن فبراغ حزينة حتى العظم، وحزينة حتى الموت، حزينة حتى الضياع.

«خذوا خبزكم وأعطونا حريتنا». في براغ يتحدثون عن فقدان البيض والزبدة والبضائع الاستهلاكية. السياح لا يحسون في فنادقهم بهذا. الا أن الناس تتحدث بين بعضها البعض عن كل ذلك. تتحدث لا تذمراً أو اشتياقاً للبيض والزبدة، ولكن ليقولوا إن

الذين اخذوا حريتهم، أخذوا معها كل البيض وكل الزبدة. وتنطلق الصيحات المخنوقة: «أعيدوا الينا حريتنا، وخذوا بيضكم وخبزكم... وعليها كل الزبدة التي تريدونها».

أما براغ فتعيش في هستيريا من الانذارات. منذ أول آب عام ١٩٦٩ والانذارات والنداءات والمقالات والمنشورات كلها تنذر وتتوعد وتهدد التشيكوسلوفاكيين بعدم التظاهر، وعدم «الاحتفال» ـ اذا جاز التعبير ـ بهذه الذكرى، ذكرى غزو قوات حلف فرصوفيا (ما عدا رومانيا) بقيادة الاتحاد السوفياتي لبلادهم. الجنرال لودفيك سفوبودا، الرئيس ـ الرمز الباقي من أيام الحرية وأيام الوطنية وأيام حرب الاستقلال، يبكي ويرجو ويتوسل أن يحافظ التشيكوسلوفاكيون على هدوئهم. وتفتح الناس أجهزة الراديو والتلفزيون لتستمع الى الرجل العجوز، الذي «يحاول ملكا أو يموت فيعذرا». ولا يقلقون. الدكتور غوستاف هوساك الأمين العام للحزب الشيوعي يعلن وجود «عناصر غير اشتراكية» تستعد للقيام بعمليات تخريب. الدكتور لوبمير ستروغال نائب رئيس الوزراء، والرجل الثاني بعد هوساك ومرشح موسكو لخلافته، ينذر العناصر «المخربة» ويهددها باستعمال الميليشيا الحزبية ضدها. كل هذا الى جانب انذارات الصحف والاذاعات والجيش وفوقها موسكو. هذه الهستيريا التي يقابلها التشيكوسلوفاكيون بابتسامة صفراء، كأنها تقول: نحن نعرف ماذا سنفعل الخميس. وماذا سيفعل التشيكوسلوفاكيون الخميس؟ هو السؤال الذي يخافه الكل.

في رأي أكثر المراقبين، ومن مصادر شعبية في براغ، ان الذي ستشهده العاصمة التشيكية، سيكون أروع تظاهرة حزن عرفها العالم الحديث. سيبقون في بيوتهم ولن يغادروها الى أعمالهم إلا عند الضرورة القصوى. ستغلق المتاجر والمحلات. سيقفلون أبوابهم ونوافذهم ساعة واحدة عند الظهر، بحيث تظهر الشوارع والمنازل كأنها مقفرة. لن يستعملوا المواصلات العامة، كالترام او الباصات أو القطار. لن يجلسوا في المقاهي ولن يأكلوا في المطاعم. لن يقرأوا الصحف ولن يستمعوا الى الراديو او يشاهدوا التلفزيون الا حين نشرات الأخبار. لن يذهبوا الى السينما أو المسارح أو حفلات الموسيقى. سيضعون على صدورهم وعلى أذرعتهم الأشرطة السوداء حداداً. سينثرون الزهور على تمثال فينشيسلاس ـ إذا استطاعوا ـ وسيمرون على قبر يان بالاخ، الطالب الذي احرق نفسه حياً في كانون الثاني عام ١٩٦٨ احتجاجاً على غزو بلاده، إذا استطاعوا الوصول اليه أيضاً.

سيضيئون الشموع على نوافذ بيوتهم ومداخلها. لن يتظاهروا ضد بريجنيف أو أولبريشت أو كادار. لن يستعملوا العنف. لن يتحدوا أو يستفزوا أحداً. لن يرفعوا شعارات عدائية ضد موسكو. سيقرأون لينين مجدداً، وسيراجعون التاريخ من أوله. فالبطولة عند التشيكوسلوفاكيين اليوم، هي في عبّ الماء، لا الموت من الظمأ.

أشياء كثيرة تغيرت في براغ منذ سنة. تمثال فينشيسلاس بلطت الحديقة التي حوله حتى لا تزرع فيها ورود ولا تعيش فوقها زهور. وبرغم ذلك فإن الزهور تلقى على قاعدة

التمثال يومياً والشموع تضاء، وتأتي الشرطة وتزيلها، حتى أصبحت عملية يومية ممتعة للناس.

واليوم أحيط فينشيسلاس بحاجز منعاً لاقتراب الناس منه وتحويله الى مذبح يحجون اليه كما كان منذ سنة. ميزة التمثال أن مكانه هو موقف للترام، بحيث يستطيع المتجمهرون الادعاء بأنهم ينتظرون الترام الآتي. ومن يستطيع أن يكذبهم. عندما تضغط عليهم الشرطة يركبون فعلاً الترام وينزلون في المحطة الأخرى على بعد خطوات ويعودون مرة ثانية الى الموقف. فينشيسلاس هو شفيعهم ولا أحد يستطيع أن يحرمهم منه، حتى الدبابات.

الصحافة والاذاعة أيضاً تغيرتا.

براغ، تغيرت. تغيرت كثيراً. ولكن بقيت فيها أشياء كثيرة. بقيت الرصاصات السوفياتية التي اطلقت على واجهة المتحف الوطني في وسط ساحة فينشيسلاس وهذا شيء لن يغفره التشيكوسلوفاكيون للروس. التعرض للتراث، لذلك بقيت الواجهة مجروحة والرصاص له آثار، للذكرى والتأريخ، وبقيت روح النكتة. روح اختراع الشعارات في المقاومة السلبية للاحتلال. الشعار الجديد المدهون على شوارع العاصمة، والذي مسح بعضه، هو: «٤ ـ ٣، ٢ ـ صفر». ماذا يعني؟ يعني الاصابات التي سجلها الفريق التشيكوسلوفاكي على الفريق الروسي في مباراة «الهوكي» منذ أشهر.

تبقى سوق الاشاعات رائجة في العاصمة. أهمها وأخطرها هي الاشاعة القائلة أن الكسندر دوبتشيك، صاحب «ربيع براغ» والأمين العام للحزب الشيوعي السابق، ورئيس البرلمان الفيديرالي الحالي، مصاب بمرض خطير. أما مرضه فهو «لوكيميا» ـ أو سرطان الدم ـ الذي أصيب به على أثر التعذيب الذي تعرض له بعد الاحتلال السوفياتي والذي نتج ـ كما يقال ـ عن تسليط أشعة معينة عليه في أثناء التحقيق معه. كيف تتحقق من صدق أو عدم صدق هذه الاشاعات؟ عن طريق نفيها. وقد نفيت هذه الاشاعة. أما مرض دوبتشيك، فهو صحيح كما أكده لي أكثر من مصدر، لكن لا أحد يعرف شيئاً عن نوع مرضه ومدى خطورته.

ولكن ماذا يريد الاتحاد السوفياتي من التشيكوسلوفاكيين يوم الخميس؟ يريد أن يتحول «الخميس الأسود» الى «يوم الشكر». الشكر لأن الاتحاد السوفياتي جاء وأنقذ بلادهم من «الانحراف واليمينية والرأسمالية». تريد موسكو أن يعترف التشيكوسلوفاكيون «بتضحية» الاتحاد السوفياتي في انقاذهم من عبودية التحرر. يريد الكرملين من براغ أن تعترف رسمياً بأن ما حدث قبل سنة كان عملاً ضرورياً أنقذ الأمة التشيكوسلوفاكية من هلاك محقق. تريد موسكو وساماً من براغ على بطولاتها.

طبعاً يبقى من سيوقع البراءة ومن سيعلق الوسام الخميس على صدر موسكو. ولعل

المأساة «الأورولية» (نسبة الى جورج أورويل) ما زالت تنتظر عام «١٩٨٤»، وعندئـذ قد تجف دموع براغ.

يدي على قلبي.

براغ - (٢١/٨/١٩٦٩)

■ ضحك «الخميس الأسود»

يبدأ الحوار هكذا. شخصاه قيصر ونابوليون. موضوعه هبوط أول انسان على سطح القمر. مكانه براغ.

«قيصر: لو كان عندي كل هذا العلم وهذه التكنولوجيا لاكتسحت الكرة الأرضية.

نابوليون: كل ما كان ينقصني لأمسك بالعالم وقتها وكالة أنباء تاس.فبها ما كان عرف أحد أنني خسرت معركة واترلو.»

صبيحة «الخميس الأسود» يضحك التشيكوسلوفاكيون من قلوبهم لهذه النكتة. ولم يعودوا يملكون من وسائل الدفاع عن أنفسهم وبلادهم إلا النكتة والمقاومة السلبية الصامتة. فالذي حدث منذ أيام كان مجرد استفزاز دفعوا اليه دفعاً. النكتة هم أربابها. تاريخ سنة كاملة من مقاومة الاحتلال السوفياتي يشهد. والمقاومة كانت في أروع مظاهرها في الأمس.

تاريخهم أيضاً حافل بها. عام ١٩٣٩، في الذكرى الأولى لغزو هتلر تشيكوسلوفاكيا، قام الشعب بتظاهرة الصمت والحزن نفسها. بالأساليب نفسها والدقة نفسها. ويقال إنّ الذين ما زالوا يذكرون الاحتلال النازي بكوا كثيراً. لقد عاشوا احتلالين في عمر واحد. فالذي جاء لينقذهم من الفاشستية، اعاد تمثيل الدور نفسه بعد ربع قرن.

برغم ذلك، كانت براغ تضحك هذا الصباح في ظل الغمامة القاتمة التي خيمت عليها طول الأيام الماضية. في الطريق الى المطار، قال لي سائق التاكسي بانكليزية مكسرة، مشيراً الى عدد من الجنود الروس، كانوا يسيرون معاً في احدى الضواحي: هل سمعت آخر خبر؟ وظننت بوهلة الصحافي الواجف دائماً من الأخبار أن هناك بالفعل خبراً يجب أن لا يفوتني قبل سفري. ومن دون أية بادرة من بوادر التأثر، وبجدية لامتناهية وبالقدر الذي تسمح به انكليزيته، قال السائق: «الجنود الروس يمشون هنا دائماً ثلاثة ثلاثة. واحد يستطيع القراءة، وواحد يستطيع الكتابة، وواحد يراقب الجنديين المثقفين». ثم التفت الى الوراء، وتطلع اليّ من فوق نظارتيه السميكتين حتى أدرك انني استوعبت ما رواه، وانفجر بضحكة عالية اهتز لها المقود في يده.

وهكذا تلملم براغ الضحكات من بين الدموع. منذ سنة كانت «هواية» التشيكوسلوفاكيين كتابة الشعارات والقصائد على الحيطان. اليوم صارت ممنوعة. فانتقلت «الهواية» الى تأليف النكات وجمعها. الشعار «الرياضي» «٤ ـ ٣، ٢ ـ صفر» الذي كان في الأمس يغطي الجدران ومسحته السلطات، استعيض عنه بكلمة «شاييو، شاييو» الروسية والتي تعني بالعربية «هدف» ـ أو «غول» بالدارج. وصارت تحية التشيكيين هذا الصباح «شاييو، شاييو»، بدلاً من صباح الخير، «سفوبودا» ـ الحرية، كما قبل سنة.

ساحة فينشيسلاس، التي عرفت طوال سنة كاملة أروع أنواع المقاومة وأجملها، عادت

تستقطب الجماهير التشيكية وتجمعاتها من دون موعد سابق. فجأة يأتون من كل ناحية ويتجمعون ويملأون الشوارع الجانبية. وفجأة يختفون. وبالغاء السلطات موقف الترام في الساحة، حرمت هذه الجماهير مبررها للتجمع، وحرمت تمثال الملك ـ القديس فينشيسلاس ـ الزهور والشموع هذه التي كلل بها طوال الأشهر السابقة.

وجوه جديدة تراها حول الساحة. «الميليشيا الحزبية» التي أنزلتها الحكومة لتقاوم بها «المقاومة». قال لي رجل مسن كان يقف الى جانبي مشيراً الى شراذم منها، إنها تذكره بـ «الشباب الهتلري» أيام الحرب. قلت له إنها تذكرني بشيء مماثل في بلادي، اطلقنا عليه اسماء مختلفة. شباب حزبي جاهل أرعن متعصب يحمل السلاح. لا اكثر ولا اقل. الى هؤلاء، رجال الشرطة السرية الذين تستطيع أن تميزهم من المعاطف الطويلة التي يرتدونها والصحف التي يمسكون بها ويقرأونها بالمقلوب. رجال بلاوجوه؛ كما هم في اي بلد. هناك «شيء» جديد في الساحة لم يكن. مصورون يتصرفون كسياح، لكنهم في الواقع من رجال الشرطة السرية مهمتهم التقاط صور للناس عند اي شغب أو تظاهرة أو اصطدام. وعن طريق هذه الصور يكتشفون «المحرضين» ويعتقلون «الرؤوس المحرضة». أما السياح الحقيقيون، فمن المستحسن أن لا يحملوا أيّ كاميرا. فالسلطات توقفت عن اعطاء تأشيرات السفر للسياح منذ الاثنين، مع نصيحة بتأجيل الزيارة الى ما بعد الأحد. عدد كبير من السياح غادروا براغ منذ الاربعاء. الرحلات السياحية الجماعية التي تأتي عادة براً من فيينا، وتشمل براغ وبراتيسلافا توقفت طوال الاسبوع، واستعيض عن براغ ببودابست. قبل اسبوع كان من المستحيل أن تجد غرفة في فندق. الآن توافرت الغرف في جميع الفنادق.

ومرت النهاية السوداء للسنة الحزينة. مرت من دون أن يقبل التشيكوسلوفاكيون بالاحتلال، وهم اكثر رفضاً لحكامهم الحاليين مما كانوا بالنسبة الى حكامهم السابقين ـ نوفوتني وشركائه. وتتسع الهوة بين نظام هوساك والشعب. ويتضح أن النظام، لا الشعب، هو المصاب بالرعب ويحتاج الى الكثير من الهدوء والمسكنات. لأن الانفجار الذي كان من المحتمل أن يحدث في ذكرى الاحتلال، سيدفع ثمنه هوساك، كما دفع دوبتشيك ثمن انفجار مباريات «الهوكي». لكن ينقص هوساك ما كان عند دوبتشيك: تأييد الشعب وإمكان الحوار معه. اليوم لا حوار. محاولة هوساك اقناع التشيكوسلوفاكيين بأن ما كان قبل ٢١ آب عام ١٩٦٨ لم يكن كله جيداً، وأن ما بعد ٢١ آب عام ١٩٦٨، ليس كله سيئاً، باءت بالفشل. التشيكوسلوفاكيون شعب يملك ذاكرة جيدة. لقد انقطع الخيط السحري الذي ربط دوبتشيك بالناس.

واليوم، وبرغم جو التوتر القائم فوق رؤوس الناس، فبراغ خالية. معظم الطلاب خارج العاصمة في اجازاتهم. جامعة شارل مغلقة. كثير من التشيكوسلوفاكيين ما زالوا خارج البلاد مستفيدين من الاستمرار في السماح بالسفر، واعطاء جوازات من دون أيّ تعقيدات. غالباً ما يشعر المراقب بنوع من الاحساس باللامبالاة. فما زال التشيكوسلوفاكيون يستطيعون التمويه عن عواطفهم بارتياد المسارح التي لم يمسها

سيف الرقابة بعد. المسرح هو المكان الوحيد الذي لم يعد اليه الرقيب. تطمينات الحكومة بأن لا عودة الى ارهاب الخمسينات، تقابل بشفاه مقلوبة. ولكن ليستفيدوا منها ما دامت الأمور لم تتغير.

الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، الذي ما عرف نشاطاً ولا حيوية كاللذين عرفهما في «ربيع براغ» القصير، عاد الى احضان العقول الضيقة والنفسيات الارهابية. ويقال إنّ هناك انخفاضاً ملحوظاً في العضوية وفي حضور الاجتماعات، الى جانب امتناع عدد كبير من الأعضاء عن دفع اشتراكاتهم. النقابات العمالية التي تشكل العمود الفقري للتأييد الشعبي للحزب امتنعت عن ارسال مندوبين عنها لحضور الحلقات أو الاجتماعات. ويقال إنها لم تدفع اشتراكاتها عن العام الماضي.

صحيح أن القلوب واجفة، لكن الناس لم تمل قراءة لينين. لينين اكثر الكتّاب مبيعاً. تريد الناس أن تعيد تقييم الماركسية ـ اللينينية لتكتشف ما اذا كانت خطوة موسكو قبل سنة، تتفق مع اصول العقائدية التي تعلموها. لينين ليس ارثاً روسياً. إنه ارث عالمي. «انتظرنا الروس ٦ اعوام كاملة. صادقناهم طوال ٢٠ عاماً. وسنكرههم لألف عام مقبل». ماتت الزهور الماركسية التي كان من الممكن أن تزهر هنا. ماتت في أحضان موسكو، ومن غباء الكرملين.

طبعاً لا أحد يتوقع أن يُنَفَّذ شيء من «اصلاحات» دوبتشيك التي ما زالت رسمياً على الورق. الـ ٧٠ الف جندي سوفياتي المرابطون في الأراضي التشيكوسلوفاكية لن يرحلوا ـ اذا كانوا ينوون الرحيل ذات يوم ـ قبل أن تعود الأمور الى «طبيعيتها» في البلاد. وعودة الأمور الى «طبيعيتها» تعني كما وصفها أحد التشيكيين خفيفي الظل: «أن تغرز روسيا سكيناً في ظهرك وتبقيها حتى يلتئم الجرح نهائياً». كل هذا يعني أن لا حكومة هوساك ولا حكومة سواه هما سيدتان في بيئتهما ما دامت قوات الاحتلال باقية. وهذه من حقائق الحياة التي بدأ يعيها الناس في تشيكوسلوفاكيا بعد عام من الغزو. قوات الاحتلال لا يراها احد في براغ أو براتيسلافا أو برنو أو في المدن الكبرى. هي بعيدة عن الأعين، في معسكراتها في الضواحي والأرياف. الجنود السوفيات ينزلون الى المدينة بين حين وآخر لشراء بعض الحاجات. أهم من ذلك، أن «الاصلاح» الذي كان يحلم به كل الناس في تشيكوسلوفاكيا لم يعد طريقه يمر بالحزب الشيوعي. لقد فقد الحزب فرصة العمر ساعة دخلت الدبابات السوفياتية براغ.

لا أحد يستطيع أن يفكر بعد اليوم أن الحرية والتقدم الاقتصادي والتحرر السياسي يمكنها أن تأتي عبر الحزب الشيوعي. لذلك يعتقد أغلب الناس أن هناك «قسماً من الجنون» في الكرملين، أو حلقة مفقودة في الهرم الشيوعي، لم يقدروا على أن يفهموها هنا في براغ. ويعودون الى قراءة لينين من جديد.

ولكن ماذا يفصل بين «التعاون مع العدو» وبين البحث عن «أنصاف حلول» للخروج بأقل كمية من الخسائر، حفاظاً على الجزء حتى لا يضيع الكل؟ لعل الجواب في صيحات

الجماهير في وجه رجال الشرطة والأمن، عندما كانت تقاومهم، الأربعاء والخميس حين نزلت السيارات المصفحة وخراطيم المياه والقنابل المسيلة للدموع وعبق الدخان وانهارت الهراوات على الرؤوس وتبلل الناس ودمعت العيون، لمجرد أن الناس أرادت أن تلقي ـ تحدياً ـ بعض الزهور وقطع النقود على قاعدة تمثال فينشيسلاس. هذه الصيحات لم تكن اكثر من: «غستابو، غستابو». «فاشيست». «لا تنسوا أيها التشيكيون يوم العار».

دوبتشيك هو الذي قال قبل سنة: «إن الحزب الشيوعي لم يعد قادراً في تشيكوسلوفاكيا على فرض إرادته على الشعب. اصبح محتماً عليه أن ينال ثقة الشعب وولاءه قبل أي شيء آخر». وكانت تلك ايضاً كوميديا الأخطاء التي وجدت عند الشعب التشيكوسلوفاكي مجالاً رحباً للابتسام والضحك من بين الجروح والدموع والحزن.

براغ ـ (١٩٦٩/٨/٢٤)

■ كبرياء اللاعنف

مَن انتصر يوم «الخميس الأسود» في براغ؟ الشعب التشيكوسلوفاكي، أم حكومة هوساك وستروغال، أم «الترويكا» الحاكمة في الكرملين؟ لكن مَن يتحدث عن الانتصار في براغ. لا أحد. الكل يذكرونك بأبيات الشاعر الألماني ماريا رينر ريلكة التي يقول فيها:

«الانتصار؟ مَن يتحدث عن الانتصار؟

«البقاء هو كل شيء».

الصفوف الطويلة المتراصة، التي قدر المراقبون عددها بأكثر من ٥٠ الف شخص، والتي سارت مخترقة شوارع العاصمة يوم الخميس ١٩ آب عام ١٩٦٩، في أروع تظاهرة احتجاج صامتة عرفتها تشيكوسلوفاكيا في تاريخها الحديث، لم تكن تريد أن تموت، ولا كانت تبحث عن انتصار، مهما غلا ثمنه. كان يهمها فقط البقاء. أن تسجل رفضها السلبي للاحتلال السوفياتي. أن تعلن للعالم كله غضبتها لانتهاك حرمتها وكرامتها واستقلالها، شيوعية أو لا شيوعية؟ لم تعد هي المشكلة بالنسبة اليهم. حرية أو لا حرية، هي القضية.

يان بالاخ، الطالب الذي أحرق نفسه في ١٦ كانون الثاني عام ١٩٦٨، على درج المتحف الوطني في ساحة فينشيسلاس، مات. صار شهيداً. يوم الخميس حج الكل الى قبره. اصبحت المقبرة خارج بلدة براغ القديمة جنة زهور. ولكن التشيكوسلوفاكيين الشعب الرومنطيقي العاطفي المتعلق بالرموز والأبطال والقديسين، لا يريد يان بالاخ آخر ولا يريد أن يموت. يريد مجرد البقاء. البقاء مع الحرية، إن أمكن.

المنشورات السرية التي وزعت خلال ايام الذكرى الأولى، كانت تدعو كلها الى اللاعنف. تحت أبواب الغرف في الفنادق كانت المنشورات تنهمر بمعدل واحد كل نحو ساعتين. هذه المنشورات كانت تصر على وجوب عدم استعمال العنف. أما الاصطدامات التي حصلت – على روعتها – فلم تكن في الواقع الا عملية «فشة خلق» ضد السلطات. لم تكن منظمة. ولم تكن مقصودة. كانت ردود فعل السلطات أعنف بكثير من الاستفزازات التي تعرضت لها.

وفي يوم الذكرى قاطعت براغ المواصلات العامة. سارت حافلات الترام والأوتوبيسات فارغة. كذلك القطارات. سيارات التاكسي تنقل السياح والصحافيين فقط. المسارح لم تعمل. دور السينما تعمل بمقاعد فارغة. المطاعم والمقاهي التي كان من الصعب أن تجد فيها مكاناً خالياً، أصبحت مجموعة ساحات وطاولات وكراس تنتظر من يملأها. مرتجعات صحيفة «رود برافو» كانت – ربما – أكثر من عدد النسخ التي تطبعها. لم يمسك أحد بصحيفة. مقاطعة تامة للصحف والراديو والتلفزيون، الا حين نشرات الأخبار. الشارات السود كانت على الصدور وفي الأذرع. كان يوم حزن. لما تعانق عقربا

الساعة عند الظهر تماماً توقفت الأعمال في كل تشيكوسلوفاكيا، ووقف الناس تلك الدقائق حزناً على ضحايا وشهداء الاحتلال واحتجاجاً على وجوده.

جسور «الفلتافا» المئة كانت تتفرج على ٦٠ دبابة تشيكية جاءت لترد الجماهير عن ساحة فينشيسلاس وبوابة المتحف الوطني. «نريد دوبتشيك»، يتعالى الصراخ والأيدي ترتفع بعلامة النصر التشرشلية. أما أصحاب الأيدي المرفوعة فقد كانوا رجالاً فوق الخمسين من العمر. وتنهمر خراطيم المياه على الكل. وينتزع الشباب شارات المرور وبراميل الزبالة وأسماء الشوارع التي انتزعوها قبل عام، ليردوا بها على قنابل الغاز المسيل للدموع وهراوات رجال الأمن. ويرفع السياح - ومن بينهم الصحافيون - جوازات سفرهم يلوحون بها الى الشرطة حتى لا يصابوا بضربة خاطئة. ولكن ماذا تنفع الجوازات التي حملوها بناءً على تعليمات مشددة من فنادقهم. ويتدافع الكل الى بوابات الدكاكين والمحلات والفنادق والمقاهي ليتفادوا المياه والغاز والضربات.

«اليوم يوم العار - أيها الروس عودوا الى بلادكم - نريد دوبتشيك - هوساك خائن». مجموعة شعارات كانت حناجر الناس تهتف بها من كل مكان. إنما أروعها كان ما هتفت بها مجموعة من رجال الأمن كانوا يمرون في سيارة شحن في الساحة. كانت أنبل أنواع المقاومة من شعب يريد العالم أن يعرف أن سفينته ستغرق، ولكنه لن يغادر السفينة أبداً. الحلم لا يمكن أن يضيع بهذه السهولة. هذا الشعب المصر على البقاء، الرافض للاحتلال والباحث أبداً عن متع الحياة، الممارس لكل حرياته الاجتماعية، يثير عدة تساؤلات في وجه الغرباء. أقصر «ميني - جوب» تراه على فتيات براغ. أطول شعور ولحى تراها في وجوه شبان براغ. انهم يتجمعون في الشوارع يعزفون الغيتار ويغنون من دون أية مبالاة لما يحدث حولهم، هي من المناظر المألوفة. حتى إبان الاحتلال في أيامه الأولى قبل سنة، كانوا يتبادلون القبل في ظل الدبابات السوفياتية. هذا الشعب لا يتحدث عن الانتصار اليوم. يبحث فقط عن البقاء. هو يبقى والاحتلال يزول.

النقاش كان يدور في براغ - وفي فيينا - كان الاتحاد السوفياتي مضطراً الى غزو تشيكوسلوفاكيا حفاظاً على مصالحه كدولة كبرى، وكان الرد - في براغ وفي فيينا أيضاً - ان الاحتلال لا يبدو مشروعاً، أياً كانت حججه. فضلاً عن أن ما يحتاجه الاتحاد السوفياتي في أوروبا الشرقية ليس مجموعة من الدول الخاضعة له والتابعة لسياسته والدائرة في فلكه عن طريق الضغط والقوة والارهاب. إن ما يحتاجه الاتحاد السوفياتي هو مجموعة من الدول الحليفة الصديقة المتمتعة حكوماتها بتأييد شعوبها. وكانت التجربة التشيكوسلوفاكية فرصة لموسكو لتجد لنفسها حليفاً حقيقياً من هذا النوع.

لقد دلت تجربة «ربيع براغ» من ضمن أشياء أخرى كثيرة - أن القيادة الجديدة للحزب - دوبتشيك ورفاقه - كانت مؤمنة ايماناً جدياً وعميقاً بالشيوعية، وانها كشفت عن طريق اصلاحاتها كم ابتعد الاتحاد السوفياتي عن الأفكار الحقيقية والمثالية للحركة الاشتراكية. لقد شُبِّه دوبتشيك بمارتن لوثر الذي أدان بيع صكوك الغفران

وطالب الكنيسة بمحاسبة نفسها. لذلك خافت موسكو ـ وهي محقة في ذلك ـ من أن تتطلع الناس الى براغ بدل أن تتطلع الى الكرملين، وخشيت من «لوثرية» جديدة في الحركة الشيوعية. وكان الغزو. وماتت «الشيوعية ذات الوجه الانساني» تحت أقدام نظرية «السيادة المحدودة».

ولكن ماذا يريد الاتحاد السوفياتي حتى يشعر «بالأمان» في براغ؟ موسكو تبحث عن زعيم ولو كان مكروهاً كاولبريشت في المانيا الشرقية أو نصف محبوب، أو مقبولاً شعبياً مثل كادار في المجر. غوستاف هوساك، وهو من ضحايا الستالينية وقد دفع ثمنها عشر سنين من العذاب في سجونها، ليس أولبريشت ولا كادار. وهو بالتأكيد ليس نوفوتني آخر. هوساك وطني سلوفاكي، من دون انصار في الأراضي التشيكية، كما كان للسلوفاكي الآخر، دوبتشيك. وهوساك كشيوعي أرثوذكسي يبدو أنه قبل أن يخفف من عيار الحرية، ولكنه رفض أن يقتلها. فالذي خشيه المراقبون في براغ أن يكون قد أتى «الخميس الأسود» على نهايته.

إلا أن النهاية تكاد تكون معروفة. فهوساك، معلم المدرسة الذي يعتبر من «وسطه الحزب، والذي يقف نظرياً الى جانب بريجنيف من دون أن يعود الى ستالين، وينحني من دون أن يطأطىء رأسه أو يقدم الخضوع الكامل، عليه أن يسلم الاتحاد السوفياتي «البضاعة» في النهاية. فإذا فشل ـ والكتابة على الجدران تقول هذا ـ فإن هناك من يستعد لاتمام عمل موسكو. الدكتور لوبوميد ستروغال. وستروغال هو نائب هوساك اليوم. وللمرة الأولى في تاريخ الأحزاب الشيوعية ينتخب نائب للأمين العام للحزب. وستروغال لن يتردد لحظة واحدة في أن يستعمل كل الوسائل،مهما كانت لاعادة تشيكوسلوفاكيا الى حظيرة الاتحاد السوفياتي. فماضيه كوزير داخلية في عهد نوفوتني ما زال يذكر «بالخير» في براغ، ومهما كانت أيضاً التشنيعات التي يطلقها التشيكيون على هوساك، والتي آخرها «هوساك ـ روساك». وروساك كلمة مسيئة في التشيكية تعني الروسي. «هوساك ـ الروسي». لا. ليس تماماً. وسيسدد حسابه عنها في زمان قريب. إذن عودة الى عهد الستالينية ـ النوفوتنية. ليس تماماً أيضاً. فبرغم التغيرات التي حصلت في تنظيمات الحزب الشيوعي منذ سقوط دوبتشيك في نيسان الماضي، فإن عملية إعادة الاعتبار الى ضحايا الستالينية ما زالت على قدم وساق. لقد ازداد الضغط، إلا أنه لم يتحول الى ارهاب بعد. «حكم المساومة» ما زال يحتاج الى نجاح.

ما يحاول هوساك أن يفعله هو أن يحقق هذا «النجاح». لذلك فإن سياسته منذ توليه الحكم في نيسان عام ١٩٦٩، هي سياسة «دفاعية». في الداخل لم يحقق شيئاً. في الخارج استطاع أن يكبح جماح الاتحاد السوفياتي قدر الامكان، عن طريق الأخذ والرد. في الداخل يحاول أن يكبح جماح ستروغال وجماعته من المحافظين. فقد رفض مثلاً مشروع ستروغال بتحديد خط الحزب السياسي. اعتبر ان اقتراحاً كهذا سيعيد الحزب الى ما قبل نوفوتني والى المركزية التي انتهى منها. ويبدو أن هوساك يعطي «المحافظين» فرصتهم في التحرك الى آخر مدى، على أمل أنه كلما أطال الحبل، أسرع

«المحافظون» في شنق أنفسهم عند كشف كل أوراقهم. هذا ما فعله مع التحرريين ونجح. ولكن محاولته لاقامة حكم «الوسط» لن تنجح مع المحافظين كما يبدو. يبقى ماذا؟ حكم القوة، سواء أطبقه هوساك أم ستروغال. الارهاب سيباعد الشقة بين الحاكمين والشعب، وبين الحزبيين واللاحزبيين أكثر مما هي عليه الآن. العنف سيقابَل بالعنف. وعندئذ سيكون الانفجار عنيفاً، و «الخميس» أسود حتى الظلمة، مرعباً حتى الموت. حتى البقاء، مجرد البقاء سيصبح صعباً، إن لم يكن مستحيلاً.

براغ - (١٩٦٩/٨/٢٣)

رومانيا

الوجه السياحي للاشتراكية

بدت رومانيا، ولو لزائر غريب قضى فيها أقل من أسبوع كأنها الطموح الطبيعي لما يجب أن تكون عليه الدولة الشيوعية، بعد ربع قرن من ممارسة أفكار ماركس وتطبيقات لينين ممارسة فعالة. ففي عشية الذكرى الخمسين للثورة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي، لم تعد الماركسية ـ اللينينية في المفهوم الروماني والتطبيق العملي في الجمهورية الاشتراكية الرومانية، تستوعب قاموس المفردات الشيوعية الستالينية من «تجديد» و «تجديف» و «أنحراف». لقد فتحت هي الأبواب وأشرعت النوافذ، ولم يعد من مجال لاغلاقها بعدما «نضجت» الثورة، ولم تعد الأفكار والنظريات التي كتبت في غياهب المنفى، بعيداً عن التطبيق الواقعي، تتحمل أرثوذكسية الالتزام الحرفي، في عصر انهارت معه الحدود، وأصبح الاحتجاج علامته الفارقة.

لكن بوخارست ظلت مدينة باردة ضخمة، تحمل طابع الهندسة السوفياتية التي جعل منها ستالين أساساً لعنفوان الشخصية الشيوعية التي لا تحمل أي «طابع شخصي» وفيها كل كبرياء الحجر البارد. الشوارع ضخمة عريضة مفتوحة، يحتاج المرء الى أكثر من خمس دقائق ليعبر، فوق ممرّ المشاة، من رصيف إلى اخر. ذلك أن بوخارست، بنيت كعاصمة حديثة على طراز العواصم التي يحسب فيها حساب المستقبل دائماً. إلا أن الحاضر في بوخارست هو أكثر ما يعني الناس. الشوارع الرئيسية ملأى بأمور كثيرة. المقاهي، السينمات، المحلات التجارية التي تبيع كل شيء، المطاعم الشعبية، المسارح، المكتبات وباعة الاسطوانات وأكشاك بيع الصحف والمجلات، الى جانب المحلات التي تبيع الصناعات الشعبية للسياح، ودكاكين «الانتيكة» التي هي حلم أيّ جامع للايقونات في العالم.

والناس في بوخارست مصدر دفء كبير. الناس العاديون. الرجال والنساء الذين تلتقيهم في المقاهي والمطاعم والمكتبات ومحطات الترام والباصات، يحيونك بعفوية ويتحدثون

اليك بتردد أقل مما كنت تحسب حسابه. وعندما يكتشفون انك لست اميركياً، فلا تحمل وزر الرأسمالية، ولا المانياً، فلا تحمل وزر الحرب، ولا انكليزياً، فلا تحمل وزر الاستعمار، فأنت دائماً موضع الترحيب. والناس هناك فتيان. الشباب هو الطابع الغالب. لا أذكر أنني رأيت وجهاً تجاوز الخمسين في تقديري؛ إلا في زيارتي للكنائس حيث التقيت الكهول. والشحاذين. ولعل الماركسية ـ اللينينية نسيت أن تجد للشحاذين مكاناً داخل نظامها، فتركتهم على أبواب الفنادق وعلى اعتاب الكنائس.

وفي كل تجوالي عبر بوخارست، من خلال الزيارات المنظمة وتسكعي الفردي دون دليل أو هدف معين، لم أر شعاراً شيوعياً واحداً مرفوعاً، مكتوباً على لوحة اعلان، أو مدهوناً على حائط، أو مضاءً بالكهرباء. تمثال جميل ومتواضع للينين يقف بخفر على مدخل مركز الحزب الشيوعي الروماني الضخم، دون منجل أو مطرقة. وصورة أخرى للينين تتصدر واجهة المعرض الصناعي السوفياتي الدائم. كأن هذه كانت كل المظاهر العقائدية في رومانيا. إلا أن الأهم من توقعات الزائر لرومانيا من لافتات تندد، مثلاً، بالاستعمار وتحيي تضامن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروماني وتهاجم «الانحرافيين» السوفياتيين أو الصينيين أو اليوغوسلافيين، حسب السياسة المرحلية للدولة أو للحزب، هو الدهشة التي تعتري ذلك الزائر عندما يجد اعلانات بيبسي كولا الأميركية، المصنوعة في رومانيا، تستقبله بجوار اعلانات الكمباري الايطالي أو المارتيني الفرنسي أو الويسكي الاسكوتلندي أو البوربون الأميركي. كان بوخارست عاصمة من عواصم السوق الأوروبية المشتركة.

والدهشة، من النضج الاشتراكي في رومانيا لا تقف عند هذا الحد. فليس في بوخارست، ولا في براشوفا، ولا في سيناتاي، أو المدن الرومانية الأخرى التي اتيحت لي زيارتها، أي مظهر من مظاهر «الجمود» أو «الجفاء» الشيوعي، الذي غالباً ما يوهم زائر أوروبا الشرقية. فالى كل ذلك، لا تجد «آثاراً» أو «تأثيراً» للنفوذ أو الوجود السوفياتي، إلا في صحيفة «البرافدا» أو «الأزفستيا» قرب مجلة «تايم» الأميركية و «لوموند» الباريسية أو «التايمس» اللندنية عند باعة الصحف مع «الشعب» الصينية ومنشورات الصين وكتاب «أفكار ماوتسي تونغ» الأحمر الصغير باللغة الرومانية. واذا اخترت لهذه الظواهر اسم الفوضى، فالرومانيون يسمونها انفتاحاً.

والتسهيلات السياحية متعددة في رومانيا، نستطيع ان نتعلم منها أشياء وأشياء. من «فن المعاملة» الى «الأخلاق السياحية» الى حسن الاستقبال حتى الخدمات التي تعوز كل زائر وسائح والمتوافرة دائماً. الفنادق فخمة وعريقة وذات تقاليد، بعيدة عن «تجارية» المعظم من فنادقنا. فالحداثة في المرافق السياحية لم تمنع من ظهور الطابع الروماني في كل أمر، دون أن يطغى الذوق السوفياتي أو الأميركي أو الصيني كما هي الحال عندنا. إن الدولة عبر المكتب الوطني للسياحة هي التي تنظم المرافق كافة، وتضعها في مقدمة «صناعاتها»؛ حتى يكون ٤٠ بالمئة من دخلها السنوي من القطع النادر عن طريق السياحة. فاستغلال التاريخ والطبيعة والجغرافية والسياسة والحزب

واللجنة المركزية، كل ذلك في سبيل السياحة، وفي سبيل العملة الصعبة واقتصاد رومانيا وعزها، عمل مشروع يستحق اهتمام الدولة وتسخير امكاناتها باستمرار.

وبوخارست، على برودة أحجارها، وجوه الناس فيها دافئة، ومخازنها ومقاهيها ومطاعمها ملأى. إذا كنت من أكلة الكافيار واللحوم والسجق فهناك مجال واسع لك. واذا كنت من متذوقي النبيذ والخمور ومشتقاتها، فتتذوق أطيبها على الاطلاق وأرخصها سعراً حتماً. واذا كنت من هواة الموسيقى، فهناك أحدث الاسطوانات، من شوبان الى أنريكو ماسياس حتى البيتلز. واذا كنت من المهتمين بالموسيقى الكلاسيكية، فأفضل التسجيلات لكل الموسيقيين متوافرة. وبأرخص ما يمكن أن تفكر به. وبراشوف، البلدة الرومانية العريقة في أواسط البلاد، تحمل كل عراقة القدم وكل حداثة المجتمع الصناعي الجديد. والفارق زمني فقط، بين البلدة القديمة وشوارعها المرصوفة بالحجارة وكنائسها العتيقة ومؤمنيها وبين البلدة الجديدة الجميلة المخططة للغد وللسياح. كذلك كانت بلدة سيناناي، وغيرها من مراكز التزلج والقرى الأخرى في الجبال الخضراء.

وتبدو رومانيا من خلال ذلك، بلداً شاباً، عمره من عمر الشيوعية التي دخلتها عام ١٩٤٧ ولم تتخط عشرين سنة بعد. إلا أنها متصلة بالتاريخ وبالحضارة التي عرفتها رومانيا قبل الشيوعية وستستمر فيها بعدها. فالناس، شبان كلهم. والفتيات جميلات، مصففات الشعر، انيقات بتقشف الحريص دون بذخ أو تكلف. فإذا ضحكن لغريب أو ابتسمن أو أبدين بعض اللطف لسائل، فليس معناه انهن «سهلات». وإذا عبسن في وجوه الغرباء أو امتنعن عن الحديث مع السياح أو ابتعدن عن الأجانب، فليس معناه انهن عضوات في الحزب الشيوعي أو اللجنة المركزية مثلاً. إنما للناس طباع، وخاصة الزوار الشرقيين لرومانيا.

والتخاطب مع الرومانيين سهل. فاللغة الرومانية، هي اللاتينية في الأساس. والتركيب اللغوي هو التركيب اللاتيني. ومفرداتها هي المفردات المستخرجة من اللاتينية. لذلك، فالذي يجيد الفرنسية، يستطيع بسهولة أن يفهم ما يجري، الى جانب أن الفرنسية هي أكثر اللغات الأجنبية فهماً لدى الرومانيين. إلا أن الالمانية هي اللغة الأجنبية الأولى التي تعلم في المدارس، ثم الفرنسية وبعدها الانكليزية. فالذين يجيدون الالمانية اكثر من الذين يجيدون أيّ لغة أخرى. أما الروسية، فلم أجد، في الأيام القليلة التي قضيتها، أي أثر لها في حوار التخاطب بين الغرباء. لكن اللغة التركية اقتحمت الرومانية عند الاحتلال العثماني للبلقان في القرون المظلمة، فتركت آثارها؛ حتى أصبحت السجائر اسمها «تتن» في الرومانية، وبائع السجائر ومشتقاتها «توتونجي». ولم تكتف الامبراطورية العثمانية بمفرداتها في اللغة، ومعظمها يدور حول ملذات الحياة كأمور الطعام والشراب والدخان والجنس، فتركت أيضاً «الطاولة» و «المسبحة» و «النارجيلة»، كأن لم يبق من أمجادها في أوروبا إلا أدوات التنبلة.

ولانفتاح رومانيا وجه سياسي، يفسر مظاهر وظواهر الحياة فيها. إن الشيوعية فيها فتية

زمنياً. عمرها لا يكاد يتجاوز العشرين، ولم تكرس رسمياً كبلد يحكمه الحزب الشيوعي إلا عام ١٩٤٨، بعد فوز كتلة الأحزاب الديموقراطية في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٤٦ واعلان الجمهورية الشعبية الرومانية في كانون الأول عام ١٩٤٧. وفي شباط عام ١٩٤٨ تم ضم الحزب الشيوعي الروماني والأحزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية الأخرى الى حزب واحد، هو حزب شيوعي، سمي حزب العمال الروماني. ولم يتغير اسمه الا عام ١٩٦٥ في المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الروماني عندما استبدل بالحزب الشيوعي، واستبدل اسم الجمهورية، من الجمهورية الشعبية الرومانية الى الجمهورية الاشتراكية الرومانية.

وخلال الحرب العالمية الثانية، كانت رومانيا أقل دول وسط أوروبا تضرراً بظروفها وويلاتها، ربما لوجود نظام حكم عسكري فاشيستي بزعامة انطونيسكو الذي دام من عام ١٩٤١ حتى عام ١٩٤٤، حيث وقعت ثورة ٢٣ آب بالعصيان في الجيش الروماني، والاطاحة بالنظام الفاشيستي ودخول الجيش السوفياتي رومانيا، وطرد قوات الاحتلال الالمانية نهائياً من البلاد. ومع بداية النفوذ السوفياتي في سنوات ما بعد الحرب، بدأت بذور المقاومة الرومانية البسيطة تذوب نهائياً، في فلك الشخصية السوفياتية، كما فعل عدد من بقية دول أوروبا الشرقية. وانتظرت رومانيا مرور الفترة الستالينية، وذوبان جليد الارهاب.

ومع ظهور غومولكا في بولونيا، وقيام الثورة المجرية عام ١٩٥٦، أخذت الغيوم تنقشع بعضاً خلف بعض في السماء الرومانية.

وأول ما قام به الرومانيون هو الذوبان في الشخصية السلافية التي هي أساس شعوب أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي. وقفوا وقالوا للاتحاد السوفياتي: «نحن لاتين ولسنا سلافيين ونحن أوروبيون ولسنا شرقيين». وقالوا إنّ الشيوعية لا تلغي «الشخصية الوطنية»، إذ أن الوطنية أمر والقومية أمر آخر. والشخصية الوطنية الشيوعية لا تتعارض مع الأممية البتة. وانطلاقاً من هذه «المفاهيم البسيطة»، بدأت رومانيا تتحرر من عقد الشيوعية التي تراكمت في أوروبا الشرقية فترة واستقرت في بلدان العالم الثالث تمعن فيها تشويهاً، حتى غدت جزءاً من تخلفها الاقتصادي والسياسي والحضاري.

واستطاعت رومانيا، بفرض وطنيتها الفردية، أن تكون نسيجاً وحدها في العالم الشيوعي. فهي الوحيدة من بين دول المعسكر السوفياتي التي لم تسؤ علاقاتها مع الصين، منذ مطلع الخلاف الصيني ـ السوفياتي حتى اليوم. الحوار الصيني ـ الروماني لم ينقطع رغم تأييد رومانيا العلني والضمني للموقف السوفياتي. السفارة الصينية في بوخارست انشط السفارات في أوروبا. والطلاب الصينيون في معاهدها كثيرون. والعلاقات الرومانية ـ الأميركية جيدة جداً. عن طريق رومانيا تحل الولايات المتحدة الكثير من مشاكلها مع الصين والبانيا. وعن طريق رومانيا تصل الولايات المتحدة الى تفاهم حول عدد كبير من القضايا المعلقة بينها وبين العالم الشيوعي.

فالولايات المتحدة هي التي دعمت رئاسة وزير خارجية رومانيا كورنيلو مانيسكو للجمعية العمومية للأمم المتحدة، وهو أول شيوعي يصل الى هذا المنصب. ورومانيا فخورة جداً ـ بل سعيدة ـ بدورها للأمم المتحدة وما تستطيع أن تقوم به في الديبلوماسية الدولية. فهي لم تنضم الى الأمم المتحدة الا عام ١٩٥٥، واستطاعت أن تمارس اللعبة وفق أصولها عبر سنوات التكوين القصيرة.

وعلى أساس هذا الضوء الصغير على الشخصية الرومانية، يمكن النظر الى العلاقات الرومانية ـ العربية. فموقف رومانيا من القضية الاسرائيلية في الأصل ومن قضية العدوان بعد حرب ٥ حزيران، يعود الى حقيقتين جوهريتين. الأولى: أن في رومانيا جالية يهودية كبيرة وصاحبة نفوذ سياسي في الحزب وفي الدولة وفي الصناعة المؤممة والتجارة المؤممة وغير المؤممة. ورومانيا دولة أوروبية، استطاع اليهود أن يزرعوا فيها عقدة الاضطهاد النازي لليهود ومركب اللاسامية، وخاصة أن الرومانيين عرفوا مآسي الحرب والاحتلال النازي والديكتاتورية الفاشيستية. لذلك رسخ عندهم هذا الدين المعنوي ـ المادي تجاه اليهود واسرائيل. وعند قيام اسرائيل هاجر عدد كبير من اليهود الرومانيين الى فلسطين. وكانوا من أصلب الصهيونيين وأكثرهم إيماناً وخدمة. حتى جاءت النكسة العربية الأخيرة لتحدد بوضوح، عبر الوجود اليهودي وما يتبعه من نفوذ سياسي واقتصادي، فوقفت رومانيا موقف المخالف من دول الكتلة الشيوعية كلها، في خطاب وزير خارجيتها في الأمم المتحدة الذي لم يدن العدوان ولم يدع للانسحاب إلا بعد اعتراف العرب بحق اسرائيل في البقاء. وفي رفض رومانيا قطع العلاقات الديبلوماسية مع اسرائيل وجه شبه لما فعل الاتحاد السوفياتي وبقية الدول الشيوعية. وكل ذلك يعود الى الحقيقة الأولى. أما الحقيقة الثانية فإن هذا الموقف اتخذ أيضاً ابرازاً وتأكيداً لاستقلال شخصية رومانيا عن المعسكر الشيوعي جميعه، وإمعاناً في ايضاح فرديتها. فالذي تريده موسكو أو براغ أو صوفيا، ليس بالضرورة ما يتفق مع آراء ومصالح بوخارست.

أما الذي وراء ذلك، فاسمه نيقولاي تشاوشيسكو، الأمين العام للحزب الشيوعي الروماني والرجل الأول في رومانيا. ففيه بعض من ملامح إيمري ناجي، الزعيم المجري ورئيس حكومة المجر إبان ثورتها المجهضة عام ١٩٥٦ والذي منه يستمد جذور افكاره الوطنية ـ القومية، ومنه تنطلق البداية. وتشاوشيسكو، من حيث أنه استقلالي النزعة، كان أول من وقف في وجه موسكو في أوائل الستينات رافضاً فكرة «تقسيم العمل الاشتراكي»، بتحويل رومانيا الى «مزرعة خضار» لدول أوروبا الشرقية، لقاء تركيز ما تبقى من الدول على الصناعات الثقيلة والخفيفة. (كانت الفكرة السوفياتية تدعو في الأساس الى أن تختص وتركز كل دولة اشتراكية على صناعة أو زراعة معينة، لتقسيم العمل في المعسكر الاشتراكي والاستفادة منه استفادة أكبر. فتختص رومانيا بالزراعة، وتشيكوسلوفاكيا بالصناعة الثقيلة وبولونيا بالصناعة الخفيفة. وتتبادل دول المعسكر منافع هذا التخصص).

وقام تشاوشيسكو في بوخارست في صيف عام ١٩٦٦ يدعو الى الغاء منظمتي حلف شمالي الأطلسي وميثاق فرصوفيا، والى سحب جميع القوات الأجنبية من أراضي أوروبا وتصفية القواعد الأجنبية تصفية نهائية «كطريق أكيد نحو الأمن في أوروبا». فرومانيا تريد ـ من ضمن أمور عدة ـ أن يكون لها رأي في التخطيط الاستراتيجي لحلف فرصوفيا، وأن تكون على علم سلفاً باستعمال الأسلحة النووية، وأن لا يحتكر قيادة الحلف ضباط سوفياتيون، بل أن يتولى القيادة دورياً ضباط من البلدان الأعضاء. وأمام هذه اللائحة الطويلة والشروط الصعبة، لم تستطع موسكو إلا أن تمارس الكثير من المرونة.

وفي الذكرى الخمسين للثورة البلشفية، كانت رومانيا سباقة، في مقال لتشاوشيسكو في «البرافدا»، الى تحية الاتحاد السوفياتي والاشادة بمنجزاته وتأكيد تضامنها معه. وهذا يعني أن رومانيا لا تخطط «لانفصال تيتوي» عن موسكو. بل أن بوخارست تحاول بديبلوماسية بارعة أن تقوي من استقلالها الداخلي، الذي يتيح لها مجالاً أكثر للمناورة، بين الخلاف الصيني ـ السوفياتي من جهة، وبين الولايات المتحدة والغرب من جهة ثانية. لذلك تصر رومانيا، بمرونة الديبلوماسي المحترف أيضاً، على انسحاب القوات السوفياتية من أراضي أوروبا الشرقية، إذ تعتبر ذلك من «بقايا الاستعمار» ولا يتناسب مع السيادة القومية لكل بلد، ولا مع التفاهم السوفياتي ـ الأميركي.

وغالباً ما تسمع في بوخارست أن تشاوشيسكو يجد في الجنرال ديغول مثلاً أعلى له. وتجد بوخارست في باريس رفقة درب واحد، موحش لأول وهلة وطويل، إنما لا بد منه ولا عودة عنه. ويكفي رومانيا أنها تمارس الاشتراكية دون عقد ودون خوف.

بوخارست ـ (١٩٦٧/١١/٥)

الثعالب قادمون

«الروس قادمون، الروس قادمون». صرخة لا أحد يصدقها في رومانيا. وبوخارست مدينة لا تبدو كأنها تتوقع الغزو. فالرومانيون يعرفون جيداً أن الاتحاد السوفياتي لو أراد أن يهجم لهجم مع حلفائه في حلف فرصوفيا، وخاصة البلغاريين، منذ أسبوع عندما غزا تشيكوسلوفاكيا. لماذا؟ لأنه وقتئذٍ كان قد اتخذ قراره الخطير بالغزو، خسر ما خسر من رأي عام عالمي وشيوعي، وحرك جيوشه. اذن كان من السهل جداً عليه أن يوحد تحركاته العسكرية، ويزحف في آن معاً على براغ وبوخارست. فالضربة واحدة، والنتائج واحدة، ولن تكون أسوأ مما كانت عليه إذ ذاك، أو مما هي عليه اليوم.

إلا أن هذا لا يجعل من بوخارست مدينة هادئة، فإحساس العاصمة الرومانية بالقلق واضح جداً، ومشاركتها لتشيكوسلوفاكيا في محنتها أكثر وضوحاً. الناس، الصحف، الاذاعة، التلفزيون، السياح، كلهم يتحدثون عن تشيكوسلوفاكيا. الأعلام السوداء مرفوعة فوق جامعة بوخارست. أكبر هذه الأعلام، واحد تشيكي ممزق وعليه عدد كبير من التواقيع، يرتفع على باب «كلية الدراسات الماركسية ـ اللينينية». هل ذلك من باب سخرية الظروف، أم أن «كلية الدراسات الماركسية ـ اللينينة» أكثر شعوراً بفداحة ما حصل في براغ وموسكو؟ ربما. ولكن الأغلب أن هذه الكلية هي الأكثر تقديراً من بقية فروع الجامعة لحقيقة المأساة التي حلت بالعالم الشيوعي.

لماذا لم تتعرض رومانيا للغزو؟ لماذا لم تزحف جيوش حلف فرصوفيا على بوخارست وبراشوفا؟ الجواب في المقارنة بين بوخارست وبراغ، وبين تشاوشسكو ودوبتشيك، وبين الحزب الشيوعي الروماني والحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. ومن ثم المقارنة بين ما يخيف موسكو وما لا يخيفها، وبين ما يشكل لها تهديدا حقيقياً وما يعتبر عصياناً معنوياً يمكن احتماله ولا يستحق سحقاً عسكرياً.

رومانيا، والحزب الشيوعي الروماني أقدم زمنياً وأعرق سياسياً من تشيكوسلوفاكيا في الخروج عن طاعة موسكو. إنما هذا في ميدان السياسة الخارجية وحسب وفي الاستقلال الاقتصادي، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للحزب الشيوعي، والاستقلال الذاتي في ادارة شؤون البلاد. ولكن، هل من الممكن أن يكون هناك خروج على طاعة موسكو أشد من كل هذا؟ ألم تكن رومانيا، بلسان تشاوشيسكو، أول من دعا الى الخروج من حلف فرصوفيا، وبالتالي خروج الدول الغربية من الحلف الأطلسي، وإلغاء الأحلاف في أوروبا؟ فمنذ بداية الستينات عندما تولى نيكولاي تشاوشيسكو أمانة الحزب الشيوعي الروماني من جيورجيو ديبج، ثم جمع بينها وبين منصب رئاسة الدولة العام ١٩٦٥، ورومانيا ترفع صوتها مطالبة بالاستقلال عن موسكو، سياسياً وشيوعياً واقتصادياً، بانتهاج سياسة وطنية ضيقة تحت شعار: «رومانيا أولاً».

كل هذا وموسكو لم تخف. فالذي يخيف موسكو لا تملكه بوخارست. بل هو نفسه

يخيف بوخارست. والذي قامت به رومانيا لا يمس جوهر الدين الشيوعي. هو نوع من الاجتهاد، من العصيان، من اثبات الرجولة. سمه ما شئت. إنما ما قامت به تشيكوسلوفاكيا منذ كانون الثاني عام ١٩٦٨ حتى كتابة هذه الأسطر، هو مساس بأساس الدين وجوهره. بل هو الهرطقة بعينها. وبين «انحراف» بوخارست و «هرطقة» براغ بعد ما بين الأرض والسماء بالنسبة الى انبياء الكرملين.

الدين، العقيدة، الماركسية ـ اللينينية، الحزب، كلها ولا أسلم منها في رومانيا. الحزب كما أورثته موسكو لبوخارست العام ١٩٤٨، بجميع أجهزته وبيروقراطيته وروتينه وتقاليده ما زال كما هو سليماً معافى. ما زال الحزب الشيوعي الروماني وحدة غير مجزأة بين ليبراليين ومحافظين. وما زال ممسكاً بيد من حديد شؤون رومانيا وشجونها، كبيرها وصغيرها. لا ديموقراطية داخل الحزب. لا حرية صحافة في البلاد. لا حرية نشر أو إذاعة. لا مناقشة لأسس الماركسية ـ اللينينية ولا تشكيك في فلسفة العقيدة الشيوعية. لا حرية سفر، الا للرسميين والمحظوظين من المواطنين. لا تجمعات للمثقفين والكتاب والفنانين. ولا خط إلا خط الحزب ـ الدولة.

لا انتقاد للستالينية الداخلية، ولا مفر من الشرطة السرية ومن المحاكمات السريعة السرية، أو لا محاكمات. لا رأي إلا رأي الحزب، ولا مجال للتشكيك في آرائه أو سياسته. ليقرأ الرومانيون ما يشاؤون من الكتب والمجلات التي تصلهم، إنما إياهم أن يكتبوا مثلها. ليستمعوا الى كل أنواع الموسيقى ويشاهدوا كل الأفلام الأميركية والفرنسية التي تصلهم، إنما إياهم أن يطبقوها. يستطيعون أن يشتروا اسطوانة للبيتلز ولكن لا يستطيعون أن يذهبوا الى ليفربول. يستطيعون أن يقرأوا «الايكونومست» ولكن لا أن يكتبوا مثلها. طبعاً يقدرون أن ينتقدوا سياسة اميركا في فيتنام، أو سياسة بريطانيا في روديسيا، أو سياسة فرانكو في الباسك، ولكن لا يقدرون أن ينتقدوا سياسة الكرملين بالنسبة الى الكتاب والمثقفين السوفياتيين، ولا بالنسبة الى الأمور الداخلية الحزبية. هذا يجوز وذلك لا يجوز.

الحزب الشيوعي الروماني لم تفض بكارته بعد، وهذا يريح موسكو. ولكن ما الذي يخيف موسكو؟ الحرية. حرية العمل السياسي الداخلي، وحرية الديموقراطية داخل الحزب. وهو شيء لم تعرفه رومانيا بعد.

لذلك فإن ما فعلته تشيكوسلوفاكيا، الذي قد يبدو صغيراً اذا ما قورن ـ ولو زمنياً ـ بما تفعله رومانيا منذ العام ١٩٦٤ في العصيان ضد موسكو، كان الخطر الحقيقي الذي لم تره موسكو منذ ثورة المجر العام ١٩٥٦. فتشيكوسلوفاكيا لم تشذ عن السياسة الخارجية السوفياتية، ولم تخرج عن التزامات دول حلف فرصوفيا، ولم تطالب بحله أو تدعو للخروج منه، ولم تتمرد على التزاماتها العسكرية والاقتصادية فيه. طوال عشرين سنة، وبراغ تابعة لموسكو في كل شيء، حتى جاء كانون الثاني العام ١٩٦٨، حيث وقع الانقلاب على نوفوتني وجاء دوبتشيك.

ومع دوبتشيك بدأت موجة الذعر التي اجتاحت موسكو وطار صوابها نهائياً في ٢١ آب عام ١٩٦٨. دخلت الحرية الى الحزب. اطلقت حرية الصحافة والاذاعة. انطلق المثقفون يكتبون في كل مكان. أصبح الصوت صوتين. تمت انتخابات ديموقراطية صحيحة داخل اللجنة المركزية للحزب للمرة الأولى منذ سقوط جمهورية مازاريك. انتخب مجلس وطني حقيقي، ورئيس جمهورية بشرعية تامة. سمح بانتقاد العقيدة ومناقشتها. انتهى عصر التوحيد. ما عادت باباوية الكرملين مقبولة. الماركسية ـ اللينينية كتاب مفتوح لمن يشاء تفسيره من التشيكيين.

من هنا وصل الخطر الى موسكو، وجاء الخوف. ومع الخوف جاء الغزو. ومن أجل ذلك كان لا بد من صليبية شيوعية لتأديب الخوارج. وغزت قوات حلف فرصوفيا تشيكوسلوفاكيا، ولم تغز رومانيا. من الممكن تأديب العصاة الخارجين عن طاعة فاتيكانية موسكو، أما الملحدون المنكرون لوجودها، فلترسل جيوش محاكم التفتيش الشيوعية لحرقهم.

كان هذا في الأساس، أما في الواقع، فإن تردد الاتحاد السوفياتي في غزو رومانيا كان يعود الى أسباب أخرى ذات صلة بطبيعة العلاقات الرومانية ـ السوفياتية. أولها، أن الجيش الروماني هو أقوى جيوش حلف فرصوفيا، والذي دفع الجيش السوفياتي الى الانسحاب من رومانيا العام ١٩٥٤، بعدما بقي معسكراً في البلاد منذ دخلها العام ١٩٤٨ ليدعم الثورة الشيوعية بعد هزيمة الألمان. ثم أن رومانيا بلاد جبلية وعرة، ليست منبسطة وسهلة كتشيكوسلوفاكيا. يصعب احتلالها بسرعة، كما تصعب السيطرة عليها دفعة واحدة. كما أنّ من الممكن جداً المقاومة في رومانيا على طريقة حرب العصابات لتوافر الجبال والغابات فيها. ومن الممكن للجيش السوفياتي أن يسأل الجيش الالماني عن ذلك. فضلاً عن أن الرومانيين يعرفون الروس جيداً وأكثر من أي بلد في أوروبا الشرقية. ومن النكات التي تروى في بوخارست، أن امرأة من الشمال بقيت حبلى سبع سنوات. ثم ولدت. وعندما سئلت لماذا حبلت طوال تلك السنين، أجابت: إنّ الطفل كان يطل برأسه كل تسعة أشهر ليسأل أما زال الروس في رومانيا؟ فإنه لا يريد أن يولد قبل رحيلهم.

ولكن ما الذي حدث في رومانيا منذ اليوم الأول لغزو تشيكوسلوفاكيا؟ طبعاً كان موقف رومانيا واضحاً وغير متردد. لقد أدان تشاوشيسكو التدخل السوفياتي بعنف وبوضوح. وللمرة الأولى، من سنوات، كانت عواطف الجماهير تلتقي من دون تحفظ مع الحزب والدولة بلا ضغط ولا إكراه. وغداة اليوم التالي كان عيد رومانيا الوطني، فكان العرض العسكري الضخم الذي أقيم في بوخارست يتفق مع نفسسية الجماهير. في العرض سار ٥ آلاف رجل من المقاومة الشعبية التي اعلن تأليفها قبل ٢٤ ساعة. إلا أن كونهم يرتدون الملابس العسكرية ذاتها (زرقاء اللون مع قبعة خفيفة وأحذية سميكة) جعل المراقبين يتساءلون إذا لم تكن الاستعدادات قائمة قبل الغزو. والأعلام واللافتات التي كانت مرفوعة في العرض كلها تحيي تشيكوسلوفاكيا وصمودها وتعلن

وقوف رومانيا الى جانبها. لافتة واحدة فقط كانت تحيي الاتحاد السوفياتي، وثانية الصين وثالثة البانيا. ولم تكن هناك لافتات تحيي المجر أو المانيا الشرقية أو بولونيا أو بلغاريا.

في اليوم التالي بدأ الناس يسارعون الى شراء المواد الغذائية خوفاً من الغزو. كما بدأ هجوم على مكاتب السفر حين قطع الناس عطلهم وزياراتهم لأقاربهم وعادوا الى بيوتهم. واستمر التوتر في تصاعد حتى زيارة تشاوشيسكو للماريشال تيتو في بلغراد. فالمراقبون يعتقدون أن البحث دار بين الزعيمين الشيوعيين حول طلب ضمانات من موسكو بعدم الاعتداء. من بعدها أخذ التوتر يخف. ولم يعرف إذا كان هبوط درجة الغليان يعود الى الاتفاق السري بين تشاوشيسكو وتيتو، أو أن موسكو أعطت ضمانات بعدم الغزو.

إلا أن اللهجة العدائية في الصحف والاذاعات الرومانية ضد الاتحاد السوفياتي خفت كثيراً. ثم كان خطاب تشاوشيسكو في براشوفا في شمال رومانيا، واكبر مدينة بعد بوخارست، هادئاً مؤيداً تشيكوسلوفاكيا من غير ان يرد على اتهامات موسكو بأنه يدعم «العناصر الرجعية المناوئة للثورة في براغ». وقال أحد المراقبين لي في بوخارست، أن تغيير اللهجة يعود الى قرار اتخذ في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروماني بعدم استفزاز الاتحاد السوفياتي، وخاصة بعد مقابلة تمت بين السفير السوفياتي وتشاوشيسكو.

ثم ان رومانيا لا تستطيع أن تقاوم الاتحاد السوفياتي طويلاً لو هجم. فالسلاح الروماني سوفياتي وتشيكوسلوفاكي يعتمد على موسكو في استمرار تدفقه. وهناك من يقول في بوخارست أن رومانيا قد عقدت صفقة مع اسرائيل لشراء كل السلاح السوفياتي الذي ربحته من العرب في حرب ٥ حزيران، ورومانيا تريد المحافظة على مكاسبها الاقتصادية، من دون أن تخسر في حرب غير متكافئة مع الاتحاد السوفياتي، ما بنته من صناعات ثقيلة في العشرين السنة الأخيرة، وما حققته من نمو فاق كل دول أوروبا الشرقية. إنها لا تريد من موسكو أن تقصف لها مصانعها، وقد تحولت من بلد زراعي مئة بالمئة الى بلد أصبح اقتصاده يعتمد في أكثر من ٦٠ بالمئة منه على الصناعات الثقيلة والخفيفة. فلا داعي اذن لاستفزاز موسكو بشكل قد تخرج معه عن طورها. إن رومانيا أغنى بلد بموارده الطبيعية وتطوره الاقتصادي بعد الاتحاد السوفياتي في أوروبا الشرقية. ففيه من النفط الى اليورانيوم حتى الموارد الزراعية كلها. والحزب الشيوعي الروماني الذي يبلغ عدد أعضائه مليوني شخص من أصل ١٩ مليون نسمة هم سكان البلاد، يعتبر أكبر حزب في أوروبا الشرقية أيضاً بعد الاتحاد السوفياتي، والأكثر ماركسية. وهذا الحزب لا يريد أن يقسم قواه بالتحريض على هجوم عسكري سوفياتي. ورومانيا لم تستعمل قط كلمة «غزو» بل «تدخل».

أما موقف رومانيا المؤيد لتشيكوسلوفاكيا والشاجب للهجوم العسكري السوفياتي، فنابع من موقفها الأساسي وهو وجوب عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان

الشيوعية وترك ملء الحرية للأحزاب الشيوعية للعمل حسب سياسة وطنية تقتضيها ظروف البلد، ويعرفها الحزب الشيوعي المحلي ويقدرها أكثر من موسكو. وتأييد تشيكوسلوفاكيا ضد الاتحاد السوفياتي، لا يعني أبداً رضى بوخارست عن «الاصلاحات الشيوعية الداخلية» التي تقوم بها براغ. لقد كان هناك اصرار واضح في كل بيانات الحزب الشيوعي الروماني التي صدرت منذ مطلع الأزمة التشيكوسلوفاكية على دعوة الرفاق التشيكيين الى التمسك بالتعاليم الماركسية ـ اللينينية وعدم الخروج عليها وطاعة الحزب.

وإذا كانت رومانيا لم تصدق تماماً احتمال الغزو السوفياتي، فإنها صدقت الخبر المنتشر في كل مكان والقائل بأن السوفيات قد أطلقوا عبر الحدود عدداً كبيراً من الثعالب على الأراضي الرومانية لتهاجم وتأكل المواشي والأبقار والخنازير من المزارع والبيوت. لذلك فإن الأشخاص الوحيدين المستنفرين الآن في رومانيا، هم الصيادون.

وموسكو، حتى الآن، لا تخاف تشاوشيسكو، ديغول رومانيا في أوروبا الشرقية، بقدر ما تخاف واشنطن من ديغول فرنسا في أوروبا الغربية. «الروس قادمون، الروس قادمون». لا. الثعالب وحدها فقط.

بوخارست ـ (١٩٦٨/٩/١)

■ مخاوف حلم

«الاشتراكية ذات الوجه الانساني» الحلم الذي مات في براغ يُبعث حياً في بوخارست اليوم. بهذا الطموح، طموح الماركسية ـ اللينينية عندما تبلغ سن الرشد، أنهى المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الروماني جلساته في بوخارست، وفتح قلبه وصدره للجماهير التي احتشدت أمام مبنى مجلس الدولة وهي تهتف: «تشاوشيسكو، تشاوشيسكو»، بعدما كان قد أغلق جلساته وأوصد أبوابه أمام الصحافيين والمراقبين من رومانيين وأجانب.

ومع تسرب أخبار المؤتمر «بالقطارة»، كانت عملية غسل التجربة الشيوعية في رومانيا، والتي بدأت في عام ١٩٦٢ خلال الأعوام الأخيرة لحكم الأمين العام للحزب الشيوعي الروماني ورئيس الوزراء السيد جورجيو ـ دييج، تقف أمام أخطر ـ وربما أعنف ـ منعطف وأكثره دقة في ربع القرن، والذي هو تاريخها الكامل، والذي تحتفل به في ٢٣ آب العام ١٩٦٩.

هذه التجربة التي بدأت بالتسلل خطوة خطوة عبر ٤ سنوات من تسلم نيكولاي تشاوشيسكو أمانة الحزب ورئاسة الدولة فيما بعد. وفي ختام المؤتمر العاشر، بدأت مراحل التجربة تكتمل والوجه الانساني للتجربة الاشتراكية في رومانيا يبتسم.

ولكن تشاوشيسكو، الحريص على حماية هذا الوجه من الاغتيال، تعلّم ـ وإن كان أكثر مهارة في الأصل ـ من الكسندر دوبتشيك ومن التجربة التشيكوسلوفاكية الكثير. في اليوم الأول للمؤتمر، وقف تشاوشيسكو، راقص الحبال الماهر، وأعلن أن من حق كل حزب شيوعي في العالم أن يقرر سياسته الداخلية والخارجية حسب مصالحه وحاجاته، وأن «الأممية البروليتارية» ليست إلا علاقة حرة بين الدول الشيوعية، لا عقيدة واحدة ترفض الاجتهاد. وخلال خمس ساعات ونصف من الخطابة حدد تشاوشيسكو للمرة الأولى منذ تسرب رياح التغيير الى بلاده، وبوضوح كامل، معالم سياسة رومانيا المستقلة، حزبياً وداخلياً وخارجياً.

وكلام تشاوشيسكو الطويل ـ بحضور ممثل الحزب الشيوعي السوفياتي السيد قسطنطين كاتوتشيف والمسؤول عن العلاقات مع الأحزاب الشيوعية الحاكمة على إثر زيارة الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون والبرود ـ إن لم يكن الجفاء ـ السوفياتي الذي رافق تطورات هذه الزيارة ـ كان كلاماً موجهاً ضد الحملة العقائدية السوفياتية الحالية التي تدعو الى قيام «كومنولث اشتراكي» تكون موسكو هي محوره وكعبته. وكان تشاوشيسكو صريحاً، عندما حدد مفهومه: «الكومنولث الاشتراكي» عندما قال: «اننا نفهم بالنظام الاشتراكي العالمي، لا مجموعة تكتلات تدمج فيها مجموعة من الدول في اطار واحد، متخلية بذلك عن سيادتها الوطنية، بل انتصار الاشتراكية كقوة دولية عن طريق عدة دول مستقلة تحدد علاقاتها وتطورها باستقلال، على ضوء المبادىء الجديدة للماركسية ـ اللينينية والأممية البروليتارية».

وبهذا الكلام لم يترك تشاوشيسكو مزيداً لمستزيد في توضيح الخط الاستقلالي للتجربة الشيوعية الرومانية.

لكن الأمين العام للحزب الشيوعي الروماني لم يكتف بهذا الاصرار على الوضوح، بل فجّر قنبلته الثانية في المؤتمر، عندما أدان سلفه جورجيو - ديج، الذي كان زعيماً للحزب من نهاية الحرب العالمية الأخيرة حتى موته في أوائل العام ١٩٦٥، والذي هيأ تشاوشيسكو لخلافته. فقد أدانه تشاوشيسكو بمسؤولية عمليات الارهاب التي قامت في الحزب، وأدت الى قتل عدد كبير من الحزبيين المخلصين وسجنهم. لكن تشاوشيسكو، برغم ادانته لديج، لم ينس أن يشيد بفضائل سلفه كشيوعي صاحب فضل في المقاومة خلال فترة الحرب العالمية وفي بناء الحزب في سنواته الأولى.

واعادت هذه الوقفة الى الأذهان، وقفة مماثلة لخروشوف عندما أدان ستالين في خطابه السري الشهير بعد توليه الحكم. لكن الفارق بين الموقفين، هو أن ديج لم يكن سوى اداة طيعة لمآرب ستالين والستالينية في بوخارست، وأنّ الهدف من إدانة تشاوشيسكو لسلفه هو التخلص نهائياً وعلنياً من الإرث السوفياتي في حزبه. فكانت إدانة ديج إدانة للأسلوب الستاليني الذي عاد اليوم ليحكم سعيداً في موسكو.

كل هذا لم ينس تشاوشيسكو، الرافض في خطاباته خلال المؤتمر كل آراء موسكو في الأممية البروليتارية والوحدة الاقتصادية والعلاقات السياسية بين دول أوروبا الشرقية، أن يؤكد لموسكو ويطمئن الكرملين الى حرصه على أحسن العلاقات وأوثق الصلات والتعاون بين البلدين.

بهذا خرجت الاشتراكية الانسانية من «صفحات الكتب لتدخل حياتنا اليومية» على حد تعبير السيد دومتيرو بوبسكو، عضو اللجنة المركزية للحزب ورئيس تحرير صحيفة «سينتيا» السابق وأحد المقربين من تشاوشيسكو. وما لم يستطع أن يشير اليه تشاوشيسكو بالتلميح أشار اليه بوبسكو بالتصريح.

فالاشتراكية ذات الوجه الانساني التي بدأت تدخل حياة الناس في رومانيا، أرادها بوبسكو في كلمته أن تكون ذات روح «حيوية وحرة»، بقدر ما أرادها بعيدة عن التصلب العقائدي والتحجر الحزبي. فالوجه الانساني الذي قضت عليه الدبابات السوفياتية في براغ قبل عام، أطل من جديد في بوخارست، وبحضور مندوب موسكو، وأيدي الناس على قلوبهم.

بين «انحراف» بلغراد و «هرطقة» براغ، يقف «تجديف» بوخارست وعنادها. فالتحرر السياسي الذي بدأ يكشف أوراقه في العاصمة الرومانية في أكثر من خطاب وجلسة في المؤتمر، لا تحميه الحراب الرومانية، إذا شاءت موسكو أن تقضي عليه بدباباتها في ذكرى مرور ربع قرن على الحكم الشيوعي ذي الوجه اللاإنساني في رومانيا. الذي يحميه هو الجيل الشيوعي الجديد الذي أدرك أن الزمن تغير. أو على حد تعبير تشاوشيسكو، فإن«القوانين البيولوجية لها الكلمة الأخيرة».

على هذا الأساس أعيد انتخاب تشاوشيسكو أميناً عاماً للحزب بالاجماع لخمسة أعوام مقبلة. إنما انتخب هـذه المرة من قبـل قواعـد الحزب كلـه الممثلين بـ ١٩٠٠ عضـو في المؤتمر، وبواسطة الاقتراع السري، لا بواسطة اللجنة المركـزية وبـرفع الأيـدي. وهذه المرة الأولى في تاريخ الحزب التي يتم فيها انتخاب الأمين العام واللجنة المركزية ـ التي وسعت الى ١٦٥ عضـواً ـ بهذه الطـريقة المبـاشرة. معنى هـذا بكـلام آخـر، أن قـوة تشاوشيسكو (٥١ سنـة واصغر زعيم في أوروبـا الشرقية) مستمـدة من قواعـد الحزب كلها لا من اللجنة المركزية وحدها، وأن عملية إقالته عن طريـق مؤامرة تغذيها موسكـو وتدفع اللجنة المركزية ـ عن طريق الترغيب والترهيب ـ الى تنفيذها قد أصبحت صعبـة جداً، إن لم تكن مستحيلة. فإقالته ـ كانتخابه ـ يجب أن يوافق عليها الحزب كله. كمـا أن مدة توليه المنصب قد مددت من أربعة الى خمسة أعوام. ولأن «القوانين البيولوجية» لهـا الكلمة الفصـل، سقط نصفه أعضاء اللجنـة المركـزيـة السـابقـة، وانتخب مكـان «الحـرس القديم» شبـان من جيل تشـاوشيسكو، أكثـر انفتـاحـاً وتحـرراً. وكـان أهم الفاشلين السيّدين شيفوستويكا رئيس الـدولة السـابق وجورج ابـوستول نـائب رئيس الوزراء السابق.

أما أبرز الأعضاء «الشبان» الذين لمعوا في هذا المؤتمر وأعطوا للاشتـراكية الـرومانيـة وجهاً إنسانياً، فكان بلا نزاع ديمترو بوبسكو. فخطابه، الى جانب مقالاته في «سينتيـا»، كان قمة ما طمح الى أن يسمعه كل روماني. وقد دعا فيه الى تشجيـع «كل انسـان على أن يفكـر بنفسه وكمـا يشاء». وبهـذا المنطق انتقد الصحـافة والاذاعـة والتلفزيـون ـ كصحافي سابق وحزبي حالي ـ «لجفافها ومللها ودخولها في مناقشات تافهـة». كما دعـا الى المزيد من الحيوية في الصحافة، ووصف التلفزيون الروماني بانه «مجلة مصورة بلا حياة».

ولعل أهم ما حققه المؤتمر العاشر هو إعادة القيم الوطنيـة الى الرومـانيين، بعـد صمت وتشويه لا يغتفران لكل الأمجاد الرومانية الماضية، وقهر، طوال ربع قرن للروح الوطنية والثـورية الحقيقيـة والذكـريات التـاريخية الأصيلـة. واذا غفر الـرومانيـون كـل شيء لحكامهم خلال ٢٥ سنة، فإنهم لا يغفرون لهم تشويه تاريخهم الفني الحافل بالأمجاد. لذلك كان من الضروري أن يواجه الحزب الشيوعي هذه الهوة بينه وبـين المواطنـين، لا عن طريق القوة، بل عن طريق الاقناع وتغذية الروح الخلاقة وتشجيع التفكير المستقـل وبعث الأمجاد التاريخية. لقد أعـاد الحزب قيم الـوطن الأصيلة والحقيقيـة الى الوطن ذاته. وكان هذا أقصى ما يريده ويتمناه الحزب والناس.

تبقى أيـدي الناس عـلى قلوبهم. الى متى سيبقى للشيـوعية وجـه انساني في رومـانيا. الناس ـ كل الناس ـ تنتظر الذكرى المزدوجة. الأولى، ذكـرى «عار» مـوسكو في بـراغ. والثانية ذكـرى «أمجاد» الحـزب الشيوعي الـروماني في بـوخارست. الأولى في ٢١ آب. والثانية في ٢٢ آب عام ١٩٦٩. وعندئذ قد تقرر موسكو أن ترسل جيوشها «الصديقـة»

لتنزل «ضيوفاً» على بوخارست. وعندئذ قد ينسى نيكسون أنـه زار رومانيـا. فمن الممكن أن يعود التاريخ الى الوراء بالنسبة الى الكرملين.

أما في بوخارست، فلا أحد يدري. الكل يبتسم فرحاً، والكل يخاف أن يبكي حزنـاً... في يوم قريب مقبل.

بوخارست - (١٩٦٩/٨/١٦)



١ ـ اليونان الساسة

بداية المأساة الاغريقية

قد لا نكون نحن في العالم العربي اول من اخترع لعبة «الجيش والسياسة»، ولكننا حتماً أحوج الناس اليوم، الى مراقبة الأحداث الخطيرة التي تتمخض عنها اليونان.

فالأزمة التي حبست انفاس الناس في أثينا، منذ مولد وريثة العرش الهيليني القلق في ١٠ تموز عام ١٩٦٥، حتى طرد وزير الدفاع اليوناني من الحزب والوزارة في ١٣ تموز عام ١٩٦٥، قد هددت ركنين اساسيين في أعمدة الحكم الدستوري الديموقراطي.

أولاً: إنّ الملك يملك ولا يحكم.

ثانياً: إنّ الجيش لا يتدخل في السياسة لا من قريب ولا من بعيد، وإن ولاءه الأول والأخير، هو للحكومة التي تمثل كثرة الشعب، وليس للملك.

وهكذا انطلقت أزمة الحكم في اليونان.

منذ أن اعتلى الملك قسطنطين العرش في آذار عام ١٩٦٤، وحزب اتحاد الوسط الحاكم الذي يتزعمه رئيس الوزراء جورج باباندريو، يحاول أن يقيم علاقات طيبة مع القصر، محاولاً اكتساب ثقة الملك الشاب. لذلك كان تعيين بيتر غاروفالياس، المحافظ، وزيراً للدفاع، نوعاً من التطمين للقصر، بأن الجيش اليوناني المحافظ تقليدياً سيبقى بعيداً عن السياسة، وعن برنامج الحكومة في «التحرر العقائدي».

ولكن باباندريو اكتشف بأن عدداً كبيراً من ضباط الجيش اليمينيين، قد بدأوا يعملون ضد الحكومة، وأن ولاءهم قد أصبح مشكوكاً فيه. وطلب رئيس الوزراء اليوناني من وزير دفاعه أن يطرد الضباط الذين يتدخلون في السياسة. ورفض الوزير، ودعم الملك رفضه، خوفاً من تسلل الشيوعيين واليساريين الى الجيش.

وثارت ثائرة حزب «اتحاد الوسط» على تدخل الملك، وضغط على باباندريو بضرورة طرد غاروفالياس من الحزب وإقصائه عن الوزارة، متهماً إياه بأنه «عميل للقصر»، ومطالباً بتحديد دور الملك في الحكم.

وواجه قسطنطين مأزق الحكم لأول مرة. إما أن يوقع على استقالة وزير الدفاع، أو يطلب من الحكومة تقديم استقالتها.

واذا استقالت الحكومة ودعت الى انتخابات جديدة، كما ينص الدستور، فستطرح لأول مرة أمام الشعب اليوناني ليحدد بوضوح، مسألة ما هي صلاحيات القصر، هل يملك أو يحكم؟ وكان هذا مأزقاً آخر وقف الملك تجاهه محتاراً، فهو يخشى اذا قبل باقصاء الضباط اليمينيين أن يفتح باب التغلغل الشيوعي داخل الجيش، اعرق مؤسسة محافظة في اليونان كله. وإذا رفض، فالانتخابات ـ ونجاح حزب اتحاد الوسط شبه مؤكد ـ تهدد مصير الملكية كلها هناك.

وخرج باباندريو من اجتماعه بالملك في جزيرة كورفو في ١٢ تموز عام ١٩٦٥، متفائلاً، غير أن تفاؤله لم يكن دليلاً على تسوية الأزمة.

واليوم، وقد قرر الحزب بالاجماع طرد وزير الدفاع من صفوفه، لم يبق أمام الملك إلا أن يوقع مرسوم استقالته، أو يواجه الخيار الصعب في أن يرهن مصيره بإرادة شعبية، لم يكن ماضيها مشجعاً لأي حكم ملكي، ولو كان دستورياً!

من هنا يحتم علينا الوضع القلق في اليونان، أن نترقب موعد الشرارة التي قد تبدأ «الحلقة المفرغة» التي عانينا منها كثيراً، في اقرب البلدان الأوروبية الى شواطئنا!

□

نخاف أن تكون الحلقة المفرغة قد بدأت في اليونان. ونخاف أكثر ـ نحن الذين عانينا في العالم العربي أمرّ ما فيها ـ أن تكون بدايتها نهاية أصول اللعبة الديموقراطية، وقد فشل الفريقان المتصارعان في لعبها حسب الشروط ذاتها. وما كنا نخشاه عندما اطلت الأزمة اليونانية قد وقع!

لقد واجه الملك قسطنطين أول مأزق في الحكم بتحد، وقف أمام باباندريو، رئيس الوزراء المستقيل، بعد محادثات استمرت أياماً، ورفض التوقيع على اقالة وزير دفاعه غاروفالياس، وخيّر الرئيس بين الاستقالة أو الاقالة. وخيّر أيضاً رئيس الوزراء الملك بين الدعوة لانتخابات عامة، يطرح فيها السؤال الذي تخافه اليونان كلها ـ ويخافه الملك أكثر من أي انسان آخر ـ هل يملك قسطنطين أم يحكم؟

وقد نضج الوقت ليحدد الشعب دور الملكية التي يريدها في بلاده.

وسر الخلاف الجيش، ووراء أخطر أزمة تواجهها اليونان منذ نهاية الحرب الأهلية

الشيوعية بعد الحرب العالمية الأخيرة، يقبع فريقان من العسكر: الضباط اليمينيون الذين يدعمون الملك ضد حكومة باباندريو «اليسارية» وحزبه الليبرالي المناوىء لليمين، مذكرين الجالس على العرش بماضي رئيس الوزراء المستقيل المعادي للملكية، خالقين جواً من عدم الثقة بين قسطنطين وباباندريو. والضباط اليساريون، الذين يدعمون حكومة حزب اتحاد الوسط، واتجاهه التحرري، والذين يشككون بولاء الضباط اليمينيين للحكومة، هامسين باستمرار في أذن وزيرهم المفضل البروفسور اندرياس باباندريو ابن رئيس الوزراء المستقيل ووزير التخطيط الاقتصادي، بأن تمرد وعصيان ضباط اليمين لأوامر الحكومة، واحتمائهم بوزير الدفاع الموالي للقصر، يشكل خرقاً لأبسط قواعد الديموقراطية.

ورفض وزير الدفاع اقالة الضباط وقاوم الاستقالة، واتهم ابن باباندريو، وزير التخطيط، باشتراكه بمؤامرة منظمة «الدرع» اليسارية التي تضم عدداً من الضباط، ومحاولة الأب رئيس الوزراء لفلفة القضية، وعدم التوسع بالتحقيق. وانفجرت الأزمة، وتردت اليونان في مأزق الحكم.

غير أن الملك حاول أن يتخلص من هذا المأزق، بأن وجه ضربة لباباندريو لم يكن يتوقعها. لقد شق الملك حزب اتحاد الوسط الحاكم، الذي يؤيد بأغلبيته زعيمه رئيس الوزراء المستقيل، والذي دعم باجماع هائل طرد وزير الدفاع من صفوفه. واذا بتكليفه اثناسيادس ـ نوفاس رئيس البرلمان، وعضو حزب باباندريو وصديقه، بتشكيل وزارة جديدة، عملية بارعة.

فإسناد رئاسة الوزارة الى عضو الحزب الحاكم ووزير الدولة السابق ورئيس السلطة التشريعية، ما هو إلا محاولة لاستقطاب الجناح اليميني في حزب اتحاد الوسط، ومعه كل أعداء باباندريو وخصومه التقليديين من الداخل. وفجأة وجد اليمين نفسه في الحكم. وماذا يفعل؟

إذا نجح اثناسيادس نوفاس بتأليف وزارة جديدة أو لم ينجح، فإن حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة، يطرح فيها شكل نظام الحكم في اليونان كله، اصبح أمراً لا مفر منه.

حزب اتحاد الوسط ما زال يشكل اغلبية في البرلمان ستسقط الوزارة عندما تقف أمامه ليمنحها الثقة عند أول مناسبة. والوزارة لا تستطيع ان تحكم بارادة الملك من دون ثقة البرلمان. وباباندريو لجأ الى الشارع، وهو يعرف أن فوزه يكاد يكون مضموناً في الانتخابات القادمة. والملك نفسه يعرف أنه سيكون الخاسر عندما ينتقل الصراع الى الشارع.

وإذا بالأزمة على مصراعيها. واذا بالسؤال المحرج تطرحه الجماهير في شوارع أثينا: من يملك ومن يحكم! ولعلها ـ من دون أن تدري ـ قد ولجت الطريق الذي يقودها الى هاوية الحلقة المفرغة!

بيروت ـ (١٩٦٥/٧/١٥)

أبطال المأساة الاغريقية

كأن المأساة الاغريقية المتعددة الوجوه والابطال، والتي تدور حوادثها في شوارع أثينا، قد شارفت على نهاية الفصل الأول منها. أبطالها وجمهورها ينتظرون النهاية المفجعة للطرفين معاً على أبواب البرلمان اليوناني عندما يجتمع اليوم الجمعة ليمنح أو يحجب الثقة عن الحكومة الجديدة بعد اسبوعين من الدوامة المرهقة.

قواعد المسرح القديم ما زالت سارية المفعول، الاطار الكلاسيكي الذي رسم خطوطه سوفوكليس في مآسيه، وحدد أبعاده أرسطو، ما زال يتحكم بمصير الرواية، والجمهور والأبطال.

أمّا البطل الأول فهو،أثناسيادس ـ نوفاس رئيس الوزراء الحالي والشاعر، الذي سيقف أمام ١٤٣ نائباً يشكلون أكثرية، يقولون له تحت قبة البرلمان، لا، فتسقطه. ويخرج من وراء الستار، جورج باباندريو، رئيس الوزراء السابق، العجوز الطموح وكأنه في بدء شبابه، صاحب الـ ٧٧ سنة، ليسير من على المنابر جماهير اثينا في الشوارع، ضد الرجل الذي تجرأ أن يطعنه عندما قبل أن يحل محله في رئاسة الوزارة، وينتصر الخطيب والجماهير، على الشاعر، ومريديه القلائل، من دون أن تستطيع حراب القصر أن تحميهم.

ويطل البطل الثالث، الملك قسطنطين، الشاب والعريس والأب الجديد، محاولاً أن يدعم شاعره، ضد صاحب الكلمة عند الجماهير، وكأنه يخاف غدر الداهية العجوز، الذي يريد أن يقوض له عرشه، لأنه يعرف أن الذي يشد خيوط هياج الجماهير، قادر على أن يعتلي ظهورهم عند أول انتخابات قادمة.

وتكتمل عناصر المأساة الاغريقية، ببطل قديم قابع اليوم في فرنسا، اسمه قسطنطين كرامنليس، رئيس الوزراء الأسبق، وزعيم حزب المحافظين، الذي استقال وسكن باريس، عندما اختلف مع أبي الملك الحالي، ورفضته الجماهير عندما اختارت باباندريو بأغلبية كبيرة. وكرامنليس ينتظر بقلق. فهو يريد أن تنتصر الجماهير على الملك الذي يحقد عليه، ويريد لها أن تهزم لأنها تخلت عنه. وهو في تناقض عواطفه، يأمل أن يعود كمنقذ إلى المسرح قبل اسدال الستار.

ومن بعيد، يطل شبح على المسرح، ليعقد المأساة، ويربطها بالخيط الأخير الذي يحبك المسرحية. اندرياس باباندريو، ابن رئيس الوزراء السابق، والمواطن الأميركي والأستاذ في جامعة كاليفورنيا، قبل أن يستدعيه الأب، ليقود الكورس في شوارع اثينا معه. فهو صلة الوصل، بين أفراد المأساة، الذين ينتظرون في الظلال، يتحركون ويحركون في الوقت المناسب.

وتستمر المسرحية، بين حدود المأساة الاغـريقية، والملهـاة اليونـانية الحـديثة، لتشهـد، ربما، بداية جديدة، في حياة اليونان السياسية، لم تخطر ببال سـوفوكليس طـوال قرون ماضية.

بيروت - (١٩٦٥/٧/٣٠)

المسرح والجمهور

تراكضت الجماهير المحتشدة في شوارع أثينا، لتشهد الفصل الثاني من المأساة الأغريقية على مسرح البرلمان اليوناني، وقد سقط البطل الشاعر من دون أن يدري، كيف ولماذا؟ لقد افسد تدخل الجمهور سياق المسرحية!

حكومة جورج اثناسيادس - نوفاس لم تدر كيف سقطت، ولذلك رفضت الاستقالة. وأصرت أن تعيد المسرحية من جديد، لتلقي ببيانها الوزاري وتطرح الثقة بعد اربعة أيام. لقد ادخل باباندريو، بطل الجماهير الأول، عنصر المفاجأة، حين باغت الحكومة بانسحاب حزبه وانصاره من الجلسة، فتعطل النصاب، قبل التصويت على الثقة، مما دفع رئيس البرلمان الى اعلان سقوط الحكومة، وكأنه أراد امعاناً في اذلال نوفاس، أن يسقطه من دون ثقة.

وباباندريو يعرف، انه لو أراد نوفاس أن يستقيل، لمنعه الملك من ذلك. فالمعركة لم تبدأ بعد، فكيف تنتهي بهذه البساطة؟ والعجوز الطموح يعرف أيضاً، أنه عندما يمنع سقوط نوفاس مباشرة عن طريق التصويت في البرلمان، فإنه بذلك يخلق سابقة دستورية، وبالتالي يقطع شعرة معاوية مع الملك، الذي ما زال يأمل بتسوية معه، على أساس أنه الزعيم الأقوى، القادر على السيطرة على الشارع والبرلمان، والعارف بمداخل ومخارج اللعبة الدستورية كلها. وحيث لم ينزلق حتى الآن، كما تريده الجماهير ويريده الشارع، في مزايدة ضد العرش، على حساب الجمهورية!

ولكن الملك، ملقن نوفاس العنيد، يحاول بدوره أن يتخطى باباندريو، عن طريق إطالة عمر الحكومة الحالية بقدر استطاعته، ليصل الى اجتذاب الجماهير، حيث لا بد من استخدام القاعدة القديمة، لعلمه بأنها ستنحاز في المدى البعيد الى الحاكم، اذا استطاع أن يمدد في الحكم أطول مدة ممكنة. وعلى أساس هذه الخطة، رفض الملك مرشح باباندريو للتسوية، ونائبه في الوزارة السابقة، ستيفان ستيفانوبوليس، كرجل من الممكن أن يرضي الأطراف المتنازعة.

ولكن هتاف وصياح الجماهير، وهي تتدافع على أرصفة أثينا، قد علا فوق الحوار الدائر بين البطل والممثلين، وبين المخرج والكورس، من دون أن يعطله. الجماهير في التحامها، تطلق ألف إشاعة، وتتدخل في الحوار، وتلقن الممثلين، وتصعد على المسرح، والمسرحية مستمرة تائهة بين الملهاة والمأساة، وقد أرهق الحر والصراخ كل اليونان.

عندما تقف الحكومة مرة أخرى أمام البرلمان، محاولة اسماع صوتها الى الأمة وسط كل هذا الصخب والضجيج، ستدرك انه لا بد أن يكون للمسرحية مؤلف ومخرج وبطل واحد، وأن تعدد الأدوار لا يثير الجماهير كثيراً، بقدر ما يثيرها الساحر العجوز القادر على أن يحرك فيها مواطن الضعف، الى جانب مواطن القوة والبطولة.

ولم يرفع الستار بعد، على الفصل الثاني من المأساة الاغريقية!

بيروت - (١٩٦٥/٨/١)

الثعلب العجوز

رست الأزمة اليونانية عند أقدام الثعلب العجوز، وتجمعت خيوط اللعبة التي دامت ٢١ يوماً في يده. ودخل جورج باباندريو، رئيس وزراء اليونان السابق، وزعيم حزب اتحاد الوسط والأغلبية البرلمانية، على الملك قسطنطين، ليخيره بين تكليفه بتشكيل وزارة جديدة، او الدعوة الى انتخابات عامة.

وخسر الملك لعبة كسب الوقت. وقد كان سقوط حكومة اثناسيادس ـ نوفاس واقعاً حسابياً في الأصول البرلمانية. وفشل العرش في المناورة على السياسي العتيق. وقد كان من الصعب تخطي أصول اللعبة السياسية المتعارف عليها، وقد منع الضرب فيها من تحت الحزام!

كان الشارع، رمز هوس الشعب وعنفوان سلطته مع باباندريو العجوز. وكان البرلمان، السلطة التشريعية الوحيدة، والمرجع الدستوري الأول، مع باباندريو، زعيم تجمع الأغلبية البرلمانية. وأمسك الكهل المناور بزمام السلطتين وطرق باب الملك.

وكان التحدي الأكبر الذي عرفه قسطنطين في حياته السياسية القصيرة. فالملك لم يبادر باباندريو، كزعيم حزب أكثرية برلمانية، ليستشيره في أزمة وزارية، اثر سقوط حكومته في البرلمان، بل بادر الرجل الذي تخطى السبعين بسنوات الملك الشاب، ليقول له من انتصر، وليحدد له أي الطريقين يجب أن يسلك. وكانت اللحظة الحاسمة التي انتظرها باباندريو طوال تلك الأسابيع الصاخبة التي مرت. فخرج من عند الملك، وكأنه يؤكد للجماهير التي احتشدت على الأرصفة لتحييه، ما كان قد قاله عند سقوط حكومة العرش في البرلمان، بأنه لن يعود الى الندوة النيابية الا وهو رئيس للوزراء. وكأنه قد وضع قدمه على أول الطريق نحو المنصة التشريعية.

وإذا بالمأزق أكبر من أن يبتلعه القصر. فإن دعا باباندريو وكلفه بتشكيل حكومة جديدة، فهذا يعني هزيمة اكيدة للملك، وتقلصاً نهائياً لنفوذه، كما يؤكد ادعاءات حزب اتحاد الوسط، أن الملك قد خرق الدستور بإقالة باباندريو وافتعل ازمة لم يستطع أن يحقق مآربه منها. إنها هزيمة من قامر وخسر كل ما كان يبرر جلوسه إلى الطاولة الخضراء.

وإن رفض القصر تكليف باباندريو، وهو لن يستطيع أن يكلف زعيماً آخر، لأنه الوحيد الذي يتمتع بالأغلبية التي تستطيع أن تشكل حكومة لن تسقط أمام ضجيج نوابه، كما سقطت حكومة نوفاس، فليس أمامه الا خيار واحد. الدعوة الى انتخابات عامة. والدعوة لانتخابات عامة، ستكون واقعاً حسابياً جديداً، وستعيد باباندريو وحزبه وربما بأغلبية أكثر، الى البرلمان، داعمة مركزه، ومستفتية زعامته، كتجسيد للديموقراطية اليونانية. وهذا اصعب المآزق.

والانتخابات ستكون استفتاء آخر، على الملكية، وعلى العرش، وعلى القصر ونفوذه.

سيطرح شعار: من يملك ومن يحكم؟ وستعود النقمة الجمهورية الى الفتور لأول مرة منذ نهاية الحرب الأهلية. وسيرتفع صدى صوت بابانسدريو ليؤكد أن الملك هو الذي وراء الأزمة التي هزت دعائم استقرار اليونان السياسي. وسيخسر العرش حتماً، أكثر مما خسر في الماضي بكثير.

ولا يبقى أمام الملك قسطنطين، إلا أن يرى من خلال هزيمته أمام المحنك العجوز، الطريق الأسلم، وهو التسليم باللعبة الديموقراطية. من يخسر يدفع الثمن، وينتظر الجولة القادمة. وبابانـدريو هو اليوم المنتصر الأكبر، وطريق رئاسة الوزراء، أقصر وأسلم وأخف ألماً للعرش، من طريق الانتخابات المجهول المصير.

والديموقراطية، ليست ديموقراطية، إن لم تكن هكذا. وارتفع الستار عن فصل جديد في المأساة الاغريقية المتعددة الفصول والوجوه!

بيروت - (١٩٦٥/٨/٧)

القصر والشارع

تسعون دقيقة، وخرج جورج باباندريو، الصامد الأول في اللعبة اليونانية من عند الملك، ليعلن أن قسطنطين اعند منه. وفشلت محاولة رئيس الوزراء السابق، للخروج من الأزمة.

وتغيرت معالم أحجار الشطرنج وأوضاعها على الرقعة الكبيرة. وبدأت محاولات لتغيير شروط اللعبة. ولأن الوقت قد بدأ يميل لصالح الملك الشاب، ضد السياسي العجوز باباندريو، قرر الأخير نقل كفاحه الى الشارع، في معركة أخيرة لاعادة الديموقراطية. والملك، بدأ محاولاته لشق حزب اتحاد الوسط، وأكثريته البرلمانية، وضربه باليسار وانصاره.

ولنترك باباندريو وحده في الشارع، فهو يعرف ـ وقسطنطين يعرف ـ انه قادر على تحريك الجماهير متى شاء بشكل لم تعرفه اليونان من قبل. وهو يعرف أيضاً، أن باستطاعته أن يبقي الشعب وراء المتراس الأخير، حتى ينتهي دوره.

محاولة الملك، بدأت بكسب الوقت باستغلال صلابة موقف باباندريو، لاظهاره امام الرأي العام بمظهر المتسلط على حزبه، الفارض رأيه الشخصي، فوق مصلحة الحزب والبلاد. وكاد ينجح، باعلان ٢٦ نائباً من نواب حزب اتحاد الوسط، أن باباندريو، يعرض اليونان لازمة، من أجل طموح شخصي. وشق اكثريته البرلمانية أما الى أي مدى، يعرض هذا البيان باباندريو للخطر، فمن السابق لأوانه البحث فيه.

وأعاد الملك ترتيب أحجار الشطرنج، في محاولة لتطويق الكهل الذي لم يتعب، بالترويج لفكرة دعوة تسيريموكوس، وزير الداخلية في حكومة باباندريو السابقة، والشيوعي السابق، والزعيم اليساري المعروف، ووزير العدل في «حكومة الجبال»، إبان الحرب الأهلية اليونانية وقبلها. لتأليف وزارة اغلبية. واعتبرت أوساط باباندريو، أن تكليف تسيريموكوس تشكيل حكومة، محاولة جديدة من محاولات الملك لشق اليسار عن زعامة باباندريو، وائتلافه مع حزب اتحاد الوسط. وهيأ قسطنطين جماعة القصر، لدعم مرشحه الجديد. غير أن الملك، لن يقدم هذه المرة على استدعاء مرشحه اليساري، قبل أن يتأكد، من قدرته على تشكيل حكومة تستطيع أن تفوز بثقة ثلثي البرلمان على الأقل.

ولكن كيف يمكن لشيوعي الأمس، ويساري اليوم، أن يرأس حكومة، اغلبيتها من اليمين، في ظل نظام ملكي؟ اليمين لا ينسى أنه حاربه يوم فاز برئاسة البرلمان اليوناني الحالي أول ما انتخب. ثم اضطر ان يتخلى عن المنصب في سبيل التوازن السياسي. فاليمين لا يثق به، ويعتبره خطراً. أما اليسار، فيعتبر تسيريموكوس خائناً.

اليمين لا يمكن أن يثق بشيوعي سابق، بنى مجده على محاربة كل ما يمثل هذا اليمين من افكار ومبادىء وقيم، وقد البس دعوته بزّة الاشتراكية الماركسية، يوم وقف واعلن بعد تحرير اليونان إثر الحرب العالمية الأخيرة، بأنه ماركسي العقيدة والميول.

واليسار لا يمكن أن يغفر لوزير العدل في حكومة الثوار طموحه، ولو كان رئاسة الوزارة. فالرجل الذي ربط وجوده بالتزامه بالحركة التقدمية، لا يمكن أن يعلن اليوم عن استعداده لسحق التظاهرات الشعبية التي تنادي بالدستور والديموقراطية. وبين شك اليمين وعداء اليسار، لن يتمكن تسيريموكوس، من تحقيق رغبات الملك.

ولا يبقى بين القصر والشارع الا خطوات معدودة، أولها الانتخابات، وأخرها صدام أكيد بين قوى القصر، وقوى الجماهير، لن يكسب الملك الجولة الأخيرة فيه. عناد باباندريو - بعد ٧٧ سنة - ما زال أصلب وأبقى. والا فأمام اليونان تسعون دقيقة جديدة من أعصاب محروقة!

بيروت - (١٩٦٥/٨/١٤)

يولسيس الجديد

منذ أن أبحر يولسيس من صخور الشواطىء الايجية، عبر مضايق اليونان الكثيرة متخطياً صعوبات البحر الكبير، رافعاً شراعه في دوامة العواصف والبروق، واصلاً الى الأرض الصلبة، محققاً معجزة العناد الأولى والأكبر في التاريخ، وأحفاده اليونانيون من بعد أثينا القديمة واسبارطة، يحاولون دمج الأسطورة بالواقع عن طريق التمسك بذلك الانتصار الكبير، العناد!

واليوم، والأزمة السياسية في اليونان قد شقت طريقاً جديداً في الجو السياسي المتعب في اثينا، يجد باباندريو بعد أن كلف الملك زميله القديم الياس تسيريموكوس بتشكيل حكومة جديدة، أن العناد والصمود هما الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يربح في النهاية. ألم يبحر يولسيس في الأنواء ضد مشيئة القدر؟ ألم يصل الى تلك الأرض التي طالما حلم بها بالرغم من حساب العرافات وعداوة الظروف؟ وماذا يمنع جورج باباندريو اليوم، حفيده، من أن يصمد ويصمد ويصمد بعناد، حتى يصل الى السلطان الذي يعتقد بأنه قدّر له؟ البحر، إن عاند يولسيس، فقد استسلم لشجاعته. واثينا، إن غدرت بباندريو، فإنها ستسقط في قبضته.

وعندما يقف الليلة الياس تسيريموكوس، الشيوعي والمناضل والثوري القديم، أمام الملك قسطنطين ليقدم اليه أسماء حكومته، لن ينسى أن يقول للحاكم الشاب، مهما اعطي من الضمانات، انه قد يسقط أمام البرلمان الذي يمسك جورج باباندريو بمقوده ويتحكم بأشرعته. ولن يكون تسيريموكوس، بعد نوفاس وستيفانوبولس، أكثر من طموح آخر أخطأ الحساب، استهان بقدرة الربان العجوز في السيطرة على بحارته.

وفقدت اليونان في الوزارة الجديدة، ما كان يسعى اليه المعتدلون، بتأليف حكومة، تكون بمثابة حل وسط، تحكم لبضعة أشهر وتنقذ وجه الطرفين المتنازعين، وتؤخر احتمال اجراء انتخابات عامة في جو مشحون بالتوتر والقلق. واذا بالرئيس المكلف، خارجيٌّ آخر من خوارج حزب اتحاد الوسط، لا يلقى من تأييد اليساريين أكثر مما يلقى من شك اليمينيين، ولا من ثقة الملك، اكثر من سخط باباندريو. واذا بحدود الأزمة اليونانية اليوم أكثر وضوحاً مما كانت عليه. الجمهوريون ضد الملكيين، والتقدميون ضد المحافظين، والنقابيون من عمال وفلاحين، ضد الجيش من جنود وشرطة. واذا بالصراع تماماً يخرج الى الهواء الطلق، الديموقراطية ضد كل من يريد تجاوزها.

ويقول باباندريو، الذي يجسد بشخصه ـ حسب اعتقاده ـ الديموقراطية اليونانية، ان الفرق الأساسي بين الديموقراطية والديكتاتورية، ان للديكتاتورية مدخلاً من دون أن يكون لها مخرج. بينما للديموقراطية مخرج دائم، هو الانتخابات. من أجل ذلك لا يبقى حل للأزمة المستعصية الا باجراء انتخابات عامة فوراً. ولكن الا يكفي اليونان تسع انتخابات في تسع عشرة سنة؟ ويجيب باباندريو، إنّ الشيوعيين الذين يتهم بهم، يريدون أن يدفعوا بالأزمة الحالية الى نهايتها، حتى يصلوا لتأليف جبهة وطنية مع

حزب اتحاد الوسط والحزب التقدمي. والانتخابات، ستحقق بانتصارها الكاسح الى جانب باباندريو، قطع الطريق على هذه المحاولة الشيوعية!

وأمام اصرار وعناد يولسيس الجديد، لا يبقي أمام باباندريو، الا أن يبحر بالسفينة اليونانية، عبر مضيق الديموقراطية الصعب، بأشرعة تمزق الريح وتحدد اتجاهه، من دون أن تفقد رؤية الشاطىء الذي أرادت أن ترسو عليه. فالرؤيا، منذ أيام يولسيس، كانت صعبة!

بيروت - (١٩٦٥/٨/٢٠)

حكماء أثينا

مهما كانت نتائج مغامرة الياس تسيريموكوس، وهو يطرح الثقة بحكومته أمام البرلمان اليوناني، وسط مظاهر الحياة البرلمانية التي اعتادها الناس في اليونان، كالصخب والضجيج، وتبادل الكلمات بين النواب، فإن الأزمة السياسية التي شلت البلاد قرابة شهرين قد تحولت الى «معركة حسابية».

فالأصوات القليلة التي يُرهن بها مصير محاولة الملك الثانية للخروج من الأزمة، وتمنعت على تسيريموكوس، ما هي الا المتراس الأخير في حرب الصبر الذي لم ينفد بعد! فالنواب الـ ١٢٥ الذين وعدوا بالتصويت الى جانب الحكومة الجديدة (٩٩ من الحزب الراديكالي اليميني و ٢٦ من جماعة نوفاس) لا يكفون وحدهم من دون الثلاثين نائباً أو أكثر الذين وعدوا بالانفصال عن باباندريو والانضمام الى تسيريموكوس.

وفشل الرئيس الجديد في ضم أقل من نصفهم، كما عجز عن اقناع أحزاب الأقلية بالتصويت الى جانبه. وخرج من اللعبة الخاسر الوحيد: اليمين أيده إكراماً للملك واليسار نبذه. ولم تنجح لعبة قسطنطين في تجربة اثناسيادس ـ نوفاس اليميني أولاً، ومن ثم تجربة تسيريموكوس اليساري ثانياً، وبقي باباندريو ماسكاً بزمام الوسط!

ومجلس العرش الذي يلوح به الملك من بعيد، لن يرضي لا زعماء الأحزاب السياسية الذين سيتألف منهم، ولا الشعب ولا يبقى أمام الملك، وقد استنفد ما عنده من رجال ووسائل، الا أن يواجه الموقف بحلين. الحل الأول، الدعوة لانتخابات عامة، يريدها باباندريو وتريدها البلاد ولا يريدها الملك. والحل الثاني، قيام حكومة ائتلافية، لن يقبل باباندريو الاشتراك فيها الا اذا ترأسها وكان لحزبه النصيب الأوفر فيها. ولن يقبل لا الملك ولا اليمين مبدئياً هذين الشرطين.

غير أن قسطنطين قد يلين أمام نتائج مناورة باباندريو في الزحف نحو الشعب، بعد أن فشلت فكرة الملك في كسب الوقت. فكلما استعصت الأزمة وطالت كلما تراصت صفوف الشارع وراء السياسي العجوز. وكلما مرت الأيام، ازدادت فكرة قيام «جبهة شعبية» بين الشيوعيين وباباندريو، حيث أصبحوا يشكلون جناح الشارع القوي في حزبه. وكلما طال الزمن، كلما تحولت المعركة، بوضوح لم تعرفه حياة اليونان السياسية من قبل، الى خيار بين الملكية وبين الجمهورية. ولن يرضى قسطنطين بهذا الخيار!

فلأول مرة منذ عام ١٩٤٤ يتظاهر الشيوعيون بحرية وعنف في الشوارع. واذا كان الشيوعيون اليوم غير مستعدين للعودة عملياً الى الواجهة السياسية في اليونان، فذلك لأن ثلاث عشرة سنة من اضطهاد اليمين لهم، كانت أقوى من سبعة عشر شهراً من «التحرر العقائدي» الذي تركه لهم باباندريو. لذلك كلما تراكمت الأيام على الأزمة، كلما وجد الملك ومعه اليمين كله، أن الاحتمال بأن يقفز الشيوعيون الى مراكز القوة يزداد.

وإذا اجتاز تسيريموكوس الامتحان الصعب أو رسب فيه، فإن مستقبل اليونان

السياسي لم يعد يحتمل مغامرة جديدة، أكانت من الملك أم من باباندريو. لقد مل الجمهور المسرحية، وتعب من الملقن ومن الممثلين، ولم يعد يهمه أكثر من أن يعود الى بيته من دون أن يزحف الى القصر، أو يزحف الشعب اليه. ومهما تغيرت ملابس الممثلين ومناظر المسرحية، فالأزمة الأغريقية ما زالت منذ آلاف السنين تبحث عن نهاية غير مفجعة للمأساة التي نكبت تاريخ اليونان كله!

□

تسعون يوماً، تحولت فيها المأساة الى كوميديا، وتسعون يوماً، أخر، وما زال المخرج الفاشل مصراً على الاستمرار في فرض مسرحيته على الجمهور، وعرضها ليلة اثر ليلة على الناس وقد احتشدت من فرط مللها في الشوارع والساحات وهي تهتف بسقوط المخرج والممثلين وكاتب المسرحية والملقن.

ولم ينفع اغراء المخرج بتحويل بعض المتفرجين الى ممثلين، ولا باعطاء بعض «الكومبارس» أدواراً رئيسية، ولا بتحويل التراجيديا الى ملهاة. لم يبك الجمهور من الضحك، ولم يضحك من كثرة البكاء. لقد اجتاحه الاحساس الوحيد الممكن في تلك الحالة، الغضب!

هكذا هي اليونان اليوم، وقد كادت أن تمل السياسة التي اخترعتها، لكثرة ما أصابها من الميعان، وكاد الحقد أن يصبح هو القاسم المشترك الأعظم بين كل ابطال المسرحية المستمرة على تلال اثينا. فالطموح الذي كان من كفاءات السياسيين في اليونان التاريخي، قد أصبح من عقبات اللعبة التي ابتدعها حكماء أثينا، ورجال اسبارطة. ولم تعد «عرافة دلفي» تعرف من أين سيشرق طالع السعد على سياسيي اثينا اليوم.

فالأيام التسعة، من ضمن الأيام التسعين التي حكم فيها تسيريموكوس اليونان كرئيس للوزراء قبل أن يسقط على اعتاب هيكل باباندريو البرلماني، لم تعلم الملك قسطنطين، أن أصول اللعبة لن تستقيم ما دامت لن تلعب بالشروط ذاتها، وحسب الأصول ذاتها!

وأبى العناد إلا أن يكون فضيلة في قلب الاغريقي الأول، لم ينفع مجلس العرش الأعرج في أن يفك العقدة، ولا نفع تدخل الأمير بيتر الحاقد الأول، في أن يخفف من غلواء قريبه الملك، ولا من اصرار حليفه غير المباشر، جورج باباندريو، العنيد الصامد الأول!

وعاد الملك ليجرب حظه من جديد، وقد مل حديث العرافات، وتجاهل نصائح الضالعين بخبايا الأمور وبواطنها، ليحارب الهزيمة الثالثة التي مني بها، بفارس قديم – جديد، هارب من معسكر باباندريو، في نزال جديد مع زميله القديم. فمن المنتظر أن يكلف اليوم، أو غداً، ستيفانوبولوس نائب رئيس الوزراء السابق والمنشق عن حزب اتحاد الوسط بعد أن رفض السماح له قبول تكليف الملك منذ أكثر من شهر، بتأليف حكومة جديدة. إنما هذه المرة بضمانات، يرجو قسطنطين، أن يوفق في الحصول عليها مسبقاً، وإلا فهزيمة رابعة، تتكسر فيها النصال على النصال!

وستيفانوبولوس، فارس مجرب، إنما قد يعميه طموح المنصب عن رؤية الأبعاد الحقيقية للأزمة. فالاستمرار في اغراء اكثرية الداهية العجوز بالانفصال عنه قد فشلت حتى الآن. فتهديد باباندريو ما زال أكبر من دعوة الملك لاحتلال مناصب الدولة! فلا الراديكاليون اليمينيون قادرون على الهجوم، ولا الوسط الكاره لسيطرة باباندريو قادر على الفرار. ولا قسطنطين قادر على أن يكون الخصم والحكم في وقت واحد!

وهكذا تسعون يوماً أخر، قد يتحول الغضب، إذا لم يتدارك ويستدرك، الى هياج تكون الجماهير، مع المخرج والممثلين الضحية المثلى، ويكون الخاسر الأول، من لم يسمع نصيحة العرافة، ولم يستشهد بحكماء أثينا. وكثيراً ما يسبق تحويل المأساة الى ملهاة مخاض عسير وطويل!

□

... وأخيراً استطاع «المنشقون» أن يؤلفوا «حكومة طارئة»، ويمنحوها الثقة بصوت يتيم واحد!

وتدحرجت احجار الشطرنج من جديد، وارتفع الستار ليسدل بعد حوالي ثلاثة أشهر من المأساة الاغريقية التي مثلت في طول اليونان وعرضها، وقد ملتها الجماهير وأصرت على نهاية مفجعة تتناسب مع تقاليد التراجيديا اليونانية، وأصول المسرح الاغريقي!

كش ملك، كش وزير. وتدحرج رأس جورج باباندريو فجر أمس، بعد مقاومة ضارية تساقط فيها أعضاء حزب اتحاد الوسط الواحد بعد الآخر، حتى أصبح «المنشقون» حزباً، يرفعون وزارة، كوزارة ستيفانوس ستيفانوبولوس الى سدة الحكم، ولو بأكثرية هزيلة!

واذا كان المقاوم العجوز قد صمد طوال هذه الأيام، فإن حزبه ـ المؤلف من بشر ـ لم يستطع الصمود، وبذلك لم يخرج عن التقاليد السياسية في اليونان، واذا تحول الزمن، الذي بدأ في صالح باباندريو، الى عامل يعرقل معركة الصبر التي يخوضها ضد الملك، فإنه أصبح في النهاية لصالح قسطنطين الشاب الذي لم ييأس من محاولاته العنيدة المستمرة في توسيع الثقب في جدار اتحاد الوسط، سواء كان بواسطة رأس اثناسيادس نوفاس، أو تسيريموكوس، أو ستيفانوبولوس اليوم، الذي وصل الى الطرف الثاني من ظهر باباندريو!

ولم تنفع المشاهد الدراماتيكية لباباندريو وهو يدخل ويخرج عند كل جلسة ثقة، بين هتاف وصياح ولكمات نوابه، وأصوات كلمة «خائن» ترن في المجلس عندما يمنح كل نائب من نواب حزب الثقة للحكومة التي تتوسل اليها. ومن خارج البرلمان، مل الشارع التجمعات والتظاهر، وقد تعب من ممارستها بعنف طوال اشهر الصيف كلها. وكبا الجواد بفارسه القديم، من دون أن يرميه من على ظهره!

لذلك تجيء حكومة ستيفانوبولوس، وهي منهكة القوى، مهددة في أية لحظة بفقدان

الأصـوات الأربعة التي استطـاعت أن تحصل بها عـلى الصوت الـواحد الـذي تجاوز نصف عدد النواب الحاضرين، وهو العدد اللازم للفوز بالثقة. واذا استطاع نائب رئيس الوزراء القديم، أن يجعل من ائتلاف اليمين والأحرار والوسط وبعض اليسار، «حكـومة طارئة»، فإنه لن يستطيع أن يجعل من هذا «الموزابيـك» بديـلاً لأغلبية بـابانـدريو، ولا لشعبيتـه الأصيلة. وستبقى مهمتـه هي كسب الوقت لصـالح الملـك، فإمـا أن يتساقط المزيد من نواب اتحاد الوسط على قارعة القصر، وإما أن يعود بـابانـدريو الى اجتـذاب أنصاره، وممارسة جاذبيته القديمة على الأمة التي جعلت منه بطلاً منافساً لملكها!

وحتى تبدأ الدوامة الجديدة في اليونان دورتها، تقف أحجار الشطرنج على اللوح الكبير، وهي تستعد لنزال جديد: كش ملك، كش وزير. وهذه المرة، قد لا يكسب الملك!

بيروت - (١٩٦٥/٩/٢٦)

٢ ـ اليونان: العسكر

■ مفكرة انقلاب ١٩٦٧

يوم الجمعة في ٢١ نيسان عام ١٩٦٧، وقع في اليونان انقلاب عسكري. يوم السبت في ٢٢ منه، الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، كنت في مطار أثينا.

□

قبل ذلك كانت المطارات والموانىء اليونانية مغلقة. وكانت الفكرة أن أطير الى اسطنبول ومنها أستقل سيارة أجرة الى سالونيكي عبر الحدود التركية ـ اليونانية في الشمال.

ثم فتحت المطارات والموانىء.

□

في أثينا، كان أيضاً ٣٠٠ صحافي أجنبي، متوسط أعمارهم ٤٥ سنة ومتوسط خبراتهم المهنية ٢٥ سنة.

□

مساء السبت ٢٢ نيسان عام ١٩٦٧ تجمع لديّ ما يستاهل أن يرسل الى «النهار» في بيروت. ولأن لا برق ولا تلفون، ذهبت الى المطار وفي جيبي رسالة بالعربية من عشر صفحات. قيل لي هناك أن عليّ ان أترجم الرسالة الى الانكليزية (أو الى اليونانية!) ليقرأها الرقيب العسكري فيأذن بارسالها أو لا يأذن.

كانت طائرة وحيدة ستقلع الى بيروت بعد وقت قصير.

واقلعت الطائرة.

وبقيت الرسالة في اثينا.

□

يوم الاحد ٢٣ نيسان عام ١٩٦٧ تغيرت الاسطوانة. قريباً من ساحة الدستور، حيث مبنى البرلمان، صادر العساكر مني فيلماً صورته بنفسي لدبابات ومدرعات ودوريات. ولم يكتف العساكر بهذا، بل أخذوا معه ستة أفلام خام.

كان السبب: أن التصوير ممنوع.

□

وحده التلفزيون الدانمركي صوَّر رغم المنع.

استأجر مصوروه شاحنة كبيرة ذات غطاء معدة لنقل العفش وسدوا بابها الخلفي بما تيسر من الصناديق وقطع الأثاث ثم انسلوا الى الداخل وجعلوا يصورون تحركات الجنود والمصفحات من ثقوب صغيرة احدثوها في الغطاء.

وبعد هذا استأجروا طائرة حملتهم مع افلامهم الى كوبنهاغن.

□

يوم الاثنين ٢٤ نيسان عام ١٩٦٧ انفرجت الغمة. صحافي أميركي صديق (جو الكس موريس ـ مراسل لوس انجلس «تايمز» الذي قتل في طهران برصاصة طائشة في الأيام الأولى للثورة الايرانية) اكتفى بثلاثة أيام من عساكر اليونان، عاد الى بيروت ومعه رسالتان مني الى «النهار» كانتا أول الغيث.

وبقيت في اليونان أسبوعاً قابلت خلاله باباندريو في معتقله وزرت معقله في سالونيكي وعرجت في طريق عودتي على قبرص حيث اجتمعت بالمطران مكاريوس وبالدكتور فاضل كوتشوك وقدست الفصح الشرقي ـ مما لم يكن يدخل في مهمتي.

□

في الطريق من سالونيكي الى أثينا، ركبت طائرة شحن اقلعت بي.. مرتين.

فقد أصاب الطائرة عطل وهي في الجو، فعادت من حيث أتت، ثم عادت من حيث أتت ووصلت سالمة.

اثينا ـ (١٩٦٧/٤/٣٠)

■ عسكر بلا وجوه

بدت أثينا مدينة مهجورة في اليوم الأول لعودة الحياة الى طبيعتها في اليونان، بعد ٢٤ ساعة من استيلاء الجيش على السلطة. ولم يكن هناك، ما يوحي بجو انقلاب في العاصمة اليونانية. فلا مظاهر عسكرية ولا وجود للانقلابيين في الشوارع أو الأماكن العامة. الدبابات والمصفحات تحيط بالمؤسسات الحكومية والجنود يقفون وراءها بكامل اسلحتهم، إنما من داخل أسوار الأبنية وكأنهم خجلون مما ارتكبوه صباح الجمعة ٢١ نيسان عام ١٩٦٧. كما أن الناس في أثينا كانوا مترددين في أن يظهروا أو يتظاهروا وكأن شيئاً لم يقع.

ما الذي حدث في الأيام الثلاثة الأخيرة وكيف وقع الانقلاب ومن هم الانقلابيون وما هو موقف الملك وما هو دوره وما هو مصير الزعماء السياسيين المعتقلين ومن يقف وراء الانقلاب وما سر توقيته؟ عشرات الأسئلة يطرحها المراقبون في أثينا، بينما تسير الأحداث ببطء وغموض شديدين. لا أحد يعرف أحداً، ولا أحد سمع بأحد. علامات الاستفهام تبقى معلقة على هواتف وزارة الانباء التي تتظاهر وكأنها أخر من يعلم، وعلى شفاه عشرات الصحافيين الذين وفدوا الى العاصمة اليونانية عند فتح مطارها يوم السبت ٢٢ نيسان عام ١٩٦٧. المواطن العادي يخاف أن يجيبك إذا لم يكن شيوعياً متطرفاً، والمراقب لا يعرف أكثر من أن يبحث عن عناوين قديمة لرجال اختفوا فجأة من مكاتبهم وبيوتهم.

الرجال كثيرون، أما التسمية فهي: «انقلاب بلا وجوه». (حتى كتابة هذه السطور) لم يظهر أي من رجال الحكم الجديد أمام الناس ولم يقابلوا أحداً ولم يداوموا في مكاتبهم فهم ينتقلون تحت حراسة مشددة من رئاسة الأركان الى القصر الملكي ومن القصر الى بيوتهم.

وعلى الرغم من أن الحكومة قد قفز عدد أعضائها في أقل من يوم واحد من ٥ وزراء الى ١٢ ثم الى ١٩ وزيراً في محاولة لاشغال المناصب الوزارية كلها، فما من أحد يعرف حتى الآن مكان أعضائها وموعد بدئهم أعمالهم. وأهم من الحكومة نفسها هم الانقلابيون من عسكريين ومدنيين. إنهم رجال بلا وجوه يحركون الخيوط من أماكن مستترة محاولين الا يظهروا على مسرح الأحداث قبل أن يركزوا الأوضاع القائمة، ويتأكدوا من استمرارها وسلامتها. أما أركان الانقلاب فهم يمينيون ومن أقصى اليمين. فقد وقع الانقلاب بالطريقة التقليدية المتبعة: زحف الجيش الى أثينا عند الفجر، واحتل الاذاعة، وحاصر الأماكن العامة والمؤسسات الحكومية ومنع التجول وأعلن الأحكام العرفية وبث بياناً من الاذاعة، معلناً استيلاءه على الحكم، ومطرباً الناس بالموسيقى العسكرية والأناشيد الوطنية.

والذي قام بالانقلاب (كما اصبح معلوماً) هو قائد سلاح المدرعات والآليات في الجيش الزعيم ستيلياكوس باتاكوس (٤٥ سنة) الذي دخل بوحداته واحتل العاصمة ونفذ

الخطة الانقلابية بكاملها. وجميع القوات المرابطة في اثينا اليوم تخضع لأوامره المباشرة. وهو الرجل الأول اليوم، إنما ليس الرجل الأقوى. فباتاكوس يشغل منصب وزير الداخلية في النظام الجديد، وهو واحد من العسكريين الأربعة في الحكومة، ومن الأسماء الخمسة الأولى التي اعلنت عند تشكيل الحكومة صبيحة يوم الانقلاب.

والرجل الثاني، ولكن الرجل الأقوى، ويقال إنه مخطط الانقلاب الأول، هو قائد الجيش الثالث على الحدود التركية العقيد جورج بابادوبولوس (٣٥ سنة) وقد عين في رئاسة الحكومة وملحقاً في مكتبه.

وبابادوبولوس هو صاحب فضيحة محروقات السيارات، التي وقعت قبل سقوط حكومة باباندريو بأشهر قليلة عام ١٩٦٥. آنذاك وضع السكر في محروقات السيارات بقصد التخريب، فانفجر بعضها، واتهمت لجنة تحقيق عينها باباندريو بأن بابادوبولوس وراءها.

أما الرجل الثالث فهو وزير التنسيق الاقتصادي وقائد المدفعية العقيد نيكولاس ماتاريسوس (٣٥ سنة) الذي يعرف القليل القليل عنه.

أما الرجل الرابع فهو رئيس الأركان العامة في الجيش الجنرال غريغوريوس سباندیكاكيس (٥٢ سنة)، الذي عين نائباً لرئيس الحكومة ووزيراً للدفاع. وقد فرضه الملك فرضاً على الانقلابيين حفاظاً على وحدة الجيش وتأكيداً للأقدمية في الرتب. ولم يكن ماتاريسوس على علم بالانقلاب.

المدني الأول والرجل الخامس في «هيئة الانقلاب»، هو المدعي العام في المحكمة العليا ورئيس الحكومة قسطنطين كولياس (٦٣ سنة). وكولياس محام محافظ وحجة في الحقوق والآداب اليونانية، وكان من الأصدقاء المقربين للملك الراحل بول وزوجته الملكة الأم فردريكا. وهو يعرف الملك قسطنطين منذ أن كان طفلاً. وقد فرضه الملك قسطنطين على العسكريين عندما قاموا بانقلابهم، لحرصه على وجود وجه مدني في سدة الحكم. وكولياس من اليمينيين المعروفين، ومن الد أعداء باباندريو. فقد بدأ خلافه مع باباندريو منذ أن عينه رئيس الحكومة اليونانية الأسبق قسطنطين كرامنليس محققاً في قضية مقتل النائب اليساري جورج لامبراكيس في سالونيكي في أيار عام ١٩٦٣، خوفاً من أن يستغل اليساريون هذه القضية. وفي شباط عام ١٩٦٤ عندما فاز باباندريو بالانتخابات وأصبح رئيساً للحكومة، كف يده عن هذه القضية قبل أن تحال على المحكمة. وعندما كشفت مؤامرة «أسبيدا» المتهم فيها اندرياس باباندريو، كان كولياس من المحرضين على الاستعجال في التحقيق فيها، حتى تحال اليه قبل موعد الانتخابات في ٢٨ أيار عام ١٩٦٧. وموقف الملك قسطنطين من الانقلاب هو علامة الاستفهام الوحيدة التي تلهج بها شفاه الناس في أثينا. فمن المؤكد، ان الانقلاب قد تم من دون علم الملك أو موافقته. فقد فوجيء الملك بالانقلاب فجر يوم الاثنين ٢٤ نيسان عام ١٩٦٧ وبالمدرعات تطوق قصره الرسمي في أثينا حيث كان يقيم قبل أن ينتقل في عطلة نهاية الأسبوع الى قصر

«تاتوي» الذي يبعد ٢٦ كيلومتراً عن العاصمة، حيث يقيم هناك في فصل الربيع. فالملك لم يوقع على مرسوم يعلق فيه المادة ٩١ من الدستور الخاصة بحرية التعبير والتجمهر والتوقيف والاعتقال من دون تحقيق وغيرها مما يتعلق بالحريات المدنية. فعلى نقيض ما أعلنت محطة اذاعة الجيش والقوات المسلحة، حين استولت على محطات الاذاعة اليونانية السبع عشرة كلها وربطتها بإذاعتها حتى أصبحت كلها تذيع البرامج نفسها، فإن الملك لم يوقع على تعليق هذه المادة من الدستور.

فقد أراد الجيش، باعلانه هذا، أن يضع الملك أمام الأمر الواقع. فأعلن الأحكام العرفية ومنع التجول وفرض حال الحصار. ولكن الملك امتنع عن ارتكاب مخالفة دستورية بهذا المستوى مما اضطر الجيش في اليوم التالي الى رفع منع التجول والسماح بالمعاملات المصرفية واعادة الحياة الطبيعية الى البلاد والتوقف عن الاشارة الى المادة ٩١ مبقياً على حال الطوارىء.

واخضع الملك للتهديد بالتنازل عن العرش إذا ما قاوم الانقلاب بشكل سافر. واستمر رفض الملك تأييد الانقلاب علناً، حتى بعدما أعلنت الاذاعة أن الملك سيذيع بياناً يوم السبت ٢٢ نيسان عام ١٩٦٧. وانتظر الناس ولم يذع الملك شيئاً واضطرت الاذاعة في النهاية الى تجاهل النبأ.

وقيل إنّ الملك لم يجد أمام ضغط الجيش المستمر الا أن يقوم بدور المخفف من غلواء العسكريين، محاولاً أن يحقق لعبة التوازن بين المدنيين والعسكريين، والحصول على مطالب معينة من الانقلابيين ثمناً لصمته، بعدما تم أمر الانقلاب. لذلك رفض الملك أن تشكل حكومة خماسية عسكرية لحكم البلاد، ورد مرسوم تشكيلها وطالب بكولياس وجهاً مدنياً لها، كما طالب بحكومة كاملة محافظة على الشرعية، إذ أن الملك لا يحق له التوقيع على المراسيم، إلا إذا كانت هناك حكومة كاملة تمارس صلاحياتها. فبعد أن توقع هي، تحال الأوراق والقوانين اليه، ليوقع بعد توقيع رئيس الحكومة. لذلك اكتمل تشكيل الحكومة على مراحل، برجال لا لون سياسياً لهم (الا أن أكثرهم قضاة وديبلوماسيون وسياسيون متقاعدون) ثمناً لتأييد الملك المتوقع.

ومواقف القوات المسلحة اليونانية من الانقلاب كانت متناقضة، وغلب على أكثرها التردد. فقد علمت من مصادر مقربة من حزب باباندريو، وهي مصادر حذرة خائفة ومتخفية، بأن الملك حاول استنفار سلاح البحرية الموالي له في اليوم الأول للانقلاب، إلا أن قائد البحرية اعتقل. كما أن سلاح الطيران بقي متردداً حتى بعد ظهر الأحد، حين انطلقت تشكيلات من الطائرات في سماء اثينا، كنوع من اظهار الولاء للحركة الجديدة. فالانقلاب هو انقلاب قام به الجيش، ولم تعرف به الأسلحة الأخرى.

أما عدد السياسيين المعتقلين فليس ٨٥٠٠ شخص كما رددت أكثر مصادر الأنباء. فالرقم مبالغ به ولا يتعدى الألف شخص. وقد تم الافراج عن عدد كبير من الذين اعتقلوا يوم الانقلاب منهم العقيد ميخائيل ارناؤوتيس، وهو أمين سر الملك وصديقه

الحميم. وقالت بعض المصادر، ومنها مصادر حزب اتحاد الوسط، ان اعتقال ارناؤوتيس كان دليلاً على معارضة قسطنطين للانقلاب.

وقد احتجز عدد من السياسيين، بينهم كانيلوبولوس وجورج باباندريو في الطبقة السابعة من فندق هيلتون عند الساعات الأولى من صباح الانقلاب، بعدما طوقت الدبابات الفندق وقطعت الطريق المؤدية اليه، ويقع هيلتون على مقربة من القصر الملكي. إلا أنني، بعد الانقلاب بست وثلاثين ساعة حين زرت الطبقة السابعة في هيلتون، لم أجد إلا عجائز من السياح الأميركيين. أما الأماكن التي يحتجز فيها المعتقلون فهي ميدان سباق الخيل، والمدينة الرياضية «الستاديوم» في اثينا والمكانان تطوقهما الدبابات أما المكان الثالث فجزيرة صخرية على مقربة من مرفأ بيرايوس.

ومساء الأحد ٢٣ نيسان عام ١٩٦٧، بدأ الانقلاب يكشف عن وجهه شيئاً فشيئاً، عندما دعي الصحافيون على عجل من فنادقهم الى وزارة الأنباء،لحضور ما رفض المسؤولون تسميته مؤتمراً صحافياً، يعقده الناطق الرسمي للانقلابيين والحكومة، نيكولاس فارمايكيس (٤٣ سنة) وهو سياسي مدني ونائب سابق في المجلس قبل الأخير، ومن أعضاء حزب الاتحاد الوطني الراديكالي. ولما اجتمع فارمايكيس بالصحافيين، قال انه ناطق باسم العقيد بابادوبولوس، وزير رئاسة الحكومة والرجل الأقوى في اليونان اليوم. وقال فارمايكيس انه لا يعقد مؤتمراً صحافياً، بل اجتماع لتبادل المعلومات مع الصحافيين.

وروى دوافع الانقلاب، فقال:

«منذ اكتشاف مؤامرة «اسبيدا»، شكل الضباط الملكيون تنظيماً عسكرياً سرياً خاصاً بهم لمقاومة احتمال أي انقلاب يساري قد يقوم به باباندريو وجماعته. ولما كان من المقرر أن يعقد باباندريو مهرجاناً انتخابياً في سالونيكي يوم الأحد في ٢٣ نيسان عام ١٩٦٧ ـ ورأت السلطات أنها لا يمكن أن تحافظ وحدها على الأمن، فقد طلبت معونة الجيش. ورأى الجيش انه لا يمكن السيطرة على الوضع الا بإراقة الدماء، فقرر القيام بانقلابه يوم الجمعة».

واضاف:

«أن باباندريو كان يعد ثورة، لا مهرجاناً خطابياً».

وذكر فارمايكيس أن ٥ جنرالات قد احيلوا الى التقاعد وأن ٥ آخرين رفعوا بدلاً منهم الى مناصبهم. كما تم تعيين رئيس أركان جديداً للقوات المسلحة هو الجنرال أوديسيس انجليس، بدلاً من رئيس الأركان السابق سيانديكاكيس الذي أصبح نائباً لرئيس الحكومة ووزيراً للدفاع. وقال فارمايكيس أن كانيلوبولوس كان على علم بالانقلاب، بحكم اطلاعه على جميع التقارير العسكرية كرئيس للحكومة. وأن «الجيش كله يؤيد الانقلاب، وكذلك الملك». وفارمايكيس هو أول مدني يكشف عن وجهه، من بين

السياسيين اليمينيين، الذين ما زالوا مترددين في الظهور على مسرح الأحداث. وفي الليل، بعد الساعة الأولى حين يبدأ فرض منع التجول، تسمع طلقات الرصاص بشكل متقطع. وقد استمر اطلاق الرصاص بالقرب من فندق هيلتون بشكل متواصل حوالى الساعة. ولم يعرف سبب اطلاق الرصاص، إلا أنه قيل أنه لارغام المواطنين على التقيد بأوامر منع التجول.

وعند العشية أعلن كولياس أن قسطنطين سيرأس قريباً اجتماعاً للحكومة. وقال كولياس في بيان رسمي بثته اذاعة اثينا، أن الحياة في البلاد عادت الى حالها الطبيعية وأنه سيجري تحقيق مع جميع الأشخاص الذين اعتقلوا. وأشار الى أنهم «يعاملون معاملة حسنة ويتمتعون بصحة ممتازة». كذلك أعلنت الحكومة عن انشاء محاكم عسكرية في جميع مدن البلاد للنظر في جميع الجرائم.

وقال بيانها بهذا المعنى أن الاجراء الجديد اتخذ «بمرسوم ملكي».

اثينا - (١٩٦٧/٤/٢٤)

عرين المعارضة

كانت الأعلام اليونانية مرفوعة على كل شرفة في سالونيكي اليوم، من دون أن تدري الناس اذا كانت ترفرف ترحيباً بالانقلاب، أم احتفالاً بالجمعة الحزينة وعيد الفصح الشرقي. ولكن سالونيكي كانت تقوم بمحاولة جدية لنسيان ما حدث فيها منذ أسبوع تماماً، وكأنّ الأمر لا يعنيها أبداً. ولكن الأمر كان يعني شمال اليونان، وسالونيكي بالذات، كثيراً. فهذه المنطقة هي معقل باباندريو وحزبه، والمركز التقليدي لثقل ونفوذ الشيوعيين منذ أيام الحرب الأهلية. ومنها أخذ الانقلابيون المبرر لتوقيت حركتهم، قبل أن يعقد باباندريو مهرجانه الانتخابي يوم الأحد ٢٣ نيسان عام ١٩٦٧ زاحفاً بأكثر من ٦٠ ألف مواطن من كافة انحاء اليونان الى ساحة ارسطو في سالونيكي، ليبدأ زحفه الحقيقي الذي اجهض قبل أن يصل الى موعده في ٢٨ أيار عام ١٩٦٧.

وبدلاً من مهرجات باباندريو، سير الجيش في الموعد نفسه فرقاً من القوات المسلحة تمثل الجيش والطيران والبحرية، وتتقدمها فرقة موسيقية تعزف ألحاناً عسكرية على طول الكورنيش، ولم تتوقف إلا في ساحة أرسطو. أما الناس فلم يعنها من الأمر الا استبدال مشهد بمشهد.

أما المبرر الحقيقي لهذه المسيرة العسكرية، فهو اعلان وحدة القوات المسلحة في الحركة الانقلابية. فالذي حدث ان الانقلاب قد تم في سالونيكي ببساطة نادرة، ومن دون أية صعوبة. فسالونيكي منطقة عسكرية أساساً. فيها القيادة العامة لحلف شمال الأطلسي وفيها قيادة سلاح المدرعات الذي يتزعمه قائد الانقلاب الزعيم ستيلياكوس باتاكوس وزير الداخلية في الحكومة الانقلابية. وكانت الدبابات هي أول من زحف الى سالونيكي في الظلام واحتلت المراكز الحساسة في المدينة. ومن ثم تبعتها آليات الجيش الأخرى. وسالونيكي أيضاً مركز قيادة الجيش الثالث الذي يتزعمه العقيد جورجيوس بابادوبولوس، وزير رئاسة الحكومة ورجل الانقلاب القوي. فتلقائياً، وبحكم كونها منطقة عسكرية، كان سقوط سالونيكي سهلاً.

ولكن توقع المراقبين لصمت سالونيكي وغياب ردود فعلها لم يكن سهلاً. طبعاً لا أحد يستطيع أن يقاوم دبابات أي انقلاب. وسالونيكي لا تختلف عن أي بلد عربي في هذا المجال. غير أن الذي حدث هو أن حوالي ٢٠٠ شاب من اعضاء نادي غريغوريوس لامبراكيس (وهو النائب اليساري عضو حزب باباندريو الذي قتل بحادثة دهس عام ١٩٦٣، قيل أن سلطات الأمن الحكومية دبرتها، وتولى التحقيق فيها رئيس الحكومة الحالي قسطنطين كولياس) تجمهروا أمام باب جامعة سالونيكي يوم السبت ٢٢ نيسان عام ١٩٦٧ بعد منع التجول وحاولوا التظاهر. ولكن دبابة واحدة أرسلها أمر الجيش الثالث فرقت الطلاب اليساريين من دون أي حادث. وقام الانقلابيون بحملة اعتقالات واسعة، شملت كل نواب حزب باباندريو ونواب حزب الاتحاد الديموقراطي اليساري

(الشيوعيون) الموجودين في سالونيكي، والزعماء الشيوعيين المعروفين في مناطق اليونان الشمالية. بالإضافة الى عشرات الطلاب. ويقدّر الرسميون الرقم بحوالي المئة. إلا أن مصادر من نادي لامبراكيس قد صرحت بأن رقم المعتقلين يتجاوز الأربعمئة. وأضافت هذه المصادر، بأن عدداً كبيراً من الزعماء الشيوعيين قد عبر الحدود الى بلغاريا، حيث المركز الرئيسي للحزب الشيوعي اليوناني. وفر البعض الآخر الى يوغوسلافيا.

وذكرت مصادر نادي لامبراكيس المؤيدة لباباندريو، أن اكثر الطلاب المعتقلين موجودون في الملعب الرياضي في سالونيكي. وقد تم نقل بعضهم يوم الأربعاء ٢٦ نيسان عام ١٩٦٧ حيث قام الجيش باقفال الشوارع المؤدية إلى الملعب لمدة ثلاث ساعات. إلا أن قسماً كبيراً ما زال مسجوناً هناك، ولا يعرف الى اين نقل القسم الباقي. أما باقي المعتقلين فقد وضعوا في مبنى مدرسة ابتدائية في ساحة فاراداري في سالونيكي. ولم يفرج عن أي منهم حتى الظهر. وقد قيل أنه اعتقل فجر الانقلاب عدد من نواب واعضاء حزب الاتحاد الوطني الراديكالي، إلا أنه أفرج عنهم بعد ساعات.

وعلى عكس ما حدث في أثينا، فإن الجيش لم يقطع خطوط الهاتف والمواصلات مع الضواحي في الشمال. واستمرت حركة الملاحة والمصفاة في سالونيكي كالمعتاد. إلا أن الجيش قد وضع جندياً على كل مركب راسٍ في المرفأ، حتى لا يستعمل أحد فيه الاذاعة اللاسلكية للاتصال بالخارج. ولم يحدث الانقلابيون اي تغيير في مناصب سالونيكي الحكومية. فالمحافظ ورئيس البلدية ورؤساء الدوائر ما زالوا في مناصبهم. وكلهم يمينيون أيدوا الانقلاب عند وقوعه. لذلك لم يجد ضباط الانقلاب أي ضرورة لعزلهم، كما حصل في مناطق أخرى.

إلا أن لسالونيكي وضعاً آخر، يدفع المراقبين الى التوقع بأنها لا بد أن تتحرك. ففي انتخابات عام ١٩٦٤، أي في مجلس النواب الأخير، فاز حزب اتحاد الوسط (باباندريو) في مدينة سالونيكي بـ ٤٤ بالمئة من مجموع أصوات الناخبين. وفاز حزب الاتحاد الديموقراطي اليساري ـ «أيدا» ـ (الشيوعيون) ـ بـ ٢٥ بالمئة. ونال حزب الاتحاد الوطني الراديكالي (اليمينون) ٣١ بالمئة. وفاز باباندريو في ضواحي سالونيكي ـ منطقة شمال اليونان الانتخابية ـ بـ ٤٧ بالمئة من مجموع أصوات الناخبين. بينما نال الشيوعيون ١٨ بالمئة واليمينون ٣٥ بالمئة. والفرق بين قوة باباندريو وقوة الشيوعيين في المدينة والريف، هي أن الشيوعيين مسيطرون على نقابات العمال، وعلى الأخص اتحاد نقابات عمال البناء في المدن.

غير أن تحرك سالونيكي والشمال سيكون بطيئاً. فالأحزاب المناوئة ستنتظر بعض الوقت حتى تعيد تنظيم نفسها، متهيئة لمعركة طويلة. في الوقت نفسه، يكون ضباط الانقلاب قد أسفروا عن وجوههم واتضحت معالم سياستهم، وخاصة بعد موقف الملك قسطنطين المتردد الحائر منهم، وبعد البيان الذي اذاعه مساء الاربعاء ٢٦ نيسان عام ١٩٦٧ اثر اجتماعه لأول مرة مع الحكومة والذي اتخذ تفسيرات عديدة. الى جانب الشك المسيطر على أكثر الفئات السياسية في اليونان، بأن سلاح الطيران وسلاح البحرية ما زالا

يدينان بالولاء للملك، وأنهما مستعدان لأن يضعا هذا الولاء على المحك، اذا تمادى الانقلابيون في عدم تنفيذ رغبات الملك في الوصول الى حل وسط يؤدي الى حكم البلاد، حكماً معتدلاً، لا تطغى فيه ديكتاتورية «الضباط الثلاثة» المسيطرين، ولا آراؤهم الفاشيستية. وعلى رأس المؤيدين للملك الأميرال افايا ريس، قائد أركان سلاح البحرية، الذي فشل الانقلابيون في عزله، لاصرار الملك على بقائه.

وتميل مصادر صحافية وديبلوماسية في سالونيكي الى الاعتقاد، بأن كثيراً من السلاح الشيوعي ما زال مخبأً في الجبال شمال اليونان منذ أيام الحرب الأهلية. وأن هذا السلاح، على قدمه، ما زال صالحاً للاستعمال في حال المقاومة السرية، حيث لا يحتاج ان يلتقي السلاح بالسلاح وجهاً لوجه. الى جانب خبرة اليونانيين القديمة بفن القاء القنابل والديناميت. إلا أن هذه المصادر تتحفظ كثيراً حيال تحرك او انضمام أيّ فئات غير حزبية أو غير منظمة تنظيماً جيداً الى حركة المقاومة، نظراً لأن كثيرين من اليونانيين ميالون الى الاستسلام لظروفهم السياسية وحياتهم العادية، بعد أن ملوا سنوات طويلة من الاستغلال السياسي من كافة الاتجاهات السياسية، من محلية وأجنبية.

سالونيكي - (٢٨/٤/١٩٦٧)

قبرص

■ قداس الجمعة الحزينة

كـان الانقلاب العسكـري في اليونـان يبحث عن اقدامـه الضـائعـة في الهـواء، وسط بحثه عن الشرعيـة الدستـورية المفقـودة. وتـركت أثينـا والغموض سيد، والصمت الجواب الوحيد عن عشرات الأسئلة التي تطرح، حتى أصبح من الصعب اختـراق الجدار السميـك والقبض على الكلمـات التي لا تخرج من أفـواه الناس الا بصعوبة، وكأن اليونانيين لم يخترعوا يوماً فن الحوار.

وجئت قبرص. كانت نيقوسيا تستعد للاحتفال بالجمعة الحزينة وعيد الفصـح الشرقي. مظاهر الحياة فيها لم يغيرها مـا حدث في أثينـا. «البازوكيـا» تعزف في المقـاهي. الناس تملأ المطاعم والملاهي. السياح يفدون اليها، والأنوار تضيء كل مكان. أما القبارصة فلم يجدوا ما يواجهون بـه الانقلاب اليـوناني الا الصمت والابتسـام. أما اذا تكلمـوا فهم يتساءلون حول الذي حدث وكأن هذا الأمر آخـر ما يهمهم. أو أن المسرحيـة الاغريقيـة التي تمثـل في الطرف الآخـر من البحر، كـانت نفسها المسرحيـة القديمـة التي ارتفـع ستارها عام ١٩٣٦ ببطولة الجنرال متكساس، وزيدت عليها فصول جديدة عبـر السنين حتى انتهت في اثينا ببطولة العقيد بابادوبولوس او الجنرال سبـانديـاكيس. لكنها ظلت التي اعتاد الاغريق مشاهدتها والمشاركة فيها، طيلة القرون.

وكان الاغريق في قبرص في مقاعد المتفرجين. فمنذ البدء عرف اليـونانيـون حين عملـوا بالحجارة والرخام، الهندسة. وحين عملوا بأجسادهم عرفوا الجمال وآلهته. وحين عملوا بالآداب، عرفوا الأساطير. وحين عملوا بالفلسفة، عرفوا السياسـة. وبالسيـاسة، عـاش ويعيش اليونانيون.

من قبرص كان المنظر مختلفاً. المسرح ذاته. الستار لم يسدل. أبطال المسرحيـة بدأوا في غياهب التاريخ القديم، وفي أساطير حروب الالياذة والأوديسة.

بالأمس كانت أثينا واسبارطة. اليوم أثينا وسالونيكي وكارينيا. اسبارطة ماتت. انما اثينا لا. وتصبح قراءة التاريخ اليوناني حاجة ملحة للقفز الى الأحداث الحاضرة. أسماء بركليس وبروميثيوس وأوديب وثوميستوكليس وارسطو وزينوفون، هي أسماء الناس في اليونان وقبرص. غبار الأجيال المتراكم أصبح شفافاً من فرط العبث به. مار الياس اصبح ملك القمح، ولم يعد يورانوس.

«تبدلت الأسماء»، كما قال لي سائق التاكسي الذي نقلني من المطار الى الفندق في نيقوسيا، «إنما بقيت الأمكنة والعناوين». ربما.

هكذا قبرص صباح الجمعة الحزينة، وعبر أيام الفصح الثلاثة، وأنا أبحث بالكلمة والصورة عن أوائل خيوط الضوء في واحة الصمت المخيفة. وعرفت أن زينيوس زوس، ذلك الاله القوي القديم، ما زال شفيع الغرباء عند الاغريق. وحملته شفاعتي.

□

على ضوء الشموع، عند منتصف الليل من يوم السبت، ترأس المطران مكاريوس رئيس جمهورية قبرص قداس الفصح ـ أو «الهجمة» في لغة العارفين ـ في كنيسة القديس يوحنا القديمة المجاورة لقصر الرئاسة، والتي هي كنيسته منذ كان راعياً لابرشية، لا زعيماً سياسياً لجزيرة. كانت الناس بالآلاف وهي ممسكة بشموعها تصلي. وللمرة الأولى رأيت ذلك الرجل بالثوب الكهنوتي، وقد أمسك بكلتا يديه صولجان الدين وصولجان السياسة. كان أنيقاً، وسيما الى درجة كبيرة. وكان واعياً مسيطراً على كل دقيقة من دقائق القداس الطويل. وتجمعت القوتان في يد واحدة، وكان الحضور من المؤمنين بالله وبه والمؤمنين بالدين وبالجزيرة. فمَن يملك زمام الكنيسة وزمام السياسة، يملك كل شيء.

وقبل القداس، ومكاريوس يستبدل ثوبه الأسود بثوبه الذهبي، سألت واحداً من كبار مساعديه: ما رأي مكاريوس في ما حدث في أثينا؟

أجاب: «انها قضية داخلية نحن نتفادى الخوض فيها.»

لكن هل يغير هذا من موقفكم من مبدأ أينوسيس ـ الوحدة مع اليونان ـ سألته.

ضحك وقال: «الحكومات العابرة لا تغير من المبادىء الأساسية».

انما الجنرال غريفاس أيّد حكومة اليونان العسكرية الجديدة ـ عدت أساله.

ابتسم من جديد وقال: «إن العسكريين يحب بعضهم بعضاً».

□

قال لي الدكتور فاضل كوتشوك، نائب رئيس جمهورية قبرص رسمياً، وزعيم الاقلية التركية المحاصَرة: «لا تسألني عن اليونان، فنحن القبارصة الأتراك لا يهمنا ماذا

يحدث هناك، ما دامت فكرة «اينوسيس» قائمة. نحن ضد الوحدة مع اليونان، وسنستمر نقاومها الى النهاية».

وما هي النهاية؟

أجاب: «اقامة نظام فدرالي في الجزيرة، لأن الحقد والكره بين الجاليتين قد تعدى الحدود كافة. علينا أن ننهي عذاب شعبنا».

لكن تركيا أبدت ترحيباً مبطناً عدت أسأله.

«صحيح»، أجابني، «لأننا نريد أن نتعامل مع حكومة قوية، كلمتها كلمة .

ومكاريوس، الا تتحدث معه؟ قلت له.

قال: «لم أر مكاريوس ولم أتحدث معه أو اجتمع به منذ ١٩٦٣. وعلاقتنا مع اليونانيين تتم رسمياً عن طريق الامم المتحدة».

وقلت لكوتشوك، الطبيب الذي درس في لوزان وباريس وانقطع عن ممارسة الطب يوم دخلت قبرص دوامة الصراع اليوناني - التركي: وكيف تعيش دولة فدرالية في جزيرة صغيرة كهذه؟

أجاب: «هناك مناطق تحت سيطرتنا تستقل، مبقية الخدمات العامة في يد حكومة مركزية، وتتلقى مساعدات من تركيا. الا تتلقى اليونان مساعدات من أميركا، ومصر من روسيا، لم لا؟».

وعلى مدخل بيت كوتشوك، كان هناك علم تركي أحمر عتيق يرفرف، وحوله معالم المدنية التركية، كأنها شيء منسي من أيام العثمانيين.

نيقوسيا - (١٩٩١/٥/٦)

الجلوس على الحراب

بمقدار ما كانت قبرص طوال ثلاثة آلاف سنة ضحية لموقعها الجغرافي، كانت جزيرة عشتروت ضحية لرجالها. رجال كثيرون مروا عليها، عبروها، سكنوا فيها، استوطنوها واحتلوها. ورجال كثيرون لعبوا بمصيرها، لكن قليلين ظلوا في خانة الذكريات لديها. وقد اثبتت هذه الجزيرة اليونانية، التي لا تبعد أكثر من خمسين ميلاً عن اقرب أرض تركية الا أنها تبعد ٦٠٠ ميل عن أثينا، ان للاغريق قدراً خاصاً بها وبهم، وقد تكون قبرص دولة ولكنها ليست أمة ولا وطناً. كذلك رجالها. قد يكونون حكاماً أو ابطالاً لكنهم ليسوا منها.

وهكذا اعادت جنيف الى مسرح الأحداث الهيلّينية رجال التاريخ اليوناني الذين كانوا يوم ولدت قبرص كدولة مستقلة قبل ١٥ سنة. وعندما كانت جنيف تنتظر طوال الأسبوع الماضي وصول المفاوضين اليونانيين، لم تكن تدري أنها ستكون في استقبال الذين جاءوا الى زوريخ من قبل. كان قسطنطين كارامنليس رئيساً لوزراء اليونان عام ١٩٥٩، عندما وقعت معاهدة زوريخ واتفاق لندن اللذان وضعا قبرص على خريطة شرق المتوسط. المفاوض اليوناني الأول في جنيف ووزير الخارجية جورج مافروس كان وزيراً للدفاع في حكومة كارامنليس في تلك الأيام. وزير الدفاع اليوناني في الحكومة الحالية ايفانجلوس افيروف كان وزيراً للخارجية وكبير المفاوضين. الأشخاص أنفسهم يواجهون اللعبة ذاتها. تغير الزمان ولم يتغير المكان الا قليلاً. تغيرت الظروف ولم تتغير المعطيات. ودار التاريخ بقبرص دورته خلال ١٥ سنة ليجد أن ليس هناك مَنْ يعيد الى الجزيرة الصغيرة استقلالها واستقرارها افضل من الذين كانوا في البدء عند ولادتها.

رجل واحد كان يبدو كأنه أصبح بعيداً عن أحداث قبرص. لم يكن ينقص جنيف الا وجوده. وتكتمل النبؤة ويعيد التاريخ نفسه. وبالصدفة عرفت انه هناك. وظننت للوهلة الأولى انه جاءها بصفة ما مع الوفد البريطاني. كان قد تقاعد وترك الوظيفة والحكم، مع ان حزبه هو الحزب الحاكم. انه السير هيو فوت أو اللورد كارادون اليوم، آخر حاكم بريطاني لقبرص والرجل الذي وقع معاهدة زوريخ واتفاق لندن عام ١٩٥٩، وقاد المحادثات الدستورية بين الجاليتين اليونانية والتركية الى ان استقلت قبرص. وغادرها بعد ذلك مودعاً وقد عاش احداثها الدامية طوال ثلاث سنوات كحاكم مطلق لها.

سعيت اليه، حتى وجدته. لقد جاء الى جنيف قبل شهر، وقبل أن تنفجر الازمة القبرصية كلها، ليحاضر في معهد الدراسات العليا التابع للأمم المتحدة. بدا لي شاباً نضراً بالنسبة الى الأعوام السبعة والستين التي يحملها. قال لي اللورد كارادون: لنتحدث في الصباح، لنفطر معاً في كافتيريا الأمم المتحدة. ليكن موعدنا الثامنة صباحاً.

وهكذا كان. وجلست مع ذكريات السير هيو فوت القبرصية ساعة كاملة.

□

لم يكن بالطبع اغريقيا، انما كان من فصيلة نادرة من الرجال الانكليز الذين استمروا امناء لتقاليد الشاعر اللورد بايرون القائل ان الحضارة الهيلّينية هي أرقى حضارات العالم وأساس الحضارة الأوروبية. بدأ حياته السياسية العامة في العشرينات موظفاً في وزارة المستعمرات، وعمل في عمان والقدس ونابلس من ١٩٢٩ الى ١٩٤٣، شغل خلالها منصب الحاكم الاداري لنابلس. وانتقل بعد ذلك الى قبرص كوزير للمستعمرة من ١٩٤٣ الى ١٩٤٥. ومنها الى نيجيريا كوزير أول من ١٩٥١ الى ١٩٥٧. ومن ١٩٥٧ أصبح حاكماً لجامايكا. وظل في جزيرة الشمس، ثم عاد الى قبرص كحاكم لها عام ١٩٥٧ وبقي فيها الى أن استقلت عام ١٩٦٠ فعين رئيساً للبعثة الديبلوماسية لبريطانية في الأمم المتحدة عام ١٩٦١. وعام ١٩٦٢ استقال احتجاجاً على سياسة حكومة ماكميلان في المستعمرات البريطانية ولخلافه مع وزير الخارجية البريطانية وقتئذ سلوين لويد. وفي العام ١٩٦٤، عندما فاز حزب العمال في الانتخابات، عينه هارولد ولسون مندوباً دائماً لبلاده في الأمم المتحدة برتبة وزير في الحكومة. وكانت المرة الأولى التي يكون للمندوب الدائم في الأمم المتحدة مقعد في الحكومة، وبقي في منصبه حتى هزيمة حزب العمال في انتخابات عام ١٩٧٠. وخلال هذه الفترة صاغ القرار ٢٤٢.

تاريخ حافل للرجل الذي ينتمي الى عائلة مؤلفة من أربعة أشقاء، كلهم برزوا في الحياة السياسية والأدبية في بريطانيا. شقيقه مايكل فوت وزير العمل الحالي في حكومة ولسون ورئيس تحرير مجلة «تربيون» العمالية اليسارية الاسبوعية وزعيم الجناح اليساري في الحزب. شقيقه الثاني السير دينغل فوت وزير العدل في حكومة ولسون السابقة وأحد ألمع المحامين في بريطانيا. شقيقه الثالث السير جون فوت أحد النواب الأحرار في برلمان ١٩٦٤، وأول من ساهم في عودة حزب الأحرار الى الحياة السياسية في بريطانيا. مؤلفات الأخوة مجتمعين من سياسية وأدبية، أكثر من أن تحصى، ولعل أهمها سيرة انورين بيفان الزعيم العمالي الشهير في الخمسينات التي كتبها مايكل.

وسط كل هذه الخلفيات، والازمة القبرصية تشتد ساعة فساعة ومؤتمر جنيف يتعثر وتغييرات شرق المتوسط تتفاعل، بدأ حديثنا.

□

هل هناك أوجُه شبه بين قضية الشرق الأوسط وقضية قبرص؟

ـ من زمان بعيد، عندما كنت شاباً خلال الحرب العالمية الثانية، سافرت من عمان الى نيقوسيا. وما زلت أذكر، وكانت زيارتي الأولى لقبرص، انني احسست وأدركت أنني انتقلت من عالم الى آخر، عالمان مختلفان، كذلك القضيتان. المشكلة التركية ـ اليونانية مختلفة كلياً ومنفصلة عن المشكلة العربية ـ الاسرائيلية، لكنهما تلتقيان من حيث أن اي انفجار في احداهما قد يؤدي الى انفجار في الأخرى، وبالتالي الى حرب في الشرق الأوسط.

ولكن لماذا الاهتمام الدولي المشترك بين القضيتين؟

ـ كنت اتساءل وانت تطرح عليَّ هذا السؤال ماذا يمكن أن يحدث في الشرق الأوسط لو أن الحرب اندلعت بين تركيا واليونان. الجواب البسيط عن تساؤلي هو أن من الممكن أن تمتد هذه الحرب الى بلادكم، وقد أعطيت كل الظروف الدولية المؤاتية. الجواب الآخر أن الاهتمام الدولي بالقضية القبرصية وقضية الشرق الأوسط نابع من مصلحة الأطراف الدولية المشتركة في عدم امتداد الحريق من مكان الى آخر. لذلك فإن الدول ذات المصالح في المنطقة معنية جداً بأن يتم التقدم نحو حل سلمي للقضيتين من دون اللجوء الى القوة أو الحرب. فالخلافات تنتقل من جار الى جار وتؤثر عليه، كذلك عدوى السلام.

ماذا بعد الآن، وقد زال خطر الحرب كما يبدو؟

ـ لقد شعر العالم ـ ومنه الدول الكبرى ـ بارتياح عظيم لأنه تم تفادي الحرب بين تركيا واليونان، ولعل الأيام الخمسة الأخيرة التي مرت كانت مريحة للجميع. اما الآن فستعطي الأطراف المعنية كلها تأييدها لاستقلال قبرص بالتعاون مع تركيا واليونان، وستراقب التطورات في المنطقة، مبدية ارتياحها الى التغييرات التي حدثت في نيقوسيا وأثينا. من هنا ان الجهود كلها يجب أن تركز اليوم على منع حدوث انفجار في قبرص هذا الانفجار الذي لا بد أن يحدث أضراراً في العالم العربي لو وقع.

لقد كنت أحد المشاركين في مفاوضات زوريخ ولندن عامي ١٩٥٩ و١٩٦٠، كما كنت أحد صانعي اتفاق زوريخ واستقلال قبرص. هل تعتقد أن فرص السلام اليوم أفضل مما كانت قبل ١٥ سنة؟

ـ كل الذي استطيع قوله في هذه اللحظة ـ والمفاوضات ما زالت في أولها ـ أن فرص التقدم في جنيف نحو سلام حقيقي في قبرص هي أفضل مما كانت في زوريخ قبل ١٥ سنة. كذلك في الشرق الأوسط حيث فرص السلام ـ اذا عدنا الى المقارنة بين القضيتين ـ أوفر مما كانت من عشر سنين ونيف.

كيف ذلك؟

ـ الأسباب الأساسية لازدياد فرص السلام بالنسبة الى قضية قبرص أن الأزمة القبرصية تولّد مواجهة حادة ومباشرة بين الدول الكبرى كما كان من الممكن أن يحدث في أزمات سابقة. فالاتحاد السوفياتي لم يلجأ الى أساليب الحرب الباردة القديمة، ولم يصعِّد المشكلة. كذلك الولايات المتحدة. فالقوتان الجبارتان كانتا تلتقيان في ضرورة الحفاظ على استقلال قبرص. ولم تعد وسائل الحرب الباردة التقليدية قيد الاستعمال لدى الجبارين.

ومؤتمر جنيف الذي اجتاز مرحلته الأولى، ما هو حظه من النجاح؟

ـ إن أمام مؤتمر جنيف طريقاً طويلة ليصل الى تحقيق السلام في قبرص. وحظه من النجاح يبدو حسناً حتى الآن، وإن تكن الصعوبات التي تعترضه كثيرة، وأهمها

الحؤول دون قيام الأمم المتحدة بدور حقيقي من أجل السلام في الجزيرة. وهذا خطأ في نظري. فدور الأمم المتحدة في قبرص أساسي في الحفاظ على السلام، ويجب الاعتماد عليه.

خطأ مَنْ هذا في رأيك؟

ـ لقد تصرفت بلادي ـ بريطانيا ـ وحكومتي تصرفاً حكيماً وجيداً في الأزمة القبرصية، ولكنها اخطأت هي والولايات المتحدة عندما فشلتا في العمل بسرعة داخل مجلس الأمن لوقف الحرب الأهلية قبل الغزو التركي لقبرص. لقد تغيرت معطيات كثيرة في الجزيرة بعد الانزال التركي.

اليس من نقاط الضعف للأمم المتحدة كمنظمة، انها فشلت في اتخاذ قرار بوقف اطلاق النار قبل بدء الغزو، وهي التي كانت تعرف احتماله؟

ـ لا أبداً، انني ما زلت أصر على القول أن لدى مجلس الأمن القدرة والصلاحية والتنظيم للقيام بدور فعال وأساسي في الخلافات الدولية متى أرادت الدول الكبرى استعماله. كان من الممكن لمجلس الأمن مثلاً أن يقوم بعمل ما لمنع اندلاع حرب حزيران ١٩٦٧، وكان قد دعي الى مناقشة المشكلة قبل ثلاثة أسابيع من بدء الاشتباكات. لكن الدول الكبرى رفضت أن تحركه وأن تستغل الوقت الذي كان لديها لدفع مجلس الأمن الى القيام بعمل مفيد من أجل السلام.

ما هو الدور الأميركي في القضية القبرصية؟ وما معنى حضور وليم بافم الى جنيف؟ وهل يتعارض الدور الأميركي مع ادوار الدول الثلاث الأخرى؟

ـ لا تناقض بين الدور الأميركي وأدوار الدول الثلاث الضامنة لاستقلال قبرص. صحيح أن اميركا لم تكن ممثلة في مؤتمر زوريخ عام ١٩٥٩ عندما وقع اتفاق استقلال الجزيرة، لكن الظروف اليوم تغيرت. فليس هناك اختلاف اليوم بين الأهداف الاميركية والأهداف البريطانية. ذلك أن موقف البلدين كان واحداً من الانقلاب القبرصي ومن التغييرات التي حدثت في بحر ايجه بعد ذلك. ولا شك في أن الولايات المتحدة تستطيع بما لديها من نفوذ في أنقرة وأثينا أن تساهم في ردم الهوة التي تفصل بين البلدين وتقرب من وجهات النظر كلما اشتد الخلاف.

والمطران مكاريوس، ما هو حظه بالنسبة الى العودة الى رئاسة قبرص؟

ـ إن الذين يجب أن يقرروا عودة مكاريوس هم القبارصة ولا أحد غيرهم. ولعل انتخابات جديدة في ظل دستور جديد هي التي ستحسم عودة مكاريوس الى جزيرته. علينا أن ننتظر قليلاً.

هل تعتقد بعد كل الذي حدث في قبرص أن فكرة «اينوسيس» قد ماتت مع فكرة التقسيم؟

ـ لا فكـرة الوحـدة مع اليـونان ـ اينـوسيس ـ ماتت ولا تقسيـم الجـزيرة بـين الأتراك واليونانيين استبعد. كل ما في الأمر أن الأطراف المعنيـة حاليـاً بالأزمـة ادركت أن كلتا الفكـرتين لا يمكن تحقيقهمـا، وأن مصالحهـا تقضي بضرورة دعم استقـلال الجـزيـرة وايجاد نظام للتعايش يكون لفائدة الجاليتين المتصارعتين في قبرص.

والفكرة الفيدرالية التي تطرحها تركيا، ما نصيبها من النجاح؟

ـ الفيـديراليـة قد تعني أي شيء. فـالدستـور الذي أقـره اتفاق زوريـخ للعـام ١٩٥٩، كان دستوراً فيدرالياً الى حد ما، فقد كانت بين مواده أفكار فيديرالية كثيرة تكفل تمثيل الجاليتين وحقوقهما. إلا أن هذا الدستور لم يطبق. الموضوع الأساسي اليوم هو ايجـاد دستـور عملي وسهـل التطبيق أكثر من الـدستور المـاضي. وبالتـالي ايجاد نظـام جديـد لقبرص تستطيع أن تعيش مستقلة في ظله.

بعد كل هذه السنوات من الخدمة في مختلف المـراكز والمنـاصب والبلدان، في أي منهـا شعرت بأن مساهمتك كانت اكبر وسعادتك كانت أكثر؟

ـ ان همـي كـان دائماً المسـاهمة في خـدمة السـلام في كل بلـد خدمت وفي كـل منصب شغلت. لقد كنت سعيداً كحاكم لقبرص كما كنت سعيداً كمندوب دائم في الأمم المتحدة كما كنت أسعد كموظف شاب صغير قبل ذلـك بسنوات في نـابلس والقدس وعمـان. إن الحياة لا تتوقف ودوري لم ينته بعد، وخدماتي للسلام ما زالت مستمرة. وذكريـاتي في قبرص والعالم العربي ما زالت من أعز الذكريات، ولا أستطيع ان أقول أياً من المكانين كان أقرب الى قلبي.

□

وانتهت فناجين القهوة التي أمامنا، ووقف اللوردكـارادون مودعـاً، وسرنا معـاً الى الباب. وقلت له وهو يمد يده مصافحاً:

والحرب ماذا نفعل بها وهي تهددنا كل يوم؟

ابتسم الديبلوماسي البريطاني العتيق وقال: لقد ذكرتني بقـول نابليـون: «من الممكن أن نفعل أي شيء بالحراب الا أن نجلس عليها». ومشى.

(جنيف ـ ١٩٧٤/٧/٢٩)

الضجر من الاشتراكية والجنس

في كوبنهاغن نوعان من التاريخ يتراكمان امامك خلال ٢٤ ساعة. وبين هذين التاريخين زهاء الف سنة. الألف الأولى هي امتداد لعراقة وتقاليد وتراث تعود الى ما قبل دخول المسيحية الى الدانمرك عام ٨٦٢، ولا تنتهي - إذا وضعنا حدوداً لهذه الألف سنة - بانقسام الحزب الشيوعي الدانمركي عام ١٩٥٨، مثلاً. هذه الألف هي القاعدة والأساس والبنية التي تقوم عليها الألف الأخرى.

الألف سنة الثانية من تراكم التاريخ في الدانمرك، هي الف سنة المستقبل التي تتزاحم في مخيلتك خلال ساعات، والتي هي تقدم وتحرر وانطلاق وفردية وممارسة للحياة من دون قيود ومن دون حدود. هي تفاعل الحرية ونضجها عبر هذه القرون كلها لتكون قاعدة للمستقبل والتي قد تبدأ - تبسيطاً للأمور - بالجلاء النازي عن الدانمرك بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ والتطورات السياسية والدستورية التي حدثت منذ ذلك التاريخ، وتنتهي - اذا كان من الممكن ان تنتهي - بقانون رفع الرقابة بمختلف انواعها ودرجاتها عن المسرح والسينما والفنون عام ١٩٥٣، حتى السماح بنشر الكتب والصور المعروفة - في لغتنا الدارجة - بـ «الاباحية» في حزيران عام ١٩٦٧.

أما ما اصطلح الناس على تسميته «الاباحية» عندنا، فليس هو غير تعبير نسبي عند الدانمركيين. فالجنس لم يعد «تابو». لم يعد شيئاً محرماً مرعباً قذراً لا اخلاقياً في هذه البلاد الصغيرة، ولم يكن أصلاً. والجنس، بمتفرعاته من كتب وصور لأوضاع جنسية مختلفة تعرض وتباع علناً للكل - كبيراً وصغيراً - ما هو سوى أمر مفروغ منه. فالذي يثيرنا ويصفع «مفاهيمنا الأخلاقية» الضيقة ويعبث «بعقدنا الشرقية»، هو شيء طبيعي في الدانمرك، يمارس بمنتهى الحرية وعلناً ومن دون خجل او احراج أو ارتباك. الجنس، كالطعام والشراب والتدخين والقراءة، يتعاطى - بمختلف أوضاعه وانحرافاته وشذوذه - أمام الملأ ويعرض أفلاماً ويصور في المجلات ويكتب عنه باسهاب في الصحف

وعلى حقيقته، ما دام الطرف الآخر ـ ذكراً أم أنثى ـ راغباً في ذلك. أما الأشياء الاصطناعية والطبية «الميسرة» للأمور الجنسية «والمزيدة» من الشهوة والرغبة، فهي متوافرة في كل الصيدليات والمخازن المخصصة لهذه الأشياء. حتى أن كثيراً منها تجده في المكتبات العادية، والتي تبيع مختلف أنواع الكتب من الرياضيات والاقتصاد الى القصة والشعر والجنس.

ومن هنا انطلقت النظرية القائلة بأنك اذا أردت أن تتخلص من طوفان الكتب والصور والأفلام الجنسية «الإباحية» «واللااخلاقية»، وتمنع سوقها السوداء، عليك بالسماح لها كما فعلت الدانمرك، فيهبط توزيعها وانتشارها واهتمام الناس بها كما حدث أيضاً بالفعل في الدانمرك.

والذي اتضح، حسب الاحصاءات الرسمية، وحسب الملاحظة العامة للأمور، أن مبيعات هذه الصور والكتب قد هبطت هبوطاً كبيراً في الدانمرك بعد رفع الرقابة عنها قبل سنتين، مما اقلق حسابات الناشرين الذين اعتبروا رفع الرقابة عملية رابحة، واذا بهم أمام أكداس من المنشورات غير المبيعة والخسائر المادية. أما سوق هذه الكتب والصور فصارت تعتمد اليوم على السياح الأجانب الذين يفدون الى الدانمرك، وعلى تجارة البريد الخارجية. فالدانمركيون انفسهم قد ملوا التطلع الى شيء يمارسونه باستمرار وبحرية، لتبقى فضيلة الفضول محصورة بالأجانب المحرومين.

لكن ما الذي دفع الدانمرك ـ أو هيأها ـ دون كل دول أوروبا الى رفع الرقابة كاملة؟ لعل الجواب يكمن في عدم وجود ضغط من الكنيسة على الدولة. فالكنيسة اللوثرية التي ينتمي اليها زهاء ٩٠ بالمئة من المواطنين، تؤمن بأن دورها يجب أن ينحصر في الدعوة الى الايمان. والكنيسة اللوثرية تختلف عن غيرها من الكنائس في كونها مؤسسة ديموقراطية بحكم تاريخها وطبيعة تنظيمها. فالأسقف ـ حتى لو كان مطراناً ـ ليس اهم من أي رجل كنيسة آخر. وهذا مما يمنع الكنيسة أن يكون صوتها أقوى الأصوات.

الا أن التطورات التي أدت الى الغاء الرقابة كانت تطورات تدريجية، دخل فيها المنطق النظري مع التغيرات الاجتماعية التي تطرأ وتتجدد باستمرار. لكنها ترتكز كلها في النهاية، وفي الحقيقة، على نظرة الدانمركيين المفتوحة والسليمة للجنس. ففي الريف الدانمركي ـ منذ أبعد الأزمان ـ العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة ليست محصورة بالزواج، هذه العادة التي لم تستطع لا الكثلكة ولا الاصلاح ولا اللوثرية من بعدهما أن تغير منها شيئاً. فاسس «المجتمع المفتوح» تعود الى أقدم الأزمان.

لكن «المجتمع المفتوح» لم يصل الى قرار بالغاء جميع أنواع الرقابة الا بعد ثلاثة عوامل أدت الى اتخاذ هذا القرار. العامل الأول: كان نتيجة الاستجابة من الأوساط الأدبية والفكرية والثقافية الداعية باستمرار الى انفتاح الأدب والثقافة والفكر بلا قيود، وأن حرية الكاتب والمفكر والأديب هي حق مقدس لا يقبل الوصاية أياً كان نوعها.

العامل الثاني: كان التقرير الذي أصدرته اللجنة الطبية ـ القانونية التابعة للمجلس الطبي والطب النفساني، والذي أكدت فيه أن قراءة الكتب الجنسية أو التطلع الى الصور العارية أو التفرج على الأفلام «الاباحية» ـ اختلفت الأسماء والمضمون واحد ـ ليست مضرة بالصحة ولا بالنفس حتى للاطفال والأولاد والمراهقين. والذي يضر بالصحة والنفس في رأي اللجنة، هي افلام العنف والجريمة لا افلام الجنس، وقد دعت الى التقليل منها.

العامل الثالث: هو الرأي القائل بأن ليس من حق الدولة أن تكون حكماً في تقرير ما يناسب المواطن الراشد من مطالعة أو تفرج وما لا يناسبه. فالدولة ليست «أفهم» من المواطن ولا أعلم منه، كما أنه ليس من حقها أن تتدخل في ذوق المواطن الخاص، هذا التدخل الذي يحد من حريته وبالتالي يشكل اعتداء أساسياً على مواطنيته.

يبقى ما بعد العامل الثالث، وهو الرأي السابق القائل بأن إباحة هذه الأشياء ستخفف من الاقبال عليها. وكان هذا رأي وزير العدل الدانمركي عند اصداره القانون. وقد أثبتت الأرقام صدق نظريته. وتحول الناشرون ـ بأكوام المرتجعات المتكدسة عندهم ـ الى تصدير مطبوعاتهم الى الخارج بواسطة البريد المضمون. وقد بلغ دخل الدانمرك من بيع هذه المنشورات، بتقدير معتدل، ٥٠ مليون كرون في السنة الواحدة (زهاء ٩ ملايين دولار). لكن هذا الرأي ـ القابل ربما للتطبيق في الدانمرك وحدها ـ كان قد سبقه عند رفع الرقابة إقبال مخيف من الدانمركيين والسياح الموجودين عندهم على شراء هذه المطبوعات. وعندما اشبعت روح الفضول بعد فترة من الزمن، هبطت المبيعات وخف الطوفان.

هذه النظرية قد تبدو صحيحة للوهلة الأولى. إلا أنه يجب التأكيد أنها تبدو صالحة للتطبيق فقط في بلد يمارس الجنس بحرية، لا في بلد محروم منه. وفي بلد يتمتع بثقافة وانفتاح جنسيّين، لا في بلد غارق في ظلام التقاليد والجهل. لذلك فالذي يصلح في الدانمرك قد لا يصلح الا في الدانمرك. كما أن السماح بهذا النوع من المنشورات ـ وخاصة المصورة منها ـ قد أدى الى انتشار محدود لها، لأن تطبيقها متوافر، ولأن الشاري لها عنده امكانات ممارستها متى شاء.

إلا أن هناك عاملاً آخر بالنسبة الى الصور «الاباحية» بالذات. وهو أن الناشرين الدانمركيين، وقد واجهوا هبوطاً في مبيعاتهم، يعتقدون عن حق بأن هذه الصور ـ وهي لغة عالمية بحد ذاتها ولا تحتاج الى ترجمة ـ يجب تصديرها الى الخارج، لأن السوق الدانمركية في الأصل، محدودة. فسكان الدانمرك لا يتجاوزون خمسة ملايين نسمة. لذلك فالأرباح الحقيقية تأتي من الخارج. وعلى هذا الأساس انسحبت الدانمرك من اتفاق جنيف الدولي الداعي الحكومات الى منع المنشورات الاباحية ووقف الاتجار بها. فخمسون مليون كرون في السنة عملية اقتصادية تستحق الانسحاب. لذلك ليس هناك مانع من الجانب الدانمركي في تصدير هذه المنشورات.

طبعاً كل هذا قد يدفع المراقب الى الاعتقاد بأن الدانمرك بلد لا هم عنده الا هذه الأمور. العكس هو الصحيح تماماً. هذا الشيء - الجنس - هو هم الآخرين وحدهم. فالدانمرك - أرض هاملت ومملكته الشيكسبيرية الصغيرة - بالكاد تتسع للنساء اللواتي يعشن فيها. ففي آخر احصاء اجري عام ١٩٦٥ اتضح أن هناك فائضاً من النساء، وأن هناك زهاء ٥ بالمئة من البنات يولدن كل سنة زيادة عن الصبيان. وبلغ عدد فائض النساء عام ١٩٦٥ ٤٥ ألف امرأة من اصل ٥ ملايين نسمة، هو عدد السكان. واذا كان هذا الرقم هو أقل من واحد بالمئة - في لغة الاحصاء - من مجموع عدد الدانمركيين، إلا أنه يبدو بوضوح في شوارع كوبنهاغن.

واستمراراً للغة الأرقام، فإنّ ثلثي عدد الدانمركيين الذين يتجاوزون الخامسة عشرة هم متزوجون، و٢٥ بالمئة من حالات الزواج عرضة للطلاق سنوياً، منها ٤٠ بالمئة لعدم انجاب الأولاد و٦٠ بالمئة لتهمة الخيانة الزوجية. و٣٠ بالمئة من المتزوجين الدانمركيين لا ينجبون أكثر من ولد واحد. أما معدل مدة الزواج واستمراره فهو ٥ سنوات.

والدانمرك أقدم مملكة في أوروبا، بدأها الملك العجوز غورم عام ٩٠٠، واستمرت سلالته تحكمها حتى اليوم. وسنة ١٨٤٩ تحولت الى ملكية دستورية، وفصل بين السلطات الثلاث، ونالت أول دستور حر لها. ومنذ تلك الأيام ونموها الدستوري والديموقراطي يتطور. فهناك ستة أحزاب في الدانمرك ممثلة في مجلس النواب (فولكتينغ). وهذه الأحزاب منقسمة قسمين: ما يسمى بالأحزاب «القديمة»، وهي التي أسست قبل عام ١٩١٩، والأحزاب «الجديدة» التي أسست بعد هذا التاريخ. من الأحزاب «القديمة»: الحزب الاجتماعي الدانمركي الذي كان له ممثلون في مجلس النواب المحافظ وحزب الأحرار الراديكاليين. ومن الأحزاب «الجديدة»: حزب الشعب الاشتراكي وحزب وسط الأحرار. والى جانب هذه الأحزاب «العريقة»، هناك حزب المستقلين الأحرار وحزب الضريبة الواحدة والحزب الشيوعي الدانمركي الذي كان له ممثلون في مجلس النواب بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٦٠. إلا أن انقسامه عام ١٩٥٨ حزبين، الحزب الشيوعي وحزب الشعب الاشتراكي، قد حرمه الوصول الى المجلس منذ ذلك التاريخ.

والحزب الشيوعي حزب موال لموسكو، أسس عام ١٩١٩. وانقسامه عام ١٩٥٨ لا يعود الى الأسباب التقليدية للانقسامات في الأحزاب الشيوعية، أي جناح موال للصين وآخر للاتحاد السوفياتي، أو واحد لستالين وآخر لتروتسكي. وإنما الانقسام الذي حصل في الحزب الشيوعي الدانمركي كان ناتجاً عن الخلاف على الديموقراطية: جناح يدعو الى تطبيق الاشتراكية في الدانمرك بواسطة الأساليب وعبر المؤسسات الديموقراطية، وهو الذي أصبح فيما بعد حزب الشعب الاشتراكي، وآخر ما زال يؤمن بالأسلوب الديكتاتوري الشيوعي التقليدي. وقد أصبح الحزب الشيوعي اقلية صغيرة في الدانمرك، خاصة في السنتين الأخيرتين. أما الذي ربح من تقلصه، ومن التطورات السياسية في العالم الشيوعي، فكان حزب الشعب الاشتراكي الذي يدعو الى زيادة سيطرة الدولة على وسائل الانتاج، ونزع السلاح، والانسحاب من الحلف الأطلسي،

وزيادة التعاون مع المعسكر الشيوعي والدول الاسكندينافية، ويعارض محاولات الدانمرك دخول السوق الأوروبية المشتركة.

والاشتراكية الدانمركية ليست اشتراكية العنف والتأميم والافقار وإنما هي اشتراكية الرخاء. والرخاء يأتي من ضمان الدولة للمواطن حق الطب المجاني بجميع أشكاله والتعليم المجاني في مختلف مراحله ومستوياته، وتوفير السكن والعمل والضمان الاجتماعي والتقاعد وحياة الشيخوخة وتشجيع روح المبادرة الفردية، واشراكه ديموقراطياً عن طريق احزابه ومؤسساته في رقابة الدولة، وعدم التعرض لحريته الفردية أو المهنية. فحرية المواطن حق مقدس لا يمس. لذلك أقامت الدولة مؤسسة سميت «أومبدسمان»، وهي مؤسسة محايدة يحق للمواطن أن يرفع اليها أي شكوى ضد الدولة أو وزارة من وزاراتها أو حتى وزير أو مدير أو موظف، إذا وجد أن هناك اجحافاً أو تقصيراً في حقه أو تأخيراً في احدى معاملاته. وسلطة الـ «أومبدسمان» سلطة رقابة ادارية. فإذا وجدت أن الحق مع المواطن احالت قضيته على المحاكم المختصة. والـ «أومبدسمان» ينتخبه مجلس النواب، ويبلغ معدل القضايا التي تعرض عليه ويبت فيها سنوياً زهاء ١١٠٠ قضية، وقد أسس عام ١٩٥٣. ولقاء كل ذلك يدفع المواطن الدانمركي للدولة ضرائب باهظة تصل في معدلها الى ٤٥ بالمئة من دخله.

لذلك يجد المواطن الدانمركي، وقد أمنت له الدولة كل احتياجاته في الحياة وما بعدها، متسعاً كبيراً من الوقت... للضجر. وعبر ضجره يمارس متعته المفضلة، الجنس بكل حرية وانطلاق وحب.

كوبنهاغن ـ (١٩٦٩/٩/١١)



ايرلندا

بلد الشعراء والحزانى

المأساة الايرلندية وقد غفت أكثر من ثلث قرن، عادت اليوم لتفتح الجروح القديمة ـ كل الجروح. فبوادر الحرب الأهلية التي اشتعلت في لندندري وبلفاست ما هي إلا تتمة متقطعة للحرب الايرلندية التي بدأت في مطلع هذا القرن، وامتدت عبر ٢٥ عاماً، وأصبح لها شهداؤها وأبطالها وشعراؤها وأناشيدها وذكرياتها. حتى شاهدها الأكبر والأول والحي ريمون دي فاليرا، الرجل العجوز العجوز، ما زال يتربع على كرسي رئاسة الجمهورية في دبلن. فايرلندا المأساة، مستمرة. ايرلندا الجمهورية وايرلندا الشمالية ـ أولستر ـ هما ايرلندا الواحدة، الجميلة والخضراء. ايرلندا الناس الطيبين البسطاء الحزانى والشعراء. ايرلندا التي تتربع على أمجاد جيمس جويس وبرنارد شو ويتيس وصموئيل بيكيت. ايرلندا الخلاقة.

حرب الاستقلال التي خاضها هذا البلد ضد بريطانيا ما زالت مستمرة حتى الآن. اولستر ـ أو شمال ايرلندا ـ البلد ذو الأكثرية البروتستانتية المنتمية بغالبيتها الى كنيسة انكلترا، وذو الأقلية الكاثوليكية الداعية الى العودة الى أحضان الوطن الأم ـ جمهورية ايرلندا، ما زال ينزف أيضاً من استمرار هذه الحرب. فأولستر تتمتع باستقلال داخلي تام ولها حكومة خاصة بها وبرلمان منفصل. في الوقت نفسه تنتخب من يمثلها باستمرار في وستمنستر (مجلس العموم البريطاني) حيث لها عدد معين من المقاعد. وقضايا أولستر ليست لها وزارة مستقلة، كوزارة شؤون سكوتلندا أو وزارة شؤون ويلز، بل تتبع وزارة الداخلية البريطانية مباشرة.

واحداث ايرلندا الشمالية ليست الا جزءاً وتكملة للمشكلة القديمة المستعصية التي لم تجد حلاً عندما أعلنت ايرلندا استقلالها، وأصبحت جمهورية منذ نحو ثلث قرن. فالصراع الذي شهدته لندندري ليس وليد مظاهر محدودة المعالم، أي أكثرية بروتستانتية تريد الاحتفاظ باستقلالها الداخلي وارتباطها بالوطن الروحي انكلترا

رافضة الذوبان في بحر الأكثرية الكاثوليكية، أو اقلية كاثوليكية تريد العودة الى الوطن الأم ـ ايرلندا الجمهورية والوحدة التي لا تتجزأ. هذا تسطيح للمشكلة ورسم لحدودها العامة فقط. فالحرب الأهلية ـ ومن وقف على بعد أمتار منها لا بد أن يسميها كذلك ـ التي دارت رحاها في شوارع لندندري، كانت تبدو كأنها تتمة لحروب الاصلاح الديني القديمة.

كل هذا ملك للتاريخ اليوم، لكن جذور التاريخ الايرلندي لا يأكلها الزمن. فالذي يرى شوراع لندندري بحفرها وحواجزها وحطامها وحرائقها لا بد أن يعتقد أن الغزاة مروا من هنا. فدم الجرحى ودخان الغازات المسيلة للدموع، ما هي إلا بعض المعالم التي تركتها الهدنة الموقتة بين الكاثوليك والبروتستانت، أو بين الكاثوليك ورجال شرطة اولستر المتهمين بالتحيز لمصلحة الأكثرية البروتستانتية، وتفصل بينهما، على حدود بوغسايد، القطاع الكاثوليكي في المدينة، القوات البريطانية المحافظة على حيادها، الخائفة من التورط في حرب استقلال ايرلندية جديدة لم تردها حكومة السيد هارولد ولسون العمالية في لندن، ولم يردها الشعب البريطاني. هذه الهدنة هي المناسبة التي خرج الصحافيون فيها من مخابئهم ـ وراء الأبواب، أو في الدكاكين أو المكاتب أو الشرفات المطلة ـ ليسألوا الناس أين أصبحت الحرب ومن انتصر في الجولة الأخيرة وما هو عدد الضحايا أو الخسائر. فالصحافيون هم وحدهم مراقبو الهدنة المعترف بهم في لندندري.

هدنة ماذا؟ هدنة قبل الوصول الى المنعطف الخطر. المنعطف الذي دخل اليه الجنود البريطانيون بأسلاكهم الشائكة وذكريات أحداث مماثلة في قبرص وعدن والملايو. وقد لا تكون بلفاست ولندندري وارماغ مثل نيقوسيا وكريتر وكوالا لامبور، إلا أن العداء بين البروتستانت والكاثوليك في ايرلندا الشمالية وصل الى مستوى العداء بين الأتراك واليونان وبين العرب والاسرائيليين وبين الملاويين والصينيين. لذلك تصبح الهدنة ضرورية، حتى لو كانت بين شارع فولز رود وشارع شانكيل رود في بلفاست. فالطائفية لها الوجه البشع نفسه: مهما كان لونها، وأين كان مكانها، ومتى كان زمانها. ومن هنا صار وجود القوات البريطانية الفاصل بين البروتستانت والكاثوليك تكريساً لفشل حكومة ستورمونت (مكان انعقاد برلمان أولستر) واعترافاً بانتهاء دستور عام ١٩٢٠ الذي كرس انقسام ايرلندا بين شمالية وجمهورية.

بهذا تغيّر دور حكومة ولسون. فقبل دخول قواتها مدن ايرلندا الشمالية لم يكن لها أكثر من حق النصح واسداء الراي لحكومة السيد تشيشستر كلارك ومن قبله لحكومة الكابتن أونيل. أما وقد أصبح لها قوات تسيطر على الوضع وتفصل بين الفريقين المتحاربين، فقد أصبحت مسؤولة بشكل مباشر عن تطور الأحداث هناك. فالتورط في ارسال قوات عملية سهل جداً، أما الخروج من الورطة وسحب القوات، فهو العملية الصعبة والخطرة.

إلا أن هذا الدور يصبح أكثر صعوبة عندما أخذت حكومة ولسون تتطلع إلى ما بعد الحواجز والاسلاك الشائكة التي اقامتها قواتها. تتطلع الى الحل السياسي للأزمة، الذي بدوره ومن دون أية مواربة، أعاد فتح المشكلة الايرلندية التي شغلت البريطانيين طوال قرن كامل.

وبالتالي كان لا بد من اعادة النظر في اسس الدولة الاولسترية كما كانت حينئذٍ. فقد فشل الكابتن أونيل الذي يمثل الاعتدال في انتخابات ربيع ١٩٦٩، لأن المتطرفين البروتستانتيين الذين ما زالوا يحملون أعلام أسرة «أورانج»، رفضوا التخلي عن امتيازاتهم، وبالتالي رفضوا مساواة الكاثوليك بهم في المواطنية. واثبت هؤلاء ضعف حكومة تشيشستر كلارك، التي لم تستطع أن تمنع مسيرة تلامذة الكهنوت البروتستانت التقليدية في لندندري يوم ١٢ آب، والتي تعيد الى ٣٠٠ سنة خلت، ذكرى صمود أسوار لندندري البروتستانتية عام ١٦٨٩ في وجه الملك جيمس الأول الكاثوليكي وهزيمة الكاثوليك الحاسمة في الشمال الايرلندي.

وكان قد سبق كل هذه التطورات، العامل الحاسم الذي أدى اليها، وهو «حركة الحقوق المدنية» التي تدعو بأكثريتها الكاثوليكية الى اعطاء الأقلية الكاثوليكية في اولستر حقوق المواطنية الكاملة والمساواة مع الأكثرية البروتستانتية، والى تعديل القوانين المجحفة بحق الكثلكة ككل في شمال ايرلندا. وحركة الحقوق المدنية، بدأت نشاطها بالقيام بعدة
ات سلمية، كان يتصدى لها البروتستانت بالحجارة والشتائم والضرب، مما دفع الحركة الى التخلي عن دعوتها الى اللاعنف وعن تبنيها للأساليب السلمية، والى التمسّك بالحجارة والعصي وقنابل الغاز وكوكتيل مولوتوف لترد على التعصب البروتستانتي. واتسعت نقاط الاصطدام من مسيرة الى أخرى حتى انفجر الصراع كاملاً بين الطائفتين، وتحوّل الى شبه حرب أهلية ستؤدي الى نسف الأسس الحالية للدولة وكيانها.

ولكن من المؤسف الاقرار، بأنه لو منحت حكومة اولستر الأقلية الكاثوليكية كل ما تطمح اليه، وأصبح للكاثوليك الحقوق المدنية الكاملة، فإن العلاقة بين الأكثرية والأقلية لن تعود الى الصفاء. ذلك بأن هذه العلاقة بحكم تكوين الشخصية الايرلندية والتاريخ الايرلندي، قد أشبعت بالشكوك وبدأ بناء أساطير متبادلة من العنف والدم. ومن الصعب انتزاع الناس من عجزها الاسطوري.

طبعاً، استطاع الكاثوليك في بوغسايد تحقيق ما أرادوه من تصعيد القضية، وهو توريط بريطانيا الى أقصى الحدود، واعادة فتح ملفات المشكلة الايرلندية، وتدويلها إن أمكن، عن طريق تدخل جمهورية ايرلندا. ولم تتردد حكومة الوطن الأم ـ ايرلندا الجمهورية في اعلان اهتمامها بالموضوع، حتى قبل تأزم الوضع. وجاءت مقترحات رئيس وزراء جمهورية ايرلندا السيد جاك لنش ارسال قوات من الأمم المتحدة، بعد عرض القضية عليها، لتهدئة الأوضاع في أولستر والفصل بين الفريقين المتنازعين، تمثل الطموح في

توسيع رقعة القضية ولفت نظر العالم اليها، وبالتالي تدويلها إن أمكن. وجاء ـ بالطبع ـ رد لندن بالرفض. ثم ورد اقتراح انشاء قوات مشتركة بريطانية ـ ايرلندية، وحمل الاقتراح وزير خارجية جمهورية ايرلندا الدكتور باتريك هيلاري، وجاءه الرد من اللورد شالفونت بالرفض طبعاً. ثم جاءت المحاولة الثالثة من لنش بالدعوة الى مؤتمر دستوري للبحث في القضية. ورفضت لندن، وظلت حدود تدخل ايرلندا الجمهورية تقتصر على دعوة بعض احتياطها من الجنود، وإقامة مراكز طبية على الحدود مع اولستر.

كل هذا يدفع الى التساؤل: هل تريد اولستر ـ أو بعضها على الأقل ـ البقاء كجزء لا يتجزأ من المملكة المتحدة، التي تحمل اسماً رسمياً هو: «المملكة المتحدة البريطانية وشمال ايرلندا». أم تريد أن تحكم حكماً مباشراً من لندن وأن يلغي استقلالها الداخلي. أم تريد أن تعيد المأساة الايرلندية كلها وتنبش اغاني الاستقلال القديمة وذكرياتها مع شهدائها من قبورهم، وتفتح الأبواب لـ «الجيش الجمهوري الايرلندي» ـ ايرا ـ وهو منظمة متطرفة من بقايا حرب الاستقلال تدعو الى تحرير الوطن الايرلندي كله من الوجود البريطاني، والى توحيد الشمال والجمهورية. طبعاً على الأكثرية في أولستر أن تصل الى قرار بشأن كيانها في المستقبل وطرق تعايشها، لكن على لندن أن تحافظ على وحدة المملكة المتحدة، لأن المسؤولية الأولى والأخيرة في حال تدهور الأوضاع في لندندري وبلفاست أكثر مما هي عليه، تقع على عاتق الحكومة البريطانية.

وقد خلق هذا الوضع ثلاثة تيارات منفصلة ومتناقضة وعميقة الجذور في الرأي العام في أولستر. فهناك الأقلية الكاثوليكية المتعصبة لايرلندا الداعية الى الوحدة مع الجمهورية والانفصال عن المملكة المتحدة، واعلان ايرلندا الواحدة. وهناك تجمع من الكاثوليك المعتدلين والبروتستانت المعتدلين المؤمنين بضرورة البقاء ضمن اطار المملكة المتحدة والاحتفاظ باستقلال اولستر الداخلي، بسبب الفوائد الاقتصادية والسياسية التي يجنونها من هذا الوضع. وهناك الفئة الثالثة المكونة من البروتستانت المتعصبين الرافضين مساواة الكاثوليك بهم والداعين سراً حتى الآن الى انفصال اولستر عن المملكة المتحدة واعلانها جمهورية بروتستانتية في شمال ايرلندا، تحافظ على امتيازات البروتستانت وتعلن استقلالها من طرف واحد على طريقة نظام حكم ايان سميث في روديسيا. هذه الفئة التي يمثل جناحاً منها القس البروتستانتي ايان بيسلي وجناحاً آخر وزير الداخلية السابق السيد وليم كرايغ. أما النائبة الصغيرة الشابة الجميلة برناديت دفلن، فهي تمثل حركة الحقوق المدنية، أو الفئة الثانية، الداعية الى المساواة ضمن الحدود الدستورية الحالية لاولستر. ويأمل الاتحاديون (الفئة الأولى) أن يتدخل الى جانبهم جنود «ايرا»، طمعاً في تصعيد القضية التي لم تمت ابداً بالنسبة اليهم.

وعلى امتداد الأسلاك الشائكة في لندندري وبلفاست، يمسح الناس ـ بمن فيهم الصحافيون ـ عيونهم من الدموع التي اسالتها القنابل، ويبدأ السعال لاخراج ما تجمع من دخان في الرئات، وتوزع أقداح الشاي من نوافذ البيوت القريبة، ويتطلع

الكل عبر السماء الرمادية الصافية، الى أبعد من الحواجز. الى ايرلندا الخضراء، ايرلندا التي تطالب بالعدالة ـ قبل أي شيء آخر ـ عدالة التسامح الديني والمساواة في الحقوق المدنية، والوحدة مع الوطن الام ـ أو وطن التبني. ايرلندا الناس الطيبين، الحزانى والشعراء.

لندنري ـ (١٨/٨/١٩٦٩)



■ جورج براون:
«همشري ضاع»

كان ذلك قبل أن يعود حزب العمال إلى الحكم من تيه دام ثلاث عشرة سنة في المعارضة، صيف عام ١٩٦٤. وكان جورج براون نائباً لزعيم المعارضة، إذ خسر زعامة حزب العمال ضد هارولد ولسون اثر موت زعيم الحزب المفاجىء هيو غيتسكيل. وكانت اتجاهات الرأي العام البريطاني وقتها تشير إلى احتمال فوز العمال في الانتخابات التي جرت في تشرين الأول عام ١٩٦٤. وكان اهتمامنا وقتها، نحن في العالم العربي، كبيراً بالتغيير المتوقع في الحياة السياسية في بريطانيا. وكان اعتقادنا ان حكومة اشتراكية تقدمية الوجه واللسان، تستطيع أن تكون أكثر تفهماً لقضايا العرب الأساسية، وأكثر ادراكاً للتغيير الذي حصل في خريطة العالم العربي منذ عام ١٩٥٠ الى ذلك اليوم، وأكثر «لياقة» في تعاملها مع النوع الجديد من الزعماء العرب الذين برزوا. وكان الاعتقاد أن حزب العمال، عندما يتسلم الحكم، سيتقدم بوجوه جديدة، أو شابة بعض الشيء، ومتحمسة، ولا سيما بعد ثلاث عشرة سنة من حكم المحافظين، تواقة إلى أن تفعل فعلاً مختلفاً وايجابياً على الصعيد الدولي والصعيد العربي. وكانت وجوه حزب العمال، وقد أصبح معظمها وزراء فيما بعد، تجيد التحدث بمفردات سياسة العصر، وتجيد فهم مصطلحات العلاقات الدولية في النصف الثاني من القرن العشرين، وتدرك أن خريطة العالم تغيرت جداً عن العصر الفيكتوري، وأن بريطانيا الأمس واليوم، ليست حتى بريطانيا زمن تشرشل الذي كان ما زال حياً.

غير أنه كان هناك من يظن خطأ أن السياسة الخارجية لحزب العمال ستختلف عن السياسة الخارجية لحزب المحافظين، متناسياً أن ليس هناك سياسة خارجية خاصة ومختلفة لكل من حزب العمال وحزب المحافظين. بل ان هناك شيئاً واحداً ثابتاً اسمه سياسة خارجية ثابتة وتقليدية لبريطانيا، تقوم على أساس قاعدة «مصالح دائمة، لا

عداوات أو صداقات دائمة» ينفذها بأسلوبه وبرجالاته، الحزب الحاكم، أكـان محافظـاً أم عمالياً أم أحراراً. اذن، ما الفرق؟ الفرق في الرجالات والأسلوب والنيات.

هذا ما أكده لي جورج براون، نائب زعيم حـزب العمال البـريطاني المعـارض إذ ذاك في مكتبـه الصغير المتـواضـع في مجلس العمـوم في حزيـران عام ١٩٦٤. وكـان الـوقـت صباحاً، واذكر أنني وصلت متأخراً عن الموعد؛ لأنني ضعت في ممرات مجلس العمـوم. وكان براون في مكتبه يقرأ الصحف ويشرب كأساً من الحليب عندما قـادتني سكرتـيرته اليه. وبدا مبتسماً مرحاً قريباً الى القلب، ليس فيه أثـر من «السنوبيـزم» أو «الجفاف» أو «الجمـود» أو «التعالي» المعـروفة عن السيـاسيين البـريطانيـين. ونسي أنني متأخـر فدعاني إلى كأس من الحليب معه. فاعتذرت شـاكراً، بـأنني لا أشرب الحليب، فقدم لي فنجاناً من القهوة والحليب. وكان الخبر الذي يشغل بالي تلك الأيام زيارة وفد من حزب العمال لإسرائيل، ودعوة وفد من حزب «المابـام»، حزب العمـال الإسرائيلي، الى حضـور المؤتمر السنوي لحزب العمال الذي كان سيعقد في سكاربورا.

وسألت براون: هل دعوتم أيـاً من الأحزاب الاشتـراكية العـربية الى مؤتمـر؟ فأجـاب: «طبعاً. لقد اجتمعت بصلاح البيطار قبل أن يصبح رئيساً لوزراء سورية ويتسلم البعث الحكم، في آخر زيارة لي للبلـدان العربيـة ـ عام ١٩٦٢ ـ وطلبت منـه أن يرسـل حزب البعث وفـداً لحضور مؤتمـرات حزب العمـال، فلم يجب عن دعـوتي. وطلبت من أكـرم الحوراني أيضاً أن يرسل وفداً من الحزب الاشتراكي السوري، فوعد خيراً، ولم يجب. وطلبت من كمال جنبلاط أثناء لقائي اياه في زيارتي الأخـيرة لبيروت بـواسطة صـديقي الـراحل اميـل البستاني، ان يـزيد التعـارف بين الحـزب التقدمي الاشتـراكي وحزب العمـال، فيجري نقـاش للقضايـا المشتركـة، فوعـد خيراً ولم ينفـذ. وجـاءت إسرائيـل تستقطب هذا الاهتمام على حساب العرب، فهل تلوموننا إذا عرفناهم أكثر؟».

وطفق براون، يتحدث، كما أذكر بوضوح، مطولاً عن صديقه اميل البستاني، وعن الدور الذي لعبه في تعريفه اياه على العرب، وايضاحه طائفة من القضايا العربية له وللكثيرين من نـواب حزب العمـال. وأشعرني بـراون انه حـزين جداً لفقـد صديق، وقـد قـاربت الساعة التي يحتاجه فيها وهو على أبواب الوزارة والحكم.

وكان الخبر الآخر الذي يشغـل ذهني، ما كـان ينشر في الصحف البريطـانية من أسرار حملة السويس عام ١٩٥٦. فسألت براون عما إذا كـان حزب العمـال فعلاً ضـد حملة من نوع السويس لو كان في الحكم، أو لو توافرت له وهو في الحكم. وكان جـواب براون الواضح:

«طبعاً. كان حـزب العمال ضـد مغامـرة السويس لانهـا أولاً كانت ضـد المنطق، ولأنها مؤامرة بين ثلاث دول، ولأنها ضد مصالح بريطانيا، ولأن حزب العمال لا يؤمن بأسلوب القـوة والعنف في حل المشـاكل الـدولية في هـذا العصر. وبقدر مـا كـان العمـال ضـد السويس، كانوا، وما زالوا، ضد أي تغيير في الوضع الراهن بالنسبة إلى إسرائيل».

السنوي لحزب العمال البريطاني، وعدد كبير من مؤتمرات نقابات العمال البريطانية، حتى أن فرانك كزونز وزير التكنولوجيا في حكومة ولسون الأولى واقوى زعيم نقابي في بريطانيا اليوم زار إسرائيل كأول عمل قام به لما استقال من الحكومة، بناء على دعوة من «الهستدروت» ـ منظمة اتحاد العمال الاسرائيلي ـ للاطلاع على التنظيمات النقابية هناك. وأصبح «المابام» و«الهستدروت» يدعوان باستمرار وفوداً من حزب العمال البريطاني الى إسرائيل والاقامة في «الكيبوبتز» والتفرج على التجربة الاشتراكية. حتى غدت معلومات العمال وصلاتهم بإسرائيل كسباً كبيراً لهذه، وخسارة مفجعة للعرب. فالفراغ العربي في العالم الغربي، بمحافظيه وعماله واشتراكييه وأحراره وديموقراطييه، كان المدى الحيوي الذي عملت وتعمل منه إسرائيل دون أية منافسة عربية.

وعبر كل ذلك تطل أهمية استقالة جورج براون، الرجل الذي فهم العرب في أحرج الظروف، وحاول بناء جسر من التفاهم في أحلك الفترات التاريخية، ولم يرث عقدة «الاضطهاد اليهودي» الاوروبية، ولا نظرية «التفوق الاشتراكي» الاسرائيلية. إنه كان يعرف تماماً أن قلب المصالح البريطانية عند العرب، ويعرف ايضاً أن الطريق الى التفاهم هي طريق عربية لا إسرائيلية.

ولعل براون استطاع بظرفه وعفويته وربما «همشريته» وبعده عن الأساليب التقليدية التي درجت عليها الديبلوماسية البريطانية، ان يفتح اقنية عدة مع العرب. ولعل تقديره لأهمية هذا العمل جعله يقول في اعلانه الخطي الوحيد لما استقال في «صنداي تايمس»، ان حسرته على ترك منصب وزير الخارجية تعود إلى أنه لم ينه بناء علاقات صداقة مع عدد من الدول العربية كالعراق والجزائر، وأن مهمة الدكتور يارينغ لم تعط الا القليل القليل من النتائج، وان القرار البريطاني في مجلس الأمن الذي وقف براون وراءه وكان من وحيه، لم يجد دربه إلى التنفيذ بعد.

من هنا، بخروج جورج براون بعد حوالى سنتين في وزارة الخارجية من «هوايتهول» و«كارلتون غاردنز» تنتهي مرحلة من أخطر مراحل تاريخ السياسة البريطانية المعاصرة وأمتعها، ويدخل حزب العمال أدق فترة من فترات ممارسته للحكم منذ سقوط اتلي في انتخابات عام ١٩٥١. ولعل أسوأ ما في الاستقالة توقيتها.

فمن المؤسف أن توقيت استقالة براون كان قمة مأساة تحطيم الذات. ومن اللاجدية اعتبار استقالة براون ستؤثر على حكومة ولسون. فلن يتبع أحد من زملاء الوزير المستقيل زميلهم السابق الى التيه في المقاعد الخلفية في مجلس العموم. كما أن صعود نجم وزير المالية روي تنكينز، وخصوصاً لما صدرت الميزانية البريطانية الجديدة وهي أقسى ميزانية في تاريخ بريطانيا المعاصر منذ الحرب العالمية الأخيرة، قد سلب أشياء من أهمية غياب براون عن المسرح السياسي البريطاني، حتى لو بقي في وضعه الشاذ كنائب لزعيم حزب العمال وهو خارج الحكم. وليست هناك سابقة دستورية بريطانية كهذه بعد.

ولعل الأسف الحقيقي، كما يقول بعض المراقبين، يكمن في أن مزاج براون «وشطحاته» العصبية قد جعلت استقالته حتمية ومرغوباً فيها في وقت من الأوقات. ويزيد في هذا الأسف، أن براون يترك وزارة الخارجية في ظرف يحتاج معه العرب إليه وكذلك حزب العمال، كواحد من السياسيين البريطانيين القلائل الذين لا توضع شجاعتهم ووقوفهم عند مبادئهم موضع شك البتة. إلا أن براون خارج الحكم سيزيد من حرج الحكومة أكثر مما كان يحرجها وهو فيها.

وتبقى أسباب الاستقالة وهي في مجملها شخصية. فإن براون احتج على الطريقة الديموقراطية التي يتبعها رئيس الوزراء في اتخاذ القرارات داخل الحكومة، على خلاف الطريقة الدستورية التقليدية، وهي استشارة الحكومة بمجملها وموافقتها اجماعاً على القرارات، فالوزراء المخالفون، إما أن يقبلوا بقرار الأغلبية ويتبنوا مواقفها داخل مجلس العموم وخارجه، وإما أن يستقيلوا. وأمام هذه النقطة الدستورية، لا يستطيع الكثير من الوزراء هضم قرارات لا يوافقون عليها، ولا سيما إذا لم يستشاروا لكن الخلاف بين براون وولسون قديم منذ التنافس على زعامة الحزب بعد موت غيتسكيل، وعاش طيلة الثلاث سنوات ونصف السنة التي حكم فيها العمال. فاعتراض براون على تجاهل ولسون له، كعضو في الحكومة وكوزير للخارجية وكنائب لرئيس الوزراء، في اتخاذ قراره باغلاق سوق الذهب في لندن بعد مكالمة هاتفية مع الرئيس الأميركي جونسون، سبقته أمور شخصية كثيرة، أهمها ان ولسون اعترض أيضاً على سفر براون إلى الأمم المتحدة للتحدث في قضية روديسيا بعد اعدام نظام حكم ايان سميث الأفريقيين فيها، وكان براون قد أعرب عن نيته في السفر. وإذا بولسون يعلن في اجتماع للحزب البرلماني ان لا داعي لسفر براون لأن خبرة اللورد كارادون وأعصابه الهادئة في نيويورك تكفي، ولا حاجة إلى حماسة براون.

كما أن براون اعتبر أن استشارة وزير الاقتصاد بيتر شور، في اغلاق سوق الذهب ـ مع وزير المالية روي جنكينز ـ واصطحابه له إلى «باكنغهام بالاس» لمقابلة الملكة، وهو وزير مستجد وحديث العهد في الوزارة، اهانة شخصية له، ضاعفت من شعور براون بالعزلة وضيقه من معاملة ولسون له. حتى ليقال ان براون كان يجد صعوبة كبيرة في مقابلة رئيس الوزراء وحده، وان ولسون كان يرفض أن يقابله إلا بحضور وزراء آخرين أو سكرتيري الحكومة. كما أن براون حاول كوزير للاقتصاد خلال عامي ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ أن يخفف من معارضة نقابات العمال، بحكم صلته الوثيقة بها، لسياسة الحكومة الاقتصادية، كما أن الاجراءات الاقتصادية التي قام بها وقتها خففت من الضغط على الجنيه الاسترليني. كل هذا لم يدفع ولسون الى شكره أو الاعتراف بأهمية السياسة التي اتبعها ونجاحها. كما أن براون كان طامحاً إلى وزارة الخارجية منذ تشكيل الحكومة العمالية الأولى، إلا ان ولسون أراده في وزارة الاقتصاد المستحدثة ليتولى تسوية الأوضاع الاقتصادية المتردية في بريطانيا.

وعندما بدأت مساعي براون تعطي بعض النتائج نقل الى وزارة الخارجية.

لكن لـوجـود بـراون في وزارة الاقتصـاد قصـة تبـرر «حـرقتـه» وربمـا خـلافـه مـع ولسون، هي أن رئيس الوزراء كان يعطي الأهمية في الأمور الاقتصادية لوزير الماليـة ـ جيمس كالاهان إذ ذاك ـ برغم أن وزارة الاقتصاد هي وزارة التخطيط الفعلي للسياسة المالية والاقتصادية بينما وزارة المالية هي وزارة التنفيذ.

وعبر كل هـذه الأحداث، تـراكم الخلاف بـين ولسون وبـراون، حتى انفجر بـالطريقـة الدراماتيكية التي عودها براون للصحافيين ولزملائه السياسيـين من نواب وسـواهـم في حزب العمال.

ويبقى الـوجه المـرح الرائـع في حياة بـراون السياسيـة. الوجـه الـذي دفـع رسـامي الكاريكاتور والصحافيين والمصورين في العالم أجمع، إلى أن يكونوا أشـد الناس أسفـاً عـلى ذهابـه. وفي ذهاب هـذا الوجـه الذي أذاب الكثـير من الجليـد التقليـدي في ريـاء السياسة البريطانية ونفاقها وفي حياة الحكومة البريطانية وحزب العمـال، يغيب الظرف والعفوية والذكاء اللماع، وتصبح سياسة العالم أشد مللاً وضجراً وتثاؤباً.

لندن ـ (١٩٦٨/٣/٢٤)

راندولف تشرشل: الابن المظلوم

كأنني أذكر ذلك جيداً عام ١٩٥٩. وأزمة حرب السويس تتفاعل في بريطانيا إثر ثلاث سنوات من وقوعها، ومزيد من الوثائق والمعلومات ينشر و«فضائح» التواطؤ تظهر بين الساسة البريطانيين وكل من فرنسا وإسرائيل. وكان سيل الكتب يتدفق على المكتبات حاملاً الجديد من الوقائع والأسماء والصور. وكانت حرب الكلمات سجالاً بين الصحافيين ورجال السياسة والكتاب في كل ما يتعلق بذكريات السويس وأزمتها. وكانت «حُمى» الحرب قد انتقلت إلينا بدورها نحن الطلاب العرب، لذلك كنا عظيمي الاهتمام بها.

وكانت مجلة «سبكتاتور» اللندنية بدأت تنشر سلسلة مقالات للكاتب البريطاني الايرلندي الأصل أرسكين تشلدرز، يكشف فيها للمرة الأولى عن حقيقة الحرب وملابساتها. وكنا نقرأ بشغف كبير كل ما يكتبه تشلدرز، نظراً للإنصاف والموضوعية اللذين كان يبديهما نحو وجهة النظر العربية، وسط طوفان الكلمات المعادية. وكانت رابطة الطلاب العرب في بريطانيا تصدر وقتها مجلة فصلية بالانكليزية. فذهبت إلى مبنى مجلة «سبكتاتور» في «غوار ستريت» لمقابلة تشلدرز، بناءً على موعد سابق، للطلب منه مقالاً عن موضوع السويس لمجلتنا، «أراب ريفيو». وفي مكتب تشلدرز ـ كان رجل ضخم الجثة يجلس إلى مكتب آخر خلف آلة كاتبة، عرفني عليه تشلدرز: راندولف تشرشل. وترك راندولف تشرشل آلته الكاتبة ومزق الورقة التي عليها، واستدار نحونا ـ أنا وتشلدرز ـ وقال كما أذكر: «ألا تريدون مقالاً مني؟ أم أن أسعاري غالية لا تستطيعون دفعها؟». وضحك هو وضحكت أنا وأجاب تشلدرز: «لا. انهم يريدون مقالات مجاناً كمقالاتي». وتشعب الحديث عن أزمة السويس كلها وخاصة ما يتعلق بدور بعض السياسيين من رجال حزب المحافظين فيها.

ودعانا تشلدرز إلى كأس في بار قريب من مبنى «سبكتاتور»، يرتاده طلاب جامعة لندن القريبة من الشارع نفسه. وكان راندولف تشرشل، يشرب بشراهة وبين الكأس والأخرى أخذ ينتقد مقالات تشلدرز، التي أصبحت من بعد أساساً لكتاب شهير باسم «الطريق الى السويس»، فضح فيه التواطؤ البريطاني ـ الاسرائيلي ـ الفرنسي. وكانت مآخذ راندولف تشرشل على ما يكتبه تشلدرز ـ كما أذكر ـ انه لم يركز ما فيه الكفاية على الدور الشخصي الذي لعبه السير انطوني ايدن (اللورد ايفون الان) رئيس الحكومة البريطانية وقتها، في كل التفاصيل الدقيقة الهامة لمؤامرة السويس. واخذ يحدثنا عن كتابه الذي كان نفض يده منه والذي سيصدر خلال أشهر، عن ايدن، بعنوان «صعود وسقوط السير انطوني ايدن»، والذي كشف فيه بالفعل جوانب هامة في قصة السويس، فروى خبايا كثيرة كانت مجهولة في شخصية ايدن وحياته.

ولم يكن راندولف تشرشل فظاً أو وقحاً ـ كما يقال عنه ـ خلال جلسة البار التي امتدت

طيلة فترة الغداء. كان طلقاً، سلساً، لماحاً، قاسياً في نقده، وعنيفاً. إنما كان ساحراً في كلامه. وكان من الصعب للطالب الغريب أن يبعد عن ذهنه محاولة المقارنة المستمرة بينه وبين أبيه الشهير. إلا أن جاذبية شخصيته خلقت نوعاً من الراحة في الجو، ولا سيما لما طفق يتحدث عن رايه في الصحافة والصحافيين البريطانيين، وماذا ينوي أن يكتب هذا الاسبوع عنهم. (وكان راندولف يكتب عموداً اسبوعياً عن الصحافة البريطانية في «سبكتاتور». وكان حديث راندولف تشرشل عن الصحافة حديث المحترف العارف بأمورها، كما كان حديثه عن السياسة، حديث المقهور المسك بنواصيها، المبعد عن مراكز القوى فيها، المقرب إلى اشخاصها. وانتهت الجلسة، وقد تناثرت أقداح البيرة على الطاولة، من غير أن احصل على المقال الموعود من تشلدرن، ولا على مقال مدفوع من تشرشل، إنما حصلا هما على اشتراكين مجاناً في الـ «آراب ريفيو».

وصدر كتاب رندولف تشرشل عن ايدن، وكان مفروضاً أن يكون في الأساس كتاب سيرة لحياته. لكنه كان يحتوي على أسرار جديدة لازمة السويس، أكثر من احتوائه على سيرة. ولم يكن تشرشل يحب ايدن، وأظهر هذا بوضوح في كتابه الذي اعتبره ايدن أسوا ما وضع عنه. وكان بين تشرشل وايدن حب مفقود، منذ الأيام الأولى للحرب العالمية الثانية، حيث بدأ نجم ايدن يصعد في عالم السياسة، كالرجل الثاني في حزب المحافظين بعد تشرشل الأب. وكان تشرشل الابن يأخذ على الأب ثقته الزائدة في ايدن، كما كان ايدن يأخذ على تشرشل الأب، ان لراندولف نفوذاً واسعاً عنده، يتعدى حدود العلاقات الأبوية، ويدخل في صميم العمل السياسي. وكان راندولف من المقربين جداً ومن المحبين لهارولد ماكميلان. لذلك كان فرحه عظيماً عندما تولى ماكميلان رئاسة الحكومة إثر سقوط ايدن عقب ازمة السويس. وبقيت علاقات الود قائمة بين راندولف وماكميلان حتى ايامه الاخيرة.

وبموت راندولف تشرشل، تنتهي حكاية رجل عاش عمره في ظل أبيه الكبير، فدفع ثمن ذلك فشلاً في السياسة، ونجاحاً في الصحافة والكتابة لم يقدره أحد. فراندولف تشرشل الذي مات عن ٥٧ سنة، كان شخصاً أهم من الفكرة الشائعة عنه وهي انه رجل أنيق، أو ثور وسيم، يعامل العالم كله كأنه مخزن للزجاج. فهو كابن وحيد للسير ونستون تشرشل، درس في «ايتون» وفي اوكسفورد، من غير اي نجاح أو تفوق في دروسه، مثلما كان ابوه تماماً في «هارو»، لم يكن أمامه سوى طريق وحيدة، هي السياسة. وكان كل ما في راندولف من اسم شهير، ومظهر أنيق، وبراعة في الخطابة ومعرفة للناس وشجاعة، يجعله مؤهلاً لهذا الدور، دور السياسي. بل كان يكتب ويحاضر في الولايات المتحدة وهو ما زال في أوائل العشرين من عمره.

وكان الاعتقاد السائد ان من السهل جداً أن يدخل مجلس العموم. إلا أن محاولاته كلها فشلت. كما فشل في كل انتخابات عامة أو فرعية خاضها لدخول البرلمان. حتى جاء عام ١٩٤٠، واصبح والده رئيساً للحكومة ابان الحرب العالمية الثانية. وجاءت لحظة راندولف لولوج عالم السياسة، عندما رشحه حزب المحافظين عن مقعد «برستون» وفاز

بالتزكية. وظل نـائباً في مجلس العمـوم، حتى عام ١٩٤٥، حـين انتهت الحرب وجـرت انتخابات جديدة فشل بها، وفاز العمال بأكثرية ساحقـة، ألف على أثـرها كليمنت اتـلي الحكومة العمالية الأولى بعد الحرب. ومنذ ذلك الوقت وراندولف تشرشل يقوم بمحاولات لدخول مجلس العموم. كان «أطرفها» لما خاض انتخابات فرعية عام ١٩٤٧ ضد مـايكل فوت، الزعيم العمالي اليساري، وفشل. وبعدها أصبح مايكل فوت من أقرب الأصـدقاء إليه حتى موته.

وعمل راندولف تشرشل خلال الحرب العالمية الثانية كضابط في المخابرات البريطانيـة في الشرق الأوسط لفترة ثم في يوغوسلافيا. وكان طوال الحرب يتـوقع أن يستـدعى ليكون وزيراً في حكومة أبيه. وخاب ظنه. إلا أن الدور الكبير الـذي لعبه خـلال الحرب، هـو في يوغوسلافيا، كضابط ارتباط للحكومة البريطانيـة عند المـاريشال تيتـو. وكان زميلـه في مهمته في يوغوسـلافيا الروائي والكاتب البريطاني المعروف افلين واو، الذي كـان ثرثـاراً وبعيداً عن حفظ أي سر. فكان راندولف يأمره بأن يقرأ من التوراة كلما أراد اسكاته أو منعـه من افشاء أي سر. ولا أحـد يعرف مـاذا كان رأي تيتـو ورفاقـه وهم في الجبـال اليوغوسلافية في هذين الرجلـين الطريفـين والغريبـين اللذين جـاءا ليمثلا المسـاعدات البـريطانيـة للثوار اليـوغوسـلافيين. إلا أن تيتـو يقول عنـه انه كـان من أكفأ ضبـاط الارتباط.

ومن الطرائف عن راندولف وأبيـه. انه لـما كان نـائباً في مجلس العمـوم خلال الحـرب، حاول راندولف أن يقاطع والده، فاستـدار هذا من مقـاعد الحكـومة الأمـامية، وتطلـع وصرخ في وجهه: «اجلس».

وجلس.

كـل هذا سـاهم في تكوين خصـائص معينة في شخصيـة راندولف تشرشـل التي عرفت بأنها تمتاز بالرعونة، وبحب المناقشة العامة والحوار الصاخب، وبالـوقاحـة. اضف أنه أكثر من يستعمل التلفون في بريطانيا كلها. فهو يقرأ مقاطع كاملـة لأصدقـائه من كتب أبيه وكتبه على التلفون، ويقرأ كل مقـالاته، وفي أحيـان عدة يمليهـا على الصحيفـة من بيته، مهما طـالت، على التلفـون. ولعل الشهـرة الأخرى التي كـان يتمتع بهـا هي حبه وافراطه في الشراب. وبرغم كل هذه المظاهر غير المشجعة، فإن أصدقاءه المقربين كـانوا يعرفون ان تحت كل هذه المظاهر، شخصية حساسة، ذكية، من السهـل جرحهـا، واثقة من نفسها، وفي الأخير الأخير محبة ومحبوبة.

قد يرى راندولف من خلال هذه العلامات الفارقـة في حياتـه، كإنسـان فاشـل؛ إلا أنه استطاع بطريقته الخاصة أن يترك آثاراً هامـة في زمانـه. فإنـه كصحافي سيـاسي، كان دائماً ذكياً ماهراً، وفي أحيـان بارعـاً وعظيماً. ولعـل قربـه من مصادر الأخبـار ورجال السياسة والحكم جعله يراهم من زاويـة جديـدة، فيها من بعـد النظر والـذكاء اشيـاء كثيرة. كما أن حملته التي قام بها وحده ضد «البذاءة» في الصحافة وتـدخلها في شؤون

الناس الخاصة، جعلت منه في نظر الناس «صليبياً» جديداً يدافع عن الأخلاق العامة. ناهيك بأن قلمه الواثق، الحادّ الذكاء، جعله من الصحافيين الكبار في بريطانيا والولايات المتحدة.

وانصرف راندولف في السنوات الأخيرة من حياته نحو تأليف الكتب. وكان أهمها كتابه الشهير «اللورد داربي» (عام ١٩٦٠) الذي أدخله الى عالم الأدب البريطاني عن جدارة. إذ كان أفضل ما كتب في السيرة لسنوات طويلة. وهذا لم يمنعه من وضع الكتب السياسية والصحافية. فكتب «الصراع من أجل زعامة المحافظين» (عام ١٩٦٤) حيث روى للمرة الأولى حقيقة ما جرى في حزب المحافظين بعد استقالة هارولد ماكميلان، وتولي السير اليك دوغلاس هيوم رئاسة الحكومة وزعامة الحزب. كما كتب مع ابنه ونستون قصة الحرب العربية ـ الاسرائيلية في حزيران ١٩٦٧. ولعل كتابه عن سيرة داربي، لم يكن إلا «تجربة» قبل أن يبدأ بالمهمة التي انصرف اليها بقية حياته، وهي كتابة سيرة أبيه التي صدر منها جزءان حتى الآن ولم تنته. وكان قد سئل راندولف عما ينوي أن يفعله إذ ينتهي من سيرة أبيه، فأجاب: «أموت». ومن المؤسف أنه مات وما زال أكثر من نصف السيرة، أو جزءان آخران منها، يحتاجان إلى كتابة. وقد أعاد رأي النقاد ـ كبيرهم وصغيرهم ـ الذين صفقوا لكتابيه عن أبيه، الاعتبار الى القلم الذي أعطى الصحافة والمكتبة البريطانيتين عطاء طيباً.

وربما هز عدد من أصدقائه وأعدائه رؤوسهم قائلين: «ان يكون المرء ابن رجل عظيم وشهير كونستون تشرشل، قدر مؤسف وعبء كبير في الحياة». وهذا صحيح إلى حد. فإن راندولف كان محجوباً إلى حد بسبب شهرة أبيه وعظمته. وغالباً ما جعل من نفسه أضحوكة لأنه كان يحاول أن يقلد طريقة أبيه في الخطابة والكلام. إلا أنه لو سمع النصائح التي كان يقدمها الرجل العجوز، لكان وصل إلى شواطيء الأمان السياسية، كما وصل صهراه قبله، دانكان ساندز وكريستوفر سومز. لكن حس التمرد عنده، والرغبة في الانفلات من الأوامر والمسؤولية، حتى حب التهريج في داخله لم تمكنه من الاستفادة من نفوذ أبيه وشهرته.

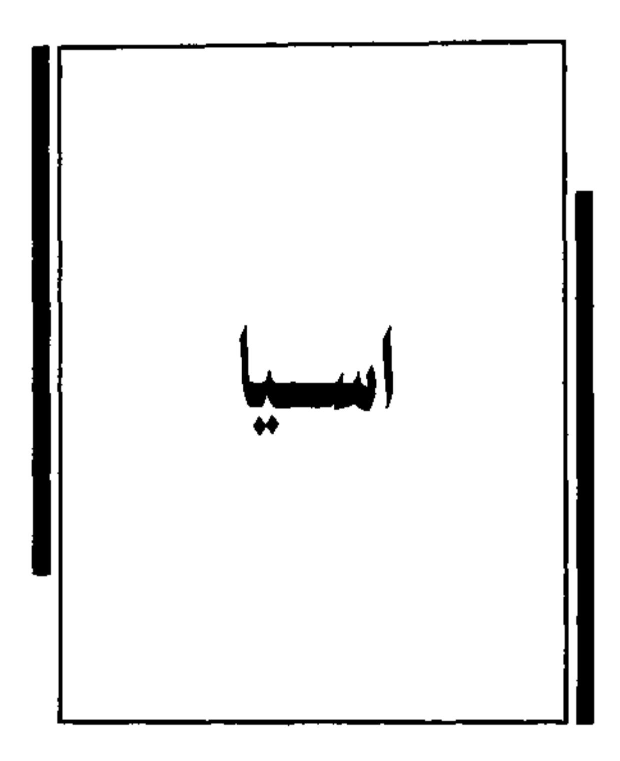
وعند راندولف صفة الولاء الدائم. الولاء لأبيه في الدرجة الأولى، ولذكراه من ثم، وللأصدقاء الذين وقفوا إلى جانبه وجانب أبيه في الأيام الصعبة كهارولد ماكميلان، وداف كوبر. ومن الصحيح القول الى حد انه عاش في ظلال أبيه. فهو في مقابلة على التلفزيون قبل موته بأشهر قليلة أعلن: «لقد كان أباً عظيماً رائعاً، مركز الثقل في حياتي، وربما أعظم شيء فيها. لقد أحببته كثيراً وبعمق». لكنه نفى أن يكون سيطر عليه أو سير حياته.

وكانت أفضل ساعات راندولف تلك التي يقضيها مع ابنه ونستون من زواجه الأول، وابنته أرابيلا، من زواجه الثاني. وكلا الزواجين لم يعيشا طويلاً. وكانت أسعد الساعات إذ ترشح ابنه في الانتخابات الأخيرة وكاد ينجح، وإذ دخل معترك الصحافة،

كما دخلها جده وأبوه قبله. كان دائم الاعتـزاز بالقلم. كـان يقول إن أهم مـا ستتركـه عائلة تشرشل هو كتاباتها، لا أعمـالها السيـاسية. كـان الصحافي دائمـاً عنده أهم من السياسي. وكان قلمه ومفرداته الفنية وأسلوبه القريب من أسلوب أبيه، رأسمالـه الذي لا ينضب.

وقد لا يكون هذا سجل أعمال رجل فـاشل. إلا أن التـاريخ، قبـل أن يُنصف، قد يكتب لفتـرة وجيزة: «رانـدولف تشرشل، ١٩١١ ـ ١٩٦٨، ابن فـاشل لأب عظيم». وفي ذلـك بعض الظلم.

لندن ـ (١٩٦٨/٦/١٦)


اسيا



دموع بوذا

القادم من شرق جديد الى شرق عتيق لا بد من أن يحمل في راسه الف هـاجس عن عالم يعبق بـالغموض والسحـر والبخور، كمـا يعبق بعطور غابات وجزر ونساء، طالما رسمت علامات استفهام كثيرة في مخيلته.

ولكن فيتنام فقد كانت شيئاً آخر.

أما الصحافي القادم من بيروت، فقد تعطلت حواسـه أمام صـور الحرب وأخبـار الحرب ومآسي الحرب. ولم يعد خيالـه يحمل من عطـر الشرق الا رائحة البـارود، ولا يسمع الا دوي القنابل وأزيز الرصاص.

ومن بانكوك حتى سايغون عاصمة فيتنام الجنوبية، كانت ساعة الطـيران التي حملتني من العاصمة التايلندية، قد أضافت إليّ هاجساً جديداً.

بانكوك، عاصمة البلد الوحيـد في جنوب شرق آسيـا الذي لم يعـرف الحرب ولم يعـرف الاستعمار في منطقة مزقتها الحروب، وأحرقتها موجات من الدخلاء من الخارج، كـانت تسبح بهدوء الف معبد بوذي مذهب، ومئات السياح يرفلون بالرخاء. وعلى بعد ساعة، في طائرة «الأوركيد الأزرق»، كانت عاصمة أخرى وعالـم آخر. وكان الهاجس الحقيقي.

بدت سايغون من الجو، والطائرة تحوم على علو منخفض، مدينة كبيرة تسبـح بين أنهـر صغيرة، تكسو الخضرة أراضيها. وبدا المطار، وكأنه مسرح حرب كان آخر صورة علقت في ذهني منه، ما عرفته عن طريق السينما.

وتذكرت الحرب من جديد.

ومن مطار «تان سانت نوت»، والأميـال العشرة التي تفصله عن سـايغون حتى الفنـدق المزدحم الذي نزلت فيه في قلب العاصمة، أصبـح منظر الجنـود والدبـابات والمتـاريس

والخنادق ونقاط التفتيش، منظراً عادياً مألوفاً.

وبدأت أبحث عن «باريس الشرق الأقصى».

ألقيت حقائبي في المستعمرة الصحافية التي نزلت فيها، ورميت نفسي في أول «بدي كاب»، وهي عبارة عن عربة تجرها دراجة عادية ـ ورحت أبحث عن حلم فرنسا في الهند الصينية وقد انهار بعد ١٢٠ سنة من اقتحامها هذا المعقل الكبير.

كانت سايغون كئيبة، وكنت قد عرفت باريس مرحة شابة تغطي احزانها بستار من السخرية واللامبالاة. أما سايغون فقد كان حزنها دفيناً، وكنت أنا القادم من العالم العربي، ربما، أكثر شعوراً من غيري بذلك. فهذه المدينة الحزينة، تبكي مجداً قديماً أضاعته في حرب متواصلة عمرها اليوم أكثر من عشرين سنة.

كان كل شيء في سايغون شرقي الأصالة وشرقي الهوى، وشرقي الأخلاق. كانت سايغون مدينة عريقة، ارستقراطية جميلة، عطرة، إنما مدينة شاخت من الاهمال، وعجزت من الهم، وثقل كاهلها من الألم.

وعند المساء، بعد أن تكون قد أمطرت السماء شيئاً من موسمها، وبرد الجو، كانت تمتلىء الشوارع بعشرات الباعة، وقد فرشوا بضاعتهم، وقد حوت من أدق الأشياء وأغلاها حتى أصغرها وأرخصها، وكأنها سوق نادر كبير.

أما المقاهي ـ مقاهي الرصيف ـ ذلك الاختراع الفرنسي، وإن تراجعت الى الداخل بعد حملات الارهاب، فقد حملت بقايا الأناقة الفرنسية والخدمة الباريسية، وامتلأت حتى الكرسي الأخير بأفواج من الزبائن الندماء.

ترّاس «الكونتيننتال»، الفندق العريق القديم بقناطره ومراوحه وسقفه العالي. وشراب «السيترون بريسيه» ـ أو عصير الليمون ـ مع البيرة هو القاسم المشترك بين الزبائن الصحافيين. وبار «الكارافيل» الفندق الحديث الأخير في سايغون، يجمع ما تبقى من الأربعمئة صحافي أو أكثر القادمين من مختلف أنحاء العالم والمنتشرين في فيتنام.

والنساء الفيتناميات، بأحجامهن الصغيرة، وشعرهن الطويل، ولباسهن الوطني الأنيق الفريد من نوعه في كل آسيا، هن ملح الأرض في شارع «تودو» ـ أو شارع الحرية ـ الشارع العريض الذي يفصل المدينة عن الكاتدرائية الكاثوليكية من صدر الساحة حتى نهر سايغون، وكأنه «شانزليزيه» الشرق باتساعه وجماله وأشجاره، وحتى نسائه.

والسير لا بد أن يذكرك ببيروت باضطرابه و «عجقته» وفوضاه. ولا جديد فيه الا ذاك العدد الضخم من الدراجات والموتوسيكلات.

والتفاهم مع سائقي التاكسي في سايغون أصعب كثيراً من التفاهم مع سائقي التاكسي في بيروت، هذا اذا وجدت سيارة فارغة، يقبل سائقها أن ينقلك الى المكان الذي تريده. أما لغة التخاطب، فهي شيء خليط من الفرنسية والانكليزية والفيتنامية، وربما العربية.

وفي الامتداد الآخر من سايغون، تقع «تشولون». وهي المدينة الصينية التي تعانق ضاحية العاصمة. وفي تشولون عالم آخر ليس فيه شيء من سحر باريس الشرق. بل هي قطعة من الصين، تغلي بالحياة، في وسط عالم آخر غريب، فالمليون صيني، أو أكثر الذين يعيشون في فيتنام، هم رجال الأعمال فيها، من باعة الكشة الى مديري المصارف، الى تجار الاستيراد. والصينيون هم عصب فيتنام الاقتصادي، ومصالحهم واحتكاراتهم تدخل في كل نشاط تجاري.

ومع الصينيين، هناك الاف الهنود الذين يشكلون معظم «وسطاء» أسواق النقد والسوق السوداء، وأصحاب المتاجر الصغيرة وباعة الأقمشة. والهنود هم «طبقة الصينيين» الوضيعة، والحرفيون الذين يعملون، بينما يكون أكثر الفيتناميين في «غفوة» صغيرة من حر بعد الظهر.

وعلى بعد حوالى ٢٠٠ ميل من سايغون، تقبع «دالات» في قمة الجبال، محاطة بغابات من الصنوبر تطل على بحيرات ترتفع أكثر من ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر.

و «دالات» هي مصدر خضار فيتنام. ففيها وعلى هضابها وسهولها يزرع كل نوع من الخضار والفاكهة في العالم؛ فتأكل منه فيتنام حتى تشبع. وهي مصيف الهاربين من ضغط الحياة البشرية في سايغون. فبيوتها وحدائقها هي شيء نادر في العالم.

أما «ناترانغ»، المدينة التي تسبح على شاطىء بحر الصين على بعد ٢٦٠ ميلاً من العاصمة، فرملها الأبيض وأشجار جوز الهند المنتشرة على الشاطىء تجعلها جنة اسيوية نادرة.

و «هوي» التي تقبع في شمال فيتنام الجنوبية بالقرب من خط العرض ١٧ الذي يفصل الشمال عن الجنوب، هي العاصمة الامبراطورية القديمة والمعقل البوذي، الذي انطلقت منه شرارات التمرد كلها عبر التاريخ الفيتنامي السياسي.

و «هوي» مدينة هادئة هدوء قبور الملوك الفخمة المنتشرة على مداخلها، بجامعتها الكبيرة وقصرها الامبراطوري الفخم الذي بني عام ١٨٠٤. وليس في «هوي» تاكسيات، أو حتى فنادق، سوى بيت حقير قديم، تحول الى فندق بحكم الظروف.

وفي جنوب «هوي» تقبع «دانانغ» أو «تورين» ـ كما سماها الفرنسيون ـ وهي تطل إذا كنت قادماً من الشمال على «ممر الغيوم»، وهو منظر قلما يوجد شبيه له في كل جنوب شرق آسيا.

فأجمل بلدان جنوب شرق آسيا، وأكثرها خصباً وغنى، تعيش اليوم مأساة انسانية كبيرة تنعكس على اعصاب العالم وفي ضميره.

فالارهاب والقتال والغارات ومنع التجول قد أحالت أرض السهوب الخضراء الى أرض من الدم والجماجم.

أما الحرب فكان لها حديث آخر.

سايغون - (١٩٦٦/٥/٩)

الحزن في كل مكان

كان الحزن أول مـا صفعني، أنا القـادم من العالم العـربي الى فيتنام. وجدت سايغون مدينة حزينة. فالحرب بكل مـآسيها، قـد جعلتها أكثـر استسلاماً للقدر، وأعمق احساساً بالتجربة التي تخوضها وحدها من دون ســائر مـدن جنوب شرق آسيا.

وسايغون، بالرغم من كل شيء، كانت تحاول أن تتمسك بأمجاد «باريس الشرق الاقصى» كما أرادها الفرنسيون أن تكون يوماً ما. إلا أن الحرب قد جعلت لها طعماً آخر!

لما وصلت سايغون في آذار عام ١٩٦٦، كان ضجيج الحرب يملأ جنوب شرق آسيا كلها، من كراتشي غرباً حتى مانيلا شرقاً. وفجأة شعرت، أنا القادم من بلد بعيد عن الحـرب، ومن جيل لم يعرف حقيقـة الصراع الذي عـاناه النـاس الذين شهـدوا ويلات الحـرب ومآسيها، أن الهدوء «الطبيعي» الذي استقبلتني به العاصمـة الفيتناميـة، كان يحمـل بذور أزمة على أبواب الانفجار عشتها في فيتنام أسابيع طويلة.

ضحك السيد بونيم، مدير المركز الصحافي الفيتنـامي في سايغـون، وهو يسلمني بطـاقة تسمح لي بالتجـول، وتمنحني جميع التسهيـلات الصحافيـة، لما حـدثته عن احســاسي بالهدوء الذي تعيشه سايغون.

وقال لي:

ـ لقد اتيت الى فيتنام في أكثر الأوقات حرجاً ودقة، بل ربما أكثرها نشاطاً. ولعل في هذا مكافأة لك على كونك أول صحافي من الشرق الأوسط كله (من الهنـد حتى المغرب) يـزور فيتنام!

ـ هل تعرف (تابع بونيم كلامه والابتسامة لم تفارق شفتيـه) ان بعد نصف ســاعة من وصولك الى المطار، وقع عليه هجوم من قبل الفيتكونغ قتل فيه أربعة أشخـاص، واعتبر «أوقح» هجوم تم في وضح النهار؟

قلت: لا، لم أعرف!

وكنت سعيداً جداً بجهلي!

وهكذا كانت بدايتي مع سايغون.

سايغون ليست هي الحرب، وليست هي فيتنام. سايغون مدخل الى كل شيء، بل الى اهم شيء مع الحرب: السيـاسة الفيتنـامية الـداخلية والصراع السيـاسي الذي يـدور اليوم هناك.

ولكن كل شيء في سايغـون يوحي بعـز أيام الاستعمـار الفرنسي: الشـوارع العريضـة،

تقاطع المدينة، اسماء الطرق، الهندسة الفرنسية الشرقية الطابع، الأبنية ذات السقوف العالية، الكتب والمجلات التي تباع، لهجة الناس، حديث سائق التاكسي، كل شيء. مجد أراد الفرنسيون أن تكون سايغون قبلته، ضاع.

ثم أتت الحرب، لتجعل من «الاضافات الأميركية» على العاصمة الفيتنامية نشازاً خارج اطارها كله.

فالناس لا تتحدث في سايغون عن الحرب. فهي تعيش الحرب منذ أكثر من ربع قرن. وكان الفيتناميون قد اعتادوا هذا الوضع حتى أصبح الحديث عن الحرب وكأنه شيء لا يعنيهم!

هذا الانطباع أوحاه لي نغوين فان تي (٢٩ سنة، متزوج وله ثلاثة أولاد) بعد أن أنقذني في مقهى عام من جهلي بالفيتنامية، وحدثني لنصف ساعة عن الحرب وعن بلاده، وعن الجيل الذي يعيش مأساة فيتنام كلها اليوم.

قال لي نغوين فان تي، وهو يكاد يأسرني بدماثة وتهذيب شرقيين بلغا حد الإحراج:

ـ أنت قادم من بلد لم أسمع به من قبل، وربما لم يعرف معنى الحرب. الحرب استمرار طبيعيبالنسبة لنا، والسلاح شيء عادي بأيدينا. أنا اليوم مدرس في قرية بالجنوب استعيدت من الفيتكونغ، أعلم أبناءها القراءة والكتابة. بعدها سأذهب لأحمل السلاح في مكان ما. فلا أستطيع أن أعطي وطني أكثر من حياتي!

كل واحد منا ـ والكلام ما زال لرفيقي الفيتنامي ـ من الرابعة عشر وما فوق يحارب في مكان ما في الشمال أو الجنوب. ففي العاصمة ـ كما ترى ـ لا يوجد غير الطلاب المجازين لأسباب دراسية فقط، وقد احترفوا صناعة التظاهرات وحمل اللافتات، وترف الغوغائية السياسية.

وابتسم فان تي ابتسامة ساخرة وببساطة متناهية، مد المواطن الفيتنامي يده الي، أنا الغريب القادم من بلد لم يسمع به، وصافحني، وكأنه أدرك أنني فهمت قصده. وقال لي:

أرجو أن ترى وتتعرف الى كل شيء في فيتنام. أهم من ذلك، أرجو أن نراك بعد الحرب!

واختفى الرفيق الفيتنامي!

وعلى بعد أمتار قليلة من المقهى الصغير الذي وقفت عنده، كانت أسواق الصينيين المفتوحة تمتد الى أبعد من حدود النظر على كل رصيف في المدينة. والصينيون في جنوب شرق آسيا، يمكن تشبيههم بلبنانيي المهاجر الافريقية، منهم أكثر من مليون في فيتنام وحدها. في يدهم التجارة والصناعة والمطاعم والفنادق والسوق السوداء.

والفيتناميون يكرهون الصينيين لهذه الأسباب ولأسباب تاريخية عميقة الجذور تعود الى أيام الاستعمار الصيني لفيتنام.

وحكومة الجنرالات الحالية حاولت أن تقضي على الاحتكارات الصينية ومضاربات الأسواق التي نتجت عن الحرب، فشكلت محاكم خاصة لوقف تلاعب التجار، لم تسفر الا عن إعدام تاجر صيني كبير رمياً بالرصاص في الساحة العامة. الأمر الذي أرعب الصينيين، وأوقف الحياة الاقتصادية إذ بدأ عدد كبير منهم بالرحيل وتهريب أموالهم الى هونغ كونغ.

والصينيون في فيتنام يعيشون في مأزق، فهم مواطنون فيتناميون حسب القانون، وهم صينيون حسب الواقع. وكان الرئيس السابق «ديم» قد فرض عليهم «المواطنية الفيتنامية» فرضاً منذ عشر سنوات، في محاولة لكسب ولائهم الدائم. ولم تسفر هذه المحاولة، الا عن مزيد من الازدواجية في حياتهم وحياة فيتنام!

غير أن الذكاء والكسل هما القاسم المشترك الأعظم بين كل الفيتناميين. حتى أن صديقا أميركياً قال لي: إن من حسن حظ دول جنوب شرق آسيا أن هناك حرباً في فيتنام. فلولا ذلك، لأكل الفيتناميون كل جيرانهم بذكائهم وعملهم والقليل من كسلهم. وربما كانوا قد قضوا على الأسطورة الصينية!

والسياسة الفيتنامية في الداخل تعيش في ميوعة دائمة، تقحم فيها الولايات المتحدة باستمرار مع فريق ضد آخر. وكلما سمع اطلاق رصاص في سايغون، ظن الناس انه انقلاب عسكري. فأسماء الجنرالات والكولونيلات ومن دونهم هي اليوم أهم شيء في مفكرة الصحافيين بانتظار ما سيكون.

أما حديث الديموقراطية، الدعوة لحكومة مدنية، شعار الانتخابات، العداء نحو العسكريين، تجمعات البوذيين، خوف الكاثوليك من ضياع نفوذهم، ضياع الاتصال بين العاصمة وباقي انحاء البلاد، الخلافات القبلية والطائفية التي تقف وراء كل شيء في فيتنام: فهي علامات الاستفهام الكثيرة التي ترتفع في وجه الباحث عن بداية الطريق بين كل هذه التشعبات.

وسألني صحافي أميركي، عاش سنوات طويلة في الشرق الأقصى، عن المدة التي سأقضيها في فيتنام.

فقلت له: بضعة أسابيع.

فهز رأسه وابتسم وقال لي: يا زميلي، لكي تفهم ماذا يدور في هذا البلد، عليك أن تقضي إما عشرة أيام أو عشر سنوات. والا صعب عليك حل الكلمات المتقاطعة الكثيرة التي ستواجهها. والبداية أصعب من النهاية. حظ سعيد!

ورحت أطرق الأبواب الكثيرة في فيتنام، بحثاً عن بداية للغز المحير! والحر الاستوائي يلفح كل شيء. وفي اليوم التالي خرجت أول تظاهرة ضخمة ضد حكومة الجنرالات، ورفعت أول شعارات معادية لأميركا منذ بداية الوجود الأميركي في فيتنام. وكانت البداية!

سايغون - (١٩٦٦/٥/١٠)

■ «أنا لا افهم في السياسة»

عند وصولي الى سايغون في آذار عام ١٩٦٦، كانت الأزمة السياسية الفيتنامية في بدايتها، وقد بدأت تنحدر نحو انفجار حتمي. وكان صراع القوى في البلد الذي تمزقه الحرب قد بلغ مرحلة النضوج.

كان موعدي مع الجنرال نغوين كاوكي رئيس وزراء فيتنام الجنوبية في الساعة الثامنة صباحاً، وقد دعاني الى تناول طعام الافطار معه في مقر رئاسة الوزراء في شارع «ثونغ نات».

وفي الساعة الثامنة والنصف حطت طائرة هليكوبتر في حديقة المبنى، ونزل منها الجنرال كي، قادماً من منزله في مطار «تان سان نوت» في ضواحي سايغون، الذي يقيم فيه بصفته قائداً لسلاح الطيران الفيتنامي، من قبل أن يصبح رئيساً للوزراء.

والجنرال كي شاب في السادسة والثلاثين، أسمر اللون، نحيل القامة، له شاربان كثيفان، فيه سحر صبياني، ظاهر الأناقة في بزته المدنية الرمادية، وظاهر الاعتداد بهذه الأناقة الباريسية الطابع. ولعل أناقة الجنرال كي هي حديث «الصالونات» في سايغون كما أن جمال زوجته ـ التي تعد من حسان فيتنام ـ هو حديث آخر يملأ حلقات المجتمع في العاصمة الفيتنامية المتعبة من الحرب.

دخل رئيس الوزراء الفيتنامي الى غرفة المقابلة، حيث كان يتوسطها مائدة صغيرة لخمسة أشخاص، ومعه الجنرال نغوين هيوكو، نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع، والجنرال لي خانك حاكم سايغون العسكري وقائد سلاح البحرية. وكنت أنا في الغرفة مع نغوين نغو لين مدير وكالة الأنباء الفيتنامية، وصاحب الفضل في ترتيب هذه المقابلة.

قال لي الجنرال كي وهو يصافحني:

ـ لبنان... لبنان... لبنان، لعله لا يشاركنا ظروفنا الصعبة. أنا لا أعرف الكثير عن لبنان، سوى أن فرنسا كانت تحكمه!

وضحك الجنرال كي ونحن نجلس الى المائدة، وقال: لقد شاهدت حلماً قبل أن آتي الى هنا، هو عبارة عن «خناقة» كبيرة، وعراك بيني وبين رجل فرنسي طويل.

وابتسم العسكري الذي انقلب سياسياً ابتسامة عريضة، وأضاف: لعله يشبه ديغول!

وسألت الجنرال كي: ومن انتصر في الحلم؟

فأجاب وقد عرضت ابتسامته: أظنني أنا. إن ديغول لا يحبنا!

وتذكرت أن العمل الأول الذي قامت به حكومة الجنرال كي عندما تسلمت الحكم منذ أكثر من تسعة أشهر، هو قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا، بعد دعوة الجنرال ديغول الى حياد فيتنام. وكانت العلاقات قد بدأت تسوء منذ العام ١٩٦٣!.

وتطلع الجنرال كي إلى مرافقيه وقد غرقت الطاولة بوصلة من الضحك، وقال لي:

ـ أنت أول صحافي قادم من الشرق الأوسط أو من لبنان أقابله. لعل عندك أسئلة كثيرة!

وكان الجنرال كي يتحدث بانكليزية جيدة، يطعمها بألفاظ فرنسية قليلة بين الحين والآخر.

قلت لرئيس الوزراء الفيتنامي: سأبدأ حديثي بسؤال: الى أي حد ستستمر تصاعدية الحرب، وهل ما زلتم بحاجة الى المزيد من الجنود الأميركيين؟

استدار الجنرال كي نحو الجنرال كو نائبه ووزير الدفاع وقال لي: ما دام الشيوعيون والفيتكونغ قادرين على تسريب عدد كبير من الجنود بكل إمكاناتهم من طعام وسلاح ومؤن باستمرار الى فيتنام الجنوبية، فنحن بحاجة الى القوى العسكرية الأميركية. أما تصاعدية الحرب، فهي جزء من نضالنا ضد الشيوعية.

قلت: والوضع الداخلي، ألا يعرقل مسيرة الحرب؟

وكان الانفجار قد بدأ في «دانانغ» عاصمة القطاع الأول في الشمال، بتظاهرات بوذية معادية للحكومة، تطالب بسقوط كي، وبدستور وانتخابات ديموقراطية وحكومة مدنية.

فأجاب رئيس الوزراء بصعوبة: لا هذه أزمة داخلية!

ـ إذن ماذا تم في المحادثات التي أجريتها مع زعماء البوذيين خلال اتصالاتهم معك، وهم وراء التظاهرات التي جرت في سايغون أيضاً؟

ابتسم الجنرال كي وقال: إن الزعماء البوذيين يأتون اليّ دائماً. إننا على اتصال دائم. ثلاثة منهم جاؤوا لعندي ليقولوا لي: «اننا نحبك، ولكن نختلف». قلت لهم: «لا، اننا لا نختلف في الهدف، نختلف في الوسيلة. كلانا يريد نظاماً ديموقراطياً، وهذه الحكومة لا تسعى الى أن تطيل عمرها. اننا نريد أن نعود كجنود الى ثكناتنا. ولكن الخلافات لا تحل بالتظاهرات التي تحرج الحكومة وتقلق الاستقرار في البلاد. التظاهرات شيء لا أستطيع أن أقبل به».

قلت له: وهل قبلت بمبدأ الانتخابات؟

ـ نعم، أنا أريد أن تتم انتخابات ديموقراطية، إنما في الظروف السياسية المناسبة، وليس على حساب استقرار فيتنام وحربنا ضد الشيوعية.

ـ وهل ستؤلف حزباً، وتخوض الانتخابات على أساسه، أم ستنضم الى أحد الأحزاب الحالية؟

ابتسم الجنرال كي وكأنه أحرج بالسؤال وقال بصبيانية محببة: لن أؤلف حزباً ولن أكون عضواً في حزب، كما انني لن أخوض الانتخابات. أنا شاب لا أفهم في السياسة، واحتاج الى الكثير حتى اتعلم!

ـ وماذا فعلتم لاعادة سيطرة الحكومة على الوضع في البلاد؟

ـ لقد نقلنا الموظفين المسؤولين عن تشجيع التظاهرات، كما اننا نحاول أن نوصل الحقائق الى الشعب في «دانانغ» و «هوي» فإن أكثره مُضَلَّل.

رد رئيس الوزراء على سؤالي بعنف ظاهر، ثم استرد أنفاسه واستطرد قائلاً: انا أفهم أن يتظاهر المدنيون، أما العسكريون فلن أسمح لهم بذلك. على العسكريين أن يطيعوا أوامر الحكومة، أو يقوموا بانقلاب عليها!

ـ ما رأيك بموقف حكومة الولايات المتحدة، من أنها ستقبل بنتائج الانتخابات في فيتنام الجنوبية، حتى ولو نجح فيها الشيوعيون؟

تطلع اليّ الجنرال كي، وكأنه كان يتوقع سؤالي، وقال: تستطيع واشنطن أن تقبل أو ترفض ما تشاء، أما نحن فلن نقبل الشيوعيين أبداً. الحزب الشيوعي ممنوع في فيتنام. وأكثرية شعبنا ضد الشيوعية. ونحن مع ما ستقرره أكثرية هذا الشعب. إن شعب فيتنام سيمنعهم.

ـ وكيف تستطيع أن تجري انتخابات والبلاد في حالة حرب؟

وقبل أن أنهي سؤالي، التفت الجنرال كي الى نائبه على يساره وتحدث بالفيتنامية قليلاً، ثم تطلع اليّ وكأنه يستطرد، وقال: لنكن واقعيين. إن إجراء الانتخابات يتوقف على نجاح العمليات العسكرية. إذا استطعنا أن نسيطر على ثمانين بالمئة من البلاد قبل عام ١٩٦٧، أجرينا الانتخابات. إن هناك اليوم عشرة ملايين نسمة تحت سيطرة الحكومة الفعلية، من أصل ثلاثة عشر مليون نسمة وهذا رقم مشجع. وأنا متفائل من مستوى الحملات العسكرية الحالية ونجاحها.

ـ هل تعتقدون فعلاً بأنكم ستنتصرون على الفيتكونغ؟

ـ طبعاً!

قالها الجنرال، وبتر السؤال باقتضاب.

وكيف ترى نفسك بالنسبة الى كل ما يدور حولك ويحيط بك. هذا سؤال عام، ويهمني أن أعرف جوابك!

ابتسم رئيس الوزراء ـ وكأن الابتسامة قد أصبحت عادة ـ وقال:

ـ أنا اليوم مسؤول عن مصير بلدي، ولن أضحي أو اتساهل بهذا المصير. أنا على استعداد أن أسمع آراء كل الفئات وكل الناس ولكن لن أسمح بأن أجَرَّ الى معارك جانبية، بينما المعركة الأساسية هي ضد الشيوعيين. أما أنا كعسكري، فطموحي أن أعود طياراً كما كنت الى سربي في سلاح الطيران.

أما الادارة العسكرية الحاكمة ـ والكلام ما زال للجنرال كي ـ فهي أن تسلّم البلاد الى

حكومة ديموقراطية حرة، وأن نعود الى تكناتنا. إن فيتنام قد ضحت بالكثير في السنتين الاخيرتين. لذلك فإن عليها أن تنتصر هذه المرة على الخطر الشيوعي ـ الداخلي والخارجي ـ وتصمد ضده. لذلك فمن واجبنا توعية هذا الشعب حتى يحقق آماله.

وكان طعام الافطار قد قارب على نهايته، والساعة قد تعدت العاشرة. وقال الجنرال كي، وكأنه يعتذر: إنها «ترويقة» اميركية وأنا لا أحبه. فأنا عادة أتناول حساء فيتنامياً في بيتي، وهذا طعام الافطار عندنا.

وعندما جاء دور الفاكهة، تطلع رئيس الوزراء الى ساعته، وسأل الجنرال كو عن موعد اجتماع مجلس الوزراء. فرد وزير الدفاع بأنه في العاشرة.

وعندئذ وقف الجنرال كي، ومد يده يصافحني وهو يقول: لعل القراء العرب يدركون أن فيتنام ليست بلداً بعيداً كثيراً عن اهتمامهم، أرجو أن أراك وقد انتهت الحرب!

وخرج الجنرال كي مع مرافقيه ولم يبق في الغرفة الا الشعور بأن الحديث مع رئيس الوزراء في المدينة التي تعانق خط الاستواء لم يكن الا المدخل الى كل ما في عالم الاستواء من مفاجآت وخبايا!

سايغون ـ (١٩٦٦/٥/١١)

لابس المسوح الصفراء

من هـو الرجـل الأصلع الصـامت، صاحب العينـين الكبيرتـين، ولابس المسوح البوذية الصفراء؟

في الأيـام العصيبة التي عـاشتها في الشتـاء الماضي وتعيشهـا سـايغـون الآن، يطـرح الثلاثمئة صحافي الذين يحصون أنفاس العاصمة الفيتنامية دقيقة بدقيقة، هذا السؤال في بحثهم المضني عن شخصية الراهب البوذي «تيتش تري كوانغ».

إنما يبقى السؤال ناقصاً من دون الرجـل الخفي نفسه، ومن دون البحث عن الغـايات البـوذية الكـامنة وراء الصراع العنيف الـذي يمـزق فيتنـام من «هـوي» شمـالاً حتى «دالات» جنوباً.

البـوذيون، هـم القـوى السياسيـة الـوحيـدة المنظمـة في فيتنـام الجنـوبيـة الى جـانب الشيوعيين. والبوذيون لا يحبون حكومة الجنرال كاوكي ولا أية حكومة أخرى. فبعد أن اسقطـوا نظام حكم نغـودين ديم عام ١٩٦٣، سكـروا بهـذا النجـاح وأصبحـوا عـلى استعداد للاطاحة بأية حكومة لا تأخذ بآرائهم.

على هذا الأساس وقع الجنرال كي وحكومته ضحية اللعبة البوذية التي خطط لها تـري كوانغ من وراء جدران معبد «تو دام» العالية في «هوي».

لقد ابلغ تري كوانغ حكومة سايغون العسكرية انه لا يوافق على قرارها بعـزل الجنرال تي البوذي من قيادة القطاع العكسري الاول في شمال فيتنام الجنوبية. وكان قد اخاف نفوذه وشعبيته الواسعة الجنرال كي وحكومته في العاصمة، كما أزعجها تجاهلـه للكثير من أوامرها وتعليماتها.

وعندما عزل الجنرال تي، وجد البوذيون أنه أصبح لديهم قضية سرعان مـا توسعت الى حركة سياسية ووطنية.

وانفجرت التظاهرات في «هوي» و «دانانغ» واجتاحت المناطق البوذية كلهـا حتى وصلت الى سايغون بأعنف أشكالها في عيد الملك «هنغ فونغ» في ٣١ آذار عام ١٩٦٦، وهو عيد وطني، تحتفـل فيه فيتنـام بمؤسس وباني الـدولة والأمـة الفيتناميـة المعروفـة بشكلها الحالي.

وإذا بالقضية قد أصبحت حركة تطالب بحكومة مدنية، وبـانتخابـات نيابيـة، وبشرعية برلمانيـة، وبمجلس ممثل للشعب. وتحـولت القضية الى مـوجة عنف معـادية للسيـاسة الأمـيركية في فيتنـام، ولوجـود الولايـات المتحدة العسكـري والسياسي في الجمهـوريـة الفيتنامية. واذا بالتظاهرات تخرج بلافتات معادية لاميركا، لأول مـرة منذ سقـوط حكم الرئيس ديم عام ١٩٦٣.

«نريد أصدقاء اميركيين، لا أسياداً أميركيين».

بهذا الشعار الذي طرحه المتظاهرون البوذيون، بدأ المأزق الأميركي في فيتنام. فمنذ الانقلاب على ديم ومقتله، والأميركيون ينتظرون ظهور زعيم يستحق تأييدهم وقيام حكومة تؤمن الاستقرار في البلاد، مما يفتح الباب لاستمرار الحرب ضد الفيتكونغ، في ظل نظام له من «الشرعية» ما يشفع به.

وفي غياب الانتخابات التي نصت عليها اتفاقية جنيف عام ١٩٥٤ والتي لم تعقد لا في فيتنام الشمالية ولا في فيتنام الجنوبية، الى جانب غياب رأي عام قادر على ابراز رجل واحد، يستطيع أن يقنع الفيتناميين ـ في الداخل والخارج أنه يمثلهم ويمثل رغباتهم ـ يبقى الفيتكونغ الفئة الوحيدة المنظمة في البلاد.

حتى خرج تري كوانغ والبوذيون، فطرحت علامات الاستفهام في سماء فيتنام الجنوبية عنه.

ـ كان تري كوانغ الوسيلة التي اسقطت أربع حكومات في أقل من سنتين ونصف السنة. فمن الواضح اذن، أنه يريد الآن شيئاً أكثر من أن يترك في معبده يصلي ويتعبد بهدوء.

ـ هل يخدم تري كوانغ الفيتكونغ؟ هل يقوم بمحاولة لاخراج الأميركيين من فيتنام؟ هل يسعى الى الحفاظ على مصالح البوذيين عن طريق الاتفاق مع «جبهة التحرير الوطني في فيتنام الجنوبية» وهي الواجهة السياسية للفيتكونغ، وهانوي؟ أم هو مجرد وطني متطرف؟

حملت هذه الأسئلة لوحدي، أنا العربي القادم من بلد بعيد، ورحت أسعى وراء الكاهن الأصفر القابع في زاوية من زوايا معبد بوذي في تشولون.

كانت الساعة التاسعة ليلاً عندما بدأ الناس يتجمعون في ساحة المعبد البوذي في تشولون، وكان خطيب الليلة الراهب البوذي هوجي ياك، الذي يعتبر الرجل الثاني بعد تري كوانغ. وكانت الساحة تضم حوالي الأربعة آلاف شخص، اكثرهم من النساء والأولاد. وكان خطاب هوجي ياك مليئاً بالسخرية، حتى أن رفيقي الفيتنامي الذي كان يحاول أن يقوم بترجمة بعض مقاطعه الي بين حين وآخر، كان يغرق في وصلات طويلة من الضحك، يفشل أثناءها في ترجمة أي شيء.

وفجأة انقطع التيار الكهربائي، والزعيم البوذي ما زال في منتصف خطابه. وساد الجماهير جو من السكون، سرعان ما انقلب الى هياج عارم. وانتظر الناس بعض الوقت حتى يعود التيار الكهربائي، إلا أن بداية تجمع راحت تشق الطريق من الساحة الى الشارع العريض. وانطلق الناس في تظاهرة يبدو أنها كانت معدة سلفاً. وارتفعت اللافتات بقدرة قادر. وتساءلنا: من قطع التيار الكهربائي يا ترى: البوذيون أم أنصار الحكومة؟

ونزل هوجي ياك من على المنصة وقد أحاط به عدد من فتيان الكشافة البوذية. وقلت لرفيقي الفيتنامي: أسأله الى أين ذاهب؟

واذا بجواب هوجي ياك من قبل أن يسأله رفيقي: إلى «دي تان».

وفهمت أن «دي تان» هي المستشفى الذي ينزل فيها تري كوانغ. وكانت المرة الأولى التي اسمع فيها بأن الزعيم البوذي نزيل مستشفى للأمراض والمعالجة النسائية!

وعندما وصل هوجي ياك الى المستشفى، كنت انا في «السايكلو» ـ وهي دراجة نارية ذات مقعد أمامي واحد تستعمل كتاكسي في سايغون ـ الذي كان يسير وراء سيارة هوجي ياك. وعند مدخل «دي تان» القذر، قلت لهوجي ياك، بأنني صحافي من الشرق الأوسط، أريد أن اقابل تري كوانغ وأنني لن أطيل الحديث معه.

وتركني هوجي ياك على مدخل المستشفى النسائي، ليعود بعد نصف ساعة، ويقول لي، أن اعود في اليوم التالي الساعة السابعة والنصف صباحاً، لأن تري كوانغ متعب الليلة!

وفي صباح اليوم التالي كنت على باب المستشفى عند الساعة السابعة. وبعد حوار دام أكثر من نصف ساعة بيني وبين الواقفين على الباب، استعملت فيه كافة اللغات الحية والميتة، والتي أجيدها ولا أجيدها، توصلت الى إفهامهم بأنني على موعد مع تري كوانغ، بعد أن نفى الكل وجوده في المستشفى!

وفي زحمة الحوار، الذي كان قد احتدم بيننا، مر أحد الكهنة البوذيين. فهرعت اليه وحاولت أن أقول له بأنني على موعد مع تري كوانغ. ويبدو أنه من لفظي للإسم فهم قصدي. وبعد أن أبرزت له بطاقتي الصحافية، قادني الى غرفة صغيرة في آخر الممر.

كان تري كوانغ جالساً على كرسي وأمامه عدد من الصحف. كان شكله مدهشاً. رجل صغير الجثة كبير الرأس، حليقه، في لباسه البرتقالي يبدو وكأنه قد قام لتوه من النوم. الفراش الى جانبه كان ما زال غير ممهد. وبدأت التحيات البوذية والانحناءات الكثيرة بين رفيقي الفيتنامي وثلاثة من الكهان الذين كانوا في الغرفة، انتهت بخروجهم من الغرفة.

مد تري كوانغ يده وصافحني وهو يبتسم. وجلست الى جانبه. وعلى الطاولة الصغيرة التي كانت تفصل بيننا كانت زجاجات الأدوية تملأها، وأكداس من علب الشوكولاته. وعرفت أن تري كوانغ مصاب بالربو، وأنه نزيل هذا المستشفى للراحة والحماية وللابتعاد عن فضول الكثيرين وتطفلهم.

سألت تري كوانغ عن رأيه في المؤتمر الصحافي الذي عقده الجنرال كي قبل يوم واحد من لقائي معه، وقال أن دانانغ قد سقطت في أيدي الشيوعيين، وأن محافظ دانانغ الدكتور مان يجب أن يعدم لأنه عصى أوامر الحكومة.

رد تري كوانغ، وقال: طبعاً ان فيتنام الوسطى لم تسقط بأيدي الشيوعيين. ان الرد على ذلك لا يحتاج الى عصبية. ان أهالي القطاع الأول في فيتنام يشعرون بأن الحكومة تحاول عزلهم عن باقي فيتنام وارهابهم. إن طائرات الجنرال كي تحلق فوق رؤوسهم

وجيوشه تبحث عن طائرات أميركية لتنقلها الى «دانانغ» و «هوي» لقمع حركة المعارضة، وخطوط الهاتف مقطوعة. ماذا تنتظر أكثر من ذلك؟

سألته: هل تريد أن تبدأ مفاوضات مع الفيتكونغ لانهاء الحرب؟

ـ إن أي مفاوضات مع الفيتكونغ، يجب أن تكون نتيجة انتصار حربي على الشيوعيين وإلا فلا معنى لها. إن السلام في فيتنام لا يتحقق إلا عن طريق احراز انتصار قوي يبرر عملية التفاوض كلها.

وتابعنا الحديث.

ـ وكيف تريد الحكومة المدنية أن تكون مثلاً؟

ـ هذا ليس لي حتى أقرره. إن شكل الحكومة المدنية القادمة مرهون بنتيجة الانتخابات التي سيقررها الشعب.

ـ وهل ستقبل بدخول الشيوعيين اليها لو فازوا بالانتخابات؟

حتماً لا. إن الشيوعيين لا يستطيعون التعاون مع أي حزب وطني آخر، فنحن قد تعلمنا من تجربتين في جنوب شرق آسيا الكثير عن الأسلوب الشيوعي في التسلل الى الحكم.

سألته: وحكومة الجنرال كي الى متى ستبقى في الحكم؟

فأجاب: كثيرون يريدون ذهابها الآن. إلا انها وعدت بتنفيذ الانتخابات في غضون خمسة أشهر كحد أقصى. ونحن لا يهمنا من بقائها أو زوالها الا تنفيذ هذا التعهد، إلا اننا يجب أن نكون على حذر اذا حاولت أن تطيل عمرها أكثر مما يجب!

ـ هل تريد انسحاب القوات الأميركية من فيتنام؟

ـ طبعاً لا. انني أخاف من انسحاب القوات الأميركية. إنما لا أريد أن تساعد القوات الأميركية حكومة الجنرال كي وقواته بتوفير ناقلات لجنوده لحصار دانانغ. انني اعتقد أن مهمة القوات الأميركية هنا محاربة الشيوعيين، وليس محاربة الشعب الفيتنامي!

وخرجت من عند تري كوانغ، والسؤال الأول المطروح: من هو هذا الرجل الأصلع الصامت، صاحب العينين الكبيرتين، وحامل المسوح البوذية الصفراء؟

وإذا بالجواب، أكثر غموضاً، وأعمق صعوبة!

سايغون ـ (١٢/٥/١٩٦٦)

■ على صدر الخبير القديم

كان لا بد للسياسة في فيتنام من أن ترتاح على صدر خبير قديم في لعبة الكلمات المتقاطعة الصعبة، وقد أصبحت كالمرأة لها أكثر من وجه، وتحتاج الى اكثر من شخص ليجلي قناعها.

وقد كان الانتقال مريحاً، من بعد المدخل الحزين الى سايغون، ومن بعد سحر الجنرال كاوكي رئيس الوزراء، ودهاء فارس البوذيين الأول، تري كوانغ.

أما الوجه الآخر لما يحدث في فيتنام، فقد القى الضوء عليه الدكتور «تران فان دو» وزير خارجية فيتنام الجنوبية، اليد الخبيرة القوية بأصول وفروع اللعبة الفيتنامية كلها.

ارتاح الرجل الكبير النحيل على كرسي في مكتبه، وترك وراءه ستين سنة من العمر والخبرة، وقد اختطفته السياسة من مزاولة الطب في سايغون، ودفعته الى الكرسي الأول - غير المتعب - في مسرح الأحداث الفيتنامية.

«السياسة في فيتنام تشغل الكبير والصغير».

قالها لي وزير الخارجية العجوز ولكن، تابع الدكتور دو كلامه: سرعان ما تصبح شغل الانسان الشاغل. درست الطب في جامعة باريس، وعدت الى بلادي حيث عملت طبيباً حتى عام ١٩٥٤، وبعدها تفرغت للسياسة والأمور الاجتماعية.

– وماذا حدث عام ١٩٥٤ حتى خطفتك السياسة من الطب؟ سألت وزير الخارجية.

– عام ١٩٥٤ عينت وزيراً للخارجية لأول مرة، وراست وفد فيتنام الجنوبية الى مؤتمر جنيف. واستقلت بعد عشرة أشهر.

وتطلع الدكتور دو في خريطة كبيرة أمامه وتابع كلامه:

اعتقد أن مشكلة فيتنام غير معروفة في الخارج، وفي الشرق الأوسط بالذات. إننا دولة لم يمض على استقلالنا اكثر من خمسة عشر عاماً، ونحن دولة صغيرة. فحتى نخلق سلكاً خارجياً نحتاج الى كفاءات مفقودة، والى امكانات غير موجودة، بالاضافة الى وضعنا الحالي.

– وما هي قيود وضعكم الحالي؟

– أهم هذه القيود اننا ممثلون في ٢٦ دولة فقط، ليس على مستوى سفراء في أكثرها. في الشرق الأوسط تمثيلنا الوحيد في انقره، وقد بدأنا بفتح مكتب للمعلومات في بيروت. لنا ستة أو سبعة سفراء فقط. واحد في الولايات المتحدة يمثلنا في البرازيل والارجنتين. وآخر في المغرب يمثلنا في تونس ودول أفريقيا الغربية الناطقة بالفرنسية وواحد في بون يمثلنا في الدول السكندينافية.

وتابع وزير الخارجية الفيتنامية كلامه قائلاً: ثم أننا لسنا عضواً في منظمة الأمم المتحدة

ووكالاتها المختلفة. ونحن كدولة مجزاة ـ كألمانيا وكوريا ـ لا يحق لنا الانضمام الى الأمم المتحدة بالرغم من رغبتنا الكبيرة في ذلك، إلا أنه لنا مراقب دائم في نيويورك.

ـ هل تتعارض سياستكم الخارجية في بعض الأحيان مع السياسة الأميركية في العالم؟ سألت الدكتور دو بحذر.

ـ لا أبداً، قال وزير الخارجية. إننا نعمل باتفاق وتعاون تامين مع واشنطن. ونحن في الخارجية هنا على اطلاع تام على الأحوال السياسية والعسكرية في البلاد، والتي هي بدورها ترسم الخطوط العريضة لسياستنا.

ـ حدثني عن الحرب، كسياسي قديم، ورجل يعرف الكثير عما يجري. هل من الممكن أن تربحوا الحرب حقاً؟

ـ تطلع الدكتور الى اصابعه النحيلة ثم الى خريطة كبيرة لفيتنام أمامه، وقال لي:

ـ صدقني يا بني أن فيتنام وقد صار لها أكثر من عشرين سنة وهي تحارب، قادرة على الاستمرار في الحرب. لقد اعتدنا الأزمات والحرب. ولكن هذه الحرب ليست عادية بالمعنيين السياسي والعسكري. إنها حرب تخريب وحرب عصابات وحرب شعارات سياسية. العدو في كل مكان. ستكون حرباً طويلة. إنها كوعاء ماء ينقط فوق طاولة. كلما مسحت الطاولة نزلت نقطة ماء جديدة. فأنت لا تعرف متى سينقطع تقاطر الماء ما دمت لا تعرف اذا كان الوعاء فارغاً أم لا. وهكذا هي الحرب في فيتنام اليوم.

واستراح وزير الخارجية العجوز على كرسيه قليلاً واخرج سيكارة وأشعلها استعداداً لمتابعة حديثه.

ـ هذه ليست حرباً أهلية كما يحاولون أن يصوروها في الخارج. صحيح أنها حرب بين الفيتناميين وهم شعب واحد أصلاً، إنما هي حرب بين دولتين مستقلتين اعترف بهما مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤. فيتنام الشمالية، وفيتنام الجنوبية، وخط العرض ١٧ الفاصل بينهما. ان فيتنام الشمالية تشن حرباً تخريبية على دولة فيتنام الجنوبية المستقلة، والمعترف باستقلالها.

انها حرب خفية. حرب تسلل وليست حرباً واضحة، كحرب كوريا مثلاً حيث جرى اعتداء واضح قطعت فيه القوات الكورية الشمالية والصينية خط العرض ٣٨ الى كوريا الجنوبية. إنها حرب من طراز جديد. هناك اناسٌ في الخارج ينادون بأن يترك الفيتناميون لشأنهم. لا. إنه اعتداء. ولذلك فنحن نريد من أصدقائنا الأميركيين والكوريين والاستراليين والنيوزيلنديين أن يدافعوا عنا كما دافعوا عن كوريا.

وتابع وزير الخارجية الفيتنامية قائلاً:

ـ في الخارج يتظاهرون عن نية حسنة، من دون أن يعرفوا أنها حرب تشنها دولة على دولة. لقد حاربنا الشيوعية أكثر من ربع قرن. إن فيتنام الجنوبية لا تريد الشيوعية،

وهي تـدافع عن حـريتها. إنهـا حريـة الصغير ضـد الوحش الكبـير، وهي بحاجـة الى مساعدة كل الأصدقاء في العالم.

أما إذا سقطت فيتنام بأيدي الشيوعية، فمعنـاه أننـا نعيد مـأساة هتلـر وميونيـخ عام ١٩٣٨ إذا سكتت دول العـالم على ذلـك. إنها نهـاية استقـلال الدول الحـرة الصغيرة. وانتصار لهتلر الجديد ـ الشيوعية والصين. وعلى العالم أن يفهم هذا.

ـ وماذا تريدون أنتم بالذات اذا انتهت الحرب؟

ـ لا شيء. إننا نريد أن نعيش بسلام مع هانوي. لا مطامع اقليمية أو توسعية لنا. إننا سنحترم استقلال فيتنام الشمالية ونقيم معها علاقات تجارية ونتبادل المنافع؛ تماماً كما العـلاقات التي هي بـين المانيـا الغربيـة والمانيـا الشرقية أو كـوريا الجنـوبية وكـوريا الشمالية. إننا نبحث عن الحرية والاستقلال بسلام، ومن دون أن نتنازل للشيوعية، إن فيتنام الجنوبية لترفض الشيوعية.

وكـان الوزيـر الكهل قـد تعب كثيراً وقـد بات لـه في هذا المنصب منـذ شباط عـام ١٩٦٥، بعد عـزلة عن الـوزارات استمرت سنـوات. فكان لا بـد من تحية وداع عـلى الباب، وكلمـة عاجلة عن لبنان والشرق الأوسط.

ولعل أهم ما في الوزير الفيتنامي أنه يعرف أكثر مما يقول، كرجل دولـة فيتنامي مـارس لعبة الكلمات المتقاطعة زمناً طويلاً!

سايغون ـ (١٣/٥/١٩٦٦)

سيف ديموقليس

من دانانغ البلدة القابعة في قلب الاضطرابات السياسية التي تعصف بفيتنام الجنوبية، واجهت حكومة سايغون العسكرية التحدي الأهم ضدها. ومن هذه البلدة، يستمر «سيف ديموقليس» مسلّطاً على رقاب مجلس الجنرالات وحكومة الجنرال كاوكي، وهي تحاول أن تقفز من فوق حبال السياسة الفيتنامية المتشعبة، في محاولة أخيرة، لتفادي قفزة الموت.

ودانانغ ـ أو «تورين» كما سماها الفرنسيون خلال قرن من استعمارهم للهند الصينية ـ قد استعادت اسمها الفيتنامي، من دون أن تستعيد ملامح المدينة الفيتنامية. بقيت وكأنها مدينة فرنسية صغيرة في الريف، تسبح على شاطىء بحر الصين في شمال فيتنام الجنوبية، أو ربما على شواطىء المتوسط في الجنوب الفرنسي.

دانانغ اليوم أكبر مدينة في الشمال. وهي عاصمة ومركز قيادة القطاع العسكري الأول. (فيتنام الجنوبية مقسمة الى اربعة قطاعات عسكرية). وهي منطقة حساسة، إذ أن فيها اكبر قاعدة لمشاة البحرية الأميركية في جنوب شرق آسيا، وقبالتها يقف الأسطول الأميركي السابع، وعلى شواطئها تتجمع السفن الشراعية الصغيرة القادمة من فيتنام الشمالية حاملة المؤن والعتاد الى ثوار الفيتكونغ لتشكل «طريق هو شي منه البحري».

وفي طائرة الشحن العسكرية التي اقلّتني، مع سبعة صحافيين آخرين، من سايغون الى دانانغ ـ وكانت التظاهرات في المدينة الشمالية لم تتخذ بعد طابع العنف، ولا طابع العداء للأميركيين ـ واجهت انا الذي لم يعرف معنى الطيران بطائرة عسكرية من قبل، التحدي الأول للخوف.

تطلع اليّ قائد الطائرة وهي تستعد للاقلاع من مطار «تان سان نوث» في سايغون، والقى بين ذراعي مظلة واقية، وقال لي:

ـ لن أعلمك على استعمال هذه المظلة، لأنه اذا سقطت هذه الطائرة، فلن يكون عندك الوقت الكافي لاستعمال المظلة، ولن تتذكر حتى كيفية استعمالها. إنما التعليمات تقول بأنني يجب أن اعطيك مظلة!

وابتسم قائد الطائرة وخرج.

وتطلعت الى وجوه باقي زملائي الصحافيين، فوجدتها خالية من أي انفعال. وأدركت بأنهم مروا بهذه التجربة من قبل. ولم يعد الخوف عندهم أكثر من استسلام عادي للقدر.

عندما وصلت دانانغ، كان مد التظاهرات الأولى قد خرج الى الشوارع. وكانت شعبية الجنرال ثي، قائد القطاع العسكري الأول، الذي عزله الجنرال كاوكي، ـ وارتكب بذلك

الخطأ الأول المميت ـ قد اجتاحت القطاع العسكري كله جنوب خط العرض ١٧. وأصبحت «هوي» العاصمة الامبراطورية القديمة، والمركز الثقافي الأول للبوذيين في فيتنام، تنتظر زمام المبادرة من دانانغ في أية لحظة.

وارتفع صوت الجنرال ثي الذي أقيل، مطالباً بمطالب البوذيين ذاتها: حكومة مدنية، وانتخابات فورية وديموقراطية صحيحة.

وفشلت مساعي الادارة العسكرية والجنرالات في العاصمة في اعادة الجنرال ثي الى مركزه لتهدئة الأوضاع، كما فشلت الوعود بتعيينه في منصب آخر. وفشل القائد الجديد المعين في استلام وحداته.

وفي اليوم التالي لوصولي الى دانانغ، كانت التظاهرات المعادية للحكومة قد تحولت الى مواقف مسلحة، واجلي العسكريون والمدنيون الأميركيون الى داخل القاعدة العسكرية الأميركية الجوية ومنعوا من التجول.

وبعد الظهر من اليوم نفسه، وقف الجنرال كاوكي ليعلن في مؤتمر صحافي في سايغون سقوط دانانغ بأيدي الشيوعيين، وأنه سيرسل قواته لتحريرها، وأن محافظ دانانغ، الدكتور نغوين فان مان (٣٧ سنة) الذي عينه هو في كانون الثاني عام ١٩٦٦، يجب أن يعدم، أو أن الحكومة يجب أن تسقط!

وهزت رعونة تصريح رئيس الوزراء فيتنام كلها.

طبعاً، لم تسقط دانانغ بأيدي الفيتكونغ، ولم يعدم محافظها، وحتى الآن لم تستقل حكومة الجنرال كي العسكرية في سايغون.

وطار كي الى دانانغ لاصلاح ما يمكن اصلاحه، ثم عاد فاشلاً. وفي اليوم التالي أرسل قواته المؤلفة من سلاح الطيران الموالي له بصفته قائده، ومشاة البحرية الى دانانغ. فاحتلت المطار وبقيت فيها، بينما حلقت الطائرات على علو منخفض فوق المدينة وقواتها المعارضة في استعراض عضلات واضح!

وخيم شبح الحرب الأهلية على دانانغ، وقد انقسمت القوات الفيتنامية بين مؤيد ومعارض للحكومة في سايغون. وبدأت وحدات صغيرة تنسحب تدريجياً من المطار لتنضم الى مقاومة المدينة، وتحفر الخنادق في الشوارع، وتقيم المتاريس على مفارق الطرق. وأصبح الغليان في المدينة يفوق حدود الاضطرابات العادية، وأصبح منع التجول هو الهدوء القسري الوحيد المفروض على المدينة. ولم يعد في شوارع دانانغ الا الصحافيين ـ بملابس مدنية ـ يتجولون وسط عداء ظاهر من السكان.

وفي اليوم الثالث لوصولي، وقد أصبح التنقل من مكان الى آخر في دانانغ مستحيلاً من دون سيارة «جيب» مدنية بالإيجار، هدأت الحالة بعض الشيء. ولكن «لجنة النضال» ـ كما سمت نفسها ـ التي تدير المعارضة في دانانغ، بكل ما تملك من قوات عسكرية

ودعم بوذي على الصعيد الشعبي، بقيادة المحافظ وبعض العسكريين، ما زالت مسيطرة على المدينة، في الوقت الذي أخذ الجنرال كي يسحب قواته شيئاً فشيئاً من المطار، ولكن ليس الى سايغون من حيث أتوا، إنما الى مكان خارج المدينة.

ومن المركز الصحافي في دانانغ، وهو عبارة عن مخيم عسكري لايواء الصحافيين، بدأت أبحث عن الرجل الذي طالب رئيس الوزراء برأسه. خطوط الهاتف مقطوعة، والخط الوحيد الذي يربط المركز الصحافي بالعالم، خط تليفوني عسكري مع سايغون ومع المطار. ومركز المحافظة بعيد، ولا أعرفه، وعداء السكان الحالي لا يسمح لا بالتجول ولا بالسؤال.

ولكن بداية الطريق كانت واضحة. في سيارة «الجيب» القديمة ـ لعلها من مخلفات حرب الهند الصينية الأولى ـ وعليها لافتة كبيرة مدهونة بالأسود ومكتوب عليها بالفيتنامية، «صحافة»، انطلقت مع زميل ياباني يحمل في عنقه ما لا يقل عن تسع آلات تصوير وآلة تسجيل، و «اختراعات» الكترونية صغيرة عجيبة غريبة.

وأمام باب المحافظة سألنا عن بيت الدكتور نغوين فان مان. وتحدث الزميل الياباني بالقليل الذي يعرفه بالفيتنامية، وتحدثت انا بالقليل الذي أعرفه بالفرنسية، حتى توصلنا الى فهم اتجاه البيت.

وبدأ البحث المرير عن بيت المحافظ في حر بعد الظهر القاتل. وبدلاً من أن نعثر على البيت عثرنا على العيادة التي اقفلها المحافظ منذ ثلاثة اشهر عندما تحول من طبيب الى سياسي.

ومن عند العيادة، انطلقنا برفقة شخص كان هناك يعرف البيت، حتى وصلنا الى المنزل الأبيض الصغير الذي يعيش فيه المحافظ. وساعة وصولنا، كان الدكتور مان خارجاً في طريقه الى مركز قيادة «لجنة النضال».

وعلى الباب، وكان زميلي الياباني ما زال في «الجيب» يحاول التقاط صور، قلت للدكتور مان وقد وقف أمام باب سيارته:

ـ ماذا تريد، وقد بدأت الحالة تهدأ نوعاً ما؟

ـ ماذا أريد؟ اننا نريد أن تستقيل الحكومة العسكرية وأن يتراجع الجنرال كي عن تصريحاته.

قلت: ولكن الجنرال كي يكاد أن يكون قد تراجع عن تصريحاته في أحاديث معينة في اليومين الماضيين؟

فأجاب الدكتور مان: هذا لا يكفي، نريد ان يستقيل كي، وأن يسحب قواته وأن يحقق مطالبنا قالها المحافظ بعصبية.

ـ واذا استقال الجنرال كي وسحب قواته ـ كما بدأ يفعل ـ ما هو البديل؟

ـ لا أعرف. المهم أن يسقط كي!

قلت: واذا عادت الحالة الى طبيعتها، هل يعود ولاؤكم للحكومة المركزية في سايغون؟

فأجاب المحافظ العصبي: لا، لا، لا ولاء عندنا للجنرال كي. عليه أن يذهب.

وركب الدكتور مان في سيارته. وانطلق بعيداً، وانتهى الحديث مع المحافظ.

وعادت التظاهرات في اليوم التالي تجتاح المدينة. وازداد الشعور المعادي للولايات المتحدة، عندما اعتدى المتظاهرون على صحافيين، واحد مصور، وآخر مندوب لإذاعة محلية. ولفّ دانانغ بعد ذلك هدوء مصطنع.

وقررت العودة بعد أربعة أيام الى سايغون. وفي صباح اليوم المقرر، نسف الفيتكونغ مطار العاصمة، وانقطعت المواصلات الوحيدة بين دانانغ وسايغون، وبقيت في دانانغ أربعة أيام أخرى انتظر الفرج.

وفي لحظة من لحظات هذا الانتظار الطويل سألت زميلاً فيتنامياً: هل تذكر من أين بدأت الأزمة كلها؟

تطلع اليّ الزميل الفيتنامي، وكأنه يتفحص ذاكرتي، وقال:

ـ من «هوي» العاصمة الامبراطورية والثقافية لكل فيتنام. من «هوي» بدأت الاضطرابات التي أطاحت بحكم ديم، ومن بعده بحكم الجنرال خانة، ثم برئيس الدولة فان خاك سو. أن الذي يبدأ عادة في «هوي» يكون كالوباء، يجتاح كل شيء. واليوم على الجنرال كي أن يصمد ضد هذا الوباء.

بقي أن يصل الوباء بكامل قوته الى سايغون!

سايغون ـ (١٤/٥/١٩٦٦)

مستودع الحقد

لم يكن جو الحرب الحقيقية الذي عشته في «بليكو» أكثر ارهاقاً من الجو السياسي الذي عشته في«دالات»، المدينة الأولى في أواسط فيتنام.
لقد بدت الحرب هذه وكأنها عمل روتيني عادي خال من الاثارة، أمام الهيجان السياسي الذي استقبلتني به دالات.

طرت من بليكو الى دالات، في تقدمي البطيء نحو سايغون منتظراً أي وسيلة من وسائل النقل، لتقلني الى مشارف العاصمة الفيتنامية، ما دام مطارها ما زال يحترق، وطيرانها المدني معطلاً عن العمل. ولما وصلت الى دالات، كانت حمى الاضطرابات السياسية، قد بلغتها. وبدأت عناوين الصحف تجتاح الأحداث التي تعاقبت عليها. وفي يوم وصولي انفجر «مستودع الحقد» ـ كما سماه زميل الماني ـ ضد حكومة كي ومجلس الجنرالات في سايغون.

كانت دالات تغلي في حر الظهيرة. وظلت تغلي حتى احترقت في المساء. ودالات هي مدينة الثقافة والتجارة في فيتنام الوسطى، والبلدة الثانية في القطاع العسكري الثاني، كما أنها «سوق الخضار» لفيتنام كلها ومركز الفاكهة الأول. ويحكم دالات امرأة، تحتل منصب المحافظ، اسمها «مدام نغوين هو»، وهي المرأة الوحيدة التي تتولى منصباً حكومياً عاماً في فيتنام.

ومن المعالم الأخرى التي تعتز بها دالات، هو وجود الكلية الحربية فيها. ويبدو أن للكلية الحربية في فيتنام دوراً آخر، غير تخريج الضباط والعسكريين عند كل دورة، بل تخريج اخصائيين في فن تنظيم التظاهرات!

ولما وصلت دالات، كان آمر الكلية الحربية ومديرها قد تولى مقاليد السلطة الفعلية في المدينة، وعزل المرأة ـ المحافظ، وكانت قد تركت مكتب المحاماة الأنيق الذي كانت تشغله قبل أشهر قليلة، وعادت مدام هو الى بيتها وزوجها!

وتولى الطلاب مقاليد السلطة الفعلية في المدينة. وخرجت التظاهرات الى الشوارع، لتغلق المحلات التجارية، وهي تحمل لافتات عديدة، أكثرها يشير الى الوجود العسكري الأميركي مثل: «نريد حلفاء لا حكاماً»، او «يعيش حاكم سايغون الأميركي»، أو «اميركا معنا أم ضدنا»، الى لافتة أخرى تقول، «التاريخ قد يعيد نفسه»!

وسلم مدير الكلية الحربية محطة الاذاعة في دالات الى الطلاب بمجرد أن تظاهروا حولها وطالبوا بها، من دون أية مقاومة أبداً. وأصبحت الاذاعة ميداناً مباحاً لمواهب الطلاب السياسية والشعرية والنثرية، حتى الفنية والغنائية!

وفجأة قررت حكومة سايغون أن تجرب قوتها. فأمرت البوليس وبعض قطعات الجيش التي ما زالت بإمرتها باستعادة محطة الاذاعة. والاذاعة في دالات تحتل الطابق الأخير

من مبنى فندق حديث. وعندما تقدمت الشرطة لاخراج الطلاب المعتصمين في الفندق والاذاعة، قررت حكومة الجنرال كي سحب أوامرها، ولكن الطلاب كانوا قد بدأوا في احراق الاذاعة والفندق معاً.

وهكذا، وأنا واقف على الرصيف المقابل، اندلعت النيران في الاذاعة وبدأت تلتهم المبنى كله، ورجال الشرطة والاطفاء يتفرجون من دون أن يفعلوا شيئاً، لأن لا أوامر عندهم. وكان هذا المشهد مجزرة مخيفة من الغباء السياسي النادر.

كان مشهد حريق الاذاعة في دالات نقطة فراق حاسمة بالنسبة لي. لقد ادركت أن أبعاد المأساة الفيتنامية هي من العمق والتعقيد، الى درجة يصعب فيها تمييز حقيقة الصراع الذي يدور في هذا البلد الممزق، وخصوصاً بالنسبة لنا: نحن في لبنان والعالم العربي، الذين لم نعرف معنى الحرب والدمار والموت والتخريب، كما عرفه جنوب شرق آسيا. إننا من طرف آخر من العالم.

وفي المساء وقف ثلاثة عشر طالباً في اجتماع جماهيري عام في ساحة دالات العامة، يعتذرون من زملائهم ومن المتظاهرين الذين احتشدوا معهم، بأنهم رضخوا لضغط «اللجنة التنظيمية لنضال الطلاب من أجل الديموقراطية» ـ وهذا اسمها ـ وعدلوا عن فكرة احراق انفسهم في مبنى الاذاعة: كما كانوا قد قرروا سابقاً!

ووقف الطلاب الثلاثة عشر منكسي الرؤوس فوق المنصة، يطلبون الغفران، ويعدون بأن يكونوا في خدمة «النضال» في مجال آخر، وعندما تدعو الحاجة اليهم، أو عندما يكلفون بمهمة أخرى من هذا النوع.

وكان مشهد آخر من المشاهد الساخرة المؤلمة!

وعندما انتهى الخطباء من افراغ معلوماتهم السياسية، سارت تظاهرة ضخمة، ترفع لافتات تقول: «نريد ارزاً وحليباً» و «نريد السلام لا الحرب». واعتبرت اللافتة الأخيرة من أخطر اللافتات، إذ كانت أول بوادر التلويح بفكرة الهدنة مع الفيتكونغ وانهاء الحرب!

وكانت هذه التظاهرة من أغرب ما شاهدت من تظاهرات، بتنظيمها وشعاراتها ومئات الأولاد والأطفال المنضبطين فيها. وعلى رأس التظاهرة كان يسير كاهن بوذي، ورجل أعرج مشوه يحمل علماً فيتنامياً، ويبدو أنه من ضحايا الحرب، ومن الأشخاص المعروفين.

وفي صباح اليوم التالي وصل الجنرال دين ترين تشين وزير الاعلام الفيتنامي من سايغون بطائرة خاصة، في محاولة لانقاذ ما يمكن انقاذه من الوضع في دالات، خصوصاً بعد أن سلّمت سوق الخضار الى «لجنة النضال»، مما يهدد وصول المواد الغذائية الى فيتنام كلها.

وكنت عند الوزير الفيتنامي، بعد اجتماعه في الكلية الحربية، بالقادة العسكريين

وبالمرأة ـ المحافظ، وزعيم عمال سوق الخضار. وبدا وكأنه متعب. إلا أنه استقبلني، وخضنا رأساً في موضوع الأزمة.

وسألت وزير الاعلام الفيتنامي، وكانت التظاهرات قد هدأت بعض الشيء، عن رأيه في الذي حدث.

فقال: لا شك أن عدداً من الشيوعيين قد تغلغل بين المتظاهرين، وهذا ما أعطاها، ربما، الطابع المعادي لأميركا. الا أن البوذيين يجب أن يدركوا أهمية الوحدة الوطنية في هذه الظروف.

ـ وموضوع الانتخابات؟

فأجاب: هل سمعت في حياتك ببلد يخوض حرباً كالحرب التي نخوضها يجري انتخابات من دون استعداد كامل لها؟ إن حالة الحرب تفرض الكثير من الاجراءات التي لا نحبها.

وقلت للجنرال تشين، الذي تشمل وزارته الى جانب الاعلام، الحرب النفسية ودعوة الفيتكونغ للعودة الى فيتنام الجنوبية بما يسمى برنامج «الأذرع المفتوحة»:

ـ كيف تصلون الى نشر الاعلام في مختلف انحاء فيتنام، وقد سمعت عن ضعف الاتصال الحكومي في العاصمة بباقي المناطق، وخصوصاً بعد أن منع البوذيون الجنرال تشوي المرسل من قبل الحكومة لتهدئة الحالة في «هوي» من العودة الى العاصمة؟

تجاهل الوزير الشق السياسي من سؤالي، وقال إن الجنرال تشوي سيعود قريباً الى سايغون وأن الحكومة تعلم الشعب بواسطة الراديو، الذي يبث ٢٤ ساعة كل يوم، وبواسطة الصحف والمنشورات التي ترسل بطائرات خاصة الى مختلف المناطق، كل ما يجري في فيتنام من تطورات وأحداث. فهناك أربع محطات للاذاعة بجانب الخمس والعشرين صحيفة في العاصمة وحدها. كما أن المنشورات تلعب دوراً هاماً ضد الشيوعية.

ـ إلى اي حد تعتبر أن برنامج «الأذرع المفتوحة» قد نجح في اغراء الفيتكونغ بالعودة الى الحظيرة الفيتنامية؟

ـ رد الوزير على سؤالي: إن ١٢ الف جندي وعامل في صفوف الفيتكونغ قد انضموا الى الحكومة منذ تموز عام ١٩٦٥. وهذا رقم جيد بالنسبة للسابق. فنحن نلقي ما لا يقل عن مئة مليون منشور فوق مناطق الفيتكونغ ندعوهم للعودة، وهذه المنشورات تحمل «إذناً بالسلام والعودة». كما أن اذاعاتنا الموجهة التي لا تسكت أبداً، وهذه المنشورات، التي تشرح أيضاً مبررات القصف الجوي للشمال وبعض المناطق، تطلب منهم مغادرتها حفظاً لحياتهم. كما أننا نرسل اليهم في الأعياد هدايا تلقيها الطائرات مؤلفة من ملبوسات ولعب وأشياء منزلية.

قلت: وعندما يعود بعضهم، ماذا تفعلون بهم؟

فأجاب: هناك مراكز لاستقبال الهاربين من الفيتكونغ يبقون فيها حوالي ستة أسابيع يعاد تثقيفهم فيها. وبعدها يلحقون بإحدى الحرف حتى يتقنوها في احدى مراكز التدريب. وهم يعاملون معاملة حسنة، وكثيرون منهم يعودون سراً الى قراهم ويأتون بعائلاتهم.

قلت: لنعد الى موضوع الانتخابات والسياسة. ماذا فعلتم حقيقة حتى الآن بالنسبة الى هذا الموضوع؟

فأجاب: لقد قمنا في العام الماضي بعملية احصاء للسكان. وعلى هذا الأساس جرى انتخاب مجالس محلية ومجالس بلدية في المدن. وقد دل الاحصاء على أن عدد سكان فيتنام الجنوبية ١٣مليوناً ونصف المليون نسمة. ٧٠ بالمئة منهم تحت سيطرة الحكومة الفعلية. وقد اشترك ٤٩ بالمئة منهم في الاقتراع وهذه نسبة رائعة، اذا تذكرنا أن المواطنين فوق الثامنة عشرة من العمر يحق لهم الانتخاب فقط. إنها طريق الى الديموقراطية التي كانوا يطالبون بها اليوم.

وانتهى الحديث مع الوزير. وعدت الى شوارع دالات المزدحمة، والى جوها المتوتر وقد انتهت تظاهرات الصباح. وفي الساحة العامة وقفت أمام صورة للطالبة البوذية «كاتش ثي ترانغ» التي سقطت برصاص بوليس «ديم»، وكان مقتلها الشرارة التي أدت الى انهيار حكمه. لقد كانت الصورة مجللة بالزهور، وعلى أحد الأكاليل، كانت عبارة تقول: «من هنا نبدأ».

وقد تكون البداية الخطأ في فيتنام اليوم!

سايغون ـ (١٩٦٦/٥/١٥)

■ فرسان الخيالة الطائرة

طريق العودة من دانانغ الى سايغون لم يكن سهلاً.

مطارها مغلق ومعطل، والتوتر قد عاد اليها مع عودة عمليات الارهاب. واذا بالعاصمة الفيتنامية تنساب في مزالق الحرب الحقيقية التي تكاد أن تنساها في زحمة مظاهر الحركة والسياسة والعمل. بيد أنها تبقى ـ على الرغم من المظاهر العسكرية الظاهرة ـ وكأنها لا تكترث بالحرب الفعلية التي تدور بالقرب منها، ولا بما يحدث خارج نطاقها الضيق.

ولم يعد بقائي في دانانغ، الا اجتراراً مؤقتاً للانتظار الطويل. لقد اجتاحت حمى التظاهرات العاتية الهدوء المصطنع الذي تعيش فيه المدينة، وأصبح الظلام الذي فرضه منع التجول من الثامنة ليلاً حتى الخامسة صباحاً، نوعاً من الروتين الرتيب الممل. ثم جاء طريق عودتي من دانانغ الى سايغون ماراً في بليكو. وهنا بدأ الاقتراب الحقيقي الأول من الخوف بمعناه الصحيح، وربما من الموت!

من دانانغ، طرت الى بليكو، عبر الوسيلة الوحيدة الممكنة للابتعاد عن توتر الشمال، وهي طائرة شحن عسكرية، لا تعرف متى تقلع ولا متى تصل ولا كيف ستصل، اذا وصلت!

وفي بليكو، البلدة ـ العاصمة، للقطاع العسكري الثاني في فيتنام الجنوبية، حيث تمارس هدوءاً فرضه توتر الحرب وظروف المنطقة العسكرية أكثر مما فرضه التعقل السياسي، يحاول العسكريون هنا اصلاح ما يفسده السياسيون في سايغون.

و «بليكو» بلدة صغيرة على هضبة مرتفعة تشرف على أهم منطقة جبلية ـ وهي الهضاب الوسطى ـ في فيتنام الجنوبية، وأهم منطقة عسكرية، إذ فيها مركز الجنرال فين لوك قائد القطاع العسكري الثاني والحاكم العسكري ـ المدني لكل هذه المنطقة.

والجنرال فين لوك، من رعيل العسكريين الذين تدربوا على ايدي الفرنسيين، والأمير الوحيد الذي ما زال يمارس سلطة معينة في البلاد. فهو ابن عم الامبراطور السابق «باوداي» الذي حاول الفرنسيون عن طريقه انقاذ ما يمكن انقاذه من نفوذهم المتدهور عام ١٩٥٤ وقبله. وقد تنازل يومئذ لهوشي منه في الشمال. وخلعه نغوديم في الجنوب، ويعيش اليوم سعيداً على شواطىء الريفييرا، مع اللقب ومن دون العرش!

والى جانب قيادة القطاع العسكري الثاني، فبليكو، هي مركز قيادة اللواء الخامس والعشرين الاميركي وسلاح المشاة الاميركي الأول. وكلمة مركز تعني قيادة العمليات العسكرية لكل القطاع الثاني الذي هو من أكبر وأخطر مراكز تجمع الفيتكونغ، اذ يشمل المنطقة الجبلية الوحيدة في فيتنام الجنوبية، وعنده ينتهي «طريق هوشي منه» المعروف الذي يتسلل خلاله الفيتكونغ، وتلتصق حدود كمبوديا المفتوحة به.

وكلمة لواء تعني أي تجمع عسكري ضخم، يبدأ من الجندي والبندقية، وينتهي بالدبابة والطائرة على مختلف أنواعها. بل لعل كلمة لواء تعني أي شيء يمكن أن يفوق تصور رجل لا يفهم في الشؤون العسكرية مثلي، في الضخامة والعدد والسلاح والرجال والتدريب.

واللواء الأميركي الخامس والعشرون، هو اللواء الوحيد الذي يستعمل الأسلحة الثقيلة، كالدبابات والمدفعية بمختلف احجامها، نظراً للظروف الجغرافية للمنطقة، حيث صلابة الأرض هي العامل الأساسي، واختفاء المستنقعات، والهضاب الواسعة هي العامل المساعد. فالوجود العسكري الأميركي بات في أضخم معانيه في هذه المنطقة، وقد استطاعت هذه القوى العسكرية الأميركية أن تسيطر على هذه المنطقة، بعد أن كانت معقلاً مشاعاً للفيتكونغ.

وبليكو بلدة تذكرك بمدن الغرب الأميركي: شارع طويل وعلى جانبيه دكاكين صغيرة وبارات حقيرة (ليس عندها فخامة بارات الغرب الأميركي طبعاً) وفي آخر الشارع كنيسة، وخلفها بيوت صغيرة واطئة!

ومن هذه البلدة، تطل أكبر الأقليات في فيتنام، وهي قبائل «الجبليين»، أو «المونتانيار»، بقراها الصغيرة وحياتها البدائية من خلف هذه التلال، لتخلق مشكلة من مشاكل فيتنام الكثيرة والمستعصية.

و «المونتانيار» اشداء، سمر البشرة، على عكس الفيتناميين البيض، شبيهون بالهنود الحمر، يعيشون في قرى تعيل نفسها بنفسها من الأرض التي حولها، والعري لباسهم الدائم!

ومن قبائل «المونتانيار» انطلقت الشرارة الأولى في العصيان ضد الفرنسيين منذ عودتهم بعد الحرب العالمية الثانية. ومن قبائل «المونتانيار» شكل هوشي منه كشافة «الفيت ـ منه» في حربه ضد الفرنسيين لمعرفتهم بالجبال ومسالكها. ومن «المونتانيار» يشكل الفيتناميون الجنوبيون اليوم أشد مقاتليهم بأساً!

و «المونتانيار»، عرق آخر من الفيتناميين، يكرهونهم، ويحتقرونهم، والعكس بالعكس. وفي اليوم الذي قضيته في قرية من قراهم بالقرب من «بليكو» نتحدث بالاشارات، كان نظامهم وضيافتهم وعملهم مبعثاً للدهشة. لقد كانت الحياة البدائية في واقع أقرب الى الخيال. و «المونتانيار» يطالبون بالاستقلال الذاتي عن فيتنام، وفي الوقت نفسه يشكلون عنصراً هاماً من جيشهم. وقد استطاع الاستعمار الفرنسي أن يحكمهم مع باقي الأقليات حكماً خاصاً، بعيداً عن الاندماج ودون فرص الحضارة التي منحت لباقي البلاد.

ومن بليكو، بدت دانانغ وسايغون وكأنهما وهم سياسي كبير في عالم غريب من الحرب الخرافية، التي لا نعرفها الا عن طريق الصور والسينما. وبدت السياسة وكأنها تسلية المرفهين أمام الحرب الحقيقية التي يعتبر الموت فيها حدثاً عادياً.

انطلقت من بليكو مع سلاح الفرسان الأميركي الأول في «عملية لنكولن» الى حدود كمبوديا، وقضيت أربعة أيام في الهضاب المكسوة بغابات تموج على امتداد النظر، ولا يعرف أحد ماذا تخبىء.

طرت مع فرقة «الهليكوبتر» التي هي «خيل» الفرسان في النصف الثاني من القرن العشرين. ولستة أيام، كانت مهمة «عملية لنكولن» ردع كتائب الفيتكونغ القادمة عبر الحدود الكمبودية عن «طريق هوشي منه»، عن التسلل من جديد الى الهضاب الوسطى واحتلالها.

وارتفعت طائرات الهليكوبتر ـ وأنا في واحدة منها ـ فوق تلال ووديان وغابات تعانق الأفق الآخر. في عملية استكشاف لمواقع الفيتكونغ، وهي تحمل الرجال والعتاد بأضخم وأحدث أشكاله. وعند أماكن معروفة، كانت الطائرات تلقي بالرجال والعتاد على «محطات» معينة فوق الهضاب وفي الغابات الكثيفة.

ومن فوق هضبة «شوفونغ»، وعبر وادي «ايادرانغ» بمحاذاة حدود كمبوديا الغربية، كان «وادي الموت» يزخر ببقايا الجثث ورائحة الموت، فهناك خاض سلاح الفرسان الأميركي الأول أكبر معركة دموية في تاريخ الحرب في تشرين الثاني عام ١٩٦٥.

ومن المكان نفسه، حاول سلاح الفرسان أن ينطلق لرد الفيتكونغ اذا حاولوا العودة قبل بدء فصل الأمطار الموسمية. ولكن «الخيالة الطائرة» لم تجد أي تجمعات كبيرة للفيتكونغ.

أربعة أيام وأنا في الجو، وفي الأرض، وفي الخيام، ومع العسكر، في غابات وهضاب، لا أستطيع إلا أن اعترف بالخوف كلما ارتفعت بي الطائرة المفتوحة الجوانب، والقت برجالها على مراحل في الطريق، أو كلما رايت القنابل تتساقط والحرائق تشتعل، والرصاص يدوي. لعل الرصاص كان أخطر ما في الأمر كله، فأنت لا تعرف من أين يأتي ولا كيف يأتي ولا من يطلقه. لقد كانت التعليمات الوحيدة التي تلقيتها عندما سمح لي بالاشتراك في هذه العملية، هي أن ابقي رأسي منخفضاً. لقد كنت الغريب الوحيد!

لم تكن تجمعات الفيتكونغ بالضخامة التي تصورها العسكريون الأميركيون. واكتفى «الفرسان الطيارون» بعملية مسح للأراضي التي كان يحتلها الفيتكونغ والتأكد من اختفائهم داخل الحدود الكمبودية. ومن فوق «طريق هوشي منه»، طرت عبر شريان التموين الحقيقي لقوات الفيتكونغ، وأنا أحاول أن أجمع في رأسي آلاف الصور لحقيقة الحرب المخيفة التي تدور في فيتنام.

لعل «الهليكوبتر» هي اليوم سيدة الميدان. وهي التي تقرر مصير الحرب والمعارك التي تشتعل في كل ناحية من نواحي البلاد. فأسطول «الهليكوبتر» يتحكم في توقيت وسلاح المعركة. فالخيالة الطائرة هي دائماً على بعد ساعتين من أي مكان أو معركة في فيتنام.

والهليكوبتر جعلت من الجيش الأميركي، وسلاح الفرسان بالذات، أسرع جيش متحـرك في العالم. كما أنها بمختلف أنواعها وأحجامها واختصاصاتها تستطيـع أن تنقل اثقـل الدبابات والمدافع والأسلحة والعتاد الى أي مكان.

غير أن أهم ما في الوجود العسكري الاميركي في فيتنام، هو أنه يستعمل أسلحة جديـدة لأول مرة، ويختبر قوتها، وصلاحيتها، كما أنه يضـع جنوده في جـو ومعارك هي أيضـاً جديدة، بل هي مناورات حقيقية لربع مليون جندي كل سنة، يخرجون منها بتجـارب لم يسبق أن عرفت في تاريخ الحروب.

فحـرب التسلل والادغـال والعصابـات التي يخـوضهـا الأمـيركيـون اليـوم في الأراضي الفيتنامية بأسلحتهم الحديثة، قد وضعت الكثير من النظريات العسكرية التقليديـة على المحك.

إن الذي يحدث اليوم في فيتنام لم يسبق أن حدث في تاريخ الحروب من قبل!

سايغون ـ (١٩٦٦/٥/٢٧)

المأساة المشوهة

ستبقى فيتنام قضية آسيا الأولى. والحديث عن فيتنـام حديث متشعب الجذور، غني بالمفارقات. ومن يعرف فيتنام يجد صعوبـة أكثر في جمـع القطع الكثيرة المترامية في اطار من الرؤيا الواضحة.

ومع بداية كل فصل من فصول الأمطار الموسمية يعود الوضع الفيتنـامي الى الانفجار، مغيـراً في كثير من الأمكنـة، التيـارات التي حـددت اتجـاهـه في المـاضي والشروط التي افترضت يوماً ما في فرقاء اللعبة السياسية.

البوذيون اليوم تراجعوا ـ بعد أن فشلـوا ـ عن ممارسـة اللعبة بـالأسلوب ذاتـه الذي اتبعوه في اسقاط نظام حكم «نغوديم» عام ١٩٦٣. فانتحار أربعة من البوذيين في يومين، كان يكفي لاسقاط حكم الجنرال كاوكي والادارة العسكرية، بـأسرع مما أسقط احـراق أربعة رهبان بوذيين في شهرين «الحكم العائلي» قبل ثلاثة أعوام، مع فارق بسيط.

بالأمس كانت السياسة الأميركية وممثلها في سايغون هنري كابوت لودج مع الاستشهاد البوذي ضد ديم. واليوم تقف السياسة الأميركية ـ ومن المفارقات أن يكون الآن لـودج ممثلها أيضاً في سايغون ـ مع كاوكي وضد رماد البوذيين الذي يُجْمَـع على أبواب معابد هوي ودالات وسايغون.

وهنا ينقلب اتجاه التيار. ومن هنا ارتكب البـوذيون خطـأهم الكبير في الـوقوف بـاتجاه معاكس له، بسبب هفوة بسيطة في حساب حقيقة سرعة اجتياحه.

والخطأ الآخر في حساب اللعبة الفيتنامية الذي ارتكبه البـوذيون، أن كـاوكي عسكري، عنده من الرعونة مـا يكفيه للمقـاومة، وعنـده من الجيش ما يكفيـه من تأييـد، وله من الدعم الأميركي ما يوفر له الكلمة الأخيرة الى وقت طويل.

لذلك تجـاوز البوذيـون الادارة العسكريـة الحاكمـة في سايغـون، الى البيت الأبيض في واشنطن. وكانت رسائل الدم التي لم يجب عليها أحد. وكان رد الرئيس جـونسون، أن حوادث الانتحار لن تزيد الخروج من الأزمة السياسية الدستورية الا عرقلة.

ولكن البداية لم تكن هنا. كانت في الحروب المحلية الصغيرة التي اشتعلت في كل مكـان في فيتنام الجنوبية عند بداية آذار عام ١٩٦٦. فمنذ أن اجهضت ثـورة دانانـغ، عادت القضية الفيتنامية لتدخل في حلقتها المفرغة من جديد.

ولكن الحروب الأهلية الصغيرة أصبحت نزوة عادية من نزوات الميوعـة السياسيـة التي خلفهـا الفراغ السيـاسي منذ الاستقـلال عام ١٩٥٤. ولم يستطـع أحد أن يمـلأ هـذا الفراغ.

ولعت فكرة الانتخابات في أذهان كثيرة لتردم الهوة السياسية التي احتوت في السنـوات العشر الأخيرة على كل مخلفات الاضطرابات التي توالت عبر السنين على فيتنام.

وبقيت هي تلك «المسألة».

وأمسكت المعارضة البوذية بهذه «المسألة»، في محاولة جديدة من محاولات استعراض عضلاتها وإثبات نفوذها كقوة تملك وحدها زمام الشارع كطريق الى السلطان في فيتنام. واعتقدت هذه المعارضة المزمنة أن الصوت الأول في تلك الانتخابات هو صوت الكهنة المحترقين، ولكنها نسيت أنهم لن يكونوا هناك عند صناديق الاقتراع في الوقت المناسب..

والتقى الفراغ السياسي بأزمة البطالة عند البوذيين وبالرغبة الجامحة لتسلم مقادير الأمور التي حرموا منها طويلاً، وبشعور الخائف من ضياع فرصة جديدة من فرص القوة التي بقي البوذيون يمارسونها من الخارج، دون أن يتمكنوا من الدخول الى محرابها.

ولم ينتج عن هذا اللقاء أكثر من تكرار عنيف للسؤال، ومزيد من البخور يحرق فوق جثث الكهنة المحترقة.

انتخابات أو لا انتخابات، تلك هي «المسألة».

وإذا «بالمسألة» انتخابات.

وتمت وجرت الانتخابات بـ «نجاح».

وضاع الشك في أن الجنرال كي كان يحتفظ في جيبه «بلعبة» ما، سيخرجها في الوقت المناسب لارجاء الانتخابات. والجنرال كي ليس أذكى السياسيين ولا أبرعهم.

ولكن عندما يكون الجيش قد فشل في خلق وحدة قومية، فإن ردود الفعل العنيفة من مختلف جهات المعارضة واتجاهاتها ستبقى قوية وموجهة ضد السياسة الأميركية والوجود الأميركي، ما دامت أميركا تدعم بقاء الجنرال كاوكي وحكومة الادارة العسكرية، التي تعتبرها المعارضة هدفها الأول، وبلاءها الأول. وبقيت الانتخابات المطلب الأساسي.

وحاولت المعارضة من بوذية وغيرها تحويل القضية من الأساس الى الفرع، باعتبار الجنرال كاوكي وعسكره أداة، تملك القوة وحدها، في تسيير دفة البلاد والاستمرار في الحرب ضد الفيتكونغ، لا تملك المعارضة منها شيئاً، ولا تستطيع الاستغناء عنها، إذن فلتحاول أن تستميلها الى جانبها. وإن كان في هذا سابع المستحيلات.

وزاد من حرج السياسة الأميركية في الصراع السياسي ـ الأهلي الذي يدور في فيتنام الجنوبية، أنها لا ترغب في التخلي عن الادارة العسكرية، والجنرال كي لا يأتمر أو يستمع الى مشورة الأميركيين. ورأى الأميركيون في سايغون أن الانتخابات هي السبيل الوحيد، لادخال بعض المنطق الى رؤوس الحاكمين سعيداً في فيتنام الجنوبية.

لذلك لم تبق عند مفترق الطرق الخطر في فيتنام اليوم، وعود الجنرال كي مجرد وعود، والانتخابات حلماً بعيداً، والبوذيون المعارضة الفعالة الخطرة!

وبهذا تقلص المأزق الأميركي ولم يزدد عمق الهوة التي كانت تفصل بين الممكن والواقع، وبين البوذيين وكابوت لودج، وبين جونسون، وفولبرايت، وبين راسك وطلاب الجامعات الأميركية المضربين.

ولعل كل هذه الكلمات المتقاطعة، ليست أكثر من فيتنام المأزق، وفيتنام الأزمة، التي تعيش واقعاً مؤلماً اليوم.

سايغون - (١٩٦٦/٥/٢٨)

■ بين «الكونغ» و «المنة»

من هم «الفيتكونغ»؟

«الفيتكونغ»، هوالاسم الذي اطلقته حكومة سايغون على الجناح العسكري الثائر من جبهة التحرير الوطني، التي تأسست عام ١٩٦٠. وكلمة «فيت ـ كونغ» التي شاعت عام ١٩٥٦ تعني باللغة الفيتنامية «الشيوعيين الفيتناميين».

وجبهة التحرير الوطني هي الواجهة السياسية للحزب الشيوعي الفيتنامي، «لاودونغ» ـ أو حزب العمال الفيتنامي ـ الذي هو اليوم الحزب الشيوعي الحاكم في الشمال. وجبهة التحرير الوطني و «الفيتكونغ»، لا يضمان أحداً من المواطنين غير الشيوعيين. فهما منظمتان لحزب واحد، تعددت أسماؤه، في مراحل مختلفة من حياة فيتنام السياسية، الا أنه بقي حزباً شيوعياً واحداً منذ تأسيس حزب الهند الصينية الشيوعي عام ١٩٣٠.

وعلى عكس منظمة «فيت ـ منه» ـ التي تعني باللغة الفيتنامية، الوطنيين الفيتناميين ـ والتي تسلل الى صفوفها الشيوعيون عام ١٩٤٠ تحت ستار محاربة الاستعمار الفرنسي، انتهت بتصفية الوطنيين غير الشيوعيين منها في نهاية عام ١٩٤٥، قبل تصفية فرنسا من الهند الصينية عام ١٩٥٤.

فقصة «الفيتكونغ» ـ ومعها «الفيت ـ منه» ـ تعود الى أوائل الثلاثينيات. فأشخاصها وأبطالها ما زالوا معنا حتى اليوم، ومسرح الأحداث هو نفسه.

فلذلك من الضروري القاء نظرة ولو سريعة على ابطال المسرحية، والتغيير السريع الذي تم على المسرح الفيتنامي منذ ذلك التاريخ.

فتحت إمرة ورعاية وتوجيه الرجل الذي أطلق على نفسه اسم هوشي منه، تأسس حزب الهند الصينية الشيوعي في كانون الثاني عام ١٩٣٠. ولحقبة من الزمن، انصرف الشيوعيون الفيتناميون إلى بناء كادرات حزبهم والتعزيز من نفوذها بدخولهم في المنظمات الوطنية المعادية لفرنسا، محاولين اقصاء العناصر الوطنية غير الشيوعية عنها بكافة الوسائل، بما في ذلك كشف أسمائهم للسلطات الاستعمارية الفرنسية في فيتنام.

وفي عام ١٩٤١، انضم الشيوعيون الفيتناميون الى «جامعة الاستقلال الفيتنامي» أو «الفيت ـ منه» كما عرفت فيما بعد، وهي منظمة وطنية كان قد شجعها الصينيون الوطنيون لمحاربة القوات اليابانية في الهند الصينية. وما أن أطلّ عام ١٩٤٥، حتى أصبحت «الفيت ـ منه» منظمة تخضع لسيطرة الشيوعيين الفعلية والكاملة، على الرغم من وجود أشخاص غير شيوعيين، كان الشيوعيون بحاجة الى استغلال كفاءاتهم ومواهبهم استغلالاً تاماً.

واستعمل الشيوعيون «الفيت ـ منه»، كوسيلة للاستيلاء على الحكم في هانوي في ٢

آيلول عام ١٩٤٥، معلنين تأسيس جمهورية فيتنام الديموقراطية، تحت راية هوشي منه.

وفي ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٤٥، في محاولة لاقناع الناس بأن «الفيت ـ منه» منظمة غير شيوعية وخاصة بالنسبة لقوات الصين الوطنية التي كانت محتلة البلاد جنوب خط العرض ١٦، أعلن هوشي منه رسمياً «حل حزب الهند الصينية الشيوعي». وأعلن في الوقت نفسه تأسيس «جمعية الدراسات الماركسية»، التي حلت محله عملياً. غير أن وضع «الفيت ـ منه» لم يتغير عملياً على الاطلاق.

وفي عام ١٩٤٦، خلال مفاوضات هوشي منه مع القوات الفرنسية العائدة الى فيتنام، حاول ان يدخل الى «الفيت ـ منه» مزيداً من العناصر الوطنية استعداداً للمعركة النهائية مع فرنسا. وأعلن في أيار من السنة ذاتها عن تأسيس جبهة وطنية شعبية باسم «لين ـ فيت»، من أهدافها: «الاستقلال والديموقراطية»، تضم «الفيت ـ منه». غير أن اسم «الفيت ـ منه» التصق باسم هذه الجبهة، حتى نسي الناس اسمها الحقيقي مع الزمن.

وفي ١٩ كانون الأول عام ١٩٤٦، اندلعت الحرب مع فرنسا. وكانت فيتنام الشمالية مسرحها الفعلي، وبقيت فيتنام الجنوبية مجالاً فقط لعمليات الارهاب والتخريب. وأصبحت مسيرة هذه الحرب معروفة.

وفي عام ١٩٥١، عاد الحزب الشيوعي الفيتنامي رسمياً باسم «لاودونغ» ـ حزب العمال الفيتنامي. وظل الحزب يعرف بهذا الاسم حتى خروج فرنسا من فيتنام عام ١٩٥٤. ووضع مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤ نهاية لمسرحية فرنسا ـ «الفيت ـ منه». وبدأ الفصل الثاني.

بدأ عهد ديم في فيتنام الجنوبية بعد مؤتمر جنيف، حيث كان يحاول كل الفرقاء المعنيين التقيد بشروطه. وكان من بين هؤلاء الأطراف الـ «لاو دونغ» ـ حزب العمال الفيتنامي. الا أنه كيَّف نفسه لتكتيك جديد. وأعطيت الأوامر لكادرات الحزب الشيوعي القديم بالتحرك، في سبيل اخضاع الجنوب كله لسيطرة الشمال. وبدأت حرب التظاهرات والدعوات السياسية المبطنة وحرب الغوغاء في الشوارع.

وزاد سوء عهد ديم من نفوذ الشيوعيين، حيث بدأوا يستغلون الشؤون المحلية كواجهة لدعوتهم بعيدين عن التبشير بالعقيدة الماركسية. وتضاعفت الخلايا وتضاعف النشاط، حتى بلغ ذروته في أعمال الارهاب عام ١٩٥٨، حيث بدأت الحرب الفعلية للمرة الثانية في فيتنام.

ومنذ ذلك التاريخ توسَّع القتال وتوسَّعت عمليات الارهاب التي بدأ الفرع الجنوبي لحزب «لاودونغ» القيام بها. وأثبت عهد ديم ورجالاته أنه غير أهل للوقوف في وجهها أو الدفاع عن مؤسساته. وبين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٠، كانت يد هانوي، في الذي يحدث في الجنوب، يداً خفية، كما كان دورها دوراً بعيداً عن الأضواء. فقد بقيت العمليات في

الجنوب، عمليات لا تحمل اختام الشمال الرسمية حتى عام ١٩٦٠، حيث بدأت هانوي تلمّح عن تأييدها للفيتكونغ وتدعو رجال القبائل للثورة، واعدة إياهم بدعم «حكومة هوشي منه المحبوبة».

وفي هذا العام بالذات، تحولت عمليات الفيتكونغ الى عمليات مكشوفة. والصق الحزب الشيوعي اختامه الرسمية بثورة الفيتكونغ على الجنوب في المؤتمر الوطني الثالث في أيلول عام ١٩٦٠.

وانبثقت جبهة التحرير الوطني في كانون الثاني عام ١٩٦١ عن برنامج كامل لمحاربة «نظام ديم الفاشيستي في الجنوب»، مؤلف من عشر نقاط. وأصبح الفيتكونغ الجناح العسكري للجبهة، وبقيت الجبهة واجهة سياسية لتنفيذ ما تريده هانوي.

وبدأ نطاق الحرب الواسع يمتد ويتسع حتى أصبح اشتراك قوات فيتنام الشمالية النظامية القاسم المشترك الأعظم لنجاحه. غير أن تنظيم الفيتكونغ كان يتطور باستمرار وهو يخضع لتعديلات الظروف في تكتيكه وكادراته. وامتد طريق هوشي منه عبر لاوس، واتسع مع الزمن، كما ازدادت خدماته لمقاتلي الفيتكونغ في الجنوب، حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من صورة القتال الدائر في الأدغال الفيتنامية.

وإذا كان تنظيم الفيتكونغ والحزب الشيوعي قد ظل معروفاً، فإن رجالاته بقوا غير معروفين، يحملون أسماء متعددة، من دون وجوه أو علامات فارقة.

غير أن هذا لا يعني أن ثورة الفيتكونغ وتنظيمهم تعتبر من أبرع الثورات واكثرها تأثيراً وفعالية في داخل فيتنام وخارجها، وأن المساهمة الثورية التي يقومون بها، هي من أهم أحداث هذا القرن.

من هنا كان تأثيرهم، في خارج فيتنام، ومن هنا كانت قوتهم في الوهم وفي المثابرة وفي الاستمرار.

سايغون - (٢٩/٥/١٩٦٦)

القضية الخاسرة

كنت عنده في الليلة التي سبقت اغتياله. تركت مكتبه في شـارع «تودو» في التاسعة مساء، وبدت سايغون وكأنها استعـادت بعض حيويتهـا في تلك الليلة، بعد أيام من منع التجول المرهقة.

وفي التاسعة صباحاً من اليوم التالي، اطلق شـاب النار عـلى «تشو تـو» صاحب ورئيس تحرير جريدة «سونغ» الفيتنامية التي تصدر في سايغون، أمام باب منزله وهو في طريقه الى مكتبه. وفر القـاتل بـرفقة شـاب آخر كـان بانتظـاره في سيارة. ولم يكن «تشـو تو» الصحافي الفيتنامي الأول الذي قتل برصاص الاغتيال، ولم يكن الأخير.

وبعد الحادثة بأربع وعشرين ساعة، غادرت سايغون الى هونغ كونغ، وتركت «تشو تـو» في مستشفى الحكومة في «تشولون» من دون أن أودعه.

وجـريدة «سـونغ» ـ ويعني اسمهـا بالفيتنـامية «الحيـاة» ـ جريـدة محترمـة، واسعة الانتشار، تمثل التيار الوطني المعادي للشيوعية في فيتنام الجنوبية. وقبل مقتل صاحبها بشهر، هاجم المتظاهرون مكاتبها وأحرقوها وحطموا مطابعها. ولكنهـا صدرت في اليـوم نفسه، لتعلن استمرار الموقف الذي اتخذته من التظـاهرات البـوذية وسيـاسة الفـوضى الشـارعية.

وكتب «تشو تو» في افتتاحيته صبيحة ذلك اليوم ما معناه: «ان الاستقرار السيـاسي هو الضمـانة الأولى لنجـاح فيتنام الجنـوبية، وان الاضطـرابات والتظـاهرات التي نقلهـا الرهبان البوذيون الى الشارع، ليست الا مدخـلاً لتسرب الشيوعيـين الى البلاد، وحجـة للتقاعس في الحرب ضد الفيتكونغ. كما أن الخـلافات السيـاسية الـداخلية يجب أن لا تسمح للفوضى بتهديد أمن البلاد وسلامتها».

واستمرت «سونغ» ـ الحياة ـ تصدر وهي تدعـو الى السياسـة ذاتها حتى يـوم اغتيال صاحبها في صباح يوم التاسع عشر من نيسان.

وفي هونغ كونغ، امسكت بصحف الصباح لأقرأ أخبار فيتنام. وفي نهاية نبأ من سايغون في جريدة «ساوث تشاينا ميل»، كان خبر موت «تشو تـو» الذي بقي حيـاً في المستشفى بعض الوقت، يقول إن كلماته الأخيرة قبل أن يفـارق الحياة كـانت: «انني فخور بـأنني قمت بواجبي كمقاتل من أجل الصحافة. وأنني أموت اليوم كجنـدي من جنود الحـرية والقلم». ومات.

وأضربت صحـف سايغون كلهـا في اليوم التـالي، واحتجبت عن الظهور، احتجـاجاً عـلى اغتيال واحد من كبار حملة الأقلام فيها. وأصبح المسدس غريم القلم المباشر. وأصبح ثمن الرأي ـ أي رأي ـ هو الرصاص.

وبعد أقل من شهر من اغتيال رئيس تحرير «سونغ» سقط «نغـوين تشو»، وهـو سياسي

وكاتب فيتنامي؛ اجتمعت به في مكاتب الجريدة نفسها، بعد أن جندلته أربع رصاصات في ١٤ أيار عام ١٩٦٦، أمام مبنى الصحيفة، وتوفي في نفس المستشفى الذي مات فيه زميله «تشو تو»، ولن يكون الأخير الذي سيدفع ثمن رأيه في أية بقعة من بقاع العالم.

أردت أن اجتمع برئيس تحرير «سونغ» منذ أن حطم المتظاهرون البوذيون مكاتبها عند المد الغوغائي الأول من الأزمة الفيتنامية في آذار عام ١٩٦٦. ومر بعض الوقت وأنا خارج سايغون، منتظراً أن أعود الى العاصمة الفيتنامية حتى أسعى الى لقائه.

كان الحادث الأول من نوعه خلال اقامتي القصيرة في فيتنام. وبهاجس خفي سعيت الى لقاء من كان هدف المتظاهرين الأول، لرأي كان يقوله ولا يعجبهم. وضاع الهاجس في زحمة الأحداث.

الى أن كان يوم، قبل أن اقرر مغادرة فيتنام بحوالي أسبوع، التقيت فيه بعدد من الصحافيين في حلقة شراب في مقهى أوتيل «الكونتيننتال» في سايغون، وكان حديث الحلقة عن الصحافة الفيتنامية واتجاهاتها وأثرها. وفجأة تذكرت «سونغ» وسألت عن طريقة الاتصال بصاحبها والاجتماع به. وكان من بين الزملاء من دلني عليه، وأوصلني لعنده.

في مكاتب الجريدة المتواضعة، التي تشبه مكاتب أية جريدة في لبنان، وعلى الدرج العتيق الطويل الذي يؤدي الى مكتب صاحب «سونغ» كانت أكداس المرتجعات تذكرني بالمنظر الأليف الذي يعرفه كل صحافي في بيروت.

وكان «تشو تو»، الكاتب السياسي المخضرم، في الخمسين ونيف من العمر، يجلس وراء مكتب قديم متواضع. لم يكن عمره يوحي بأي سن. وكان حديثه بالانكليزية البطيئة البدائية، حديث العارف بالحدود الصحيحة لمعاني الكلمات التي ينطق بها. كان هادئاً، معبراً، وقوراً. وكان حيوياً، حريصاً، يشعرك بسرعة غريبة بقربه من الآخرين.

وبدأ الحديث بشكل عام. وكان الحوار يدور عن عدد ومشاكل الصحف في فيتنام، بمختلف اتجاهاتها وآرائها. وحدثته عن صحافة لبنان، وغرقنا في مقارنة أوضاع الصحافة في البلدين. وبدا من حديثي وكأن صحافة لبنان، هي صحافة مثالية يتمنى الكل أن يكون في بلادهم مثلها.

وهز «تشو تو» رأسه حزناً على صحافة فيتنام، بعد أن سمع حديثي عن لبنان. وقال لي:

«أصعب شيء في فيتنام أن يكون لك رأي لا يتفق مع التيار السياسي الطاغي. اذا كنت ضد الشيوعية فأنت عميل للاميركيين، واذا كنت من دعاة الحياد، فأنت طابور خامس، واذا كنت من الداعين لانهاء الحرب فأنت جبان انهزامي، واذا كنت ضد الادارة العسكرية فأنت مع الفيتكونغ، واذا كنت مع البوذيين فأنت ضد الكاثوليك، واذا كنت ضد الكاثوليك فأنت شيوعي وهكذا!»

وابتسمت، بل ضحكت عندما أنهى صاحب «سونغ» كلامه وكـأني تذكـرت دنيا العـرب من المحيط الى الخليج! ولم أحدثه عن بلادنا، خوفاً من أن اتهم بالمزايدة عليه.

وجاء الشاي الذي يدخل كل لقاء في فيتنام والشرق الأقصى، وأمسك رئيس التحرير بقلم على طاولته، أخذ يداعبه بأصابعه وتابع كلامه:

«هل تعرف أنه منذ حوالي أربعة أشهر اغتالوا «تسوتشونغ» رئيس تحرير جريدة «شين لوان» لأن ما كان يكتبه يصعب شراؤه فقرروا أن تكون الصفقة، بالتخلص منه نهائيـاً. وهكذا قتل «تشونغ» في ليلة على درج المطبعة! ومات ودمه يغطي حبر الطبعـة الأولى من صحيفته.

إن الحيـاة البشرية في فيتنـام، يا صـديقي الغريب، شيء رخيص جـداً. أمـا اذا كـان صاحب هذه الحياة حامل قلم، فهذا أرخص لأنـه ثائـر وحيد، من دون أن يكـون وراءه حزب أو ثوار أو دولة أو حتى عصابة. إنه انسان وحيد».

وسكت الصحافي الفيتنامي الكبير ثم ابتسم وقال لي: أنتعشى معاً؟ قلت: نعم، ولكن أين؟

قال: اعرف مطعماً صينياً صغيراً في «تشولون» ـ وهي المدينة الصينية في سـايغون ـ لا يرتاده إلا المحاربون من أجل قضايا خاسرة، وأنـا ـ وأرجو أن لا تكـون أنت ـ صاحب قضية خاسرة.

وفي مطعم «التنـين الصغير» تحـدثنا في القضـايا الخـاسرة. روى لي صاحب «سـونـغ» أحاديث القضايا الخاسرة التي عاشتها فيتنام طوال ثلاثين عاماً.

حدثني عن هوشي منه اثناء حرب التحريـر ضد الفـرنسيين وحـدثني عن هانـوي التي يحن اليها وكيف تبدلت سايغون منذ أيام الاستعمار الفرنسي حتى اليوم، وكيف ضاعت «اللمسة الباريسية» التي كانت فيها، وكيف اختفت مقاهي الرصيف، خوفـاً من قنابـل ورصاص وارهاب الفيتكونغ. ولم يكن حديثنا أكثر من محطات صغـيرة كان يقف عليهـا الصحافي الفيتنامي طويلاً أمام زميل غريب.

وانتهى الحديث قبل أن يعانق الليل منتصفه وقبل أن يعلن منـع التجول. وأوصلني الى فندقي، ووعدت بزيارته في طريق عودتي من هونـغ كونـغ. وهز يـدي وهو يقـول لي: «لا تكتب عن فيتنام، على أنها قضية خاسرة. اكتب عن فيتنام بكل أمل بالنجاح والانتصار، نحن بحاجة الى اصدقاء».

وفي اليوم التالي، كان «تشوتو» هو القضية الخاسرة، وأنا أطوي الجريدة التي حملت نبأ مصرعه، وأصعد الى سلم الطائرة في طريقي من هونغ كونـغ الى نيودلهي. ولم أعـد الى فيتنام، كما وعدته، وطرت من فوق سايغون، من دون أن أستطيع زيارته.

وعدت الى بيروت، لأفجع بعد أيام بقضية خاسرة حقيقية عندما امتدت يد جبـانة لتطلق رصاصة خرساء الى قلب كامل مروه.

وتذكرت «تشـوتو» و «سـونغ»، أو «الحيـاة» الفيتناميـة، وقلت لا بد أن يعـذرني اليوم صديقي إن لم أزره في سايغون. أنا اليوم عندي «قضية خاسرة».

واطفئت أنوار «التنين الصغير» ولم يعد يقدح شرراً أو يبتلع ناراً!

سايغون - (١/٦/١٩٦٦)

■ سخرية الأقدار

كان ذلك في سايغون، في شباط عام ١٩٦٦. كان شارع «تو ـ دو» (الحرية) «شانزليزيه» العاصمة الفيتنامية، الممتد من الكاتدرائية الكاثوليكية في أقصى طرف المدينة إلى النهر بالقرب من السفارة الأميركية القديمة في الطرف الآخر، يعج بالمارة عشية ذلك النهار رغم المطر الذي تساقط عليهم فجأة، فاحتموا بالجدران منتظرين انقشاع السحب الموسمية. وكنت على سطح مقهى فندق «الكونتيننتال»، العريق بقناطره ومراوحه وسقفه العالي، وذي الطراز الاستعماري برفقة زميل صحافي أمضى في الشرق الأقصى أكثر من ربع قرن يراقب أحداثه، ويتعلم لغاته الصعبة، ويحفظ وجوهه المتشابهة. وكنت في أيامي الأولى في سايغون، أتلمس طريقي عبر الأشخاص والأسماء والأحداث، محاولاً أن أفهم ما يجري هناك. وإذ ذاك كانت بداية الصراع السياسي العنيف الذي هدد حكومة الجنرالات بعد أكبر عاصفة سياسية قام بها البوذيون بزعامة الراهب تيتش تري كوانغ، ومزقت فيتنام الجنوبية من هوي شمالاً حتى دالات جنوباً. وهذه الأزمة السياسية كانت الشغل الشاغل للناس، لا الحرب التي اعتادها الفيتناميون طوال ٢٥ عاماً ونيفاً مضت على نشوبها، حتى أصبح الحديث عنها كأنه لا يعنيهم.

وكان زميلي، رفيق الجلسة، من مدمني المجيء إلى «الكونتيننتال» كل يوم في نفس الوقت، كسائر أفراد «المستعمرة الصحافية» المؤلفة من حوالي ٤٠٠ صحافي من مختلف أنحاء العالم، والذين يسكرون كل ليلة ويلعبون البوكر ويتحدثون في كل شيء إلا في السياسة والحرب. وأثار زميلي منظر هطول المطر وتوقف المارة بغتة متجمعين تحت الشرفات وفي مداخل المحلات والأبنية: من نساء في الزي الفيتنامي الذي ربما لم يبتدع بعد أجمل منه، وصبيان صغار يدخنون السجائر ويمسحون الأحذية ويبيعون البضائع المهربة ويسمسرون لأمهاتهم وشقيقاتهم لقاء بضعة قروش، ورجال نحيلين صغيري الأحجام يصعب التمييز بينهم. وبعدما ألقى نظرة عميقة عليهم، كأنه تفرس في وجوه الكل، قال الزميل الصحافي:

«هل تعرف أن أكثر من نصف هؤلاء، رجالاً وأطفالاً ونساء، من الفيتكونغ؟».

ـ كيف تعرف؟
ـ ان كل الناس يعرفون.
ـ حتى الأميركيون؟
ـ حتى هم.
ـ أي نصف منهم تعني؟

ـ ها... ها... لو عرف الأميركيون أي نصف هم الفيتكونغ، لما ظلت الحرب ضارية الى اليوم.

وتابع رفيق الجلسة حديثه السابق عن الفيتناميات، وهو ما زال يحدق الى الوجوه العابرة فوق رصيف المقهى.

وغداة اليوم التالي، كما أذكر، سافرت الى دانانغ في الشمال ومنها الى هوي، العاصمة الامبراطورية القديمة والمركز الثقافي والروحي لكل فيتنام، ووقفت على مشارف المنطقة المجردة من السلاح بالقرب من خط العرض ١٧ الذي يفصل بين الفيتنامين. وفي هوي سمعت للمرة الأولى باسم خي سانه، قبل بدء القتال في المنطقة المجردة، وقبل أن يحتل الفيتكونغ والفيتناميون الشماليون خي سانه القرية، ويتركوا للأميركيين خي سانه المعقل، كآخر «خط ماجينو» في الحروب الحديثة، بل قبل أن تتوارد في الخواطر المقارنة بين «ديان بيان فو» وخي سانه. وهذه أرض تقع في واد تكسوه أحراج كثيفة على بعد ١١ كيلومتراً من لاوس، على أقصر طريق للغزو بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية، تحيط بها تلال عالية وجد الأميركيون أن من الأسهل لهم اطلاق أرقام عليها بدلاً من اطلاق الأسماء. وهناك ٥ آلاف أميركي اليوم يلعبون لعبة خطرة يسمونها «الانتظار الكبير» في تلك الأرض ذات التراب الأحمر الذي كان لها منذ سنتين، على الأقل، وجعلت منها «الاضافات الأميركية» شيئاً شبيهاً بمدينة «كاو بوي» في الغرب الأقصى الأميركي، كما نراها في السينما.

لكن خي سانه عام ١٩٦٨، بعد أكثر من أسبوعين مضيا على أكبر وأعنف هجوم قام به الفيتكونغ في كل أنحاء فيتنام الجنوبية منذ اشتعال الحرب الفيتنامية الثانية، لا بد لها من أن تكون اصبحت شيئاً آخر. فإن معظم القوات الأميركية المدافعة هي من «المارينز»، مشاة البحرية، مطوقة «بجدار انتحاري» من قوات فيتنام الجنوبية، وفي مؤخرتها فرقة من القوات الخاصة المعروفة «بالبيريات الخضر»، وهي معدة خصيصاً ومدربة على حرب العصابات. وكان الرئيس الراحل كينيدي قد أمر بتنظيمها عام ١٩٦١ إثر فشل غزو «خليج الخنازير» في كوبا. إنها خليط من تقاليد «الفرقة الأجنبية» في الجيش الفرنسي و «الغوركا» في الجيش البريطاني. إلا أن أغلب أفرادها من المتطوعين الأميركيين.

أما القوات الفيتنامية الجنوبية في خي سانه، فهي بقيادة ضباط «من البيريات الخضر». وتتألف من قبائل «المونتانيار» التي تعتبر من أكبر الاقليات في فيتنام. وأفراد هذه القبائل من الجبليين، يعيشون حياة بدائية في قرى صغيرة تعيل نفسها بنفسها من الأرض التي حولها، أشداء، سمر البشرة على عكس الفيتناميين البيض، شبيهون الى حد ما بالهنود الحمر، عراة دائماً. ومن قبائل «المونتانيار» انطلقت شرارة العصيان الأولى ضد الفرنسيين منذ عودتهم الى فيتنام بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. ومن «المونتانيار» شكل الجنرال جياب كشافة «الفيت ـ منه» لحربه ضد الفرنسيين؛ وذلك لخبرتهم بالجبال والغابات ومسالكها. ومن «المونتانيار» يشكل الفيتناميون الجنوبيون الآن أشد فرق جيشهم بأساً. وهم يحاربون بالرماح والأقواس السامة، ويعوزهم الانضباط في استعمال السلاح الحديث. والسؤال العسكري المطروح في خي سانه: الى

متى يستطيعون الصمود في لعبة «الانتظار الطويل؟» انهم مشكلة اجتماعية وسياسية قديمة في فيتنام قائمة منذ عشرات السنين. فعرقهم غير عرق الفيتناميين. لهم لغتهم وتقاليدهم وعاداتهم، وهم وثنيون لم تصلهم لا البوذية ولا المسيحية. يحتقرون الفيتناميين، والعكس بالعكس. وزادت فرنسا، خلال حكمها الطويل في الهند الصينية، من هذه المشكلة وغذتها بأسلوبها الاستعماري التقليدي، عنصرياً واقليمياً، فحكمتهم حكماً خاصاً، على نحو يختلف عن حكمها لسائر البلاد، وشجعت دعوتهم الى الاستقلال الذاتي عن فيتنام.

لكن «المونتانيار» كانوا أول من أطلق الشرارة الأولى في العصيان على فرنسا عام ١٩٤٧. فانضموا، أو ضمهم هوشي منه، الى حركة «الفيت ـ منه»، وكانوا عمادها حتى هزيمة الفرنسيين. ومع انقسام فيتنام جنوبية وشمالية عام ١٩٥٤، خرج «المونتانيار» على طاعة هوشي منه لأسباب ثلاثة: أولاً، عدم عقائديتهم وتماسكهم القبلي ولا فيتناميتهم. ثانياً، محاولة جعلهم «شيوعيين»، قسراً، من قبل الفيتناميين الشماليين، وتمردهم على المحاولة، باعتبار أن هزيمة العدو فرنسا، هي نهاية المطاف. ثالثاً، لوقوع بلادهم ـ بلاد «المونتانيار» ـ في المرتفعات الوسطى من فيتنام الجنوبية، بالقرب من مدينة «بليكو» وحدود كمبوديا الغربية، وعودة أكثرهم الى قراهم، إثر جلاء الفرنسيين وانتهاء الحرب الفيتنامية الأولى.

والحياة تبدأ في خي سانه في العاشرة صباحاً عندما ينحسر الضباب وتصل الطائرة الأولى من طراز «سي ـ ١٣٠» من دانانغ الى مطار المعقل الصغير، فتهبط على المدرج القصير وتلقي بحمولتها من المؤن والعتاد وتحمل ركاباً جدداً. ومن غير أن تقف تدور وتقلع نحو دانانغ، على بعد نصف ساعة طيراناً، وغالباً ما تحط وعليها سلسلة ثقوب من الرصاص في اجنحتها أو مؤخرتها. وقبل ساعة من الغروب تهبط الطائرة الأخرى، بعد أن تكون آخر طائرات الاستكشاف والهليكوبتر الحربية والاسعاف قد أقلعت. حتى اذا ما حل الليل لا تبقى أية طائرة، ولا يبقى بخي سانه، الى غداة اليوم التالي، أي اتصال بالعالم سوى بالراديو. ثم ان خي سانه لا يتحرك فيها شيء، سوى تلك الطائرات وبضعة رجال، ولا تسمع منها الا أصوات الشتائم ضد العدو والحرب والطقس. أما عبر المتاريس الأمامية، فصمت جاثم هو الموت الذي هو وحده الحدود الطبيعية.

والمقارنة بين خي سانه و «ديان بيان فو» لا بد منها، لا للتشابه الجغرافي بين المعقلين وحسب، بل للأهمية السياسية التي يعطيها المراقبون للانتصار النهائي فيها والذي سيكون كورقة رابحة على مائدة المفاوضات. فإن «ديان بيان فو» سقطت في أيدي «الفيت ـ منه» اثر حصار دام ٥٦ يوماً، كلف ٢٢ ألف ضحية من «الفيت ـ منه» و ١٣,٠٥٠ من الفرنسيين. وكان ذلك في ٨ أيار ١٩٥٤. ومهندس الانتصار هو الرجل نفسه الذي يهندس انتصاراً مماثلاً في خي سانه بعد ١٤ سنة: الجنرال جياب. واستراتيجية جياب واضحة: هجوم مركز من الشمال عبر الأرض المجردة، مع هجوم من الجنوب والجنوب الشرقي عبر لاوس. اما التكتيك، فمن المتوقع أن يتبع التكتيك إياه

الذي اتبع في ديان بيان فو، مع تعديلات عسكرية تحسب فارق الزمن، كاستعمال الفيتناميين الشماليين الدبابات للمرة الأولى في الهجوم الذي وقع على الخطوط الدفاعية الأولى. ولجياب مراكز للمدفعية الثقيلة في لاوس وفي الشمال، مغطاة بغابات كثيفة من الصعب كشفها من الجو لقصفها. وفي «ديان بيان فو» حفر جياب نفقاً ضخماً في جبل ليجعل منه مركزاً غير مرئي للمدفعية. أما مراكز المدفعية الأميركية الثقيلة فهي الى الشرق من خي سانه في قواعد مشاة البحرية في «روكبيل» و «كامب كارول».

الخطوة التالية للقصف بالمدفعية، هي المشاة. فمن المفترض أن يبقى جيش جياب البالغ حوالي ٤٠ ألف جندي وراء الهضاب، ليهجم في الليل أو تحت ستار الضباب الجاف الذي يستمر منتشراً على تلك المنطقة حتى الظهر في هذا الوقت من العام. في «ديان بيان فو»، لم يزد عدد الفرنسيين، في أي وقت، عن ١٣ الف جندي مقابل ٤٥ ألفاً من «الفيت ـ منه» مع ٥٥ ألف مقاتل مساند. وللأميركيين اليوم حوالي ٦ آلاف جندي مقابل ٤٠ الفاً لجياب، لكن مع ٤٠ ألف أميركي في الاحتياط، على بعد ٤٥ دقيقة طيراناً، في معسكر «فو باي». والطيران هو مفتاح خي سانه، كما أنه العامل الحاسم في أي انتصار، كما كان في «ديان بيان فو». وللطائرات الأميركية ثلاث مهام. الأولى: امداد خي سانه بالمؤن والعتاد. الثانية: قصف مدفعية جياب واسكاتها. الثالثة: قطع طرق التموين عن جنوده. وكان بوسع القوة الجوية أن تنقذ «ديان بيان فو»، لكن الطيران الفرنسي فشل في اسكات ١٤٤ مدفعاً ثقيلاً «للفيت ـ منه»، كما فشل في قطع طرق التموين التي كانت عبارة عن عشرات الدراجات القادمة من الصين، استطاعت أن تحمل ٨٢٨٦ طناً من الأغذية الى المقاتلين الفيتناميين. وفي خي سانه مدرج وحيد. وفي ما يشبهه في معركة «ديان بيان فو» استطاعت مدافع جياب أن تسقط ٤٨ طائرة للفرنسيين وتدمر ١٤ على الأرض وتعطل ١٦٧.

لكن المقارنة التاريخية قد تقف هنا لتفصل بين حلم الجنرال جياب وهاجس الجنرال وستمورلند. فالفارق بين وضع الفرنسيين بالأمس والأميركيين اليوم كبير. ذلك أن للاميركيين أسطولاً جوياً لم يحلم به أي جنرال فرنسي، ومواقعهم أكثر وأحسن تحصيناً، وأسلحتهم أحدث وأوفر وأفضل من السلاح الفرنسي الذي كان يستعمل إذ ذاك؛ كما أن الجندي الأميركي، مهما جاءت نتيجة الحرب، قد فرض احترامه على الفيتناميين بشكل لم يستطعه الجندي الفرنسي. إنما التاريخ قد يعيد نفسه، لو أخطأت الحسابات الصغيرة، ووقفت الطبيعة والطقس؛ وهما عاملان أساسيان في الحرب يمكنهما أن يعرقلا خط التموين الجوي، الى جانب الفيتناميين لا الى جانب الأميركيين. وحتى لو تحقق الانتصار العسكري للشماليين في خي سانه فسوف تكون الهزيمة سياسية للأميركيين، كما أن هزيمة الشماليين عسكرياً لن تفيد الاميركيين ولن تكون انتصاراً سياسياً لهم.

وفي مصير خي سانه الذي يعتمد على الطيران وجه من السخرية هو: عندما كانت «ديان بيان فو» تموت، فكر الرئيس ايزنهاور بارسال الطيران الأميركي لمساعدة الفرنسيين.

واجتمع لهذه الغاية في ٣ نيسان عام ١٩٥٤ الى ثمانية شيوخ. إلا أن شيخاً ظل يعارض التدخل الأميركي في فيتنام، ويدعو الى عدم زج الطائرات الأميركية في معركة خاسرة مع الفرنسيين، وكان اسمه: ليندون ب. جونسون.

وسخرية الأقدار تمتد الى بطون التاريخ، حيث تم اللقاء الأميركي ـ الفيتنامي البكر. فان أول اميركي وطىء الأرض الفيتنامية كان بحاراً تاجراً يدعى: جون هوايت جاء من مدينة سالم في ولاية نيوانكلند على متن الباخرة «فرانكلين» الى سايغون عام ١٨١٩، ليفتح طريقاً تجارياً بين الولايات المتحدة وفيتنام. وزار هوايت دانانغ وهوي حيث قابل الامبراطور. ويحدّث في كتابه: «تاريخ رحلة الى بحر الصين» الذي صدر في بوسطن عام ١٨٣٠ عن انطباعاته في فيتنام، حديث المأخوذ بسحرها وجمالها وتقاليدها. لكنه لم يكن ممثلاً رسمياً لحكومة الولايات المتحدة، بل كان بحاراً يسعى وراء طرق تجارية الى الشرق الأقصى. حتى وصلت عام ١٨٣٢، في عهد الامبراطور مينه ـ مانغ، بعثة ديبلوماسية اميركية برئاسة ادموند روبرتس. وهذا كان بحاراً أيضاً، قام برحلات عدة الى الشرق الأقصى، مكلفاً من الرئيس الأميركي اندروجاكسون، بزيارة فيتنام وسيام (تايلاند) والجزيرة العربية بغية عقد معاهدات معها. وحمل روبرتس رسائل من جاكسون موجهة الى رؤساء هذه الدول، وأوراق اعتماد رسمية موقعة من وزير الخارجية الأميركية ليفينغستون. ووصل الى خليج «زوان ـ داي» في مقاطعة «فو ـ ين» في أواسط فيتنام، على متن الباخرة «بيكوك» التابعة للبحرية. وعند بلوغه «فوتاين» أرسل الامبراطور مينه ـ مانغ بعثة ديبلوماسية لاستقباله قوامها ضابط وموظف في القصر. وعلى ظهر «بيكوك» اقيمت أول مأدبة ديبلوماسية جمعت رسميين اميركيين وفيتناميين في بحر الصين قبل ١٣٣ سنة. وخلال المأدبة سأل الرسميون الفيتناميون الاميركيين عن السبب في زيارتهم لفيتنام ونياتهم تجاهها، فقال روبرتس: «إن بعثتنا سلمية، مهمتها إقامة علاقة تجارية بين بلدينا، ونياتنا تجاه فيتنام هي خير وسلام».

ورفض الامبراطور مينه ـ مانغ قبول أوراق روبرتس لأن ليفينغستون نسي أن يذكر اسم الامبراطور الكامل عليها. وغادرت البعثة الأميركية فيتنام خائبة. ثم لم تلبث أن عادت ثانية برئاسة روبرتس أيضاً بعد أربع سنوات إبان صيف ١٨٣٦ وعلى ظهر «بيكوك» نفسها ومعها رسالة رسمية كاملة من الحكومة الأميركية الى الامبراطور للقيام بمفاوضات تجارية وإقامة علاقات ديبلوماسية. وبدأت المفاوضات بين الجانبين. وكان الجانب الفيتنامي برئاسة نائب رئيس الحكومة هوانغ ـ كيونه الذي رفع توصية الى الامبراطور يقول فيها: «إن بلادهم (أي الولايات المتحدة، قد سميت بالفيتنامية: «نها ـ دي ـ لي») خبيثة وذكية. ويجب أن نرفض طلبهم اقامة علاقات. فإذا الزمنا أنفسنا بعلاقات دون دراسة كافية، فسوف يصيبنا الكثير من المتاعب في المستقبل». وقبل أن يبت الامبراطور نهائياً في القبول أو الرفض، أمر وفداً من وزرائه بزيارة «بيكوك» وتقديم الاحترام للبعثة الاميركية. ولم تستقبل «بيكوك» الوفد الفيتنامي لأن روبرتس كان مريضاً. ونسي المترجم أن يذكر للوفد أن عدم استقباله يعود الى مرض رئيس البعثة

والقبطان. فعاد الوفد مستاء وأبلغ الامبراطور الذي علق على الأمر بقوله: «يجب أن لا نشعر بالاهانة أو بالاستياء عندما نتعامل مع البرابرة الغرباء». وغادرت السفينة الأميركية الشواطىء الفيتنامية على عجل لبلوغ هونغ كونغ وعلاج روبرتس. لكن روبرتس مات في ماكاو في حزيران ١٨٣٦، وانتهت البعثة الأميركية الثانية بفشل آخر.

واستمر القدر يمارس سخريته التاريخية. وكان أن جاء أول فيتنامي الى الولايات المتحدة، ساعياً وراء مساعدة أميركية لبلاده ضد فرنسا. وهو المبعوث بوي ـ منين، علامة شهير وخريج جامعة هوي، ومن المقربين للامبراطور تو ـ دوك (١٨٦٨)، كما أنه سليل عائلة شهيرة بالعلم، من قرية ترينه ـ فو في مقاطعة ثاي ـ بينه في فيتنام الشمالية. وفي عام ١٨٧٣ كانت فيتنام تقاوم نفوذ فرنسا الزاحف اليها من بقية أجزاء الهند الصينية. فكلف الامبراطور بوي ـ منين الذهاب الى الولايات المتحدة وطلب عونها حفاظاً على استقلال فيتنام. وفي شتاء عام ١٨٧٣ أبحر المبعوث الى سان فرانسيسكو عبر هونغ كونغ حيث تعرف على القنصل الأميركي، وبلغ واشنطن بعد رحلة مضنية. وفي العاصمة الأميركية انتظر طويلاً حتى استطاع أن يقابل الرئيس الأميركي يوليسيس غرانت، شارحاً قضية بلاده. فوعده غرانت باديء الأمر بمساعدة عاجلة مبدياً عطف أميركا على فيتنام، شرط أن يقدم له بوي ـ منين أوراق اعتماد وطلباً رسمياً من الامبراطور ليعرضه على الكونغرس. وقبل أن يعود بوي ـ منين الى بلاده لأجل الأوراق، غير غرانت رأيه وسحب «اعترافه وعطفه على مطالب فيتنام ضد فرنسا». وفي يوكوهوما، بلدة غرانت، كتب بوي ـ منين قصيدة بالصينية يودع فيها الولايات المتحدة، ودخلت القصيدة التراث الفيتنامي.

وبعد مضيّ أكثر من قرن وربع قرن، تقف الولايات المتحدة وجهاً لوجه أمام عدو فيتنامي من جهة، ومع حليف فيتنامي من جهة. والعدو الفيتنامي هو، عسكرياً، الفيتكونغ في الجنوب والقوات النظامية لفيتنام الشمالية، وسياسياً جبهة التحرير الوطني، الذراع السياسية للفيتكونغ في الجنوب، والنظام الشيوعي الذي يرئسه هوشي منه في الشمال. وبعد الهجوم الصاعق الذي شنه الفيتكونغ طوال ثلاثة أسابيع، في أكثر المدن «أماناً» في فيتنام الجنوبية، من سايغون الى دالات حتى هوي، ناسفاً البديهيات التي كانت تقوم عليها الاستراتيجية الأميركية، يتصلب موقف الفيتكونغ عند المواقف التالية: أولاً، لا حل وسطاً للحرب الفيتنامية. فالنضال «حتى النهاية» ـ الانتصار أو الموت. ثانياً، الشرط الوحيد لإنهاء الحرب هو الهزيمة الحتمية للولايات المتحدة وحليفتها فيتنام الجنوبية. ثالثاً، مشاكل فيتنام الجنوبية تُحَل في محادثات بين الأميركيين وجبهة التحرير، وليس بين واشنطن وهانوي. وكما قال أحد زعماء الفيتكونغ: «في الوقت الذي يوقف الأميركيون قصف فيتنام الشمالية يستطيعون التحدث مع هانوي. أما إذا أرادوا البحث في شؤون فيتنام الجنوبية فعليهم أن يتحدثوا مع جبهة التحرير». رابعاً: ان وجود قوات فيتنامية شمالية في الجنوب هو واجب ملقى على عاتق الشمال لمساعدة اخوانه في الجنوب. ولا انسحاب قبل التحرير الشامل. إن الواجب العادي لـ ٣١ مليوناً

فيتنامياً يؤلفون أمة واحدة أن يحاربوا معاً. فالأميركيون يعتقدون أن القوات الشمالية قوات غازية، وينسون أن فيتنام أمة وشعب واحد. خامساً، شرط المحادثات الوحيد بين الفيتكونغ والاميركيين هو الاعتراف بجبهة التحرير الممثلة الوحيدة لشعب فيتنام الجنوبية، أي التخلي نهائياً عن الحكومة الحالية ورجالاتها في سايغون.

وتبقى الاستراتيجية الأميركية في فيتنام موضع «شك كبير»، على حد تعبير خبير دفاعي بريطاني؛ وخصوصاً عقب تبرير هجوم الفيتكونغ الأخير على المدن الجنوبية، بأنه عملية «يائسة». فما زال الأميركيون يصرون على تعليم العدو «ما يجب» أن يفعله، لا «ما يريد» أن يقوم به. غير أن هذا «الشك الكبير» لا بد له من أن يولد نوعين من ردود الفعل. الأول يتعلق بالفيتناميين، والثاني بالأميركيين. فبعض هؤلاء في سايغون من الذين يحافظون على ادراكهم الصحيح، يأملون أن يكون هجوم الفيتكونغ الأخير قد أسفر عن نتيجة ايجابية هي أن على الفيتناميين أن يختاروا الآن وفوراً الى أي جانب يريدون أن ينضموا وينتموا. إذ أن الأيام الأخيرة اظهرت أن الأميركيين والشيوعيين هما الطرفان اللذان يحاربان باقتناع والتزام دفاعاً عن مبدأين مختلفين لشعب تعب من الحروب على مدى ٢١ سنة كاملة منها، فلجأ الى عدم الاكتراث ليحمي نفسه من ويلاتها. لذلك كان قوام الدولة في فيتنام الجنوبية مهلهلاً منذ مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤، وعبر عهود دييم وأشقائه ومن بعدهم العسكر وفيالقهم. واذا لم توقظ هذه الصدمة الفيتناميين الجنوبيين، وتشعرهم بأهمية الفترة المصيرية التي يمرون بها، فلا شيء في الدنيا ينقذهم.

لكن الادراك الثاني يقع على عاتق الأميركيين، وهو أن الهدف المباشر للهجوم الشيوعي الكبير الذي وقع عليهم في فيتنام، من السفارة الأميركية في سايغون جنوباً حتى الجامعة الامبراطورية في هوي شمالاً، لم يكن الاستيلاء على المدن، أو احتلال السفارة الأميركية. ولم يكن اثارة معارك جانبية، إذ أن هذه المعارك نشبت منذ أشهر في «لوك نيه» و «داك تو» و «لانغ في» على مقربة من «خي سانه». بل لم يكن معركة خي سانه نفسها. إن الهدف الأساسي من الهجوم الصاعق ذاك هو تدمير الجهد الحربي للأميركيين والفيتناميين الجنوبيين، ووقف عمليات «التمشيط والابادة»، وبالتالي عمليات «السيطرة السلمية» على المناطق الجنوبية التي تم «تطهيرها» من الفيتكونغ، ثم جعل الحكومة الجنوبية تنهار. ونجح الفيتكونغ في إلهاء الأميركيين وحلفائهم عن إمكان قيامهم بكل ذلك، بواسطة تضخيمهم إمكان غزو تقليدي للجنوب عبر المنطقة المجردة في الشمال أو حدود لاوس وكمبوديا، وبالتالي تركيز القوى الأميركية على هذه المناطق تركيزاً يمتنع معه وجودها على نحو كاف في المدن. والجنرال جياب يعرف، حتى لو تجاهل القادة الأميركيون، أن هذه الحرب يجب أن يتم ربحها في عقول الفيتناميين الجنوبيين وقلوبهم، أكثر من ربحها في الغابات الكثيفة والجبال النائية.

لذلك قد تبدو خي سانه عملية إلهاء ضخمة، أكثر منها معركة حربية يترتب عليها تحديد مصير الحرب الفيتنامية كلها، وتعتبرها واشنطن أكبر تحد عسكري تواجهه

القوات الأميركية منذ الحرب العالمية الثانية. فأمام الجنرال جياب اختياران: الأول ان يستمر في التهديد بالهجوم على خي سانه بواسطة معارك صغيرة جانبية، مجمداً الجزء الأفضل من القوات الاميركية. والثاني الهجوم عليها عند حدوث ظروف مناسبة له واحتلالها بالقصف المتواصل بالمدفعية والصواريخ، وإغراقها بعشرات الآلاف من المحاربين الذين يملكهم؛ وعنده منهم معين لا ينضب، وخلق مواجهة بشرية، ترخص الحياة فيها، وتفقد الرصاصة فعاليتها. إن الأهداف العسكرية الأساسية للفيتكونغ لم تكن الانتصار التقليدي الآني في معركة حربية، بقدر ما كانت لانتصار سياسي ونفسي. هذا ما أرادوه: اظهار هزيمة «الرأي العام الأميركي» داخل الولايات المتحدة، وضعف الارادة الاميركية اثر كل نكسة حربية داخل فيتنام. واظهار هزيمة «الرأي العام الفيتنامي» داخل فيتنام الجنوبية، وضعف الارادة الفيتنامية أمام الاندحارات العسكرية المتواصلة داخل البلاد، وبالتالي فشل الأميركيين في خلق استراتيجية ناجحة مناوئة، وفشل الفيتناميين الجنوبيين في بناء دولة، بمساعدة الأميركيين، مستقرة وديموقراطية وحرة تكون بديلاً يختاره الجنوبيون من الشمال الشيوعي.

وإذا عدنا الى تدخل سخرية الأقدار في التاريخ الفيتنامي نرى اليوم، والمعارك الحقيقية بين الفيتكونغ والأميركيين والفيتناميين الجنوبيين ما زالت تدور في هوي، نرى السخرية تمتد الى مقارنة هامة هي أن هوي «صمام الاضطرابات» في كل فيتنام. فمن هوي اندلعت الاضطرابات التي اطاحت بحكم دييم، ثم بحكم الجنرال خانه، ثم برئيس الدولة فان خان سوك. ومن هوي اندلعت حملة البوذيين واستمرت عاماً ونيفاً ضد حكم الجنرال كاو كي عام ١٩٦٦. وفيها حدثت عمليات الحرق الانتحارية التي قام بها الرهبان والراهبات البوذيون بحق أنفسهم. وهوي معقل البوذيين، والعاصمة الامبراطورية القديمة التي انطلقت منها شرارات التمرد كلها في تاريخ فيتنام السياسي. وتمثال بوذا الشهير في المعبد الكبير يقف فوق «نهر العطر» مطلاً على «ممر الغيوم» كعلامة فارقة لهذه المدينة «الهادئة»، هدوء قبور الملوك الفخمة المنتشرة على مداخلها. أما جامعتها الكبيرة وقصرها الامبراطوري الفخم الذي بني عام ١٨٠٤، فهما معلمان عتيقان يكادان يكونان قد اندثرا. فهوي التي لم تعرف شوارعها الناعمة الضيقة «التاكسيات»، ولم تعرف أحياؤها الفنادق؛ والتي تحول احد بيوتها القديمة الى فندق بحكم الظروف، فضت بكارتها بالدبابات والرصاص والهليكوبتر. وكما قال لي زميلي الصحافي القديم: «إن ما يبدأ عادة في هوي يكون كالوباء، يجتاح كل شيء».

والدولة في سايغون لم تعد منيعة حيال الوباء القادم اليها من الشمال. كذلك خفت مناعة دالات؛ ربما أجمل مدن فيتنام، والمنتجع القابع في أواسط البلاد، والمحاط بغابات من الصنوبر تطل على بحيرات ترتفع ١٢٠٠ قدم عن سطح البحر. ودالات هي «مزرعة» فيتنام. ففيها وعلى هضابها وسهولها يزرع كل نوع من الخضر والفاكهة في العالم؛ فتأكل منه فيتنام حتى تشبع، ودالات أيضاً ـ أو كانت ـ مصيف الهاربين من ضغط الحياة البشرية في سايغون. ان بيوتها وحدائقها نادرة. والآن وقد استعيدت من أيدي

الفيتكونغ، بعدما كانت تحت سيطرة امـرأة تحتل منصب المحـافظ اسمها مـدام نغوين هو، وهي المرأة الوحيدة التي تولت منصباً حكـومياً عـاماً في فيتنـام، لم يبق من المعالم التي تعتز بها دالات الى جانب جمالهـا، الا الكلية الحـربية التي تخـرّج ضباط فيتنـام الـجنوبية. لكن الى متى؟ حتى نهاية الحرب الطويلة؟ ربما.

أما سايغون نفسها وهي تعيش تحت وطأة الحرب الحقيقية للمرة الأولى منذ ربع قـرن، دخلها الخراب الذي تفادته طوال السنـوات الخمس والعشرين الماضيـة. وتشعر بـأنها ليست أحسن حظاً من هانوي. وفيما كانت منذ عامين، كئيبة، تغطي أحزانها بستار من اللامبالاة، إذا بها كأنها تفجر حزنها الدفين وبكاءها على مجد أضاعته.

والفيتناميون، رغم الفوضى السياسية، من أكثر الشعـوب إحساسـاً بكونهم أمـة واحدة ذات مقومات تاريخية وجغرافية وحضارية مشتـركة، وذات شخصيـة مميزة تحمـل كل معـالم التفرد، دون شعـوب الهند الصينيـة قاطبـة. لكن الظروف لم تجعـل منهم دولة واحدة. فبلادهم عاشت إثر نيلها استقلالها من الاستعمار الفرنسي بعد الحرب العالميـة الثانية، مجـزأة حسب اتفاق جنيف عـام ١٩٥٤، بين شمـال وجنوب. وهـذا الاحساس لديهم، بالاضافة الى الظروف الحربيـة والسياسيـة وتوالي الانقـلابات العسكـرية منـذ سقوط دييم، حرم فيتنام مقومات الدولة الحديثة. وولاؤهم، رغم هذا الاحساس، ما زال يدور حول العائلة وحول الطائفة وحول المنطقة وحول الحي، أكثر مما يدور حول الـدولة أو السلطة اللتين يعيشون في ظلالهما.

ويذكرني زميلي الصحافي القديم، بأن فيتنام مأساة تتجدد كـل عشر سنوات؛ كمـا تقول اسطورة بوذية قديمة، وبأن السنوات العشر الحالية قد قاربت النهاية. وهي مثل التنين ـ واسم فيتنام يعني «التنين الصغير» ـ يقدح شرراً ويبتلع ناراً، ثم يهمد كالبركان وقتـاً طويلاً قبل أن يعود فيثور. إنها تنـين يكاد يختنق من الاستفـزاز، ويحترق ويحـرق كل شيء. ولا شك أن الأسطورة البوذية صحيحة، لأن التنين الصغير قد كبر.

هونغ كونغ ـ (١٨/٢/١٩٦٧)



هونغ كونغ

فوهة البركان

قد تكون هونغ كونغ بالنسبة للعالم خطأ تاريخياً تجاوز الزمن. ولكن بالنسبة للقادم من قلب جنوب شرق آسيا ـ وقد أثقلتها أشياء كثيرة أقلها الحرب ـ فهي قطعة من المتعة مزروعة في طرف الشرق الأقصى على حافة بحر جنوب الصين.

وأهم متعة في هونغ كونغ، هي كونها نافذة مفتوحة على كل ما في الدنيا من أشياء.

ولكن هونغ كونغ هي الماضي، وليست المستقبل. فهي تجتر الأمس يوماً إثر يوم على حساب غير مجهول. فالمستعمرة البريطانية التي كانت من قرن مضى، مجرد مخبأ صغير لحفنة من الصيادين والمزارعين والقراصنة، هي اليوم مركز غنى فاحش ـ وفقر مدقع مثل أكثر جيرانها في آسيا ـ لعالم يبحث عن الدور الذي يمكن أن تؤديه له هونغ كونغ.

واذا طرحنا السؤال من جديد على ماهية هونغ كونغ، لوجدنا احتمالات كثيرة. كلها تبتعد أو تقترب من الحقيقة بقدر بعدها أو قربها من البر الصيني أو من المضيق الفورموزي.

يقولون ـ على الأقل خارج هونغ كونغ ـ انها نافذة الصين على العالم. ويقولون ـ على الأقل داخل ردهات فنادق هونغ كونغ الفخمة ـ انها مركز استماع ممتاز لما يدور داخل الصين نفسها. فهل تخدم هونغ كونغ مصالح الصين أم مصالح من لا يحبون الصين؟

في زيارة لصديق أوروبي الأصل ولكنه من مواليد هونغ كونغ، التقيت بعدد من الصحافيين والمراسلين الأجانب، تشعب فيها الحديث عن دور هونغ كونغ، ومستقبلها. حتى لخص الصديق الهونغ كونغي موقف بلاده بقوله: المصلحة. ففي وجود هونغ كونغ مصلحة للشرق والغرب وما بينهما. فهي مركز ثقل للعلاقات الدولية في آسيا. ولكن

بشرط واحد، على أن لا يعاني مواطنو هونغ كونغ من شيء اسمه البطالة. فالدور الحيادي الذي تقوم به هونغ كونغ يمليه عليها حب البقاء، وبالتالي مصلحتها. فبخدماتها للآخرين، تخدم هونغ كونغ نفسها، وتحافظ على وجودها.

أما بريطانيا، فلها رأي آخر الى جانب رأي أهالي البلاد. فهي في رأيها ليست مجرد مستعمرة، استولت عليها من الصين عام ١٨٤٢ بموجب معاهدة نانكين بعد احتلالها خلال حرب الأفيون الأولى عام ١٨٣٩. انها اليوم بلد يضم حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة، واحد بالمئة فقط منهم من غير الصينيين.

ولكن ما رأي الصين؟

لم تتردد بكين في أكثر من مناسبة في أن تعلن أن «الأمر الواقع» بالنسبة لهونغ كونغ (وماكاو) يجب أن يستمر، حتى تسمح الظروف «لحل هذه الأمور المعلقة عن طريق المفاوضات» وعندئذ ـ والكلام ما زال لبكين ـ يمكن أن يعاد النظر بالمعاهدات التي فرضت على الصين عندما كانت ضعيفة، على ضوء مصالحها والظروف الدولية المناسبة.

طبعاً كل هذا لا يعني ان الصين قد أعطت شيكاً على بياض لهونغ كونغ ومستقبلها. ولكن نجاح هونغ كونغ يعود الى الواقعية العملية التي يتمتع بها سكانها والادارة البريطانية في الاستمرار والتحسين والاستفادة من الوقت. فالوجود الهونغ كونغي والحكم فيه، هما نوع من العيش بالتراضي. رضا أهالي البلاد. ورضا البريطانيين ورضا الصين. وبالتالي رضا عدد كبير من الدول المجاورة والبعيدة من أصحاب المصالح.

ولكن لهونغ كونغ وجهاً آخر، الوجه الذي يراه السائح القادم لفترة وجيزة. وهذا الوجه لا يهتم كثيراً بمشاكل الوجود، ولا ما وراء الجزيرة التي تعاند التاريخ. إنه الانسان المأخوذ بسحر هونغ كونغ.

وقد يكون من الضروري للقادم الى لندن مثلاً، أن يرى «برج لندن»، أو قصر باكنغهام أو هايد بارك. أو للقادم الى باريس أن يستمتع بكنيسة نوتردام أو يتسلق برج ايفل. ولكن القادم الى هونغ كونغ يجب أن يرى كل هونغ كونغ أو لا يراها، سواء من البر أم من البحر أم من الجو.

ولكن بم تغري هونغ كونغ؟

على افتراض أن الوقت كله ملك الزائر، فإن الانتقال من هونغ كونغ الجزيرة، الى كولون شبه الجزيرة في الطرف الآخر، حتى المقاطعات الجديدة، شيء تؤمنه شركات السياحة باستمرار. ولكن اذا استطعت أن تستأجر سيارة ومعها خارطة جيدة، وغامرت بالتجول وحدك في هونغ كونغ، فإن مجال الاكتشاف أروع وأجمل.

ولكن شركات السياحة قد لا تترك مجالاً لأصحاب الوقت القصير، فتوفر عليهم مؤونة المغامرة وتريهم الجزيرة ـ ولعل أهم معالمها ـ في ساعات معدودة. في النهار، أماكن التاريخ والجغرافيا، وفي الليل، أماكن اللهو والسهر.

فجولة الليل تستغرق حوالي خمس ساعات، وتشتمل على عشاء ـ لا بأس به ـ وزيارة لأوبرا صينية ـ تخرج منها بصداع مزعج وطرش مؤقت ـ وزيارة «لنايت كلوب» مع مشروب واحد ـ كل ما عداه يضاف على الفاتورة ويعتبر اكسترا. ولكن اذا خطر ببالك أن تدعو «مضيفة» الى الرقص، أو لتجالسك إلى المائدة، فتوقع أن تنهال عليك «فواتير الاكسترا»، حتى تخرج ميزانيتك عن صوابها. فتترحم على ليالي بيروت الف مرة.

وحياة الليل في هونغ كونغ متعددة الجوانب. فكأي مدينة مفتوحة للبحر وللعالم فيها كل شيء، إلا الاسطورة السينمائية؛ وقدخففت الظروف الاقتصادية والسياسية من غلوائها.

وهونغ كونغ لا تنام. وملائكة الليل ـ كشياطينه ـ كثيرون. فالأشرعة المتجهة نحو البحر في قوارب صينية، أكثرها على استعداد لأن تحملك في نزهة ليلية في عرض الخليج، أو تحمل رهطاً من أصدقائك في سهرة فيها من كل شيء. والرحلات في القوارب الصينية من امتع الرحلات ـ ليلاً أو نهاراً ـ اذا استطعت أن تجد قارباً يعرف ملاحه ماذا تريد، ولا يكذب بما لا يريد.

غير ان هونغ كونغ المدينة تبدأ «بترامواي القمة». فهذا الترامواي يأخذك الى علو ١٣٠٠ قدم عبر ادغال استوائية، فيريك عالم هونغ كونغ كله من فوق. و «القمة» مكان بارد ومنعش جداً وخاصة في أيام الصيف. أما في الشتاء، فهي براد للأحياء.

وفي طريق النزول من القمة، تطل حدائق «تايغر بالم» والمعابد البيضاء. وهي حدائق صممت على الطراز الكلاسيكي الصيني، بهندستها وتماثيلها وتصاميمها. وهي جنة للأطفال، بدأت من قبل أن يفكر ديزني ببناء «ديزني لاند» في الغرب بسنوات طوال.

والى جانب «هونغ كونغ» تقع قرية صيد اسماك قديمة اسمها: «ابردين»ـ أو «شيك باي وان» من قبل أن يأتي البريطانيون ـ فيها خليج يأوي آلاف السفن التي يسكنها ويقتات منها ويعيش عليها ويموت فيها من دون أن يغادرها الوف الصينيين أيضاً. وبين هذه القوارب العتيقة، تطل ثلاثة مطاعم ضخمة عائمة مصممة على الطراز الامبراطوري الصيني، تخدم زبائنها الخدمة الصينية التقليدية، وتقدم أي نوع من انواع الأسماك الحية التي تنتقيها، وتطبخها على الطريقة الصينية التي تختارها.

أما «وانشاي» أو الميناء، المعروف «بعالم سوزي وانغ» تيمناً بالرواية الأميركية التي كتبها ريتشارد مايسون عن حياة فتاة صينية تعيش هناك والدور الذي تلعبه في حياة فنان اميركي يعيش في هونغ كونغ. فالميناء ـ وما فيه ـ هو الميناء في كل مدينة تتعامل مع البحر. وبقيت «سوزي وانغ» اسماً أشهر من كاتبها، وربما، من حيها.

ومع رواية ريتشارد مايسون، عاد التساؤل عن العصابات ـ أو الجمعيات ـ السرية التي كانت تحكم هونغ كونغ، والتي أوحت بعشرات الأفلام والقصص عن الجزيرة. فالعصابات السرية الصينية ـ «ترياد» كما تسمى باللغة الصينية ـ التي تتاجر بالمخدرات والرقيق الأبيض، قد بدأت قبل آلاف الأعوام كجمعية وطنية لمقاومة عائلة «المانشو» الغريبة التي حكمت الصين واعادت عائلة «مينغ» الى العرش.

ومع تطور الظروف السياسية انضمت «تریاد» الى منظمات حزب «كومينتانغ» الوطني الذي ألفه صن يات صن، أول رئيس جمهورية في الصين، والباني الحديث للدولة، ومن ثم أصبح «الكومينتانغ» حزب تشان كاي شيك اليوم. وعملت «ترياد» مع المنظمات الوطنية في الصين، حتى تقلصت مع الزمن وأصبحت في هونغ كونغ مجموعة عصابات للاجرام والرقيق.

وحتى عام ١٩٤٥، كانت هذه العصابات تتحكم في حياة هونغ كونغ الى حد كبير. وبازدياد سيادة القانون وتقوية البوليس، تحولت هذه العصابات الى مجرد شلة من القبضايات تعيش في الليل كما تعيش عشرات مثلها في أي مدينة أخرى، أو كما تعيش جزيرة «تشونغ تشاوي» وحيدة من دون قراصنة، بعد أن كانت أشهر جزيرة على حدود هونغ كونغ لقراصنة بحر الصين كله.

ومن حياة الليل والقراصنة والعصابات الى حياة السياسة.

التعايش البريطاني ـ الصيني هو الضمانة الوحيدة لاستمرار هونغ كونغ. وأهالي هونغ كونغ لا يتكلمون كثيراً في السياسة. فهم يسمعون جيداً عبر الحدود. وهونغ كونغ مع كاولدن تنتخب بين حين وآخر مجالسها البلدية. فربع المواطنين المسجلين يتقدمون نحو صناديق الاقتراع. فالهونغ كونغيون الموالون لبكين يخافون من النجاح في الانتخابات، لأن برنامجهم يدعو الى وحدة هونغ كونغ مع الصين. وهذا ما لا يريدونه ولا تريده الصين ولا تريده بالطبع بريطانيا. أما الآخرون، فلا يريدون تحريك القارب حتى لا يغرق. وعلى هذا الأساس يبقى الصمت السياسي هو سيد الموقف.

فالصين تزود هونغ كونغ بالماء. وتريد الصين أن يكون الماء بالمجان وبلا مقابل. ولكن هونغ كونغ تريد أن تدفع، وبكين لا تمانع في أن تقبض. والصين لا تمنع شركات الطيران العالمية من أن تعبر مجالها الجوي وهي تهبط في مطار هونغ كونغ أو تغادره، كما لا تعترض مئات القوارب والسفن المسافرة بين ماكاو وهونغ كونغ من المرور في مياهها الاقليمية. والصين تسمح يومياً لخمسين شخصاً صينياً بمغادرة أراضيها الى هونغ كونغ عبر الجسر الدولي في «لووو».

مقابل ذلك لا تمانع هونغ كونغ من طرفها في أن ينتخب اثنان من مواطنيها لمقعدين في البرلمان الصيني في بكين، الذي قلما يجتمع، أو إذا اجتمع، فنادراً جداً. وهونغ كونغ تسمح للمهاجرين غير القانونيين بالبقاء فيها؛ اذا استطاعوا الوصول الى مكتب التسجيل في قلب المستعمرة، قبل أن يعثر عليهم البوليس. والا فيعادون الى الحدود أو الى ماكاو.

وهكذا يكون الخطأ التاريخي الذي اسمه هونغ كونغ، قد برر وجوده حتى في السياسة. أما النافذة المفتوحة على الناس والأشياء، فهي أوسع مما يقدر لها البعض، وأكبر من العالم الذي تطل عليه.

هونغ كونغ ـ (١٩٦٦/١٠/٣)

تايوان

الجزيرة المنفى

والصين صينان، واحدة تعيش وراء السور العظيم، كأنها تخاف من انوار العالم المسلطة عليها، فتحاول أن تشغل نفسها بصنع عالم جديد. وأخرى خرجت من وراء السور، مهزومة ضعيفة واهنة، تحاول أن تعود الى داخل الجدار، لتعيش مع العالم الحقيقي الذي لم يقبلها بعد.

هذه هي حكاية اسيوية، تعيشها القارة المشتعلة كقضية من أهم قضاياها. أي صين نقبل؟ وبأي صين نعترف؟ ومع أي صين نتعامل؟ بل أي صين من الصينين هي الصين الحقيقية؟

الأولى والكبيرة، تحمل اليوم عبء «المئة زهرة» التي لم تتفتح، فتموت عطشى، وتحمل همّ الخلافة في صراع يدور على تركة رجل يمشي خطواته الأخيرة، يده على قلبه خوفاً من أن يضيع الملك الذي أعطاه عمره، وأن تنحرف الثورة عن الطريق المسدود الذي لا بد أن تصطدم به.

الثانية والصغيرة، تحمل عبء العودة الى داخل السور، محاولة استرداد التاج الذي اضاعه الجنراليسيمو، فتلبسه تاجها الصغير للمرة السادسة وهو على أبواب الثمانين، ولا اجماع الا الاجماع على رئاسته، ولا هدف الا العودة.

ومن هنا تنطلق قضية آسيوية كبيرة.

عندما وصلت تايوان من بعد حماة الحرب في فيتنام، مستخفاً بكل مقارنة بين البلدين، وجدت نفسي أمام الخيار الصعب، الذي لمحته في الربط بين الماضي الذي يعيشونه منذ سبع عشرة سنة، وبين المستقبل الذي يبنونه على أمل تردم الهوة التي كانت السبب في طرد الوطنيين من الجنة.

ووقف تشان كاي شيك ليقول في احتفال تنصيبه بأنه فشل في ايصال شعبه الى اليابسة الصينية في الطرف الآخر من البحر. ولكن عودة الوطنيين الى الصين، هـي المبرر والحلم والهدف والأمل.

وكان السؤال الوحيد الذي طرحته في تايوان، من تايبيه العاصمة، حتى كاوشونغ في الجنوب، وأمام كل من قابلته، من رئيس الوزراء ونائب رئيس الجمهورية الحالي حتى سائق التاكسي: هل ستعودون يوماً ما الى الصين الكبرى؟ متى؟ وكيف؟

وكان الجواب واحداً. نعم، وإلا لا مبرر لوجودنا في هذه الجزيرة ـ المنفى أصلاً.

فمنذ عام ١٩٤٩، والصينيون الوطنيون يحاولون أن يجعلوا من تايوان نموذجاً لما سيفعلونه لو استرجعوا البر الصيني. فحققوا أكبر معجزة اقتصادية في آسيا اليوم، وأصبح مستوى المعيشة عندهم الثاني من بعد اليابان في كل القارة. وأصبح عندهم جيش لا يقل عدده عن نصف مليون جندي، ولكنه يعتبر أفضل جيوش الشرق الأقصى كلها. وبدأوا في كسر طوق العزلة السياسية، وفتحوا أبواب الجزيرة أمام آسيا كلها، وشعروا ربما لأول مرة منذ بداية التيه، بأن العناد الصامد قد يتيح لهم تحقيق الهدف.

ولكن كيف؟ ألح السؤال أكثر من ألف مرة على لساني.

في رأيهم ـ من نائب رئيس الجمهورية حتى سائق التاكسي ـ انهم سيعودون الى البر الصيني بمساعدة الشعب هناك. وأنهم لا يريدون من الولايات المتحدة الا أن ترفع الحظر المفروض على تحركاتهم العسكرية. وطبعاً يريدون المزيد من السلاح والمؤن الأميركية.

فهم يعتقدون أن الحزب الشيوعي الصيني قد كشف أوراقه كلها خلال هذه الأعوام، وأن بعد زوال ماوتسي تونغ المنتظر قد يفلت زمام الأمر من يد خلفائه وأن الشعب الصيني متى عرف بوصول الوطنيين فلا بد من أن ينضم الى صفوفهم. كما أن اتصالاتهم مع البر الصيني تؤكد لهم هذا. ولذلك فهم لا يخشون فارق العدد بين جيشهم الصغير والجيش الآخر الكبير الذي يزيد عدده عن المليونين ونصف مليون جندي.

ومع اعتمادهم على قيام ثورة ضد النظام الشيوعي في البر الصيني، إلا أن الوطنيين يدركون أبعاد القضية ومضاعفاتها دولياً. لذلك لا يمكن أن تكون الحرب بين ماوتسي تونغ وتشان كاي شيك «حرباً أهلية»، كما يتصور بعض الوطنيين، ولا يمكن أن تقع هذه الحرب بمعزل عن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.

فالولايات المتحدة ـ إذا سمحت بالحرب ولم تتدخل ـ ستعطي الصينيين الوطنيين امدادات كثيرة، وقد تنقلهم الى البر الصيني. وفي هذا مبرر كاف للاتحاد السوفياتي لكي يتدخل.

وعلى الرغم من الخلافات بين موسكو وبكين، فان خلفاء خروشوف في الكرملين يفضلون

ألف ماوتسي تونغ على تشان كاي شيك واحد، وخاصة اذا استغلوا فرصة الثورة، لتنصيب من يعتقدون انهم اقرب الى الخط المسكوبي من ماو، ومن يعيد الصين الى الحظيرة السوفياتية.

وبهذا يكونون قد هزموا القوى الوطنية، وعززوا الجبهة الشيوعية بشكل رائع. وتكون الثورة ثورتين، تنتصر الشيوعية فيها بالنهاية، وتحشر الولايات المتحدة في مأزق لا اول له ولا آخر.

ومن هذه الاعتبارات الدولية ـ ولهذه الاعتبارات بالذات، وعند الوطنيين ردود كثيرة عليها ـ تقتحم هذه المعضلة مقدمة القضايا الآسيوية، أولها يضيع في طموح الحلم، وآخرها يضيع في صعوبة التحقيق.

ويبقى الشعار المشترك المرفوع في كل من بكين وتاييه اليوم: صين واحدة لا صينان.

أي صين يا ترى؟

تاييه ـ (١٩٦٦/١٠/٢٨)

■ «إيلها فورموزا»

تبدو تايوان ـ أو فورموزا وهو الاسم الأكثر شيوعاً ـ للغريب القادم اليها من بعيد، وكأنها مجرد جزيرة صغيرة سقطت سهواً من الأرض الصينية الكبيرة، معزولة عن الصين وربما عن العالم.

ولكن في هذه الجزيرة الباسيفيكية الصغيرة، يعيش شعب بعيداً عن أرض وطنه الحقيقي أميالاً قليلة، يناقش أخطاءه، ويصنع مستقبله ويطمح بالعودة يوماً ما، الى بيته الكبير.

سماها الصينيون تايوان. ولكن عندما رآها البحارة البرتغاليون عام ١٥٨٣، سموها «ايلها فورموزا» ـ أي الجزيرة الجميلة ـ وبقيت فورموزا بالنسبة للقادم من الغرب.

واعتبرت فورموزا ـ الجميلة ـ أرضاً صينية منذ القرن السابع عشر. وفي عام ١٨٩٥ احتلتها اليابان، وبقيت تحت الحكم الياباني خمسين سنة، حتى عادت الى الصين. ومنذ عام ١٩٤٩ ـ عندما استولى الشيوعيون على الحكم في الصين ـ وهي مركز حكومة الصين الوطنية، أو حكومة «الكومينتانغ»، وهو الحزب الوطني الصيني الذي أسسه صن يات صن أول رئيس جمهورية للصين، والذي يرأس الحكومة ويتزعم الحزب اليوم الجنراليسيمو تشان كاي تشك.

ولكن تايوان تبدو للقادم اليها من مفترق طرق بعيدة، وكأنها عالم لا يعترف بالمنطق ولا بالواقع. فالصين الشيوعية على الأرض الحقيقية الممتدة أكثر من ثلاثة ملايين ميل مربع والوطن الممتلىء بأكثر من سبعمئة مليون نسمة، هي للعالم حقيقة تقترب من حدود الكابوس. وأمام هذا المارد الضخم، ليست تايوان بأكثر من قزم مساحته ثلاثة عشر ألف ميل مربع فيه ثلاثة عشر مليون مواطن.

الا أن الزيارة لفورموزا، تكشف أمام الزائر الحامل شكوكاً كثيرة، أن «الصين الأخرى» ليست عالماً غير حقيقي بالشكل الذي كان يتصوره. فتايوان أيضاً عالم طريف ونادر.

فلندخل الى تايوان الجزيرة، قبل أن ندخل الى تايوان «الجمهورية».

بين أضواء طوكيو وهونغ كونغ البراقة، تصبح تايوان الخضراء المنبسطة محطة ضرورية للراحة. ويصبح مناخها شبه الاستوائي، وطبيعتها الجميلة ملاذاً للكثير من السياح المتعبين من حر وظمأ وصخب الشرق الأقصى. وتتفرد تايوان بكونها لؤلؤة الباسيفيك الغربي وحاملة تقاليد الصين ورائحتها لغير القادرين أن يطأوا أرضها أو يروا ألوانها أو يعرفوا شيئاً عن حياتها. إنها قطعة صينية مبتورة من الأرض الحقيقية، ومعروضة أمام العالم غير القادر أن يدخل الى الكوكب المحرم.

تاييه العاصمة مدينة حديثة هادئة. كل شيء فيها يذكرك بالدقة الصينية، التي اختلطت باللون الياباني واللمسة اليابانية التي تركها حكم نصف قرن كامل. وتاييه تجمع الحداثة التي دفعها الدخل السياحي لتصبح مركزاً لأحدث الفنادق والخدمات

السياحية في الشرق الأقصى. وقد نمت هذه العاصمة من مجرد قرية صغيرة، الى عاصمة حكومة تحلم بالعودة الى العاصمة الحقيقية البعيدة في نانكين وقد تركتها مهزومة قبل سبع عشرة سنة.

والعاصمة التايوانية باتساعها الأخضر الهادىء تحاول أن تكون هونغ كونغ مصغرة، بهدوء وراحة، مفتوحة على الصين أكثر مما هي مفتوحة على الغرب. وتايبه ـ ككل تايوان ـ همها الأول إثبات هويتها الصينية. فعشرات الفنادق والملاهي كلها تجتهد في اقناع السائح بأن هذه الصين الصغيرة «تغني عن ألف صين كبيرة». إنها «الصين الأخرى» المفتوحة على الصين والعالم.

فحول تايبه «جبال الحشائش»، وهي المنطقة المعروفة «بيانغ صين شان». «وبيتو» المشهورة بحماماتها الساخنة وماء الأملاح المعدنية. وفي «بيتو» تمتد الفنادق والحمامات المعطرة التي تزيد على العشرات، المختصة بعمليات التدليك التي تقوم بها «مضيفات» تستطيع أن تختارهن بمجرد طلب بسيط من عامل الاستقبال في الفندق. فتأتي اليك فتاة صغيرة ـ وغالباً جميلة ـ على ظهر موتوسيكل ياباني لتقوم بعملية تنشيط كاملة لجسمك.

وتعتبر حمامات «بيتو» أهم من حمامات بانكوك الأكثر شهرة، ببذخها وفخامتها وتقاليدها التايلندية العريقة، وامتع من حمامات «هونغ كونغ» ـ على أنواعها المختلفة ـ التجارية السريعة والأكثر تخصصاً بفنون الحب المختلفة.

وفي تايبه عشرات الأماكن التي لا تفوت، من معبد «لونغ شان» حتى نصب كونفوشيوس الى الحدائق الكبيرة المنتشرة والمتحف العظيم. ففي المتحف ثروة الصين الثقافية والفنية كلها. فهناك أكثر من ٣٠٠ الف تحفة فنية صينية، بعضها يعود الى أكثر من ٥٠٠٠ سنة. فعندما هزمت قوات «الكومينتانغ» في الأرض الصينية، كان همّ تشان كاي تشك الأول هو أخذ هذه التحف معه الى تايوان. والسبب في ذلك ـ كما قاله لي صديق صيني في تايبه ـ انه أراد أن يأخذ معه تراث الصين كله الى المنفى حتى لا ينسى الشعب الضائع تاريخه وأمجاده ولا يقطع الصلة بماضيه. وفي العاصمة التايوانية ثلاثة متاحف، يحتاج عرض التحف الموجودة في مخازن الدولة، لأكثر من أربع سنوات اذا تغيرت المعروضات كل ستة أشهر.

وبعيداً عن جبال الحشائش والورود، تقع «تامشوي» في طرف الجزيرة الشمالي، وهي مرفأ قديم وقرية صيد صينية عتيقة. وفي «تامشوي» قلعة تاريخية اسبانية قديمة، بناها الاسبان عندما نزلوا الجزيرة في طريقهم من والى اميركا، وهي اليوم القنصلية البريطانية. وفي هذه القرية أكبر وأحدث وأحسن ـ بتقدير الخبراء ـ ملعب للغولف في الشرق الأقصى كله.

«فولونغ» بلدة أخرى في شمال تايوان للسباحة والصيد، بدأت تستقبل السياح مؤخراً.

ومنهـا لا بد أن يـزور القادم الى فـورموزا بحـيرة «صن مون» في منطقـة «تـايشـانـغ» المشهورة بمناظرها الطبيعية الخلابة.

ولعل معبد «لونغ شان» الذي بني في عهد الامبراطور تشاين لونغ من الأسرة المانشوية، هـو أقدم معبـد في العاصمـة التايـوانية، وفيـه مذبـح للآلهـة «ماتسـو» التي يعبدهـا الفورموزيون بتقدير كبير. وعلى بعد نصف ساعة من تايبه تقع «البحيرة الخضراء» وهي بحـيرة عميقة، خضراء الميـاه في وسط واد ضيق. وتعتبر «تمـرين ليـك» مكـانـاً مهـيـأً للسباحة والإبحار الشراعي. وعلى قمة الوادي يقع «المعبد الأخضر» تيمناً بالبحيرة التي يطل عليها.

ولكن «جبل رأس الأسد» هو قبلة الأنظـار للبوذيـين في الصـين. فعـلى راس هذا الجبـل مجموعة من المعابد البوذية المختلفة الهندسية المختبئة بـين عشرات من أشجار النخيـل التي تعطي لمكة البوذيين وحياً رائعاً بالألوهة والجمال.

وإذا عـدنا الى بحـيرة «صن مون» ـ شمس القمـر ـ التي تعلو ٢٥٠٠ قـدم عن سطح البحر، والتي تزود تايوان بـالمياه التي تحتـاجها، لـوجدنـا أن سكان البحـيرة والمنطقة المحيطة بها، هـم من السكان الأصليين، يعيشون حياة بدائية بـزعامـة رئيسهم المدعـو «لورد ماو».

ولزعيم هؤلاء السكان بنتان جميلتان، من مهامهما الـرقص أمام السيـاح وتوفـير دخل لوالدهما «اللورد ماو». ويختلط أهالي تـايوان الأصليـون بين الـزوار ليتفرجـوا عليهم لا العكس.

وفي غرب تايوان تقع قمة جبل «عـالي شان»، التي يبلـغ ارتفاعهـا ٩٠٠ قدم، ويصلهـا قطار حديدي يتحرك من بلدة «شياي» يومياً ويعـود منها في اليـوم التالي. وجبـال «عالي شان» هي أكثر الغابات الصنوبريـة كثافـة في الشرق الأقصى، كما تـوجد فيهـا أشجار نادرة جداً منها «الشجرة العنيدة، كما سماها البرتغاليـون والاسبان والصينيـون الذي مروا على هذه الجزيرة والتي يبلغ عمرها ٣٠٠٠ سنة.

أما «تاينان» في جنوب فورموزا، فهي العاصمة الامبراطورية القديمة لتايوان. وقد بنتهـا أسرة «مانشو» الحاكمة. وفي «تـاينان»، معبـد «تشنغ تشـين كونـغ» الذي بني تخليـداً لحامل هـذا الاسم، الزعيم الـوطني الصيني الذي عـرف في الغرب بـاسم «كوزينغـا». وكوزينغا هو الزعيم الصيني الذي طرد الأوروبيين من فورموزا وضمها الى الصين تحت حكم اسرة «المانشو»، واقيم هذا المعبد اجلالاً وحباً للبطـل الصيني الأول الذي عـرفته تايوان.

وفي أسفل الجزيرة مرفأ «كوشونغ» المدينة الصناعية الأولى في فورموزا. وفي «كوشونـغ» بحيرة صناعية جميلة،تعتبر من أجمل البحـيرات التي صنعها انسـان بكل مـا فيها من خضار وأزهار وأسماك وشواطىء رملية تمتد حول أطرافها كلها.

وإذا شبع الغريب القادم الى تايوان من بعيد، من الجو السياحي الذي توفر له، وأحب أن يلج الى داخل الشعب الصغير المعزول الذي يضع أمجاداً ولّت ويحلم بأمجاد أكبر قادمة، فلا بد له من وقفة ـ ولو قصيرة ـ على الأبواب التي تفصل بين الحقيقة والاشاعة.

الحقيقة الأولى أن زيارة الجزيرة الجميلة هي تجربة فريدة من نوعها، لأنها تضع الطموح قبل الامكانات. وهذا لا يقنع بالضرورة الزائر لتايوان بالكثير من مطالب الصينيين الوطنيين، بقدر ما يجعله مضطراً لأن يبحثها بجدية.

بجدية؟ هذه هي الكلمة، بل المدخل السياسي الأول الى فورموزا.

عندما انتقل كرسي الحكومة الوطنية من الأرض الصينية الى تايوان في أواخر عام ١٩٤٩، كان الرأي السائد عند أكثر المراقبين أن القضية مسألة وقت قبل أن تجتاح القوات الشيوعية تايوان وتصبح حكومة «الكومينتانغ» بلا كرسي ولا حزب ولا جزيرة.

ولكن رياح السياسة ـ من صينية ودولية ـ سارت على غير ما توقع المراقبون، وتمنت بكين. فبعد سبع عشرة سنة من النفي، أصبح مستوى المعيشة في تايوان اليوم أرفع مستوى من كل آسيا من بعد اليابان.

«فالاعجوبة الاقتصادية» التي تتحدث عنها آسيا، والتي كانت الدافع وراء تخلي تايوان عن المساعدات الاقتصادية الأميركية بعد نجاح مشروع الأربع سنوات الرابع في نهاية العام المالي ١٩٦٥. هي اليوم أيضاً محط تقليد عدد من الأقطار الآسيوية الطموحة.

ولا شك بأنه لولا المساعدات الاقتصادية الأميركية اصلاً، لما استطاعت تايوان أن تتوصل الى وقت تستغني فيه عنها، بعد سنوات عديدة. والمساعدات العسكرية الأميركية ما زالت هي الضمان الأول الذي يحمي الجزيرة التي تدفع أربعة أخماس دخلها القومي للقوات المسلحة.

ولعل العامل الأول في نجاح تايوان الاقتصادي اليوم، هو برنامج الاصلاح الزراعي ونجاح تطبيقه، بعد أن كان فشل الحكومة الوطنية في حل مشاكل الفلاحين في البر الصيني، من أسباب سقوطها المباشرة.

وعبر نجاح برنامج الاصلاح الزراعي في تايوان حلت قضية اقتصادية ـ اجتماعية اساسية، هي فكرة تحويل غالبية المواطنين الى طبقة متوسطة، ملغية بذلك عامل الحاجة الناتج عن سوء التوزيع الاقتصادي والقلق الطبقي الاجتماعي. وبرنامج الاصلاح الزراعي هو أهم ما عند تايوان لتريه الى العالم الخارجي، سواء كان في آسيا أم في أفريقيا أم في أميركا اللاتينية، حتى أن رفيقاً صينياً قال لي: إن انجازات الحكومة الوطنية في فورموزا اليوم تعادل اخطاءها في البر الصيني في الماضي.

غير أن أهم عامل يقف وراء «المعجزة الاقتصادية» الفورموزية، على الرغم من تدفق

ودعم كل المساعدات الأميركية وغيرها، هو الهدف الذي زرعته الحكومة في رأس ثلاثة عشر مليون صيني منفي في جزيرة معزولة، العودة الى الوطن يوماً ما، وضرورة تحويل تايوان الى نموذج لما سيحدث إذا قطعوا بحر التيه الى أرض الميعاد عبر الأميال القليلة التي تفصلها عنهم. وأهم ما يلفت نظر الزائر ـ أياً كان ـ هو الفكرة المتأصلة في نفس كل صيني، مهما علا أو صغر مركزه، في حتمية العودة الى البر، بعد أن كانت الفكرة مجالاً للتندر والسخرية، وربما أصبحت اليوم محور الحديث الجدي الدائم في تاييه.

وتايوان تحكم اليوم كواحدة من مقاطعات الصين الخمس والثلاثين. وهي «المركز المؤقت» للحكومة الوطنية. أما تايوان كمقاطعة، فهي تحكم ذاتياً، ولها حكومتها الخاصة وعاصمتها، ومجلس نوابها المحلي. أما الدستور الذي تحكم بواسطته حكومة الجنراليسيمو تايوان، فهو الدستور الفيدرالي الذي وضع مبادئه صن يات صن مؤسس «الكومينتانغ»، والذي جدد عام ١٩٤٧ بعد استقرار الصينيين الوطنيين في فورموزا.

ومبادىء «الكومينتانغ»، هي مبادىء صن يات صن أيضاً الذي حددها بأقانيم ثلاثة: القومية، الديموقراطية، والعدالة الاجتماعية. وهذا ما يوفر في رأيه أساساً لحكم شعبي ديموقراطي صحيح. أما سلطات الدولة، فهي خمس، بما في ذلك منصب رئيس الجمهورية: السلطة التنفيذية (وهي رئاسة الوزراء والوزارات المختلفة). السلطة التشريعية (وهي مجلس النواب والشيوخ وله سلطات المراقبة والمحاكمة والمدافعة). السلطة القضائية (وهي القضاء والمحاكم على مختلف درجاتها بما فيها محكمة الدولة العليا). ثم السلطة الرقابية (ومهمتها مراقبة الدوائر وانتاج الموظفين وشكاوى المواطنين على الدولة).

والى جانب «الكومينتانغ» هناك حزبان صغيران. حزب الصين الفتاة، والحزب الاجتماعي الديموقراطي. وهما حزبان ثانويان، فالسلطة الفعلية في يد «الكومينتانغ» الذي يحتكر كل مناصب ونفوذ الدولة. أما تشان كاي شيك زعيم «الكومينتانغ» ورئيس الجمهورية، فهو بالنسبة للصينيين الوطنيين رمز العودة الى الوطن، ولذا فهو بعيد عن الانتقاد وبعيد عن التدخل المباشر في تقصير الحكومة في مجالات الخدمة الكثيرة.

ومع تايوان الجزيرة. ثمة مجموعة جزر «كيموي» و «ماتسو». أما «كيموي»، فهي عبارة عن أحدى عشرة جزيرة صغيرة في وسط المياه العميقة المواجهة لمرفأ «اموي» في مقاطعة فوكين على البر الصيني. وأكبر هذه الجزر هي «كينمين»، التي لا تزيد مساحتها عن خمسين ميلاً مربعاً، وفيها ٥١ الف نسمة، إضافة إلى عدد الجنود المرابطين هناك. ويُعد أكثر هذه الجزر نأياً عن البر الصيني الشيوعي لا يزيد عن ميل واحد. وهذه الجزر تجعل واحداً من أكبر وأهم المرافىء العميقة في الصين الشيوعية معطلاً وغير قابل لاستقبال أو إرسال السفن.

ومن هذه الجزر، التي تعتبر درعاً لحماية تايوان والدفاع عنها، ترسل الآلاف من بالونات الدعاية والنشرات الدعائية الى البر الصيني.

وأما مجموعة جزر «ماتسو» الى الشمال من «كيموي» فتقوم بنفس المهمة: منع الملاحة في مرفأ «فوتشو» على البر الصيني، حارمة الصين الشيوعية من مرفأ عميق آخر وداعمة خط دفاع الوطنيين الدعائي والحربي. وهذه الجزر كانت لكثير من الصينيين مركز انطلاقهم الى العالم الآخر عبر البحار.

وهكذا تتيه فورموزا، الجزيرة الجميلة، بتجاعيد السياسة، وتصبح القطعة التي سقطت سهواً وانفصلت عن البر الصيني، محطة صغيرة لطموح الجنون السياسي وراحة للقادم المتعب من عالم بعيد؛ يضج بقضايا بينها وبين الحقيقة الف مضيق ومضيق من الألم والخيبة والجوع.

«ايلها فورموزا» ـ ايتها الجزيرة الجميلة كم هو عظيم الهرب اليك!

تايبه ـ (١/١١/١٩٦٦)



كمبوديا - تايلند

■ أحجار تتساقط

ماذا لو سقطت كمبوديا بأيدي الشيوعيين؟

بل ماذا لو حصرت فيتنام الجنوبية من الشرق وتايلند من الغرب ولاوس من الشمال، مملكة «خمر» القديمة ودفعتها الى أتون الحرب المستعرة اليوم في جنوب شرق آسيا؟

ثم ماذا يحدث ـ لو افترضنا ـ أن كمبوديا الحيادية قد فتحت ذراعيها لتسقط في احضان الصين من دون أن يحرك أحد ساكناً؟

هذه الأسئلة راودت اذهان المراقبين السياسيين منذ بداية الوجود الأميركي في فيتنام. والحت عليهم من جديد عند زيارة الرئيس الفرنسي شارل ديغول الى «بنوم بينه» العاصمة الكمبودية في ايلول عام ١٩٦٦.

فالزيارة التي قام بها الرئيس الفرنسي الى كمبوديا، الدولة الوحيدة التي خرجت من امبراطورية فرنسا القديمة في الهند الصينية، من دون حرب، ومن دون أي تعديل في حدودها أو انقسام في ولائها، هي الأولى التي يقوم بها رئيس دولة فرنسي لبلد كان يشكل الواسطة في عقد «دول الاتحاد الفرنسي» في آسيا بعد ١٣٠ سنة من العلاقات الفرنسية ـ الكمبودية.

واليوم، لا شيء يضاهي نفوذ فرنسا في آسيا، كما هو في كمبوديا. فمنذ أن قطع الأمير سيهانوك، رئيس الدولة الكمبودية، العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة وتوقف عن أخذ المعونات الاقتصادية عام ١٩٦٤، لسبب مباشر:

هو قوله ان وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية كانت تمد فئة كمبودية ضد سيهانوك بالذهب والسلاح. وسبب غير مباشر:

هو اقتناعه بأن أميركا لن تربح الصراع الفيتنامي اذا استمرت سياستها في فيتنام على الشكل الحالي. منذ ذلك الحين وفرنسا تحلم باستعادة المجد القديم.

واستعاضت كمبوديا عن المساعدات الأميركية بمساعدات فرنسية. ودعمت كمبوديا دعوتها للحياد بتأييد فرنسا ورئيسها لهذه الفكرة وبضرورة إبقاء الهند الصينية بعيدة عن نفوذ أي من المعسكرين.

وكانت زيارة ديغول. وكان الترحيب الحار الذي لم يسبق أن قدمته كمبوديا لأي زعيم غربي. وكان حماس سيهانوك المنقطع النظير لأن يكون الرئيس الفرنسي هو بطل حل المعضلة الفيتنامية.

ولكن هذه الأسئلة عادت لتشغل اليوم كل المراقبين السياسيين في جنوب شرق آسيا.

حملت علامات الاستفهام هذه الى زميل في سايغون، أمضى في الشرق الأقصى اكثر من عشرين سنة، وهو يغطي أحداثه، وقلت له:

ماذا تعني الفكرة القائلة بأن وراء الموقف الأميركي في فيتنام الخوف من محاولة الصين التوسع عقائدياً وسياسياً وجغرافياً عبر آسيا كلها، عن طريق «حروب التحرير»، وبواسطة فيتنام الشمالية؟ أهذا ما يسمّى «بنظرية الدومينو»؟

تطلع اليَّ الزميل القديم وقال: لا شيء في جنوب شرق آسيا يبدو على حقيقته من الوهلة الأولى. بل إما أن يكون أحسن من مظهره الأول، أو أسوأ بكثير. «والدومينو» خط دفاع وهمي يرفض أحد أن يحتمي خلفه أو يجيب عليه. وهو اسم آخر «لخط ماجينو الآسيوي». وهو نظرية إبقاء الصين وراء خط حدودها الحالي، بالصمود في وجه تغلغلها عن طريق الحروب الصغيرة ـ بالأسلوب والخبرة الفيتنامية ـ ضد محاولتها الإطباق على بلدان الهند الصينية كجسر تنقل بين الهند غرباً وأندونيسيا شرقاً.

أما إذا حاولت أن تسألني ـ والكلام ما زال للزميل الصحافي في سايغون ـ ماذا لو سقطت فيتنام الجنوبية في أيدي الشيوعيين؟ ـ فأقول لك أن بسقوط فيتنام تسقط لاوس ـ أضعف دول المنطقة كلها ـ وتسقط كمبوديا بانحيازها نهائياً الى الصين، وتعيد تايلند النظر في موقفها من ارتباطها بالولايات المتحدة، مستفيدة من تجربتها مع اليابان عام ١٩٤١ وتصبح بانكوك حليفة لبكين؛ وتكر «الدومينو»، اللعبة الجديدة في عالم النظريات السياسية.

ولم يتردد أحد أيضاً في العاصمة التايلندية في أن يجيب على سؤالي:

اذا سقطت سايغون، سقطت بانكوك. وبسقوط بانكوك يعيد التاريخ نفسه في «خط ماجينو الاسيوي»، الا اذا عادت تايلند الى لعبة الحياد القديمة.

غير أن الظروف تغيرت. فالتاريخ الذي خدم تايلند، وابتسم لها طويلاً، أصبح من الصعب أن يتيح لها الفرصة القديمة نفسها. فتايلند، التي كانت عبر كل الأزمنة مستقلة

وحيادية في صراع القوى في الشرق الأقصى قد التـزمت اليوم جـانب الغرب في الـوقوف بوجه الصين.

واتـاح الاستقلال لتـايلند أن تنجـو من ظروف الحـرب والاستعمار، في كـونها الـدولـة الفاصلة بين الامبراطورية الفرنسية في الهند الصينية وبين الامبراطورية البريطانيـة في شبه القارة الهندية. حتى جاءت متاعب تقسيم إرث الامبراطوريتين بعد الحرب العالميـة الثانية، فأرغمت تايلند على أن تقف الى جانب الطرف الرابح ـ في رأيها ـ ضد التـوسع الصيني.

ومع نمو واستمرار تصاعدية الحرب الفيتنامية، بدأت حرب محدودة في تايلند، تـدعمها وتغـذيها الصـين. وتجمعت فرق الثـوار التـايلنـديـين في الشمـال الشرقي من الحـدود المتاخمة لكمبوديا ولاوس، ومن ورائها محطة اذاعـة تبث ضد حكـومة المـارشال ثـانوم كاتيكا خورن في بانكوك، وانطلقت دعايـة الصين الشيـوعية عـلى أساس أن تـايلند هي الجيب الأميركي الكبير في آسيا بعد فيتنام اليوم، وأنها حقل المعركة القادمة في المنطقة.

أما اليوم، فالتطويق التاريخي قد أصبح كاملاً. فكل ما تستطيع أن تفعله تايلنـد هو أن تدعم حدودها الواسعة بعد أن فقدت حريـة الاختيار في الانتقـال الى الفريق المنتصر في الوقت المناسب. لقد سدّ الطريق عليها اليوم.

وفي بانكوك، قال لي زميل آخر عريق في الشرق الأقصى: لعل لعبة «الـدومينو» هي أخطـر ما يحرك جنوب شرق آسيا اليـوم. ففي فيتنام فتحت جبهـة داخلية. وفي تـايلند بـدأت بفتح جبهة خـارجية. وأخشى أن ينقطـع الخيط الرفيـع الذي يـربط هذه الأحجـار كلها اليوم.

ومن نيودلهي الى بانكوك، ومن فيانتيان حتى رانغون، مروراً بكوالا لامبور وهونغ كونـغ وتـايبه، لا يجـد السياسيـون من هاجس يشغلهم الا حكـاية «الـدومينـو». وهنـاك من يعـارض هذه النظـرية، إلا أنني لم أجـد الا القليل منهم في جنـوب شرق آسيـا، وكلهم يعترفون بأن هذه اللعبة هي أخطر ما يحرك هذه المنطقة اليوم.

والهنـد الصينية ـ منـذ أيام الاستعمـار الفرنسي ـ اصطـلاح قابـل للكسر كبولنـدا في أوروبا. وكمبوديا ولاوس بلدان ـ كبولندا الأوروبيـة أيضاً ـ يحيط بهمـا جاران نهمـان هما فيتنام وتـايلند، عـدد سكان كـل منهما حـوالي ٣٠ مليون نسمـة، مقابـل كمبوديـا وملايينها الستة، ولاوس وسكانها الثلاثة ملايين.

لم يكن الطريق من سايغون الى بنوم بينـه مريحـاً ولا ممتعاً. فكمبـوديا تصفـع القادم اليها وكأنها المكان الوحيد الـذي لا يمارس فيـه الجنون السيـاسي. والمملكة الكمبـودية التي تعيش اليوم في ظلال امبراطورية «خمر» القـديمة، والتي كانت حدودهـا تصل الى تـايلند، وكـانت سايغـون حتى القرن الثـامن عشر مدينـة كمبوديـة، ما زالت تحتفظ في عاصمتها بكل ما في الأبهة الملكية من معنى.

الشوارع في بنوم بينه عريضة. والأشجار الباسقة الخضراء على الجوانب ترسل ظلالاً باردة. والتماثيل الكثيرة والنصب التذكارية كلها تذكر بمجد سالف ولّى. بالطبع بنى الفرنسيون الكثير منه، ولكن الكمبوديين اضافوا الكثير اليه وحافظوا عليه حتى اليوم. والعاصمة الكمبودية متحف كبير بقصورها وفنادقها وحدائقها، تفسح مجالاً كبيراً للسائح الهارب من جيرانها وقد مل السياسة والحرب.

وفي كمبوديا شيء هام لا بد أن يحس الزائر بوجوده. هو الأمير سيهانوك رئيس الدولة. وسيهانوك الذي ورث العرش عن ابيه الملك سوراماريت عام ١٩٦٠، رفض أن يصبح ملكاً وطلب أن يبقى أميراً يمارس دوراً سياسياً في رئاسة الدولة.

ونورودوم سيهانوك الزعيم الوطني الوحيد في الهند الصينية اليوم ـ ما عدا هوشي منه ـ الذي يتمتع بتأييد شعبي وقومي في بلاده. وسياسة كمبوديا في رأي سيهانوك تقوم على اعتبارين:

الأول: ان كمبوديا بلد صغير محاط بجيران لا يحترمون حدوده، وأن هؤلاء الجيران ممزقون بالحرب وعدم الاستقرار. لذلك فإن بلاده بحاجة الى ضمانات دولية لحدودها.

ثانياً: ان الصين قوة كبيرة لا يستهان بها في آسيا والعالم، فإن وجود اسم الصين بين أسماء الدول الضامنة لحدود بلاده يعتبر ضرورة حتمية.

على هذا الأساس يعتبر سيهانوك أن الحياد ـ ولو كان يميل قليلاً نحو الصين ـ هو أساس السياسة الكمبودية. ويعترف سيهانوك بالخطر الشيوعي الذي يهدد بلاده، ولذلك فهو يكافح الشيوعيين المحليين.

في بنوم بنيه، حملت هذه التناقضات كلها ورحت أبحث عمن يفسرها لي. وفي بار بالقرب من فندق «مونوروم»، التقيت برجل أعمال صيني ـ والصينيون والفيتناميون اكثرية تحتكر قطاع التجارة والخدمات في العاصمة الكمبودية، كما في غيرها من عواصم جنوب شرق آسيا ـ عرف أنني غريب؛ تحمل شفتاه اسئلة كثيرة تتيه في عدم اتقانه للفرنسية.

قال لي الرجل الصيني الجالس أمامي على كرسي مرتفع إلى البار بعد أن تعارفنا وبانكليزية سليمة: كمبوديا بلد محير وخاصة للغريب القادم من بلد بعيد يصعب فيه فهم المنطق الآسيوي.

قلت للصديق الجديد: فسر لي ببساطة ماذا تعني سياسة سيهانوك وسط لعبة الكلمات المتقاطعة الصعبة التي تعصف بالهند الصينية، ولو كنت اسيوياً قادماً من شرق أخر.

رد الصيني المبتسم أبداً وقال: يعتقد سيهانوك ان الصين هي الرابح الأخير في هذه المنطقة. ولذلك فهو يريد أن يأمن شرها. وعلى هذا الأساس يؤيد هانوي ضد سايغون ويدعم الفيتكونغ ويقدم لهم المؤن والحماية. ولقناعته بانتصار فيتنام الشمالية على فيتنام الجنوبية وهزيمة الاميركيين يريد حياده أن يكون ايجابياً الى جانب بكين، ويريد ضمانتها لاستقلال بلاده. ولكن ماذا تفعل، هذا هو المنطق الآسيوي!

قلت: وأنتم الصينيين، ما دوركم في كمبوديا كأقلية؟ هل هو كدور باقي الصينيين خارج الصين في آسيا؟

رشف رجل الأعمال الصيني كأسه مرة واحدة وقال: دورنا كدوركم انتم اللبنانيين في المهاجر الأفريقية. نحن الصينيين نملك رؤوس الأموال، ومن بعدنا يأتي الفيتناميون. في أيدينا التجارة وفي أيدي الفيتناميين الحرف وبعض الصناعة الخفيفة.

فكل ما في عالم الاستيراد والتصدير هو عالمنا. ولكن منذ رفض سيهانوك للمساعدات الاميركية، ورجال الأعمال الصينيون يحاذرون استغلال أو توظيف أموالهم في مشاريع محلية. وما دامت الحكومة لم تحدد مجال التحرك، ففرص الاستثمار ستبقى محدودة حتى اشعار آخر.

والكمبوديون يتطلعون باحتقار الى الصينيين والفيتناميين والتايلنديين؛ على اعتبار أنهم شعب الهند الصينية المختار، وورثة أمجاد امبراطورية كبرى، ودعاة لحضارة قديمة رفعت الجهل عن كاهل تلك الشعوب.

والأمير الحاكم بصفة رجل الدولة، يتزعم حزباً ـ حزب «سانغوم» ـ هو الحزب الواحد، به يحارب كل معارضة بفضل ديناميكية شخصيته وجولاته المستمرة في الأقاليم. وحزب «سانغوم» يدعو لما وصف «بالاشتراكية البوذية»، ويحتوي على جناح يساري وجناح يميني، فيه مختلف التيارات السياسية الأخرى، محاولاً ضم كل الفئات اليه. وهو حركة بالمعنى الصحيح، أكثر منه حزباً.

غير أن هناك شيئاً في كمبوديا ينسيك السياسة كلها. مدينة «انغكور» عاصمة حضارة «خمر» كلها لستمئة سنة ما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر. وقد انهارت اثر غزو التايلنديين عام ١٤٣١. ونقل الكمبوديون عاصمتهم الى بنوم بينه وتراجع التايلنديون عبر الحدود، ونسي التاريخ «انغكور» لاربعمئة سنة حتى عاد واكتشفها الرحالة الفرنسي هنري موهو عام ١٨٦٠، واعتبرها الجغرافيون وعلماء الآثار اعجوبة اخرى تضاف الى عجائب العالم السبع. وإذا بها اليوم محجة عشاق الجمال والفن والتاريخ القديم من كل انحاء الدنيا.

ولكن السياسة لا ترحم. فلا بد من العودة اليها. فنظرية «الدومينو» تفرض القاء نظرة ـ ولو قصيرة ـ على الحجر الثاني في الجدار المعرض للسقوط اليوم في جنوب شرق آسيا، لاوس.

فيانتيان، العاصمة الادارية للمملكة، مدينة ناعسة تحلم دائماً وهي تنمو من قرية كبيرة الى عاصمة حقيقية. وفيانتيان ليست لاوس. إنها البداية الضرورية.

فالمسافة بين المطار والقرية التي تكبر الى عاصمة، مزروعة بالخضار وبالأطفال الذين يلعبون في الساحة الكبيرة، والعسكر اللاوسي الملكي ينام على ضفاف نهر «الميكونغ» في قيلولة بعد الظهر، سواء كان الوضع العسكري في البلاد طارئاً أم غير طارىء.

والوضع العسكري لم يتغير في لاوس منذ أكثر من ثلاث سنوات. فالشيوعيون يحتلون ثلاثة أرباع البلاد، وباشتراك مباشر ومساعدة دائمة من هانوي. فالباثيت لاو ـ أو الشيوعيون اللاوسيون ـ مسيطرون سيطرة تامة على الجزءين الشمالي والشرقي من البلاد بمحاذاة الحدود مع الصين وفيتنام، بينما تسيطر القوات الملكية والحيادية على باقي البلاد.

وأحجار «الدومينو» تهتز بعنف في لاوس لأن «طريق هوشي منه» هو العصب الذي يحرك اللعبة كلها في الهند الصينية اليوم. «فطريق هوشي منه» الذي يحرسه عشرة آلاف جندي نظامي من فيتنام الشمالية، يمر من الشمال الى الجنوب عبر الجانب الشرقي من البلاد، وما تبقى هو في أيدي الحكومة. ولكن الباثيت لاو وهانوي يريدان أن يبقى الطريق ـ وهو شريان تموين الفيتكونغ في فيتنام الجنوبية ـ بعيداً عن ازعاج القوات الملكية أو الحيادية، ماراً في أرض يعطف أكثر سكانها عليهم.

وبنظرة سريعة، نجد أن الوضع العسكري في لاوس ـ بالرغم من مظهره المعقد ـ بسيط جداً. فالباثيت لاو والقوات الملكية اللاوسية يكرهان أن يقتلا في حرب غيرهم. وانطلاقاً من هذا الواقع، واستناداً الى تقارير من جنود فروا من الباثيت لاو، وجد الشيوعيون أنهم يقاتلون لحساب غيرهم وأن استخدام هانوي لهم لم يخدم مصالحهم الخاصة. في الوقت نفسه استعادت القوات الملكية ثقتها بنفسها وبدأت تستعمل تفوقها الجوي، بما عندها وقوامه خمس عشرة طائرة داكوتا، هي من بقايا الحرب العالمية الثانية.

بالطبع، تنفي فيتنام الشمالية والباثيت لاو وجود أي شيء اسمه «طريق هوشي منه»، أو وجود أية قوات نظامية لهانوي في الأراضي اللاوسية. وسبب النفي يعود الى أن الباثيت لاو وهانوي لو اعترفا بوجود هذا الشيء لكان اعترافاً مباشراً بنقض اتفاقية جنيف عام ١٩٦٢، التي نصّت على اجلاء كافة القوات الأجنبية من لاوس. ولكن لجنة الرقابة الدولية التي مُنِعَتْ من تفقد مناطق الباثيت لاو، قد أكدت في كل تقاريرها منذ أن أقامها مؤتمر جنيف، وجود «طريق هوشي منه».

ولاوس مثل نادر وواضح كيف يترك الاستعمار الفرنسي شعوب الهند الصينية من دون تحضير واستعداد كاف لمواجهة مصاعب العالم الحديث. فلأن فرنسا قررت أن لاوس، مثل باقي مستعمراتها في الهند الصينية، «ستتحد» مع فرنسا، لم تفعل أي شيء لخلق شعور قومي أو وطني في البلاد. وبقي عدد كبير من المثقفين والأغنياء في لاوس يشعرون ويعتبرون أنفسهم فرنسيين اكثر من أي شيء آخر.

وإذا كانت لاوس تفتقد الى ما يشدها لتصبح أمة واحدة، فإن فيها الكثير مما يمزقها ويباعدها. فالخلاف بين الأمراء انصاف الأشقاء قد حول لاوس الى اطرف دولة في آسيا.

فالأمير بون أوم في الجنوب، الذي أيده الأميركيون كزعيم يميني يوم كانوا يأملون بانتصار حاسم ضد الباثيت لاو. والأمير سوفانافوما رئيس الوزراء الذي يحاول أن

يُبْقي لاوس مستقلة وحيادية. والأمير سوفانا فونـغ الذي أصبـح زعيم الباثيت لاو ـ أو رجل الواجهة فيه على الأقل ـ مع عائلته التي هي شبه رهينة في هانوي تشده بخيوطها من هناك. وهذا الانقسام يتكرر كلما نزلنا خطوة في الترتيب العائلي والقبلي في لاوس.

على هذا الأساس الواهي يحاول الأمير سوفانا فوما أن يبني دولة حديثة. فهـدفه الأول هو أن يحافظ على الشكل الـذي أقره مؤتمـر جنيف، والذي قبـل بمقتضاه البـاثيت لاو بالانضمام الى الحكومة. وفي عام ١٩٦٤ غادر وزراء الباثيت لاو فيانتيان الى مراكزهم في الجبال، «لعدم شعورهم بالأمان» في العاصمـة. ولكن مناصبهم الـوزارية بقيت شـاغرة والسيـارات الحكوميـة ما زالت تنتظـر عـودتهم. أمـا الفكـرة من ذلـك، فهي أن عـدم الاعتـراف الرسمي بهـذا الانسحاب قـد يؤدي الى عودتهم في المستقبـل القبول بمبـدأ الوحدة الوطنية.

والحكومة لا تحاول أن تفتح جبهة مع البـاثيت لاو. كل مـا يقوم بـه الجيش اليوم هـو الحفاظ على المناطق الواقعة تحت سيطرته.

عبر هذا الزجاج الأملس، لا بد من أن يشعر المراقب القادم الى لاوس ـ من بـانكوك الى فيانتيان ـ أن العاصمة اللاوسية تذكره بـأفلام ـ أو قصص ـ بيتـر يوستينـوف، وعلى الأخص فيلم «رومانوف وجولييت».

ففي أوتيل «سيتها بالاس» في فيانتيان يلتقي كل العالم. الدبلوماسيـون والصحافيـون، والجواسيس والسياسيون. حتى الصينيون يلتقون مع الأميركيين في نفس القاعة، وعـلى نفس المقعد. الفرنسيون والبريطانيون يتعشّون معاً. غرف الدبلـوماسيـين تختلط بغرف غيرهم، ومخابراتهم الهاتفية تشتبك باستمرار مع مخابرات الصحافيين.

الباعة الهنـود يدخلـون الى ردهات الفنـدق ويختلطون مـع كل جنسيـة ممكنة. الـوان الوجوه تكاد تكون لوحة تجريدية. اللغات المسمـوعة سيمفـونية تنـاقض رائعة. اللغـة الفرنسية هي اللغة الوحيدة المستعملة والمفهومة. العالم كله يختلط في هـذه العاصمـة، وفي هذا الفندق، وإذا به منظر لا يفوّت.

أما فندق «كونستالاسيون» فهو مسكون بالصحـافيين. وقـد كتب عن هذا الفنـدق ربما أكثر مما كتب عن أي فندق في آسيا. والصحافيون في هذا المكان هم «فـرجة» السكـان والسواح. ومن ردهاته وغرفه وهواتفـه المعطلة تخـرج أنباء أغـرب بلد في جنـوب شرق آسيا.

مسرحية «رومانوف وجولييت» تمثل كل ليلة هنا.

ومن الأبواب المشرعة لهذه العاصمـة الصغيرة تتم أغـرب عملية اقتصـادية في العـالم. فاقتصاد لاوس لا يخضع لأي منطق أو نظرية.

فـلاوس تعتمد عـلى شيء واحد لتعيش. التهـريب. تهريب وإنتـاج الأفيون مـع تهـريب

الذهب. وهما دخلها القومي. وعمليات التهريب شيء تقليدي وقديم في حياة لاوس. فالذهب يستورد من دون ضرائب الى لاوس، والطائرات تحمل شهرياً حوالي خمسة أطنان من المعدن الأصفر من اسواق الذهب في الغرب الى فيانتيان. وكما يدخل الذهب من دون اعتراض، يخرج أيضاً الأفيون من دون اعتراض، ليباع في السوق السوداء في سايغون وبانكوك وهونغ كونغ ونيودلهي. وفي احيان قليلة ـ حين تحتاج الحكومة دخلاً لميزانيتها ـ تفرض ضريبة لا تتعدى الستة بالمئة على الذهب المستورد.

أما الأفيون فحكايته أصعب. حتى أن عدداً كبيراً من الضباط يستعمل الطائرات الحربية والخدمات العسكرية لايصال شحنات الأفيون الى البلدان المجاورة. ومن آخر «اخبار الأفيون العسكرية»، أن الجنرال «ما» قائد سلاح الطيران في لاوس قد نقل في تموز من مركزه في «تاكهيك» في الجنوب الى فيانتيان، لأنه رفض أن تستعمل طائرات الجيش في خدمات أفيونية!

قد يبدو من ذلك أن حجر «الدومينو» الثاني المعرض للسقوط هو بلد غير جدي، وأن لاوس وهي البلد الحيادي رسمياً والممزق فعلياً، قد أصبح التطويق التاريخي فيها كاملاً.

ولعل المراقبين السياسيين يدركون مع نمو واستمرار تصاعدية الحرب فيفيتنام، أن الخيط الرفيع الذي يربط هذه الأحجار كلها قد أصبح أوهى من أن يحمل أثقال وأوزار اللعبة الخطرة التي تمارس في جنوب شرق آسيا اليوم.

وربما كان الجنرال ديغول قد أدرك ايضاً، عندما تطلع عبر كمبوديا الى لاوس شمالاً، أن الطريق قد سد عليها اليوم، وان ما تحاوله كمبوديا هو مجرد تطويل الخيط الرفيع ومحاورة للأحجار المتهاوية.

وقد يكون في السقوط النهاية، وإن لم يبد هذا على حقيقته في الوهلة الأولى.

بنوم بينه/ بانكوك ـ (١٩٦٦/١٢/٧)

ماكاو

جنة الخطاة والصحافيين

«ليس في الدنيا مثل ماكاو!» قالها لي، ومشى الزميل الفيليبيني امامي في مطار هونغ كونغ ليلحق بالطائرة المسافرة الى مانيلا.

كان الحديث يدور بيني وبينه في الطائرة التي اقلتنا من سايغون الى هونغ كونغ، عن الظواهر العديدة في الشرق الأقصى. وكنا نقارن بين الشرق القادم منه أنا، وبين الشرق الذي يعرفه ويعيشه هو. وتوقفنا عند منعطفات كثيرة في الحياة الآسيوية. النساء، الطعام، المدن، الطقس، الجمال ـ ما عدا السياسة. لقد كنا نحن القادمَين من فيتنام نريد التحدث عن كل شيء، الا السياسة أو الحرب.

وسألت الزميل الفيليبيني الذي يعرف جنوب شرق آسيا على مد النظر، عن المكان الذي يمكن أن يزوره صحافي عربي مثلي قادم من بلاد بعيدة، تأكل السياسة حياتها كل يوم، من دون أن يتحدث أو يهتم أو يكتب عن السياسة.

قال لي: ماكاو. وسكت.

ولم يحتج الاسم اكثر من أن يثير فيّ ذكرى فيلم سينمائي يحمل هذا الاسم أو شجن رواية بوليسية تدور حوادثها هناك، وخيالات كثيرة عن كونها بلد التهريب والذهب والقمار والجنس. إلا أنني لم أتردد في الاستسلام لهذا الاغراء.

«ليس في الدنيا مثل ماكاو!»

فعلاً.

شبه جزيرة ملتصقة بالأرض الصينية، هي اليوم أقدم مستعمرة أوروبية على الساحل

الصيني، وآخر ظاهرة من ظواهر الاستعمار في العالم.. لقد كانت أول، وهي اليوم آخر، ما كان للبرتغال من فتوحات التاريخ.

فعلى بعد اربعين ميلاً من هونغ كونغ، تسبح ماكاو بمساحتها التي لا تزيد عن ستة أميال مربعة، بين عدد كبير من الجزر على الجانب الغربي من مصب نهر اللؤلؤ ـ أو نهر كانتون. وعليها يعيش ٢٧٠ الف نسمة يتعاطون صيد الأسماك وصناعة الألعاب النارية والكبريت. والأغنياء منهم، المراهنة والمقامرة وتجارة الذهب و... الجلوس في المقاهي.

وماكاو هي التاريخ. كل ما فيها، ملك له، وكل استمرارها بفضله، وكل ثروتها هي في العيش على حسابه. وكان التاريخ كريماً مع ماكاو.

فقبل حوالي ٣٠ سنة من اكتشاف كولومبوس لأميركا الشمالية، اكتشف بحار برتغالي كان مقلعاً نحو «جبال كاثي» الاسطورية الرائعة، شبه جزيرة صغيرة على ملعب نهر كانتون. وأدرك المكتشف البرتغالي ـ وكانت شواطىء الصين قد بدأت تفتح ابوابها للتجارة مع الغرب ـ أهمية هذا المكان الصغير. وبقيت «هوي كيانغ» ـ وهي اليوم مدينة ماكاو ـ أهم مستعمرة أوروبية على حدود الصين في آسيا. وفي عام ١٥٥٧ حازت البرتغال على ماكاو بموجب معاهدة مع الصين.

واطلق عليها البرتغاليون اسم آلهة صينية، هي «آما» شفيعة البحارة والصيادين، وما زال معبدها يطل من فوق المرفأ الى اليوم. وسميت «أماغاو»، حتى وجده البرتغاليون مع تطور لغتهم أنه طويل، وتحول الاسم مع الزمن الى «ماكاو». وبقي. ولم يجد البرتغاليون في ماكاو ـ وقد هاجر عدد كبير منهم اليها ـ الا أن يزرعوها وروداً وأشجاراً وأزهاراً، حتى أصبحت «جزءاً من أوروبا المشمسة في الصين». وصار الجسر الذي يربط الغرب بالصين، يعرف باسم «جسر الورود».

ويبدو أن التاريخ ترك لماكاو دوراً آخر. فقبل حوالي ثلاثة قرون، عندما فقدت البرتغال امبراطوريتها ـ أكبر امبراطورية عرفها العالم ـ لاسبانيا، بقيت ماكاو وحدها متمسكة «بالبرتغال الحرة»، ورفضت الاعتراف بتسليم الوطن الأم. وبعد ٦٠ سنة من تحرير البرتغال، اعتبرت ماكاو «المدينة التي لم يخلق الله أعظم من ولائها».

وصمدت ماكاو طوال هذه الأعوام، رغم تهديد خمس امبراطوريات لها ومحاولات غزو عديدة. فمن على شواطئها ابحر المغامرون البريطانيون واحتلوا هونغ كونغ عام ١٨٣٩، وبعدها بثلاث سنوات أصبحت مستعمرة بريطانية بموجب معاهدة نانكين، ومن خليجها اقلعت سفن الشاي البريطانية الى بوسطن، لتبدأ «حفلة الشاي» الشهيرة وحرب الاستقلال الاميركي، عام ١٧٧٣.

وخلال رحلة الثلاث ساعات ونصف من هونغ كونغ الى ماكاو بسفينة الركاب البخارية، كان التاريخ يفتح صفحة جديدة عند كل جزيرة نمر فيها، أو عند كل سفينة صينية

قديمة بأشرعتها المصنوعة من قصب «البامبو» وهي تعبث بمياه البحر عندما تلوح لسفينتنا التجارية من بعيد. وعندما لاحت شواطىء شبه الجزيرة من بعيد، أدركت لماذا تململ التاريخ عند هذه المدينة.

كان دليلي في ماكاو شاب أسمر من البيرو، يتكلم الانكليزية والفرنسية والبرتغالية والصينية. أما كونه من البيرو فلم أكتشف ذلك الا عندما كنت أودعه عند عودتي الى هونغ كونغ. فالبرتو، كما كنا نناديه قد ترك ليما بلده وهاجر الى ماكاو عندما أحب فتاة صينية منذ أكثر من سبعة أعوام ولحقها الى حدود بلادها. ومن شنغهاي هربت اليه في ماكاو، واستوطن هناك. وكدت اشعر بأن ماكاو قد بدأت تساوي نصف العالم فعلاً.

شدني ألبرتو من يدي، وقال لي: سأريك ماكاو، كما عرفتها أنا، لا كما يعرفها دليل السياحة، ولا كما يريد أن يتفرج عليها السياح الأميركيون.

وبعد بضع دقائق كنا على الحدود.

وأمام «باب الحواجز» ـ بورتو دي كريكو ـ كان الطريق ضيقاً. فهو الممر البري الوحيد الذي يربط أرضاً برتغالية بالصين. وهو الطريق الأكثر استعمالاً بين الصين والغرب.

فالباب من الطراز الكلاسيكي القديم، عليه علمان كبيران. العلم البرتغالي من الناحية الجنوبية، والعلم الصيني من الناحية الشمالية. ومن عند هذه النقطة التي تفصل عالمين مختلفين يبدو جندي برتغالي يقف في حراسة العلم، وبعده بأمتار قليلة يقف جندي صيني من جنود المليشيا يحرس مدخل بلاده.

وقال لي البرتو: يجب أن نعود في الفجر الى هذا المكان. ربما بعد زيارة الكازينو. فعند الخامسة صباحاً نرى مئات الفلاحين من الصينيين والماكاو مع مواشيهم وعرباتهم يعبرون هذا الباب ليبيعوا محاصيلهم من خضار وفواكه وأرز وحبوب.

وصلت ماكاو تاريخ الشرق بالغرب. فبناء شركة الهند الشرقية المطل على أجمل خليج، هو من بقايا القرن الثامن عشر. ومن حدائقه الجميلة خطط التجار البريطانيون لاستعمار هونغ كونغ. أما اليوم فهي متحف لكنوز شرقية، لعل أروع ما فيه الثلاثمائة لوحة لفنانين صينيين من عام ١٣٦٨ حتى عام ١٩١١.

وعلى بعد قليل من أجمل حدائق ماكاو، تطل ساحة صغيرة على أقدم بناءين فيها. فكان هذان المعبدان في نفس المكان قبل قرون من وصول البرتغاليين الى ماكاو. وماكاو كانت مرفأ مزدهراً، لا كهونغ كونغ أرضاً قاحلة، قبل عصر الاستكشاف بكثير.

فمعبد «أماكاو» ـ وقد بني في غياهب الزمن وقبل أن يسجله أي تاريخ ـ يبدو أنه اعطى اسمه للمدينة بعد تحريفه. ولكن معبد «كون يام» ـ الهة الرحمة ـ وهو الأكثر شهرة، فعلى طاولة حجرية فيه ـ ما زالت هناك ـ وقعت أول معاهدة صينية ـ اميركية في التاريخ عام ١٨٤٤. وفي هذا المعبد ـ يقول الرواة ـ آمن ماركو بولو الرحالة الايطالي

وأول غربي دخل الى الصين، «بكون ـ بام»، وصار من قديسيها. وله تمثال هناك مع باقي القديسين.

ولعل أهم أثر أوروبي في ماكاو اليوم، هو واجهة كنيسة القديس بولس ـ أو «كو ويتينغ» ـ التي صممها الأب سبينولا الايطالي في القرن السادس عشر، وبناها رهبان مسيحيون من اليابان. ويقول أهالي ماكاو، أن الزلازل والنيران قد أتت عليها في القرن الثامن عشر، الا أن بقاء واجهتها فقط ورسومها الداخلية وقبور الرهبان في داخلها، دليل على رضا الله على الماكاويين طوال هذه السنين.

وتعبنا من التاريخ قليلاً.

ورحت أبحث وحدي ـ وكنت قد تعبت أيضاً من البرتو ـ عن «جنة الخطاة»، كما كانت تسمى ماكاو في السينما والروايات البوليسية. ولم تكن «جنة الخطاة» أكثر من اسطورة شارع صغير في ماكاو اسمه «شارع الهناء» ـ روادا فليسيدادي ـ صيته أكبر من فعله.

لقد اختفت «ملائكة الليل» المحترفات منه منذ أعوام، وتحول الى مكان للمطاعم الراقية الجيدة.

أما كون المدينة مركزاً عالمياً لتهريب المخدرات، فهو اسطورة أخرى. فهناك سوق سوداء في أي مكان آخر في العالم، اما تهريب الذهب الى الصين، فمعدوم. وسوق الذهب في ماكاو سوق حرة، مع كافة أنواع الأحجار الثمينة التي تأتي من الصين.

ومع شعوري بالأسف لزوال «جنة الخطاة»، اكتشفت جنة أخرى في ماكاو، اسمها ـ والاسم من عندي ـ «جنة الصحافيين». فماكاو هي اليوم مصدر أخبار الصين الدائم.

والأخبار الأخيرة من داخل الصين لها ثمن. فالذين يتكلمون الصينية يمكن أن يشتروا آخر قصص الصين ـ وقد اشتهرت ماكاو بها منذ زمن بعيد ـ في قهوة بشارع «الخامس من اكتوبر». أما الذين لا يتكلمون الا الانكليزية فيمكنهم الحصول عليها من أشخاص اختصوا ببيعها، يعمل اكثرهم مرشدين سياحيين ويتجمعون على سطح مطعم سفينة الكازينو العائمة بين الساعة الرابعة والخامسة مساء، ومن بعد الساعة الثانية صباحاً من عازفي الجاز في الكازينو. أما إذا كنت من متكلمي البرتغالية فتجد من هو على استعداد لبيعك ما تريد من اخبار في «قهوة نوسو». وكلما زدته عطاءً، زادت القصة خطورة وطرافة!

أما القصص والأخبار القديمة والتي فات اوان نشرها، فتسمعها مجاناً في مركز اللاجئين الصينيين ـ «كاسا ريتشي» ـ لقاء تبرع صغير. إلا أن مطعم ومقهى «سولمار»، وهو مركز الصحافيين الرئيسي ورجال الحكومة والدبلوماسيين، فلن يبيح أي سر من أسراره للغرباء. أما اذا اعتاد وجهك بعد اسبوع أو اسبوعين، عندئذ يبدأ بالتخلي عن صمته. وحكومة ماكاو على استعداد لأن تنفي أي خبر عن الصين اذا سئلت! إلا أنه من الممكن إذا بقيت سنة في ماكاو أن تعثر على قصة صحافية أو خبر عن الصين

من الصحة والخطورة، الى حد انك ستجد صعوبة كبيرة في بيعه أو نشره!

وماكاو تستمر وتعيش من خلال نوايا الصين الحسنة. فالسياسة الوحيدة التي تشغلها، هي توثيق العلاقات الودية مع الصين. والصين قادرة على استعادة ماكاو بدقائق. لذلك اضطرت حكومتها لأن تغلق مكتب الصين الوطنية وقنصليتها في المدينة في آذار ١٩٦٦، بعد محادثات بين وزارة الخارجية البرتغالية في لشبونة وبين سفير تايوان هناك، اثر احتجاج صيني بأن المكتب والقنصلية في ماكاو يستعملان للتجسس والتخريب داخل الصين، وحفاظاً على العلاقات الودية مع بكين، وبالرغم من هذا، لم تقطع لشبونة علاقاتها الدبلوماسية مع تايبه. وبقيت الصين راضية.

غير أن في ماكاو مشكلة واحدة، هي مشكلة اللاجئين الصينيين الذين يتدفقون باستمرار، حتى بلغ عددهم بين ٧٠ و ٨٠ ألف لاجيء. وأكثر هؤلاء اللاجئين هم مزارعون من مقاطعة كوانغتونغ، أو طلاب هاربون من شنغهاي وغيرها من المدن الجامعية الصينية، أو صينيون من خارج الصين. وأكثر هؤلاء يأتون سباحة عن طريق مصب نهر كانتون، وهو مصب صغير يربط ماكاو بالارض الصينية. ويخف عدد اللاجئين في الشتاء لصعوبة عبور النهر في البرد.

ويعمل أكثر هؤلاء اللاجئين في الصناعات الصغيرة المتوفرة، ويزيدون من مشاكل المستعمرة البرتغالية وأعبائها الاقتصادية. فاقتصاد ماكاو يعتمد اليوم أكثر ما يعتمد على السياحة، ودخل الحكومة من الضرائب على الكازينو. وهناك كازينو ارستقراطي عائم على شكل باخرة صينية قديمة يفتح ليلاً، وفيه كافة أنواع ألعاب القمار في العالم، وكازينو آخر في قلب المدينة يفتح لمدة ٢٤ ساعة، وترتاده الطبقات المتوسطة والسواح

وسباق ماكاو للسيارات الذي يحدث كل سنة في منتصف تشرين الثاني، هو من احداث المدينة الهامة، الى جانب رأس السنة الصينية، وعيد الجمهورية البرتغالية في الخامس من تشرين الأول.

ويبقى في ماكاو معالم كثيرة، من بيت «صن يات صن»، مؤسس الجمهورية الصينية؛ ولكن لم يزره هو أبداً، حتى مطعم «بيلا فيزيتا»، حيث يقدم لك لائحة طعام بثلاث عشرة لغة. وكلها معالم، تجعل ماكاو شبه جزيرة ضائعة في التاريخ. واذا بماكاو اليوم مجرد مخبأ صغير يعيش في جنوب شرق آسيا بعيداً عن فضول العالم.

ماكاو - (١٩٦٧/٢/٦)



رياح الثورة الثقافية

لم أكن أدرك أن السباحة دخلت تاريخ الصين، الا عندما وقفت في يوم ربيعي رائع من أيار ١٩٦٦، على شرفة قصر حاكم ماكاو، الكولونيل انطونيو لوبيز دوس سانتوس، وكان يودع أشهره الأخيرة كحاكم لأقدم مستعمرة في العالم اليوم، أسأله عن الحاكم الحقيقي للأميال الستة المربعة من «الوطن البرتغالي» على الأرض الصينية.

ضحك دوس سانتوس وقال: الناس في ماكاو وهونغ كونغ يستمعون الى اذاعة كانتون كل صباح ـ وهي أقرب مدينة صينية الى المستعمرتين ـ ليعرفوا بماذا ينصحهم ماوتسي تونغ، وهذا الصباح نصحهم بالسباحة، فلذلك ترى الآلاف يسبحون على الشواطىء. وتطلعت من شرفة القصر المطل على الجانب الغربي من مصب نهر كانتون (اللؤلؤ)، فرأيت شواطىء ماكاو وقد امتلأت بالرجال والنساء والأطفال. ولما رأى الحاكم البرتغالي الدهشة مرسومة على وجهي، ابتسم من جديد وقال: أصبحت السباحة هوساً عند أكثر الصينيين. بعد هذا أتسألني من يحكم ماكاو؟ راديو كانتون طبعاً.

وفي العودة من ماكاو الى هونغ كونغ، كانت مجموعة قصائد ماوتسي تونغ المترجمة الى الانكليزية رفيق رحلة الأربعين ميلاً التي تفصل بين المستعمرة البرتغالية والمستعمرة البريطانية في الباخرة السياحية الحديثة. وعرفت من خلال شعر ماوتسي تونغ انه اجتاز للمرة الأولى نهر «يانغ تسي كيانغ» سباحة من «ووتشانغ» الى «هانيكو» في أيار عام ١٩٥٦. وكتب عندئذ قصيدة «السباحة». ثم عاد في الشهر التالي وقطعه ثانية من جهة «هان يانغ»، ومر تحت قنطرة الجسر الكبير الشهير الذي انتُهي من بنائه في أواخر عام ١٩٥٧. واجتاز النهر ثالثة بعد أربعة أشهر، من الطريق نفسها التي اتبعها في المرة الثانية.

وبدأت أدرك أهمية السباحة، من جملة ادراكي لأهمية أقوال ماوتسي تونغ، عند أول لقاء لي مع حدود الصين، دون أن أدخلها، أثناء طوافي في الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا. وبين ماكاو وهونغ كونغ وسايغون وسنغافورة حتى تايبيه، عرفت عشرات الصينيين القادمين من الصين والمحبين لماو، والهاربين من الصين والمعادين له، والذين لم يطأوا أرض الصين في حياتهم، والذين يتمنون حفنة تراب من بكين، والذين يستعيدون ذكريات الصبا في شنغهاي أو نانكين، كلهم كانوا يجيدون السباحة ويستعرضون أقوال ماوتسي تونغ. وكنت كلما أوغلت في التساؤل، يكبر التنين ويزداد اللغز صعوبة.

ولما أُرسيت قواعد السباحة في صلب مبادىء ماوتسي تونغ، عاد ليبدأ بها الثورة الثقافية في تموز ١٩٦٦، بعد غياب عشر سنين عن «يانغ تسي كيانغ». ففي الوقت الذي بدأ مراقبو الصين يشكّون في قدرة ماو الصحية، وقد تجاوز الثانية والسبعين، ظهر على ضفاف النهر الخالد ليقفز الى مياهه ويسبح تسعة أميال، ويخرج من الماء معافى ليحرك رياح الثورة الثقافية، ويعصف بأكثر من سبع عشرة سنة من الثورة القديمة، ومن تجارب «المئة زهرة» و «القفزة الكبرى الى الأمام».

ولم يعد سور الصين الكبير قادراً على حماية الأرض الشاسعة من أعين الدنيا المفتوحة عليها. وأخذت الملامح العريضة للصورة تتجمع بشكل مشوش، وكأنها تبث على موجة ضعيفة بارسال رديء. ولكن الخيوط بقيت واهنة في أيدي المراقبين، ومصباح «ديوجين» يبحث عن فتيلة وزيت نقي.

وظنها الناس حملة من طراز حملات «المئة زهرة» التي بدأها ماوتسي تونغ في الخمسينات، من دون أن تعيش أو تتفتح، والصين في وقتها ترفع سورها العظيم في وجه التغييرات الداخلية التي تحدث فيها بين فينة وفينة. حتى تعبت بكين، وكأنها أصيبت بانهيار صحي مفاجىء. ولم تنفع عودة حملة «المئة زهرة» عام ١٩٦١. لقد حل التعب.

وفي هذا قد تكون البداية. فغياب ماوتسي تونغ عن مسرح الصين السياسي زمناً طويلاً، واعتزاله مناصب السلطة التنفيذية، قد دفع الورثة السياسيين له الى استعجال اقتسام التركة، وهو ما زال على قيد الحياة. وماوتسي تونغ لا يحب ـ كما يبدو ـ أن يموت وضيعاً. أو على الأقل، أن يموت مريضاً، فأثبت قدرته الصحية في الماء. كما أن ماو لا يحب أن يموت دون أن يكتب وصية واضحة، يحدد فيها من يقف في الصف الأول عند خلافته، وأي طريق يجب أن يسلك، فهو لا يقبل بافتراضات السياسيين، فكان لين بياو وزير الدفاع الخليفة المنتظر، لا ليو تشاو تشي رئيس الدولة مثلاً. وكان التغيير العظيم، وكانت البداية. فقد أصبح هم ماوتسي تونغ أن يحدد اتجاه الثورة نحو مبادئه بحرفيتها، ويضمن الولاء لشخصه، لا لمبادىء الحزب، وهو حي. فالغد أيضاً من اختصاصه. والمعجزة يجب أن تتم على يده، ومن خلال افكاره، التي تصلح لكل عمل،

من لعب الكرة الى نتف ريش الدجاج، حتى الحلاقة. وهي ايضاً تصلح لكل زمان ولكل عصر، ولا يرتضي التجديف عليها ولا التحريف فيها.

لكن الرجل الذي حكم الحزب الشيوعي الصيني ما يزيد عن ثلاثين سنة، قد تعب. ولانه تعب بات يرى نهايته وكأنها على بعد أمتار، فقرر أن يجدد شبابه بتجديد شباب الثورة. بل، بكلمات اخرى، مهما مرض أو تعب الزعيم الأول، فإنه ما زال من الصعب تجاوزه. وازدادت مخاوف ماوتسي تونغ من «انحراف» خلفائه. وتضخمت الفكرة في رأسه، حتى بات يعتقد أن خطر تحول الثورة الصينية نحو «البورجوازية» هو خطر حقيقي يهدد انجازات أكثر من ثلث قرن من النضال، اذا زال هو عن المسرح. وقام ماوتسي تونغ بحملة مضادة، تدعو لأفكاره، قبل أن يتسرب السم الى جسم الحزب كله، وقبل أن تكف يد الزعيم عن الحركة. وتكاثر الخوف عند ماوتسي تونغ من أن تنجرف الصين في درب روسيا، نحو «الأماني البورجوازية» بدلاً من «الطهر الثوري»، فغدت كل نسمة قادمة من صوب موسكو، تجديفاً وانحرافاً وخيانة للماركسية ـ اللينينية الصحيحة.

والانفجار اليوم في الصين، يذكر بالأيام الأولى للثورة الروسية عام ١٩١٧، اكثر مما يذكر بالثورة الصينية عام ١٩٤٩، عندما انتقلت السلطة دون فوضى، وخاصة في المدن، الى ايدي الحزب الشيوعي، وظل الشيوعيون الصينيون يتباهون بأن ثورتهم تحققت بأقل ما يمكن من العنف، طوال تلك السنوات. وبقي كلام ماوتسي تونغ: «لا ثورة بالمسدس» دلالة على «الطهر الثوري» الذي لم يتأثر بالستالينية. ولكن ماوتسي تونغ سلم الثورة للجماهير الغاضبة وللحرس الأحمر، وتحولت كلماته في بيان للجنة المركزية الى: «أن الرئيس ماو علمنا دائماً بأن من الصعب تحقيق ثورة بنعومة وحذر ومحبة واعتدال. فعلى الجماهير أن تثقف نفسها بنفسها في الحركات الثورية، وتدرك الفرق بين ما هو عادل وما هو ظالم».

ولكن ماذا تعني ثورة شيوعية في بلد يحكمه الحزب الشيوعي منذ ما يزيد على سبع عشرة سنة؟ بل ماذا يعني تحطيم اشخاص علمتهم وبنتهم الثورة، وتحطيم انجازات صنعتها الثورة، والزعيم وتلامذته يعتبرون ذلك نصراً مبيناً؟ اذن القضية، ليست خلافة رجل يموت، وليست صراع أشخاص على سلطة يمارسها زعيم ينهار، هو الآن أكثر نشاطاً من أي وقت مضى. فالقدرة كانت ملك ايديهم أن يغيروا ما يشاؤون وهم في سدة الحكم والسلطة. أهو، اذن، طموح نحو الثورة الحقيقية التي تأخر حدوثها حوالي عقدين؟ أم هي، ضرورة دخول الثورة مع ابنائها كلهم، وقد بدات تأكلهم، المطهر الحقيقي الذي طالما دعت اليه مثاليتها؟

هذا ما كان يقلق ماوتسي تونغ طيلة سنوات الصمت. الجيل الجديد، الذي لم يعرف مرارة النضال الثوري الحقيقي، والذي يخاف أن يفسده اليوم جيل قديم، اغرته

المناصب، وأفسدته السلطة. اذن فلتكن الثـورة مباشرة، من الأسفـل، «لتثقيف» شباب الصين، الذين رضعوا مبادىء ماو نظريـاً، ولتتحرك الجمـاهير لتبـدي رأيها في أعمـال الحقبة الماضية ورجالها. وأراد ماو بذكائه أن يضرب عصفورين بحجر واحد. أن يعطي فرصة للشباب بالتصرف، وأن يتخذ من ذلك ذريعة لتصفية من أصبح وجوده غير مريح لنظام الحكم. ولتطهر الثورة نفسها بنفسها. وتحركت لجـان الحزب الشيـوعي في المدن ضد جحافل الحرس الأحمر، كحماة للنظام والشرعية والقانون. وكشف الكثـيرون بذلـك عن «رجعيتهم وانحرافهم وخوفهم من الجماهير»، وبـالتالي عـدائهم لأفكار مـاو. وكسب ماو بذكـائه الجـولة الأولى، واطمـأن الى مناعـة شبابـه ضد «عفن التطـور» الذي هـو المسؤول اليـوم عن «انحراف وبـرجزة» الاتحـاد السوفيـاتي. «فـالطهـر الثـوري» هـو الضمان الوحيد.

وتحول «الطهر الثوري» الى هوس شبه ديني، يحمل خصائص صينية لا يماثلها شيء في العالم. فالهوس الديني خصيصة صينية قديمة عرفتها في مراحل تـاريخها القـديم كله. وكون الصين بلداً زراعياً، لا يحمل أي علامة من تقاليـد ثورات العمـال الصناعيـين في أوروبا، فقد جعـل لمؤيدي الثـورة الثقافيـة اليوم، معـالم المبشرين المتعصبين الحـاملين صليب ماو ليحاربوا به كل من لا يقبله أو يمر تحته. لذلك فالمقارنة غير واردة أصلاً بين ستالين وماوتسي تونغ. فستالين قام بحملات التصفية من فوق ليحمي نفسه كحاكم. أما ماو فيدعو المؤمنين من تحت، لحماية العقيدة، وبالتالي لحماية قداستـه كنبي. فالحـرس الأحمـر هم الورثـة الشرعيون، في رأيهم عـلى الاقل، لثـورة روسيا عـام ١٩١٧، وثـورة الصين عام ١٩٤٩.

الشيوعي الحقيقي، الطاهر والصافي، هو الانسان الذي يعيش حياة يومية بتقشف كبير، متحملاً المسؤوليات كافة، مهما صعبت، بصبر وأنـاة. والشيوعي، الـرسمي أو المثقف، الذي يستغل منصبه أو نفوذه أو اطلاعه ليوفر لنفسـه حياة أسهـل يكشف بسرعة عن وجهه «المنحرف» وطبيعته «البورجوازية». لذلك لم تكن هـذه مشكلة في حيـاة الصينيين الشيوعيين عندما كان الحزب صغيراً قبل أن يتسلم الحكم عـام ١٩٤٩. أما وقـد صار عدد أعضائه ١٧ مليوناً، ومرت عليـه سبع عشرة سنـة في الحكم، فلا بـد أن يكون قـد انضم اليـه عـدد من الانتهـازيـين ومحبي السلطـة، وأصبـح من الصعب الاشراف الشخصي على كل عضو. فباتت «طهارة» الشيوعي الحقيقي، موضع شك كبير.

ولكن هل من السهل أن يقتلـع ماوتسي تـونغ صـين اليوم، من جـذور آلاف السنين من الحضارةوالتاريخ؟!هنا التحـدي الأكبر. فمـاو يعرف تـاريخ بـلاده جيداً، ويعـرف أن الجمهورية لم تكن من قبل الا امبراطورية، بل قارة يحكمها امبراطـور، تتفكك دويـلات سرعان ما تسقط. وماو يعرف أن جنوب الصين يتحدث بلهجة مختلفة عن الشمال، تكاد تكون لغة مستقلة، وأن «الفكرة الاقليمية» عميقة الجذور، وأنه الـوحيد الـذي استطاع ان يجعل منها دولة تخضع لحكومة مركزية.

ولكن دروس التاريخ كثيراً ما تضيع في متاهات الثورة، وخاصة عندما يصبح التاريخ عبئاً على الحاضر والمستقبل. وإلا فما معنى تحطيم واجهات المعابد البوذية، التي وقفت عراقة الصين نفسها على احترامها؟ وما معنى هجوم الحرس الأحمر على بلدة «شوفو» في مقاطعة «شانتونغ»، مسقط رأس كونفوشيوس، حيث حطموا معابده وصوره وشموعه وأيقوناته؟ فعند قدمي كونفوشيوس كانت الصين تتعلم في «شوفو» قبل ٢٤٠٠ عام قبل الميلاد، دروس الحكمة والمحبة واللاعنف. واليوم يقف شاب متحمس من بين الحراس الحمر ليقول: لقد دفنا الكونفوشية الى الأبد. ويمضي في سبيله. واذا كانت أحداث الصين الراهنة تقاوم أي منطق في التحليل، لكن من الواضح أن ثورة جيل الحرس الأحمر على تراث الصين العريق ليست الحقد عليه، في بلد تعلم احترام الأسلاف الصالحين ومبادئهم، بقدر ما هي الخوف من تراث آلاف السنين. فالتراث وحده هو الذي يقاوم أفكار ماو، وليس أعضاء اللجنة المركزية في بكين. وعندما يتحكم الخوف من الماضي، ويتحول قيداً يشد أي فكرة ثورية، حتى لو كانت من عند ماو، الى جذور العراقة الحضارية للبلد، يصبح الخوف من الحكم، ويصبح تحطيم القيد رفضاً كاملاً لاي شي ولد قبل مولد الثورة.

لذلك يبقى ما يحدث في الصين من خصائص الصين وحدها، لا مثيل له ولا وجه شبه بينه وبين أي حدث آخر، حدث أو يحدث اليوم في أي مكان ما. ويبقى الجواب الصحيح في رأس ماوتسي تونغ، وقد خرج قبل ٧٣ سنة من مقاطعة «هونان» ليكون أعظم ثوري في القرن العشرين: أعاد كتابة المبادىء الماركسية بالأسلوب الصيني بذكاء السياسي وعبقرية العسكري، وأدخل ملايين الفلاحين الى ملكوت الوطن للمرة الأولى في التاريخ. وعلى الطريقة الصينية العريقة والتقاليد، أصبح ماو القدر الذي لا يقاوم.

فالثورة، التي سميت «ثقافية» لخطأ أساسي في الترجمة، والتي اتهمها الحزب الشيوعي المجري، بأنها ليست ثورة ولا علاقة لها بالثقافة، والتي طلب الحزب الشيوعي الكوبي من الصينيين أن يحكموا العقل ويعودوا الى بيوتهم حتى لا يجعلوا من أنفسهم ومن الماركسية أضحوكة في أعين العالم، لم تكن تدري حين بدأت، أبعادها وتجهل اتساع مداها.

البداية كانت مقالاً ظهر في صحيفة في شنغهاي في تشرين الثاني عام ١٩٦٥، ينتقد مسرحية تاريخية لـ «ووهان»، وهو كاتب ومؤرخ معروف ونائب محافظ بكين، كان قد نشرها عام ١٩٦١. واعترض المقال الانتقادي على أن المسرحية تضمنت تصويراً لاشخاص قدماء ينتقدون بشكل خفي أشخاصاً محدثين، وبالتالي فإن المسرحية تنتقد «مسيرة التقدم الى الأمام». وكانت الطلقة البكر في الثورة الثقافية، والتي اعتبرت بمثابة انذار لكل المثقفين والكتاب الذين يشككون في سلامة أفكار ماو. وفي نيسان عام ١٩٦٦، ازدادت الحملة عنفاً، وغدا من الواضح أن هدفها هو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في بكين، ورئيسها «بينغ تشين» ـ وهو محافظ بكين أيضاً ـ الذي كان ترتيبه الثامن في

سلم الحزب الشيوعي الصيني. وفي حزيران أقيل بينغ تشين الذي رشح في أوائل عام ١٩٦٥ لخلافة ماو نفسه. وفي الأسابيع التي تلت، أقيل عدد كبير من المسؤولين في الحزب، على رأسهم «لي تشي» مدير الدعاية في الحزب، و «تينغ ثو» سكرتير الحزب. وأسفر الصراع عن صعود نجم وزير الدفاع «لين بياو» الى المرتبة الثانية، على حساب «ليو تشاو تشي» رئيس الدولة.

وكان آب شهراً حاسماً لزعماء الصين، فقد دعيت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني الى المصادقة على قرار مؤلف من ١٦ بنداً يحدد فيه أهداف «الثورة الثقافية البروليتارية»، ويؤكد أن مهمة الثورة هي «تخليص الحزب من أصحاب السلطة الذين بدأوا يسلكون طريق الرأسمالية». وكان أهم ما أسفر عنه اجتماع اللجنة المركزية، هو الموافقة على القرار الذي طرحه ماو ولين بياو بتشكيل الحرس الأحمر، المؤلف أكثره من جماهير الطلاب. وكانت المدارس والجامعات قد اغلقت في حزيران لاعادة تنظيم البرامج التعليمية على أسس أفكار ماوتسي تونغ. وكشف تشكيل الحرس الأحمر، أنه لم يعد من الممكن مقاومة معارضة داخل الحزب، ولذلك لا يمكن استخدام «جامعة الشباب الشيوعي»، وهي مليشيا شبيهة الى حد ما بالحرس الأحمر، لتسلل عدد كبير من أعداء ماو داخل صفوفها.

وازدادت تطورات الأحداث، حتى وصلت في الخريف الى صراع مفتوح بين الحرس الأحمر وأعداء ماو. وأصبح من المؤكد أن الثورة الثقافية ومعها ٢٢ مليون مجند في الحرس الأحمر، بقيادة ضباط سياسيين وعسكريين من جيش التحرير الصيني، لن تنتهي بالسرعة المتوقعة. فالمقاومة جاءت في الأساس من مواطنين، ليسوا بالضرورة قط ضد ماو أو أفكاره، إنما ضد تصرفات أفراد الحرس الأحمر ورعونة أفراده وعنف اجراءاته. وانضمت هذه المعارضة بشكل تلقائي الى المعارضة الحقيقية لماو فيما بعد.

وارتفعت في كانون الأول عام ١٩٦٦، لافتات في مدن الصين كلها تدين من تريد أن تدين وتطالب بما يخطر ببالها أن تطالب به. ولكن في الوقت نفسه، ظهرت الأحرف الصينية الكبيرة لتقول أن الثورة الثقافية ستدخل المصانع والقرى. وبدأت المرحلة الثانية من تفاقم الصراع. والذي حدث من اصطدامات في مدن الصين طيلة اسابيع، كان من نتائج المرحلة الثانية. فالهجوم على ليو تشاو تشي، وتينغ تشاو بينغ السكرتير العام للحزب، وتهديد مركز تشو ان لاي رئيس الوزراء، كان من أسبابه محاولة هؤلاء الأشخاص منع الفوضى الثورية من التسرب الى مراكز الانتاج الحقيقية. فتشو ان لاي بصفته رئيساً للوزراء يعتبر مسؤولاً في النهاية عن النتائج الاقتصادية للصين كدولة، ومعه «بواي بو» وزير الاقتصاد، المدان اليوم بعار الرأسمالية.

ومن المهم الانتباه، الى أن الثورة الثقافية لم تكن تنوي أن لا تطرق ابواب المصانع

والمزارع. بل بالعكس فقرار الـ ١٦ بنداً حدد بوضوح أنه يجب اعادة النظر في اخلاقية وسائل الانتاج في الصين، فاستبدل مثلاً لقب «مدير» أو «نائب مدير»، بلقب «رفيق». وتركزت عملية المقاومة التي اتخذت طابع العنف، حول المدن الصناعية والمراكز الزراعية التي دخلها رعاع الحرس الأحمر محاولين التدخل في شؤونها. وكانت مقاومة على أساس عدم شل الانتاج، وليس على أساس عدم الايمان بأفكار ماو أو سلوك طريق الرأسمالية مثلاً. إذ الخلاف ليس صراعاً على القوى، إنما خلاف حول صلاحية نظريات ماو في حل أزمات البلاد الاقتصادية أو في التنظيم السياسي للصين، اكثر مما هو اقتسام تركة رجل يريد أن لا يموت.

الرجال الذين يلعبون دوراً اليوم في غليان الصين، ابطالاً أو أعداء، هم رفاق ماو في النضال منذ أبعد من ربع قرن. لين بياو (٦٠ سنة)، الخليفة المنتظر، عسكري من أصل بورجوازي تخرج من كلية «وامبوا» كتلميذ من انبغ تلامذة الجنرال تشان كاي تشك مديرها وقتئذ. وكانت «وامبوا» كلية النخبة، أو «سان سير» أو «ساندهيرست» الصين. وتخرج لين بياو عام ١٩٢٧، وكان الانقسام في حركة صن يات صن قد تم بين انصار ماو الشيوعيين وبين انصار تشان كاي تشك الوطنيين. وانضم الى المسيرة الكبيرة، وقاد واحدة من ثلاث فرق مقاتلة رغم صغر سنه. وكان لين قد تعرف الى ماو وهو في الحادية عشرة عندما زار ماو قرية لين، وآمن بالثورة منذ ذلك الحين. وفي عام ١٩٤٥ كان لين بياو قائد الحملة التي بدأت في منشوريا ضد قوات الوطنيين حتى قذفت بالجنراليسيمو إلى فورموزا. وهو الوحيد من بين زعماء الصين الذي لم يطلق زوجته.

ليو تشاو تشي (٦٨ سنة) رئيس الدولة، حزبي قديم، ورفيق لماو منذ أكثر من أربعين سنة، في الهزيمة وفي النضال وفي النصر. ومن مفارقات الثورة انه وجد نفسه في الصف المعادي لرفيق السلاح القديم. فقد قام ليو بمعظم أعمال الحزب الصعبة والقذرة منذ العشرينات. وإيمانه بالماركسية اللينينية ايمان حرفي، عكس ماو الذي طور الأفكار الماركسية بالأسلوب الصيني متحدياً ماركس ولينين. ماو دعا الى تفجير الثورة الصينية بجماهير الفلاحين. وبقي ليو مهتماً بالطبقة البروليتارية ونقابات العمال. ونظم المدن وعمال المناجم على الطريقة البلشفية، وبقيت شنغهاي احب المدن اليه، لتوافر جميع شروط الماركسية «الأوروبية» فيها. وترك ليو اثناء المسيرة الكبيرة بين ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ وراء خطوط الاعداء، ليتولى تنظيم المقاومة داخل المدن.

ولا يجمع بين ماو وليو الا ولاؤهما الحزبي. ماو يحب النكتة ويضحك لها. ليو لا يبتسم ابداً. ماو يعرف تاريخ الصين جيداً. ليو يعرف تاريخ الحركات الشيوعية العالمية. ماو يحب الريف الصيني وطبائعه طبائع فلاح ولغته لغة الفلاحين. ليو يكره الريف، ولم يُسمع مرة في حياته يستعمل لفظة نابية؛ في لغة غنية بالشتائم والمفردات الجنسية.

وعاصمتها بكين. واصبحت مبادىء صن يات صن الثلاثة: القومية، الديموقراطية، والعدالة الاجتماعية، اقانيم الثورة والجمهورية الجديدتين. ولكن صن يات صن لم

تينغ تشاو بينغ (٦٢ سنة)، سكرتير عام الحزب، وخروشوف الصين بالنسبة الى ستالينية ماو، والعدو الفاقع لفكرة «التعايش السلمي»، وللاتحاد السوفياتي، والمسؤول عن كادرات الحزب الشيوعي كلها ويعرف تفاصيلها وادق اسرارها. وقد انضم الى الحزب في العشرينات عندما كان تلميذاً في فرنسا، وكان من أوائل دعاة التطهير في الحزب.

تشو ان لاي (٦٨ سنة) طراز آخر من الرجال. فالكاتب والاداري المثقف الذي تحول الى شيوعي ثوري في أوائل العشرينات، رغم عائلته البورجوازية وثقافته البورجوازية وتدريبه الكونفوشي، أسفر أخيراً عن وجهه وانضم الى ماو. يسمونه «ميكويان الصين» لصموده في الحكم طيلة هذا الوقت. ويسمونه أيضاً «البلشفيكي المرن» أو «تاليران الصين». ورغم كل هذا، خرج من هذه الاضداد ثورياً فريداً. درس بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٧ في فرنسا وبريطانيا والمانيا. وعين في عام ١٩٢٧ سكرتيراً للحزب الشيوعي في كانتون. واشترك في ثورة الكوميون الفاشلة وهرب من قوات «الكومينتانغ» ولجأ الى هونغ كونغ. ولكنه عاد. وكان دوماً يعود. وتحول الى مفاوض من الدرجة الأولى وأصبح ديبلوماسي الشيوعيين حتى انتصارهم عام ١٩٤٩ حيث أصبح رئيساً للوزراء ووزيراً للخارجية، الى حين تخليه عن الخارجية في عام ١٩٥٨. وهو السياسي الصيني الوحيد الذي يعرف عدة لغات ويعرف ماذا يدور في العالم ويعرف ان الصين ليست وحدها العالم.

يبقى وجه آخر مهم برز فجأة في الثورة الثقافية، وهو وجه مدام ماو أو تشاينغ شينغ. فهي الزوجة الرابعة لماو، وممثلة وراقصة سابقة في شنغهاي، انضمت الى الحزب الشيوعي في أوائل الثلاثينات وهجرت الفن. انضمت الى قوات ماوتسي تونغ في المسيرة الكبيرة، ولما قامت بزيارة مركز القيادة تعرفت الى ماو وأحبها، وتزوجا في عام ١٩٣٩. لم يسبق أن ظهرت في أماكن عامة، حتى هذا الخريف حين تولت الهجوم على زوجات الآخرين والدفاع عن زوجها. وكانت أولى ضحاياها زوجة شو ان لاي، واحدة من النساء القليلات الأعضاء في اللجنة المركزية. وكانت زوجة ليو تشاو شي الضحية الثانية.

ولتشاينغ شينغ أفلام عديدة، أشهرها «التفاحة الزرقاء»، الذي يقال أن ماو شاهده في شنغهاي وأحبها فيه قبل أن يتعرف اليها في الجبال. ويقال ايضاً أن ماو قد أمر اليوم بتدمير كل نسخ الأفلام التي سبق لزوجته الرابعة أن ظهرت فيها قبل ثلاثين سنة. وأما الزوجة الأولى لماو، فكانت في صباه المبكر ومصيرها مجهول. والزوجة الثانية، وهي حبه الحقيقي، كانت مدّرسة في بكين، واعدمتها قوات تشان كاي تشك اثناء الحرب. والزوجة الثالثة طلقها بعد مدة قصيرة، ويقال أنها اليوم في الولايات المتحدة متزوجة من استاذ صيني في احدى الجامعات الأميركية. والزوجة الرابعة هي حامية الحمى، والمستشارة الثقافية لجيش التحرير الصيني، ومرشحة لمنصب الزعامة في البلاد.

وفي عودة بسيطة الى مطلع هذا القرن، نرى أن ما يحدث اليوم في الصين، سبق أن حدث

شبيه له عـام ١٩٠٠، وأن الثورة الثقـافية البـروليتاريـة العظمى، قد سبقتهـا «ثـورة البـوكسر». فثورة البـوكسر قامت عـلى اثر ضعف وتخـاذل أسرة المانشـو طوال القـرن التاسع عشر، ونتيجة العزلة التي فرضها حكم هذه الأسرة على الصين مـدة ٢٦٨ سنة. ففي الوقت الذي كانت أوروبا تمـر بثورة صنـاعية، وبثـورات سياسيـة، كانت الصـين تحـاول أن لا تعترف بـالزمن. ولأن المـانشـو يجهلـون العـالم الخـارجي، فقـد فقـدوا احتكاكهم بالعالم.

وفي عام ١٨٤٠، وقعت «حرب الأفيون» مع بريطانيا، حين فـرضت البواخـر البريطـانية أن تفتح الصين مـرافئها للتجـارة. وحسب اتفاقيـة نانكـين التي أنهت الحـرب، سمحت الصين لخمسة مرافىء بالتعامل مع التجار الأجانب. ووقع خلاف ثان حـول فتح أبـواب كانتون للتجارة، تحول الى حملة عسكرية من فرنسا وبريطانيا ضد بكين في عام ١٨٥٨، انتهت باحراق القصر الامبراطوري واخضـاع الامبراطور لتوقيـع معاهـدة بكين في عـام ١٨٦٠ تحت ضغط السلاح، مانحاً الدول الغـربية المـزيد من الامتيـازات التجاريـة في البلاد. وبهاتين الحربين، شعرت الصين بمرارة الهزيمة وذلها على أيدي الأجانب.

وتراكضت الدول تحاول أن تقتطع لنفسها حصة من الصين، وازدادت الهزائم حتى بدأ شعب الصين يتململ. ونشأت ثورات لم تعش طويلاً في أنحـاء مختلفة من البـلاد، منها ثورة المسلمين في الشمال الغربي، وثورة «ناين» في الشمال. وقُضي عليهما معاً بعد أشهر قليلـة. وحاول الامبـراطور «كـوانغ هسـو» أن يقوم بحملـة اصـلاحيـة معينـة، إلا أن مؤامرات البلاط حالت دونه، وقضى انقلاب بزعامة الامبراطورة «دواغر تسو هسي» عليه وعلى أعوانه.

وارتفـع التململ عـام ١٩٠٠ نتيجة للحكم الـداخلي وللنفـوذ الأجنبي. وتحول الى ثـورة عـرفت بثورة البـوكسر ضد القنصليـات والمفوضيـات الأجنبية في بكـين حوصرت فيهـا العاصمة ٥٥ يوماً. ومنذ «حرب الأفيون» قبل ١٢٥ سنة، والصينيون يناهضون النفـوذ الأجنبي. وبالنسبة الى البوكسر كان الشر في الوجود الغـربي والمعاهـدات غير المتكـافئة والارساليات المسيحية، فهاجموا الارساليـات وحاصروا القنصليـات. وأما بـالنسبة الى الحرس الأحمر اليوم فالشر في الانحرافية القادمة من روسيا والبورجوازية القـادمة من الغرب. وتظاهروا أمام السفارات وهاجموا الاتحاد السوفياتي وحاصروا الديبلوماسيين. وخسر البوكسر الثورة بمزيد من المعاهدات المذلة. وكم واحد من الحراس الحمـر يعرف تاريخ بلاده جيداً!

لكن هـزيمة البـوكسر قادت الى شيء مهم هـو تعبئة النـاس في ثورة عـارمة، سرعـان ما أطلقها الدكتور صن يات صن عام ١٩١١ والتف حوله جنوب الصـين كله. وصن يـات صن بالنسبة الى الصين هو كجورج واشنطن الى اميركا. فقد ألف خليـة ثوريـة عندمـا كان يدرس الطب في هـونولـولو هي «جمعيـة بعث الصين». وتحـولت الجمعية الى نـواة لحـزب الكومنتـانغ فيمـا بعد. وأعلنت الجمهـورية في أول كـانون الثـاني عـام ١٩١٢

يعش طويلاً، إذ مات في آذار عام ١٩٢٥، قبل أن تجد تعاليمه جذوراً كافية لها عند الشعب وقبل أن تسيطر الحكومة المركزية سيطرة كاملة على البلاد.

وتولى الجنرال تشان كاي شيك الزعامة بعده، وكان قد تزوج من ابنة صن يات صن التي هي زوجته الحالية. وانضمت الابنة الأخرى الى الشيوعيين، وما زالت تعيش في بكين حتى الآن، وبدأت الحرب الصينية ـ اليابانية، وقاد تشان كاي تشك الحملات ضد اليابانيين وحقق انتصارات عديدة، ونقل مركز العاصمة من بكين الى كانتون، ثم الى نانكين التي ما زالت العاصمة الرسمية للوطنيين. ودخل الصراع مع الشيوعيين مرحلته الحاسمة: البداية الأخرى لصين اليوم.

وما دمنا في حديث التاريخ، فإن قصة الحزب الشيوعي الصيني لا بد أن تروى في خطوطها العامة، لتوضيح طبيعة الصراع الذي لم يستطع أن يخرج منه الصينيون طيلة الخمسين سنة الأخيرة. فعند سقوط أسرة المانشو الحاكمة عام ١٩١١، ثار جنوب الصين بزعامة صن يات صن، وأخضع المنطقة لنفوذ حزبه «الكومينتانغ» معلناً أول جمهورية في آسيا. ولكن شمال الصين وقع تحت سيطرة عدد من الجنرالات اقتسموه مناطق نفوذ بينهم. وبقيت معركة السيطرة على بكين في الشمال حاسمة.

وفي هذه الفترة من العنف والفوضى ولد الحزب الشيوعي الصيني، متأثراً بنجاح ثورة اكتوبر الروسية وخيبة أمل المثقفين الصينيين بحركة ٤ أيار وحزب الكومينتانغ. وكانت الولادة الرسمية للحزب الشيوعي في أول تموز عام ١٩٢١، عندما حضر ١٢ عضواً أول مؤتمر شيوعي وطني في مدرسة للبنات في شنغهاي. وحاول الحزب في السنوات التالية التعاون مع الكومينتانغ، والتسلسل بالأسلوب التقليدي الى مراكز النفوذ في صفوفه، الى حين قاد تشان كاي تشك جيوش الكومينتانغ لاخضاع الشمال نهائياً لسيطرة الجمهورية (١٩٢٥ ـ ١٩٢٨)، فخرج الشيوعيون منه وأعلنوا معارضتهم له.

وفي أيار عام ١٩٢٨، تأسس جيش الصين الأحمر، الذي عرف فيما بعد بجيش التحرير الشعبي، بقيادة ماوتسي تونغ الذي كان يتقدم بسرعة نحو الزعامة، على حدود تيانفسي ـ هونان. وساعد احتلال اليابانيين لمنشوريا عام ١٩٣١، على الحفاظ على جيش ماو، بإشغال جيش تشان كاي تشك وإلهائه عن هزيمة الشيوعيين. ولكن بعدما رد جيش التحرير أربعة هجومات كبيرة لتشاينغ بين ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣، هزم في الهجوم الخامس واعترف ماو بالهزيمة، وبدأ التراجع الستراتيجي الاسطوري عام ١٩٣٥، الذي عرف «بالمسيرة الطويلة»، والذي يعتبر من اهم انجازات ماوتسي تونغ. فالجيش المؤلف من ١٠٠ الف رجل، مشى في سنة واحدة ٦ آلاف ميل، وخسر ٧٠ الف جندي، وانتخب ماو لزعامة الحزب، بتأييد من تشو ان لاي، وأقام مركزه في مقاطعة شينسي شمال غربي الصين، التي بقيت مقر الحزب الشيوعي لحقبة كاملة من الزمن. وهاجم تشان شينسي بعد الحرب الصينية ـ اليابانية عام ١٩٣٧، الا أنه عاد ليقبل بجبهة

وطنية مع الحزب الشيوعي، وعاد التكتيك الشيوعي يلعب دوره. ففي الوقت الذي كانت جيوش الكومينتانغ تتراجع أمام اليابانيين، كان جيش التحرير يحتل المواقع الخلفية وراء الخطوط اليابانية. وفي نهاية عام ١٩٤٥، كان تشان يسيطر على كل جنوب الصين وأكثر مدن الشمال، بينما يسيطر الشيوعيون على الريف والجزء الأكبر من الشمال.

وازدادت قوة الشيوعيين بالامدادات الروسية، وبالسلاح الياباني الذي تركه الجيش الياباني المندحر وراءه. واستطاع ماو أن يصمد في وجه هجمات تشان في الحرب الأهلية بين ٤٧ ـ ١٩٤٩، الى حين هزم الكومينتانغ في الجنوب وأجبر تشان على التراجع مع نصف مليون رجل الى جزيرة فورموزا، تاركاً الأرض الصينية كلها بأيدي الشيوعيين. وفي أول أكتوبر عام ١٩٤٩، أعلنت جمهورية الصين الشعبية. وللمرة الأولى منذ أربعين عاماً أصبحت القارة الصينية في وحدة تامة وفي سلام. لكن السلام لم يدم. فبعد عام بدأت الحرب الكورية في عام ١٩٥٠، عندما غزت القوات الصينية كوريا الجنوبية عن طريق الشمال. وتدخلت القوات الأميركية تحت علم الأمم المتحدة، واستطاعت قوات الجنرال ماك أرثر أن تقذف بالقوات الكورية الشمالية الى ما وراء نهر يالو، قبل أن يرسل ماو قواته عبر «موجات بشرية» لرد الهجوم الأميركي. وبعد ثلاث سنوات من الحرب، وعند توقيع الهدنة، كانت خسائر الصين قد بلغت ٩٠٠ الف رجل. هذه هي صين الصين. ولكن هناك ما لا يقل عن صينين آخريين: الصين الوطنية في تايوان (فورموزا) أو صين تشان كاي تشك، وصين المهاجرين في بقاع الدنيا كلها، من فيتنام الى سنغافورة الى أندونيسيا الى أوستراليا حتى الولايات المتحدة، كيف يفكرون؟ وماذا يريدون؟ وماذا تعني الصين الأم لهم؟

في تايوان وقفت مستخفاً بالصين الصغيرة عند عودتي اليها من حماة الحرب في فيتنام في العام ١٩٦٦. وعندما وصلت الى تايبه العاصمة، كان الوطنيون يحتفلون بتنصيب تشان كاي تشك، وقد شارف على الثمانين، رئيساً عليهم للمرة السادسة. ووقف الجنراليسيمو ليقول في هذه المناسبة انه فشل في ايصال شعبه الى اليابسة بعد سبع عشرة سنة. ولكن العودة الى الأرض الصينية هي الحلم والهدف والأمل.

وكان السؤال الوحيد الذي طرحته في كل مكان في تايوان، وأمام كل من قابلته، من رئيس الوزراء ونائب رئيس الجمهورية تشيه كان ين، حتى سائق التاكسي: هل تعودون يوماً ما الى البر الصيني؟ متى؟ وكيف؟

وكان الجواب واحداً: نعم: حتماً، وإلا فلا مبرر لوجودنا في هذه الجزيرة ـ المنفى أصلاً.

اذن لا مفر من العودة، ولكن كيف؟ وكلما ألحَّ السؤال على لساني كان الجواب يأتيني ـ من نائب رئيس الجمهورية الى سائق التاكسي ـ انهم سيعودون الى البر الصيني بمساعدة الشعب الصيني، وانهم لا يريدون من الولايات المتحدة إلا أن ترفع الحظر

المفروض على تحركاتهم العسكرية، مع المزيد من السلاح والمؤن. فمنذ عام ١٩٤٩، والصينيون الوطنيون يحاولون أن يجعلوا من تايوان نموذجاً لما سيفعلونه لو استرجعوا اليابسة الصينية. فحققوا معجزة اقتصادية تُعد الثانية في مستوى دخل الفرد في آسيا اليوم، بعد اليابان. وأصبح عندهم جيش لا يقل عدده عن نصف مليون جندي، من أفضل جيوش الشرق الأقصى كلها. وبدأوا يكسرون طوق العزلة السياسية وفتحوا أبواب الجزيرة أمام آسيا والعالم. وشعروا للمرة الأولى منذ بداية التيه بأن العناد الصامد قد يتيح لهم العودة يوماً.

وجاءت اضطرابات ثورة الصين الثقافية لتؤكد اعتقادهم بأن الحزب الشيوعي الصيني قد كشف أوراقه كلها خلال السنوات الماضية. وفشل التجربة الشيوعية، في رأيهم، وزوال ماوتسي تونغ المنتظر، قد يدفعان بالشعب الصيني الى الانضمام الى الوطنيين متى عرفوا بوصولهم. كما أن اتصالاتهم بالبر الصيني تؤكد لهم هذا. ولذلك هم لا يخشون فارق العدد بين جيشهم الصغير والجيش الكبير، وقد سبق أن هزموا وكانت اعدادهم كبيرة، في حين كانت اعداد الشيوعيين قليلة. ومع اعتمادهم على قيام ثورة ضد النظام الشيوعي في البر الصيني، جاءت الثورة الثقافية لتعزز عند الكثيرين هذا الأمل. إلا أن الوطنيين يدركون ابعاد القضية ومضاعفاتها دولياً. فلا يمكن أن تكون الحرب بين ماوتسي تونغ وتشان كاي شيك «حرباً أهلية» كما يتصور البعض، إذ لا يمكن أن تقع الحرب بمعزل عن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.

لذلك جاءت تعليقاتهم على أحداث الصين الأخيرة، تعليقات متحفظة ورصينة، تحمل بين طياتها الأمل الضئيل بأن تقضي الثورة هناك على نفسها في تمخضها المستمر، فتوفر عليهم مؤونة التدخل. والشيء الوحيد الذي يستطيعونه هو الانتظار، مقتنعين بأن الزمن لمصلحتهم.

وفي سنغافورة صين أخرى. الصين التي اعلنت استقلالها في آب عام ١٩٦٥ عن اتحاد ماليزيا، لأنها لم تستطع أن تتعايش مع أكثرية غير صينية في الملايو. وغدت سنغافورة جمهورية مستقلة ذات سيادة. وغدا لي كوان يو رئيس الوزراء، الرجل الأول، ذا الثقافة الانكليزية، الناطق باسم المليون ونصف المليون صيني، الذين يعرفون الصين ولم يولدوا فيها، وقد جاء أجدادهم منها قبل مئات السنين، وأصحاب دولة صينية لا علاقة لها بالصين الحقيقية، ولا بمبادىء ماوتسي تونغ، ولا يعرفون عنها الكثير. حتى أن لغتهم خليط من الكانتونية واللهجة المحلية والمفردات الانكليزية. وقام لي كوان يو بجولة في آسيا وافريقيا ليعرِّف بصينه، ويقول أنها شيء آخر. حتى الشيوعية لا تجد جذوراً عميقة لها الا عندما تخلط بين القومية الصينية والوطن الأم وأفكار ماو. وهي أمر غريب على السنغافوريين التجار.

والجاليات الصينية في فيتنام الجنوبية (١,٥ مليون) وفي الملايو (٤ ملايين) واندونيسيا (١٠ ملايين) وعشرات الجيوب الصينية في تايلاند وبورما واوستراليا والفيليبين، تكاد

أيضاً تجهل الصين الا ملامحها وتراثها الثقافي، ولا يهمهـا ما يحـدث فيها الا بقـدر ما ينعكس على مصالحها في البلد المقيمة فيه. وأوضاع هذه الجاليات الاقتصادية حسنة في معظمها، وقد اكتسبت أغلبيتها جنسية البلـد، ولذلـك فإن ولاءهـا بحكم هذه الظـروف الاجتمـاعية مـا زال للوطنيـين ولتشان كـاي تشك، اكثـر منه لمـاو، إلا فئات قليلـة من الشباب الناقم، الذي يعتبر الصين هي الخلاص القومي الحقيقي.

أما ماكاو وهونغ كونغ، فلهما وضـع مختلف. ماكـاو كمستعمرة بـرتغالية، على الأرض الصينية، تعتبرها لشبونة معقلاً أخيراً من أمجاد الامبـراطوريـة البرتغـالية. وتحكمهـا بـرضى بكين، وتعيش بفضـل المواد الغـذائية من أرز وخضر ولحـوم حتى المـاء تبيعهـا الصين يومياً عبر باب الحواجز ـ بورتـودي كريكـو ـ الممر الأرضي الـوحيد بـين الصين واوروبا. ولأن بكين القادرة على استعادتها بدقائق وتريدها أن تبقى كما هي لاستعمالها الشخصي تمنح البرتغال «مذلة» البقاء فيها. ولذلك فإن أكثر الصينيين وخاصة الأثـرياء منهم، يدينون بالولاء لماو، لأنهم يعرفون أن نهاية مصيرهم في احضانه.

وهونغ كونغ، المستعمرة البريطانية، لها وضع شبيه بماكاو وإن اقوى، إذ تشكل مخرجاً اهم للصين في تجارتها وتعاملها مع العالم، غير أن قدرتها عـلى استعادتهـا متى شاءت، هي بالسهولة نفسها. وتجار هونـغ كونـغ الكبار، يحبـون ماو أكثـر مما يحبه الحرس الأحمر، ربما، خوفاً منه ومن الحرس الأحمر. وهونغ كونغ تنتخب نائباً عنها وترسله الى مجلس النواب في بكين.

وعادت الصين لتواجه العالم وحدهـا. فبعد محـاولة بـاندونـغ الأولى عام ١٩٥٤، حيث نوت الصين ان تجد لنفسها أصدقاء في آسيا وأفريقيا، وأن تكسب الحركات الشيوعيـة الى جانبها، عادت فانكفـأت عام ١٩٥٨، إثـر حادثتـين: الأولى، هجوم خـروشوف عـلى ستالين وتحطيمه لعبادة الشخصية عام ١٩٥٦، والتي اعتبرت بداية الانشقاق الصيني ـ السوفياتي. الثانية، تجربة «المئة زهرة» حيث دعا نظام الحكم في الصين الجماهير الى انتقاده، فكان النقد وخيبة الأمل بالانجازات الشيوعية أكبر من المستسـاغ.

ودخلت الصين عام ١٩٥٨ مـرحلة «القفـزة الكبرى الى الأمـام»، وكانت محـاولة لـدفع عجلـة التقدم الاقتصـادي عن طريق «الكـوميونـات» في القـرى، ومصـانـع الصلب في البيوت. وانهارت التجـربة انهيـاراً وازداد ارتداد الصـين الى الوراء، وأصبحت كـأنها تقف ضد العالم كله.

وأحست الصين فعلاً مع ازدياد عمق الخلاف العقائدي والسياسي بـين موسكـو وبكين، بوحدة غريبة، حتى تجـاوز الخلاف بكـل ابعاده أي إمكـان لردم الهـوة السحيقة التي تزداد عمقاً يوماً إثر يوم بين البلدين. ففي عام ١٩٥٩ وقعت ثورة التيبت وهرب الدالاي لاما. وفي عام ١٩٦٠، اوقف الاتحـاد السوفيـاتي مساعـداته الاقتصـادية والعسكـرية كافة. وفي عام ١٩٦٢ هجمت الصين على الهند، وفي عام ١٩٦٤ فجرت الصين اول قنبلة ذريـة لها، وبـدات تصـاعـديـة الحـرب في فيتنـام، وفي عـام ١٩٦٥ اصيبت بنكسـات

ديبلوماسية في أسيا وأفريقيا، فتراجعت بذلك خطوات واسعة الى الوراء. وكانت الخسارة الاكبر لها اندونيسيا، حيث انكسر فك الكماشة في أسيا. وفي الوقت نفسه أخذ نفوذها يتقلص في الأحزاب الشيوعية في العالم، ولم يبق لها عملياً إلا بعض فروع الأحزاب الشيوعية الصغيرة في آسيا، ولعل اهمها مثلاً، بعد ضياع اندونيسيا، الحزب الشيوعي النيوزيلندي.

حتى البانيا الحليفة الكبرى في أوروبا، أبدت تحفظاً كبيراً بعد الثورة الثقافية، رغم استمرار تبادل زيارات الوفود بين تيرانا وبكين. ولم تعلق على أحداث الحرس الأحمر، إلا بعد نشاطه. وكوريا الشمالية، الحليفة الأخرى في أسيا، كان تحفظها مثار دهشة المراقبين كلهم.

واليوم يزيد تراجع الصين الى داخل السور العظيم. فعام ١٩٦٦ الذي شهد مولد الثورة الثقافية والذي دخل التاريخ باعلان ماولهزيمته، عبر اعتراف ضمني بفشل حقبتين من العمل الثوري، قد يشهد في عام ١٩٦٧ مدخلاً الى التاريخ بإعلان القطيعة النهائية مع الاتحاد السوفياتي. ولكن روسيا، رغم الاهانات والاعتداءات التي ألحقها ويلحقها الصينيون ببعثاتها الديبلوماسية ورعاياها، لا ترغب في وداع أخير. لذلك ستقف من كل ما يحدث سلبياً، محاولة تفادي الاصطدام النهائي الذي قد يخرج عن طابع الشتائم الى العمليات العسكرية عبر الحدود الطويلة التي تقفل بين البلدين. وما يخشاه الاتحاد السوفياتي، ليس ما سيفعل بالصين، إنما ماذا سيفعل بالولايات المتحدة والغرب وفيتنام عند الوقعة الأخيرة. لعله سؤال يحتاج الى الكثير من التفكير والكثير من الجرأة من رجال الكرملين اليوم.

وعندما يودع الانسان حدود الصين بعد جولة في أطرافها، وفي جيوبها الصغيرة الموزعة في جنوب شرق آسيا، لا بد أن يتطلع قليلاً الى التنين الكبير وقد تضاعفت حيرته مع صعوبة حل اللغز الذي يشغل بال العالم. وكانت مجموعة قصائد ماوتسي تونغ في جيبي، والطائرة تقلع بي من هونغ كونغ لتعيدني الى بيروت، وهي تحلق فوق جبال شاهقة لا تحصى، وتبدو الصين مبسوطة امامي، وسحبت الشعر من جيبي، وقلبت صفحاته، حتى وقفت عند قصيدة بعنوان «ثلاث مقطوعات» يقول فيها ماو، معتمداً على أغنية شعبية مشهورة في الصين:

«من فوقنا جبل الجمجمة
ومن تحتنا جبل الكنز
ونحن بثلاث أرجل، وثلاثة اصابع
تشير الى الشمال
ولكي تجتازه ماشياً،
يجب أن تحني راسك

وأما إن شئت اجتيازه راكباً
فعليك أن تترجل!»

ومن يريد أن يفهم الصين عليه أن يحني رأسه ويترجل.

هونغ كونغ - (١٩/٢/١٩٦٧)

(*) قصيدة «السباحة» بخط الشاعر ماو.
«لم أكد أرتوي من ماء «تشانغ تشا» حتى ارتميت سابحاً أعبر النهر اللانهائي العظيم ذا الألف ميل
غير آبه بالرياح العاصفة،
ولا مبال بتلاطم الأمواج
أما اليوم فتحررت،
كمكسال يتسكع في ردهات قصره،
ووقفت على شاطىء النهر،
فقال لي السيد كونفوشيوس:
كل ما في الكون يجري ويمر،
كما يسيل هذا الماء.»

من قصيدة «السباحة» لماوتسي تونغ، (أيار ١٩٥٦).



اليابان

حيرة التقاليد

في اليابان شعرت بسقوط العرب من الخريطة الاسيوية. آسيا التي نحن جزء منها لا تعترف بنا. حدود آسيا تقف عند القارة الهندية أو بالكاد. نحن خارج آسيا في آسيا. نحن الشرق الأوسط وما بعده. آسيا هي الوجوه الصفراء والبيضاء والسمراء، هي القامات القصيرة والنحيلة. هي العيون الصغيرة المستطيلة. والعالم العربي بعيد جداً عن آسيا.

في اليابان ترتج الصورة العربية. تختلط المقاييس التي تعوّد العرب التعامل بها. تتبدل الاحجام. تضيع المسلّمات التي نعرفها وتسقط كل البديهيات المتوارثة في عقلنا الباطن. اليابان شيء آخر يختلف عن كل الذي نعرفه ونصدقه. والعرب اكتشاف جديد بالنسبة الى اليابانيين لم يحسوا به قبل حرب النفط وما بعدها. نحن الدهشة بالنسبة الى اليابان بمقدار ما اليابان هي المفاجأة بالنسبة الينا. وبين الدهشة والمفاجأة، ومع السقوط خارج الاعتراف الآسيوي، يبدو الحديث عن اليابان مكتظاً بالأسئلة الكثيرة التي لا بد أن تبدأ من الاجابة عن سؤال صغير: من هم اليابانيون؟ قبل الدخول في دوامة الحيرة الكبيرة التي اسمها آسيا.

لنبدأ من الاول، اليابان ليست امة كما هي الولايات المتحدة مثلاً، أو الاتحاد السوفياتي أو كندا، او حتى العرب، اليابان عائلة. واليابانيون يشعرون بأنهم أقارب وان الفرد هو حامي أخيه الآخر. اليابان ليست مجموعة شعوب تنتمي الى قوميات مختلفة أو ديانات او طوائف متفرقة. في اليابان ـ الأمة لا انقسامات أو خلافات مذهبية أو عرقية أو شعوبية. لذلك ليست عند الياباني عقدة التقليد لانه يعرف أنه فريد من نوعه. «استعيروا الافضل» ـ هذا هو شعار اليابانيين وهذا هو عملهم الدؤوب منذ أن استوردوا الحضارة الصينية أيام نهضة «الميجي» حتى عصر الاهتمام بالتكنولوجيا والعلوم ونقلها عن الغرب من دون خوف أو حرج أو عقد. لننقل اي شيء من أي مكان

في العالم ولنجعله أفضل بجعله يابانياً. عند هـذا المنطق تذوب عقـدة التقليد، لأن مـا يقلده وينقله هو من أجل اليابان ـ المجموعة. لـذلك عنـد اليابـانيين رغبـة دائمة في أن يكونوا مجموعة وأن تنجح هذه المجموعة، وخـوف الفرد اليـاباني الـدائم هو أن يـأتي بالعار على هذه المجموعة إن هو شذ عنهـا أو اختلف معها أو انشق عنهـا. في اليابـان، الأمة ـ العائلة هي الملجأ وهي الحمى، ما دام الفرد تشده رغبة عارمة في الانتماء دائماً الى الأكثرية.

الياباني يفضـل أن يكون «بـرغي» في آلة عـلى ان يكون أكثـر حريـة في تحريـك الآلة. والياباني يتبـع رئيسه، وليـأخذ الـرئيس القرار والمبـادرة باسم المجمـوعة ومن اجلها. فرديته ليست موضوع بحث. فالولاء المطلق للمؤسسة التي يعمل فيهـا هو القـاعدة. في هـذه المؤسسة يلغي شخصيتـه ويقضي حياتـه كلهـا يعمـل من اجلهـا. حتى أن وزارة الصناعة والتجارة أصدرت عام ١٩٧٢ قراراً يقضي بمعاقبة الذين يعملون خارج اوقات الدوام الرسمي والذين يرفضـون أخذ اجـازاتهم الدوريـة. وبلغت الغرامـة ٧ دولارات لرئيس الدائرة و٤ دولارات لغيره من الموظفين عن كل يوم عمـل خارج الـدوام المطلوب. «اساهي شيمبون» ـ احدى أكبر وأهم صحف اليـابان ـ تقـول عن هذه الظـاهرة: «من الصعب على الآخرين أن يدركوا أن اليابانيـين شعب متجانس ومتصـل ـ بوعي أو من دون وعي ـ برباط من الأخـوة، وأن الأدوار التي يلعبها كـل فرد من هـذا الشعب تقرر بالسليقة».

قد يبدو كـل هذا كـلاماً غـير واضح بـالنسبة الى عـربي. وللمزيـد من الايضاح فـإن الحكومة اليابانية نفسها لم تتـردد في أن تقول في الكتـاب الأبيض الذي أصـدرته عـام ١٩٧٠، ومن دون أية مواربة: «ليس هناك في العالم بلد كبلدنا من حيث خصائص كونه عرقاً واحداً ولغة واحدة وديناً واحداً ودولة واحدة وتعداده ١٠٠ مليون نسمـة» (اليـوم ١٠٨ ملايين نسمة). لذلك فليس مستغربـاً أن يتحدث اليـابانيـون عن أنفسهم كشعب أفضـل من سائـر شعوب العـالم وعرق أرقى من بقيـة الأجنـاس. العـالم مقسـوم الى جنسين. يابانيين وأجانب. كل من هو غير ياباني هـو أجنبي أو غريب. ليس هنـاك شيء اسمـه روسي أو اميركي أو أوروبي أو عـربي، الجميـع اسمهم «غـايجـين» وهي كلمـة باليابانية ـ ذات معنى مهين الى حد ما ـ تعني الأجنبي أو الغريب. «نحن اليـابانيـون» وهم «الغـايجين». هـذا هو شعـور الأمة الـواحدة غـير المتعددة الشعـوب أو اللغات أو الأديان أو الحضارات. وهو شعور أقل ما يقال فيه، أنه شعور مربك بـالنسبة الى شرقي وآسيوي وعربي يقف للمرة الأولى أمام المفاجأة التي اسمها اليابان.

إلا أن خصائص اليابانيين ونظرتهم هذه قـد تجيب عن سؤال آخر. مـا هو يـا ترى سر نجاح هذا البلد الشرقي الآسيوي الغارق في التقاليد، المكبل بالتاريخ، المرهق بـالعزلـة؟ بل ماذا يقف وراء العبقرية اليـابانيـة في النمو والتطـور؟ أحد الأجـوبة: وجـود شعب حيوي متجانس ومنظم، ولكن لا بـد أن يكون هنـاك شيء أهم وأكثر من هـذا. وقبل أن تتوالى الأسئلة حتى تقف على أبواب الحيرة، يأتي الجـواب الفصل: أهم لا. أكثـر نعم.

اليابان اليوم أكبر بلد صناعي بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. قوتاها الصناعية والمالية يشعر بهما العالم كله. صوتها الاقتصادي يقرر مصير أكبر الأمم، كل هذا وفّره بشر من طراز معين ساعدته في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة ثلاثة ظروف خاصة. أولاً: الاستقرار السياسي. ثانياً: نفقات دفاعية محدودة. ثالثاً: الصداقة مع الولايات المتحدة. يضاف الى هذا أن صوت اليابان السياسي لم يخرج عن الهمس، وفي حدود الضرورة الملحة التي تفرضها الظروف الاقتصادية. فمواقف اليابان السياسية طوال ربع القرن الأخير كانت مواقف «منخفضة» غير مثيرة ولم تكن طرفاً اساسياً مع أحد.

حديث الاستقرار السياسي يبدأ من حكم الحزب الليبرالي ـ الديموقراطي المحافظ، الذي تولى حكم اليابان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وهناك شعور بالملل بين الناس في اليابان من حكم الليبراليين ـ الديموقراطيين خصوصاً في المدن، لكن الأحزاب المنافسة لا تشكل خطراً على هؤلاء حتى الآن. فأقواها حزب كوميوتو، وهو حزب اقليمي شبه ديني، عضويته بالعائلة لا بالفرد. الى جانبه الحزب الاشتراكي والحزب الديموقراطي ـ الاشتراكي والحزب الشيوعي. وقد قام الحزب الشيوعي الياباني بعملية تجديد لشبابه في السنوات الأخيرة محاولاً أعطاء صورة جديدة عن نفسه لليابانيين. فألغى الخلية الحزبية والغى تعابير طالما استخدمها كديكتاتورية البروليتاريا وسواها مستبدلاً اياها بتعابير اكثر حداثة وتفاؤلاً.

والصراع التقليدي للأحزاب اليابانية الخمسة هذه يدور حول «دستور السلام» ـ أو دستور ماك آرثر ـ وهو الدستور الذي وضع عام ١٩٤٧ بعد هزيمة اليابان في الحرب، وجعل اليابان دولة ديموقراطية على الطراز الغربي. بعض هذه الأحزاب يعتبر أن الدستور الديموقراطي السلمي الحالي هو لاصلاح ما قام به «الاحتلال»، وتجب المحافظة عليه، والبعض الآخر يعتبره «انتاجاً اميركياً» يجب تعديله. وموضوع تعديل الدستور هو الشغل الشاغل للأحزاب. و «دستور السلام» هذا ـ كما هو متعارف على تسميته ـ اعطى السلطة السياسية للشعب بعدما كانت من قبله في يد الأمبراطور هيروهيتو الذي تخلى عن حقه الالهي عام ١٩٤٦. وأصبح الامبراطور بموجب هذا الدستور «رمز الدولة ووحدة الأمة مستمداً مركزه من ارادة الشعب الذي هو صاحب السيادة الحقيقية». ويعبر الشعب عن سيادته بواسطة البرلمان ـ أو «الدايت» كما يسمى باليابانية ـ الذي ينتخب بالاقتراع الشعبي المباشر. و «الدايت» مؤلف من مجلس للنواب ومجلس للشيوخ على شكل شبيه بالنظام الأميركي. إلا أن أهم ما في الدستور انه لا يسمح بالعسكرية. أي أنه يمنع قيام قوات مسلحة أو مؤسسات عسكرية شبيهة، ويحرم التسلح. وهو الدستور الوحيد في العالم الذي ينص على أمور كهذه. كما يمنع اليابان من إعلان الحرب على أحد. لذلك فأكثر المثقفين اليابانيين يعتبرون الدستور الضمانة الوحيدة لعدم عودة العسكرية الى البلاد. لكن اليابانيين على رغم ذلك اقاموا بعد الحرب الكورية «قوة دفاع ذاتي» صغيرة، أصبحت اليوم نواة لجيش كبير.

لذلك تتناقض مواقف الأحزاب اليابانية من الدستور بمقدار ما تلتقي. فالحزب الليبرالي ـ الديموقراطي الحاكم يلتزم به للوقت الحاضر ويعترف بأن تعديله هو أهم مشكلة تواجه البلاد. أما الحزب الاشتراكي فيلتزم بالدفاع عن «دستور السلام» ويدعو الى تطبيق روحه الى جانب نصه. وحزب كوميوتو يدعو الى المحافظة على الدستور والتقليل من العسكرية في البلاد التي حرمها. والحزب الديموقراطي ـ الاشتراكي يلتزم بحماية الدستور ويدعو الى اقامة ديموقراطية برلمانية مبنية على أساس هذه الوثيقة. أما الحزب الشيوعي فيعارض تعديل الدستور ويطالب بالغاء «قوة الدفاع الذاتي»، الى جانب معارضته لوجود الامبراطور والنظام القائم عليه. وهو الحزب الياباني الوحيد الذي يعارض استمرار النظام الامبراطوري.

على أن العسكرية في اليابان لا تقف عند حدود مواقف الأحزاب منها ولا عند نصوص الدستور الذي يحرمها. إنها عند الياباني امتداد لتقاليد قديمة وعريقة تبدأ بـ «الساموراي» المحارب وتنتهي بعودة الجنود اليابانيين الضائعين في جزر المحيط الهادي الذي رفضوا الاستسلام بعد أكثر من ربع قرن على انتهاء الحرب. فحتى بعد ثلاثين سنة من نهاية تلك الحرب، ما زالت اليابان ترسل بعثات الى الجزر لجمع رفات الجنود اليابانيين الذين قتلوا وتعود بها الى الوطن. فالجندي الياباني لا يترك وحيداً في المحيط الهادي. وعلى رغم التركة المرة التي خلفتها الحرب العالمية الثانية، فإن ثلث الأمة اليابانية لا يذكر من ويلاتها شيئاً. إنه الثلث الذي ولد بعد حرب عام ١٩٤٥. واستفتاءات الرأي العام أخذت تشير حديثاً الى أن اليابانيين يريدون امتلاك القنبلة النووية. قبل عشر سنين ما أراد ذلك ياباني واحد. ذلك الجيل كان أقرب الى ذكريات هيروشيما وناكازاكي. جيل اليوم لا يعرفها. فالحساسية بالنسبة الى التسلح زالت مع الوقت، وذكريات الحرب اضمحلت في الأذهان.

واذا كانت الخلفية لزحف العسكرية من جديد الى اليابان ترد الى التاريخ والتقاليد، فإن مبرراتها الحالية ـ كما كانت في الماضي كذلك ـ اقتصادية. فاليابان بلد يعيش على التجارة، والاتجاهات الحالية لدى أكثر الدول التي تتعامل معها اليابان تجارياً، وخصوصاً الولايات المتحدة، تميل الى فرض نوع من الحماية في وجه المنتجات اليابانية. كل هذا قد يعطي اليابانيين مزيداً من الاحساس بالعزلة، في الوقت الذي يزداد عدد السكان، بحيث لم تعد تتسع لهم الجزر الثلاث الصغيرة التي يسكنونها. ذلك أن سكان اليابان الذين يبلغ عددهم نصف سكان الولايات المتحدة يعيشون على مساحة صغيرة هي أقل من ٢٠ في المئة من مساحة اميركا. يضاف الى هذا توسع الصناعة اليابانية، بحيث تزيد من خطورة التلوث الذي تعانيه اليابان، كما تزيد من مشاكل المجتمع الصناعي وآلامه. ولا يبقى أمام بعض القوميين والمتعصبين سوى أن يترحموا على «الأيام الطيبة القديمة».

وبمقدار ما تبدو عودة العسكرية الى اليابان مستهجنة، يبدو الواقع القائل انها طوال السنوات الأخيرة لم تتخل عن التسلح، غريباً.

في تقدير الخبـراء العسكريـين ومنهم (مؤسسة الـدراسات الاستـراتيجية ـ لنـدن) أن اليابان ـ الدولة السلمية الصغيرة ـ هي ثامن أقوى قوة عسكرية في العالم. في المستقبل ـ في نهـاية السبعينـات ـ ستصبح الـدولة السـابعة بعـد الولايـات المتحـدة والاتحـاد السوفياتي والصين وبريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية. وهـذه الدول السبـع كلها تملـك سلاحاً نووياً ما عدا المانيا. وفي النفقات الدفاعية تعتبر اليابـان الدولـة الثانيـة عشرة. فمـوازنتها الـدفاعيـة ستبلغ عـام ١٩٧٦ اكثر من ١٥ مليـار دولار. كل هـذا على رغم دستور السلام الذي حرم قيام قوات عسكرية أو أي شيء مشابه لها. لذلك فإن اليـابان ليست عارية من السلاح.

وقـوة الدفـاع اليابـانية كمـا هي اليوم، أقـوى وأكثر رجـالاً وعتاداً ممـا كـان الجيش الامبراطوري والبحرية والطيران إبان الحرب العالميـة الثانيـة. ويتطلب توسيعهـا ـ عن طريق تعديـل الدستـور ـ اقامـة قوة احتيـاط ضخمة وادخـال خدمـة العلم الى البلاد. وهذان امران قد تكون لهما مضاعفات خطيرة عـلى الصعيدين المحـلي اليابـاني والدولي الآسيوي.

وإذا كانت العسكرية الحديثة بدأت مع الحرب الكـورية عـام ١٩٥٠ واليابـان ما زالت تحت الاحتلال الاميركي، فإن توسعها استمر بعد انسحاب القوات الاميركية من جزيرة اوكيناوا واعادتها الى السيادة اليابانية. واليابان تدفع واحداً في المئة بالنسبة إلى الدول الأخرى. كما أن الواحد في المئة من دخلها القومي للتسلح، وهـذا، بالمقـارنة مـع الدول الكبرى التي تدفع بين ٣ و٤ في المئة فقط، يبدو قليـلاً. إلا أن الدخـل القومي اليـاباني مرتفع الى حد كبير (الثالث في العالم) بحيث أن الواحد في المئة يساوي أربعة أو خمسة في المئة بالنسبة الى الدول الأخرى. كما أن الواحد في المئة من الدخـل القومي اليـاباني يساوي نقداً مبلغاً كبيراً جداً.

كل هذا يلتقي وصيحات الدعوة الى ادخال القوات اليابـانية في قـوات الطوارىء لـلأمم المتحدة، أسوة ببقية الدول المحايدة الأعضـاء، أو ارسالهـا في دوريات بحـرية لحمـاية خطوط الملاحة اليابانية في بحـر جنوب الصـين والمحيط الهندي. لكن هـذا الأمر يـرعب جيران اليابان، الذين يخافون من ممارسة العسكرية اليابانية ويعتبرونها تهديداً لهم.

والسؤال الـذي يشغل النـاس داخل اليـابان وخـارجها هـو هل يحـاول العسكر ـ مـع استمرار توسع قوة الدفاع ـ الاستيلاء على الحكم كما فعلوا قبل الحرب؟ وهل تستطيع القيـادة السياسيـة المدنيـة الحاكمـة حاليـاً المحـافظـة عـلى انضبـاط هؤلاء؟ الحـزب الاشتراكي ينوي حل قوة الدفاع اذا تـولى الحكم. والحزب الاشتـراكي يخشى انقلابـاً عسكرياً لأن الجيش مشرب بالأفكار المناهضة للاشتراكية والشيوعية. الحزب الليبـرالي ـ الديموقراطي الحاكم يقول أن لا خطر من قيـام انقلاب عسكـري لأن وكالـة الدفـاع (ليست هناك وزارة للدفاع في اليابان، والوكالة مـديريـة عامـة تابعـة لرئيس الـوزراء) يديرها مدني يتغـير حكماً كـل سنة، حتى لا يستطيـع أن يسيطر عـلى العسكريين، ولا يستطيع العسكريون في المقابل أن يسيطروا عليه. هذا هو الخوف الداخلي.

أما الخوف الخارجي الأكبر فهو امتلاك اليابان لسلاح نووي وعندئذ ستقع الكارثة. في الكتاب الأبيض الأول عن الدفاع بعد الحرب، اعترفت الحكومة بأن اليابان تستطيع أن تمتلك قوة نووية بموجب الدستور، لأن القوة النووية قوة دفاعية في طبيعتها. وعلى هذا الأساس فإن اليابان هي الدولة الثانية في العالم بعد الولايات المتحدة التي تستخدم الطاقة النووية للأغراض السلمية. وسيبدأ تشغيل الطاقة النووية لاغراض صناعية واستهلاكية قبل عام ١٩٨٠.

سوابق التاريخ تقول إن القوة الاقتصادية تحتاج الى قوة عسكرية لدعمها. فهل يعقل أن تظل اليابان قوة اقتصادية من دون أن تصبح قوة عسكرية؟ يقول رئيس وزراء اليابان الأسبق كاكاويي تاناكا: «ان اليابان هي أول قوة اقتصادية كبرى تدخل في التجربة الشجاعة بأنها ليست قوة عسكرية كبرى». ولكن الى متى؟ صحيح أن أحداً لا يستطيع أن يفرض هذا القرار على اليابانيين. لكن الولايات المتحدة، نظراً الى العجز الدائم في ميزان مدفوعاتها، تشجع اليابان على شراء المزيد من السلاح والعتاد الأميركي. وصحيح ايضاً أن اليابان قد تخسر في استمرار توسيع مؤسساتها العسكرية خصوصاً أن نموها الاقتصادي قام على السلم والاستقرار السياسي، كما يقوم على استمرار استيراد المواد الخام كالنفط والحديد وانفتاح الأسواق الدولية. لكن من يقنع جيران اليابان بكل هذا؟ إن أحداً لا يقتنع وإن أحداً لا يعرف تماماً أين يصل هذا النفق في الغموض الياباني.

واليابان، إضافة الى الهوس الدفاعي، تعتبر أن حمايتها الأساسية قائمة على معاهدة الأمن اليابانية ـ الأميركية المشتركة وعلى الحماية العسكرية التي توفرها لها الولايات المتحدة بموجب هذه المعاهدة، لذلك يستمر الخلاف ايضاً بين الأحزاب اليابانية الخمسة حول ضرورة استمرارها أو الغائها ومدى فعاليتها الواقعية. فالحزب الليبرالي ـ الديموقراطي الحاكم هو الوحيد الذي يدافع بضراوة عن المعاهدة ويدعو الى المحافظة عليها. كوميوتو والديموقراطي ـ الاشتراكي يريان من الضروري الخروج من هذه المعاهدة خطوة خطوة، حتى تصل اليابان تدريجاً الى مرحلة الحياد التام. وكل الاحزاب تدعو الى الصداقة والتعاون مع الصين، ما عدا الحزب الشيوعي الذي يتهم الصين بالتدخل في الشؤون الداخلية لليابان، وهو أقل الأحزاب علاقة ببكين. الى جانب الأحزاب الخمسة هناك جبهات اليسار، اليسار المعتدل المؤلف من الاشتراكيين والشيوعيين واتحادات العمال اليسارية يدعو الى الغاء المعاهدة. اليسار المعتدل المؤلف من الطلاب الراديكاليين والعمال وجماعة «بيهرين» (لجنة المواطنين ضد حرب فيتنام) يدعو الى انهاء وجود القواعد الأميركية في اليابان والغاء معاهدة الأمن المشترك. اليسار الجديد المتطرف المعروف باسم «الجيش الاحمر المتحد»، هو ضد النظام والأوضاع القائمة برمتها، ويتخذ من العنف وسيلة لتحقيق مطامحه ومن الفاشستية اليابانية التقليدية أسلوباً للوصول الى اهداف يسارية. وتأثيره داخل اليابان محدود جداً.

إلا انه يجب التذكير بأن المعاهدة الأميركية ـ اليابانية للأمن المشترك التي وقعت عام

١٩٦٠، ولم يحدد تاريخ لانتهائها، كانت المظلة التي أتاحت لليابان بناء قوتها الاقتصادية وقدراتها الدفاعية. وهذه المعاهدة التي تتيح لأي من الطرفين الغاءها شرط اعلان رغبته قبل عام من الموعد الذي يريده، تعطي القوات الأميركية تسهيلات أرضية وجوية وبحرية غير محدودة. لكنها تنص على ضرورة القيام «بمشاورات مسبقة» اذا أرادت الولايات المتحدة نقل قواتها من اليابان واستخدامها في مكان آخر، كفيتنام أو كوريا أو سواهما، أو اذا أعلنت الحرب على دولة أخرى وقررت استخدام قواتها المرابطة في اليابان في هذه الحرب.

وتقف العلاقات الأميركية ـ اليابانية اليوم على مفترق حرج. فاليابان قد شبت عن طوق الحماية وأصبحت من الغنى والقوة، بحيث لم تعد في حاجة الى «وصاية» الولايات المتحدة السياسية ولا الى «حمايتها» العسكرية المباشرة. لذلك ترغب الولايات المتحدة في أن تعزز اليابان قدراتها الدفاعية أكثر بالانفاق عليها، لتخفف من عبء ميزان مدفوعاتها الذي يرهقه وجود قوات أميركية في الخارج. كذلك تريد واشنطن من طوكيو أن تصرف أكثر على المساعدات الاقتصادية لبلدان جنوب شرق آسيا، وبالتالي أن تحل محلها في تلك المناطق كمصدر أساسي من مصادر العون الاقتصادي. كما تنصح واشنطن طوكيو بالانفاق أكثر على مشاريعها الاجتماعية الداخلية الناقصة لتحويل اليابان الى دولة رفاهية مثلى قطعاً لأي نفوذ شيوعي أو تسلل يساري، محلياً كان أم أجنبياً.

يبقى موقف اليابان من آسيا، وقد تعدى صوتها السياسي احياناً كثيرة حدود الهمس الخجول. كيف تنوي اليابان استخدام قوتها السياسية ـ الصناعية في آسيا. هل تعامل الدول الآسيوية بالأنانية التي عرفت عنها، وهو ما تخشاه آسيا اذ تستذكر تجارب الماضي القاسية التي عاشتها طوال سني الحرب، وفي اعتقادها أن اليابانيين لم يتعلموا منها شيئاً، بداية من الموقف العرقي المتعالي الى الموقف الاقتصادي الاستغلالي.

انطلاقاً من هذه النظرة كان الآسيويون جيران اليابان أكثر الناس شعوراً بالموقف المتعالي الذي يقفه اليابانيون. وقد حاولت اليابان أن توحي الى الآسيويين بأنها منهم وأنها تهتم لمشاكلهم. إلا أن الممارسة غير الادعاء. ذلك أن الآسيويين اكتشفوا أن اليابانيين يتصرفون على نحو أسوأ من تصرف المستعمرين البيض. ودعم هذا الشعور عند الآسيويين، احساس اليابانيين، نظراً الى ارتفاع مستوى المعيشة في بلادهم وتقدمها الصناعي والاقتصادي، بأنهم أقرب الى الأوروبيين والأميركيين والغربيين اجمالاً، منهم الى الآسيويين أو الشرقيين. لذلك فشلت فكرة «حزام الرخاء المشترك لشرق آسيا الكبرى»، الذي شكل لمساعدة الدول الآسيوية الصغيرة على الوقوف في وجه الشيوعية وخوفاً من الجيران الآسيويين الشيوعيين كالصين وكوريا الشمالية والاتحاد السوفياتي. ودخلت اليابان الحزام لتقنع جيرانها بأنها جزء لا يتجزأ من آسيا وستبقى كذلك. وكانت فكرة حزام الرخاء هذا تنبع من ضرورة توزيع خيرات آسيا، وفيها الحديد والفحم والنفط والمطاط والتنك، على كل دول آسيا، ولا سيما غير القادرة منها. وقد يكون

من أسباب فشل الفكرة ما قاله لي زميل صيني في سنغافورة: «نحن لا نعرف اليابانيين. يطيرون بالطيران الياباني ويركبون سيارات يابانية وينامون في فنادق يابانية ويأكلون في مطاعم يابانية ويسهرون في أندية يابانية؛ حتى أنهم لا يصاحبون الا نساء يابانيات. نحن في الواقع لا نعرف اليابانيين في بلادنا».

كل هذا بدأ يخلق شعوراً مضاداً لليابان في آسيا. وأخذت صورة «الياباني البشع» تحل محل صورة «الأميركي البشع» الذي عرفته آسيا خلال ربع القرن الأخير. وأخذ الياباني ـ هذا الحيوان الاقتصادي الفريد من نوعه اليوم في العالم ـ يتصرف بنوع من «الاحتقار» لسائر الآسيويين، حتى أن بعض الأفراد اليابانيين لا يخجلون من القول أنهم غير نادمين على ما فعلوه في آسيا في أثناء الحرب العالمية الأخيرة، على رغم اعتذار حكوماتهم المتعاقبة منذ تلك الأيام المشؤومة ومحاولاتها تحسين سمعة اليابان ووجهها في الدول الآسيوية عن طريق تبادل البعثات والزيارات. ومما قاله لي استاذ في جامعة هونغ كونغ أن اليابانيين يشعرون بالنقص بالنسبة الى الأميركيين والأوروبيين ـ والى حد ما الصينيين ـ لكنهم يشعرون بالعظمة بالنسبة الى شعوب العالم الثالث المتخلفة.

ولكن هل اليابان في آسيا سيد أم شريك؟ بمجرد أن يطرح بعض الدول الآسيوية هذا السؤال يتضح عمق الألم والحيرة اللذين يعصفان بالآسيويين من جراء علاقتهم باليابان، والشك الكبير الذي يعتمل في صدورهم. فمن الصعب على الآسيوي ـ حتى لا نقول الأجنبي ـ أن يصبح يابانياً لا بالتجنس ولا بالولادة، مهما أجاد اللغة والعادات، حتى لو كان من مواليد اليابان. مئات الكوريين والصينيين، وبعضهم نزيل اليابان لأكثر من أربعة أجيال ولا يختلف عن الياباني في شيء إلا في أصله البعيد، لم يمنحوا الجنسية اليابانية ولا يعاملون معاملة اليابانيين، بينما أصبح آلاف اليابانيين المهاجرين الى البرازيل برازيليي الجنسية. بهذا يعير الآسيويون اليابانيين ويتهمونهم بالتعصب العرقي. واذا كان الآسيويون لا يناقشون زعامة اليابان في المنطقة، فلأنهم لا يريدون دفع اليابان الى العزلة تدريجياً عن طريق تثبيت اقدامهم كأفراد ودول ناجحين. فاكتشاف الآسيويين لأنفسهم خلال السنوات المنصرمة لا يراد به عزلة اليابان وانكماشها عن بقية آسيا. وكما يقول الاستاذ في جامعة هونغ كونغ: «نحن الاسيويين لا نريد عزلة اليابان. نحن معجبون باليابان لأننا نطمح الى أن نصبح في مثل عظمتها. كل الذي نطلبه من اليابان هو أن تمهد لنا الطريق لنتشبه بها ونصبح في مستوى عظمتها. أليس هذا مطلباً عدلاً؟».

ربما. ولكن قصة اليابان في آسيا ما زالت في أولها.

طوكيو ـ (١٩٧٤/٥/٨)

ما بين العرب واليابانيين

قد ينصف التاريخ، عندما يكتب، كلاً من اليابانيين والعرب، لأسباب مناقض بعضها للبعض. اليابانيون لأنهم أتاحوا للعرب نجاح تجربة استعمال النفط كسلاح سياسي. والعرب لأنهم أتاحوا لليابانيين فرصة العمر بخروجهم للمرة الأولى عن طاعة السياسة الخارجية للولايات المتحدة. ومن خلال هذه المعادلة التناقضية وجد كل من اليابانيين والعرب أنهم موضع اهتمام الطرف الآخر. وكانت بداية هذا الاهتمام ثلاثة ارقام ـ لولاها لبدا العالم العربي بعيداً جداً عن طوكيو ـ وتاريخاً واحداً صغيراً. الرقم الأول أن اليابان تستورد ٩٩,٧ في المئة من حاجاتها من النفط من الخارج. الرقم الثاني أن ٤٣ في المئة من النفط الذي تحتاج اليه اليابان تستورده من البلاد العربية و٣٧ في المئة من ايران. الرقم الثالث أن اليابان تعتمد في ٨٠ في المئة من مجموع استهلاكها النفطي على الشرق الأوسط. أما التاريخ الواحد الصغير فهو ١٧ تشرين الأول ١٩٧٣، حين قرر وزراء النفط العرب المجتمعين في الكويت استعمال النفط كسلاح سياسي، وقطعه عن الدول غير المؤيدة للعرب في حربها مع اسرائيل. في اليوم السابق لذلك التاريخ كانت منظمة الدول المصدرة للنفط أوبيك المجتمعة في الكويت أيضاً قد قررت رفع أسعار النفط الى معدلاتها الحالية. وكانت بداية الأزمة الدولية التي عرفها العالم باسم «أزمة الطاقة».

قبل ذلك كله لم تكن بين العرب واليابانيين علاقات مصيرية تذكر. العرب البقرة الحلوب التي تدرُّ النفط بأسعار زهيدة، واليابان العملاق الصناعي والاقتصادي الذي يعيش على هذ النفط الرخيص ويسمن منه، علاقات بين بائع وشار. إنها علاقات غير متساوية، بل علاقات مسطحة الى درجة اللامبالاة. ما دامت البقرة تدر نفطاً والعملاق يشربه فالدنيا في خير. وفجأة أصبح هذا الجبار الصناعي والاقتصادي الممتد الى العالم كله تحت رحمة حنفية النفط العربي. ومن دون أية مقدمات ظهرنا كعرب في حياة اليابانيين. أخبارنا في الصفحات الأولى من صحفهم. قضايانا تناقش كل ساعة في اذاعاتهم، مشاكلنا موضع دراسة دائمة من قبل خبرائهم. وشعرت اليابان بـ «صدمة النفط». وفي خلال ثلاثين يوماً من وقف القتال على جبهتي السويس والجولان، اعلنت اليابان للمرة الأولى في تاريخها موقفها من النزاع العربي ـ الاسرائيلي. وكأن التاريخ يقف عند ٢٢ تشرين الثاني عام ١٩٧٣.

في ذلك اليوم ادركت اليابان ضعفها التاريخي. بلد ليس فيه أي مورد من الموارد الطبيعية وليس عنده أي مصدر من مصادر الطاقة، وحياته كلها تعتمد على استمرار وصول النفط من الشرق الأوسط. حتى ذلك اليوم كانت اليابان عن سابق تصور وتصميم تقف موقفاً غامضاً من القضية العربية. كل هذا انهار في لحظات عندما دخلت أزمة الشرق الأوسط بيت كل ياباني مع الضوء والدفء والحركة أو مع الظلام والبرد والجمود. أصبحت الطاقة هي الكلمة، كما أصبحت كلمات: عربي وفلسطيني واسرائيلي

وحقوق مشروعة وسلام عادل وحرب استنزاف وسواها من المفردات، مما يتعامل به الياباني يومياً مع صحفه واذاعاته وسياسييه ورجال أعماله. عند ذلك التاريخ اصدرت الحكومة اليابانية بيانها الشهير بأربع نقاط، حددت فيه في شكل أساسي وبسيط موقفها من قضية الشرق الأوسط:

١ ـ لا يسمح بالاستيلاء على اراض أو احتلالها بواسطة القوة العسكرية.
٢ ـ على اسرائيل الانسحاب من كل الأراضي التي احتلتها خلال حرب عام ١٩٦٧.
٣ ـ احترام سيادة كل دولة من دول المنطقة وسلامة اراضيها وتوفير كل السبل لتحقيق ذلك.
٤ ـ الاعتراف بحقوق الفلسطينيين واحترامها بموجب ميثاق الأمم المتحدة، من أجل تأمين استمرار سلام عادل في الشرق الأوسط.

ووقفت اليابان مترددة أمام احتمال قطع علاقاتها الديبلوماسية مع اسرائيل. إلا أن الحكومة اليابانية، اعربت رسمياً عن عدم رضاها لاستمرار احتلال اسرائيل أراضي عربية، آملة في أن تساهم هذه في قبول النقاط الأربع الآنفة الذكر. ولم يكن أمام الحكومة اليابانية بمتابعتها لأحداث الشرق الأوسط وتطوراته، إلا أن تعيد النظر في سياستها بالنسبة الى اسرائيل. واعتبر بعض المراقبين ان الموقف الياباني هذا دليل ضعف وانتهازية. ربما كان هذا صحيحاً، لكن أهميته تكمن في أن اليابانيين للمرة الأولى في تاريخهم السياسي منذ الحرب العالمية الثانية كانوا على استعداد لتحدي واشنطن. فليس بين اسرائيل واليابان الا تجارة ثنائية صغيرة، وليست في اليابان أقلية أو مشكلة يهودية، لذلك لم يعد من المصلحة في شيء الآن أن تقبل اليابان التوجيهات الأميركية السابقة والمواقف التي فرضتها عليها واشنطن في الماضي بالنسبة الى ازمة الشرق الأوسط. بل على العكس، فقد اثبتت هذه الأزمة وهذا الموقف الى اي حد كانت اليابان تقبل، ضد كل مصالحها الحقيقية وصاية الولايات المتحدة في شؤون السياسة الخارجية.

واتهمت واشنطن طوكيو بأنها خرقت التضامن غير الموجود للدول المستهلكة للنفط، كما كانت قد اتهمت وهاجمت من قبلها الاوروبيين للأسباب ذاتها. وراوحت الاتهامات الأميركية للحكومة اليابانية بين انها خضعت للتهديد العربي بقطع النفط وانها أصبحت دمية في أيدي المؤسسات الصناعية ذات المصالح في العالم العربي. ولم تتردد الحكومة الأميركية في إعلان عدم رضاها عن الموقف الياباني، حتى أن الدكتور هنري كيسينجر وزير الخارجية الأميركي حينئذٍ طلب من الحكومة اليابانية في أثناء زيارته لطوكيو عند عودته الأخيرة من الصين، تأخير اعلان بيان النقاط الأربع. لكن العناد الياباني وقف يتحدى الضغط الأميركي. ولعل مؤرخي المستقبل سيتخذون من هذا الموقف ـ الحادثة بداية لسياسة يابانية خارجية مستقلة، ذكّرت اليابان أن مصالحها ليست في التمام مصالح الولايات المتحدة، وأن هذه المصالح قد تختلف أكثر مما تلتقي.

بالطبع رفض اليابانيون الاتهامات الأميركية بأن حاجتهم الى النفط جعلتهم يرضخون

للتهديد العربي، وقالوا إن الموقف الحيادي الذي كانت تقفه اليابان في السابق من النزاع العربي ـ الاسرائيلي فرض عليها بعد حرب ٦ تشرين الأول عام ١٩٧٣ اتخاذ موقف مؤيد للعرب، يضاف الى ذلك أن من الطبيعي أن تتخذ اليابان هذا الموقف المؤيد للعرب نظراً الى مواقفها السابقة من قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بأزمة الشرق الأوسط والتي أيدتها كلها، وأهمها قرار مجلس الأمن ٢٤٢ للعام ١٩٦٧. صحيح ـ يقول اليابانيون ـ أن قبول هذا القرار المائع لا يعني الوقوف الى جانب العرب. ولكن يجب أن يكون بديهياً أن اليابان صاحبة «دستور السلام» لا يمكن أن تقبل بالاستيلاء على أراض أو احتلالها بالقوة العسكرية. ثم ان اليابان ـ والكلام لا يزال لليابانيين ـ صوتت الى جانب قرار العام ١٩٧١ المتعلق بالاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطينيين. لذلك يرى اليابانيون أن بيان النقاط الأربع ما هو الا تحديد وتلخيص بريطانيا وفرنسا. ذلك كله الى جانب مساهمتها المالية في صندوق اغاثة اللاجئين الفلسطينيين. لذلك يرى اليابانيون أن بيان النقاط الأربع ما هو الا تحديداً وتلخيصاً لمواقف اليابان السابقة من قضية الشرق الأوسط. واذا كان فيه من جديد فهو أن اليابان تعيد التفكير وتمهد لاعادة النظر في مواقفها من اسرائيل. وفي ما عدا ذلك تلتزم الحكومة اليابانية الصمت في الوقت الحاضر، معتبرة أن المحاولات التي تبذل لاحلال السلام في المنطقة يجب أن تعطى الفرصة الكافية للنجاح، كما يجب أن تمنح كل التأييد الممكن.

وجاءت الجولة العربية التي قام بها نائب رئيس الحكومة اليابانية وقتئذٍ ميكي أواخر كانون الأول عام ١٩٧٣ والتي شملت مصر وسورية والعراق والسعودية والكويت وقطر وأبو ظبي لتضع الختم النهائي على موقف اليابان من القضية العربية، حيث اعترف بها العرب «دولة صديقة» على غرار بريطانيا وفرنسا، وأزيلت موانع تصدير النفط الخام اليها ووعدت بأنها ستزود بكميات موازية لما زودت به في أيلول عام ١٩٧٣. وبذلك تقدمت علاقات اليابان مع العرب خطوة أو خطوتين الى الأمام، بينما تراجعت مع الولايات المتحدة ثلاثاً أو أربع خطوات الى الوراء. وبدأ الضغط الداخلي في الولايات المتحدة من قبل اليهود الاميركيين على اليابان ومصالحها هناك. وهدد اليهود الأميركيون اليابان بأنها اذا قطعت علاقاتها مع اسرائيل فإن حملة معادية لها ستقوم في الولايات المتحدة وتشمل مقاطعة البضائع اليابانية. وخافت اليابان أن تتدهور علاقاتها مع الولايات المتحدة الى هذا الحد، وهي التي جعلت صداقتها مع الولايات المتحدة أساساً لديبلوماسيتها الدولية منذ الحرب العالمية الأخيرة الى اليوم، وجفلت، وتصرفت كما تصرفت أمام الضغط العربي. لا قطع للعلاقات الديبلوماسية مع اسرائيل، إنما لا تراجع عن موقفها من العرب. وكانت الخطوة الثانية التي أقنعت طوكيو بضرورة الطلاق الديبلوماسي مع واشنطن.

ولكن ما هو موقف اليابانيين الحقيقي من النزاع العربي ـ الاسرائيلي؟ يقول أحد كبار اليابانيين لي، ولعله في ذلك يلخص شعور أكثر اليابانيين المطلعين أو العارفين ببديهيات

هذا النزاع: «الشعور العام في اليابان هو أن الحق في جانب العرب. ومهما تكن بيوتهم فقيرة وأراضيهم قاحلة، فليس من الحق طردهم بالقوة من بيوتهم واحتلال أراضيهم لأنه في فترة زمنية سابقة كان يسكن تلك البيوت ويعيش في تلك الأراضي أناس آخرون. تصور لو أن الأمم طبقت هذا المبدأ بعضها على البعض، في الماضي ارتكبت اليابان في آسيا فظاعات كجرائم اسرائيل نفسها، أي أخذ أراض بالقوة واحتلالها. وجاءت هزيمة الحرب. ووعت اليابان نفسها من جديد وأخذت تعيد النظر في معطياتها. وأقرت «دستور السلام». لذلك فمن الطبيعي أن تسلك الديبلوماسية اليابانية المستقلة الطريق الذي يمليه عليها هذا الدستور».

وسألته: ولكن ألا تشعر اليابان بالحرج من جراء انفصالها عن الديبلوماسية الاميركية، خصوصاً في موضوع كالشرق الأوسط الذي له حساسيات أميركية؟

ضحك الياباني الكبير وقال: «الديبلوماسية اليابانية يجب أن تُبنى على أساس مبادىء العدالة الدولية. والدول الكبرى مسؤولة عن الصعوبات التي يواجهها العالم اليوم. بريطانيا مسؤولة عن الذي حدث بعد الحرب العالمية الأولى. الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. الاتحاد السوفياتي مسؤول عن أحداث اليوم. اليابان تصر على أن يتحمل الكبار مسؤولياتهم كاملة. ومن الطبيعي اذا استمرت اليابان في اعتماد ديبلوماسية خاصة بها ومختلفة عن الديبلوماسية الأميركية، أن تتعرض العلاقات اليابانية ـ الأميركية لمصاعب بين الحين والآخر. ولكن اذا استمرت اليابان في اتخاذ مواقفها على أساس مبادىء العدالة الدولية لا على أساس حاجتها الى النفط، واذا بذلت مزيداً من الجهد للحفاظ على حوار معين مع الولايات المتحدة، فأن الرأي العام الأميركي سيقدر وضعها وبالتالي لن يحدث أي تعكير جدي للصلات بين البلدين. إن قضية الشرق الأوسط تمثل أول اختبار لليابان منذ الحرب العالمية الثانية لقدرتها على القيام بديبلوماسية مستقلة ولمدى استعدادها لتحمل نتائج هذا الدور المستقل».

في مقابل هذا، ماذا يفعل العرب في اليابان؟ الجواب المؤسف: لا شيء. مجموعة سفارات خاوية وديبلوماسيون مجهولون، اهتمامهم بالترانزستور أكثر من اهتمامهم بالسياسة اليابانية. الزيارات التي يقومون بها لوزارة الخارجية اليابانية في السنة تعد على أصابع اليد الواحدة. نصف العرب غير ممثل في اليابان، والنصف الآخر وجوده مجرد احتراف ديبلوماسي. همومهم هموم وظيفية لا هموم سياسية. أحد كبار الصحافيين اليابانيين والكاتب في احدى أكبر صحفها طلب موعداً لحديث من سفير عربي إبان الأزمة، فلم يتلق منه جواباً الا بعد اسبوعين. وكان الجواب بالاعتذار. ماذا فعلت اسرائيل؟ دعت في أعقاب بيان الحكومة اليابانية المؤيد للعرب مجموعة من الصحافيين اليابانيين المختصين في الشؤون العربية والذين قضى بعضهم فترات في العالم العربي، الى زيارتها. ماذا فعلت اسرائيل أيام الحرب التي كنا منتصرين فيها؟ مؤتمرات صحافية يومية لشرح التطورات في حضور الملحق العسكري الاسرائيلي كناطق عسكري يجيب عن الأسئلة التي يريد، ويمتنع عن الإجابة عن الاسئلة التي لا يريد. بماذا قام الجانب

العـربي؟ بلا شيء. لم يكن هنـاك ناطق عـربي واحد في أيـة سفارة عـربية طـوال مدة الحـرب. حتى على الصعيد الاجتماعي، لا شيء. ربمـا لأن تكاليف المعيشـة في اليابـان مرتفعة الى حـد كبير، فـالكوكتيـلات والدعـوات نادرة. ومن المضحـك المبكي أن عطش الصحافة اليابانية الى معلومات عن العالم العربي يقابله جفاف عـربي لا يمكن تفسيره بأي منطق كان.

ولا بد من التذكير هنا، في محاولة لفهم العقل والنفسية اليابانيين الفريـدين من نوعهمـا في العالم، بحادث مطار اللد في ٣٠ أيـار عام ١٩٧٢، حيث اطلق ثـلاثة من اليـابانيـين ينتمون الى «منظمة الجيش الأحمر» النار على الركاب، وقتلوا ١٢ شخصاً وجرحـوا ٥٠ آخرين. فقد شعـر اليابـانيون بـالصدمـة والاستغراب: بـالصدمـة لتورطهم المفـاجيء والمباشر في قضية الشرق الأوسط، وبالاستغراب لأن ثـلاثة من مـواطنيهم كانـوا أبطال الحادث. وولد هذا الحادث احساساً عاماً بالذنب لدى كل اليابانيـين. فأبـدت الحكومـة اليـابانيـة اسفها وارسلت كبـار المسؤولين فيهـا وفي الحزب الليبـرالي ـ الديمـوقراطي الحاكم الى اسرائيل للاعتذار بالنيابة عن الحكومة والشعب. واعتبر اليـابانيـون أن هذا أفظع حادث أساء اليهم في تاريخهم الحديث. ولعل أبسط ايضاح لهذا الموقف ما كتبته جريدة «يوموري» تعليقاً على الحـادث اذ قالت: «أن مـا حدث في مطـار اللد قـد يعطي الاجانب انطباعاً ان النفسية اليابانية تستسهل القتل والموت. كما ذكرت العـالم بغارات «الكاميكازي» الانتحارية الشهيرة في أثناء الحرب العالمية الأخيرة. لـذلك عـلى الحكومـة أن تعوض بسخاء ذوي القتلى لتعوض سمعة اليابان».

ودهش العالم ـ بمن فيه العرب ـ لهذا التصرف، خصـوصاً بعـدما اتخـذت الحكومـة اليابانية خطوة الاعتذار ثم خطوة دفع التعويضات للقتلى، علماً أنها غير متورطة وليست لها علاقة أصلاً بالموضوع. لكن شعور اليابانيين بالمسؤولية المشتركة تجاه الحادث دفع الحكـومة الى اتخـاذ الاجراءين. وقـد أظهر استطـلاع للرأي العـام قامت بـه صحيفة «أساهي شيمبون» بعد ثلاثـة أيام من الحـادث، أن ٨٠ في المئة من اليـابانيـين شعروا بالمسؤولية المعنوية من جراء ما حدث في مطار اللـد. لقد كـان همّ اليابـانيين الانطبـاع الذي يكوِّنه العالم عنهم، وضرورة تصحيحهبسـرعـة. في الوقت نفسه وحـرصاً عـلى ألا يساء فهم هذا الموقف، تبرعت الحكومة اليابانية بمثل مقـدار التعويضـات التي دفعتها الى ذوي القتلى والجرحى في مطار اللد لوكالة الغوث الدولية ليتم صرفهـا على الـلاجئين الفلسطينيين. وكانت الحكومة اليابانية، بضغط واضح من اليابانيين، تحرص على اظهار ذنبها أيضاً حيال اهمال الفلسطينيين، الذين لولا مأساتهم، التي لا علاقـة لليابـان بها، لما تورط ثلاثة من مواطنيها، مهما تكن آراؤهم السياسيـة، في عملية اعتبـرت في منتهى «البشاعة» في اليابان. وكان ذلك بداية اهتماماتهم العربية.

يقابل الاهمال العربي اهتمام ياباني على مختلف المستـويات، أهمـه اهتمام الصنـاعات اليابانيـة الكبرى النـابع من مصلحتهـا في ابقاء اسـواق العالم العـربي مفتوحـة أمام منتجاتها. والصناعات اليابانية تملك نفوذاً ضخماً في الأوسـاط الحكوميـة، وفي كثير من

الأحيان تقوم هذه الصناعات بمهمات وأدوار لحساب الحكومة أو بالنيابة عنها. لذلك فالأوساط الاقتصادية والصناعية في اليابان تهتم بتطوير علاقاتها بالعالم العربي، لا كسوق استهلاكية لسلعها فقط، بل كمنطقة من الممكن تنميتها على أساس تقديم مساعدات تقنية ذات علاقة بالسلع اليابانية نفسها، كانشاء معمل لتركيب الراديوات أو التلفزيونات اليابانية وتدريب أيد عاملة عربية على اكتساب الخبرة في هذه الأجهزة. إلا أن المشكلة في اليابان انهم ينتظرون أن يطلب منهم هذا الامر، لا أن يتقدموا هم به. وهذا يعود الى العقدة اليابانية التي تخاف من ردود فعل العالم كله على مشاريع كهذه، فتنعتها بالاستعمار الاقتصادي أو ما شابه. لذلك فالحذر الياباني التقليدي والبطء في اتخاذ قرار ما، يعكس أسباب جمود أكثر هذه المشاريع، في انتظار من سيطلب من الآخر أولاً.

والفعاليات الاقتصادية في اليابان فوجئت بالأزمة السياسية التي تقف خلف أزمة الطاقة، وإن تكن حسبت حساب ارتفاع أسعار النفط كجزء من التضخم المالي المستشري في العالم اليوم. ولكنها لم تحسب حساب الثمن السياسي المترتب عليها دفعه الى جانب الثمن المالي الباهظ. فقد كان موقف الفعاليات الاقتصادية في اليابان ومعها الحكومة اليابانية، انها تريد تحقيق مكاسب اقتصادية وتجارية ومالية في العالم من دون أن تتسخ أيديها بالسياسة التي غالباً ما تقف وراء اي نجاح تجاري أو اقتصادي. كان العقل الياباني يحاول ـ وفي نجاح ـ طوال ربع القرن الذي مضى أن يتفادى دفع ثمن سياسي لأية محاولة اقتصادية. وسبب نجاحه انه لم يطلب منه ذلك قبل الآن. واتضح ان هذا الفصل «النظيف» بين «البرود» السياسي، أو في أحسن الحالات «الحياد»، و «الحماسة» الاقتصادية سقط نهائياً في أزمة الشرق الأوسط. فلم يكن بد أن تتسخ أيدي اليابانيين في مستنقع السياسة الشرق أوسطية، اذا أرادوا أن يحافظوا على شريان حياتهم الصناعية والاقتصادية، وهو النفط، أو يبقوا على امتداد أسواقهم التجارية الحيوية في هذه المنطقة من العالم، التي تُعد احدى أوسع المناطق استهلاكاً للبضائع اليابانية.

ولكن كيف تنظر الدولة والمؤسسات الاقتصادية والصناعية في اليابان الى موضوع النفط العربي وأزمة الطاقة الناتجة عن الموقف العسكري والسياسي في الشرق الأوسط؟ تبدأ هذه الأوساط بالتذكير بأن اليابان بلد ليس فيه من الموارد الطبيعية شيء، وان اقتصاده قائم على استيراد المواد الأولية وتصنيعها ثم اعادة تصديرها. وأن صناعاته كلها قائمة على طاقة أساسها النفط ولا يملكون منها أكثر من ٠,٣ في المئة. وزاد من حدة هذا الامر أن وضع اليابان الجغرافي في الشرق الأقصى جعل مصادر الطاقة بعيدة عنه، وقد خلق هذا الوضع الجغرافي عند الياباني نوعاً من الخجل المختلط بالجبن، فإذا بأكثر العالم يسيء فهم الشخصية اليابانية. ويدرك اليابانيون أن حياتهم تقوم على التفاهم المستمر مع دول العالم، إلا أنهم يعرفون انهم يجدون صعوبة في إقامة علاقات بسهولة مع «الأجانب ـ الغرباء». ومن هنا فهم يترددون في المبادرة بطرح مشاريع

اقتصادية معينة اذا لم يطلب منهم ذلك. ولهذا السبب يعتقد اليابانيون ان مستوى التعليم الذي بلغوه، حيث لا أمية في اليابان وكل ياباني يجيد القراءة والكتابة، حملهم على افتراض وجود الأرضية نفسها مع دول العالم النامي، بحيث لا تجد مشاريعهم حماسة من النوع الذي يتوقعونه، وتسقط أكثرها أرضاً.

على أن مشكلة الطاقة التي تواجه اليابان ليست في شحها أو قلتها، إنما في ارتفاع اسعارها وفي ما تسببه من ضغط على ميزان المدفوعات. فاليابانيون يدركون أن من الصعب خفض أسعار النفط الآن، لكنهم يأملون في المحافظة على عدم ارتفاعها لفترة قصيرة ثم خفضها تدريجاً. في الوقت نفسه يحاولون التخفيف من استيراد النفط الخام بجعل استهلاك اليابان للنفط غير قابل للازدياد مدة طويلة، فتكون هذه الكمية أقصى ما يمكن استهلاكه. وقد تعلمت اليابان من خلال أزمة الطاقة أن تعمل على استيراد النفط مباشرة من الدول المنتجة عن طريق الحكومات، وهي التي تستورد ٦٥ في المئة من حاجتها النفطية بواسطة الشركات. ثم على تطوير وسائل أخرى للطاقة الى جانب النفط كالفحم والذرة و «نفط شيل». ثم على الاقتصاد في استهلاك الطاقة وتحويل الاقتصاد الياباني من اقتصاد يستهلك الطاقة الى اقتصاد يوفرها ويعبئها. لذلك تأمل اليابان في أن يكون اعتمادها الكلي في الثمانينات على الطاقة الذرية كمصدر للقوة، والا لن يحل القرن الحادي والعشرون الا واعتمادها الكلي على الطاقتين الشمسية والهيدروجينية. فاليابانيون يشعرون أن التحدي الأكبر الذي يواجههم منذ الحرب العالمية الثانية هو تطويرهم لنوع من الطاقة يملكونها ولا يعتمدون على استيرادها من غيرهم.

واليابانيون غير متحمسين لمبدأ «المقايضة» في الطاقة. وثمة أفكار عربية تقول أن النفط سلعة استراتيجية، ونظراً الى أن اكثر دول النفط، خصوصاً بعد رفع أسعاره، لديها فائض من السيولة النقدية، فهي ليست في حاجة الى بيع نفطها نقداً. لذلك فإن ما ترغب فيه هذه الدول هو مقايضة النفط بسلعة استراتيجية أخرى، كالسلاح أو المساعدات أو الخدمات التقنية، مثل انشاء مصاف للنفط أو مصانع ثقيلة أو القيام ببرنامج تدريب طويل المدى يشمل كل حقول التكنولوجيا. واليابانيون يصفون هذه الأفكار بأنها «غير ناضجة»، وغير عملية، ويقولون أنها لو كانت نظرياً مقبولة اقتصادياً، إلا انها عملياً ستتدخل في النمو الاقتصادي الطبيعي لأي بلد وتعرقل عملية التجارة الحرة التي يرتكز عليها الاقتصاد الياباني. فالمقايضة أسلوب ثنائي ـ ولو في السلع الاستراتيجية ـ تلجأ اليه البلدان ذات النظام الاقتصادي الموجه أو الاشتراكي ـ الشيوعي كالاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية، التي لا تتعامل على أساس مبدأ التجارة الحرة العالمية، وهو أسلوب لا يكون عادة في مصلحة الدول النامية، إذ يحد من خيارها بمقدار ما يحد من أسعار سلعها في سوق العرض والطلب. يضاف الى هذا أن ثمن النفط سيكون أكثر بكثير من ثمن أي مقايضة استراتيجية أو تكنولوجية. ويرد اليابانيون على الآراء العربية التي تدعو الى اعتماد النفط كأساس للعملة العربية ـ أو دولار النفط كما يسمى ـ بدلاً من الذهب، بقولهم انها «آراء ساذجة». ويسوقون على

ذلك أمثلة عدة منها أنه منذ أن وجد النظام النقدي في العالم، كان أساسه الأحجار الكريمة ثم الفضة وبعدها الذهب. والسبب في ذلك أن الذهب معدن ثمين وفرته محدودة ومن الممكن والسهل خزنه في أماكن صغيرة كالمصارف وتقسيمه وحدات صغيرة أو كبيرة. بينما النفط سائل قيمته في حاجة الناس اليه مرحلياً. وعند اكتشاف نوع آخر من الطاقة ـ كالذرة أو الطاقة الشمسية ـ يفقد قيمته فوراً، كما الفحم بعد اكتشاف النفط مثلاً. فضلاً عن أن النفط يحتاج الى مساحات شاسعة لتخزينه، من الصعب توافرها في عالم اليوم، الى جانب مشاكل تلوث البيئة التي يجرها معه وصعوبة حراسته وسهولة تدميره. لذلك يعتقد بعض اليابانيين أن من الممكن فقط اللجوء الى نوع من النظام التقسيمي الذي يصدر شهادات ورقية بملكية النفط، يمكن التقدم بها كسحوبات خاصة الى صندوق النقد الدولي. ولكنهم يعتقدون أن كل هذا حديث سابق لأوانه خصوصاً أن «لجنة العشرين» التي اختيرت في مؤتمر وزراء المال للدول الصناعية الكبرى العام الماضي، ما زالت تعمل على مشروع لاصلاح نظام النقد الدولي الذي يتعامل بوسائله وقواعده العالم اليوم.

وينادي معظم الشركات اليابانية الكبيرة بضرورة مساعدة الدول العربية الغنية للدول العربية الفقيرة وصرف مزيد من أموال النفط في تلك الدول. وتبدي هذه الشركات استعدادها للدخول في أي مشروع للتنمية الصناعية اذا توفر له التمويل اللازم والدراسة الفنية الحقيقية، كما أنها على استعداد للمساعدة، خصوصاً في الدول ذات الدخل المحدود، في مشاريع انمائية مختلفة، شريطة أن يتقدم العرب بالطلب وان تكون له خلفية اقتصادية واقعية وأرضية قابلة للنجاح والاستمرار. وتقول الشركات ان اليابان وافقت على قرار الأمم المتحدة المبدئي بصرف واحد في المئة من دخلها القومي على المساعدات الانمائية للدول النامية أو المحتاجة، ولكنها تعترف بأنها لم تتوصل بعد الى الطريقة المثلى للتعامل مع العالم العربي، الغني والفقير، وأن الأمر يحتاج الى بعض الوقت وأن اليابان دخلت هذه المعمعة متأخرة. وتزيد الشركات في اعترافاتها بقولها أن من أسباب تأخر اليابان في الوصول الى طريقة للتعامل مع العرب، أن اليابانيين بحكم تأثرهم بالفكر الكونفوشي (نسبة الى المفكر والفيلسوف الصيني كونفوشيوس) شعب منظم وبطيء في اتخاذ القرارات وذو نظرة شمولية تجعل حساباته تختلف عن الحسابات التقليدية التي تقوم بها أمم أخرى.

على رغم كل ذلك، يعترف اليابانيون بتقصيرهم في محاولة فهم العالم العربي سياسياً واقتصادياً، وإقامة علاقات مستنيرة معه. كما يعترفون بعجز بعثاتهم الديبلوماسية في البلدان العربية عن اعطاء تقييم صحيح لما يجري هناك، خصوصاً على المستوى الانمائي والاقتصادي. لذلك فان اهتمامهم خلال السنوات الأخيرة يحاول أن يعوض ما فاتهم في الماضي. وهذا الموقف، باعترافهم، موقف مصلحي تقوم بأعبائه الشركات اليابانية أكثر مما تقوم به الحكومة. ويشكل بعض الشركات ذات المصالح في الشرق الأوسط «مجموعة ضغط» على الحكومة ضد المجموعة الأخرى المعروفة بـ «الرواق

الأميركي»، وتقوم عادة بأعمال شبه سياسية، عندما لا تريد الحكـومة نفسهـا أن تقوم بها. وكثير من المفاوضات الثنائية تقوم به الشركـات بدلاً من الحكـومة أو نيـابة عنهـا. وعلى هذا الأساس تسعى هذه الشركات الى تأسيس منظمة لتعزيز العلاقات الاقتصادية ـ في معناها الواسع ـ مع الدول العربية، خصوصاً في ما يتعلق بالنفط ومشتقـاته. كما تحاول، بالاتفاق مع الحكومة، استنباط طريقة جديدة في العلاقات العامـة وتعطي صورة أفضل عن اليابانيين كرجال أعمال وعن منتجاتهم وصنـاعاتهم في مختلف أنحـاء العالم العربي.

هذا السعي المضني المستمر لكي تحفظ اليـابان لنفسهـا صورة غـير ملطخة الا بـالود والسلم في العـالم العربي، لا أعـرف له وصفـاً أفضل ممـا قالتـه صحيفة «يـومـوري» اليومية في كانون الثاني عام ١٩٧٤: «اذا كـانت اليابـان مكروهـة أو مهابـة أو محتقرة كحيوان اقتصادي، فمعنى ذلك أننا أمام صدمة حالياً وفي مواجهة كارثة مستقبلاً. اننا ندعو الى أن تكون اليابان موضع ثقة في عالم اليوم. على اليابان أن تكون محبوبة».

ولكن كيف يمكن أن تكون اليابان محبوبة؟ لنبدأ أولاً بمحاولة فهم اليابانيين.

طوكيو ـ (١٩٧٤/٥/٩)

■ معجزة النهضة والتغيير

كان من الممكن أن يبدأ الحديث عن اليابان وآسيا قبل أكثر من ألفي سنة، لو لم يكن حديث اليوم امتداداً لذلك التراث من العلاقات التي لم تعرف سوى التغيير الدائم. وكان من الممكن أيضاً أن يكون العام (١٩٧٣ ـ ١٩٧٤) أفضل السنوات التي عرفتها آسيا منذ نهاية حرب المحيط الهادىء، لولا الحرب العربية ـ الاسرائيلية في تشرين الأول عام ١٩٧٣، التي ذكرت في شيء من القسوة بمدى اعتماد آسيا (ما عدا الصين وأندونيسيا) على نفط الشرق الأوسط. من هذا المنطلق وجدت كل من اليابان والصين من جهة، واليابان ودول جنوب شرق آسيا من جهة أخرى، أن مقاييس العالم وقيمة المتوارثة قد تغيرت، وأن العلاقات الأساسية التي تتحكم فيه، هي علاقات اقتصادية فيها من السلبيات أكثر مما فيها من الايجابيات. لذلك تأتي العلاقات اليابانية ـ الصينية لتكون الواجهة العريضة التي من خلالها تستطيع آسيا أن ترى مدى الارتباط العضوي لمشاكلها بهذين الجبارين المختلفين والمتناقضين الى أبعد الحدود.

ولعل من السخرية القول أن أكثر بلد آسيوي عانى وقلق من التفاهم الصيني ـ الأميركي كان اليابان، هذا العملاق الاقتصادي الآسيوي المزدهر. واذا كانت مصالح كل من الصين واليابان محتماً عليها الاصطدام في المدى البعيد، فان كلا البلدين استطاعا أن يتجاوزا هذا التغيير في السياسة الأميركية ـ الصينية وانعكاسها على آسيا. فالطريقة التي تعالج بها طوكيو وبكين علاقاتهما ستبقى مصدر قلق كبير للمستقبل القريب، بمقدار ما ستبقى المسيطر على مستقبل آسيا حتى نهاية هذا القرن. ففي ٢٩ أيلول عام ١٩٧٢، انتهت المحادثات الطويلة المضنية بين اليابان والصين وأقيمت علاقات ديبلوماسية، لم يستطع كاكويي تاناكا رئيس وزراء اليابان وقتئذ إلا أن يصفها بأنها علاقة تاريخ مشترك عمره مئات السنين وجيرة جغرافية لعبت دوراً أساسياً في فرض هذه العلاقة. وقال شو ان لاي رئيس وزراء الصين أن هذه الجيرة مع اليابان لم تحمل الى الصين الا الكوارث طوال نصف قرن. وطوال نصف هذاالقرن لم تتحدث اليابان الى الصين ولم تتصل بها على قدم المساواة. الصين كانت العملاق المترهل واليابان المحارب النحيل المنضبط. واعتبر اليابانيون انهم منقذو الصين والأوصياء عليها، كما اعتبروا أنفسهم الدولة الأكثر حضارة ورقياً في آسيا.

عرفت الصين الحروب الأهلية والتدخل الأجنبي والاستعمار. وهي أشياء لم تعرفها اليابان منذ بداية نهضة «الميجي» في القرن التاسع عشر. وأخذ اليابانيون يتطلعون الى الصين في شيءمن الاحتقار، لأنها لم تحافظ على «النظام» في بيتها. نصف قرن قضته الصين في هذه الحروب وفي الفوضى الاستعمارية. ونصف قرن قضته اليابان في التصليح والتصنيع والانضباط. إلا أن هذا لم يمنع اليابانيين من أن يستعيروا ـ كعادتهم دائماً ـ من الصين، الحرف واللغة والرسم والهندسة والبوذية وعشرات من

عدة الحضارة. وفي عام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ هزمت اليابان، الدولة الشرقية الآسيوية، روسيا القيصرية، الدولة الغربية الأوروبية، في البر والبحر، واعتبرت اليابان نفسها في مصاف الدول الأوروبية، إن لم تكن أفضل منها. وانضمت الى الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى ونالت حصتها من مغانم الحرب، بما في ذلك بعض المستعمرات الألمانية. واعطت هذه التطورات اليابانيين غروراً وثقة في النفس لا حد لهما. الى أن وقعت اليابان في العام ١٩٣٠ تحت سيطرة العسكريين التوسعيين الذين اعتبروا الصين «محار» آسيا، وأن اليابان هي الدولة المؤهلة «لفتحها». ومنذ ذلك التاريخ والصين تشكك في نيات اليابان.

ولا بد هنا من بعض الفواصل التاريخية لايضاح أصول هذه العلاقة وتطورها. في العام ١٩٣١ وقعت حرب منشوريا وانسحبت اليابان من عصبة الأمم عندما أدانت اعتداءها على الصين. إلا أن هذا لم يردعها. وفي العام ١٩٣٢ هاجمت اليابان شنغهاي، وأعلنت عام ١٩٣٤ معارضتها للتدخل الأجنبي في الصين ما عدا تدخلها. وفي العام ١٩٣٧ احتلت كل الصين جنوب الحائط الكبير. وفي ايلول من ذلك العام قصفت نانكين وكانتون وقتلت الآلاف. وفي تشرين الثاني عام ١٩٣٧ احتلت نانكين واعلنت «حكم الارهاب» الذي ذهب ضحيته عشرون الف قتيل. وفي العام ١٩٤٠ اقامت حكماً صورياً في الصين معطية اليابانيين حقوقاً تفوق حقوق الصينيين مشجعة استعمال المخدرات لإضعاف أهالي البلاد. وفي العام ١٩٤٥ هزمت في الحرب العالمية الثانية واستسلمت. واعترفت اليابان المهزومة المحتلة بالجنراليسيمو تشان كاي شيك زعيماً للصين في تايوان (فورموزا) الجزيرة التي استعمرتها اليابان خمسين عاماً ولم تجل عنها الا بعد هزيمتها، بدلاً من ماوتسي تونغ في بكين. واحد في جزيرة مشكوك في صينيتها يدعي تمثيل الصين كلها، والآخر جالس على البر الصيني كله والصين الحقيقية في قبضته. واختارت اليابان ما اختارته لها واشنطن في ذلك الوقت.

واخذ الاحتلال الأميركي يضع العراقيل في وجه العلاقات بين طوكيو وبكين. ومنع الاحتلال اليابان من الاعتذار رسمياً الى الصين عن ويلات الحرب. مع أن عدداً كبيراً من اليابانيين اعتذر افرادياً من الصينيين عن ذلك، ومر بعض الزمن، وبدأت الزيارات بين البلدين وبدأ الحوار الذي ساعدت عليه الزيارات، الى ان جاء الوقت المناسب. وكان ذلك في نيسان عام ١٩٧٠ بعد هدوء الثورة الثقافية في الصين وركودها. حتى ذلك التاريخ كانت الصين تهاجم اليابان علانية متهمة إياها بالتوسع والعسكرية والطموح للسيطرة الاقتصادية والسياسية على كل آسيا. ووصل الهجوم الى حد اتهام اليابان بوضع خطط عسكرية لإعادة احتلال كوريا الجنوبية وتايوان (فورموزا) وجعلهما مستعمرتين يابانيتين. وطوال سنتين استمرت الاذاعات والصحف ووسائل الاعلام الصينية تشن الحملات المعادية لليابان، محاولة أن تعيد الى الأذهان ذكريات الاحتلال الياباني المؤلمة لاثارة نوع من المقاومة لدى الشعوب الآسيوية ضد السيطرة الاقتصادية اليابانية في المنطقة. واستطاعت هذه الحملة أن تجد تجاوباً لدى الكثير من

الدول الآسيوية الصغيرة التي أخذت ترى أن الاعتماد على رأس المال الياباني والتجارة مع اليابان، ما هو إلا نوع من «الاستعمار الجديد» الذي يهدد استقلالها.

ولعبت الدعاية الصينية هذه دوراً في التظاهرات وحملات المقاطعة للمنتجات اليابانية التي شهدتها بلدان جنوب شرق آسيا، في الوقت الذي بدأت بكين حملة لاعادة العلاقات والتقارب بينها وبين «الصينيين عبر البحار» ـ أو الصينيين المقيمين خارج الصين. ودعت الصين عدداً من الوجهاء الصينيين المقيمين في بلدان آسيوية مختلفة الى زيارتها مذكرة إياهم بأنها الوطن الأم، وأن صلات الدم والعرق واللغة تتخطى الحواجز الجغرافية، ومشجعة أياهم على الاستمرار في العمل كأنشط الجاليات الاقتصادية في آسيا. وكان الهدف البديهي لهذه الحملة هو محاولة بكين إبعاد الصينيين عبر البحار عن ولائهم التقليدي للكومينتانغ (حزب تشان كاي شيك) وعن العلاقات القائمة مع الصين الوطنية (تايوان). وكانت الصين في هذه المرحلة قد بدأت تستيقظ من خوض الثورة الثقافية وتبلور ديبلوماسيتها وتحركها في واقعية، في اتجاه الرياح العالمية. لكن الهدف الأساسي لهذه الحملة كان هدفاً اقتصادياً، هو محاولة بكين دفع الصينيين عبر البحر، وهم جاليات اقتصادية مزدهرة في البلدان التي يقيمون فيها، الى تكوين محور قوي يستطيع أن يقف في وجه الرأسمالية اليابانية، ويقيم توازناً تجارياً واقتصادياً معها.

في تلك المرحلة، كانت سياسة الصين الخارجية تقوم على التجاوب مع التحدي الياباني في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية. وكانت الديبلوماسية الصينية ـ وما زالت ـ تقوم على رصد التحركات اليابانية والرد عليها واعتبارها من الهموم الصينية الرئيسية، على رغم ادعاء الصين المستمر بلسان شو ان لاي أمام الديبلوماسيين الأجانب في بكين أن هم الصين الأساسي هو الخطر السوفياتي والتهديد المباشر الذي يشكله السوفيات بتعبئتهم العسكرية الدائمة على حدودها، هذا الخطر الذي ما زال قائماً منذ أواسط الستينات. على أن الصين أخذت تتطلع في العام ١٩٦٩ الى الخطر الثاني الذي كان يواجهها وهو الخطر الأميركي. وفي ذلك العام حدث أمران: الأول، بدأت الولايات المتحدة تخفض التزاماتها العسكرية لحصار الصين، كما أخذت تخفض قواتها العسكرية في الهند الصينية. وبدأ خوف بكين من تهديد نصف مليون عسكري أميركي في فيتنام يتقلص. وكان الرئيس نيكسون قد خاض معركة الرئاسة عام ١٩٦٨ على أساس خطة لانهاء حرب فيتنام حققها كيسينجر فيما بعد.

الأمر الثاني، أن اليابان كانت تستعمل هذه السنوات بين عام ١٩٦٥ وعام ١٩٦٩ للمحافظة على استمرار نموها الاقتصادي ودفعه الى مرتبة قصوى. ففي عام ١٩٦٩ استطاعت اليابان أن تسبق المانيا الغربية وتصبح الدولة الثالثة الأغنى اقتصادياً في العالم، وأن تزيد من نشر معالم هذه القوة الاقتصادية خارج شواطئها. ولقد عقدت اتفاقات اقتصادية طويلة الأجل مع عدد من الدول الآسيوية للحصول على المواد الخام التي تحتاج اليها في اقتصادها. النفط من أندونيسيا، الفحم من الهند، المطاط من

ماليزيا، الحديد من أوستراليا. وفي نهاية الستينات أصبحت اليابان الشريك الاقتصادي المسيطر على اقتصاد عدد من دول المنطقة، ككوريا الجنوبية وتايوان وهونغ كونغ وتايلند والفيليبين. فالسلع الاستهلاكية التي ترميها اليابان في أسواق آسيا لم تساعد فقط على تعويد الناس الاستهلاك غير الضروري في قارة زراعية كآسيا، بل ساهمت في «برجزة» المجتمع الذي كانت الصين تعتبره مستقبلاً نواة لجيوش التحرير الشعبية. ودفعت البورجوازية اليابانية هذه الدول في اتجاه سياسة الأسواق الاقتصادية المفتوحة خلال الستينات. كل هذا أخذ يستهوي الناس في آسيا التي اعتبرت أن اليابان هي القوة المدنية في القارة. وسقطت نظريات لين بياو (قبل خيانته العظمى) وحلمه بأن يطوق الثوار الريفيون بورجوازيي المدن ويقضوا عليهم عند اندلاع شرارة حرب التحرير الشعبية عالمياً.

وبدأ «الثوار المحتملون» يتساقطون أمام اغراء راديوات الترانزستور والتلفزيونات وآلات التصوير والساعات والسيارات وطباخات الأرز. وأدركت الصين، التي ما زالت تعتبر نفسها القوة ذات النفوذ الراجح في المنطقة، أن تأثيرها الثوري والفلسفي والنظري وثورتها الثقافية ونجاحاتها العملية تتقلص أمام اغراء الاقتصاد الياباني وتسلله الى كل مرافق الحياة الآسيوية. وكلما ازداد التحدي الياباني، شعرت الصين بأن حظها في قيادة جماهير آسيا وتحريرها من «اضطهاد الأنظمة الرجعية والعميلة» يتضاءل، وأن مثال الرأسمالية الآسيوية الناجحة في اليابان بات يشكل بديلاً مغرياً وخطراً للتضحية التي تتطلبها الثورة من الجماهير عادة. وقلقت الصين على «طهارة» ثورتها، وأيقنت أن اليابان تمثل تحدياً لأفكار ماوتسي تونغ أكثر من «المنحرفين» السوفيات. ولم تكن لدى الديبلوماسية الصينية القدرة على مواجهة قوة اليابان الاقتصادية في المنطقة، على شكل قروض أو مساعدات أو استثمارات أو حتى تجارة. كان على الصين أن تتكل على السلاح السياسي والديبلوماسي. ففي الوقت الذي كانت تشن حملاتها الشعواء على اليابان، كانت الصين تستجيب لمحاولات أميركية من إدارة نيكسون الجديدة.

بكين كانت تعرف أن التفاهم مع واشنطن سيذهل طوكيو ويفاجئها الى أبعد حد. وهذا ما حدث فعلاً. وكان هدف الصين من الانفتاح على الولايات المتحدة حشر اليابانيين وصدمهم واعطاءهم شعوراً جديداً من عدم الأمان. ونجحت الصين في ذلك، وزاد في نجاحها فشل ديبلوماسية كيسينجر في احاطة اليابانيين علماً بما يجري مع الصين، مما حطم العلاقة الخاصة التي كانت تجمع بين طوكيو وواشنطن، وأدخل الشك الى قلوب اليابانيين في صفاء النيات الأميركية تجاههم بمقدار ما أوحى اليهم بالعزلة التي يخافونها، وأن معاهدة الأمن الأميركية ـ اليابانية المشتركة، التي بنت اليابان رخاءها الاقتصادي في ظل حماية مظلتها النووية، ليست أبدية بل أنها قابلة للنقض أو النسيان عند الحاجة. إلا أن السرعة التي تمت فيها عودة العلاقات بين الصين واليابان، ثم «الحرارة» التي تميزت بها هذه العلاقة حتى الآن، يجب ألا تستبعد نظرية حتمية

المواجهة بين البلدين. كل ما تفعله الصين حالياً هو استخدام أساليب «حرب العصابات» وتكتيكها في الديبلوماسية، محاولة كسب الوقت لبناء اقتصادها وصناعاتها، مفسحة في المجال لظهور التناقضات الكثيرة في مواقف الأميركيين والسوفيات واليابانيين بعضهم من البعض في آسيا.

بالطبع ارضت هذه التطورات (الحوار مع واشنطن، عودة العلاقات مع اليابان واحراج علاقتها بواشنطن) غرور الصين، لأن الصين تقليدياً تعيش في مركب عظمة أساسه مجموعة مركبات نقص. مركب العظمة يقوم على اعتبار الصين لكل الشعوب والأمم خارج حدودها «برابرة» وشعوباً وامماً «ثانوية»، وأن الصين هي وسط العالم ومركز الحضارة وأن بلدان آسيا كلها تدور حولها. أما مركبات النقص التي ولّدت لدى الصينيين الشعور «باحتكار» الحضارة، فنابعة من أنها لقرن ونصف قرن كانت مركزاً للنفوذ الخارجي والممالك الصغيرة التي يتحكم فيها غرباء عن الصين ومسرحاً لحروب أهلية، كان الأوروبيون يديرونها ويستغلونها لمصلحتهم. فجأة أعاد العالم الاعتبار الى الصين. دخلت المحافل الدولية وانضمت الى الأمم المتحدة وأصبحت الدولة الخامسة الكبرى في مجلس الأمن وأخذ العالم كله يعترف بها. وازداد هذا الشعور - شعور غرور الاطمئنان - بإدراك العالم أن بكين، لا تايبه، هي الوريثة الحقيقية لخمسة ملايين سنة من الحضارة. وأذهل الصين انتقالها خلال سنتين من دور الولد المعاقب المغضوب عليه من الكبار الى الولد الذي كبر فجأة واصبح العالم يسعى الى رضاه. وأحس الزعماء الصينيون بمسؤولية هذا الاعتراف وبالمركز الجديد الذي يتحتم عليهم أن يملأوه.

وأدرك اليابانيون بعد عودة العلاقات، وكانت الحرارة قد بدأت تدب في أوصال طوكيو وبكين، أن الصينيين هم شركاؤهم الطبيعيون في المجال الطويل. كما ادرك اليابانيون أن النمو الاقتصادي للبلدين يجعل اقتصاد البلد الواحد مكملاً لاقتصاد البلد الآخر، إضافة الى أن الحسابات السياسية في العالم تدفع كلاً منهما الى احضان الآخر. وكانت «صدمة نيكسون» - كما يسمونها في اليابان - قد بدأت تؤتي مفعولها حين شرعت الولايات المتحدة في فرض بعض الحظر على البضائع اليابانية على أساس «كوتا» معينة. كذلك بدأت الدول الأوروبية تمارس سياسة الحماية الاقتصادية في وجه المنتوجات اليابانية، مما أوجب رفع سعر الين. ووجدت اليابان نفسها وحيدة في بحر هائج، ومن حولها أمواج عاتية لم تعرفها من قبل. فقد اعتادت اليابان ان تعيش في عالم مريح، واستطاعت أن تحقق تقدمها الاقتصادي الرائع في حماية المظلة النووية الأميركية، من دون مبادرات ديبلوماسية، معتبرة أن أي موقف سياسي يجب أن يكون في اتجاه المصالح الاقتصادية وكسب مزيد من الأسواق والأموال. واكتشفت طوكيو أن الأمواج العاتية التي تخيفها هي من صنع الصين، أكثر مما هي من صنع «غباء» السياسة الأميركية الآسيوية تجاهها، وأيقنت أن من الضرورة أن تعيد ترتيب حساباتها.

وجاء ترتيب الحسابات على أساس أنه مهما تكن الفرص في آسيا، فإنها لن تستطيع أن تحل محل الأسواق الأميركية، فيما لو واجهت اليابان هذا الاحتمال الكارثي. وحاولت

طوكيو أن تصلح ما يمكن اصلاحه من العلاقات مع الولايات المتحدة، على رغم الحيرة التي ما زالت تعاني منها من جراء تصرفات واشنطن تجاهها. واضطرت الى أن تبتلع كبرياءها في مواجهة الحقائق الاقتصادية التي فرضتها معطياتها الحياتية. إلا أن القيادة السياسية فيها أدركت أن الاساس الذي قام عليه ازدهار اليابان وسلامتها، وهو العلاقة الخاصة بالولايات المتحدة، قد اهتز نهائياً والى الأبد. وعادت اليابان الى الشعور بآسيويتها. وبدأت تتطلع حولها في آسيا. الى جانب الصين كانت تايوان. والخيار كان واضحاً.الصين، لا تايوان، مهما يكن ذلك صعباً. فهناك علاقة خاصة تربط طوكيو وتايبه. علاقة عاطفية وعلاقة تاريخية وعلاقة اقتصادية هي الاقوى في آسيا. وضحّت اليابان بتلك الجزيرة الجميلة وبذكرياتها مع تشان كاي شيك، لا من أجل عيون بكين و «أفكار» ماو تسي تونغ، بل من أجل البلد الحقيقي، البلد الأكبر والأوسع. بلد المستقبل لا بلد الماضي. وكانت هناك أندونيسيا، بكل احقادها على اليابانيين. وهناك ماليزيا وسنغافورة وتايلند. كانت آسيا كلها تنتظر الاتجاهات اليابانية الجديدة.

لكن آسيا لم تستقبل اليابان بأذرع مفتوحة. جراح التاريخ القريب وأخطاء التوسع الاقتصادي وعجرفة العرقية المميزة لم تكن من سمات البلد الذي يمكن أن ترحب به آسيا. وجرت سلسلة من التظاهرات في أندونيسيا وتايلند وماليزيا ضد «الاستعمار الاقتصادي» الياباني في أثناء جولة رئيس الوزراء كاكويي تاناكا في هذه الدول في صيف عام ١٩٧٣. وخلال هذه التظاهرات كانت صيحات الجماهير الآسيوية ضد اليابان ـ العقلية أكثر مما كانت ضد اليابان ـ الصناعة. فبين عام ١٩٧٢ وعام ١٩٧٤ وقع حادثان أعادا الى الأذهان الخطر الياباني الدائم الذي يتهدد آسيا. عام ١٩٧٢ وجد جندي ياباني في غابات غوام، لم يعرف أن الحرب انتهت. وفي آذار عام ١٩٧٤ وجد جندي ياباني آخر في أدغال الفيليبين، لم يعرف أيضاً أن الحرب قد وضعت أوزارها قبل ثلاثين عاماً. الأول شوكتيشي يوكوي قال لآلاف الناس الذين احتشدوا في مطار طوكيو لاستقباله: «لقد عدت مع البندقية التي أعطاني اياها الامبراطور». الثاني هيرو أونودا رفض الاستسلام للسلطات الفيليبينية إلا إذا تلقى امراً من قائده الأعلى في الحرب. ومن حسن الحظ أن ذلك القائد كان ما يزال حياً.

الجماهير التي تظاهرت في جاكارتا وبانكوك ضد اليابان كانت تتظاهر ضد المنطق الياباني الذي ما يزال يعتبر ابطالاً وطنيين، يستقبلون ويكرمون كما يستقبل ويكرم الأبطال الحقيقيون. جنوداً كهذين الجنديين اللذين آمضيا ثلاثين عاماً يعيشان على امجاد تقتيل الآسيويين. كذلك كانت الجماهير تتظاهر ضد نشاط اليابان الاقتصادي في آسيا على حساب مواطني البلدان الآسيوية، بما في ذلك مساعدات اليابان الاقتصادية للمنطقة الموجهة في الدرجة الأولى لخدمة مصالح اليابان. إن هذا المزيج من الموقف الاقتصادي والموقف السياسي دفع شعوب آسيا الى الشك الدائم في نيات اليابان الاقتصادية والسياسية، معززة هذا الشعور بسلسلة من الوعود التي قطعتها اليابان ولم تحقق منها شيئاً، مضافاً اليها الخوف المزمن من اعادة التسلح الياباني ونمو

العسكرية في الأوساط الحزبية في اليابان. واذا تذكرت آسيا قصة الجنديين الضائعين في الأدغال غير المعترفين بانتهاء الحرب، فهي لا تنسى قصة يوكيو ميشيما، ذلك الأديب والمسرحي والشاعر والقاص والممثل ومؤسس «جمعية حملة الدروع» الذي قال إن المجتمع الياباني قد تأخر لأن الناس لم تعد تحمل السيوف. مشيما، الذي هو اليوم أحد أساطير اليابان الجديدة والحية، انتحر عام ١٩٧٠ على طريقة «الهاراكيري» أمام حشد من الضباط اليابانيين احتجاجاً على سياسة اليابان السلمية، وهو يدعو الى اعادة تسليح اليابان ونقض «دستور السلام».

تبقى نظرية التصادم مع آسيا، التي تنبع حتميتها من الموقف الياباني التقليدي بأن العلم يلحق التجارة، وليست التجارة هي التي تلحق العلم، الذي كان وراء بداية الامبراطورية البريطانية. ولئن كانت التجارة تحتاج الى حماية فإن الخوف مزمن في آسيا أن تكون هذه الحماية عسكرية وأن تتطور لتصبح استعماراً جديداً. ومن الصعب، مرحلياً على الأقل، أن تقتنع آسيا بحسن نيات اليابان ما دامت صورة «الياباني البشع» الذي يلعب الغولف والذي لا يتعامل إلا مع الأشياء اليابانية مسيطرة على أذهان الآسيويين. وسيزداد هذا الخطر اذا اعتبر الآسيويون أن الصين هي الدولة التي تمثلهم في وجه المطامع اليابانية. وكلما تقلص النفوذ الأميركي ـ الأوروبي في آسيا، أصبح خطر التصادم أكثر جدية. والذي يخشاه المراقبون هو أن يفشل اليابانيون في اجتراح معجزة الانسان الياباني الجديد القادر على التعامل مع الآخرين، مثلما يستطيع الأوروبيون والأميركيون والصينيون التعامل مع الناس، وعلى المستوى نفسه.

وقد تقصر هذه المعجزة أمام ما حققته اليابان من معجزات في ميادين الصناعة والاقتصاد والتكنولوجيا. فالانسان دائماً أصعب من الآلة. واليابانيون أصعب مراساً وأكثر تحجراً من سائر شعوب العالم. وآسيا ما تزال في بداية مخاضها العسير.

طوكيو ـ (١٩٧٤/٥/١٠)

سنغافورة

■ اسرائيل الآسيوية

المدن كالنساء، لكل منها طريقة خاصة في استقبال الرجل القادم اليها.
والمدن كالنساء أيضاً، لكل منها عطر خاص يعلن عن هويتها من بعيد.
سنغافورة المدينة ـ الدولة لا توحي، وهي تنشر عطرها الخاص، بأنها في انتظارك شخصياً، ولكنها تدعوك تلقائياً من خلال أريجه المنتشر الى البحث عن مفاتنها. وهي إن لم تكن في استقبالك فلأنها مشغولة بمشاكلها. ربما لان سنغافورة تطورت خلال سنوات قليلة من جزيرة الى دولة ذات عقلية مكرسة لشيء واحد هو البقاء. قبل ذلك كانت، كمستعمرة، مركزاً لامبراطورية تراجعت اليوم الى غياهب التاريخ.

في الماضي كانت سنغافورة تتبرج وتفتح ذراعيها لتكون في انتظار الرجل الغريب القادم اليها. اليوم تغيرت الأحوال. لم تعد سنغافورة اكثر من مدينة صينية تشكل نقطة على خريطة العالم. في الأمس كانت المكان الذي تجمع فيه الماليزيون والصينيون والهنود والعرب ليتبادلوا التجارة في ظل التاج البريطاني عند خط الاستواء في وسط العالم. وسقطت الامبراطورية، وبقيت المعالم والذكريات. اليوم هي جزء من لا شيء، لا مكان عندها تذهب اليه، ولا بلد تستطيع الانتماء اليه.

لقد عرفت سنغافورة أياماً من العز ومن الخوف ومن المجد ومن الفقر. كانت مستعمرة بريطانية حافظت على التراث الفيكتوري الى ما بعد انزال العلم المربع الألوان. وانهارت هذه القلعة في الأشهر الأولى من حرب المحيط الهادي أمام الجحافل اليابانية. وتعرضت في العام ١٩٤٨ وما بعده لمحاولات الغزو الشيوعي يوم كانت الصين تحاول عن طريق «حرب التحرير الشعبية» أن تضم الملايو الى مناطق نفوذها. ودخلت في اتحاد فيديرالي مع الملايو وسَرَواك وصباح تحت اسم ماليزيا عام ١٩٦٣. ثم أصبحت جزيرة صغيرة يهددها سوكارنو من اندونيسيا ويحقد عليها التنكو عبدالرحمن من كوالا لامبور بعد طردها من الاتحاد عام ١٩٦٥. مراحل عدة مرت فيها الجزيرة الفريدة والغريبة.

هذه الجزيرة الصغيرة التي لا يتجاوز طولها ٢٦ ميلاً وعرضها ١٤ ميلاً، محاطة بجزر صغيرة صغيرة غير مسكونة، ليس لها ماء تشربه الا ما تجره الأنابيب عبر الطريق الضيق فوق البحر من هضاب جوهور. حتى هذا الطريق الضيق وهذه الأنابيب نصفها تملكه ماليزيا، التي أقل ما يقال عنها انها بالكاد تتحدث اليها. من هذا الشعور الوجل بالوحدة، بدأت سنغافورة تركض لتبني وتعيش وتبقى. واستطاعت الشخصية الصينية المميزة لسكان هذه الجزيرة، الى جانب الخليط العجيب من الشعوب الأخرى التي فيها، أن تجعل منها الدولة الثانية في آسيا بعد اليابان، من حيث الدخل القومي، متخطية بذلك تايوان. صحيح ـ كما تقول الكتب السياحية ـ أن سنغافورة بلد متعدد الشعوب، الا أن كل اربعة أشخاص من أصل خمسة هم صينيون. وعدد سكان سنغافورة يزيد على المليونين، مليون ونصف المليون من أصل صيني، ونصف المليون الآخر موزع بين الماليزيين والأندونيسيين والهنود والباكستانيين والسيلانيين والتايلنديين والعرب واليهود والأوروبيين. مزيج لا أكبر ولا أهم. تسمع الصينية في مختلف لهجاتها (الماندرين والكانتونية) الى جانب الماليزية والتاميلية (لغة سيلان وجنوب الهند) والهندية والأوردية والعربية. وتبقى الانكليزية القاسم المشترك بين السنغافوريين، الى جانب كونها لغة الحكومة والادارة والتجارة والدواوين.

وسنغافورة ليست مدينة جميلة ـ بالمعنى المحدد للجمال. تبدو لك كالمرأة الجذابة التي لا يمكن أن تصفها بالجمال في تفاصيلها، ولكنها في منتهى الجمال والاغراء في مجملها. فهي ما زالت قريبة من ماضيها الاستعماري، وملتصقة بتقاليده، لذلك لا تشكو من عقدة البتولية. تحس كأنها مزيج من مدن عدة: برايتون في انكلترا. لاهور في باكستان، عدن في اليمن الجنوبية. بومباي في الهند. عشبها أكثر خضرة من العشب الانكليزي. أمطارها الموسمية تهطل في أي لحظة، وشمسها تسطع بعد دقائق. مبانيها خليط من الطراز الاستعماري والهندسة المعمارية الحديثة. في شارع تحس انك في أيام «الراج البريطاني» السعيد الذكر، وفي شارع آخر تتصور أنك في نيويورك، الا انها توحي لك باستمرار بانك في آسيا. في الصباح الباكر تسمع المؤذن يدعو الناس الى الصلاة، وعند الظهر تسمع طبول الصاج تقرع أمام المعابد الهندوسية، وعند المغيب تضج بأجراس الرهبان البوذيين. خليط عجيب من الألوان والايمان.

سنغافورة كانت وما زالت مدينة بحرية. كذلك كان البريطانيون سكان جزر بنوا ثرواتهم وامبراطوريتهم عندما سيطروا على البحار. وكانت سنغافورة الحبة الأخيرة في سبحة طويلة من القوة والسلطان بدأت في جبل طارق. أصداء الشاعر الانكليزي كيبلينغ وسحر الفترة الأدواردية في التاريخ البريطاني مع بقايا العصر الفيكتوري هي ما تلمسه في سنغافورة وتعيشه. وعندما وصلها البريطانيون لم يكن فيها أكثر من أربعين صينياً يعملون في الزراعة و١٥٠ ماليزياً يعملون في الصيد. وسرعان ما توافد الصينيون من جنوب الصين في هجرات متعاقبة بسبب الغزوات والحروب، واستقروا في شوارعهم ومنازلهم الخاصة، ناقلين معهم لهجاتهم واطعمتهم وعاداتهم والهتهم واحتفالاتهم.

أعادوا بناء صين جديدة صغيرة، هي أقرب ما تكون الى الصين الحقيقية التي عرفوها في مطلع هذا القرن. كذلك نقلوا خلافاتهم السياسية وعصاباتهم وجمعياتهم السرية، منها جمعية «ترياد» السرية التي انشئت تأييداً لصن يات صن ولاعلان الجمهورية ضد أسرة المانشو الحاكمة. وساعدت «الترياد» تشان كاي شيك وحزب الكومينتانغ على حكم الصين حتى هزيمته أمام الشيوعيين. وعندما رحل تشان كاي شيك وحزبه الى تايوان رحلت معه «الترياد» الى حيث يقيم صينيون خارج الأرض الصينية.

«تشاينا تاون» ـ مدينة الصين ـ مجموعة مشاهد لها رائحة. الا أنها آسيوية الملامح أكثر مما فيها من البخور والدهن الصينيين. آسيوية سنغافورة ليست موضع شك. رائحة الناس المزدحمة على الأرصفة بعضها فوق البعض. فرائحة الشواء والأكل على مطاعم الأرصفة المتدة في كل مكان بعد المغيب، فيها من خشب الصندل الآسيوي اكثر مما فيها من البخور والدهن الصيني. أسيوية سنغافورة ليست موضع شك. الباعة بسطوا بضائعهم المتعددة الاصناف على الرصيف حتى يكاد المارة يدوسونها. الخطاطون ورسامو اللافتات الصينية و «العرضحلجية» مع قراء البخت، والمنجمون افترشوا الزوايا. متعهدو دفن الموتى تركوا موتاهم في توابيت مفتوحة على الأرصفة فيمر الناس ويتفرجون عليها، وقد يضيئون شمعة تسهيلاً لمرور ذلك الميت الذي لا يعرفونه الى الآخرة. نماذج بشرية يكاد المرء يظن أنْ لا وجود لها.

يبدو الناس في سنغافورة كأنهم لا ينقطعون عن الأكل ولا يرغبون في النوم، في أي ساعة من الليل أو النهار ترى الناس واقفين أو جالسين أمام عربات الأكل والشراب. إلا أن الذي يبدو عليه أنه لا يريد النوم هو «الراوي» ـ راوي الحكايات القديمة ـ اذ يجلس على أحد أرصفة «تشايناتاون»، أو يقف على سحارة، فيلتف المارة من حوله ليسمعوا عن ملوك الصين القدماء أو أبطالها في الحروب. حكاية وراء حكاية، وينتهي الليل ولا تنتهي الحكايات. ويلقي الناس الى ذلك الراوي ببعض النقود أو يأتون اليه بشيء من الطعام والشراب.

على بعد خطوات من «تشايناتاون» في شارع سيرانغون، تشم رائحة الهند. الكري والعدس والزيت والبخور وماء الورد ـ وشيء كثير من القذارة. هنا التاميل (هنود جنوب الهند وسيلان) سود كخشب الابنوس ولكن في ملامح رقيقة كأنها منحوتة نحتاً. وهنا أيضاً السيخ والبارسيس عبدة زرادشت، والكشميريون المسلمون والنيباليون البوذيون. خليط كأنك في مصهر للشعوب. والهنود جاءوا الى سنغافورة في أوائل القرن التاسع عشر مع رافلز والمستعمرين الأولين، وكانوا مجموعة من المحكومين بالأشغال الشاقة المؤبدة في بلادهم. فكانت الأيدي العاملة المجانية، ومن بعدها الأيدي العاملة الرخيصة التي بنت معالم سنغافورة المعروفة اليوم، كدار الحكومة وخطوط السكة الحديدية، وفتحت الأدغال وعملت في مزارع المطاط. أما الماليزيون فقد كانوا سكان الجزيرة قبل أن يصلها الصينيون والهنود. كانوا قليلي العدد يعملون إما في القرصنة أو في صيد الأسماك، جاءوا من شبه جزيرة الملايو أو من جزر بورنيو وسيليبيس، وعاشوا على

الشواطىء وفي الجزر الصغيرة القريبة، فأعطوا سنغافورة طابعها وملامحها الآسيوية. ويقول السنغافوريون عن المرأة الماليزية ذات الصدر الصغير والأرداف المكورة والخطوات المليئة بالايحاء الجنسي انها أوفر نساء الجزيرة أنوثة. أما المرأة الصينية فيقولون أنها عبارة عن مجموعة لعب صغيرة ملونة ذات طعم وسحر خاصين، فيها من نكهة الصين أكثر مما فيها من نكهة آسيا التقليدية. وأما المرأة الهندية فهي شلال داكن في غابة ابنوس خضراء يلقي رذاذه من بعيد فينعش من دون أن يبلل.

ولكن قبل ذلك كله ماذا كانت سنغافورة؟ تاريخ سنغافورة كما هي اليوم يبدأ في العام ١٨١٩ عندما وضعها السير ستامفورد رافلز على الخريطة. إلا أن جذوره ضاربة في أعماق عصور سابقة. فمركزها الاستراتيجي كمدخل الى غرب بحر جنوب الصين جعل منها مسرحاً لحضارات عريقة عرفها جنوب شرق آسيا. عرفها الهنود والصينيون واليابانيون والعرب قبل أن يعرفها الأوروبيون. جاءها التجار العرب في القرن الثالث للميلاد من ثلاث جهات: من الخليج العربي ومن البحر الأحمر ومن الهند في طريقهم الى جزر التوابل، التي هي شمال شرق أندونيسيا اليوم. قبل ذلك بكثير جاءها الهنود في القرن السابع قبل الميلاد وفرضوا لغتهم ودينهم وعاداتهم وحضارتهم. بعدهم جاءت موجات الصينيين وأخذت الحضارة الصينية تحتل مكان الحضارة الهندية.

في البداية كان اسمها «تاماسيك» في اللغة الأندونيسية القديمة، أي بلد البحر. وجاء الهنود وغيروا أسمها الى سنغافورة في اللغة السنسيكريتية أي مدينة الأسد. وتقول الأسطورة الهندية أن الملك راجندرا الأول سماها سنغافورة بعدما اصطاد فيها مئة أسد. غير أن الأسطورة الماليزية تقول أن أميراً من الملايو اسمه سانغ نيلا أوتاما قذفت به الأمواج الى الجزيرة إثر عاصفة عاتية قلبت مركبه، شاهد عند وصوله الى الشاطىء حيواناً جميلاً لم ير مثيلاً له من قبل. وعندما سأل ما هو قيل له انه الأسد. وأعجبته الجزيرة بمقدار ما أعجبه الحيوان، فقرر أن يبني مدينة في ذلك المكان ويسميها سنغافورة ـ مدينة الأسد. والطريف في الأمر أن الأسود لا تعيش في جنوب شرق آسيا، خصوصاً في الملايو وسنغافورة، وأن الحيوان الشائع هناك هو النمر. لكن هذا لم يمنع أن تبقى سنغافورة عاصمة امبراطورية «سري فيجايا» في الملايو حتى دمرها التايلنديون في القرن الرابع عشر. ثم غزاها الصينيون في القرن الخامس عشر خلال حكم سلالة «مينغ»، حين بدأ تثبيت دعائم النفوذ والقوة الصينيين في جنوب شرق آسيا. ولم يتغير التاريخ كثيراً حتى بداية القرن السادس عشر عندما دخلها الأوروبيون باحتلال البرتغال في قيادة الفونسو البوكيرك (الذي احتل مسقط فيما بعد وكان ذلك بداية الغزو البرتغالي للخليج العربي) لسلطنة مالاكا في الملايو. وكان هذا إيذاناً باعلان دخول أوروبا حلبة الصراع الاستعماري في جنوب شرق آسيا.

على أن سنغافورة اليوم بدأت مع السير ستامفورد رافلز ممثل شركة الهند الشرقية الذي وصلها في ٨ شباط عام ١٨١٩، ليوقع معاهدة مع سلطان الملايو حسين محمد شاه يسمح بموجبها للشركة باقامة مركز تجاري عند مصب نهر سنغافورة؛ وقد اقترن

اسمه باسم الجزيرة منذ ذلك التاريخ. وفي العام ١٨٢٤ وقعت سنغافورة تحت السيادة البريطانية. وفي عام ١٨٢٨ انضمت الى بينانغ ومالاكا لتشكل مجتمعة «محمية المضيق» التي كانت تديرها شركة الهند الشرقية من البنغال. وبتقلص أهمية بينانغ ومالاكا مع الزمن، ازدادت أهمية سنغافورة. وفي عام ١٨٦٧ أصبحت محمية مستقلة تحت اشراف وزارة المستعمرات في لندن. وازداد ازدهار سنغافورة بفتح قناة السويس عام ١٨٦٩ وبانفتاح دولة الملايو وتوسعها في أدغال الداخل. لكن الذي زاد من حظ سنغافورة وازدهارها في تلك الأيام هو اكتشاف شجر المطاط في عام ١٨٧٦، والاتيان به اليها من البرازيل. ومرت عشر سنين قبل أن يقتنع الناس بأهمية زراعة المطاط. وكانت صناعة السيارات قد بدأت في الولايات المتحدة باختراع هنري فورد السيارة الأولى. ومع ظهور مزارع المطاط بدأت الهجرة الهندية الكبرى الى سنغافورة والملايو، اذ جعل الهنود التاميل يفدون من جنوب الهند وسيلان الى الجزيرة للعمل في المزارع. وكان ذلك أول تحركها الاقتصادي ونموها.

ومع نمو سنغافورة كمركز أول للتجارة وقاعدة لقوة بريطانيا البحرية في جنوب شرق آسيا، بدأ الصراع الدولي يشتد عليها بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية. وفي ١٥ شباط عام ١٩٤٢ احتل اليابانيون الجزيرة بسهولة عجيبة، حطمت أسطورة «سنغافورة القلعة» التي اشتهرت خلال الأشهر الأولى للحرب، كما سقطت النظرية العسكرية البريطانية في «الدفاع الثابت»: ركزت القوات البريطانية مدافع ضخمة ثابتة موجهة نحو البحر على أساس أن سنغافورة لن تهاجم إلا من البحر. واذا باليابانيين يهاجمونها من البر عبر مضيق جوهور. وهكذا انتهت الفترة الاستعمارية للجزيرة. وكان الاحتلال الياباني كالاحتلال البرتغالي قبل قرنين، بداية تحريك رياح التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي في آسيا.

بعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية، عادت سنغافورة الى الحكم المدني في أول نيسان عام ١٩٤٦ كمستعمرة للتاج البريطاني. ومرت عشرون سنة أخرى قبل أن تنال استقلالها. وفي العام ١٩٥٥ جرت أول انتخابات عامة في البلاد، فاز فيها حزب «جبهة العمال» الذي كان يتزعمه دافيد مارشال، اليهودي من أصل ايراني. واصبح مارشال الوزير الأول في المستعمرة. ونال حزب العمل الشعبي بزعامة لي كوان يو، الذي كان يضم آنذاك عدداً كبيراً من الشيوعيين، ثلاثة مقاعد من أصل ثلاثين مقعداً. وطالب دافيد مارشال، الذي كان متهماً بالعمالة للبريطانيين، بالاستقلال الفوري لسنغافورة. وردت بريطانيا طلبه فاستقال مارشال وخلفه في الحكم وفي زعامة الجبهة ليم يو هوك الذي كان من سياسيي الدرجة الثانية.

في هذه الاثناء كان لي كوان يو يقوم بتغييرات في منهاج حزب العمل الشعبي ومظهره. ولي كوان يو صيني من مواليد عام ١٩٢٣، درس في المدارس الانكليزية في سنغافورة كأكثر صينيي الطبقة المتوسطة، وسافر بعد الحرب الى جامعة كيمبردج في انكلترا حيث درس القانون. وصينيو سنغافورة نوعان: نوع اندمج عبر سني الاستعمار البريطاني

الطويلة في الحياة الثقافية الانكليزية فدخل المدارس الانكليزية وتعلم لغتها ونهل من ثقافتها، ونوع دخل المدارس الصينية وحافظ على لغته وثقافته. ولي كوان يو ينتمي الى النوع الأول، بينما ينقسم حزبه جناحين صينيين: صين الصينيين وصين الخوارج. ولي من الخوارج (الصينيون يستعملون الاسم الأول). وحزب العمل الشعبي حزب اشتراكي الأساس والمبادىء يتوسل الرأسمالية للوصول الى غاياته. وفي ظل الحكم الذاتي والاستقلال بدأ حزب العمل الشعبي يصبح أقل صينية وأكثر ماليزية، وأقل اشتراكية وأكثر عداءً للشيوعية، بينما كان عدد من الزعماء الشيوعيين المنتسبين الى الحزب في المعتقلات البريطانية.

وجرت انتخابات عام ١٩٥٩ وفاز حزب العمل الشعبي بـ ٤٣ مقعداً من أصل ٥١ مقعداً. ولكن قبل أن يوافق الحزب على تسلم الحكم طالب السلطات البريطانية بالافراج عن زعمائه الشيوعيين المعتقلين. واطلقت بريطانيا ثمانية من هؤلاء، وصار لي كوان يو أول رئيس لوزراء المدينة ـ الدولة المتمتعة بالحكم الذاتي انما غير المستقلة. وبقيت شؤون الدفاع والسياسة الخارجية والأمن الداخلي في يد السلطات البريطانية. وعندما خرج الشيوعيون من السجن ووجدوا ان الحزب قد تغير في غيابهم وأنهم لا يستطيعون السيطرة عليه، انشقوا عنه في العام ١٩٦١ والفوا حزب الجبهة الاشتراكية، الذي كان هدفه الأساسي تحطيم لي وحزب العمل الاشتراكي.

خلال هذه السنوات الأربع كانت الملايو قد استقلت واصبح التنكو عبد الرحمن أول رئيس لوزراء الملايو المستقلة. وفي العام ١٩٦٣ اقترح قيام اتحاد بين الملايو وسنغافورة وبورنيو وسَرَاوك وصباح وبروناي، فوافق الجميع على ذلك باستثناء بروناي الغنية بالنفط التي آثرت البقاء محمية بريطانية. وتم تأسيس اتحاد ماليزيا في أيلول عام ١٩٦٣. وعاش الاتحاد مع سنغافورة حتى عام ١٩٦٥، حين طردت ماليزيا سنغافورة. وكانت الحزازات والخلافات قد تراكمت بين ماليزيي الملايو (التي فيها صينيون بمقدار ما فيها ماليزيون) وصينيي سنغافورة (التي فيها أقلية ماليزية)، الى درجة أنه لم يكن بد من الانفصال. وكان التصعيد في العلاقة قد بلغ ذروته إثر محاولة حزب العمل الشعبي السنغافوري تعاطي السياسة الماليزية الداخلية واستعداء الماليزيين المسلمين الذين خافوا من سيطرة الأكثرية الصينية على البلاد. وما تزال الحساسية المفرطة بين مسلمي ماليزيا وصينيي سنغافورة تتحكم في العلاقة بين البلدين الى اليوم.

وأصبحت سنغافورة جمهورية بعد طردها من اتحاد ماليزيا في ١٩ آب عام ١٩٦٥، لها رئيس وعلم وبرلمان وسفراء وقوات مسلحة، يحكمها رئيس وزرائها لي كوان يو بواسطة الحزب الواحد، الديموقراطي المظهر الفردي السلطة، في غياب اي نوع من أنواع المعارضة. واستطاعت هذه المدينة ـ الدولة التي تبلغ مساحتها ٢٢٥ ميلاً مربعاً، بسكانها المليونين، أن تتحول في عهد الاستقلال من مستعمرة متخلفة الى قصة نجاح تكاد لا تصدق، أعطتها ابعاداً وأهمية في آسيا والعالم اكبر بكثير من حجمها، فللمرة الأولى في تاريخ هذه الجزيرة بات سكانها من صينيين وماليزيين وهنود يشعرون

بالانتماء الى وطن اسمه سنغافورة، وان يكن هذا الخليط العجيب يحتاج الى جيل بكامله حتى تزول الحواجز العرقية ويتم الانصهار الوطني في شكل لا يقبل الكسر.

وتكونت لدى سنغافورة، انطلاقاً من هذا الخليط البشري الذي يسكنها، وعلى أثر طردها من اتحاد ماليزيا، «عقدة اسرائيل». فالصينيون السنغافوريون تتحكم فيهم عقدة تعال وعظمة، مردها الى سلسلة النجاحات الاقتصادية والسياسية التي حققوها، وهم يتطلعون من خلالها باحتقار الى سكان البلاد الأصليين عبر المضيق في ماليزيا، الى جانب شعورهم بانهم دولة صغيرة محاطة ببحر من الأعداء تعيش من ذكائها وقوتها فقط. وكان القصد من اختيار لي كوان يو اسرائيل مثالاً يحتذى، الايحاء الى السنغافوريين بأن ظهرهم الى الحائط وأن معركتهم للبقاء بلداً مستقلاً كمعركة اسرائيل مع العرب. وهو كان يستهدف في الدرجة الأولى الضغط على المواطنين لتقديم تضحيات معينة ومستمرة، قد لا يوفرها اعتماد المثل السويسري، كما كان يتمنى أكثر المراقبين المعنيين باستقرار جنوب شرق آسيا وسلامته، فيتعلم السنغافوريون من سويسرا فن التعايش بين الشعوب المختلفة اللغات والجنسيات، بمقدار ما يتعلمون فن البقاء والطفو على سطح الأحداث في عالم السياسة والاقتصاد المعقد.

ولعل الذي كرس نهائياً انفصال سنغافورة عن بقية دول جنوب شرق آسيا، والعزلة التي تعاني منها اليوم، اختيارها اسرائيل مثالاً تبني على أساسه أمة، وهذا الاختيار كان متعمداً وعلنياً، وإن تكن الأوساط السياسية في سنغافورة تنفي ذلك اليوم، بعد تغير الظروف. ففي تشرين الأول عام ١٩٦٧، وكانت آثار حرب حزيران ما تزال ماثلة، واسرائيل في قمة غطرستها وامجادها العسكرية، وقف لي كوان يو في اجتماع مؤتمر الاحزاب الاشتراكية الدولية في زوريخ وقال: «لقد قمنا بدراسة لنرى ما يمكن للدول الصغيرة المحاطة بجيران كبار والمكتظة بالسكان أن تعمله لتعيش ولتبقى. وساقتنا الدراسة الى مقارنة ثلاثة مجتمعات متلاصقة ومتضامنة هي: سويسرا، فنلندا واسرائيل. وقد اختارت سنغافورة في النهاية النموذج الاسرائيلي، لأنه في وضع كوضعنا يبدو من الضروري تدريب كل ولد وكل بنت على الانضباط كعامل فعال وأساسي في الدفاع عن البلاد».

ومنذ ذلك الوقت والخبراء الاسرائيليون باتوا جزءاً لا يتجزأ من «صورة» سنغافورة، مهما حاول السنغافوريون تمويهه واخفاءه. وكانت تلك المحاولة من افشل ما قام به السنغافوريون الأذكياء. فقد وصل في نهاية عام ١٩٦٧ عدد كبير من الضباط الاسرائيليين لتدريب قوات سنغافورة المسلحة والتدريس في كليتها الحربية. وكان هناك اتفاق مكتوب على الا يعلن أي من البلدين رسمياً وجود خبراء اسرائيليين في سنغافورة، حتى انه عندما وصلت الدفعة الأولى من هؤلاء سموا رسمياً «خبراء زراعيين مكسيكيين». ويشير السنغافوريون اليوم اليهم على أنهم «مكسيكيون» تفادياً لأي احراج.

وبالطبع كان اختيار سنغافورة للاسرائيليين عملية فيها تحد وتحريض سياسي بالنسبة

الى جيرانها، اذ اعتبرت المواجهة بين الصينيين فيها وغير الصينيين في البلـدان المجاورة كالمواجهـة بين العـرب واسرائيل، فضـلاً عن انها أوحت بـانتقال «العـداء الديني» من الشرق الأوسط الى جنوب شرق آسيا. لقد كان في وجـود الاسرائيليين شيء من «الاهـانة العاطفية» لجيران سنغافورة المسلمين.

وكانت ردة فعل ماليزيا وأندونيسيا على الوجود الاسرائيلي في سنغافورة، اتهام لي كـوان يو بمحاولة اقامة دولة كاسرائيل من أجل اضطهاد المـاليزيـين والاندونيسيـين المسلمين المقيمين في الجزيرة، كما تضطهد اسرائيل العـرب المسلمين فيهـا اليوم. ويقـول الحزب المـاليزي الحـاكم أن سياسـة حزب العمـل الشعبي السنغـافوري تقضي بشن حـرب أعصـاب على شعـوب جنوب شرق آسيـا بالأسلـوب الاسرائيلي الأمـر الذي يشغلهـا في استمرار بعضها ببعض. بالطبع - يوضح أحد الخبراء الآسيويين - انه لو كان هدف لي كوان يو تأمين استقلال سنغافـورة وبقاءهـا فحسب، لكان اختـار لبنان مثـالاً، أو حتى هونغ كونغ، حيث التعايش الحر بين الشعوب والعـروق والملل - بـل حتى الدول - عـلى اتمه. لكن لي كان يريد تعـايشاً وفق أهـوائه وبمـواصفاتـه. تعايشـاً بشروطه في دولـة انضباطية عسكـرية متفـوقة. الا أن ثمـة من يقول - من يسـار حزب لي - ان اختيـاره اسرائيل مثالاً لبلاده، بدلاً من سويسرا او فنلندا، مرده أيضاً الى الفـوائد الاقتصـادية التي تترتب على هـذا الاختيار. فبفضلـه وجد فـرصة للتعـاطف مع اليهـود في مختلف أنحاء العالم، خصوصاً يهـود الولايـات المتحدة، ولاغـرائهم بالتـوظيف في سنغافـورة، وكانت لذلك نتائج ايجابية.

واذا كـان جيران سنغـافورة وجـدوا في اختيارهـا اسرائيـل نـوعـاً من التحـدي، فـإن استراتيجيتها العسكرية كانت تهديداً عسكرياً مباشراً لهم. ذلك ان سنغافورة قررت أن تركز في اختياراتها العسكرية على سلاح الدبابات، ولاحظ المراقبـون أن الدبـابات التي اشتـرتها (من اسرائيـل) هـي من نـوع «أ. أم. اكس - ١٢» الفـرنسيـة الخفيفـة التي تستطيع أن تعبر ممر جاهور البحري في سهولة الى البـر الماليـزي. ولم تسكت ماليـزيا على هذا الأمر. فخلال المناورات التي أجرتهـا الدول الخمس الأعضـاء في «منظمة دول جنوب شرق آسيا» (اسيان) في العام ١٩٧٠، وفي كل مناورة بعدها، رفضت ماليزيـا أن تسمح لسنغافورة (العصفور في المنظمة) بأن تعبر دباباتها ممر جاهور، وحجتها أن هذه تريد أن تمتحن قدرة الدبابات، مع وحداتها العسكرية الأخرى، على غزو ماليزيـا تحت ستار المناورات. وبـالاضافـة الى الدبـابات، كـان سلاح الطـيران السنغافـوري المجهز بطائرات هوكر هنتر وسكاي هوك والمدرب تدريبياً اسرائيلياً من الأسلحة التي تفخـر بها سنغـافورة الى جـانب البحريـة الصاروخيـة الاسرائيليـة الصنـع التي تمتلكهـا والتي اعتبرتها أندونيسيا موجهة ضدها بالذات. كل هذا لم يترك مجالاً للشك في هويـة أعداء سنغافورة.

من هنا فإن سنغافورة اختارت أن تلعب دوراً ثانوياً في منظمـة «اسيان»، التي مـا تزال أهم وسـائل التعـاون في المنطقة. وقـد تألفت في العـام ١٩٦٧ من ماليـزيا وأنـدونيسيا

بـالانتماء الى وطن اسمـه سنغافـورة، وان يكن هـذا الخليط العجيب يحتـاج الى جيـل بكامله حتى تزول الحواجز العرقية ويتم الانصهار الوطني في شكل لا يقبل الكسر.

وتكونت لدى سنغافورة، انطلاقاً من هذا الخليط البشري الذي يسكنها، وعلى أثر طردها من اتحاد ماليزيا، «عقدة اسرائيل». فالصينيون السنغافوريون تتحكم فيهم عقدة تعـال وعظمـة، مردهـا الى سلسلة النجـاحات الاقتصـادية والسيـاسية التي حققـوهـا، وهم يتطلعون من خلالهـا باحتقـار الى سكان البـلاد الأصليين عبـر المضيق في ماليـزيا، الى جانب شعورهم بانهم دولة صغيرة محاطة ببحر من الأعـداء تعيش من ذكائهـا وقوتهـا فقط. وكـان القصـد من اختيـار لي كـوان يـو اسرائيـل مثـالاً يحتـذى، الايحـاء الى السنغافوريين بأن ظهرهم الى الحائط وأن معركتهم للبقاء بلداً مستقلاً كمعركة اسرائيل مع العرب. وهو كان يستهدف في الدرجة الأولى الضغط على المواطنين لتقـديم تضحيات معينة ومستمرة، قد لا يوفرها اعتماد المثل السويسري، كما كـان يتمنى أكثر المـراقبين المعنيين باستقرار جنوب شرق آسيا وسلامتـه، فيتعلم السنغافـوريون من سـويسرا فن التعايش بين الشعوب المختلفة اللغات والجنسيات، بمقدار ما يتعلمون فن البقاء والطفو على سطح الأحداث في عالم السياسة والاقتصاد المعقد.

ولعل الذي كرس نهائياً انفصال سنغافورة عن بقية دول جنوب شرق آسيا، والعزلة التي تعاني منها اليوم، اختيارها اسرائيل مثالاً تبني على أسـاسه أمـة، وهذا الاختيـار كان متعمداً وعلنياً، وإن تكن الأوساط السياسيـة في سنغافـورة تنفي ذلك اليـوم، بعد تغـير الظـروف. ففي تشرين الأول عام ١٩٦٧، وكـانت آثار حـرب حزيـران ما تـزال ماثلة، واسرائيل في قمة غطرستها وأمجـادها العسكـرية، وقف لي كـوان يو في اجتمـاع مؤتمر الأحزاب الاشتراكية الدولية في زوريخ وقال: «لقد قمنـا بدراسـة لنرى مـا يمكن للدول الصغيرة المحاطـة بجيران كبـار والمكتظة بـالسكان أن تعملـه لتعيش ولتبقى. وساقتنـا الـدراسة الى مقـارنة ثـلاثة مجتمعـات متلاصقـة ومتضـامنـة هي: سـويسرا، فنلنـدا واسرائيل. وقد اختارت سنغافورة في النهاية النموذج الاسرائيلي، لأنه في وضـع كوضعنـا يبدو من الضروري تدريب كـل ولد وكـل بنت على الانضبـاط كعامـل فعال وأسـاسي في الدفاع عن البلاد».

ومنذ ذلك الوقت والخبراء الاسرائيليون باتـوا جزءاً لا يتجـزأ من «صورة» سنغـافورة، مهما حاول السنغافوريون تمويهه واخفاءه. وكـانت تلك المحـاولة من افشـل ما قـام به السنغـافوريـون الأذكياء. فقـد وصل في نهـايـة عـام ١٩٦٧ عـدد كبـير من الضبـاط الاسرائيليين لتدريب قوات سنغافورة المسلحة والتدريس في كليتها الحربية. وكـان هناك اتفاق مكتوب على الا يعلن أي من البلدين رسمياً وجود خبراء اسرائيليين في سنغافورة، حتى انـه عنـدمـا وصلت الـدفعـة الأولى من هؤلاء سمـوا رسميـاً «خبـراء زراعيـين مكسيكيـين». ويشير السنغـافوريـون اليوم اليهم عـلى أنهم «مكسيكيـون» تفـاديـاً لأي احراج.

وبالطبع كان اختيار سنغافورة للاسرائيليين عملية فيها تحد وتحريض سيـاسي بالنسبـة

الى جيرانها، اذ اعتبرت المواجهة بين الصينيين فيها وغير الصينيين في البلدان المجاورة كالمواجهة بين العرب واسرائيل، فضلاً عن انها أوحت بانتقال «العداء الديني» من الشرق الأوسط الى جنوب شرق آسيا. لقد كان في وجود الاسرائيليين شيء من «الاهانة العاطفية» لجيران سنغافورة المسلمين.

وكانت ردة فعل ماليزيا وأندونيسيا على الوجود الاسرائيلي في سنغافورة، اتهام لي كوان يو بمحاولة اقامة دولة كاسرائيل من أجل اضطهاد الماليزيين والاندونيسيين المسلمين المقيمين في الجزيرة، كما تضطهد اسرائيل العرب المسلمين فيها اليوم. ويقول الحزب الماليزي الحاكم أن سياسة حزب العمل الشعبي السنغافوري تقضي بشن حرب أعصاب على شعوب جنوب شرق آسيا بالأسلوب الاسرائيلي الأمر الذي يشغلها في استمرار بعضها ببعض. بالطبع ـ يوضح أحد الخبراء الآسيويين ـ انه لو كان هدف لي كوان يو تأمين استقلال سنغافورة وبقاءها فحسب، لكان اختار لبنان مثالاً، أو حتى هونغ كونغ، حيث التعايش الحر بين الشعوب والعروق والملل ـ بل حتى الدول ـ على أتمه. لكن لي كان يريد تعايشاً وفق أهوائه وبمواصفاته. تعايشاً بشروطه في دولة انضباطية عسكرية متفوقة. الا أن ثمة من يقول ـ من يسار حزب لي ـ ان اختياره اسرائيل مثالاً لبلاده، بدلاً من سويسرا أو فنلندا، مرده أيضاً الى الفوائد الاقتصادية التي تترتب على هذا الاختيار. فبفضله وجد فرصة للتعاطف مع اليهود في مختلف أنحاء العالم، خصوصاً يهود الولايات المتحدة، ولاغرائهم بالتوظيف في سنغافورة، وكانت لذلك نتائج ايجابية.

واذا كان جيران سنغافورة وجدوا في اختيارها اسرائيل نوعاً من التحدي، فإن استراتيجيتها العسكرية كانت تهديداً عسكرياً مباشراً لهم. ذلك أن سنغافورة قررت أن تركز في اختياراتها العسكرية على سلاح الدبابات، ولاحظ المراقبون أن الدبابات التي اشترتها (من اسرائيل) هي من نوع «أ. ام. اكس ـ ١٣» الفرنسية الخفيفة التي تستطيع أن تعبر ممر جاهور البحري في سهولة الى البر الماليزي. ولم تسكت ماليزيا على هذا الأمر. فخلال المناورات التي أجرتها الدول الخمس الأعضاء في «منظمة دول جنوب شرق آسيا» (اسيان) في العام ١٩٧٠، وفي كل مناورة بعدها، رفضت ماليزيا أن تسمح لسنغافورة (العصفور في المنظمة) بأن تعبر دباباتها ممر جاهور، وحجتها أن هذه تريد أن تمتحن قدرة الدبابات، مع وحداتها العسكرية الأخرى، على غزو ماليزيا تحت ستار المناورات. وبالاضافة الى الدبابات، كان سلاح الطيران السنغافوري المجهز بطائرات هوكر هنتر وسكاي هوك والمدرب تدريباً اسرائيلياً من الأسلحة التي تفخر بها سنغافورة الى جانب البحرية الصاروخية الاسرائيلية الصنع التي تمتلكها والتي اعتبرتها أندونيسيا موجهة ضدها بالذات. كل هذا لم يترك مجالاً للشك في هوية أعداء سنغافورة.

من هنا فإن سنغافورة اختارت أن تلعب دوراً ثانوياً في منظمة «اسيان»، التي ما تزال أهم وسائل التعاون في المنطقة. وقد تألفت في العام ١٩٦٧ من ماليزيا وأندونيسيا

وسنغافورة وتايلند والفيليبين، لكنها لم تتطور مكتفية بمشاريع ضخمة على الورق. ولم يخف لي كوان يو تخوفه من جيرانه مبرراً ابتعاده عن المنظمة بقوله: «اذا كان جيراني يريدون ايذائي اقتصادياً، فكيف تريدونني أن اقتنع بأنهم يريدون الدفاع عني عسكرياً. أليس هذا هراء؟ لو كانت سنغافورة مقتنعة بالنيات الحسنة لجيرانها لتعاونت واياهم في سبيل المصلحة المشتركة. بالطبع نريد أن يكون جيراننا أقوياء ومزدهرين، ولكن من أجل أي هدف؟ حتى يأكلوني بعد عشرين سنة؟». وهكذا قرر لي أن يتغدى جيرانه قبل أن يتعشوه. فجعل عدد قواته المسلحة ١٥٠ الف رجل، معتمداً التجنيد الاجباري على الطريقة الاسرائيلية للمواطنين بين سن الـ ١٨ والـ ٤٠، الى جانب ١٠ آلاف شرطي.

على أن حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣ غيرت الكثير. فالخبراء الاسرائيليون اختفوا فجأة واستبدلوا بخبراء صينيين من تايوان وخشيت سنغافورة الغضب العربي، وهي التي تمتلك أكبر مصفاة للنفط في آسيا بعد عبادان؛ خافت من حصار النفط العربي، كما خاف لي كوان يو أن يبدأ القصاص وتستحق الفواتير. كان همه أن يستمر مرفأ سنغافورة، وهو خامس أكبر مرفأ في العالم بعد لندن ونيويورك وامستردام وسيدني، في العمل. فحياة الجزيرة كلها متوقفة عليه، ونجاحها الاقتصادي الذي قام على الموقع الجغرافي والانتهازية الاقتصادية، متوقف أيضاً على استمرار أعمال المنطقة الحرة فيه من صيانة وصناعة وإعادة تصدير وخدمات سياحية. إذ لا زراعة في سنغافورة ولا معادن ولا حيوان. حتى الماء تستورده من ماليزيا. فإذا توقف النفط العربي تتوقف الحياة وتنهار استثمارات شركات النفط الأميركية والبريطانية واليابانية والأوسترالية والايطالية التي تبلغ يومياً مليوناً ونصف مليون دولار. ان المصفاة الضخمة التي ينتظر أن تصبح اكبر مصفاة في العالم اذا اكتشف النفط في بحر جنوب الصين، قد يعلوها الصدأ اذا توقف النفط العربي. فكان أن خرج الخبراء الاسرائيليون بمثل الهدوء الذي دخلوا به. كل ذلك خلال أشهر. إنما بقيت العقلية الاسرائيلية وعقدة التفوق تحدياً يومياً تمارسه سنغافورة ضد كل جيرانها في جنوب شرق آسيا.

ان هذه الجزيرة الصغيرة مكان يستحق المراقبة العربية المستمرة.

سنغافورة - (١٩٧٤/٧/١١)



في موت الحمامة الصغيرة

كمـا يجب أن تكون المـأساة، وكمـا يجب للبطل أن يمـوت، توقف قلب الـرجل النحيـل لال بهادور شـاستري رئيس وزراء الهنـد الـراحـل في اللحظة الحرجة.

فـالبطل ـ في الاسطـورة وفي التراجيديا عبـر التـاريـخ ـ لا يمـوت الا واقفـاً. ومـات شاستري، وهو الرجـل الصغير، عـلى قمة هـرم ضـخم من السلام. لقـد تسلقه خطـوة خطوة، بصبر وحنكة وتفهم وادراك وعناية. لقد كانت القمة طموحه. وانهار ساعة وصل اليها.

فقد كان القدر يريده أن يموت كالحمامة البيضاء، وقد تعب جانحـاها من التحليق بعـد أن أوصلت غصن الزيتون الى ذلك الفلك الطافي على سطح الحرب والدمار في العالم. لقد سقط غصن الزيتون على القمة، وحمل بشارته الى الدنيا. وماتت الحمامة البيضاء.

وهكذا كانت المأساة. فـالبطل النحيـل الصغير، وقـد استطاع أن ينمـو مع الاسطـورة الأخرى التي ورثها، والتي اسمها جواهر لال نهرو، استطاع أيضاً في مـدى تسعة عشر شهراً أن يكون عند حسن ظنها، اميناً على تراثها، وفياً لمبادئها، ونداً كفوأً لها.

لم يكن ارث نهرو بالشيء السهل لرجل كشاستري، لم يغادر أرض الهند مرة واحـدة في حياته عندما تسلم مقاليد الحكم في ذلك البلد الكبير. فالفاجعة بنهرو كانت أكبـر من أن تستوعبها كلمة تخنق على المدارج وفي الندوات العالمية. وتسلل الرجـل النحيل من بـين دموع الفاجعة ليقود حرباً ويبني سلاماً ويرفع علمـاً على بطـاح الخلافـات الأزلية بـين بلده والباكستان.

لم يكن الطريق الى طشقند سهلاً. ولكن شاستري مشاهـا، كخطى كتبت عليه. ولم تكن

نهاية طشقند التي حملت الأمل الأقوى للسلام في شبه القارة الهندية، أكثر من طموح متفائل حققته دولتان. ولكن نهاية الطريق، في منعطف طشقند، كانت نهاية الرجل الذي مات في أرض غير هندية، وهو الذي لم يعرف إلا الهند.

وكأنه قيض للهند أن تفجع بالكبار. من غاندي الى نهرو وحتى شاستري. صف طويل من القادة، الذين لم يكن موتهم عادياً، ولم تكن حياتهم الا هرولة بالمشاعل وقد تسلمها الواحد من الآخر. وكأنه قيض لهذه الملايين من الجموع التي احتشدت في طشقند ونيودلهي لتودع جثمان الراحل الكبير وتستقبله، أن تكون في استقباله وهو جثة مسجاة في نعش صغير بين الورود. فالأبطال الحقيقيون ـ والاسطورة تقول هكذا ـ لا يستقبلون الاستقبال الحقيقي الا وهم موتى. وقد يكون هذا أحسن ما في الموت من مفارقة!

أما الحديث عن الخسارة السياسية بشاستري، وهو حديث المعلقين اليوم، فيجب الا يتجاوز التكهن بأن ناندا، ذلك الرئيس البديل الدائم، قد ورث الارث ارثين، إنما ورثه سليماً معافى من طشقند. والخسارة السياسية الحقيقية تضيع في قدرة الهند المذهلة والدائمة على خلق رجل رابع في صف غاندي ونهرو وشاستري.

وفي هذا ـ ربما ـ العزاء الحقيقي.

بيروت ـ (١٩٦٦/١/١٢)

بعد قرع الطبول

بعيداً عن قرع الطبول الحزينة، ونعيق البوق، ومآتم الدموع الكبير في نيودلهي. بل بعيداً عن رائحة البخور الذي ارتفع مع تراتيل الكهنة فوق جثمان لال بهادور شاستري من فوق منصة الصندل وهي تحترق. حتى بعيداً عن الرجل النحيل الذي أسر قلب الهند في أقل من عامين. فكل هذا قد بات اليوم ملك التاريخ. ليبقى المستقبل وحده ملك الهند والعالم. السؤال يدور عن الرجل الذي سيختاره حزب المؤتمر الحاكم، ليمسك بخيوط هذا الشعب الكبير بنفس الأنامل واللمسات التي أمسكه بها من قبله شاستري ونهرو وغاندي.

فغولزاد يلال ناندا وزير الداخلية والرجل الثاني الدائم، الذي تولى الوزارة بشكل مماثل عندما مات نهرو، هو من الرعيل الذي عرف غاندي كنهرو، وتتلمذ على تعاليمه، وخاض معركة الاستقلال معه. فالسبعة وستون سنة التي يحملها على كاهليه، جعلت منه الرجل الذي يعرف كثيراً ويسمع كثيراً ويرى كثيراً (على الرغم من نظارتيه السميكتين) ولا يتكلم الا قليلاً.

فمن السجون البريطانية، أسس وقاد اتحاد نقابات العمال الوطني ضد اتحاد نقابات العمال الشيوعي وصرخ: أنا اشتراكي، ولكنني لست ماركسياً. ومن أيام النضال، كان يقول، انه انسان يؤمن بالحرية الفردية. واعتقل في ظرف سنة من توليه وزارة الداخلية اكثر من الف شيوعي. وعليه قد يرسو اختيار حزب المؤتمر كرئيس أصيل للوزراء، يقود الهند بعد شاستري، لا حاملاً موقتاً للأمانة.

فالسرعة التي كسب فيها شاستري قلب الهند، قد تدفع ياشونترا وتشافان وزير الدفاع ليكون أوفر المرشحين حظاً. فقد سبق لتشافان أن كسب ثقة البرلمان والشعب الهندي في حرب كشمير، لما أبداه من طريقة في معالجة الشؤون العسكرية. وتشافان كان أقرب الوزراء الى شاستري، كما كان الى جانبه في طشقند. فالاثنان والخمسون سنة، تشفع له عند الهند، كشاب صغير يتزعم أمة كبيرة لم يعد قلبها يتسع لصدمات موت الكهول.

أما أنديرا غاندي ابنة البانديت نهرو ووزيرة الأنباء، وأصغر المرشحين سناً (٤٨ سنة)، فلا تدعمها قاعدة شعبية في حزب المؤتمر، كما تدعم ولاية «ماهراشترا» تشافان، ولا نقابات عمال كما يدعم اتحاد النقابات العام ناندا. ليس وراءها الا كفاءتها وكونها ابنة زعيم الهند الكبير وحاملة لواء مبادئه. واذا اختلفت أجنحة الحزب الكثيرة، فقد تفوز المرأة بقيادة هذه الأمة على ضوء مشاعل نهرو، وفي سابقة رائعة، ليست غريبة عن الهند.

أما موراجي ديساي، الزعيم اليميني في حزب المؤتمر، والطامح المزمن للمنصب الأول، فقد يبقى ضمن حدود تأييد جناحه اليميني، متخلياً عن أصواته في اللحظة الأخيرة الى لناندا.

فعداء اليسار لناندا، وضعف مرشح اليمين قد يجرف حزب المؤتمر الى الوقوف بين انديرا غاندي وتشافان. وقد يكسب تشافان الجولة.

وتبقى المهمة الأصعب أمام الرئيس الجديد، هو ان يُنسي الهند رائحة البخور التي زكمت أنفها في أقل من عشرين شهراً، ويحمل العبء الثقيل بالبساطة والرفق والمحبة التي حمله بها شاستري. وبه ـ أو بها ـ قد يكون بداية رعيل جديد من الزعماء في الهند.

بيروت ـ (١٩٦٦/١/١٤)

البحث عن شمس صغيرة

في قصيدة لطاغور، شاعر الهند الكبير، يتساءل أحدهم: «ماذا يمكن أن يحدث عندما تغيب الشمس؟ وفي الساعة التي يحل فيها الظلام، يبقى الجميع صامتين، الى أن يقول مصباح خزفي صغير بهدوء: «اتراني، انني سأفعل كل ما في استطاعتي».

هكذا كان لال بهادور شاستري رئيس وزراء الهند الراحل، مصباح الهند الخزفي في ساعة من ساعات الظلام، وقد غابت شمس نهرو وفعل شاستري في تلك الفترة الزمنية القصيرة كل ما في استطاعته، حتى انطفأ.

وهكذا اليوم حزب المؤتمر، الذي اجتمع في نيودلهي يبحث عن مصباح خزفي صغير، ينيره، لعله يفعل ما في وسعه ليحل محل الشمس الصغيرة الشاحبة التي غابت، وأفلت من قبلها شمس أكبر وأطول. وتقدم الى المجتمعين في ظلام البحث عن خلف لشاستري في الحزب البرلماني للمؤتمر، مصابيح كبيرة وصغيرة وبقيت الشمس في أفول. شمس غاندي تطل من معارك الاستقلال، وشمس نهرو تشرق من مواقع البناء على العالم وشمس شاستري الصغيرة تغرق في مياه الكنج عند المغيب.

واذا أجل حزب المؤتمر اجتماعه في البحث عن رئيس جديد للوزراء، فلأنه كان يريد نوعاً من الاجماع حول الرجل الذي ستسلم اليه مهام الانارة. وقد دخل عامل مهم في الصراع على السلطة في حزب المؤتمر، دفع بالتأجيل دفعاً، وهو إمكانية خوض كوماراسوالي كاماراج رئيس الحزب المعركة.

فكاماراج يمثل رعيل «الرجال الكبار» في الحزب، وقد لعب دائماً دور «صانع الملوك». فهو الذي دفع حزب المؤتمر الى اختيار شاستري، وهو الذي كان يمسك الأغلبية البرلمانية بيده لنهرو. وقد لا يقبل كاماراج خوض المعركة الى النهاية اذا لم يضمن مسبقاً الاجماع عليه. وربما، قد لا يستريح كثيراً في دور «الملك».

يبقى غولزاريلال ناندا، رئيس الوزراء الموقت، الحل الوسط اذا اختلف الحزب البرلماني في اجماعه على احد. فيبقى ناندا رئيساً للوزراء حتى السنة القادمة، وهو موعد الانتخابات البرلمانية العامة. وبهذا يتيح الوقت لنفسه، حتى يثبت أقدامه في المنصب الكبير، ويتيح للآخرين في الحزب أن يتقدموا الصفوف الى المركز الأول، ويحل اشكالاً آنياً لا تستطيع الهند ان تتحمله طويلاً.

أما بروز موراجي ديساي وزير المالية، فقد كان متوقعاً. فديساي نافس شاستري على خلافة نهرو. وارتفاع اسهمه في الحزب، قد يقطع الطريق على تشافان وزير الدفاع، والمرشح الآخر القوي في المؤتمر. وكلاهما يمثلان رعيل الشباب الطموح الذي يريد أن يشق طريقاً مختلفاً في السياسة الهندية، وبأسلوب غير نهروي أو غاندي أو شاستري!

غير أن تجمع اليسار في حزب المؤتمر، ما زال يدعم ترشيح انديرا غاندي وزيرة الانباء

وابنة نهرو. وكريشنا مينون، واحد من زعماء هذا التجمع لم يخف في اجتماع الحزب حماسه لأنديرا. وربما قد أضاع عليها الفرصة في ذلك.

وهذه المرة، لن يختلف اختيار المصباح الخزفي الجديد عن كونه مقامرة أخرى في تبديد الظلام بشمس صغيرة. وعندما ينار المصباح الجديد، يبقى للشمس في الهند حساب آخر!

بيروت - (١٩٦٦/١/١٥)

بين الأب والابنة

للمرأة الأرملة التي تسلمت في الأمس مقادير الهند، حديث آخر. الأهم اليوم، هي الهند التي ورثتها ابنة نهرو، ربيبة غاندي ونضال الهند الحقيقي عبر النصف الأول من هذا القرن. فالبيت بيتها في رئاسة الوزراء.

غير أن الهند اليوم، وقد اجتازت جسر الثقة الذي تركه غياب نهرو الكبير، عبر ذلك الرجل النحيل لال بهادور شاستري الذي انتزع من قلب الهند الاسطورة التي حكمتها سبع عشرة سنة، لينتقل بها في ثمانية عشر شهراً الى وجود جديد، قد عادت لتتعلق بأهداب بيت الرجل الذي لم تستطع أن تدرك واقعية غيابه الحقيقي.

وجاءت انديرا غاندي الى رئاسة وزراء الهند، بعد أن اجتازت سابقة ديموقراطية في حزب المؤتمر، وهي اختيارها بطريق الانتخاب المباشر ضد منافس قوي، لا بطريق الاتفاق الضمني بين زعماء الحزب، كما كان يجري التقليد في الماضي، وكما اختير شاستري. فكونها ابنة نهرو، لم يشفع لها عند الكثيرين من أعضاء الحزب البرلماني للمؤتمر.

ودخلت انديرا غاندي، لتسعى ـ حسب ما جاء في أول تعليق لها بعد فوزها ـ «لخلق ما كان يسميه أبي، جو من السلام». واذا بسعيها هذا، التحدي الأكبر الذي ستواجهه. واذا جاءت السيدة غاندي الى رئاسة وزراء الهند، من بابها الواسع، وبخبرة قليلة في المناصب السياسية والوزارية، إنما تأتي بكفاءات شخصية، لم تزدها رفقة أبيها الطويلة، إلا الماماً وثقلاً واتساع افق.

فقدرة ابنة نهرو، أن تبني قوتها لوحدها فوق وراثتها العائلية، هي اليوم ايضاً على المحك. فكونها وريثة هذه الأمجاد، قد يجعلها فوق خلافات الهند الحزبية والسياسية، مستقطبة الاجماع الذي عرفه أبوها.

وإذا كانت انديرا غاندي، تقف الى اليسار من آراء أبيها، فلأنها اقرب الى ثقافة هذا العصر منه، وأصغر نظرة ومثالية الى مشاكل هذا العالم. غير أن هذا لن يضيرها بشيء. فهي تملك حرية الحركة بين يسار الحزب واقصى يمينه، كما كان يفعل نهرو من قبل، وكما استطاع شاستري أن يناور فوق سطحية خلافات الحزب خلال أشهر حكمه القصير.

ولكن المشاكل الحقيقية التي ستواجهها انديرا غاندي من فوق اتجاهات الحزب النظرية، هي علاقاتها مع الصين، والصعوبات الاقتصادية التي تعيشها الهند، والمجاعة التي تهددها، الى جانب اعتمادها على مساعدات الغرب الاقتصادية، وعلاقتها مع واشنطن، ومع موسكو التي بناها سلفها شاستري في طشقند. والأهم من هذا، البحث عن طريقة ومكان لتعايش سلمي حقيقي مع باكستان، حتى لا تكون المسيرة الى طشقند قد ذهبت عبثاً.

ولعل أمام انديرا غاندي سنة كاملة من الطريق الطويل الشاق، لتثبت أقدامها وسلطتها ولتفعل كلمتها فعلها الواضح والصحيح، قبل الانتخابات النيابية العامة القادمة. وعندئذ تكون وحدة الحزب، دافعاً قوياً لها.

واذا وجدت ابنة نهرو أن اجتياز جسر الثقة الذي بناه شاستري أصعب مما توقعت، فلأن هند انديرا غاندي، هي غير هند نهرو. والأبواب ليست كلها مشرعة في وجهها!

بيروت - (١٩٦٦/١/٢٢)

يا لها من امرأة

المرة الأخيرة التي التقيت فيها بانديرا غاندي كانت في نيودلهي في آذار عام ١٩٨٣ خلال انعقاد القمة السابعة لحركة عدم الانحياز. كانت نيودلهي هذه المدينة الحمراء المنبسطة تبدو عاصمة طبيعية للعالم الثالث. كل ما فيها كان يوحي بأنها صاحبة قلب مختلف ينبض بخفقات لا يعرفها عالم آخر. وكانت انديرا غاندي ابنة نهرو وحاملة اختامه ووريثة حكمه في اكبر ديموقراطية في العالم المعاصر، تبدو امرأة وحيدة. غاب الرجال وتغيّر الزمان واختلفت المفاهيم وازداد الاتباع، ولكنها ظلت أقوى من كل الرجال. واذا بدت انديرا في حينه امرأة وحيدة، فإنها كانت امرأة مضيئة في ظلمات عصر ما بعد الانحياز.

كانت هي وفيديل كاسترو النجمين المتألقين في سماء نيودلهي الزرقاء الصافية. انديرا كانت تحمل هدوء وصفاء وايمان حركة عدم الانحياز. وكاسترو كان يضيء بحيوية عجيبة طريق الثورة الدؤوب لأكثر الدول الحديثة العهد بالاستقلال اليوم. انديرا بـ : ساريها الأنيق وشعرها الذي خططه الشيب كانت تمثل عدم الانحياز بشكله التقليدي ومبادئه الأساسية. وكاسترو بلحيته الكثة وسيجاره الكوبي الطويل كان يمثل عدم الانحياز بشكله الثوري وبالحياد غير الخجول.

كانت هذه صورتي الأخيرة عنها. وفيما كنت انتظر موعدي معها، أخذت أبحث عمن يعرف انديرا غاندي جيداً ليحدثني عنها. وجدت ضالتي في سياسي هندي مخضرم، عمل مع أبيها جواهر لال نهرو سنوات طويلة وعرفها فتاة يافعة وطفلة صغيرة. وظل قريباً منها يشير عليها عندما تطلب منه ذلك، من دون أن يكون أحد شركائها في الحكم. وقد تقاعد اليوم من العمل السياسي المباشر ليتفرغ للصحافة والكتابة بعد موت صديقه وزميله لال بهادور شاستري رئيس وزراء الهند الذي خلف نهرو لأشهر قليلة قبل أن يرحل. وظلت العلاقة ممتازة بين رجل الرعيل الأول هذا وبين انديرا زعيمة الرعيل الثاني. كل منهما يحافظ على مسافة مع الآخر.

اذكر انه استقبلني في منزله المتواضع المكوّن من طابق واحد وحديقة واسعة امامه وأنا برفقة زميل هندي. وجلسنا في الحديقة وفناجين الشاي الهندي تروح وتجيء قبل أن يبدأ تقييمه لانديرا. ولا يمكنني الا أن اذكر كم أنا مدين لهذا السياسي الهندي المخضرم برسمه صورة لا يمكن أن تُمحى لانديرا وشخصيتها وفكرها ومشاكلها.

كانت انديرا غاندي امرأة هندية عادية من الطبقة المتوسطة. سيدة منزل تحاول باستمرار أن تظهر عاديتها. كان من الممكن أن تكون أماً ساحرة أو صارمة أو حادة أو جامدة أو كل هذه الأمور معاً، إنما بالنسبة لامرأة صار لها في الحكم ١٦ سنة فلم تكن أبداً مدّعية. كذلك لم تكن قوية والا لما احتاجت ان تعمل بكل هذا الجلد. هذا لا يعني أنها كانت ضعيفة الشخصية او أن حكمها السياسي كان غير قوي، إنما ليست قوية، بمعنى أنها لا تستطيع أن تفعل ما تشاء سياسياً.

في الواقع لم تكن انديرا امـرأة عاديـة. فقد حكمت ٧٠٠ مليـون نسمة بنظـام برلـماني ديموقراطي حاولت أن تترك بصمـاتها عليـه. وقد حكمت أربـع دورات برلـمانية كـاملة. أبوها جواهر لال نهرو أول رئيس وزراء للهند المستقلة حكم ١٧ سنة متتالية. هي تولت هذا الارث وتحاول اليوم أن تبقيه في بيتهـا بعد مـوتها. أقـامت حلفاً استـراتيجياً مـع الاتحاد السوفيـاتي، ودعمت عدم انحيـاز الهند، وبنت قـاعدة اقتصـادية تكفـل للهند الاعتماد الذاتي وماتت.

عام ١٩٧٥ علقت الديموقراطية وأعلنت الأحكام العرفية. وأصبحت هذه القضية قضية شخصية لكل هندي. فازداد عدد المعجبين بها بقدر ما ازداد عدد الكـارهين لهـا. ومنذ أكثر من سنة عانت مشكلة سياسية عويصة في ولاية اسام، لم يخفف من حدتها انعقاد القمة السابعة لحركة عدم الانحياز في نيودلهي. وكانت تبدو متعبـة قبل القمـة الا أنها بدت وكأنها استعادت حيويتها خلالها.

مذابح اسام التي ذهب ضحيتها مئات ـ بل آلاف ـ القتلى وبعد ذلـك مواجهتهـا للسيخ في ولايـة البنجاب خـلال شهر حـزيران عـام ١٩٨٤، كانتـا الحلقة الأخيرة في سلسلة الاضطرابات الطائفية والاقليميـة التي ذكرت العـالم بأن الهنـد ما زالت دولـة متخلفة ومجزأة عرقيـاً وطائفيـاً ولغويـاً وطبقياً. وهـذا ما كـان يحز في صـدر انديـرا. وزاد في مشاكلها أن حزبها ـ حزب المؤتمر ـ كان قد فشل بانتخابات ولايتين جنوبيتـين تعتبران من المراكز التقليدية الأمينة للحزب. حتى قيل وقتها أن سحرها الشخصي قد بدأ يذبل.

تركت انديرا بيت نهرو محاصراً. وكـان الحصار يـزداد بازديـاد الكلام والـروايات عن ضعفها تجاه ولدها البكر الحي راجيف غاندي، الذي كـانت تعده لخـلافتها بعـد موت ابنها الأصغر سنجاي في حادث طائرة قبل ثلاث سنـوات. وصدق كـلام الناس. وتـولى راجيف الحكم بعد اغتيال والدته بساعات وبعد أن توّجه حزب المؤتمـر، الحاكم زعيمـاً فورياً عليه.

لكن حتى الذين يكرهونها لم يكن عندهم بديلاً لخلافتها. كانوا يقولـون أنها كـانت ذات شخصية قويـة في البيت ولكنها ضعيفـة في الحكم. لذلـك فبدلاً من أن تـواجه مشـاكل الحـزب الحقيقية كـانت تلجـأ الى الأسـاليب الصغـيرة والسطحيـة لتبعـد منـافسيهـا السياسيين عن طـريق الايقاع بينهم، حتى تؤمن الخـلافة لـولدهـا راجيف، الذي ترك وظيفته كطيار ليأخذ مكان أخيه الأصغر الذي مات عام ١٩٨٠. لقد كان مـوت سنجاي صدمة عنيفة لانديرا يقال انها لم تصح منها أبداً.

لذلك يلح السؤال الدائم في الهند، وبعد موتها بالذات، عما اذا كانت انديرا استطـاعت أن تستمر كحاكم قـوي ـ أو استطاع حكمهـا الاستمرار بشكـل حاسم ومبـدع وقوي. والسؤال اسـاسي لأن انديـرا وقد بلغت من العمـر ٦٦ سنة كـانت ألمع وأقـوى من كل منافسيها السياسيين، ولأن ابنها راجيف كان ما يزال قيد التدريب. وقـد جربت الهنـد البديل، عندما حكمت المعـارضة بـزعامـة حزب جـاناتـا بين عـام ١٩٧٧ وعام ١٩٨٠.

وكانت النتيجة كارثة على الهند، وكارثة على المعارضة بالذات التي زاد انقسامها اليوم عما كانت عليه من قبل.

ما كان يقال عن انديرا في الهند، وما يقال عنها اليوم بعد موتها، معها أو ضدها كثير. لكن انصافاً لهذه المرأة يجب القول أنه بحكم انتمائها لبيت نهرو، كان يشدها عاملان:

- **الأول**: الأوتوقراطية بحكم ممارسة بيتها للسلطة فترة طويلة.

- **والثاني**: ايمانها العميق بالديموقراطية البرلمانية. ولم تكن انديرا صانعة ملوك. لذلك ارادت أن تصنع من أحد ابنائها ملكاً وهي حية. ولم تنجح إلا بعد أن ماتت. وصناعة الحكام في الهند، وعبر تاريخها الطويل، صناعة صعبة. حتى المهاتما غاندي، أكبر شخصية عرفتها الهند، لم يكن لديه السلطة ليختار رجال الحكم. فهو لم يكن يريد نهرو رئيساً للوزراء مثلاً، وكان يقول ان نهرو لا يصلح لهذا المنصب.

ويروى عن انديرا والمهاتما غاندي، أنها عندما عرفت بمعارضة المهاتما لتولي أبيها نهرو رئاسة الوزراء قبيل الاستقلال، ذهبت انديرا الى غاندي وقالت له: «لا يحق لك أن تفعل هذا بأبي. عليك أن تترك الخيار للشعب الهندي لينتقي من يشاء». فما كان من المهاتما غاندي الا أن قال لها: «يا طفلتي الصغيرة هل تظنين انني استطيع أن أفعل ذلك. ان اباك قد اختاره الشعب وأنا لا سلطة لي على الشعب».

الناس تقول ان انديرا أرادت أن يخلفها ابنها سنجاي في الحكم، وعندما مات أرادت راجيف، لذلك عينته أميناً عاماً لحزب المؤتمر بعد أن انتخب نائباً في مجلس النواب قبل ٤ سنوات. قد يكون هذا صحيحاً. إلا أن الصحافة لعبت دوراً أساسياً في تضخيم هذا الأمر، ولا ننس بأن الهند ديموقراطية متعددة الأصوات والاتجاهات. لكن انديرا كانت تؤكد بأنها لا تريد لراجيف أن يصبح رئيساً لوزراء الهند بعدها، لأن حياة الرئاسة في رأيها حياة صعبة ومرهقة، وليس فيها حمد ولا شكور.

كان طموح انديرا أن تكون مدرسّة، وكثيراً ما كانت ترى مهمتها كرئيسة للوزراء بهذا الشكل. لقد عاشت طفولة وحيدة وقاسية. مما يفسر الكثير من تناقض مواقفها. كانت تصر دائماً على أنها ضحية سوء الفهم، من السياسيين ومن الصحافة ومن الناس. وهي لم تعش في برج عاجي كما يظن البعض بل على العكس. فقد ولدت وعاشت في بيت من زجاج يتفرج عليه كل الناس، مشكلتها انها كانت امرأة عامة، لا حياة خاصة لها خارج السياسة.

كان الناس يتحدثون عن خلافها مع كنتها مانيكا غاندي، زوجة سنجاي الجميلة، التي أخذت ابنها هارون (حفيد انديرا الذي تحبه كثيراً) من بيت حماتها أمام الملأ. وصار خلاف الكنة والحماة بين انديرا ومانيكا كقصص الأفلام الهندية. وأعلنت عن تشكيل حزب سياسي جديد مرشحة نفسها في الانتخابات المقبلة ضد سلفها راجيف. كل ما كانت تقوله انديرا عن هذا الموضوع أن ليس لمانيكا اي برنامج سياسي تتقدم به، وانه لا بد للديموقراطية أن تأخذ مجراها.

كانت انديرا تعترف أن حزب المؤتمر لم يتطور خلال السنوات الثلاثين الماضية، وقد فشل في ان يتقدم مع الزمن. لقد اصبح مترهلاً وفيه عدد كبير من الحزبيين الوصوليين والمرتشين، وان عليها أن تقوم بعملية اعادة بناء الحزب وقواعده بشكل جدي وعملي. كذلك، وفي الوقت نفسه لم تتطور احزاب المعارضة ايضاً منذ أيام ما قبل الاستقلال الى اليوم.

كانت ظنون الناس في الهند تتساءل بعد صدام انديرا والسيخ في ولاية البنجاب، واقتحام الجيش المعبد المذهب المقدس في امريستار من قبل القوات المسلحة خلال صيف عام ١٩٨٤:

هل من الممكن أن تعيد انديرا تجربة الأحكام العرفية وتعليق الدستور؟

وكان الجواب يأتي دائماً: لا. لأن انديرا لا تستطيع أن تعطي الدواء نفسه مرتين. حتى انها لم تفكر ـ كما كان يقال ـ بنظام رئاسي. ان الديموقراطية البرلمانية كما تمارسها الهند هي الحل ومنها الحل. وظل هناك سؤال آخر يراوح مكانه: كيف نفسر عدم تدخل الجيش الهندي في السياسة حتى الآن؟ هل تبقى الهند البلد الوحيد الذي حكمته بريطانيا ولم يتدخل الجيش فيه بالسياسة، أو يقم بمحاولة انقلاب؟

وكان الجواب يأتي دائماً: إن السبب بسيط. فالجيش في الهند كان عاملاً أساسياً ومشاركاً في حركة الاستقلال. لذلك يدرك الجيش انه اذا حاول الانقلاب على السلطة المدنية لا يضمن تعاون الشعب معه. وقد تعلم في ثلث القرن الأخير من فشل محاولات تدخل الجيش في السياسة في كل من باكستان وبنغلاديش، لذلك فولاء الجيش للحكومة وللنظام الديموقراطي يبقى لا شك حوله.

سجل انديرا في الحكم يجعلها فخورة بما حققته وأهم ما في هذا السجل جعل الهند دولة صناعية هي التاسعة في العالم ومن الطراز الأول تعتمد على الاكتفاء الذاتي في أكثر الميادين. وقد حاولت أنديرا في السنوات الأخيرة أن تخفف الكثير من القيود على الصناعة محاولة اجتذاب رؤوس الأموال من الخارج للاستثمار في الهند. إلا أن أهم ما يجب أن تعتز به انديرا هو استمرار الديموقراطية، والذي يجب أن يذكر انها هي التي دعت الى انتخابات عامة عام ١٩٧٧ بعد سنتين من الحكم في ظل الأحكام العرفية، من دون أن يجبرها أحد على ذلك. وخسرت الانتخابات. لقد اسقطها الشعب الهندي عقاباً لها على تخليها عن الديموقراطية، وأعادها بعد سنتين عندما اقتنع بتوبتها.

يقال أن بين انديرا والشعب الهندي علاقة خاصة وكانت انديرا تصف في مجالسها هذه العلاقة الخاصة بقولها: «كان الشعب يحب المهاتما غاندي كواحد أعلى وأسمى من الكل. وكان الشعب يحب نهرو بشيء من الاعجاب والتحفظ. أما أنا فيحبني الشعب كواحدة منه متساوية معه في كل شيء. لقد قال أكثر الناس انني انتهيت بعد فشلي في انتخابات عام ١٩٧٧. لكن الشعب اعادني الى السلطة لأنه يعتبرني واحدة منه ومن سواده الأعظم».

وفجأة، لم تعد انديرا هي الهند. لقد جندلتها سبع رصاصات في الحديقة الجميلة التي تفصل بين بيتها ومكتبها في ٣١ تشرين الأول عام ١٩٨٤. وسقطت على أرض الحديقة نفسها التي كانت تستقبل فيها ضيوفها وزوارها. كان كل هذا في الماضي، الى أن اصبحت الهند من دون مستقبل.

ولأن الهند حية الى الأبد، فإن هناك سؤالاً يتكرر دائماً في سياق تاريخها الحافل بالاضطرابات والمآسي والكوارث. كان السؤال قبل ٢٠ سنة هو: بعد نهرو، من؟ وأصبح السؤال اليوم: بعد انديرا، ماذا؟ وذلك لأن الناس لا تعرف القادم الجديد ووريث عرش أكبر امبراطورية في العالم الا أنه ابن الامبراطورة التي رحلت. لذلك تخشى أن تبقى من دون مستقبل.

لكن للمستقبل شروطاً وتحديات لا بد وان يواجهها راجيف.

التحدي الأول والأهم هو أن يفعل للهند ما فعله جده نهرو، عندما واجه مشكلة مماثلة اثر اغتيال المهاتما غاندي عام ١٩٤٨: هزيمة قوى التعصب والكراهية التي تعصف بين حقبة واخرى بشعب الهند، وذلك بالدعوة الى التعقل، لا الى الثأر. هذا يعني استعمال القوة لمنع احتمال اي مذابح بين الهندوس والسيخ. اي تحديداً: حل مشكلة البنجاب بأسلوب مختلف عن الأسلوب الذي اتبعته امه، وعن طريق البحث عن أسباب وجذور مشكلة العنف مع السيخ، لا عن طريق مواجهة نتائج هذا العنف فقط.

التحدي الثاني والمهم هو أن يطمئن الهند فوراً، وبشتى الوسائل والطرق، أن الديموقراطية باقية وانه لن يدخلها خلل ولن يجري تعطيل لها ولا ارهاب فيها ولا تخويف منها ولا تمنع عنها. وهذا يعني التأكيد الفوري على أن الانتخابات البرلمانية العامة ستجري في موعدها المحدد قبل ١٩ كانون الثاني عام ١٩٨٥.

التحدي الثالث هو أن يستمع رئيس وزراء الهند الناشيء الى الانتقادات التي كانت توجه الى امه، وأن يحيط نفسه بمجموعة من المستشارين والوزراء ذوي الكفاءة والخبرة والكرامة والعفة ونظافة الكف، بدلاً من مجموعة المنافقين والمرتشين ومتسلقي السلطة الذين سيجد منهم الكثيرين حوله هذه الأيام، والذين لا بد أن يرث بعضهم من أيام حكم أمه. وبالتالي أن لا يفرض حوله عزلة شبيهة بعزلة انديرا بالابتعاد عن العقول الخلاقة مستبدلاً اياها بعقول مسايرة.

التحدي الرابع هو أن يخفف قبضة الحكم المركزي من نيودلهي، معيداً الى الهند طبيعتها الفدرالية بما يكفل لكل المقاطعات الهندية حرية التحرك، وأن يعيد لحزب المؤتمر دوره كحزب لعموم الهند، لا أداة شخصية لسلطة بيت نهرو، بحيث يعيد التوازن الى الديموقراطية الهندية ويمنع اي احتمالات للبلقنة، التي تهدد الهند عن طريق النعرات الطائفية والطموحات الاقليمية بالاستقلال عن طريق الاستغلال السياسي من خارج الحدود.

التحدي الخامس هو علاقات الهند مع الدول الكبرى، والاتحاد السوفياتي تحديداً. والعلاقات التي بنتها انديرا غاندي مع موسكو لم تكن حباً واعجاباً بالسوفيات فقط، وإن كانت التجربة الاقتصادية السوفياتية قد أغرتها كثيراً. لكن اعتزازها وفخرها بكون الهند اكبر ديموقراطية في العالم ظل الأرجح لديها. لكنها ظلت موزعة العواطف بين التجربتين. والعلاقة الهندية ـ السوفياتية علاقة أساسية وعضوية بالنسبة للجيرة الجغرافية. كذلك العلاقة مع الصين التي صادفت تحسناً كبيراً في السنوات الثلاث الأخيرة.

التحدي السادس هو موقف الهند من جيرانها الأساسيين باكستان وبنغلادش وسريلانكا، وخاصة بعد أن اضاعت انديرا فرصة قيام بنغلادش بعد الحرب مع باكستان عام ١٩٧٠، بوضع أسس ثابتة لعلاقاتها. فبدلاً من أن تمد الهند يد الصداقة الى هذه الدول، بعد أن زال التهديد العسكري الذي كانت تشكله باكستان، استمرت انديرا في السياسة العدائية التقليدية التي ورثتها عن مرارة مذابح الاستقلال وحروب السنوات التي تلتها. واليوم، يحتاج راجيف الى كل النوايا الحسنة التي يمكن أن يحظى بها من جيرانه لمنع اي امكانية لتحريض القوميات والطوائف الهندية من احتمال الانفصال عن الهند. فالبلقنة هي الخطر الأعظم الذي يواجهه والهند هي الارث الأكبر المدعو للمحافظة عليه. فكما حافظت أمه على وحدة الهند عندما هددت، على راجيف، أن يحافظ عليها اليوم وهي تواجه تهديداً أكبر.

امام هذه التحديات الستة التي تهدد الهند من ان تبقى دون مستقبل لا استطيع أن انسى المرة الأخيرة التي رأيت فيها انديرا تقف في ذلك المؤتمر لتقول:

«إن الحقيقة واحدة، لكن الحكماء يرونها بطرق شتى (...) لذلك لا نستطيع أن نبجل حقاً ديننا إلا اذا بجلنا بنفس القدر أديان الآخرين».

وعندما أرادت أن تعرف عن نفسها قالت:

«في عالم مجزأ الى مراكز قوى، أنا انتمي الى عالم عدم الانحياز. وفي عالم يسيطر عليه الأغنياء، انا من دولة فقيرة نامية. وفي عالم يحتكره ويسيطر عليه الرجال أنا امرأة».

يا لها من امرأة!

لندن ـ (١٩٨٤/١١/١٠)

أخلاق الغزاة

المسرحية الأفغانية لم تبدأ اليوم. قليل من التاريخ قد ينعش بعض ما في الذاكرة. لنتذكر ونحن نعترض على الغزو السوفياتي لأفغانستان، وهو أمر يهدد بلا شك أمن المنطقة العربية والخليج العربي بالذات، انه سبق لهذه المسرحية ان عرضت قبل حوالي مئة وخمسين سنة، وأن الممثلين أنفسهم قد قاموا بالأدوار نفسها، انما بشكل معكوس.

رحم الله الاسكندر المقدوني الكبير الذي كان اول من غزا افغانستان فاتحاً أعين العالم على امكانية ـ وفي الوقت نفسه ـ استحالة هكذا عمل في المدى الطويل. ومنذ أيام الاسكندر الكبير الى العام ١٨٣٩، نسي العالم افغانستان. حتى نمت وترعرعت الامبراطورية البريطانية في الهند. فقامت بريطانيا في تلك السنة بغزو افغانستان متعللة بالأسباب نفسها التي يعلل بها الاتحاد السوفياتي غزوه اليوم، ومبدية المخاوف نفسها التي تبديها اليوم دفاعاً عن الامبراطورية غير الموجودة، وخوفاً من الدب الروسي المطل من وراء الجبال الأفغانية طامعاً بالوصول الى حدود المياه الدافئة.

دخلت بريطانيا افغانستان عام ١٨٣٩ لتقلب حاكمها دوست محمد، وتستبدله بصنيعة لها اسمه شاه شاجا، بالطريقة نفسها التي دخل بها الاتحاد السوفياتي افغانستان مستبدلاً حفيظ الله امين بببراك كرمل، قبل أن يسبقه غيره ويستبدله بصنيعة ليست له. الفرق حتى الآن هو أن بريطانيا قد هزمت هزيمة منكرة في تلك السنة، ولم يبق إلا فرد واحد من أفراد الحملة البريطانية حياً، عاد إلى الهند ليروي الحكاية. ولم تتعلم بريطانيا الدرس، فقد عاد الدب الروسي ليطل من فوق الجبال الأفغانية بحثاً عن الدفء من الثلوج المحاط بها. وعادت بريطانيا ثانية عام ١٨٧٨ بحملة عسكرية ثانية جردتها ضد كابول، متذرعة بالأعذار نفسها التي تبديها موسكو اليوم.

الأعذار التي كانت مطروحة بالأمس، وفي منتهى البساطة، اليوم وغداً، هي أن القوى الاستعمارية المناوئة لبعضها البعض تحاول أن تأكل من حدود ونفوذ امبراطورياتها المتصارعة. وقد كتب التاريخ على افغانستان أن تكون «دولة عازلة» بين الامبراطوريات، أحبت ذلك أم كرهته. تاريخها كله قائم على ذلك، منذ أيام القيصر اسكندر الثاني والملكة فيكتوريا إلى أيام ليونيد بريجنيف وجيمي كارتر. فالعصر القيصري ـ الفيكتوري يعيد نفسه اليوم في العصر الماركسي ـ الرأسمالي، أو عصر الوفاق الأميركي ـ السوفياتي. كل ما كانت تطمح إليه افغانستان ـ قديماً وحديثاً ـ هو أن تبقى حرة في جبالها ووديانها وممراتها وقبائلها وعاداتها وإسلامها. إلا أن قدر التاريخ شاء أن تكون الجوزة بين فكي الكسارة.

في الحرب الأفغانية الثانية، استطاعت بريطانيا أن تحتل كابول وتستولي على المناطق التي تصل البلاد بممر خيبر وتسيطر على الأوضاع الأفغانية مقابل اعانة سنوية قدرها ١٦٠ ألف جنيه استرليني. وفي تلك الأيام بدأت «اللعبة الكبرى» كما سماها الكاتب الانكليزي والشاعر الاستعماري الشهير روديارد كيلينغ، بين القوى العظمى المتصارعة على حدود الهند وفي مياه محيطها. وما زالت «اللعبة الكبرى» تتكرر عقداً إثر عقد. تغير اللاعبون ولم تتغير اللعبة.

الضجيج الذي افتعلته أميركا ومعها العالم الغربي منذ عيد الميلاد حتى اليوم، لأن الدب الروسي قد سبق النسر الأميركي في الانقضاض على الغنيمة التي اسمها افغانستان، ولمجرد أن النسر الأميركي قد أصبح فاقد الارادة مترهلاً منذ الحرب الفيتنامية، ولأن الدب الروسي أكثر إقداماً وجرأة على ما يريده من جيرانه وحلفائه، وفي ما يبتغيه من مناطق نفوذ في العالم. ومن المؤسف أن الغنيمة الأفغانية ظلت ملقاة على حدودها منذ الحرب العالمية الثانية من دون أن تكترث لها الولايات المتحدة ومعها حلفاؤها الغربيون. ولما تحرك الاتحاد السوفياتي ـ وكان تحركه تدريجياً طوال العشرين سنة الأخيرة ـ قامت قيامة أميركا وكأنها صحت صحوتها الأخيرة لتمسك بتلابيب ما فقدته سلفاً.

ولعل من المضحك أن اللورد كارينغتون وزير الخارجية البريطانية الذي زار الشرق الأوسط منذ أيام، بما في ذلك السعودية وعمان، يقول: «ان الاتحاد السوفياتي قد استعمل قواته (في غزو افغانستان) للمرة الأولى خارج أوروبا» ـ تدليلاً منه على خطورة هذه السابقة السوفياتية.

ترى هل نسي اللورد كارينغتون كم مرة استعملت بلاده القوات البريطانية خارج أوروبا؟.. في أفريقيا، في الصين، في جنوب شرق آسيا، في أميركا الجنوبية (في بليز) حتى اليوم... هذا إذا تناسينا أحداث روديسيا الحالية. وهل نسي الرئيس الأميركي كارتر فيتنام وكمبوديا وكوريا؟ وهل نسيت مارغريت تاتشر ما فعله سلفها الصالح وزعيم حزبها الأسبق انطوني ايدن في السويس عام ١٩٥٦؟ بل هل نسيت افغانستان نفسها التي بدأنا بسرد حكايتها؟

ما أضعف ذاكرة الحكام!

مع قليل من التاريخ، لا بد من قدر من السذاجة السياسية. ولعل أسوأ ما في الضجيج حول افغانستان هو الطرح الأخلاقي للقضية من قبل الدول الغربية، التي تدعي اتخاذه، ويدفع ثمنه عادة الصغار من افغان وعرب وأكراد وبلوش وفرس وسواهم وسواهم وسواهم. وعبر التاريخ كان الوعظ الأخلاقي للدول الكبرى مرتبطاً بمصالحها ارتباطاً مباشراً. وإلا فكيف يقف هارولد براون وزير الدفاع الأميركي في بكين ليقول أمام الملا: «لقد حان الوقت للعب ورقة الصين». سبحان الله. ما أخطرها من لعبة! أميركا مع الصين ضد روسيا. ولا أحد منا ـ نحن أصحاب المنطقة العربية التي تخاف علينا الدول الغربية من الغزو الشيوعي عبر افغانستان ـ يقف ليتساءل ما ثمن كل ذلك؟

الحروب ـ بعضها على الأقل ـ لها أهداف أخلاقية، أو وطنية. الحرب العالمية الثانية كانت للقضاء على العقيدتين النازية والفاشية اللتين كان الحلفاء يرون فيهما «مواقف لا أخلاقية» ضد الأجناس والأفراد والبشر والمعتقدات. حروب التحرير في مجملها، دائماً هي من أجل السيادة والاستقلال والتحرر. في حروب التحرير دائماً مواقف أخلاقية. أو هكذا يجب، إلا الحرب الأفغانية الثالثة التي تدور رحاها اليوم بين الاتحاد السوفياتي من جهة والولايات المتحدة وحلفائها من جهة أخرى. أما الأفغانيون فهم رهائن هذه الحرب يدفعون الثمن يوماً بعد يوم. الحرب الأفغانية وحدها وبوضوح، هي حرب مغانم الحدود الاستراتيجية. لا المقاطعة الأميركية الاقتصادية لروسيا، ولا وقف شحنات القمح، ولا إقفال القنصليات سينقذ افغانستان. وستبقى موسكو في كابول لسنوات وسنوات طوال، مثلما بقيت لندن هناك لسنوات أطول من الزمان القديم. ربما لأن أقدار التاريخ قد كتبت لأفغانستان أن تبقى دولة عازلة.

وإذا كان الاتحاد السوفياتي قد أثار العالم وأغضب الغرب في افغانستان اليوم بقدر ما أثاره وأغضبه يوم دخلت دباباته بودابست وقمعت ثورة المجر عام ١٩٥٦. أو يوم احتل تشيكوسلوفاكيا وأنهى ربيع براغ عام ١٩٦٨ وقضى على تجربة «الشيوعية ذات الوجه الإنساني»، فذلك ليس المفاجأة. المفاجأة هي أنه فاجأ الغرب فاضحاً العجز الأميركي ـ الغربي عسكرياً وديبلوماسياً. مضحياً بالوفاق وباتفاقات نزع السلاح وبسياسة التقارب. ان الدفء في العلاقات لم يعد مفيداً للاتحاد السوفياتي. اذن، ليعد إلى البرد، حتى ولو كان حرباً.

والولايات المتحدة أثارت العالم أيضاً، وأغضبت موسكو وحلفاءها يوم قصفت كمبوديا وفيتنام الشمالية. لكنها هزمت في النهاية. ولأنها هزمت فهي تريد أن تدين الاتحاد السوفياتي اليوم في المواقع الآسيوية التي أدينت منها في السابق وهزمت على بطاحها. ولأن موسكو قد سبقت واشنطن إلى المغانم الأفغانية، مؤكدة الضعف الأميركي ـ الغربي، فقد علا الصياح الذي نسمعه في العالم اليوم. ولأن ما يحدث في افغانستان

اليوم هو حرب المغانم الحدودية والجغرافيا السياسية من دون أي ثورية أخلاقية، فنحن نسمع صياح وزعيق الغرب باسم مبادىء الأمم المتحدة ودفاعاً عن دولة صغيرة من دول العالم الثالث التي لم تكترث لها أميركا طوال تاريخها.

لنحدد بهدوء لماذا يستصرخ الغرب العالم دفاعاً عن افغانستان. من أجل: ما تبقى من هيبة وكرامة أميركا والغرب. من أجل النفط الذي يخاف عليه الغرب من الرياح السوفياتية الآتية من الشمال. من أجل انتخابات الرئاسة الأميركية المقبلة. من أجل التأثير على معركة الخلافة المؤجلة في موسكو بعد رحيل بريجنيف المنتظر من رئاسة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الكرملين. وهناك في آخر آخر آخر القائمة ـ من أجل افغانستان وشعبها وتقاليدها.

قطعاً، لا يستصرخ الغرب العالم دفاعاً عن ضياء الحق في باكستان، ولا حباً بآيات الله المشتتين في ايران ورهائنهم الأميركيين، ولا اعجاباً بسمو حكام ومشايخ وأمراء الخليج من الفجيرة إلى...

لنتذكر بعض هذا قبل أن يبتلعنا ضجيج العالم المفتعل.

لندن ـ (١٩٨٠/١/١٩)


أفريقيا



نكروما

الفشل العظيم

«أوساغيفو، أوساغيفو، أوساغيفو».

ولم يعد «المخلص»، مخلصاً، ولا «المسيح الجديد» مسيحاً، ولا «البنّاء العظيم» بنّاءً. لقد تحطمت الأسطورة في الطريق إلى بكين، ووزعت حجارتها من التمثال البرونزي الضخم الذي كان يطل من ساحة البرلمان على الشعب، وركض به الناس في شوارع اكرا، وكأنه تعويذة من تعاويذ الساحر الكبير.

وهكذا سقط الدكتور كوامي نكروما، بعد تسع سنوات من حكم غانا، أول دولة في افريقيا الغربية عرفت معنى الاستقلال الحقيقي، وأول زعيم سيّر رياح التغيير في افريقيا. وإذا بسقوطه، أكبر تحول في تاريخ القارة الافريقية منذ بداية الحركات الاستقلالية فيها، وتخلي الاستعمار عن مراكز القوة شيئاً فشيئاً.

وكان سقوط نكروما، نهاية حلم من الأحلام الافريقية الكثيرة. وإذا بالحديث عن افريقيا لا بد أن يكون حديثاً عن افريقيا. فمعالم القارة كلها قد تغيرت، فالانقلابات العسكرية الثمانية ـ على اختلاف دولها ونوعية حكوماتها وارتباط سياساتها ـ لم تكن أكثر من نذير في التسعة أشهر الأخيرة.

لقد تحركت رياح التغيير من القارة إلى داخلها، وتحركت معها أمراض الطفولة كلها، ولم تعد الرياح ـ التي كان نكروما أول من أطلقها ـ أكثر من رياح تغيير توقفت عن دفع الاستعمار إلى خارج القارة، واندفعت نحو الداخل تحرك ورثته في الحكم والادارة والجيش والاقتصاد. لقد اكتملت الدورة الأولى للرياح في أقل من عشر سنوات.

ولكن الحديث ـ في أول الأمر لا بد أن يبقى عن نكروما. فالملهاة الكوميدية تحولت إلى مأساة تراجيدية، واكتشف «المخلص» أن من الخطر ترك بلاده لوحدها، وأن الطريق من بكين إلى هانوي ليس بالسهولة التي يتصورها. فالنبي في افريقيا ـ كما هو ربما في

أكثر بلدان العالم المتخلفة ـ متى غاب عن الرعية المؤمنة به، وأدار ظهره لها، كفرت به، وتخلت عنه، وصلبته! وسيجد نكروما أن من الصعب العودة من الصين إلى غانا، على ظهر نبوة غير موجودة، ورعية غير مؤمنة!

لم يبدأ زعيم أفريقي حياته السياسية، وهو محاط بهذه الهالة من حسن النية، والفرص النادرة، والامكانات الضخمة، كما بدأها نكروما. ولم يستعد زعيم في افريقيا العالم، كما استعداه نكروما. ولم يضع سياسي امكانات بلاده ويهدرها، كما فعل نكروما. ولعل من المؤسف ـ بعد كل هذا ـ ان يجد الجيش لنفسه (ويجد المراقبون له) العذر والمبرر لأن يقوم بحركته.

قد يكون من السابق لأوانه كتابة السطر الأخير في حياة نكروما السياسية. فنكروما لم يكن رجلاً من السهل هزيمته. والانقلاب العسكري في غانا أطال من أمد صراع القوى في بلد يقف على شفير الافلاس. ولكن الصرخة التي قد يطلقها «المخلص» من بكين، ومعه رفاقه في آسيا وافريقيا، بأن «الاستعمار الجديد» كان وراء سقوطه، قد لا يجد من يسمعها في غانا، ويقتنع بها لوحدها.

من الصعب ابعاد تيارات الصراع الدولي الذي حدث في اكرا. ولكن فشل الحكومة النكرومية والطعن في اخلاقية أشخاصها، وكبت الحريات، واعتقال المئات من المعارضين السياسيين وزجهم في السجون، والتعدي على القضاء، والتدخل في الحرم الجامعي، ونفي الخبراء الغانيين الطوعي وهربهم من البلاد، والتضخم الاقتصادي المرعب، وفشل السياسة الانمائية، ومضاعفاتها الاقتصادية، وتسلط الحزب الواحد، ما هو إلا قليل من كثير في لائحة الادانة الطويلة. وهذا يبعد وينسي لفترة من الوقت مرامي الصراع الدولي الذي يعصف في القارة الافريقية.

ولكن نكروما الذي عنى في فترة من الزمن أشياء كثيرة لافريقيا الحرة، ومثل معظم مبادئها ومواقفها العظيمة، لم يكن في مستوى طموح القارة السوداء ولا تعلقها به. ولعل المأساة الحقيقية في كل الذي حدث، أنه خيب الآمال الافريقية التي عقدت عليه (آمالها) في يوم من الأيام، وأساء إلى الكثير من مبادئها العادلة. وفي هذا كان فشله العظيم!

بيروت ـ (١٩٦٦/٣/١)

الكوميدي الساحر

في أي مكان يمكن أن يكون فيه كوامي نكروما اليوم، حتى اي مكان يمكن أن يصل إليه، يستطيع آن يكسب كل الذين حوله بشيء اسمه الجاذبية الشخصية، وسحر الحديث، ورونق الكلام.

ولكن الطريق من موسكو إلى القاهرة، حتى كوناكري لا يمكن أن يقطعه نكروما بوجوده الشخصي فقط، فيصل به إلى اكرا. فطريق العودة إلى غانا أصعب بكثير من الطريق الذي اقله إلى بكين وفجعه بالخبر ـ الكارثة هناك.

ولكن الكوميدي الساحر، يعرف كيف يعد خطواته وهو يتأرجح على حبل عواطف الجماهير التي كان يجمعها في الساحات العامة ويستميلها بخطاباته، فتحمله على الاعناق وتدفع به زعيماً للاستقلال فرئيساً للوزراء، ثم رئيساً للجمهورية، وفيما بعد رئيساً مدى الحياة، قبل أن تقدم على محاولة اغتياله ـ الجماهير نفسها ـ اكثر من ست مرات. ولم تعد تنفع الكلمة الحلوة ـ الكاذبة!

ونكروما، على الرغم من السمعة التي رباها في العالم، لم يكن ذاك «الرجل الحديدي»، ولا الديكتاتور. فكل الدلائل كانت تشير إلى أنه انجرف في طريق التسلط، نتيجة لشعوره بعدم الاطمئنان، وليس لكونه انساناً شرساً أو فتاكاً.

ولذلك، عندما استعار نكروما اسم «غانا»، لساحل الذهب بعد الاستقلال، فقد استعار اسم مملكة قديمة وحضارة كانت تعيش على الساحل الافريقي لقرون مضت. ومعها، استعار كل ما في الملكية من مظاهر، وكل ما تركه البريطانيون من تقاليد، وأمسك صولجان الملك بيد، ودستور الحكم باليد الأخرى، حتى كان مظهره في افتتاح البرلمان، كمظهر ملك روماني في مجلس الشيوخ على قمة الكابيتول في روما، وليس في عاصمة دولة حديثة الاستقلال، تقدمية المبادىء!

وكما كان يثير الجماهير بخطاباته، كان يثير البرلمان والوزراء والموظفين الذين حوله بشخصه، بقدر ما كان يثير الدبلوماسيين الاجانب والخبراء، عن طريق الجذب الخاص لحديثه، ولطريقة وصفه مبادئه في صيغ معينة. ومن هنا كان يحس الناس بشيء من الفطرية القبلية الدينية في شخصه، مطعمة بشيء من المسيحية، يربط بها كل شيء. واتخذ لنفسه لقب «المخلص»، و«المسيح الجديد»، حتى يزيد في الروحانية التي يريد أن يربط الآخرين بها في شخصه.

ولكن «الأوساغيفو»، الذي كانت الكنائس ترفع الصلوات باسمه كل احد، وضد أعدائه، قد يجد ان غيابه عن غانا لم يقتل «النكرومية» التي رباها طويلاً. فحلم نكروما كان كبيراً وعظيماً، وايمانه برسالته كان قوياً، ومواهبه كانت كثيرة، وانجازاته الفعلية كانت اكثر مما يتصور الكثيرون. ولذا، فقد يكمن الخطر ـ في نظر المنقلبين عليه ـ في «النكرومية» أكثر مما يكمن في نكروما شخصياً.

فالمأساة، أن الكوميدي الساحـر، كان ممثـلاً، يكتب مسرحياتـه، ويقرأهـا شخصياً، ثم يصدقها، ويقع ضحية سهلة لها فيما بعد.

والمأساة الأعظم، أن «المخلص»، الـذي بنى سد الفـولقا الكبـير، ووسع نظـام التعليم، وعمر غانا ـ وبعض البناء كان ذا فائدة عامة ـ كان يعتقـد أن القضية التي يؤمن بهـا كانت أكبر من حدود جمهوريته، وأنه «مسيـح جديـد» لافريقيـا، وليس لغانـا الصغيرة فقط. وعادة ما كان وحي «النكرومية» يهبط عليه في أسوأ الأوقات!

وتضخمت «الرسالـة» في رأس نكرومـا، حتى فقد كـل اتصال بـالواقـع، وإذا بالمـأساة الحقيقية، ان المهزلة الكوميدية التي كان يمثلها في غانا، ويضحـك لها وحـده، أصبحت عميقة الجذور، إلى أن انفجرت.

ولم ينفـع الكوميـدي الساحـر، وقد انقلب السحـر عليه في زحف لم يتـوقعه، ان يعيـد تركيب حجارته قبل أن تردم عليه.

ولم يصدق نكروما هذه المرة، أن صوته وصورته وشخصه لم تعد كل شيء لكل الغانيين، إن لم تكن لكل افريقيا. وبقي الساحر من دون كوميديا. وضحكت افريقيا!

بيروت - (١٩٦٦/٣/٢)

قارة تتمزق

المخاض العسير الذي تعاني منه القارة الافريقية اليوم، والتمزق العنيف الذي عصف بها في الأشهر التسعة الأخيرة، لم يكن أكثر من محاولة جديدة للرياح الافريقية في البحث عن اتجاه يحدد شخصية ومعالم افريقيا، ويربطها بواقع مرّ ـ ولكنه حقيقي ـ ربطاً نهائياً.

ولم يكن الانقلاب العسكري الأخير على نكروما، إلا الانفجار الأقوى الذي فجع الافريقيين وفتح عيونهم على حقائق كثيرة وجديدة.

ففي خلال خمس عشرة سنة، استقلت ٣٦ دولة افريقية، من أصل قارة كبيرة مرتبطة ارتباطاً عفوياً ببعضها البعض، جزأها الاستعمار و«بلقنها» إلى أكثر من ٥٠ دولة، بعضها لا يملك مقومات الحياة الأساسية، وشعبها لا يزيد عدده عن نصف عدد مدينة صناعية في اوروبا، وإن كانت مساحتها تزيد عن مساحة بلدان أوروبية كثيرة!

ولكن هذه «البلقنة» الافريقية، بكل ما حملته من تمزق وعذاب، لم تجعل افريقيا «أرضاً خصبة للثورات»، كما قال عنها شو ان لاي منذ سنتين. و«الثورات» الافريقية، لم تكن أبداً ثورات بالمعنى الصيني للكلمة! فالأحداث الافريقية الأخيرة، لم تكن أكثر من دليل على القلق السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وسعي وراء التغيير السريع المثمر.

وبالطبع لا يمكن فصل ـ أو عزل ـ المصالح الدولية والتيارات السياسية العالمية عن كل ما حدث وسيحدث في القارة السوداء. ولكن التمزق الافريقي والاضطراب الثوري هناك، هو تمزق واضطراب داخلي في الأصل. والذي حدث حتى الآن ما هو الا بداية متاعب الاستقلال، الذي لم تحصل منه افريقيا إلا على الاسم والعلم والرمز، وبعض العزة القومية.

غير أن هذا لا يعطي مبرراً لأصحاب الرأي الذين يعتقدون أن ما تعانيه افريقيا اليوم سببه منحها الاستقلال بشكل مبكر، وقبل أوانه. على العكس. ان المشاكل التي تعانيها افريقيا اليوم، هي مشاكل حقيقية لبلدان متخلفة، لا بد من حدوثها بعد الاستقلال.

فمشكلة الاضطراب السياسي الحقيقي نتجت عن أن الزعماء السياسيين وقد نجحوا في احراز الاستقلال، فشلوا في أن يكونوا في مستوى توقع شعوبهم، فخافوا النقص في شعبيتهم، حتى لجأوا إلى نظام الحزب الواحد، ومعه ازدادت حساسيتهم للنقد والمعارضة. فضلاً عن أن مشاكل التنمية والظروف الاقتصادية كانت أكبر من توقعاتهم، وخصوصاً ضمن نظام الادارة الذي ورثوه عن الحكم الاستعماري.

وجاءت الخطوة الثانية في التحدي المفتوح الذي واجهه زعماء الاستقلال، حين اعتبروا أن دورهم قد انتهى عند هذه المرحلة. وأصبحت قوى التذمر أكبر من أن يحولوا بينها وبين الانفجار. وإذا بالجيش يتدخل في الوقت الذي تفقد فيه الحكومة سيطرتها على

هذه القوى، وإذا بالجيش يلعب دور «البرلمانات»، أو دور المنفس عن رغبات الشعب، والمقوم لاعوجاج الأمور والمفاهيم.

ولكن الخوف يكمن في أن الجيش، ليس أكثر من وسيلة لتغيير السياسيين أو واجهات الحكم، من دون أن يدخل ـ أو يغير ـ جذور المشكلة في افريقيا، التي هي مشكلة اقتصادية واجتماعية، بقدر ما هي مشكلة سياسية. ان ما قام به الجيش حتى الآن في القارة الافريقية، هو أنه أفرغ محتواها الثوري، وعبأ انفجارها بمضمون آخر، غير ثوري، وربما غير جذري.

فالتحرر من الاستعمار، لم يعنِ التحرر من الكبت السياسي المحلي، أو الظلم الاجتماعي لحكومة مستقلة. فالاستقلال، إن كان شرطاً أساسياً لا نقاش حوله للحرية، إلا أنه لا يشكل ضمانة لنمو الحرية أو الديموقراطية. لذلك لم يكن النظام الديموقراطي البرلماني، أكثر من تجربة فاشلة لم تلق جذوراً في افريقيا.

غير أن فكرة التحرر السياسي من الاستعمار، لم تلغ التمزق الحقيقي للقارة، وهو طموح المساواة الذي يريده شعب القارة السوداء، مع غيره من شعوب العالم، حتى يمحو من ذاكرة التاريخ قروناً من العبودية والاضطهاد.

أما المستقبل، فلا يحمل إلا غلياناً مستمرّاً تعقبه انفجارات دورية في افريقيا، إلى أن تنهي الرياح دورتها، وتشعر القارة السوداء، ان تمزقها قد عاد ليرتبط ارتباطاً أكيداً بشخصيتها وملامحها، والانتظار سيكون طويلاً ومتعباً!

بيروت - (١٩٦٦/٣/٣)

الباب الثالث

إذا شاء نكروما أن يدخل التاريخ، من بابين منفصلين، فقد دخله اليوم من باب ثالث، ربما أهم وأوسع. فالرجل الذي لم يُجد شيئاً، بقدر إجادته اللعب بعواطف افريقيا، وجد فرصته النادرة في اللعب الكبير في كوناكري يوم ٢ آذار عام ١٩٦٦، عندما وقف أمام أكبر حشد جماهيري عرفته عاصمة غينيا، ليعلن أنه عائد إلى آكرا.

وفتح الباب على مصراعيه، عندما أصبح كوامي نكروما رئيساً لجمهورية غينيا، وقد تنازل له عنها أحمد سيكوتوري، في أروع وأكبر بادرة تضامن في التاريخ حتى الآن. لبس «المخلص» لبوس الساحر الكوميدي من جديد، وأمسك التاريخ من تلابيبه، حتى لم يعد للبابين الماضيين أية أهمية.

أول زعيم استقلال لأهم وأكبر وأغنى دولة في غرب افريقيا؟ أم رئيس لجمهورية غانا مدى الحياة وحامل مبادىء «النكرومية» والداعي الأول لوحدة افريقية شاملة وحكومة قارية؟

لا. أهم من كل هذا اليوم، ان يدخل غانا ـ إذا عاد اليها ـ وهو رئيس لغينيا، الدولة الجارة التي فتحت صدرها وخزانتها وإمكاناتها أمام زعيم افريقي آخر، يحاول ملكاً، أو يموت فيعذرا.

لم يسبق في التاريخ، أن تنازل رئيس عن منصبه لرئيس دولة أخرى، حتى تصبح صناعة التاريخ اليوم صناعة افريقية بحتة. ولكن لم يسبق أن وضعت أمم وشعوب على محك الوحدة الحقيقية والتضامن الحقيقي ـ من دون العرب طبعاً! ـ كما وضعت شعوب وأمم وطاقات افريقيا كلها.

بالطبع، لن يعني شيئاً تولي نكروما رئاسة غينيا من الناحية العملية، بقدر ما يعني اعطاءه صفة رسمية يتحدث بها، ومنبراً يمارس نشاطه عليه، وتأكيداً لوقوف بعض دول افريقيا ـ مالي وتانزانيا ـ إلى جانبه، كتعبير عن وحدة الشعوب الافريقية، وتقديراً لزعامته «للمد التحرري» الذي أطلقه مع رياح التغيير في القارة.

ولكن هذا الحدث ـ بمعزل عن أي مضاعفات أو أسباب مرحلية مباشرة ـ سيبقى محتفظاً بعظمته ورونقه. في الوقت نفسه يعتبر ضربة هائلة للحكم الجديد في غانا، وكسباً كبيراً وشخصياً لنكروما، بقدر ما هو كسب حقيقي لسيكوتوري.

فاستقبال الأبطال الذي هيأته غينيا لنكروما وهو يطأ لأول مرة الأرض الافريقية بعد غياب اسبوع، لا تريد غينيا منه أكثر من أن تؤكد وحدة وضعت محل الشك وانفعالاً فرض عليها!

وإذا عاد نكروما إلى اكرا، فسيعود ملكاً متوجاً لدولتين، و«مخلصاً حقيقياً»، عاد ليقضي

على تمرد داخلي، وليس على مجرد انقلاب عسكري. ولعل افريقيا قد شعرت بالندم على أبطال اضاعتهم ـ كأحمد بن بيلا وباتريس لومومبا ـ فلم تشأ أن تترك نكروما في صحراء التيه لوحده، حتى لا تفقده، وقد صغرت أحجام الزعماء الافريقيين كثيراً في الأشهر الأخيرة، وأصبح قلقهم عسيرا!

وستلعب الرياح كثيراً بالباب الثالث الذي دخل منه نكروما اليوم، ولن يكون التاريخ أكثر من شاهد عيان صامت!

بيروت - (١٩٦٦/٣/٤)

اثيوبيا

قداس لأسد يهوذا

بين اثيوبيا والتاريخ حب. واديس ابابا، وجه هذا التاريخ وحكاية هذا الحب، واليوم هي عاصمة أقدم امبراطورية في عالم أصبحت الجمهوريات لا تعيش فيه أكثر من أشهر.

والذي يصل إلى اديس ابابا في السادسة صباحاً من يوم تشريني رائع، يتوقع أن يلفحه الحر الافريقي، أو أن تكون ملكة سبأ في استقباله، أو حتى مندوب من بلاط الملك سليمان. ولكن لا بد أن يشعر بأن التاريخ خدعه. ربما. ولكن الخدعة أن اثيوبيا غير افريقيا، وأن تاريخ بلقيس وسليمان ما زال مستمراً.

بدت اديس أبابا تلك الساعة الباكرة، مدينة مغسولة بالندى، باردة، هادئة وجميلة. وبدا التاريخ لعابر السبيل مثلي نوعاً من البحث المضني. الوجوه التي تستقبلك ليست افريقية بالمعنى المتعارف عليه. لا شيء من الزنوجة فيها. وجوه برونزية كأنها مدهونة بالبن. القامات طويلة ممشوقة. الأنوف اغريقية. العيون كبيرة في اتساع عيون الوعول الشاردة في الطرقات المحيطة بالعاصمة.

ودفق التاريخ قد صب في اديس ابابا، رغم أن عمرها لا يزيد عن ٧٥ سنة. فقد بناها الامبراطور منليك الكبير ـ جد هيلاسيلاسي ـ لتكون جسراً بين القاهرة شمالاً وكيب تاون جنوباً، ولتحمل مجد الامبراطورية كله. وأرادها منليك أن تكون أعلى من أية عاصمة افريقية أخرى، فكانت على منحدرات هضاب «انتوتو»، بالقرب من منابع المياه الساخنة التي كان اكتشافها السبب المباشر لاختيار موقعها. وكما أن اثيوبيا هي «تيبت» افريقيا، او سقف افريقيا، أصبحت اديس ابابا أو الزهرة الجديدة باللغة الأمهرية، مدينة تعلو اي مدينة افريقية.

وأصبحت اديس ابابا متحفاً للتاريخ الأثيوبي قديمه وحديثه. وكبرت، حتى بات كل ما

فيها يصفعك بعراقته. وفي هذه العاصمة لا يبدو أحد في عجلة من أمره. فالتاريخ نفسه قد استراح سنوات طويلة حتى كتب.

منذ ذكر هوميروس ان الالهة اليونانية وقد تعبت من الخلافات بينها فوق جبل الأولمب وزارت اثيوبيا، قرر هيرودوتوس أن يدخلها التاريخ. وكر حبل العراقة من ألف سنة قبل المسيح، وجاء ذكرها في سفر أيوب، ودخلتها المسيحية بأعرق وأجمل أشكالها في افريقيا، حتى اصبحت اقدم دولة افريقية مستقلة في قارة كانت غارقة في الاستعمار.

ولعل رحلة العراقة قد بدات عندما قررت بلقيس ملكة سبأ، التي كانت تحكم كل أثيوبيا وقرن افريقيا عبر البحر الأحمر إلى جنوب الجزيرة العربية، أن تزور الملك سليمان في القدس، لتنهل من منابع حكمته. وأسفرت الزيارة عن ولد، هو منليك الأول، مؤسس الأسرة الامبراطورية الحاكمة اليوم، يعتبر هيلاسيلاسي الأول، الملك الخامس والخمسون بعد المئتين منحدراً من ذاك اللقاء.

ودخلت المسيحية أثيوبيا عام ٣٣٠، وكانت بذلك أعتق بلد مسيحي. ورغم اتساع الامبراطورية الأولى وطرق التجارة التي كانت تمر فيها، انعزلت خلال العصور الوسطى، فكونت ثقافتها وديانتها وحدها. وتاريخها أكثره أساطير تبحث عن محقق، أكثر مما هو أحداث مكتوبة تبحث عن مدقق.

والقيت بنفسي في هذا الخضم كله، ورحت أبحث في اديس ابابا عن معالمه الصغيرة الملموسة.

كان أول ما صفعني في المدينة حداثتها، لا قدمها. كل معالمها البارزة التي تقتحم حدود النظر حديثة. القصر الملكي الجديد الذي بني عام ١٩٥٥ لمناسبة مرور ربع قرن على تولي هيلاسيلاسي العرش، وبعدما أهدى قصره القديم ليكون بناء لأول جامعة بما فيها أسود يهوذا - التي يراوح عمرها بين ٤ اشهر و٢٠ سنة - والتي تسرح في حديقة القصر الخلابة. و«أسد يهوذا» هو شعار الامبراطورية. والنصب الحجري الرمزي له أمام مسرح هيلاسيلاسي وفي ساحة البنك المركزي، مثال آخر على الحداثة في اديس ابابا وعلى فن النحت الحديث.

ولا تفتخر اديس ابابا بشيء اليوم قدر افتخارها «بقاعة افريقيا»، هذا المبنى القائم على هضبة مقابل القصر الملكي. وقاعة افريقيا، هي المركز الرئيسي لمنظمة الوحدة الافريقية وأمانتها العامة. وفيها اجتمع رؤساء الدول الافريقية عام ١٩٦٣ عندما أسسوا المنظمة. وهي في الوقت نفسه مركز هيئة الأمم المتحدة للمعونة الاقتصادية لافريقيا. وقد أهدت الحكومة الأثيوبية البناء عند تشييده إلى الأمم المتحدة، ليكون رمزاً لطموح الشعوب الافريقية الأمثل. وأهم ما يلفت النظر في قاعة افريقيا، إلى جانب هندسة البناء الحديث جداً، هو الزجاج الملون الكبير الذي صممه ونفذه أكبر فنان أثيوبي معاصر هو أتوا فيورك تكلي، والرسوم الزجاجية تمثل افريقيا بماضيها وحاضرها ومستقبلها.

والأبنية المماثلة كثيرة في اديس ابابا. من مبنى الجـامعة الجـديد الـذي قام إلى جـانب القصر الملكي القـديم، حتى نصب الشهداء أمـام حديقـة البلديـة، حيث تعرض بقـايا «أسود يهوذا» التي لم تعد تسعها حديقة القصر الملكي، إلى عشرات الابنيـة التي تجعل منها هندسة القرن العشرين، معالم بأهميـة التاريخيـة منها في العـاصمة. ومن سـاحة الشهداء، حيث يقف نصب حديث آخر على شكل مسلة مصريـة، يعود التـاريخ ليـدخل ويتدخل في كل معالم المدينة.

التراث. التراث. التراث. كلمات تصرخ في اديس ابابا، المدينة المحاطة بـالتلال والغيـوم والصلبان. الكنائس تحيط بها من كل جانب والصلبان تحرسها عند كل زاوية. عند كـل خطوة تصطدم برجل بالملابس التقليدية يلف حول كتفه «الشمة». وهي نوع من الشـال الأبيض الطويل. ويحمل بيد صليبا من النحاس أو الخشب وفي الأخرى منشة للـذباب. ويقف الناس في الشارع ليقبلوا الصليب الذي يحمله. ويقال ان نصف سكـان أثيوبيـا يعملون في خدمة الكنيسة بنوع أو آخر.

والكنيسة هي الكل مع العرش. ماضي البلاد وتراثها هو ماضي الكنيسة وتراثها. وفي كل كنيسـة في اديس ابابـا قداس كـل دقيقة. والقـداس هناك يختلف عن قـداس الكنيسة القبطية المصرية، فيه كثير من المظاهر الافريقية كـالغناء والطبـول والرقص. ويبـدو أن القديس جورج هو أقوى القديسين. فصورته وهـو يقتل التنـين رمز كبـير يكاد ينـافس أسد يهوذا. والقديس جورج ـ أو مـار جريس عنـدنا ـ أثيـوبي أسمر البشرة، والتنـين دائماً أخضر. له كنيسة في اديس ابابا، أفخم الكنائس، وفيها تتم حفلات التتويج، كمـا أنها مركز الاحتفالات الدينية كلها.

وصور الامبراطور مع صور القديسين معلقة جنباً إلى جنب في كل الكنـائس. وإلى جانب صـور المسيح والعـذراء صور تخلـد تاريـخ أثيوبيـا. وأكثر الفن، ديني مقـدس رعتـه الكنيسة في الماضي، وترعاه اليوم. وهو بدائي، طفولي، وألوانه زاهيـة. لم يتطور أسلـوباً ولا شكلاً من قبل تكلي، الذي أدخل بعض الأنماط الـحديثة اليـه، وكسر القالب دون أن يخرج على الطـابع. والفن الأثيـوبي، متحرك، يـروي لك حكـاية، عبـر أكثر من صـورة واحدة. كل ما فيه يقطر عفوية وجمالا.

واديس ابابا قد تستنفدها كلها في يوم واحد، إلا الناس الذين فيها. الدماثة المصحـوبة بـالكبريـاء. التهذيب والانحنـاءات المتواصلـة التي لا بد من أن تحـرك أوجاع الظهـر وآلامه. الاستقبال المريح الذي يعدونه للسائح. الفيزا تمنح في المطار دون معـاملات ولا تعقيدات. آخ ما أحلى السياحة دون عقد!

والتاريخ ترك أيضاً ختمه على الناس في اثيوبيا، كما طبع كل شبـر من أرضها بطـابعه. المجتمع قبلي، والأنساب والعراقة جزء من المجد الشخصي هناك. «أولاد العيـل» هم من لهم ماض ولعائلاتهم أمجاد. لا عقد ولا مركبـات نقص عند الأثيـوبيين تجـاه الغربـاء. ربمـا لأنهم شعب لم يعـرف الاستعمـار إلا في تلـك الفتـرة المجهضـة التي لم تتجـاوز الخمس سنوات من احتلال ايطاليا لبلادهم.

وفي اديس ابابا وضواحيها قلما ترى امـرأة مترهلـة. النساء نحيـلات بصدور حجـرية عالية. العيون واسعة تتحـدى. الرمـوش كبيرة طـويلة. والعيـون، أجمل مـا فيهن. أما لباسهن فهو أرجوحة الوان. الأبيض هو الوطني والرسمي والمطرز كله مـع شال مـرمي بخفر وعفوية حول الكتفين. لباس النساء جميل، جميل. فيه أنوثة، وفيـه هدوء والكثـير الكثير من الخفر والحياء.

والحديث عن الناس في اديس ابـابا يجـر إلى الحديث عن العـرب. فهم جاليـة كبيرة في العاصمة الأثيوبية، كالصينيين في جنوب شرق آسيا. هم أصحاب المتاجر الصغيرة، وهم الحرفيون وتجار الاستيراد والتصدير، ولا ينـافسهم إلا الهنود. وأكثـر العرب يمنيـون، مع بعض الحضارمة والقليل من العدنيين.

صور المشير عبد الله السلال رئيس جمهورية اليمن وجمال عبـد الناصر تتصـدر بعض الدكاكين، وتتصدر صور الامام البدر بعضها الآخر. إلا أن صور السلال والثورة أكثر، لأن معظم اليمنيـين جاؤوا فـراراً من حكم الإمام وهـرباً من اضطهـاده. وبعض كبـار الأغنياء هم من العرب. عندهم عمارات ومحلات تجاريـة واسعة وبنـوك. ويوم الجمعـة يصطف أمام الدكاكين العربية في السوق مئات الفقراء والشحاذين، لينالوا ما يزكي بـه التجار المسلمون أموالهم.

لافتات المحلات تحمل الأسماء العربية إلى جانب الأمهرية والانكليزية. أشهر الخيـاطين من العرب العدنيين. وأجمل المناظر، منظر المئات من ماكنات الخياطة وهي مصطفة على المصاطب العالية في السوق تخيط أقمشـة كلها الـوان زاهية. آه عـلى الألوان، الألـوان الفاقعة، التي لم أكن أظنها موجـودة من قبل. ألـوان هي بحر يغـرف منه أي فنـان في أثيوبيا.

وفي اديس ابابا جامع وحيد يؤمه العرب، وفيه مدرسة لتعليم أصـول الدين. والعـرب ـ من يمنيين وغيرهم ـ لا يختلطون بالأثيوبيين. يعيشون في مجتمعات وحدهم ويتزاوجـون بعضهم من بعض، أو يعـودون الى بلادهم ليـأتوا بعـروس إلى الغربـة. والجـامـع هـو المسجد الإسلامي الوحيد في كل اديس ابابا. وللجامع بابان، واحد اسمـه باب الـرحمة وآخر باب السلام. أما بناؤه فبشع وصحراوي عكس كل أثر ديني أو حضاري.

أما أسمرة، بوابة افريقيا إلى الجنوب العربي كله، شيء آخر كلياً. هناك تـرك الاستعمار الايطالي بصمات واضحـة. فأول مـا توحي إليـك عاصمـة ارتيريـا، أن الايطاليـين بنوا «صقليـة» افريقيـة. المدينـة صغيرة، جميلـة، تعج بـالاضافـات الايطاليـة، من حانـات ومطـاعم، إلى شوارع عـريضة وكنـائس. وفي أسمرة، يـدخل الطـابع الإسـلامي زوايا المدينة فتتغير لغة الناس، عندما تختلط العربية مع الأمهرية، وتـرتفع المـآذن من بعيد، وتصبح الكنائس الكاثوليكيـة أكثر من الكنـائس القبطية، وتصبـح الايطاليـة هي اللغة المشتركة بين الناس، ويزداد عدد البارات والمقاهي بازدياد عدد الشوارع وازديـاد عدد الصحف التي تصدر بالايطالية في أسمرة. وأسمرة لا تختلف عن اديس ابابا في عادات

الناس، إلا أنها أكثر أوروبية، وأقـل افريقيـة، وأكثر إسـلامية، وأقـل قبطية من بقيـة أثيوبيا.

وفي اديس ابابا، يقام قداس لأسد يهوذا كل دقيقة. أما في أسمرة فلا أحد يؤذّن لحفيد سليمان الحكيم وبلقيس الملكة.

اديس ابابا/اسمرة ـ (١٨/١٢/١٩٦٦)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصومال

القلب عربي والوجه أفريقي

إذا كان الشعر سيد الكلمة عند العرب، فإنه أيضاً عند الصوماليين سيد المواقف دائماً. فهم يستقبلونك بالشّعْر، ويشيعونك بالشعر، ويشتمونك بالشعر، ويهتفون لك بالشعر، وينتخبونك بالشعر، حتى لتكاد تظن أن عكاظ أقيمت على ذلك الشاطىء الافريقي، وأن عقارب الزمن توقفت عند العصر الجاهلي أو في مطلع صدر الإسلام.

هكذا، على الأقل، أوحت إليّ مقديشو، أو خُيل إليّ منها في الساعات الأولى من وصولي إلى عاصمة الصومال. إذ جاءني إلى الفندق رفيق صومالي كان يجلس إلى جانبي في الطائرة التي حملتني من عدن إلى مقديشو، ليقرأ لي قصيدة نظمها ترحيباً بي بعدما استراح في بيته. ولما ألقاها ـ من الذاكرة ـ وعد بنظم قصيدة أخرى في وداعي. وخفت وأنا أشيعه إلى الباب أن ينزل عليه شيطان الشعر مرة ثانية، فيسمعني قصيدة لمناسبة بلوغي وإياه عتبة الدرج سالمين. لكن يبدو أن القريحة نضبت. وبقي أن أقول أن القصيدة التي ألقيت في حضرتي كانت بالصومالية، لم أفهم منها شيئاً، برغم محاولات الترجمة العربية التي رافقتها. والصومالية لغة، توحي إلى من يجهلها ويسمعها للمرة الأولى، بأنها موسيقية وذات جرس إلى درجة ممتعة.

وكان الرفيق الصومالي الشاعر، تاجراً طويل القامة قعد بقربي في الطائرة القادمة من عدن، وأخذ يسألني عن أحوال الجنوب اليمني. وظننت بادىء الأمر، أن الرجل مهتم لأنه تاجر، وربما بسبب ما آلت إليه الظروف الأخيرة هناك. لكنه صب اهتمامه بغتة على سائر الدول العربية، من لبنان والمناصفة المسيحية ـ الإسلامية في الحكم، إلى انتخابات الاتحاد الاشتراكي في مصر، حتى مصير الملك حسين في الأردن. وعدت إلى الاعتقاد بأن جاري الصومالي انسان متابع للأحداث العربية، عظيم الشوق إلى تفاصيلها. إلى أن

قذفني بسؤال جديد، وأنا في بدء محاولة للاغفاء اثر سفر شاق: «مَن فاز في الانتخابات الايطالية؟ الاشتراكيون أم الديمقراطيون المسيحيون؟ هل نجح السنيور الدو مورو ام السنيور نيني؟ هل يشترك الحزبان في ائتلاف حكومي آخر؟». وهذه المرة لم يكن وحده إذ اشترك معه «كورس» من الركاب الصوماليين، الذين عرفوا بالصحافي القادم من لبنان إلى مقديشو، فاعتبروها فرصة لا تعوض لمعرفة الأخبار العربية والايطالية. واسترسل بعضهم في الحديث بالايطالية، حتى اكتشف جهلي لها، فخاب أمله. إلاّ أن ذلك لم يردعهم عن المغالاة في القاء الأسئلة وتوقع الاجوبة فوراً عنها.

ولما وصلت الى مقديشو اكتشفت ان رفاق الرحلة لم يكونوا اكثر استفساراً واهتماماً من سائر مواطنيهم الصوماليين. فإذا سألت ما هي آخر أخبار الصومال، لسمعت سؤالاً لا علاقة له بسؤالك يقول: «هل استعاد الجيش المصري قوته؟»، مثلاً. وإذا سألت عن علاقات الصومال بكينيا، لجاءك الجواب: «هل تقع الحرب بين العرب وإسرائيل؟». ومن خلال حوار الطرشان، فإن على الصحافي الباحث عن معالم الصومال، أن يتلمس طريقه في مقديشو، وسط اهتمامات أمة موزعة بين أطراف قارات ثلاث.

مقديشو، العاصمة، تعكس هذا التمزق بين القارات الثلاث. ففيها الطابع العربي الإسلامي، والاطار الافريقي، والاضافات الايطالية. لكنها تبقى مدينة كأنها خارجة من صفحات التاريخ القديم الذي كتبه الرحالون في القرن الثامن عشر، وسرقه القراصنة في غزوة من غزواتهم الكثيرة للشواطىء الافريقية. فإن البيوت البيضاء الصغيرة والقباب المبعثرة والقلاع الصخرية على طول الشاطىء، تجعل لها ظلاً غريباً، هو مزيج من الافريقية الصميمة والتراث الإسلامي، إلى جانب جو من الصوفية. فإذا بها كمقر لأولياء الله الصالحين، وللمهربين او لقراصنة الشواطىء أولئك بالذات.

وأولياء الله الصالحون، ما زالت قبورهم ذات القباب البيضاء الجميلة، متناثرة في كل مكان من مقديشو. اما القراصنة فجرفهم تيار العصر الحديث. وبرغم أن العاصمة لا تبعد أكثر من ١٢٠ ميلاً عن خط الاستواء، فإن الرياح الموسمية الباردة تمر بها في اغلب أوقات السنة. ثم ان العاصمة التي تقع في جنوب الصومال، او «قرن افريقيا» كما يسمى هذا الجزء من افريقيا الشرقية، تظهر مضيئة بذلك الخليط العجيب من البيوت البيضاء والزرقاء الممتدة على طول الساحل، حتى أن اسمها القديم «لؤلؤة المحيط الهندي البيضاء» يقفز عند كل استدارة من استدارات الغريب القادم إليها. والاسم أطلقه عليها البحارة من عرب وأوروبيين وهنود وصينيين، من أولئك الذين ازدحموا في شطآنها على مدى ثلاثة قرون مضت.

فالقديم فيها يجاور الحديث: الاكواخ الافريقية من القش والبيوت العربية المكورة ونوافير المياه الشرقية، تلتصق بالطراز الاستعماري من البيوت الأوروبية ذات السقوف العالية وقناطرها الرومانية الطراز وممراتها العريضة. والمطاعم الايطالية تملأ الشوارع الرومانية، فكأنك في نابولي أو ميلانو. والمقاهي الخشبية على البحر والنراجيل تقرقر مع الأمواج، فكأنك في الآستانة القديمة، أو «في الحاج داود» في الزيتونة في بيروت. وفيها

الطرق الحديثة (شعار الاستعمار الايطالي الموروث عن الفكرة الرومانية القديمة القائلة بأن الطرق أساس الحضارة) والممرات الترابية الضيقة التي تؤدي إلى المساجد العتيقة القديمة وقبور الأولياء.

والصومال، خلافاً لسائر الدول الافريقية، يسكنها شعب واحد وعرق واحد. يتكلمون لغة واحدة ويعتنقون ديناً واحداً. وقبل الاستعمار في النصف الثاني من القرن الأخير، كانت القبائل الصومالية تشكل مجتمعاً مميزاً من حيث اللغة والحياة والثقافة. حتى جاء تقسيم البلاد على أيدي ايطاليا وبريطانيا وفرنسا وأثيوبيا، يجزىء هذا الشعب الواحد ـ كما حدث في أماكن عدة ـ مستعمرات مختلفة محتوية على قبائل متباعدة متفرقة. إلا أن الصومال، الجمهورية التي نعرفها، هي حصيلة دمج مستعمرتين: محمية الصومال البريطاني والصومال الايطالي.

وكانت هذه التجربة في التجزئة وفي الحكم الاستعماري دافعاً سريعاً لتقوية الوعي الصومالي التقليدي ولاحساسه بثقافته الفريدة وهويته القومية. وهو ما ساعد على تنمية القومية وتحويلها من مجرد ظاهرة ثقافية إلى قوة سياسية دافعة. واليوم، بينما تتصارع دول افريقية استقلت حديثاً، على جعل قبائلها المتباينة الجنس والعرق واللغة والدين أمة واحدة تبذل الصومال جهدها لأجل خلق وحدة سياسية من أمة كاملة النمو والأوصاف. وكانت الخطوة الأولى ضم الصومال البريطاني إلى الصومال الايطالي عام ١٩٦٠ وإعلان استقلال الجمهورية الصومالية، بمثابة دعامة في قاعدة الأمة، وحجر أساسي تبنى عليه بقية الوطن. إنما لا تزال بعيدة عن جناح الوطن الأم، أجزاء من الصومال وقبائل من الصوماليين في الصومال الفرنسي وفي أثيوبيا وفي كينيا، وهي تائقة إلى الانضواء في ذاك الجناح والنوم في حضن الحجر الأساسي. وفي ضوء الوضع اليوم يبدو صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، حتى لو دفع الثمن باهظاً بالدم، أن تنضم أجنحة الأمة كلها. فالصومال الفرنسي، أعلن في استفتاء في العام ١٩٦٦، أنه لا يريد أن يعود إلى الجمهورية، وذلك بتشجيع من الجنرال ديغول شخصياً الذي طبق سياسة فرنسا الرامية إلى ربط ما تبقى من مستعمراتها الهامة بباريس مباشرة. وهذه السياسة أثارت النعرات الانفصالية والفوارق القبلية، لتحافظ على الجزء الهام في «القرن الافريقي» وعلى مرفئه الحيوي في جيبوتي كمرفأ منافس لعدن حتى قبل موته، وعلى الخط الحديدي الذي يربط بين اديس ابابا وجيبوتي، والذي يعتبر الشريان الوحيد لأثيوبيا نحو البحر الأحمر، والمتنفس التجاري الأساسي المفتوح على قناة السويس وبالتالي على البحر المتوسط واوروبا. إلى جانب أن كينيا وأثيوبيا (والأخيرة شجعت بقاء الصومال الفرنسي فرنسياً للحفاظ على مصالحها الاقتصادية الحيوية) لا رغبة عندهما في تسليم جزء كبير من أراضيهما للصومال، بل تبذلان كلتاهما جهوداً كبيرة بغية تغذية النعرات الانفصالية والاحساس القبلي.

هذه الخلافات، أو هذا الخلاف الأساسي، يظهر إلى أي مدى تختلف القومية الصومالية عن بقية القوميات المبعثرة في الدول الافريقية. أو بين المفهوم الصومالي للقومية، القائم

على وحدة اللغة والعرق والدين والأرض، وبين المفهوم الافريقي الآخر، القائم على توحيد ما تيسر من مختلف أنواع الأجناس والقبائل التي ضمها الاستعمار عند «بلقنة» افريقيا في القرن الثامن عشر.

لأن ما تسعى افريقيا الأخرى الوارثة للاستعمار للحصول عليه موجود عند الصومال بكثرة، ولا ينقص هذه إلا أطراف الأرض المنتزعة منها والقبائل المشردة عنها. وفيما ترفع هي وحدة أراضي الصومال وشعبها شعاراً لها، ترفع البلدان الافريقية المستقلة حديثاً والوارثة لتجزئة القوى الاستعمارية، توحيد ما عندها من قبائل شعاراً لها.

وقد يكون كل هذا، من اختصاص المهتمين أكاديمياً بموضوع افريقيا، وإرثها «البلقاني». إلا أن ما يعنينا هنا فقط، هو العنف الذي تتصف به سياسة الصومال اليوم، وما نتج عنه من مضاعفات أثرت في وضعها بالنسبة إلى علاقاتها بالدول الأخرى. ومهما اختلفت الآراء حول الوحدة الصومالية، فإن تاريخ الصومال يجب أن يبقى، قصة أمة تبحث عن أجزاء مبعثرة لهوية معروفة، وحكاية بلد واحد قاسى الأمرين تحت ثلاثة أنواع من الاستعمار.

والصومال برغم أرضها الفسيحة (٢٧٠ الف ميل مربع) فإن عدد سكانها لا يتجاوز الأربعة ملايين نسمة. وبرغم أن الصوماليين يشكلون أكبر عرق في افريقيا، فإنهم ليسوا بالأمة الكبيرة. لكنهم موزعون بين الجمهورية الصومالية نفسها (حوالى مليونين ونصف مليون نسمة) والشمال في الصومال الفرنسي (٨٤ الف نسمة) وفي اثيوبيا، حيث يعيش أكثرهم في منطقة هرار ومنطقة سيدامو (حوالى مليون نسمة)، وفي الشمال الشرقي في كينيا (حوالى ٢٠٠ الف نسمة). إلى جانب الاف الصوماليين في بقاع الأرض، من الخليج العربي حتى الشواطىء الأوروبية في مرسيليا ونابولي ولندن وكارديف. وهناك جاليات صومالية كبيرة في مدن شرق افريقيا الهامة، يتعاطون التجارة. وفي عدن وحدها كان ٢٠ الف صومالي قبل الاستقلال وبعده في بداية الهجرة الأخيرة.

والصوماليون من العرق الحامي، القريب من جيرانهم الأثيوبيين، وخاصة سكان وقبائل عفار (أو الدناقل) الذين يشاركونهم في الصومال الفرنسي. وبرغم تباين كبيرة في مظاهرهم الجسمانية والوان بشراتهم، بين السمرة العادية والزنوجة، فإن ما يصفع العين عند رؤيتهم، هو البنية النحيلة الطويلة والرؤوس الرفيعة. ولعل القول المتداول أن الصوماليين هم «أوسم عرق في العالم» صحيح إلى حد بعيد. فنساؤهم جميلات بالقوامات الرشيقة وعيونهن الكبيرة الواسعة كالغزلان، والبشرة اللامعة. وهن على غير عادة المسلمات، لسن محجبات، ويعملن في جميع المهن من مفتشات جمارك على المطار حتى خادمات في المقاهي. والصوماليون فخورون ببعض ملامحهم العربية، وقسم منهم يرد أصله إلى أسر عريقة هاجرت من الجزيرة العربية أو المشرق العربي، ويرسم لك شجرة ضخمة قد تعود به إلى الرسول.

لذلك فإن اللغة الصومالية تحتوي على نسبة كبيرة من المفردات العربية، كما أن العربية

هي اللغة الثانية المحكية في الصومال. والصوماليون كبرج بابل (أو كسويسرا كما يحبون أن يشبهوا أنفسهم) يتكلمون أربع لغات. فالجنوب (الصومال الايطالي) يتكلم الايطالية. والشمال (الصومال البريطاني) الانكليزية. والشمال الشرقي (الصومال الفرنسي) الفرنسية. مع الأمهرية التي يتكلمها الصوماليون من سكان هرار واريتيريا التابعين لأثيوبيا. وتتميز العربية بأنها اللغة المشتركة (لينغوا فرنكا) لدى كل الصوماليين أو اللغة الثانية بعد الصومالية، إذ يفهمها ويقرأها عدد غالب منهم.

واللغة الصومالية غير مكتوبة. انها صوتية ذات تراث من الأدب الشفهي ما زال محفوظاً عن طريق الرواة يتناقلونه جيلاً خلف جيل.

وبعد الاستقلال بدأت الحكومة تعد مشروعاً لكتابتها إلا أن مساعيها فشلت منذ عام ١٩٦٠.

والسبب انقسام الآراء ثلاث فئات. الفئة الأولى: وهي الحكومة، يساندها في ذلك الأحزاب والمثقفون والمتعلمون، تريد أن تكتب اللغة الصومالية بالأحرف اللاتينية، لتقريبها من روح العصر وتسهيل تعليمها. الفئة الثانية: وهي رجال الدين ومن لف لفهم من المؤمنين، تريدها بالأحرف العربية، حفاظاً على التراث الإسلامي وتأكيداً لارتباطها بالعرب والإسلام. والفئة الثالثة: وهي الصوماليون المتعصبون لصوماليتهم وقوميتهم ومميزاتهم الخاصة كشعب افريقي مسلم، تريدها بأحرف خاصة بها، شبيهة بالأحرف التي تكتب بها اللغة الأمهرية، التي هي لغة الأثيوبيين المسيحيين. ومن أطرف الخلافات اللغوية، هو التفسير الذي برر به رجال الدين رفضهم للحرف "اللاتيني، والذي مؤداه أن كلمة «لاتيني» تعني بالصومالية أيضاً «لا ديني». أما اللغة الرسمية للدولة فهي الايطالية في الدرجة الأولى، ثم الانكليزية. وإذا كنت لا تجيد إحدى هاتين فمن الممكن استعمال العربية، شرط ترجمتها في ما بعد إلى الايطالية أو الانكليزية. إلا أن الايطالية طفقت تتراجع أمام اللغة الانكليزية كلغة أساسية، كما بدأ مستوى تعليم العربية يرتفع من مستوى الكُتّاب وحفظ القرآن إلى مستوى التعليم الحديث.

ومن هنا نعود إلى الشعر، أساس الثقافة وعمادها عند الصوماليين. فالكل يرويه، والأغلب ينظمه. وهو دائماً من النوع الملحمي، الذي يقص حادثة بطولة قديمة في التاريخ الصومالي. أو من النوع القصصي الشخصي، الذي يحتوي على المديح والهجاء إلى أقصى الحدود. أو من شعر المناسبات، أكانت ولادة أم زواجاً أم ترشيحاً لانتخابات. وقد زاد الراديو في السنوات الأخيرة من انتشاره على عكس بلدان كثيرة، منها لبنان والدول العربية. وغالباً ما يكون الشاعر صوت الحزب أو القبيلة، أو الناطق باسم الحكومة. ويقال في مقديشو، أن من أسباب فوز الحزب الحاكم في الانتخابات الأخيرة للسنة الفائتة، أن الحزب كان يحتوي على أكبر عدد من الشعراء.

ويعيش في الصومال عدد من الجاليات الآسيوية، أهمها العرب الذين استوطنوا الشواطىء منذ مئات السنين، وعاشوا جيلاً فجيلاً في مقديشو في الجنوب أو هارغيسا

في الشمال. واليمنيون أنشط العرب وأعرقهم ومن أغنى تجارهم، وهم في معظمهم تجار أو أصحاب حرف كالخياطة أو البناء أو بناء السفن. ومع العرب عدد من الباكستانيين والهنود والايرانيين. أما الأوروبيون، وأكثرهم ايطاليون وفرنسيون، فلا يتجاوز عددهم حوالى ٤ آلاف في الجمهورية و٣ آلاف في الصومال الفرنسي. وعدد من الايطاليين الذين يعيشون بصفة دائمة في الصومال، ويملكون مزارع الموز والفاكهة والابقار والدواجن.

والصومال شعب من البدو الرعاة. فإن الصومالي ينتقل بقطيعه من مكان إلى مكان بحثاً عن الماء والكلأ. وإذا كان الحصان هو حيوان «الوجاهة» اللامنازع، فإن الجمل الحيوان الأكثر أهمية والأثمن في ممتلكات أي صومالي. انه يربيه من أجل حليبه ولحمه وكوسيلة من وسائل مواصلاته. ولا يركبه أبداً، إلا إذا كان مريضاً أو مسناً. إنما يحمل عليه حصاده وعشبه وخيمته وبعضاً من حاجاته. ويصنع من جلده أحذيته أو أغطيته ليحمي قدميه أو جسمه من حر المسيرة الطويلة. لكن قيمة الجمل ليست هذا وحسب. إذ برغم أن الصومالي يستعمل المال والعملة من ورق وفضة كوسيلة للتبادل التجاري، يظل عدد الجمال ونوعيتها عنده هما ثروته الحقيقية، مصدر وجاهته الدائمة. ومن هنا ملامح «البداوة» في الشخصية الصومالية. فالمهر في الزواج لا يدفع إلا بعدد معين من الجمال يتناسب مع ثروة العريس ومكانته. ولا ينقص مهر المرأة ذات المكانة عن خمسين جملاً. والفارق بين حياة الرجل والمرأة يظهر بعدد الجمال المخصصة لكل منهما إذا قتلا. فدية القتيل لا تنقص عن مئة جمل، بينما لا تتجاوز دية القتيلة نصف هذا العدد. وأي نوع من التعويض المادي يحسب بالجمال. أما الغنم والماعز، حتى البقر، فنوع من «الفراطة» ولا تعامُل به إلّا في المسائل الثانوية. لذلك ينصب اهتمام الرجل على الجمال ويبقى للمرأة أمر الاعتناء بالماعز والغنم والماشية الصغيرة الأخرى.

ولكل قبيلة صومالية زعيم أو قائد يسمى «السلطان»، من غير أن يكون لهذا الاسم السلطة والمقام اللذان للسلطان الحقيقي. فالسلطان هو كبير القوم في القبيلة. أما الاسم فمن بقايا الامبراطوريات الإسلامية وللتيمن بها. وأكثر هؤلاء السلاطين ينتخبون انتخاباً على يد القبيلة كلها، حتى الذي يتولى المنصب وراثياً يخضع لموافقة شيوخ القبيلة. وعملية اتخاذ القرارات، ديموقراطية إلى حد الفوضى، لأن أي قرار بشأن اختيار المراعي أو الحرب ضد قبيلة أخرى، يجب أن يخضع للتصويت من قبل القبيلة جمعاء. والقرابة بين القبائل، أكانت عن طريق الوراثة أم عن طريق الزواج، تلعب دوراً أساسياً في الولاء السياسي. والولاءات العائلية هي الأساس في الانتماء السياسي، وعلى قدر قيمة هذه القرابات وأهميتها، تكون درجة الرجل ومكانته الاجتماعية.

وانتقل الولاء القبلي إلى الصومال الحديثة وأحزابها. فهناك ما لا يقل عن ثمانية عشر حزباً في الجمهورية الصومالية. أهمها الحزب الحاكم «رابطة الشباب الصومالي»، الذي فاز في الانتخابات الأخيرة، وهو حزب الأكثرية منذ عام ١٩٦٠ لأنه الذي جاء بالاستقلال. ورئيس الجمهورية هو الدكتور عبد الرشيد علي شيرماركة الذي انتخب رئيساً في حزيران عام ١٩٦٧، بعد السيد ادن عبد الله عثمان الرئيس منذ تأسيس

الجمهورية. وكان شيرماركة رئيساً للوزراء في السنتين الماضيتين. أما رئيس الوزراء الحالي، وهو أيضاً من «رابطة الشباب الصومالي»، فهو السيد محمد ابراهيم عجال، الذي كان وزيراً للتربية في الحكومة السابقة. وقد ألف الوزارة في حزيران عام ١٩٦٧. والأحزاب الأخرى، أو أحزاب الأقلية، الممثلة في الجمعية الوطنية الصومالية، هي: «المؤتمر الاشتراكي الصومالي»، الذي انشق أخيراً وانضم عدد من أعضائه إلى حزب الحكومة. وحزب «اتحاد الشعب الصومالي» الشيوعي الصومالي وله عشرة نواب في الجمعية. ثم «حزب العمال الثوري الاشتراكي»، الذي انشق في الأصل عن «اتحاد الشعب»، وهو الشيوعي الموالي للصين، وله نائبان. و«حزب الاستقلال الصومالي» وله خمسة نواب، وهناك بعض النواب المستقلين يشكلون الهيكل السياسي ـ الحزبي للبرلمان الصومالي.

ولولا الحزبان الشيوعيان لكادت الخلافات الأساسية بين الأحزاب أن تنعدم. فالفوارق هي في الأشخاص وفي المواقف. والحزبان الشيوعيان بفضل انتماءيهما إلى كل من موسكو وبكين يؤلفان الحلقة الكاملة للسياسة الصومالية «الحيادية»، المستفيدة بشكل واقعي من أكثر من معسكر واحد. فإن للاتحاد السوفياتي سفارة كبيرة في مقديشو، ومن مساعداته البارزة مصنع للألبان والتعليب في شمال الصومال. وأما الصين فقامت ببناء مسرح ضخم في قلب العاصمة، ولها سفارة نشيطة جداً. وللولايات المتحدة سفارة ضخمة، وتقدم مساعدات متنوعة. وكان للاستقبال الحماسي الذي لقيه نائب الرئيس الأميركي هيوبرت همفري عند زيارته في كانون الثاني عام ١٩٦٨، ضمن جولة له في بلدان شرق افريقيا، صداه المستحب لدى الأوساط الأميركية، مما أقنعها بحقيقة «حياد» الصومال. وبريطانيا أعادت العلاقات الديبلوماسية منذ عدة أشهر فقط، بعدما قطعت معها نتيجة لرفضها تنفيذ وعدها بإجراء استفتاء في الأراضي الصومالية الشمالية الواقعة تحت سيطرة كينيا وذلك قبل منحها الاستقلال. إلا أن بريطانيا نكثت واعتبرت الأراضي الصومالية هناك جزءاً من كينيا، وخلقت أزمة طويلة عريضة بينها وبين كينيا والصومال، لم تسو إلا أخراً، بعودة العلاقات مع كل من بريطانيا وكينيا، بعد تخلي الصومال عن أسلوب التحرير المسلح، وفشل فكرة حرب العصابات وأعمال العنف على الحدود، والتي كان من جرائها أن خلقت عدداً من اللاجئين، وتسببت في تدمير ممتلكات الأهالي ومواشيهم.

وفي الصومال، أربع صحف، واحدة يومية بالايطالية اسمها «كوريه دولا صومالي» وأخرى بالعربية اسمها «صوت الصومال»، وأخرى أسبوعية بالانكليزية اسمها «صومالي نيوز». وكلها حكومية تصدرها وزارة الاعلام. وهناك صحيفة الحزب الشيوعي «اتحاد الشعب»، جناح موسكو. وكانت الصين قد أهدت الحزب مطبعة قبل الخلاف السوفياتي ـ الصيني. ولما وقع الخلاف، وانشق الحزب الشيوعي الصومالي اثنين، استولى جناح موسكو على المطبعة، واستمر يصدر جريدته بها. وبقي الشيوعيون الصينيون في الصومال بلا جريدة وبلا مطبعة.

والصومال اليوم في حمّى معركـة انتخابيـة، ستجري في آذار عـام ١٩٦٩. لذلـك تجهد الحكومة في تنفيذ عدد من المشاريع المجمدة، وتعمل عـلى تحسين عـلاقاتهـا مع جميـع الدول المجاورة. وقـد عادت الأمـور إلى طبيعتها مـع كل من كينيـا وأثيوبيـا وبريطـانيا وفرنسا. وكانت زيارة رئيس الوزراء لباريس ضمن المساعي لإزالة الجفـاء بين البلـدين بسبب جيبوتي، لولا أن الزيارة التي كان موعدها منتصف أيـار أجّلت بسبب الأوضاع الفرنسية حينئذٍ.

والصوماليـون غير مسمـوح لهم بدخـول جيبوتي، فهي منطقـة مغلقة كلياً دونهم. وقد أبدلت فرنسا اسمها الذي كان الصومال الفرنسي، فجعلته «ممتلكات فرنسا عبر البحار» رسمياً و«بلاد عفار وعيسى» محلياً. وعفار وعيسى هما القبيلتـان الكبيرتـان في الصومـال الفرنسي. وغرضها في ذلك محو اسم الصومال كلياً من أذهان المواطنـين واستبعاد أيـة فكرة لانضمامهم في المستقبل، والتركيز على الشخصية القبلية المستقلة. وكل من قبيلتي عيسى وعفار، صومـالي، مسلم، يتكلم الصومـالية، ولـه الصفات والمـلامح الصـومـاليـة المشتـركة. وكـان من موسم الانتخـابـات أن رفـع من أسهم الشعـراء، الـذين بـدأوا يعرضون بضاعتهم على الأحزاب المتنافسة. ومن يضم أكبر عدد من الشعراء، لا بد أن تكون له الغلبة.

يبقى أمر أساسي هو انفتاح الصوماليين على العـالم الخارجي بشكـل لافت، بل بشكـل مثير. ولعل هذا التلهف لمعرفة ما يحدث خارج حدودهم، يفسر تفتحهم عبر تاريخهم كله على القادمـين اليهم من الشواطىء البعيـدة. وهم بطبيعتهم وتقاليـدهم شعب مضياف. واحتكاكهم الطويل بموجات الوافدين من ايطاليين وفرنسيين وبريطانيين ومصريـين، إلى جانب العرب من اليمن وحضرموت والخليج، بث فيهم هـذا «الهم» الدائم، نـاهيك بـأن الإسلام عزز ارتباطهم بالعـرب، وزاد من همومهم وأشرع لهم نـوافذ جـديدة يتطلعـون منها إلى ما وراء افريقيا والزنوجة المحيطة بهـا. لذلـك فإن مـا يشغل بـالهم اليوم هـو مصير فلسطين. أما شغلهم الآخر، فايطاليا وما يدور فيها. إذ تهمهم السياسة الايطالية مثل العربية. ولعل العلاقات الصومالية ـ الايطاليـة من أطرف مـا بين دولـة مستعمرة قديمة، ودولة عانت من استعمارها واستقلت. والايطـاليون هم العنصر الأوروبي المنتشر والمسيطر في الصومال، تراهم في الخدمات العامة والمزارع والمطاعم والفنادق. والحكومة الايطالية تدفع سنوياً العجز الدائم في موازنة الصومال، وتوفر لها المساعدات الثقافيـة والتقنية. حتى أن الصوماليين موزعو الولاء بين الأحزاب الايطالية. والحزب الشيـوعي الصومالي، «اتحاد الشعب»، ذو صلة وثيقة بالحـزب الشيوعي الايطـالي. وكانت زيـارة وزير الخارجية الايطالي امنتوري فنفاني في شباط عام ١٩٦٨، مناسبة ضخمة للصومال لاظهار عواطفها الايطالية. وهو أول مسؤول ايطالي زار البلاد منذ الاستقلال. كما أن في مقديشو كلية جامعية تابعة لجامعـة روما، تـدرس الحقوق والاقتصـاد فقط، إذ ليس في جميع الصومال كليات للطب أو للهندسة أو للعلوم.

والتاريخ الصومالي عابق بنفح الروائح الإسلامية. فبطل الثورة الصومالية الكبرى، ثورة

الـدراويش من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠، هـو السيـد محمـد عبـد الحسن، شيـخ الطـريقـة الصالحية احدى الطرق الصوفية في الإسلام، والتي أتى بها من الشيخ محمد صالح في مكة، عندما قام بزيارة للحجاز عام ١٨٩٠. ومن الطريقة الصالحية، اتخذ الشيخ محمد عبد الحسن منبرا لبداية فكرة النضال ضـد الأجانب «الكفـار». وقد ظـل عشرين سنة يقـاوم البريطـانيين والايطـاليين حتى مـوته عـام ١٩٢٠ اثر مـرض مفـاجيء. وكـانت «القادرية» التي جاء بها الشيخ عبد القادر الجيلاني من العراق، هي المذهب الإسلامي المهيمن، حتى جـاءت «الصـالحيـة» تنافسهـا وتبزهـا في دعوتهـا إلى المزيـد من الطهـر والتقشف والامتناع عن الملذات. وكانت «الصالحية» وراء حركة لتحريم «القـات» ومنعه في الصومال. ثم ان الحروب التي شنها الصومال المسلم ضد الحبشة المسيحيـة، كانت من بقايا الزخم الديني الذي أتاها مع الفتوحات الإسلامية.

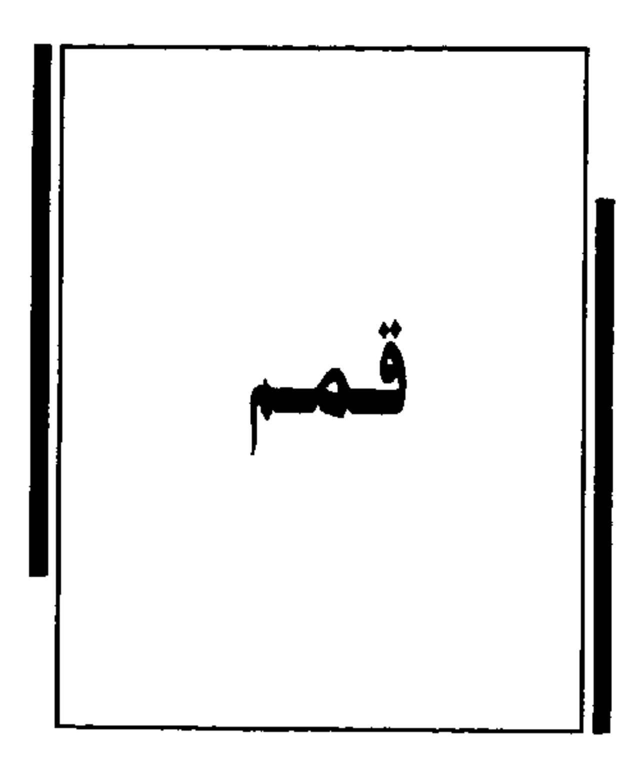
ومع كونْ مقديشو معقلاً إسلامياً واضح المعـالم (برغم الكـاتدرائيـة الكاثـوليكية التي بناها الايطاليون أيام الفاشستية الموسولينية عام ١٩٣٠) فإن هناك مدنـاً أخرى تمتـد على الشاطىء الذي هو ثاني أطول شاطىء في افريقيا كلها، منها كيسمايو وبرافا وميركا وورشيخ، وهي أسماء عرفها البحارة منذ عرفوا تلك البحار. وفي الشمـال مدينـة زيلا، البلد الإسلامي الأهم في الصومال، والذي كتب عنه الرحالة العربي ابن بطوطة لما زاره في القرن الرابع عشر. وما زالت آثار زيلا الإسـلامية العـريقة قـائمة وفي الـداخل تقف هرغيسا (عاصمة الصومال البريطاني السـابق) كأحدث ما تكـون المدن التي شيـدها عصر الاستعمار. ومن هذه المدن خرج أشخاص التاريخ الصومالي المضطرب إلى رحاب «أرض العطر والبخور» كمـا سماهـا قدمـاء المصريين. ولعـل أهمهم الشيخ محمـد عبد الحسن، أو «الملا المجنون» كما سماه أعداؤه، والذي أصبح اليوم وليـاً من أولياء اللـه الصالحين في الصومال وبطلاً. وأحمد غـوري، الملقب «العسراوي» والذي عـرفه العـرب والبرتغاليون والأحباش بهذا الاسم، لانه كان أعسر يستعمل يده اليسرى والذي احتـل في القرن السادس عشر مساحات شاسعة من شمال شرق افريقيا. كما تـروي القصص والأساطير والعدة من القصائد عن الزعيم الصومالي ويـل ـ وال ـ أي الولـد المجنون ـ الذي كان لسانه وشعره، إلى جانب لسان زوجته، أشهر من سيفه.

والخصب علامة في تاريخ الصومال قديمه وحديثه، كما هو علامة أرضهـا وحيوانـاتها. انه ينفتح على العيون بأحلى الوانه، كلما توغـل الزائـر في البلاد أو في حكـاياتهـا أو في شعرها. وفي الايام الكسولة التي مرت عليّ في مقديشـو، كانت في كـل حجر، كمـا في كل وجه أسمر يتطلع إليّ، دعوة للبحث والتقصي، في أغوار ذلك البلد الباقي من بقايا الكتب الصفراء، والمطل بلا أحرف، على القرن العشرين بلباس نصفه عـربي ونصفه افـريقي، بتطريز وأزرار ايطالية. وكم تمنيت لـو أن الحكومـة اتفقت على الحـرف الذي تـريد أن تكتب به اللغة، اذن لحملت معي أحلى الشعر، وتركت ورائي كل عطر افريقيا وسحرهـا واشجانها.

في مقديشو يرجع التاريخ إلى الوراء من غير أن يفقد حسه بالزمن او بالساعة أو باليوم.

على الأقل هكذا قالت القصيدة التي ودعني بها صديقي الصومالي، رفيق الرحلة المتعبة التي حملتنا معاً من قلق عدن، إلى رحابة الغابات الخضراء والشواطيء الصافية. لكنها رحلة لم تعطنا متعة الراحة إذ نحن لسنا محاربين لنرتاح بل شهود مـزمنون لاجهـاض الآمال في كل ثورة جديدة.

مقديشو - (١٩٦٨/٦/٩)


قمم



لاهور - ١٩٧٤

■ أمجاد مشكوك فيها

ودعت لاهور بقايا أمجاد القمة الإسلامية الثانية بكثير من الذكريات، وقد تفرق ملوك ورؤساء المسلمين كل في اتجاه، وبدأ حساب الأرباح والخسائر. وإذا أردنا تقييم هذا المؤتمر، بعيداً عن دعوة الرئيس الأوغندي عيدي أمين إلى انتخاب خليفة للمسلمين، وقوله في مؤتمره الصحافي الذي عقده انه اختار مرشحاً للخلافة إلا أنه يحتفظ بهذا الاسم لنفسه إلى وقت لاحق، علينا أن نتذكر تاريخ المؤتمرات الإسلامية السابقة منذ بداية هذا القرن والحافل بكثير من خيبات الأمل.

المؤتمر الإسلامي الأول الذي عقد في القاهرة عام ١٩٢٤ بدعوة من الملك فؤاد، وكان أول تجمع إسلامي من نوعه هذا القرن، كان يهدف، إلى جانب بحث الأمور التي تهم المسلمين في العالم والتي بحثها ويبحثها كل مؤتمر إسلامي منذ ذلك التاريخ، إلى السعي لتثبيت دعوة ملك مصر والسودان ذلك الحين لوراثة الخلافة الإسلامية اثر سقوط الامبراطورية العثمانية والغاء الخلافة وانهاء حكم السلطنة. وللهدف نفسه، دعا الملك عبد العزيز آل سعود إلى المؤتمر الإسلامي الثاني في مكة عام ١٩٢٦، في السنة التي أعقبت سيطرته الكاملة على الجزيرة العربية بعد استيلائه على الحجاز من الهاشميين. وكان الهدف من دعوة الملك عبد العزيز ذلك الحين اعتراف العالم الإسلامي بملكه الجديد، بالإضافة إلى طموحه للوصول إلى الخلافة. وحقق الملك عبد العزيز بعضاً من طموحه عن طريق هذا المؤتمر الذي دعي أساساً للبحث في جعل الحج أقل مشقة، بانتزاع اعتراف واقعي من أكثر الدول الإسلامية. وجعل المؤتمر لنفسه أمانة دائمة تدعوه إلى الاجتماع عند الحاجة.

ولم ينعقد هذا المؤتمر مرة ثانية في مكة إلى أن كان المؤتمر الثالث الذي عقد في القدس عام ١٩٣١، والذي دعي لأسباب تختلف كلياً عن مؤتمر مكة وفي اطار ظروف جديدة. وجاءت فترة الخمسينات والستينات التي أعقبت فترة الحرب العالمية الثانية وما سبقها

وما تبعها من تغيير في موازين القوى العالمية، فدخل العالم العربي في الحرب الباردة حين واجهت الأنظمة «التقدمية» الأنظمة «الرجعية». في ذلك الوقت، كانت اقتراحات عقد مؤتمرات إسلامية تأتي من الدول «الرجعية» في محاولة ظاهرية لايجاد شيء من الوحدة في صفوف المسلمين، لكن هدفها كان في الواقع الدفاع عن النفس ضد الضغط «الاشتراكي» المتزايد من الدول «التقدمية»، وتفادياً للعزلة التي وجدت الأنظمة «الرجعية» نفسها فيها.

حتى جاء مؤتمر الرباط عام ١٩٦٩ إثر حريق المسجد الأقصى وكانت مقاييس العالم العربي بدأت تتغير بعد هزيمة عام ١٩٦٧. وإذا بالقاسم المشترك الأعظم في كل هذه المؤتمرات، هو خروج البلد الداعي بكسب معين، أو تحقيقه لطموح خاص.

ولم يشذ مؤتمر لاهور عما سبقه من مؤتمرات من هذا النوع. فقد انتهى المؤتمر بنجاح كبير لباكستان وزعيمها ذو الفقار علي بوتو، من دون أن يشارك في هذا النجاح أي قضية طرحت أو أية دولة مثلت. كان كل النجاح من نصيب البلد المضيف، فحضور هذا الحشد الضخم من قادة دول العالم، وانعقاد المؤتمر على أرض أعرق مدن القارة الهندية إسلاماً وضعا باكستان على الخريطة كدولة ذات أهمية وثقل في العالم الإسلامي ـ الشرق أوسطي ـ اللامنحاز. وكانت باكستان في حاجة إلى إعادة الاعتبار اليها بعد حرب عام ١٩٧١ وانفصال جزئها الشرقي عنها واعلان دولة بنغلادش وهزيمتها العسكرية في وجه الهند. كذلك أعاد مؤتمر لاهور الثقة إلى باكستان بأن رابطة الإسلام ـ وهو مبرر وجود قيامها كدولة أساساً ـ هي في أهمية رابطة الأحلاف الاقليمية أو المركزية او معاهدات الصداقة، كما ثبت أقدام زعامة ذو الفقار علي بوتو. وقد لعبت شخصيته الأنيقة القريبة إلى النفس المحببة إلى الناس المشبعة بروح النكتة والملمة بثقافة واسعة دوراً مهماً في المؤتمر.

وبوتو رجل طموح. وهناك من يقول، بين الذين يعرفونه، إنه أكثر رجال آسيا طموحاً. لذلك كانت تصفية علاقاته مع الشيخ مجيب الرحمن رئيس وزراء بنغلادش أمراً أساسياً وحيوياً. فاعتراف باكستان ببنغلادش كان ممكناً فقط من ضمن المؤتمر، ليسهل تمريره في وجه المعارضة الباكستانية الممثلة باليمين الديني ـ الذي هدد في مناشير وزعت في المؤتمر بحرق لاهور إذا اعترف بوتو بالانفصال البنغالي ـ والممثلة أيضاً بالمعارضة اليسارية الطالبية التي تعتبر ان الدماء الكثيرة التي اريقت في حرب باكستان الشرقية لم تجف، والأسرى كلهم لم يعودوا بعد، والآلام التي خلفتها وحشية قتال تلك الأيام السوداء ما زالت في وجوه آلاف الأرامل والأيتام، ومرارة الهزيمة ما برحت في حلق الباكستانيين. إلا أن بوتو استطاع، خلال سنتين، ان يواجه شعبه بالحقائق السياسية التي تقول ان لا عواطف في علاقات الدول ولا آلام ولا دماء، بل مجرد حقائق واقعة وثابتة، والبعض القليل من الذكريات.

انطلاقاً من هذا كله، كانت عملية «تثقيف» الباكستانيين لبناء باكستان جديدة واحدة من دون جناح شرقي لها يفصل بينهما عشرات الآلاف من الأميال، تتطلب صبراً كبيرا

لا ينفد وشجاعة فائقة. جرح بنغلادش ما زال ينز ومواجهة الباكستانيين لها بواقعية ما زالت أمراً غاية في الصعوبة. وعلى رغم ذلك توجه بوتو إلى المطار ليكون في استقبال مجيب الرحمن وعانقه وتجول معه في لاهور وسط جماهير البنجاب التي لم تكن كلها ودية تجاه زعيم بنغلادش. وزاد من شجاعة بوتو أنه جاء بالاعتراف من دون أن يأتي مجيب الرحمن بأمر الافراج عن الـ ١٩٥ أسير حرب المحتجزين في الهند، مجيب الرحمن لمح إلى أن محاكمتهم لم تعد واردة. وبوتو لمح إلى أنه سيتم الافراج عنهم قريباً. لكن لا بوتو يستطيع أن يعلن الضمانات التي أعطيت لوفد المؤتمر للمساعي الحميدة برئاسة الشيخ صباح الأحمد الجابر وزير خارجية الكويت وعضوية فؤاد نفاع وزير خارجية لبنان، ولا الشيخ مجيب يقدر أن يكشف الضغوط التي تمارس عليه من اجلهم. والباكستانيون يريدون أن يروا أسراهم اليوم وليس غداً.

لذلك لم يكن الاعتراف ممكناً إلا في المؤتمر، ولم يكن ممكناً فرضه والاستمرار فيه ومتابعته من دون المؤتمر. وكان هذا نجاح المؤتمر الوحيد، تقريباً، ولو كان هذا النجاح «طشقند بوتو» ـ كما تقول المعارضة الباكستانية ـ نسبة إلى مؤتمر طشقند الذي أتى بنهاية لال بهادور شاستري رئيس وزراء الهند الراحل عام ١٩٦٦، إثر الحرب الهندية ـ الباكستانية.

وكان الفشل من نصيب الباقي، لا لأن الحدث الثاني المهم في المؤتمر لم يقع فقط ـ وهو اعتراف السعودية بدولة الامارات العربية المتحدة عن طريق حل نزاعها مع أبو ظبي وفق الوساطة الكويتية التي هيأت أرضية التفاهم عبر أدق تفاصيلها، بل لأن تفاهماً آسيوياً ـ إسلامياً مغمساً بالدم كاعتراف باكستان ببنغلادش حدث، وتفاهماً عربياً ـ إسلامياً مزروعاً بالعناد الشخصي، كاعتراف السعودية بأبو ظبي، لم يحدث. أما ما تبقى من «بيان لاهور»، في ما يتعلق بالقدس وقضية الشرق الأوسط، فسيبقى محفوظاً في دفاتر التاريخ المعاصر. وحتى تجتمع اللجنة الاقتصادية للنظر في موضوع التعاون الانمائي والاقتصادي للدول الإسلامية، بحيث يعطي من عنده من ليس عنده، ثم ترفع توصياتها خلال شهرين إلى مؤتمر لوزراء الخارجية يعقد في كوالا لامبور، تكون أحداث كثيرة مرت، مما سيغير الكثير من معطيات اليوم.

صحيح ان المؤتمر ليس منبراً للوعظ والارشاد في فضائل الدين الحنيف، وأن الرابطة الإسلامية التي تشد أعضاءه بعضهم إلى بعض ليست أكثر من هوية يعرف بها، لكن تحوله إلى شبه كومنولث إسلامي يجمع بين الدول الإسلامية، كما كان يجمع الكومنولث البريطاني بين مستعمرات الامبراطورية، هو الطريق الوحيد المفتوح أمام المؤتمر الإسلامي والفكرة التي بني على أساسها لينطلق إلى تحقيق الايجابيات المطلوبة منه.

لاهور ـ (١٩٧٤/٢/٢٧)



نيودلهي ـ ١٩٨٣

المدينة الحمراء

تبدو نيودلهي هـذه المدينـة الحمراء المنبسطـة عاصمـة طبيعية للعـالم الثالث. كل ما فيها يوحي بأنها صاحبـة قلب مختلف ينبض بخفقات لا يعرفها عالم آخر، لا ثان ولا أول. لذلك تتصرف العاصمة الهندية وكأنها عروس داهمتها فرحة الزواج بعد خطبة طويلة. فقد استعدت في ثلاثة أشهر ـ لما يحتاج عـادة وتقليداً ثلاث سنوات أو أكثر ـ ودعت ٩٧ مدعواً وأقرباءهم لحضور العرس السابع للبنت التي ربتها ورعتها وحافظت عليها وسـاهمت في نشأتهـا وتربيتهـا. وكان من الطبيعي أن تتم الأفراح في ديارها ولو جاء الطلب متأخراً والدعوات مترددة.

في هذه المدينة التي يوحي أكثر ما فيها بمزيد من العراقـة العظيمة والبسـاطة الفقـيرة تبدأ القمة السـابعة لحـركة دول عـدم الانحياز من دون أي ابطـال. لقد غـاب الثلاثي التاريخي الذي بدأ هذه الحـركة وأطلقهـا في الخمسينات. ويبـدو هذا الغيـاب واضحاً اليوم في مدينة جواهر لال نهرو، وهو يطل عليهـا من الصور الكبـيرة المنتشرة في شوارع دلهي مع رفيقيه جمال عبد النـاصر وجوزيف تيتـو. انها القمـة الأولى التي يغيب عنها التاريخيون. في القمة الثالثة في كوبا كان هناك آخرهم تيتو. في القمة الـرابعة كـان عبد الناصر ما زال هناك. في القمة السـادسة كـان نهرو مـا زال أيضاً هنـاك. أما في القمـة السابعة فقد أصبح الغياب كاملاً.

وتبدو انديرا غاندي ابنة نهرو وحاملة اختامـه ووريثة حكمـه، في أكبر ديمـوقراطيـة في العـالم المعاصر، امـرأة وحيدة. غـاب الرجـال وتغير الـزمان واختلفت المفـاهيم وازداد الاتباع.

وسط هـذه المدينـة المشغولـة بمواقف وآراء ضيـوفها بقـدر ما هي مشغـولة بـراحتهم وأمنهم، بدأت حركة عدم الانحياز بجرد حسابات المستقبل استناداً على مواقف الماضي

لتقيم بها أحداث الغد، فقد كان الجدول طويلاً والحسابات معقدة.

ولم يبحث وزراء خارجية ٩٧ دولة يتراوح سكانها بين الآلاف والملايين، وأحجامهم بين الجزر الصغيرة والقارات، وثرواتهم بين العدم والملايين، بأكثر من مواضيع حصرت بالشكليات هرباً من الأساسيات في محاولة للخروج بشيء من الاتفاق قبل أن يصل الملوك والأمراء والرؤساء أو الممثلين لهم إلى القمة.

كان للمؤتمر هموم أخرى غير سياسية، فقد تراجعت الفنادق الكبرى التي تضم الوفود عن اعلانها بأنها ستقدم في مطاعمها ووجباتها لحم الخنزير والبقر كالمعتاد. لقد أثار هذا الاعلان غضب أوساط كثيرة مما دفع وزارة الخارجية الهندية للتدخل لدى ادارة الفنادق لوقف تقديم لحم الخنزير والبقر معاً. الأول لعدم الاساءة للمسلمين من أعضاء الوفود. والثاني لعدم الاساءة للهندوس. فقد أعلنت بعض الوفود بأنها ستجرب الطعام النباتي طوال أيام المؤتمر، كمحاولة لتخفيف الضغط على الدجاج والخرفان. كذلك ربما لتخفيف الوزن.

أما الأمن فيبقى الهاجس الأساسي لهذا المؤتمر فلم يسبق للهند أن نظمت عملية أمنية بهذا الحجم مئات من رجال الشرطة والمخابرات والكوماندوز تجدهم في كل مكان يمكن أن يلتقي فيه الوفود. وقد استبدلت نوافذ أربع فنادق سيحل فيها بعض رؤساء الوفود بزجاج لا يخترقه الرصاص، كما تم وللمرة الأولى في تاريخ الهند استيراد سيارات مرسيدس لا يخترقها الرصاص لنقل رؤساء الوفود.

وليس في كل الهند سيارة فخمة واحدة خارج سيارات البعثات الديبلوماسية المستوردة. والهند تصنع سيارات «امبسادور» التي هي من طراز «أكسفورد» موديل ١٩٥٤ الانكليزية المعروفة والتي يركبها كل المسؤولين الهنود بمن فيهم رئيسة الوزراء. وقد وضعت مجموعة من هذه السيارات تحت تصرف أعضاء الوفود وزوجاتهم. وسمح لرؤساء الوفود اصطحاب حراسهم الشخصيين معهم على أن لا يتجاوز عددهم ستة، وأن يكونوا من حملة المسدسات فقط أما الرشاشات فممنوعة.

نيودلهي - (١٩٨٣/٣/٦)

الزعماء المنحازون

كانت نيودلهي مشغولة طوال اليوم باستقبال زعماء دول عدم الانحياز الذين توافدوا إلى مطار العاصمة الهندية. وقد بدت أكثر توتراً من الناحية الأمنية وأكثر استسلاماً من الناحية السياسية.

فعلى أرض مطار «بلام» كان توزيع الاختصاص واضحاً بين رئيسة الوزراء انديرا غاندي وبين رئيس الجمهورية زايل سينغ. أنديرا ـ التي بدا التعب واضحاً عليها بعد يومين تقريباً من بقائها المتواصل في المطار ـ تستقبل الزعماء من مرتبة رؤساء الوزراء وسينغ يستقبل الزعماء من مرتبة الملوك والأمراء والرؤساء.

فيدل كاسترو كان الزعيم الوحيد الذي استقبلته أنديرا غاندي من دون أن يكون رئيساً للوزراء. إنما استقبلته بصفته رئيساً للدورة السابقة لقمة عدم الانحياز التي عقدت في هافانا عام ١٩٧٩ وبصفتها رئيسة الدورة الحالية المنعقدة اليوم في نيودلهي. وعندما تركت أنديرا المطار في ليل هذا اليوم الطويل الحافل، بدت على الرغم من تعبها ـ لنا نحن المصطفين خلف نوافذ قاعات الاستقبال ـ بأنها تضيء سبعاً وتسعين مرة أكثر من غالبية الزعماء الذين استقبلتهم.

أنديرا غاندي تعرف لماذا. لقد بلغ إعلان نيودلهي السياسي ٢٦ صفحة كاملة، بينما كان اعلان بلغراد ٦ صفحات. عشرون صفحة في عشرين سنة.

كل محاولات الانقاذ الهندية لم تمنع قمة عدم الانحياز من أن تواجه جدول أعمال طويلاً وغير رسمي لتتخذ فيه مواقف معينة. هذا الجدول التساؤلي يمكن أن يؤكد على التالي:

ـ **أولاً**: الأرجنتين الدولة الجديدة في عضوية الكتلة والتي حضر رئيسها ستواجه انتقادات عنيفة بالنسبة لعلاقاتها مع جنوب افريقيا وإسرائيل.

ـ **ثانياً**: مصر التي أعيدت إلى الكتلة بعد طردها من كتلة هافانا عام ١٩٧٩ وحضرت مؤتمر وزراء خارجية دول عدم الانحياز في مناغوا عاصمة نيكاراغوا قبل شهرين، ستحاول أن تعيد نفوذها إلى الحركة بصفتها عضواً مؤسساً فيها، محاولة تطويق عزلتها في العالم العربي.

ـ **ثالثاً**: تشاد. صراع حسين حبري وجوكوني عويدي وليبيا بينهما.

ـ **رابعاً**: ناميبيا وجنوب افريقيا، بعض الأعضاء سيربطون بين خروج الكوبيين من انغولا لموافقة جنوب أفريقيا على استقلال ناميبيا. وموضوع كوبا موضوع محرج لحركة عدم الانحياز ككل.

ـ **خامساً**: الشرق الأوسط. ستحاول الهند أن تدفع حركة عدم الانحياز إلى دور وسيط

أساسي بين العرب وإسرائيل. وقد يكون هذا الموقف مستغرباً مبدئياً ومستبعداً ولكن من المثير معرفة آراء مختلف الفرقاء فيه.

ـ سادساً: افغانستان، هل سينتقد الأعضاء موقف الاتحاد السوفياتي أم سيحصرون مطالبتهم «بانسحاب القوات الأجنبية» من دون أن يشيروا صراحة إلى الوجود العسكري السوفياتي هناك؟ ان مواقف باكستان والهند وايران لا بد وأن تحمل مسؤوليات عميقة.

ـ سابعاً: حوار الشمال والجنوب واصلاح النقد العالمي، بنغلادش أخذت دوراً أساسياً في هذا الموضوع، إنما دور الجزائر أساسي فيه أيضاً.

ـ ثامناً: أميركا اللاتينية، نزاع المعتدلين والراديكاليين حول قضايا القارة الأميركية اللاتينية، هناك توقعات لدور أساسي في نيكاراغوا بصفتها رئيسة مجموعة الدول اللاتينية.

ـ تاسعاً: كوبا دورها والمقارنة بين رئاستها لدورة هافانا ورئاسة الهند لدورة نيودلهي، هل ستكون الهند أكثر توازناً في ادارة الجلسات؟ وهل ستغير الهند من موقف كوبا التي اعتبرت: ان دول عدم الانحياز حليف طبيعي للاتحاد السوفياتي؟

ـ عاشراً: مواقف الدول الأفريقية من مختلف القضايا المطروحة لكونها كتلة مؤثرة داخل مجموعة عدم الانحياز.

ـ حادي عشر: مَنْ يحتل مقعد (كمبوديا) الشاغر؟ نظام هنغ سامرين الحاكم والمؤيد للاتحاد السوفياتي والمدعوم من فيتنام، أم التجمع الديموقراطي المعارض بزعامة الأمير سيهانوك؟

لعل أبلغ تعليق على المؤتمر صدر حتى الآن هو صورة كريكاتورية للرسام الهندي المعروف لكسمان عضو صحيفة «تايمز أوف أنديا»، حيث يظهر قاعة المؤتمر واثنين من الأعضاء يتحدثان مع بعضهما. الأول يقول للثاني: «انني دائماً أهاجم أميركا وروسيا من دون تسميتهما حتى لا أجرح شعور الدول المنحازة لهما».

نيودلهي ـ (١٩٨٣/٣/٧)

نجمتان متألقتان

كان هناك نجمتان متألقتان في سماء نيودلهي الزرقاء الصافية اليوم. واحدة حملت صفاء وهدوء وحكمة عدم الانحياز بالاستمرار على طريق السلم المتسامح، الثانية كانت لوحدها تضيء بحيوية عجيبة طريقة الدورة الدائمة والحركة الدؤوب لأكثر الدول التي تشكل حركة عدم الانحياز. النجمة الأولى كانت تمثل عدم الانحياز بشكله التقليدي وبمبادئه الأساسية. النجمة الثانية كانت تمثل عدم الانحياز بشكله الثوري وبانحيازه غير الخجول إلى طريق التغيير الثوري المستمر.

الأولى كان اسمها أنديرا غاندي، والثانية كان اسمها فيدل كاسترو.

كان الافتتاح كبيراً، وكانت نيودلهي كأم العروس التي تحاول أن ترضي بحنان كبير ابناءها المستمعين وقد قفز عددهم عند جلسة الافتتاح من ثمانية وتسعين عضواً إلى مائة وواحد. ومن العجيب أن نيودلهي التي كانت موضع ولادة فكرة عدم الانحياز في ذهن جواهر لال نهرو، لم يسبق لها أن استضافت قمة من قمم حركة عدم الانحياز الست الماضية. ولولا استمرار الحرب العراقية - الايرانية لما وجدت العاصمة الهندية نفسها اليوم تحتضن اكبر تجمع للعالم خارج الأمم المتحدة. ونيودلهي لا تخفي فرحتها بالأقدار التي دفعتها لأن تكون مكان لقاء القمة السابعة، فتتوج ابنة ووريثة نهرو رئيسة لحركة عدم انحياز للسنوات الثلاث القادمة.

في اليوم الذي عادت زعامة حركة عدم الانحياز إلى الهند بدأ الامتحان لتحصينها أو حمايتها من الانقسام العالمي العقائدي، وبالتالي لا بد أن تكون ملعباً للخلافات الثنائية من جهة والخلافات الدولية من جهة أخرى. فإذا كان هناك من هو قادر على انقاذ حركة عدم الانحياز من الوقوع أسيرة لهذه الخلافات وبالتالي من الفشل فإن أنديرا هي قادرة على ذلك. لذلك قبلت اليوم مثلاً خمسين تعديلاً على الاعلان السياسي المقترح للمؤتمر الصعب لتواجه المبادىء الأساسية للحركة، وبدأ التحدي لزعامة أنديرا غاندي وقدرتها على الخلق وقد بلغت الحركة اليوم سن الرشد.

احدى وعشرون سنة مرت بين بلغراد ١٩٦١ ونيودلهي ١٩٨٣، وحركة عدم الانحياز قد اصبحت حركة عالمية ذات نفوذ لا ينكر وموقع لا يستخف به من قبل الدول الكبرى. لكن الهند تذكر أن اتساع هذه الحركة سيصعب مهمة تنفيذ الاعلان الذي صاغته الهند والذي سيصدر في نهاية الدورة، وهذا يفسر منتهى رحابة الصدر.

وافتتح فيدل كاسترو، بلباسه العسكري الرسمي ولحيته الكثّة، ووسط عاصفة من التصفيق الحاد، الجلسة الافتتاحية للقمة السابعة لحركة عدم الانحياز بصفته رئيس الدورة السابقة التي بدأت في هافانا عام ١٩٧٩، مسلماً رئاسة الدورة الحالية إلى أنديرا غاندي.

ووقفت المرأة الهادئة لتلقي كلمتها التاريخية برصانة، وكأنها بذلك تعيد شيئاً من التوازن الذي فقدته الحركة.

كانت كلمة أنديرا غاندي التي قاربت حدود الشعر بياناً لا يمكن أن يلقيه إلا زعيم من الهند، فسربت مبادىء عدم الانحياز مع مبادىء استقلال الهند ونضالها وديموقراطيتها. فكأنه من الخطوط العريضة لبرنامج عدم الانحياز للسنوات القادمة. وعلى طريقة المثل الهندي الذي ذكرته في خطابها «ان الحقيقة واحدة ولكن الحكماء يرونها بطرق شتى» كان خطابها يدعو بهدوء دول عدم الانحياز لرفع صوتها ضد الظلم مؤكدة أن هذه البلدان قد اختارت السلم وأن عدم الانحياز ليس مبهماً ولا سلبياً ولا محايداً. انه استراتيجية للاعتراف بتنوع العالم والحفاظ على هذا التنوع.

وجاء دور النجم الآخر فيدل كاسترو في جلسة بعد الظهر، ووعد بخطاب قصير بأنه شرح في بيان طويل وزع على الأعضاء انجازات رئاسته في السنوات الثلاث الماضية. وإذا بالخطاب القصير يستمر طوال ساعتين ويستحوذ على خمسين صفحة مطبوعة باللغة العربية ومؤلفة من ستين الف كلمة. ولعل أهم ما في خطاب كاسترو أنه شرح بصراحة موقف بلده كوبا من أحداث السنوات التي مرت منذ انعقاد قمة هافانا بانحياز واضح لكل الأطراف المتحالفة مع كوبا من دون أي تردد أو اعتذار.

يبقى بريق المؤتمر في يومه الأول للكلمات التي قالتها انديرا غاندي وهي تقبل شاكرة اختيارها بالاجماع رئيسة لحركة عدم الانحياز للسنوات الثلاث القادمة: «انها مسؤولية كبيرة وضعت على عاتقي. ففي عالم مجزأ إلى مراكز قوى كبرى انتمي إلى اللاانحياز. وفي عالم يسيطر عليه الأغنياء انتمي إلى دولة فقيرة ونامية. وفي عالم يسيطر عليه الرجال أنا امرأة».

نيودلهي - (١٩٨٣/٣/٨)

■ كلمات... كلمات... كلمات

كان اليوم الثاني لمؤتمر دول عدم الانحياز يوماً طويلاً، بدأ في العاشرة صباحاً وانتهى في الساعات الأولى من يوم الفجر التالي: كلمات... كلمات... كلمات... ألقيت من على منبر القمة ورئيس يتلو رئيساً في مضمون يكاد يكون مشابهاً. كلهم أكدوا مبادىء الحركة، وكلهم دعوا إلى انهاء الحرب العراقية ـ الايرانية، وكلهم ادانوا إسرائيل، وكلهم أيدوا منظمة التحرير الفلسطينية وضرورة التوصل إلى حل عادل ومشرف لقضية الشرق الأوسط. ولو خلطت الخطابات بعضها بالبعض لما عرف من قال ماذا ومن قال ذا عن هذا. ان الكل أكد القضية التي تعنيه أكثر لكن الكل أجمع على الخطوط العريضة بدءاً بنزع الأسلحة النووية وانتهاءً بالتنمية الاقتصادية والوضع المالي العالمي ونقل التكنولوجيا إلى العالم الثالث وسواها مما يكوّن صفحات طوالاً طوالاً.

ولم يغب عن القمة سوى دولة واحدة هي كمبوديا بحكم المقعد الشاغر. حضرت خمس وتسعون دولة زائد الدول الأربع الجديدة التي قبلت عضويتها أمس، وكانت ست وستون دولة ممثلة برئيسها أو رئيس وزرائها.

نيودلهي ـ (١٩٨٣/٣/٩)

■ ليلى المريضة

كان رؤساء وفـود دول عدم الانحيـاز كل يغني عـلى ليلاه لليـوم الثالث للقمة السابعة، بينما كان رؤساء الوفود العربية مشغولين بليلى مريضة في العراق وحربها الطويلة الدامية مع ايران. والتركيز كان واضحـاً على الحرب الايرانية ـ العراقية في أروقة المؤتمر امس من بين ثلاثة مواضيع أساسية:

الأول: افغانستان وكمبوديا، والدعوة لجلاء القوات الأجنبية عن أراضيهما والتي تعني القوات السوفياتية في الحالة الأولى والقوات الفيتنامية في الحالة الثانية.

الثـاني: الحـرب العـراقيـة ـ الايـرانيـة وقضيـة الشرق الأوسط بشقيهـا اللبنـاني والفلسطيني.

الثالث: نزع السلاح ووقف سباق التسلح وتحويل فوائـده إلى التنمية مـع دعوة الـدول الصناعية إلى حوار مع الدول النامية توصلاً لإعادة تنظيم النظام الاقتصادي العالمي.

نيودلهي ـ (١٩٨٣/٣/١٠)

■ الحمامة أم البومة؟

اليوم الرابع لقمة دول عدم الانحياز في نيودلهي بدأ باقتراح تحول فيما بعد إلى خلاف، الاقتراح هو تغيير شعار المؤتمر من حمامة سلام التي تعتلي حالياً الشعار إلى بومة. والانتقال من الحمامة إلى البومة يعود إلى أن البومة طائر ليلي يتصف بالحكمة والصبر وبعد النظر، في حين أن الحمامة طائر نهاري وديع وأليف.

وسبب هذه المقارنة أن جلسات المؤتمر أصبحت تمتد طيلة الليل إلى ساعات الصباح الأولى وأن الخلاف حول بعض النقاط بات يتطلب بعض الحزم من قبل الدول المشاركة في المؤتمر. وكان صاحب الاقتراح هذا صحافي تقدم به إلى الناطق الرسمي في المؤتمر وقد رفضه الناطق لأن عدداً كبيراً من الأعضاء يتشاءمون من البوم ولا يثقون كثيراً بحكمتها.

على صعيد الجلسات ما زال الكلام يتدفق أنهاراً في قاعة المؤتمر إذ يتوالى على المنصة رئيس وراء رئيس ينظر في شؤون مؤسسي العالم الثالث. وسيستمر سباق المسافات في الكلام الطويل حتى ليل غد الجمعة.

نيودلهي ـ (١٩٨٣/٣/١١)

■ كم مشكلة؟

سئل جواهر لال نهرو قبل حوالي ثلاثين سنة: ما هي مشاكلك الأساسية. بل كم مشكلة تواجهك؟ فأجاب قائلاً: «عندي ثلاثمائة وستون مليون مشكلة في الهند». العام كان ١٩٥٤ عندما كان تعداد سكان الهند ٣٦٠ مليون نسمة. وكان جواهر نهرو ـ على طرافته ـ يشير إلى حقيقة أساسية بأن كل المشاكل يجب أن ينظر إليها من خلال ثلاثمائة وستين مليون انسان، لا من خلال الاحصاءات الشاقة والمشاريع الورقية والقرارات السياسية غير القابلة للتنفيذ.

إذا سئلت ابنته اليوم ـ بصفتها رئيسة حركة دول عدم الانحياز ـ كم مشكلة تواجهك في القمة السابعة؟ لأجابت ١٠٠ مشكلة. والمائة مشكلة هي عدد دول عدم الانحياز التي تحضر مؤتمر نيودلهي.

نيودلهي ـ (١٩٨٣/٣/١٢)

ناقلو الأخبار السيئة

اليوم السادس والأخير للقمة السابعة لدول حركة عدم الانحياز، كان يذكر بالخرافة الهندية التي رواها نائب رئيس وزراء سنغافورة في المؤتمر عن الطريقة التي كان يعامل فيها أباطرة المغول حملة الأخبار السيئة. كانوا عندما يصلون إلى القصر يستقبلونهم بحفاوة وتكريم بالغين... وبعد أن ينقلوا إليهم الأخبار السيئة يأمرون الحرس بإخراجهم وإعدامهم فوراً.

والفكرة من وراء هذا العمل أن الحاكم القوي كان يعتقد بقدرته على تقبل الأخبار السيئة، لكنه لم يكن يثق بقدرة غيره من الناس على مواجهتها. لذلك كان يتعمد أن يبقى شعبه سعيداً عن طريق القضاء على مصدر الأخبار السيئة. لذلك لم يجد المؤتمر اليوم خبراً لينقل أخبار المؤتمر السيئة للصحافيين الذين انتظروا نتائجه بعد يوم طويل حافل استمر لساعات الصباح الأولى.

ومما ساعد على ازدياد التعليقات حول المؤتمر أن المركز الاعلامي للمؤتمر قرر توزيع البيرة مجاناً على كل الصحافيين من الساعة الواحدة ظهراً حتى الساعة الثامنة مساء وإلى نهاية المؤتمر. كذلك كان الاقبال كبيراً على الكباب الهندي وخبز الصاج الذي كان يشوى في حديقة المركز الاعلامي وكانت أكثر الأطباق شعبية الدجاج المشوي على طريقة التندوري.

إلا أن الأمر المحير في كل هذه القمة هو كيفية الوصول إلى اتخاذ القرارات في المؤتمر وخاصة أن قاعدة التصويت غير معمول بها. الجواب هو بواسطة القبول الجماعي، الذي يمكن تعريفه بأنه الرأي الذي يقبله الناس أو هم مستعدون للتعايش معه.

على هذا الأساس صدر الاعلان السياسي مع الاعلان الاقتصادي عن المؤتمر. يبلغ طول الأول ٥٥ صفحة وطول الثاني ٨٣ صفحة. وكانت رغبة الهند في أن يخرج المؤتمر بوثيقة أقصر. لكن المسودة الأساسية التي وضعتها الهند للاعلان السياسي قفزت في جلسة الصياغة من ٢٣ صفحة إلى ٥٤ صفحة في ثلاثة ايام. وقفز الاعلان الاقتصادي من ٣٦ صفحة إلى ٨٣ صفحة في اسبوع. وقد اختصر الاعلان السياسي والاعلان الاقتصادي في وثيقة قصيرة سميت، رسالة نيودلهي، وزعت على المؤتمرين أمس. واعتبرت أغلب أوساط المؤتمر أن الاعلانين يدينان السياسة الأميركية في المجال السياسي وسياسة الدول الصناعية الرأسمالية في العالم الغربي في المجال الاقتصادي. وبالتالي يشكلان انتصاراً للدول والاتجاهات الراديكالية والثورية واليسارية في حركة عدم الانحياز.

إلا انه إذا كان ثمة انتصار ليؤخذ في القمة السابعة هذه فهو انتصار أنديرا غاندي الشرقي وانتصار الهند القومي. لقد استطاعت هذه المرأة التي وصفها ياسر عرفات في كلمة الشكر التي ألقاها في الجلسة الختامية للمؤتمر أمس «بأخت الرجال»، وبأنها

قاطرة تجر وراءها بحيويتها العجيبة وقدرتها وذكائها هذه الدولة العظيمة وان حركة عدم الانحياز بأيد أمينة. وردت أنديرا على تحية ابو عمار بأحسن منها، عندما قالت بأنها: «إذا كانت قاطرة فهي القاطرة التي لن تحيد عن خط مبادىء عدم الانحياز».

في المؤتمر الصحافي الذي عقدته أنديرا غاندي ختاماً للقمة السابعة وحضره ما يزيد عن ٢٠٠٠ صحافي من مختلف أنحاء العالم كانت هذه المرأة تجيب على أسئلة الصحافيين التي جمعت بين السخيف والتافه والجدي والمحرج وحتى الشخصي من دون أن تفقد حس النكتة ولا الابتسامة التي تعرف كيف ترسمها جيداً ومن دون ـ وهذا الأهم ـ أن تقول شيئاً على الاطلاق. اي من دون أن تقول شيئاً يمكن أن يشكل خبراً مثيراً أو تعليقاً سياسياً ذا تقرير دبلوماسي. لقد كان لا انحيازها بالأجوبة المقتضبة التي أدلت بها متعباً للاعصاب انما بارعاً وذكياً إلى أبعد الحدود. لقد كانت ممتازة في التهرب من الأسئلة.

وعندما سألها أحد الصحافيين ما هي اليوغا التي تمارسها لتحافظ على نشاطها. قالت انها لا تمارس أي روتين معين لا في الأكل ولا في النوم ولا في العمل. وعندما سألها آخر إذا كانت قد تأخرت في انجاز أعمال الدولة الهندية خلال المؤتمر أجابت بأنها وقعت على كل أوراق الدولة في موعدها ومن دون أي تأخير وانه ليس مهماً كم ساعة يمكث الإنسان في العمل إنما كمية العمل التي يمكن أن ينجزها في تلك الساعة.

إن أهم ما يجب التذكير فيه في ختام هذا المؤتمر هو أن مجمل ديون دول عدم الانحياز حسب ما جاء في الاعلان الاقتصادي قد بلغت حتى نهاية ١٩٨٢، ٥٤٠ بليون دولار، وأن فوائدها في السنة تبلغ ١٦٠ مليون دولار وأن مجموع ديون الفوائد التي لم تسدد خلال السنتين الماضيتين هو ٢٠٠ مليون دولار.

أمام هذه الأرقام المتواضعة وحالة دول عدم الانحياز وبعد أن ألقى ٨١ رئيس دولة وحكومة خطاباتهم ووزع سبعة آخرون خطاباتهم مكتوبة دون أن يلقوها كان معدل طول خطاب الواحد منهم ٤٨ دقيقة، وبحسابات تبدو بسيطة يبلغ سعر الدقيقة الواحدة من الكلام المذهب الذي فاه به الرؤساء كذا مليون دولار تضاف إلى مجمل الديون العامة لدول عدم الانحياز.

ولعل أهم تعليق صدر عن المؤتمر هو ما كتبه قارىء من كلكتا في رسالة نشرتها له جريدة «ستيسمان» الهندية قال فيها: ان ليس بين دول عدم الانحياز المائة المجتمعين في نيودلهي دولة واحدة تستطيع أن تدعي بأنها غير منحازة فعلاً، في حين أن الدولتين الوحيدتين غير المنحازتين لم تدعيا إلى المؤتمر هما: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

وداعاً عدم الانحياز.

نيودلهي ـ (١٩٨٣/٣/١٣)

■ حكاية عدم الانحياز

نسي الناس وسط شلالات الكلام التي انهمرت عن حركة عدم الانحياز، ان الصدفة وحدها هي التي جعلت من نيودلهي مكاناً لانعقاد القمة السابعة لحركة عدم الانحياز. فلولا استمرار الحرب العراقية - الايرانية لما كانت الهند تتزعم اليوم وللسنوات الثلاث القادمة هذه الحركة. إلا أنه يجب التذكير أن نيودلهي كانت مسقط رأس فكرة عدم الانحياز وأن جواهر لال نهرو كان الأب الشرعي لها. فالفكرة كانت جزءاً أصيلاً ومنطقياً لحركة التحرير الهندية فرضها الواقع الجغرافي - السياسي الذي يحيط بشبه القارة الهندية بالإضافة إلى ظروف الهند الاقتصادية التي وجدت الهند نفسها فيها وهي على عتبة الاستقلال.

لقد جعل نهرو من عدم الانحياز حجراً أساسياً في سياسة الهند الخارجية ومرساة للدول الآسيوية والأفريقية التي أخذت تتقاذفها الرياح بعد الاستقلال. وانضم العملاقان الآخران جمال عبد الناصر وجوزف بروز تيتو إلى نهرو ليجعلوا من عدم الانحياز حركة دولية يحسب لها ألف حساب. وكبرت الحركة خلال ٣٥ سنة، وصار مقابل كل عضو في قمة بلغراد الأولى عام ١٩٦١ أربعة أعضاء في قمة نيودلهي عام ١٩٨٣. وتطورت ظاهرة عدم الانحياز من اليوم الذي فكر فيها نهرو إلى اليوم الذي تولت فيه قيادتها ابنته أنديرا غاندي، تطوراً أسطورياً.

في البداية لم تكن الدول التي تخلصت من الاستعمار حديثاً قد اختارت عدم الانحياز للأسباب نفسها التي اختارتها الهند أو مصر أو يوغوسلافيا. لقد اختارت أكثر هذه الدول هذا الطريق لأنها وجدت مصلحتها الوطنية في هذا الخيار. ولعل تعدد الأسباب يظهر مدى اتساع الفرق بين دولة وأخرى.

اندونيسيا مثلاً، اختارت عدم الانحياز، لأنها - حسب ما قال وزير خارجيتها الدكتور حتّي، عام ١٩٦١ - «ليست كبلجيكا ممراً لطريق أي غزو»، وانها بحاجة إلى أسواق لمنتجاتها المتنوعة. وسيلان (سري لانكا اليوم) التي كانت تعتمد على تصدير الشاي إلى الغرب والمطاط إلى الصين (التي كانت في حينه جزءاً من العالم الشيوعي الواحد) وجدت في عدم الانحياز عرضاً مغرياً. وإذا كانت اندونيسيا قد اختارت عدم الانحياز بحكم بعدها الجغرافي عن الدول الكبرى ومساحتها الشاسعة، فإن بورما اختارته لأسباب معاكسة تماماً - لصغر مساحتها وقربها من العملاقين الآسيويين: الهند والصين. أما لاوس وكمبوديا (كامبوتشيا اليوم) فقد فرض عليهما اتفاق جنيف لعام ١٩٥٤ عدم الانحياز فرضاً، كثمن لجلاء فرنسا عنهما.

بالنسبة للعرب، كانت فكرة عدم الانحياز فكرة شعبية، فرضتها عدة عوامل، أهمها خيبة الأمل الكبرى من الانحياز الأميركي - البريطاني - الفرنسي الكامل لإسرائيل في حينه. ولعل تونس هي مثال الدولة التي دفعت دفعاً إلى حضن الحركة بفضل الغزو الفرنسي لميناء بنزرت، الذي كان الرئيس بورقيبة يطالب بجلاء الفرنسيين عنه.

وتبلورت فكرة عدم الانحياز في أول مؤتمر آسيوي ـ أفريقي عقد في باندونغ بأندونيسيا عام ١٩٥٥ ومرت ست سنوات على باندونغ قبل أن يعقد مؤتمر عدم الانحياز الأول في بلغراد عام ١٩٦١. وخلال هذه السنوات الست كانت الحرب الباردة قد بدأت تفعل فعلها في الدول الأفريقية والآسيوية على حد سواء. لكن ما سمي عندئذ «بروح باندونغ» كان أقوى من عوامل الصراع الذي بدأ يشد هذه الدول عند بداية الانقسام السوفياتي ـ الصيني.

كانت الصين الجديدة قد بدأت تظهر بشكل قوي على مسرح الدول الآسيوية ـ الأفريقية بشخص شو ان لاي رئيس وزرائها، الذي كان مع سوكارنو وعبد الناصر ونهرو وأونو رئيس وزراء بورما يشكل الخماسي اللامع في باندونغ. لكن «روح باندونغ» تبخرت في الواقع الأرضي. وعندما غزت الصين شمال شرق الهند، وجدت دول باندونغ نفسها متقسمة. أندونيسيا وباكستان لعبتا ورقة الصين، بينما حاولت الهند أن تغطي الشرخ الذي أصاب التجمع الآسيوي ـ الأفريقي، محاولة من نهرو للمحافظة على وحدة هذه الدول إلى جانبه في معركته مع الصين. وفشل مؤتمر كولومبو (عاصمة سري لانكا) الذي عقد على أثر الحرب الهندية ـ الصينية في جبال الهملايا في ان يجمع بين الهند والصين وأن يتخذ موقفاً أخلاقياً على الأقل من مبدأ الغزو. وكانت الصدمة الأولى التي زعزعت حركة عدم الانحياز وقضت على نهرو.

في الوقت الذي عقد فيه المؤتمر الثاني لقمة عدم الانحياز في القاهرة في تشرين الأول ١٩٦٤، كان نهرو قد مات. ومثل الهند خلفه لال بهادور شاستري. لكن الخضة في الجسم الآسيوي ـ الأفريقي لم تكن قد اندملت من الحرب الهندية ـ الصينية. في مؤتمر القاهرة دعا سوكارنو إلى «باندونغ ثانية» تعقد في الجزائر في صيف ١٩٦٥، محاولاً تقريب الصين من الدول الآسيوية بالدرجة الأولى التي بدأت تخاف من أطماعها التوسعية. لكن أحلام سوكارنو تبخرت وأسطورة باندونغ ضاعت عندما قام هواري بومدين بانقلابه على أحمد بن بيلا قبل خمسة أيام من موعد المؤتمر. وبالطبع لا المؤتمر عُقد، ولا سوكارنو عاد إلى الحكم.

لكن حركة عدم الانحياز تعرضت بين بلغراد والقاهرة إلى شيء من الوهن. في العاصمة اليوغوسلافية اتخذ المؤتمر موقفاً صارماً من التجارب النووية التي كانت تقوم بها القوى الكبرى. وأرسلت القمة وفدين إلى موسكو وواشنطن لدعم مطالبها بوقف كافة التجارب النووية وصناعة أسلحتها. إلى العاصمة السوفياتية طار نهرو وكوامي نكروما ـ وكان الرئيس الغاني وقتها في أوج زعامته الأفريقية. وإلى العاصمة الأميركية طار سوكارنو ومديبوكيتا رئيس جمهورية مالي، الذي كان منحازاً إلى الجانب السوفياتي في بلغراد. في قمة القاهرة، بعد ثلاث سنوات، لم تكن حركة عدم الانحياز على استعداد لأن تقول كلمة واحدة انتقاداً أو إحتجاجاً على دخول الصين النادي النووي. وفشل اقتراح الهند الذي قدمه شاستري بدعوة الصين إلى الامتناع عن ادخال الأسلحة النووية إلى العالم الثالث، عن طريق إرسال وفد مماثل إلى بكين.

وصدر الاعلان النهائي لمؤتمر القاهرة باهتاً. إلا أن المناورات كانت تجري في الأروقة. ومن طرائف ما يذكر أنه لما كان من المعروف عن سوكارنو أنه يحب حياة المتعة والانشراح والليل، فإنه لم يكن يتبرم من اطالة جلسات المؤتمر إلى ساعة متأخرة في الليل، فكان يخرج إلى السهر في أي ساعة. وفي يوم من الأيام طالت الجلسة إلى ساعات الصباح الأولى، وعاد سوكارنو إلى فندق النيل ـ هيلتون استعداداً للسهر. وبينما هو خارج من فندقه التقى بشاستري (وكان رجلاً نحيل القامة قصيرها نباتي العيش يزاول رياضة اليوغا) الذي كان قد أفاق عند الفجر وخرج من الفندق نفسه ليزاول رياضة المشي على شاطىء النيل. فما كان من سوكارنو إلا أن ابتسم ابتسامة عريضة وقال لشاستري: «آه. مستر شاستري، لم أكن أعرف أنك تشاركني الهواية نفسها». وأطرق شاستري قليلاً وأجاب: «ولا أنا!».

ومرت ست سنوات بين قمة القاهرة الثانية وقمة لوساكا (عاصمة زامبيا) الثالثة عام ١٩٧٠. إلا أنها لم تكن ست سنوات عجاف لحركة عدم الانحياز. فبعد أشهر من تولي أنديرا غاندي رئاسة وزراء الهند عام ١٩٦٦، دعت كلاً من عبد الناصر وتيتو إلى نيودلهي. وكانت قد مرت عشر سنوات منذ أن التقى والدها نهرو هذين الزعيمين في بريوني عام ١٩٥٦، لتوسيع رقعة عدم الانحياز، ولاعطاء الحركة شكلاً ومضموناً. وكان الهدف من دعوة أنديرا لهذه الدول الثلاث دفع حركة عدم الانحياز نحو مزيد من الحيوية والنشاط. ولم يخفِ عدد من الدول امتعاضه من تصرف كل من الهند ومصر ويوغوسلافيا على أساس أنها «الدول الثلاث الكبرى» في الحركة.

لكن اجتماع نيودلهي أسفر عن أمر أساسي هو النقلة الاستراتيجية في التركيز على القضايا الاقتصادية واعطائها أولوية على الشؤون السياسية. وكان صاحب هذه الفكرة تيتو الذي فشل في الماضي في اقناع كل من نهرو وعبد الناصر في اعطاء حركة عدم الانحياز مضموناً اقتصادياً. وكان تيتو هو الذي دفع إلى عقد مؤتمر لوزراء اقتصاد حركة عدم الانحياز قبل قمة القاهرة. وكان المؤتمر الاول والأخير من نوعه. ونجح اجتماع نيودلهي في اعطاء البعد الاقتصادي حقه في الأولوية.

وانتظر الميثاق الاقتصادي القمة الرابعة في الجزائر عام ١٩٧٣، حتى يأخذ مكانه الدائم في اهتمامات حركة عدم الانحياز. لكن ما أن انتهت قمة الجزائر حتى وقعت الحرب العربية ـ الاسرائيلية بعدها بشهر. وهزت هذ الحرب بنتائجها العسكرية والسياسية حركة عدم الانحياز كلها. وتبعها بعدها بأسابيع ارتفاع أسعار النفط ثلاثة اضعاف ما كانت عليه.

ونال هذا الوضع اهتمام القمة الخامسة في كولومبو التي انعقدت في آب ١٩٧٦. وكان ذلك وقتاً صعباً لآسيا. الهند خارجة من حربها مع باكستان، وبنغلادش حديثة الاستقلال، ومجيب الرحمن مؤسس بنغلادش وأول رئيس لها قد اغتيل مع أسرته قبل أيام. ورئيسة وزراء الدولة المضيفة السيدة سيريمافو بندرانايكا تواجه وضعاً سياسياً

قلقاً ومعارضة قوية في الداخل. ولم تلطف بعض الطرائف التي حدثت خلال المؤتمر من صعوبة المشاكل السياسية. فقد دب الغزل بين عدد من أعضاء الوفود وبين مجموعة من الحسان السيلانيات اللواتي كن يخدمن في قاعات المؤتمر بشكل علني. ووصل زعيم احدى الدول إلى المؤتمر ومعه ٧٥ مرافقاً من دون جوازات سفر. وهدد رئيس دولة بالانسحاب من المؤتمر لأن السيارة المخصصة له قد تأخرت في الوصول إلى فندقه. وعلى الرغم من ذلك خرجت قمة كولومبو بالتضامن المطلوب لحركة عدم الانحياز.

وجاءت القمة السادسة في هافانا عام ١٩٧٩ بأمرين أساسيين:

□ الأول: زعامة فيديل كاسترو الفريدة ومحاولته شد حركة عدم الانحياز نحو الاتحاد السوفياتي.

□ والثاني: غياب الهند كلياً عن أي دور في هذا المؤتمر. وكانت أنديرا غاندي وقتها خارج السلطة، وكان حزب جاناتا المعارض في السلطة وكان الانقسام على أشده داخل الحزب نفسه. ولم يكن رئيس الوزراء شودري شاران سينغ قد نال ثقة البرلمان وبالتالي لم يكن يستطيع الذهاب إلى كوبا. فتم إرسال وزير الخارجية شيام ناندان ميشرا. وكانت النتيجة كارثة للهند بغيابها الكامل عن القيام بالدور التقليدي الذي اعتادت عليه أيام نهرو وابنته أنديرا كواحدة من «الثلاثة الكبار» في حركة عدم الانحياز. كذلك غابت مصر الدولة الأخرى بين الثلاث الكبار، التي علقت قمة هافانا عضويتها بعد توقيعها على معاهدة كامب دايفيد. واستطاعت كوبا وحلفاؤها أن يسيطروا على المؤتمر كلياً.

كل هذا كان في خلفية التاريخ. قمة نيودلهي كانت شيئاً آخر. فالقمة السابعة لدول حركة عدم الانحياز كانت تضم ١٠١ بلدٍ (غاب بلد واحد ـ سانت لوسيا ـ عن الحضور) بينما كانت القمة الأولى في بلغراد عام ١٩٦١ لا تضم أكثر من ٢٥ دولة. فإذا كان الحساب حساب أرقام، فكتلة عدم الانحياز تضم اليوم حوالى ثلثي أعضاء الأمم المتحدة وأكثر من نصف البشرية جمعاء. فالنجاح كان في العدد. لكن بسبب ضخامة هذا العدد بالذات فإن كتلة عدم الانحياز لم تعد تضم دولاً غير منحازة حقيقة.

والفكرة التي بدأت «كناد خاص» في جزيرة بريوني في يوغوسلافيا بين نهرو وعبد الناصر وتيتو، وتطورت مع مرور الوقت إلى ناد مشرع الأبواب في وجه كل مَنْ قال أنا غير منحاز، قد تغيرت منذ ذلك التاريخ في نيودلهي. ولعل التغيير الحقيقي قد وقع عندما قررت القمة الثانية في القاهرة عام ١٩٦٤ أن تدعو جميع أعضاء منظمة الوحدة الأفريقية الاثنين والثلاثين والتي كانت قد تأسست حديثاً للانضمام إلى الحركة، لمجرد أن ميثاق منظمة الوحدة الافريقية يقول ان الدول الأعضاء «تلتزم ايجابياً بسياسة عدم الانحياز».

ولم يصدقها أحد في حينه إلا نهرو وعبد الناصر وتيتو. وما زال عدم انحيازها موضع شك. ومنذ مؤتمر القاهرة عام ١٩٦٤ والأبواب مفتوحة على مصراعيها أمام دول العالم الثالث، بفقيرها وغنيها، لتدخل ملكوت عدم الانحياز من دون شهادة فعل ايمان واحدة.

ولأن انديرا غاندي تعـرف أباهـا جيداً (وهـو الذي فسّر عـدم الانحياز بـأنه: سيـاسة الاستقلال عن المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي ضمن حركة يمكن لأعضائها تارة أن يتفقوا مع هـذا الجانب وتـارة أخرى مـع ذاك الجانب، ولكن في أغلب الأحيـان لن يتفقوا مع أي جانب) تعرف أيضاً أن من بين مجمـوع دول عدم الانحيـاز المئة الـذين كانوا ممثلين في نيودلهي، لن يجتاز امتحان نهرو الصعب، إلا عدد ضئيل، ولأنها تعرف ذلك، أرادت وقد أصبحت رئيسة لحركة عدم الانحياز للسنوات الثـلاث المقبلة، تجـاهل القاعدة الصعبة التي وضعها أبـوها شرطـاً لعدم الانحيـاز، محاولـة منها لانجـاح قمة نيودلهي.

غير أن نمو حركة عدم الانحياز العددي، حمل في طياته شيئاً من الاستقلالية التي تحب دول العالم الثالث أن تدعيها وإن لم تمارسها. فالدول المنحازة داخل كتلة عدم الانحياز تحاول دائماً ـ وقـد حاولت ذلـك في نيودلهي ـ أن تؤثـر على مـواقف ومقررات الكتلـة. فنجحت في الخروج بقرار يطالب مثلاً بانسحاب القوات الأجنبية من أفغانستان دون أن يذكر الاتحاد السوفيـاتي، وفي شجب الاحتلال الاسرائيـلي مع ادانـة صارخـة وكاملـة للولايات المتحدة. انه حياد عدم الانحيـاز. ولما كـان الحياد شيئـاً وعدم الانحيـاز شيئاً آخر ومختلفاً لذلك تحولت مؤتمرات عدم الانحياز إلى مراكز رصد للقوى الكبرى لتعرف إلى أي طرف ستنحاز دولة من بين دول العالم الثالث.

لذلك حاولت أنديرا غاندي أن تحافظ على حد من استقلالية قرار حركـة عدم الانحيـاز، لتعيد كسب ما فقدته من احترام في السابق سعياً وراء الوصول إلى مصداقية جديـدة. وكان هذا يقتضي الحفاظ على وحدة الحركة مهما صعب ذلك، بقدر ما كان يتطلب أيضـاً القيام بلعبة توازن تدفع المنحازين إلى مواقف أقل انحيـازاً. ولم يتحقق هذا إلا بمـزيد من الحياد بين الفرقاء ومزيد من التسويات في المواقف السياسية.

ان الهند تواجه اليوم الامتحان الصعب، وقد عادت زعامة حركة عدم الانحيـاز إلى ابنة نهرو، لتبقى المبادىء الأساسية للحركة بعيدة عن الخلافـات وقد بلغت الحـركة اليـوم سن الـرشد (٢٢ سنـة) مرت بـين بلغراد ١٩٦١ ونيـودلهي ١٩٨٣. ومع مـرور الزمن أصبح من الصعب تحصين هذه الحركـة أو حمايتهـا من الانقسام العـالمي العقائـدي والاقتصادي، وبالتالي كان لا بد أن تصبح ملعباً للخلافات الثنائية من جهة والخـلافات الدولية من جهة ثانية. وهنا يكمن التحدي الحقيقي للهند. وإذا كان هناك مَنْ هـو قادر على انقاذ حركة عدم الانحياز من الوقوع أسيرة هذه الخـلافات، وبـالتالي الفشـل، فإن أنديرا هي القادرة على ذلك.

ويا دولاً ضحكت من انحيازها الدول.

نيودلهي ـ (١٩٨٣/٣/٢٦)

مفكرة صحافي منحاز

مطار بالام في نيودلهي مطار عالم ثالث. كل ما فيه يذكرك ببعدك عن العالم الأول. التسهيلات للصحافيين القادمين لتغطية قمة عدم الانحياز السابعة سريعة ولائقة وودية إلى أبعد الحدود. في المطار تعطى اسم الفندق المخصص لسكناك وتنهي اجراءات وصولك وتصل حقيبتك وتصعد إلى باص خاص ينقلك إلى المكان الذي تريده.

يلفحك ليل نيودلهي والوجوه السمر والباص العتيق الملون بألوان أكثر من قوس قزح واحد، ويشعرك بأنك دخلت عالماً كنت ترى نماذجه في الخارج، إنما لم تكن قد احتككت معه عن قرب من قبل. تخاف أن لا يصل الباص القديم إلى الفندق. لكنه يصل. وتشعر بمتعة صبي يركب سيارة في السينما. الساعة كانت قد قاربت الثالثة صباحاً في نيودلهي. أي نوم سيرتاد جفونك. التعب سيد المواقف.

نيودلهي مدينة منبسطة، صحراء ترفرف عليها اعلام ملونة. ليست اعلام دول عدم الانحياز. أقوال غاندي ونهرو وأنديرا وعبد الناصر وتيتو تطل عليك عند كل منعطف. حدائق في كل مكان. «باب الهند»، ما أروع هذا النصب الذي بني للعسكر الهنود الذين حاربوا في الحرب العالمية الأولى.

كل ما في هذه المدينة يوحي بمزيج من العراقة العظيمة والبساطة الفقيرة. كانت المدينة في عرس، إنما تتصرف وكأنها العروس. كل ما فيها يوحي بأنها صاحبة قلب مختلف ينبض بخفقات عالمٍ آخر لم أعرفه من قبل.

إلى المركز الاعلامي. هناك في ذلك المركز الضخم المعد لاستقبال أكثر من ٢٥٠٠ صحافي، شعرت بكفاءة الهنود في التنظيم. كان لِكل صحافي اسم وبطاقة وطاولة وصندوق ومفتاح ورقم. كان المكان على اتساعه يضيق بالصحافيين والاعلاميين من كل لون وفي كل زي ومن كل من البلدان المائة التي حضرت المؤتمر. الناطق الرسمي للمؤتمر ديبلوماسي هندي اسمه ماني شنكار ايار يجيد الانكليزية والفرنسية بطلاقة وصاحب نكتة دائمة يعرف التعامل مع الصحافيين. مرتان في اليوم أو أكثر يتحدث الناطق للصحافيين عن مجريات المؤتمر. مثال الديبلوماسية غير المنحازة.

ضجيج... ضجيج... ضجيج... لكن لا تسمعه على الرغم من طرطقة ٥٠٠ آلة كاتبة وصراخ عشرة تليفزيونات مفتوحة. وجوه صحافية لم أرها منذ سنوات كانت هناك. وجوه أخرى تحترف تغطية المؤتمرات كانت هناك. منظر مثير للصحافي الشغوف بالمهنة.

فتاة هندية جميلة تعمل مترجمة في المؤتمر. اندفعت نحو أحد رؤساء الوفود وهو يهم بركوب سيارته. فما كان من الحرس المحيط بالرئيس إلا أن هجم عليها ورماها أرضاً. وكان الرئيس ثورياً قديماً واجه محاولات اعتداء كثيرة على حياته. فلم يهتز. وتوقف عن

ركوب السيارة عندما سمع الضجيج من ورائه واتجه نحو الفتاة المرمية أرضاً وفوقها رجل أمن بحجم الفيل وهي بحجم الفراشة.

وسألها: ماذا تريدين؟

فأجابت الفتاة: توقيعك على دفتر الأوتوغراف الذي احمله. انني أجمع تواقيع الرؤساء وأنا أعمل مترجمة في المؤتمر. وبكت. فما كان من هذا الرئيس إلا أن رفعها عن الأرض وعانقها عناقه المشهور ووقع على أوتوغرافها ومشى.

وعندما هدأت الضجة، مسحت الفتاة الغبار عن ساريها الأحمر وفتحت دفترها لتقرأ اسم: فيديل كاسترو.

□

اعجبني رسم كاريكاتوري للرسام الهندي المشهور «أبو»، الذي عمل رساماً لصحيفة (الأوبزرفور) البريطانية سنوات عديدة قبل أن يعود إلى وطنه الأم. في الرسم شخصان هنديان يستقبلان الوفود ويقولان: «مرحباً بكم يا أصحاب السعادة في قمة عدم الانحياز. سنقوم نحن بمرافقتكم. أنا الأسلوب الواقعي وزميلي التفاؤل الحذر».

وضحكت. كم هو صحيح هذا التعليق!

□

انتهى المؤتمر وبدأت الوفود ـ أو من بقي منها ـ تسافر.. وبدأت التفكير بالهند الحافلة بالتاريخ. بأغرا وتاج محل وبنارس وقلعة دلهي الحمراء وأسواقها القديمة وقصور جيبور ومراتع سيملا وشوارع بومباي وكالكوتا. تمنيت لو أن همومي سياحية أو تاريخية أو لو أن الزمان ملكي والظروف تحت تصرفي. هيهات.

وداعاً يا هند عدم الانحياز.

□

انشغلت الصحف الهندية هذا اليوم بخبر خطير. لقد أعلنت الحكومة ان احصاءً لعدد النمور سيجري في الهند السنة القادمة. وكان آخر احصاء قد تم عام ١٩٧٩، وبلغ عدد النمور في حينه ٢٠١٥ نمراً. هذه هي الهند.

مع أخبار النمور انشغلت الصحف أيضاً بخبر اختيار «المجلس الوطني للتنسيق في الهند» أنديرا «سيدة ١٩٨٣» واختيار كاسترو «رجل عدم الانحياز» للسنة نفسها. لكنها انشغلت اكثر بتظاهرة قادها النائب جورج فرناندس الوزير السابق وعضو حزب جاناتا المعارض أمام قصر المؤتمر احتجاجاً على قرار انديرا بتعطيل جلسات البرلمان الهندي لأربعة أيام خلال انعقاد قمة عدم الانحياز لانشغالها وأعضاء حكومتها بالمؤتمر.

وتعالت الهتافات ضد أنديرا وحزب المؤتمر وأنها عطلت الديموقراطية أربعة أيام. وتحدى فرناندس الشرطة باعتقاله. والذي سمع منا الهتافات ورأى اليافطات ظن بأن الديكتاتورية قد قامت في الهند، وأن الديموقراطية والحياة البرلمانية والحزبية قد ألغيت، وأن العسكر قد ركبوا الدبابات واستولوا على السلطة. كل ما في الأمر أن النواب قد أخذوا اجازة أربعة أيام. يا غيرة الدين ـ والديموقراطية!.

ترى كم زعيماً من زعماء دول عدم الانحياز شهد أو سمع بهذه المظاهرة؟ تعيش الديموقراطية.

ولم تمنع الديموقراطية الهندية فرناندس أن يتظاهر، وإلى جانبه مظاهر أخرى لمجموعة من اللاجئين التيبتيين مطالبين بادراج قضية التيبت والدلاي لاما في جدول أعمال المؤتمر. وإلى الجانب الآخر من التظاهرتين كانت تظاهرة ثالثة لمجموعة من الطلبة الايرانيين من بينهم ١٣ فتاة تهتف ضد الخميني والنظام في ايران وتطالب بالحقوق الانسانية للسجناء السياسيين..

□

ابتسمت بأسى لتعليق قاله صحافي عربي من دولة حديثة النعمة وحديثة عهد بالغنى وبالجرائد والمجلات عن الصحافة الهندية: «ما هذه الصحافة المتخلفة... انها لا تقرأ. طباعتها سيئة توسخ الأيدي وورقها سيىء وفيها عدد لا يحصى من الأخطاء المطبعية».

الحمد لله ان الصحافة قد أصبحت تقاس بفخامة الورق والطباعة والألوان لا بمقياس آخر. ومن حسن الحظ أن هذا الصحافي لا يقرأ. ولو قرأ لعرف كم هي عظيمة هذه الصحافة التي يربو عمرها على المئتي سنة.

سبع صحف يومية كبرى بالانكليزية مع عدد لا يحصى من الأسبوعيات إلى جانب صحف ومجلات بالهندية والأوروبية و١٣ لغة أخرى. في كل صحيفة تعدد في الآراء وتنوع في الأفكار والمعالجة، بقدر ما في الهند من أديان وملل وطوائف وأحزاب وجمعيات. الحجم بالنسبة لعربي لا يصدق. الاتساع أكبر من أن يحيط به قارىء في أيام. لقد كانت قراءة الصحف الهندية متعة لا تضاهى. ان صحافة الهند هي التي أسقطت أنديرا غاندي قبل ثلاث سنوات وهي سياج الحياة السياسية في أكبر ديموقراطية في العالم.. الصحافة هي الحرية.

أين صحافة العالم العربي منها!؟

□

قال لي عضو في وفد عربي شارك في قمة عدم الانحياز في نيودلهي: انت صاحب الاقتراح بتغيير شعار المؤتمر من حمامة السلام إلى البومة؟ قلت: نعم. فقال: معك حق. إننا نسهر الليل بطوله من أجل جملة واحدة في الفقرة رقم ٢٨ وفي الصفحة رقم ٣٥ لبيان طوله ٨٠ صفحة. معك حق. ان البومة طائر ليلي يتصف بالحكمة والصبر وبعد

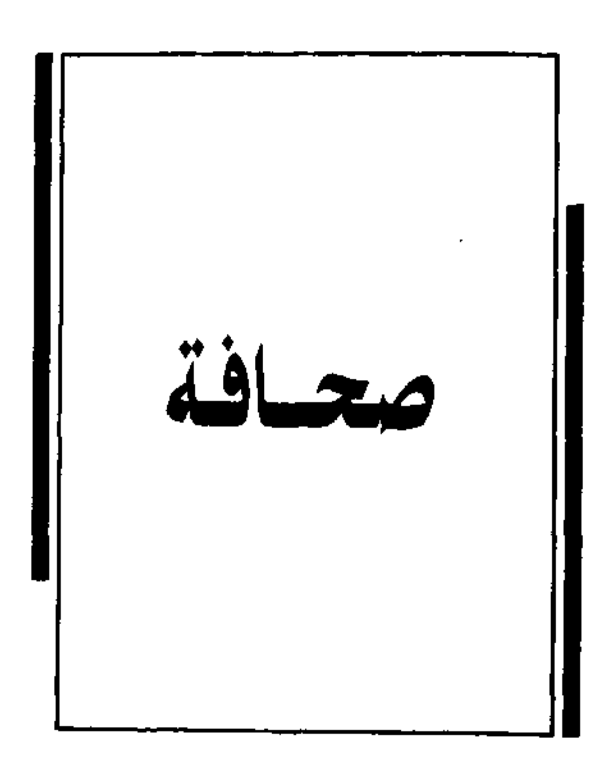
النظر، بينما الحمامة طائر نهاري وديع وأليف. لكن ما العمل إذا كان العرب يتشاءمون من البوم؟.

توقفت اليوم عند حدثين سرح بهما بـالي. الأول مطالبـة رئيس وزراء ماليـزيا بحق دول عدم الانحياز بالوصول إلى القطب الشمالي واستثماره وضرورة بقائه بعيداً عن احتكـار الدول الكبرى. الثـاني طلب دوقيه لـوكسمبورغ بـالانضمام إلى عضـوية حـركة عـدم الانحياز. دولة استـوائية تـريد أن تصـل إلى القطب الشمالي ودولـة أوروبية تـريد أن تنضم إلى العالم الثالث. الله الله يا دنيا!

كذلك توقفت عند حملـة تبادل الشتـائم بين كـوبا وسنغـافورة ونعت بعضـهمـا البعض بالدعارة والمواخـير وما سـواهما من المفـردات التي يحفل بهـا قامـوس علم السياسـة الحديث. وسررت أن هناك من يتفوق على العرب في الشتائم.

نيودلهي - (١٩٨٣/٣/٢٨)




صحافة



■ المال أم الرجال؟

في الاوساط الخليجية كلام كثير عن المؤتمر الخامس لوزراء اعلام دول الخليج الذي انعقد في الدوحة في شباط ١٩٨٠. وأكثر هذا الكلام منصبّ على ورقة العمل التي تقدمت بها دولة قطر حول خطة التحرك الاعلامي في الغرب، والتي سميت «اعلان الدوحة»، والتي يبدو أنها كانت الورقة الرئيسية التي طرحت للنقاش، إلى جانب العديد من الأمور التقنية والتنظيمية الروتينية التي يحفل بها كل مؤتمر من هذا النوع، والذي ينتهي عادة بتصريحات تعلن عن أن الاتفاق كان كاملاً في وجهات النظر، وان المؤتمر قد حقق أهدافه!

هذه المرة لم يكن الاتفاق كاملاً حول ورقة العمل القطرية، ولم يحقق المؤتمر أهدافه حول التحرك العربي الاعلامي في الغرب.

أما وقد نشرت هذه الورقة، فسأسمح لنفسي، من دون أي اعتذار، ان أتلقف كلّ ما جاء في هذا المشروع. وسأسمح لنفسي أيضاً، ومن دون اي انقاص لجهد أحد، أن أناقش هذه الورقة التي تعنيني كصحافي درس وعاش وعمل في أوروبا سنوات طويلة. ولما كانت هذه الورقة تقول: انه «ليس مفيداً أو مطلوباً الآن طرح تصور محدد كامل (لخطة التحرك الاعلامي في الغرب) ونحن في مرحلة مبكرة من بحث الموضوع، ولكن قد يعين في بلورة الفكرة أن نعرض بعض الأفكار حولها، وهي أفكار بطبيعتها قابلة للمناقشة والتعديل»، فقد سمحت لنفسي، أيضاً وأيضاً، أن أتجاوز كل الحساسيات الخليجية والعربية التي قد تنجم عن مجموعة ملاحظات أشعر أن من حقي طرحها.

سأبدأ القول ان الفكرة التي طرحتها ورقة العمل القطرية وهي «قيام مؤسسة عربية متخصصة تستطيع مخاطبة العقل الغربي»، هي من اهم وأجرأ ما طرح من أفكار اعلامية على مؤتمر لوزراء الاعلام العرب. بل أضيف أن قيام هكذا مؤسسة أصبح

واجباً قومياً عربياً متأخراً. لكن من المؤسف أن مؤتمر الدوحة الأخير، الذي دعا مجموعة من السفراء العرب في العواصم الغربية، وهي فكرة جيدة تستحق التكرار، لم يدع صحافياً عربياً واحداً ذا صلات أو خبرة أو تجربة بالاعلام الغربي، على الأقل «كخبير» ما دامت عقدة الخبراء ـ من أي نوع ـ ما زالت تتحكم في الاعلام العربي، ليدلي بدلوه بين دلاء السفراء العرب الذين حضروا مؤتمر الدوحة، وليقول لهم على الأقل أن أهل مكة ادرى بشعابها وأن أبناء المهنة المحترفين يعرفون أزقتها أكثر مما يعرفون هم شوارعها العريضة. ومع احترامي الشديد لهؤلاء السفراء، إلا أنهم دبلوماسيون لا اعلاميون، وان فهم بعضهم الاعلامي، فهمٌ ملون بالمصلحة السياسية المباشرة للدول التي يمثلونها.

تقول ورقة العمل القطرية: ان الدول والشعوب العربية والإسلامية «تتعرض عبر وسائل الاعلام المختلفة في الغرب لحملة تجريح وتحريض لم يسبق لها مثيل. وتحظى دول النفط العربية ـ بشكل خاص ـ بالنصيب الأوفر من هذه الحملة، إذ تحاول وسائل الاعلام الغربية أن تحملها مسؤولية التضخم والبطالة واضطراب الأوضاع الاقتصادية التي تعاني منها الدول الصناعية». ثم تضيف هذه الورقة لائحة طويلة مكررة ومعروفة ومتداولة لأسباب الحملة بداية بالدوائر الصهيونية «ذات النفوذ في المجالات السياسية والاعلامية في الغرب»، ونهاية «بالأحقاد التاريخية الصليبية». وتتطرق هذه الورقة إلى الدخول في علم البديهيات والقول «ان هناك مصلحة استراتيجية قصوى للدول والشعوب العربية للتصدي لهذه الحملات وكشف ما تنطوي عليه من زيف وتضليل متعمدين، وفي الوقت نفسه عرض الصورة الايجابية البديلة عن نهضة الشعوب العربية وتطورها... وخاصة أنه يتوفر للعرب الآن العنصران اللازمان للرد: المال والرجال».

ثم تصل ورقة العمل هذه إلى الاكتشاف أن الاعلام العربي ـ من الجامعة العربية ومكاتبها إلى مؤسسات الاعلام العربية من صحافة واذاعة وتلفزيون وعلاقات عامة ـ قد فشل خلال ثلاثين سنة من التصدي للحملات المضادة. ثم تقفز إلى اليقين الكامل بقولها: إنه «لم يبق شك اذن في الحاجة لقيام مؤسسة عربية متخصصة تستفيد من الكفاءات العربية القادرة على مخاطبة العقل الغربي من خلال جميع وسائل الاعلام المتاحة وفق خطة شاملة يضعها هؤلاء الخبراء وتمولها الدول القادرة على ذلك وهي دول النفط العربية».

لكن من المؤسف أن ورقة العمل هذه لم تتوقف لتسأل أو تتساءل عن اسباب فشل مؤسسات الجامعة العربية الاعلامية، ولا عن فشل مؤسسات الاعلام العربية الخاصة. السبب ببساطة أن الأولى كانت تفتقر إلى الرجال (واعني هنا تحديداً الصحافيين المهنيين المحترفين، لا الموظفين الاعلاميين) وان الثانية كانت تفتقر إلى المال. وأن معادلة خلط الرجل الصحيح بالمال السليم معادلة قصّر الفهم العربي عن استيعابها. وإذا كان الخلاص ـ كل الخلاص ـ في قيام هذه «المؤسسة العربية» التي تملك المال والرجال، فيجب منذ البداية، خاصة ونحن أمام طرح جدي لفكرة خلاقة، التحذير من أن لا

تتحول هذه المؤسسة ـ في حال قيامها ـ إلى «تكية» جديدة لاعلاميي المقاهي وخاصة موظفي الجامعة العربية ووزارات اعلام الدول العربية. ولا مانع من حل مشكلة توظيف حملة الشهادات في العالم العربي ـ بما في ذلك «الخبراء الاعلاميين» ـ عن طريق هكذا مشروع، شرط أن لا يحسب على الاعلام العربي في الغرب، ولا على التحرك الاعلامي العربي في الغرب بغية تحسين الصورة العربية وكسب مزيد من الأصدقاء للعرب. ان المال ـ على أهميته ـ لا يستطيع أن يشتري للعرب في الغرب صورة مضيئة واحدة إذا كان من يستخدمه لا يعرف أصول وقواعد وتقاليد المهنة الاعلامية كما تمارس في الدول الغربية. ان طريق الجامعة العربية ـ وهذا ما أشارت إليه بصدق الورقة القطرية ـ من أيام عزام باشا وحسونة باشا ومحمود رياض معبد بالجثث الاعلامية الفاشلة، حتى أيام جامعة الشاذلي القليبي الجديدة التي كنا نأمل أن تكون اكثر حظاً وفهما اعلامياً. ومن هنا كان خوفي ـ وما زال ـ أن تتحول هذه المؤسسة الى قناة جديدة لهدر مزيد من المال وضياع جديد للرجال.

لعل أهم ما لفت نظري في هذه الورقة، أنها تتحدث دائماً وباسهاب عن «خبراء» ما. خبراء قانونيون لوضع اطارها القانوني. خبراء إداريون لتشكيل نظامها الداخلي. خبراء ماليون لتحديد طريقة تمويلها. من دون أن تشير هذه الورقة إلى «خبير اعلامي» واحد ـ تحديداً: صحافي، سينمائي، تليفزيوني ـ ومن دون أن تشير أيضاً إلى حاجة هذه المؤسسة إلى مضمون اعلامي أولاً من قبل أن تحتاج إلى قانون اداري يحدد من يقبض ومن يصرف ومن يوظف. ان هذا الأمر ـ أمر الاعلام ـ آخر من يعرفه هم خبراء قانونيين وخبراء إداريين وخبراء ماليين بمختلف أنواعهم، الذين سيحاولون، لو وضعوا أيديهم على هكذا مؤسسة، ان يدخلوها في مزالق الروتين الذي أكل كل وزارات الاعلام في العالم العربي وقضى على فعاليتها، بعد أن كان قد قضى من قبل على كل المؤسسات الاعلامية التابعة للدولة، أياً كان نظامها السياسي. ان مزالق الروتين هي خشبة الخلاص الوحيدة لأي خبير أو موظف قانوني ـ اداري ناجح يريد أن يرفع عن نفسه تهمة المسؤولية. والعمل الاعلامي الفعال والمجدي هو عمل من يريد مجازفاً تحمل المسؤولية.

وأريد هنا أن ألفت النظر إلى بعض الأمور التي طرحتها هذه الورقة ومنها النشاطات التي تطمح هذه المؤسسة ان تقوم بها، والتي تشمل اصدار الكتب باللغات الأجنبية وانتاج الأفلام السينمائية والتليفزيونية وإرسال المحاضرين العرب إلى دول الغرب والصحافيين الأجانب الى الدول العربية والعمل على التغلغل في الصحف الكبرى في الغرب وخلق لوبي عربي على غرار اللوبي الصهيوني في أميركا وأوروبا.

من أهم هذه الأمور اصدار الكتب باللغات الأجنبية التي تعرِّف بالوطن العربي وانجازاته: المطلوب في هذا المجال عدم تكرار ما تصدره وزارات الاعلام الخليجية من كتب ونشرات تلقى في المستودعات أو في سلال المهملات، لا أحد يقرأها، ولا أحد يعرف كيف توزع. أليس الأفضل ـ كما يفعل الاعلام الذكي المتحضر ـ أن يتم نشر هذه

الكتب عن طريق دور نشر عالمية يمكن التعاقد معها بالطرق التجارية التقليدية، ومن دون تدخل من وزارات الاعلام، فتضمن وصول الكتاب إلى حيث يجب أن يصل - إلى القارىء؟

اما عن انتاج الافلام السينمائية والتليفزيونية عن البلاد العربية، ولا سيما دول النفط. علينا أن ندرك، أنه إذا أنتجنا هذه الأفلام - وبغض النظر عن مضمونها - فيجب التساؤل عن دور السينما التي ستعرضها، أو عن محطات التليفزيون التي ستقبل بثها. الأهم من ذلك العلم أن الصهيونية العالمية قد اشترت دوراً للسينما ومحطات للتليفزيون قبل أن تفكر في إنتاج أفلام لعرضها. لماذا نصر دائماً على وضع العربة قُدَّام الحصان؟ أليس من الأنسب دراسة كيف تدار وتعمل دور السينما ومحطات التليفزيون في أوروبا وأميركا والتي لا تتحكم فيها وزارات الاعلام - غير الموجودة اصلاً - والتي يديرها في بلادنا مجموعة من «الخبراء» الاداريين والماليين، لا الاعلاميين؟

وإذا دعونا الصحافيين الأجانب وقادة الأحزاب السياسية والطلاب والنقابات، لا نجد مسؤولاً واحداً يتسع وقته لاستقبالهم أو ليحدثهم حديث الواثق من نفسه وبهم، فيصبح همّ هذا المسؤول أن يكتفي هؤلاء الزوار بالجلوس في الفنادق الفخمة والاستمتاع بالضيافة الخليجية وتنشق الهواء العليل المشبع بالحرارة والرطوبة. وبعد هذا كله نطمح إلى التغلغل في الصحف الكبرى في الغرب «بشتى الوسائل الممكنة ولو بشراء الأسهم في ملكية بعضها». كيف ذلك؟ أولاً - أن اسهم هذه الصحف ليست مطروحة في الأسواق ليشتريها من يشاء. ثانياً - يجب معرفة كيف تدار هذه الصحف ومن يسيطر على سياستها ومن يشرف على توجيهها، وان ملكية كل صحيفة تختلف عن ملكية الأخرى. ثالثاً - أن السيطرة على سياسة هذه الصحف قد تحتاج إلى غير المال. تحتاج إلى الرجال المهنيين الاعلاميين العارفين بأصول اللعبة وشروطها، لا إلى «الخبراء».

وإذا تحدثنا عن خلق لوبي عربي «على غرار اللوبي الصهيوني في المؤسسات الحاكمة». وتشبيه هذا اللوبي باللوبي اليوناني في الولايات المتحدة، فذلك يعتمد بالدرجة الأولى على العرب المقيمين في أوروبا وأميركا وعلى صلاتهم بالبلد الذي يقيمون فيه ومدى انتمائهم الى وطنهم الأم ومدى نفوذهم وتأثيرهم في وطنهم الجديد. هذا النفوذ وهذا التأثير الذي يحدده بالدرجة الأولى فعالية العرب كمواطنين، لا كلاجئين ولا كزوار ولا كسياح في البلد المقيمين فيه، ومدى احترام مؤسسات ورجالات ذلك البلد، من سياسية واقتصادية واعلامية للجهد الذي يبذلونه وللخدمات التي يقدمونها قبل أن يعتمد على التمويل الخارجي. فما زال الرجال أهم من المال. وما زال المال العربي تائهاً وغبياً في مراميه.

□

لقد عارضت دول الخليج «اعلان الدوحة»، ، وسقطت الورقة القطرية من التداول

الرسمي الخليجي. أغلب الظن لأنها صدرت في الدوحة ومن قطر، إذا أردنا أن لا ندخل في مزيد من تفاصيل المؤتمر. هذا ليس مهماً. المهم أن لا يسقط «اعلان الدوحة» في الدوحة نفسها، ولا يبرد الحماس القطري، ولا تفتر العزيمة القطرية في الاصرار على الخروج بهذا المشروع إلى حيّز الوجود. ولعل في هذا المجال تستطيع دولة قطر ـ والتي كانت سباقة في عدة ميادين اعلامية ـ ان تخرج بهذا المشروع وحدها إلى النور، وأن تدفعه إلى واقع التنفيذ وتفرضه على العرب، وبالرغم منهم، من أجل المصلحة العربية. وبذلك تكون قد أدّت احدى أهم مساهماتها كدولة في خدمة أخطر وأهم القضايا التي تتعلق بكل الصورة العربية التي قد لا ينفع فيها مال عندما يعز الرجال.

كم اتمنى ان يتيح هذا الكلام مناسبة لفتح باب النقاش واسعاً أمام سماع مزيد من اراء العاملين في الحقل الاعلامي، بقدر ما أتمنى أن يبتعد مؤتمر وزراء اعلام دول الخليج السادس في مسقط في العام ١٩٨١ عن تحكم آراء «الخبراء» في حقل الاعلام، وأن يتاح للإعلاميين الحقيقيين من صحافيين مهنيين ممارسين أن يسمعوا صوتهم. فهم وحدهم الرجال في أمر يعنيهم مباشرة.

ولم يبق إلا أن يدرك ـ من يجب أن يدرك ـ أن الخبز يجب أن يعطى لخبازه!

لندن ـ (١٥/٣/١٩٨٠)

رسالة إلى أي وزير إعلام عربي

سيدي معالي الوزير،

لا أدري يا معالي الوزير، إذا كنت تعرفني أم لا، أو تسمع بي أم لا، أو تقرأ لي أم لا. فأنا لا أعرف كل وزراء الاعلام العرب. وأنت لا تعرف كل الصحافيين العرب. وإذا لم يكن لي شرف معرفتك شخصياً، فأنا على الأقل أعرف عنك ما يكفي فضولي الصحافي وما يتيح لي الابتعاد عن ما أعتقد أنه محرج لك، فلا تضطر إلى استعمال سيفك البتار الطويل. بالإضافة إلى أنني أعتقد أن معرفتك أو المعرفة عنك، هي من واجب وصميم عمل اي صحافي عربي ممارس لمهنته، إذا شاء أن يصل ما يكتبه الى القارىء المنتظر في البلد الذي تتولى أنت فيه السياسة الاعلامية، إذا أردنا ككتاب وكصحافيين ان لا نستمر في اهانة ذكاء ذلك القارىء، وإذا أردت انت أن توسع صدرك قليلاً فتتيح لنا القليل من ضيق التنفس.

أما أنت، يا معالي الوزير، فلست مضطراً أن تعرف عني أكثر مما تسمعه من الوسط الصحافي أو تنقله اليك مصادر معلوماتك. ولست مضطراً أن تتابع ما أكتب، أو حتى تقرأ المجلة أو الجريدة التي تنشر لي او انتمي إليها، لأن قسم الرقابة في وزارتك الموقرة يحيل اليك تلقائياً، كما أعتقد ما يظن هو أنه يهمك، وما قد يتعرض مباشرة ـ سلباً كان أم ايجاباً ـ لسياسة أو شؤون بلدك. وما اكتبه أنا عادة لا يهم إلا القليل من زملائك والأقل من اهتمامك ـ اللهم إذا كنت شخصياً قارئاً شغوفاً!

إذاً فأنا ـ وغيري من الزملاء ـ معلّب عندك تلقائياً ومصنف في خانة من خانات الولاء السياسي العربي. وأقول «الولاء» تفادياً لاستعمال كلمة أخرى قد تجرح حياء زملائي، وإن كانت كثيرة الاستعمال من قبل العديد من زملائك. وأنا لا ألومك إذا كنت لا تقرأ، يا معالي الوزير، فليس هناك في الصحافة العربية ما يغري بالقراءة هذه الأيام. وربما لو كنت في موقعك لما اتعبت نفسي بقراءة أي مطبوعة عربية، لأنك حكمت عليها ـ وقد تكون محقاً ـ من موقعك الوزاري والرسمي بتصنيف ما. ولأن هذا التصنيف ـ بغض النظر عن صحته ـ قد أراحك من عبء البحث عما وراء خبر ما أو سبب تحليل ما أو مصدر معلومات ما. فهذه المجلة مع سورية. وهذه الجريدة مع العراق. وهذه المطبوعة مع الفجيرة. وكلهم إما مع أميركا أو ضدها. أو مع روسيا أو ضدها. وقضايا العالم العربي والصراع الدولي حولها ومشاكل الإنسان العربي المعلقة، تقع في هذه الخانة أو تلك، ولا تفسير لها ولا اجتهاد حولها إلا من هذا المنطلق.

وقد تستغرب يا معالي الوزير، وقاحة كلامي هذا، وخاصة بعد ان اعتدت انت وزملاؤك خلال هذه السنوات الطويلة على تدجين الصحافةالعربية وتعليب الصحافيين العرب إلى درجة بات فيها السعي نحو الخبر أو الاجتهاد في التحليل أو الافتراق في الرأي عملاً محفوفاً بالأخطار في عالمنا العربي. ولأنني انا ككاتب صحافي، جزء من هذا الرأي العام العربي الذي تسعى بواسطة «أجهزتك الاعلامية» لأن تستميله وأن توجهه لتكسب

تأييده لجانب سياستك، اشعر أن بتر الكلمات (لأن هناك في وزارتك الموقرة من يخاف منها ويسيىء تفسيرها) قد فاق الحد الذي يقف عنده حدود ذكاء القارىء العطشان، لكي يحترم هذا القارىء - الذي هو جزء من الرأي العام الذي تحاول استمالته - سياستك ووجهة نظرك في القضية المطروحة.

لذلك سأتجرأ، في التوجه إليك طمعاً مني في أن تظل هذه الأقلام التي تكتب قادرة أن تحمل إليك القليل والممكن من الخبر والرأي اللذين قد لا تريدهما ولا يعجبانك. وأقول إليك وليس الى القارىء المتلهف للحد الأدنى من المعلومات الذي يفرضه احترام الكاتب أو المطبوعة لعقله، لأنك أنت صاحب السيف الطويل الذي تبتر به الكلمات وتقدر بواسطته ما يجب أن يعرفه الناس أو لا يعرفوه. ولأن طموح هذا القلم أن ترفع سيفك هذا عن القليل والممكن من الخبر والرأي اللذين يشكل نشرهما في رأينا ضرورة اعلامية ووطنية - ولو كانت مفاهيم هاتين الكلمتين قد ضاعت في متاهات التخبط السياسي العربي في السنوات العشر الأخيرة على الأقل.

وأرجوك يا معالي الوزير أن لا تسقط رسالتي هذه من يدك وانت تتساءل عن سببها، قبل أن تحاول ولو للحظات ان تضع نفسك مكان اي صحافي محترف ممارس ومشغول بمهنته، يريد أن يتصدى هذا الأسبوع لأي موضوع من المواضيع العربية المطروحة هذه الساعة، وأن يعالجها معالجة فيها الحد الأدنى من المعلومات الصحيحة والتحليل الموضوعي. وفي الوقت نفسه يحرص على أن تبقى مطبوعته قادرة على اختراق حواجز الرقابة التي فرضتها «أجهزتك الاعلامية».

ماذا تكتب، يا معالي الوزير، عن الخلاف السوري - العراقي؟ أو مؤتمرات القمة في كل مكان؟ أو الحرب العراقية - الايرانية؟ أو الصحراء المغربية؟ أو الأزمة السياسية اللبنانية؟ أو تطورات القضية الفلسطينية؟

وكيف تكتب عن أي من المواضيع دون أن تترك وراءك صفاً طويلاً من الاتهامات والاتهامات المضادة بالعمالة والقبض والتحيز، وبالتالي من دون أن تمنع عشر دول عربية على الأقل مطبوعتك من الوصول إليها. ومن دون أن تحقق معك كل أجهزة المخابرات العربية في كل مطار أو مركز حدود عربي من أجل مقال كتبته ونسيته ولم يعجب رأيك في حينه الرقيب، أو من هو أعلى منه؟

وهل تعرف يا معالي الوزير - على سبيل التفكهة ليس إلا - انني مثلاً ممنوع من دخول بلد عربي منذ ثلاث عشرة سنة، لأنني في ذلك الحين سعيت للحصول على حديث من رئيس تلك الدولة ولم أسع للحصول على حديث من رئيس الوزراء. فمنعني رئيس الوزراء من الدخول لانني لم استصرحه. وتقاعد رئيس الوزراء وتغيرت ظروف الحديث ونسي رئيس الدولة والناس كل القصة، ما عدا ذلك الموظف النشيط المأمور على الحدود.

سقت إليك كل هذه الأمور، يا معالي الوزير، لا لأنني عجزت هذا الاسبوع عن اختراع موضوع أكتب فيه ولا يصلك، أو في التهرب من كتابة موضوع لا يهمك وإن وصلك. بل

لانني توقفت عند سؤال طرحه عليّ زميل لك ذو راي اقدّره واحترمه عندما سألني تعليقاً على موضوع كتبته عما إذا كنت قد كتبت ذلك المقال بصفتي رياض نجيب الريس الصحافي والكاتب العربي أم تحديداً بصفتي صحافياً سوري الجنسية.

ولا اخفيك يا معالي الوزير بأنني صعقت من هذا السؤال. ولولا أن الذي وجه إليّ هذا السؤال رجل فكر اصيل يريد أن يطمئن قلبه، لما تجرأت أن أعيد طرحه على نفسي أو مجرد التفكير فيه. لكن الذي أخافني هو إلى أي مدى بلغ الشك لدى القارىء المثقف والقارىء العادي على السواء، وبين المسؤول الرسمي وبين المسؤول غير الرسمي، بكل ما يكتب في الصحافة العربية إلى درجة السعي لا لتصنيف الكاتب مع هذه الدولة أو تلك أو صاحب مصلحة في هذه القضية أو تلك، بل في فصم شخصيته وتجزئتها إلى شرائح طائفية واقليمية وعنصرية وقطرية وما إلى هنالك من مفردات يحفل بها قاموسنا السياسي واللغوي.

الا يكفي كل التدجين الذي حدث للصحافة؟ والا يكفي كل الارهاب الذي تتعرض له؟ والا تكفي كل محاولات احتوائها وتعليبها والسيطرة عليها؟ ولم يعد ينقص كل هذه المحاولات الناجحة إلا تجزئة رأي الصحافي إلى مجموعة هويات ضمن هوية واحدة أو مجموعة شخصيات ضمن شخصية واحدة.

الم يعد مقبولاً او مسموحاً للصحافي اللبناني أن يكون له رأي في القضية الفلسطينية؟ وللصحافي السوري رأي في النظام الاردني؟ وللصحافي العراقي رأي في الحكم السوري؟ وللصحافي الفلسطيني رأي في الأنظمة الخليجية؟ ماذا حصل عندنا؟

أعرف أنني من الصحافيين السذّج القلائل الذين ما يزالون قادرين على الدهشة والاستغراب من أوضاع كأوضاعنا العربية. وأعرف أنني من الصحافيين السذج القلائل الذين ما يزالون يحلمون - ويطالبون - بشيء شبيه بالحرية التي يمارسها زملاؤنا في العالم المتحضر. وإن كانوا لا يجسرون على المطالبة بشيء شبيه برحابة الصدر التي تمارسها الأنظمة الديموقراطية الحقيقية. لكن كل هذا لا يقودنا يا معالي الوزير إلا إلى الاعتراف بمجموعة من الحقائق المرة.

أولها، هزيمة جيلنا كله - وأنت واحد منه ولو كنت في السلطة - في وجه امكانية تعدد الآراء. هناك رأي واحد هو رأي النظام والسلطة. لا رأي ثان. ولو كان من ضمن ولصالح رأي النظام والسلطة. رأي واحد لا رأيان. هذا هو شعار المرحلة الطويلة والتي تبدو وكأنها ابدية. ولا مانع من هذا الرأي الواحد لو كان يتاح للرأي الآخر مجرد مبدأ الاعتراف بوجوده.

ثانيها، سقوط جيلنا كله - وأنت ايضاً واحد منه في أي موقع كنت - في مستنقع الفشل القومي. واعني بذلك تحديداً فشلنا في كسر عقدة تاريخنا الدامي، بحيث لم نستطع طوال نصف القرن الأخير عبر النضال الوطني للاستقلال، وانتشار المبادىء القومية، وشعاراتها، وحكم الأحزاب التي ناضلت ووصلت إلى الحكم من خلال المفهوم القومي

أن نصل إلى الهوية القومية الواحدة. وهي الهوية العربية التي لا تحمل مجالاً للتأويل الطائفي أو العنصري أو العرقي ولا حتى القطري. فنحاسب على مبدأ الهوية القومية العربية، فإما أن يحكم لنا أو علينا بانتمائنا إليها.

وبين هزيمة جيلنا وسقوطه، هزمت وسقطت كل القيم التي افترضنا وجودها تلقائياً، واعتقدنا أنها من الثوابت في الحياة السياسية العامة.

لا أريد أن يشط بي القلم يا معالي الوزير للتنظير في مبدأ القومية العربية، في الأيام العصيبة التي تواجه بها هذا المد الرجعي للسلفية الدينية. ولا يهمني من سلسلة الممنوعات الطويلة في وزارتك الموقرة إلا أن تزيل أمرين:

الأول: أن لا تقلب «أجهزتك الاعلامية» مفاهيم المصطلحات القومية في الرأي السياسي.

الثاني: ان ترفض أنت شخصياً تصنيف «أجهزتك الاعلامية» لأي كاتب أو صحافي بعد صدور مقال له لا يتفق مع رأي وتفسير الرقيب الحذر.

ارجوك يا معالي الوزير أن لا تسرع إلى الظن فتعتقد أنني سأطالبك بحرية الصحافة وحرية الكتابة وحرية المناقشة وحرية التجمع. هذه أحلام لا أجسر عليها. لأنني من الذين يتفقون بالرأي مع الزميل أحمد بهاء الدين: ان على الصحافي أن يكتب تحت كل الظروف. لكن إذا أردت أن أكتب كصحافي تحت كل الظروف، فإنني أريد منك أن تقول لي وبصوت عال وعبر «أجهزتك الاعلامية» كلها، أسباب الخلاف بين دمشق وبغداد، ولماذا امتنعت سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية عن حضور مؤتمر قمة عمان، وما وراء الحرب العراقية ـ الايرانية وأين أصبحت حرب الصحراء المغربية، وماذا تفعل القوات الليبية في تشاد، وعلى ماذا يختلف الشيخ زايد مع الشيخ راشد، وأين صارت الوحدة اليمنية والوساطة الكويتية... و.. و.. عشرات من أين وكيف ولماذا. ما المانع أن نعرف كل هذه الأسباب علناً بدلاً من أن نعرفها نحن الصحافيين ومعنا كل الناس سراً ومشوهة ومتحيزة؟

هل تعرف يا معالي الوزير أن الظاهرة الصحية الوحيدة التي حدثت في العالم العربي خلال العقد الأخير، هي أن مجموعة من الدول ـ سمّها ما شئت ـ قاطعت مؤتمر قمة عمان وان الخلاف في الرأي قد اصبح علنياً لدرجة بدأنا نعرف للمرة الأولى تمييز مواقف الدول من بعضها البعض ومن اجتهاداتها العربية المختلفة.

وان الدول التي قاطعت قمة عمان والدول التي حضرتها قد كسرت طوق النفاق السياسي العربي، وجعلت من هذا الخلاف العلني مهرجاناً لتبادل المعلومات السياسية، وأنها بذلك قد حققت الانفراج الاعلامي الذي يطمح إليه أي صحافي.

كلام فيه بعض المبالغة؟ لا بأس. لكن دعني يا معالي الوزير استغل هذا الخلاف العربي العلني لأطالبك بأن تكون فيه بوادر سابقة وقف الكذب المتبادل بين الأنظمة العربية، بحيث يصبح من الطبيعي ـ كما هو في العالم الأوروبي والعالم الشيوعي منه ـ

أن تكون هناك خلافات في وجهات النظر والسياسات بين الأنظمة العربية حول ألف قضية ومسألة، وأن تظهر هذه الخلافات إلى العلن، وأن يتفاوض حولها الفرقاء، دون أن يخرجوا باتفاق في كافة وجهات النظر، كما تعودنا من أي تجمع أو مؤتمر عربي مهما صغر أو كبر، أليس من الممكن أن نجتمع حول قضية، ونخرج باتفاق حول جزء منها ونختلف حول الجزء الباقي؟ لماذا لا؟ أليس هذا أفضل من الكذب على بعضنا البعض؟ أليس أربح ـ وأمتع لك كوزير للاعلام ـ أن تعلن أن دولتك لم تتفق مع دولة أخرى حول مسألة ما، وأن بحثها سيستمر في اجتماع لاحق بدلاً من تجاهل الخلاف واعتبار أي خبر أو رأي حوله محاولة لتشويه وحدة الصف؟ أي وحدة صف نتحدث عنها؟ وهل هي ضرورية؟

وإذا كان طموحنا قد تقلص كصحافيين إلى المطالبة بشيء من الحرية البديهية التي تتيح لنا ممارسة الحد الأدنى من الصحافة التي تشمل الخبر والرأي، فعلى الأقل نأمل أن تعطونا الحد الأدنى من المعلومات عن الخلافات العربية والتي تدعم وجهات نظر مختلف الفرقاء المعنيين، بحيث لا تصبح الكتابة عنها وكأنها مسّ بقدس الأقداس، ولا يصبح نشر خبر عنها تآمراً على قدسيتها، ولا يصبح الرأي حولها طعناً في عذريتها. لماذا لا يتهم أي أوروبي يكتب عن الخلافات بين فرنسا وبريطانيا أو المانيا وايطاليا بأنه متآمر على القومية الأوروبية وعميل للمعسكر الآخر، ولا يذكر بأنه كاثوليكي أو بروتستانتي أو حتى يهودي أو ملحد؟ وهل أوروبا تاريخياً أو واقعياً قومية واحدة لو قورنت بالعالم العربي والتراث القومي العربي؟.

لا أريد أن أطيل عليك يا معالي الوزير في رسالة قد لا تفضها وفي موضوع قد لا يعنيك لو شئت. لأن الصحافي بالنسبة لدولتك ما زال إنساناً مشبوهاً لا يدخل حدودك إلا بإذن ولا يخرج منها إلا بإذن. للصحافي دائماً في بلدك وضع خاص يحد من حرية حركته ويحط في أحيان كثيرة من كرامته وكبريائه. وفي أغلب الأحيان لا يريد هذا الصحافي أكثر من أن يصل اليك ليطلع على رأيك فينقله ويسمع أخبارك فينشرها ويتعرف على بلدك ـ فربما ـ يعجب به وبانجازات نظامك.

أتمنى يا معالي الوزير أن لا تناقش مع زملائك وزراء الاعلام العرب الآخرين في أي مؤتمر قادم، الاعلام العربي في الخارج والصورة العربية في العالم الغربي، وأن ترصد الأموال ـ القليل منها والكثير ـ لمجموعة من موظفي الجامعة العربية المنتفعين. بل أتمنى يا معالي الوزير لو تناقش الصحافة العربية ـ الحكومية منها والخاصة الصادرة في الوطن أو في المهجر. لأن ليس هناك صورة عربية في الخارج من دون صحافة عربية في الداخل. ولا علاقات عربية مع الخارج بواسطة موظفين في «الأجهزة الاعلامية». فالصورة العربية تكبر بقدر ما يكبر الانجاز العربي. ولا أحد يستطيع أن ينقل هذا الانجاز العربي إلا حرية الصحافي العربي وممارسته غير المشوبة إلا بالاعتبار القومي.

اعذرني يا معالي الوزير إذا أثقلت عليك بهمٍّ ليس من همومك، وبقضية قد لا تعتبرها

من قضاياك الملحة. لكن لا تمنعني من اعتبار كل ذلك همّ حياتي الأساسي وقضية وجودي الطبيعي.

أملاً أن أجد في رحابة صدرك مجالاً للتفهم الدائم، بعيداً عن سيفك البتار للكلمات، لك مني كل التحية!

لندن - (١٩٨٠/١٢/٢٠)

■ أقفاص الدجاج

شاءت الصدف أن أكون في الكويت في كانون الأول ١٩٨٢، في الوقت الذي كان فيه اتحاد الصحافيين العرب يعقد أحد اجتماعاته الدورية، وكانت الأمانة العامة للاتحاد بكامل طاقمها المؤلف من نقباء الصحافة العربية من سورية إلى الأردن ومن لبنان إلى فلسطين ومن العراق إلى اريتريا ومن الجزائر إلى تونس، ناهيك بالكويت واليمن وموريتانيا، تقيم الأوضاع العربية العامة وتصدر التوصيات اللازمة بشأنها بدءاً بالقضية الفلسطينية ومذابح صبرا وشاتيلا مروراً بالمشكلة الأريترية وانتهاء باتفاق كامب دافيد.

ولا بد لي من ان اعترف انني لا أعرف شيئاً عن اتحاد الصحافيين العرب، ولا إذا ما كنت عضواً فيه، ولا إذا كنت سأقبل في عضويته إذا تقدمت بطلب الانضمام إليه، ولا إذا كنت حائزاً لشروط الانضواء تحت مظلته وأنا الصحافي المحترف الممارس لمهنة الصحافة دون أية مهنة سواها منذ حوالي ربع قرن. وأريد ايضاً أن أقرّ أن جهلي باتحاد الصحافيين العرب ومهماته ونشاطاته ليس تقصيراً مني فقط، بل اعتقد مخلصاً بأنه تقصير من الاتحاد نفسه بالدرجة الأولى لأنه عجز أن يوصل دعوته إلى صحافي عادي محترف مثلي. فالقاعدة النقابية تقول بأن الاتحاد أو النقابة هي التي تسعى عادة أو تقليداً نحو العضو محاولة استمالته شعوراً منها بضرورة ضم أكبر عدد من العاملين في حقلها تقوية لكيانها وتعزيزاً لقدرتها السياسية والتفاوضية وبالتالي لنفوذها وثقلها في المجال المهني الذي تعمل فيه.

وتابعت مداولات الأمانة العامة لاتحاد الصحافيين العرب، وأعجبت بموقفها من محاولة اسقاط كامب دافيد قبل أن يسقط باقي العالم العربي، وتأييد الثورة الاريترية قبل أن تفنى ودعم الصمود العربي إذا بقي فيه حيل. وكنت شغوفاً بمتابعة هذه المداولات في الصحافة الكويتية طموحاً مني أن أرى أي نقاش أو بحث أو قرار يتعلق بحرية الصحافي ـ الفرد حرية الصحافة ـ المهنة.

وحتى لا يقفز أحد من كرسيه ليؤنبني على هذا الطموح الشاذ أريد أن أسرع فأقول انني عنيت أبسط أنواع الحرية المسموح لأي مواطن عادي آخر بممارستها. وهي الحد الأدنى من الكرامة المهنية التي يتمتع بها اي تاجر أو مزارع أو موظف في العالم العربي، لا الصحافي. فالصحافي العربي مهان عند كل مخفر حدود أو مطار أو مرفأ، وفي أي بلد عربي. فإذا كان المواطن العادي يحتاج إلى تأشيرة دخول عادية إلى بلد ما، فالصحافي يحتاج إلى تأشيرة دخول غير عادية مع حارس ترسله عادة وزارة الاعلام لينقذه أولاً من تهذيب رجل الحدود اللبق ومن ثم ليكون مرافقاً له ورقيباً على تحركاته.

ولكن إذا اجتاز الصحافي العربي الحدود، فلا يعني أنه اجتاز كل الحواجز. فهو متهم من قبل أن يحصل على تأشيرة الدخول أصلاً. وهو متهم من بعد أن يحصل على التأشيرة. وهو مشكوك في ولائه وفي موقفه وفي وطنيته وفي طبيعة مهمته. الشك هو

الشيء الوحيد الواضح الذي يحيط به. ولا يزول هذا الشك عادة بانتهاء الزيارة أو المهمة التي جاء من أجلها، وهي عادة ما تكون مهمة بسيطة، هي متابعة تفرضها طبيعة مهنته كصحافي نتيجة وقوع حدث أو تطور ما في ذلك البلد. لكن الشك - الاتهام - يبقى إلى الزيارة الثانية.. والعاشرة وربما الأخيرة.

أقول هذا لا دفاعاً فقط عن كرامة الصحافي العربي العادي الذي لا ينتمي إلى صحافة نظام من الأنظمة، ولا «بهورة» على النقباء الكرام أعضاء الأمانة العامة للاتحاد، ولا جهلاً بقدرة الاتحاد وحريته على الحركة، ولا حتى تدخلاً بشؤون نقابية أجهلها. إنما تقديراً مني لموقفهم، راجياً أن تسمح ظروفهم النقابية في اجتماع مقبل أن يبحثوا بنداً واحداً «من جملة بنود أخرى بالطبع» يدعو ببساطة إلى احترام الأنظمة العربية للصحافي والحفاظ على كرامته وحرية حركته وتنقله اسوة بأي مواطن عادي من مواطنيها.

وهذا لا يعني بالطبع أن بعض الدول تعامل رعاياها بالكرامة والاحترام المطلوبين، ولكن تعاملهم قطعاً بأفضل مما تعامل الصحافيين. فعلى الأقل لا يفرزوا لوحدهم عند كل قدوم أو مغادرة ولا يعتبرون تلقائياً خطراً على الأمن، ولا يشكلون طابوراً خامساً هدفه القضاء على النظام. أصبحنا لا نريد أكثر من «الحد الأدنى».

ولعل هذا الطلب المتواضع لا يتناسب مع ما نقراه في الصحف ونسمعه في الاذاعات ونشاهده في التليفزيونات من تصريحات وزراء الاعلام العرب وغيرهم من المسؤولين عن أهمية الاعلام ودوره وضرورته، إلى درجة بات المواطن يشعر أن الاعلام مسؤول عن «أمجاد» كل هذه الأمة، وأن لا سلاح أمضى من سلاح الاعلام في مواجهة الأعداء المتربصين بها، وإلى درجة بات من الممكن أن نصدق نحن الصحافيين هذا الكلام - وبعضنا من أبناء الجيل الجديد في هذه المهنة قد صدقها فعلاً. حتى ان أحد المسؤولين الاعلاميين في دولة خليجية دعا إلى شيء جديد اسمه «الأمن الاعلامي»، الذي لا يتعدى فحواه أكثر من الزام الصحافيين الكتابة بقلم حبر واحد وبمفردات واحدة وبنص واحد، حتى يوفر على نفسه عناء القراءة وخاصة إذا كان الحبر من دواته والمفردات من قاموسه والنص تغنياً بأمجاده. إنه أقصى ما تطمح إليه سياسة «التدجين» الاعلامية في العالم العربي، بعد كل النجاح الباهر الذي حققته.

بالطبع ليس اتحاد الصحافيين العرب هو المسؤول عن هذا «الازدهار» الذي وصلت إليه الصحافة العربية، ولا إلى هذا «العلو» الذي وصل إليه الصحافيون العرب. نحن الصحافيين أفراداً وجماعات مسؤولون عنه إلى حد كبير. والتنظير في هذا الأمر قد يطول كثيراً. لكن الذي نرجوه من الاتحاد في اجتماعاته المتواصلة أن يتذكر بين حين وآخر، أن ما يعني الصحافي ليس التذاكر المخفضة ولا الدورات التدريبية ولا الدعوات السياسية. الذي يعنيه شيء ابسط بكثير: كرامته المهنية ومصداقيته الشخصية وحريته الفردية. فقط الحد الأدنى من كل هذه الأشياء. ما أكثر تواضعنا وما أرخص مطالبنا!

وعلى الرغم من كل هذا السقوط يا سادة يا صحافيين، فما زلنا نخيف. وإلا ما الحاجة إلى «الأمن الاعلامي»؟ صحيح أن العين لا تقاوم المخرز. لكن كرامة الكلمة المطلوبة قد تساعد على رفض «أقفاص الدجاج» ووحدة الكلمة وكرامتها المهنية خير من جليس السوء.

الكويت - (١٩٨٢/١٢/٢١)

الصحافي والتاريخ

هذا حديث من طرف واحد، لسؤال أراد صاحبه أن يجرني إلى حوار مع مجموعة من الشبان العاملين في الصحافة العربية، التقيتهم في رحلة من رحلاتي الأخيرة.

وليس القصد من هذا الحديث سوى تحديد موقفي أنا، كصحافي عربي يحتفل بعد حوالى سنة بمرور ربع قرن كامل على احترافه هذه المهنة التي لم يعرف ولم يمارس سواها في حياته. وبالتالي يرى فيها تحديداً لمفهومه من الموضوعين المطروحين في هذا الحديث. وقد يبدو هذا الحديث «مونولوغاً» أكثر منه «ديالوغاً». والسبب أنني تجاهلت فيه مجموعة الاسئلة التي طرحها هؤلاء الشبان، في محاولة مني لأن أصل إلى «بيت القصيد». كل الذي أرجوه من هؤلاء الزملاء الجدد هو أن يعيروني صبرهم قليلاً، حتى يدركوا أن الأمور ليست بالسهولة التي تحدثوا بها، وأن طرح الأسئلة عادة، أسهل بكثير من الاجابة عليها.

وهذا الحديث تفرع إلى شقين أساسيين. الأول، عن علاقة الصحافة بالتاريخ. والثاني عن موقف الصحافي من التاريخ. ومحاولتي التصدي لهذين السؤالين كانت انطلاقاً من تجربتي المهنية، كما عانيتها شخصياً، وكما مارستها. وقد تلتقي أو تفترق مع غيرها من التجارب. لكنها حتماً لا يمكن أن تختلف مع جيلي من الكتّاب الذين اعتبروا أن مهمة الصحافي لا تنتهي بانتهاء الحبر الذي في قلمه، ولا تبدأ مع الصفحات البيض التي يسعى إلى تسويدها. إنما هي مزيج من عشق التاريخ الذي يقبله والشغف بصنعه لعله يحرره.

ما علاقة الصحافة بالتاريخ؟

كلما قلبت في أوراقي القديمة لأرجع إلى ما كتبته ـ أو كتبه غيري ـ عن قضية ما أو موضوع معين، أفاجأ بأن ما كتب منذ سنوات ما زال يصلح لأن يكون حدث ذلك الأسبوع، مع تعديلات طفيفة في بعض الأسماء والتواريخ.

وكلما واجهت حدثاً معيناً وأنا مسافر إليه من مكان إلى مكان، تساءلت عن مدى علاقة الصحافي بالتاريخ. فالصحافي الذي يكتب عادة بشكل يومي أو أسبوعي، يجد ـ من دون وعي مباشر منه ـ أنه لا يحمل فقط في تعليقه أو رأيه أو تحليله، حصيلة الساعات الأربع والعشرين الأخيرة أو الايام السبعة الماضية فقط، إنما في أحيان كثيرة تراكمات وارهاصات القضية التي يتعرض لها بقلمه خلال جيل بكامله. فالصحافي الجاد لا يمكنه أن يتفادى كونه مؤرخاً.

هناك من يقول ان مهمة الصحافي ومهمة المؤرخ على طرفي نقيض. لأن دور الصحافي أن يكتب ويسجل ويعلق على حدث الحاضر، بينما دور المؤرخ ومهمته البحث والتنقيب عن أحداث الماضي. لا شك أن الخيط الرفيع الذي يفصل بين التاريخ والصحافة، لا بد وأن

يؤدي إلى مناقشة دور الصحافي وأين ينتهي، ودور المؤرخ وأين يبدأ. وهذه المناقشة تشكل موقفاً زمنياً يتغير بتغير الحقبة التي نحن فيها. ولما كان الزمان عملية مستمرة لا تخضع، لا للنقاط ولا للفواصل إلا ما نقرر نحن أن نضعه في طريقها، فلا بد أن يختلط الدوران في آن، ويتممان بعضهما البعض في آن آخر.

لعل كل كاتب يتعاطى بأحداث العالم الحقيقية، أكان صحافياً أم مؤرخاً، هو مجرد رحالة في عالم الحدث الزمني المتحرك، قدره أن لا يصل أبداً. فالزمان كالنهر الموحل الهادر من نبع غير مكتشف، ليصب في بحر ضائع في الجغرافيا مجهول السواحل.

اختلاط الدورين ـ دور الصحافي ودور المؤرخ ـ يمارس يومياً عندما يتساءل صناع مهنة الأخبار عن الجديد في خبر أو حدث. فإذا كان جديداً استحق النشر والتعليق وأصبح ملك الصحافي. وإذا لم يكن جديداً مات على طاولة المحرر أو في صدره تلك الليلة، وأصبح ملك المؤرخ إذا شاء أن ينقب عنه في ما بعد.

وكلما حاول الصحافي فهم الحاضر، ليضعه في اطار معين، ويقدمه ويفسره للقارىء، كلما شعر بحاجته للعودة إلى الماضي. ان سبر اغوار ضبابية الحاضر، يحتاج من الصحافي أن يتكىء على مراجع من الماضي هي بمثابة علامات فارقة لأحداث اليوم. ان حس التاريخ واستمراريته لدى الصحافي هما اللذان تجعلانه قادراً على أن يمسك باللحظات التاريخية اليومية، وتصبح أدوات في متناول يده يحقق فيها ويثبت منها ويعيد تحليلها على ضوء معطيات الحدث المعاصر الذي يتناوله.

ما هو موقف الصحافي من التاريخ؟

موقف الصحافي من التاريخ ليس موقفاً محايداً. فالصحافي الحقيقي الجاد والمؤثر والفعال ليس صحافياً حيادياً. فالصحافي الذي لا يشعر بالغضب وبالثورة وبالقرف ـ وكذلك بالفرح، والصحافي الذي لا يشعر بحاجته إلى الصراخ والتساؤل والشك ـ والتشكيك أيضاً، ليس صحافياً مستوعباً ولا هاضماً للتاريخ. وبالتالي لن يكون شريكاً أو مساهماً في صنعه. ربما يكون شاهد زور عليه، وإن كان محلفاً.

وموقف الصحافي من التاريخ، يخضع لتساؤل أساسي: من يصنع التاريخ؟. القلة أم الكثرة من الناس ـ أم كلهم؟ وهل صناعة التاريخ تعتمد على قوانين كونية أم أن مجموعة أفراد هي التي تتحكم في صنعه ليس إلا؟

إن الرد على هذا السؤال ما زال معضلة ازلية، لم يجد لا المؤرخون ولا الفلاسفة ولا السياسيون حلاً لها حتى الآن. والرد على هذا التساؤل يسقط أي صحافي في فخ قديم، حيث أن كل جواب يحمل في طياته تناقضاته نفسها. لكن هذا التساؤل هو أمر اساسي لأي صحافي. لأن الصحافي نفسه ـ مهما طال باعه ـ لا يعرف في النهاية إلا مجموعة الأفراد الذين هم في السلطة، أو مجموعة المعارضين الذين يريدون قلب السلطة والاستيلاء عليها. اذن، ما زال ذلك الصحافي ـ مهما اتسعت دائرة اتصالاته ـ يدور في

اطار القلة من الناس، التي تحكم أو التي تريد أن تحكم. وإذا كان الصحافي متفوقاً بحدسه وحاسة شمه قد يعرف أين تقف الكثرة من الناس ممن هم القلة في السلطة أو خارجها.

ان إحدى محاولات الاجابة على هذا التساؤل هي في الحل الوسط، الذي يقول ان التاريخ يصنعه الكل ويصنعه البعض أيضاً. فالبعض، لأنهم يبرزون كزعماء في اللحظة التاريخية المناسبة، حيث استطاعوا أن يجيروا تلك اللحظة لصالح زعامتهم، يدخلون التاريخ ويحتلون حيزاً فيه، والكل، لأنهم أتاحوا لهؤلاء البعض اللحظة التاريخية المطلوبة لزعامتهم.

لكن الصحافي بحكم الممارسة اليومية لعمله، أي الاختلاط بالقلة، لا يمكنه إلا أن يقف بجانب الفيلسوف البريطاني، برتراند راسل، الذي قال عام ١٩٥٦، في كتابه «لوحات من الذاكرة ومقالات أخرى»: «إذا كانت شعوب العالم ستعيش أو ستموت، فهذا الأمر يعود كلياً إلى قرار يتخذه خروتشيف أو ماو تسي تونغ او جون فوستر دالاس، لا إلى قرار يتخذه ناس عاديون يحيون ويموتون مثلنا. إذا قال هؤلاء «موتوا» متنا. وإذا قالوا «عيشوا ـ عشنا».

واليوم بعد ٢٨ سنة من هذا القول، لا أعتقد ان برتراند راسل كان مخطئاً. فالصحافي لا يستطيع في دور المؤرخ الشاهد على عصر أو حقبة ما، أن ينفي أن بقاء البشرية أو فناءها يتوقف على بضعة أشخاص فقط. يتوقف على أحلامهم وطموحاتهم. على عنادهم وإرادتهم، على حبهم وكرههم. على عواطفهم وأحقادهم. وان هؤلاء الأشخاص قادرون عبر مبادراتهم أن يشعلوا ثورات وحروب. وكذلك هناك أشخاص آخرون، قادرون عبر مبادرات بسيطة، كاغتيال طاغية ما مثلاً ـ أن يضعوا حداً لطموحات وأحلام هؤلاء الأشخاص، فيغيرون من مجرى الأحداث ويقررون اقدار الأكثرية منا.

ان هذا المنطق لا بد وأن يجر الصحافي إلى الوقوف مع نظرية القلة ـ أو النخبة إن شئت تعظيمها ـ التي هي وحدها تصنع التاريخ. وقد يكون في هذه النظرية إساءة أو إنقاص من أهميتنا ـ نحن الأكثرية ـ حيث يحيلونا إلى قطيع بيد راع صالح ـ أو عادل مستبد ـ أو طاغية مقيت، أي إلى مجرد ورقات تتطاير أمام رياح التاريخ. لكن التاريخ نفسه قد أثبت بيقين تام أن القلة هم الذين يخلقون الأفكار ويصنعون الاكتشافات ويغتالون الطغاة أيضاً.

ويتساءل الصحافي ـ الذي يقوم بدوره الحتمي كشاهد ومؤرخ ـ عن هوية هذه القلة، التي يعرفها ويتعاطى معها بحكم ممارسته لمهنته. هل هي أكثر ذكاءً منا نحن الأكثرية؟ هل هي أقوى منا؟ أكثر علماً وفهماً؟ أكثر جداً واجتهاداً منا؟ أم هي مجرد مجموعة عاديين مثلنا لا أفضل ولا أسوأ منا، لا يستحقون لا غضبنا ولا إعجابنا ولا حتى حسدنا؟

وكثيراً ما يتساءل صحافي القرن العشرين وصانع التاريخ اليومي، وقد وصل هذا القرن

إلى مشارف نهايته ومعها وصلت الثورة التكنولوجية في حقلي الاتصالات والاعلام إلى ذروتها، كيف كان من الممكن مثلاً أن يدلي صلاح الدين الأيوبي بحديث صحافي له. أو كيف كان تصرف يا ترى أمام كاميرات التلفزيون أو ميكروفونات الاذاعة؟ ان صحافي هذا العصر لا يثق كثيراً بتاريخ غير مسجل ولا يثق لا في آلة تسجيل ولا في كاميرا ولا حتى في الاختزال. بالكاد ببعض الوثائق وبشهود تناقلوا عن بعضهم البعض أقوالاً وأحداثاً وروايات غير متفق عليها وغير مقروءة حتى الآن.

كل هذا يدفع صحافي اليوم إلى المزيد من الاعتقاد بمشاركته في صنع التاريخ. لأنه تاريخ مكتوب في كل لحظة من لحظات الليل والنهار. من الممكن نقله وتسجيله وتصويره وتوثيقه وحصر أنفاسه وتحليله وتفسيره ومناقشته فوراً. لذلك فالصحافة أمر مخيف إذا نظر اليها بمنظار تاريخي. أية مهنة سواها تتيح لك أن تكتب التاريخ ـ في اللحظة التي يصنع بها ـ ويكون الصحافي فيها بالذات شاهدها المباشر؟

ليس من الضروري أن يكون الصحافي هيرودوت. فمهما كان دوره صغيراً أو هامشياً، فهو يقدم شيئاً للتاريخ. يقدم قطع الفسيفساء الصغيرة التي يصنع منها الزمان لوحته الكبيرة. لذلك من المسموح للصحافي أن يخطىء في نقله أو اجتهاده. لأن هناك المؤرخ الذي لا بد أن يأتي من بعده ليصحح هذا الخطأ وهو ينقله إلى فسيفسائه الكبير. لأن مهنته الأساسية هي أن يقدم للناس، أي للكثرة، المعلومات التي تدفعها إلى التفكير بأخبار القلة.

لكن ليس كل صحافي يفهم معنى السلطة. فالقلة التي هي في السلطة ـ أكانت رئيساً منتخباً ديموقراطياً أم حاكماً مفروضاً سلطوياً ـ ليست إنساناً مختلفاً عنا، قد يكون أقوى أو أذكى أو أكثر طموحاً منا، لكنه في النهاية جزء من هذا القطيع المحكوم الذي هو نحن. لذلك فإن فهم السلطة أمر ضروري لكل صحافي. كذلك فهم الذين يعارضون السلطة وينتقدونها. وعلى الأخص، فهم الذين يتمردون عليها. وهنا يكمن تحديه الأكبر الذي يحدد موقفه من التاريخ.

خلال الاحتلال النازي لليونان إبان الحرب العالمية الثانية، كتب رجال المقاومة اليونانية على الأحجار والصخور في جبال وغابات ووديان جزرهم العديدة، كلمة مؤلفة من ثلاثة أحرف: O.X.I ـ «أوخي» ـ ومعناها «لا». ولأكثر من ثلاثين سنة ظلت هذه الكلمة محفورة لا تمحوها الشمس ولا يذيبها المطر. ولما جاء حكم الكولونيلات اثر انقلاب عسكري عام ١٩٦٨، كان أول عمل قاموا به هو الأمر بإزالة هذه الكلمة، أينما وجدت في اليونان. وجندت السلطة العسكرية المئات من أجل هذه المهمة. وفجأة عندما سقط نظام الكولونيلات وعادت الديموقراطية إلى اليونان بعد سنوات، اذابت الشمس والأمطار الطلاء الأبيض الذي حاول العسكر أن يطمسوا به هذه الكلمة. وعادت كلمة «لا» إلى الظهور بعناد التاريخ وقوته معاً.

ان مهمة الصحافي، في تعامله مع التاريخ أن يبقي هذه الكلمة اليونانية محفـورة في قلمه كلما لامس صفحات الورق. لأن رسالتـه الحقيقية هي أن يقـول «لا» في عصر لا يتحمل إلّا «نعم»!

لندن - (١٩٨٥/١/٢٦)

صحافة المهجر أم صحافة المنفى؟

أرى نفسي في موقف لا احسد عليه، ألا وهو تفسير ظاهرة تتكرر كل مئة عام أو نحوها، وهي هجرة الصحافة العربية إلى أوروبا. ويبدو من الصعب على شخص مثلي، على الأقل في هذه المرحلة، أن يخوض في أبعادها التاريخية. ولذلك سأقتصر في كلامي على شرحها كما هي، ولماذا كانت كذلك، وكيف أخفقت في أن تصبح وسيلة للتفاهم بين مجموعتين مهنيتين من الصحافيين. وإنني لعلى ثقة في أنكم ستبادرون إلى تحريك ذاكرتي بأسئلتكم ومساهماتكم فيما بعد(*).

دعوني أولاً ألفت النظر إلى ظاهرة أساسية غفل عنها الكثيرون في هذه البلاد. فقد ازدهرت خلال السنوات العشر الماضية صحافة عربية في بريطانيا. وهذه الصحافة ليست بصحافة مهاجرة ولا لاجئة في منفى، وإنما هي صحافة مهنية كأي صحافة أخرى موجودة في العالم.

الفرق الوحيد هو أنها تصدر خارج حدودها الجغرافية الطبيعية. وهي في هذا المجال تبدو فريدة في نوعها من حيث شموليتها، ذلك أنها الصحافة «القومية» المهنية الوحيدة التي تخاطب العالم العربي برمته، وذلك ما يميزها عن الصحف «الاقليمية» التي تصدر في كل بلد عربي على حدة. وهكذا، فإن هذه الصحافة المهاجرة، بتعدديتها وأبعادها القومية، تخدم أغراضاً يبدو العالم العربي في أشد الحاجة إليها، كما أنها تسد الفراغ الناتج عن اختفاء الصحافة اللبنانية التي كانت آخر صحافة عربية قومية من نوعها. أما بالنسبة لنوعيتها، فيمكنني أن أقول من زاوية ذاتية بأن بعضها يوازي في جودته المطبوعات المشابهة في بريطانيا وفرنسا. وبعضها الآخر يضاهي بعض المطبوعات الغربية في رداءتها.

ويبدو من الضروري في هذا المجال، أن أسارع إلى القول بأن الصحافة العربية في أوروبا ليست صحافة أقليات، كما هو الحال بالنسبة لصحف الأقليات القومية والعرقية الموجودة في بريطانيا، والتي تصدر مطبوعاتها المحلية الخاصة بها كالصحف: الهندية والباكستانية والصينية والكاريبية والبولونية، والتي يتوقف غرضها الأساسي على خدمة المجموعات المحلية التي تمثلها في بريطانيا.

أغلبية الصحف العربية الصادرة في أوروبا لا تنتمي إلى هذه المجموعة من المجلات والصحف. ومن المحتمل أن لا يدرك أي قارىء لهذه الصحافة العربية البلد الذي صدرت منه لولا عنوانها ورقم هاتفها. ذلك أن هذه الصحافة لا تضع في رأس اهتماماتها القومية الشاملة خدمة الجالية العربية المقيمة في بريطانيا والتي تحتاج إلى من يعالج شؤونها، ولا تعترف كذلك بأن هذه الجالية تشكل جزءاً من التعددية السكانية في بريطانيا.

(*) جزء من كلمة القيت بالانكليزية في ندوة مغلقة عن الصحافتين العربية والبريطانية عقدت في لندن يوم الثلاثاء ٢١ أيار ١٩٨٥، بدعوة من مجلس تعزيز التفاهم العربي ـ البريطاني (كابو).

ويرجع هذا الموقف إلى أربعة عوامل رئيسية:

١ ـ ان الجالية العربية لا تعتبر نفسها مجموعة مهاجرة امتدت جذورها هنا في بريطانيا بصورة نهائية وقطعت صلاتها بوطنها الأصلي، وراحت تشارك بشكل أو بآخر في النشاطات المتعددة للمجتمع البريطاني أو ترتبط بها أو تكتسب هوياتها.

٢ ـ لقد عُرف عن العرب أنهم يحملون معهم أنّى ذهبوا، انتماءاتهم وانقساماتهم السياسية التي درجوا عليها وعرفوها في أوطانهم. ورغم أن هذا يجعل منهم «مخلوقات سياسية» من الصنف الأول، فإنه يبعدهم، عن معايشة التيارات السياسية السائدة في موطن اقامتهم.

٣ ـ قد تكون الجالية العربية موسرة بدرجة كافية، ولكنها ليست بذلك العدد الذي يكفي لمساندة جريدة تعنى بصورة أساسية بشؤونها المحلية.

٤ ـ ان بريطانيا بالنسبة للصحافة العربية هي مقر إقامة مناسب لا غير. ولهذا كان الغرض من وجودها هنا أن تصبح بضاعة للتصدير الى الخارج، ضمن محاولات للتأثير في القرار السياسي العربي وفي توجيه الرأي العام العربي، ولذلك فإنها لا تطمح إلى التأثير في أي قرار سياسي بريطاني.

٥ ـ الواقع أن الصحافة العربية وفدت إلى لندن وباريس بسبب الموقف السياسي المضطرب في كثير من البلدان العربية، ولا سيما لبنان. ولعل وجودها هنا في لندن، وليس في أي مكان آخر، جاء من قبيل الصدفة التاريخية لا غير. صدفة الثقافة واللغة والتعليم والماضي الاستعماري. ولم يحل كل ذلك دون قيام كثير من العرب في السنوات الماضية بنشر صحفهم من روما أو قبرص أو اثينا، ولأسباب تعود بصورة رئيسية إلى القرب الجغرافي من العالم العربي.

في لندن الآن عدد كبير من الصحافيين العرب العاملين سواء في الصحافة العربية الصادرة في بريطانيا، أو كتّاباً ومراسلين لصحف ومجلات تصدر في دول أوروبية أو عربية مختلفة. هذه المجموعة من الصحافيين التي ينتمي أكثرها إلى نقابة الصحافيين الوطنية أو لجمعية مراسلي الصحافة الأجنبية في بريطانيا، تشكل قوة تتجاهلها كلياً الصحافة البريطانية والمؤسسات السياسية في المملكة المتحدة.

ربما تستطيع الصحافة البريطانية أن تتجاهل الصحافة العربية في بريطانيا. بيد أن الصحافة العربية تفعل ذلك في مجازفة منها، مع أن الصحافتين تصدران من الشارع نفسه وتشتركان في الوسائل نفسها وتتعاملان مع النقابات نفسها. ومع أن الكثيرين من الصحافيين البريطانيين هم معروفون حق المعرفة لدى القراء العرب، فإن العكس غير وارد في هذا المجال. وذلك لأن الصحافة العربية تشعر بعقدة نقص عند مقارنتها بالصحافة البريطانية. فالاعتقاد السائد هو أن الصحافة البريطانية تتمتع بحرية التعبير التي حرمت منها الصحافة العربية، وإنها في هذا المجال أفضل منها مناخاً

وموقعاً. وقد يبدو السبب الأول صحيحاً بكل تـأكيد، أمـا الثاني فمشكـوك فيه. ولهـذا نلاحظ وبنتيجة هـذا الشعور بمـركب النقص، ان عدداً من الصحـافيين البـريطانيـين البـارزين يكتبون أحيـاناً وبصـورة منتظمـة في عـدد من الصحف والمجـلات العـربيـة الصادرة في لندن (بالطبع عن طريق الترجمة) ويعلّقون على مشاكـل الشرق الأوسط، في الوقت الذي لا أعرف فيه صحافياً عربياً واحداً دعته صحيفة أو مجلة بريطانية للكتابة فيها (بالانكليزية)، اللهم إلّا في حالات نادرة.

في محاولة للتعرف على أسباب هذا التجاهل، نرى أن الصحافة البريطانية لا تعـرف أو لا تشعر بأن هناك صحافيين عرباً يتواجدون خارج نطاق حفلات الكوكتيل واستقبـالات السفارات الأجنبية. ذلك لأنها تعـاني بدورهـا أيضاً من عقـدة التفوق وأوهـام الاكتفاء الذاتي، ولأنها تتخذ موقفاً متعالياً من كل ما هو غير بريطـاني. إنها تعتقـد بأنهـا أكثر دراية بشؤون العالم العربي، وبدون أن تحتاج إلى الاستئناس بـرأي صحافي عـربي أو الاستفادة من خبرته حيث توجد.

والأدلة على ذلك كثيرة. ففي البرامج الاخبارية التليفزيونية والاذاعية مثلاً، عندمـا يأتي استعـراض لأزمة أو تقـارير تتعلق بـالشرق الأوسط، فكل مـا تتفتق عنه مخيّلـة هيئـة الاذاعة البريطانية (بي.بي.سي.) أو التليفزيون المستقل (آي.تي.في.) عادة للتعليق عـلى الموضـوع، هو دعوة أستاذ مغمور من جامعة اقليميـة مغمورة قـد لا يتعلق اختصاصـه بالضرورة بموضوع البحث، وربما لم يمـر منذ أيـام تخرجـه على مسرح الحـدث. وقلما نرى صحافياً عربياً ممن يعرفون مسرح الحدث وأبطاله وخلفياته يُستدعى للإدلاء برأيه في مثل هذه البرامج.

أما نظام التزويد بالمعلومات المتعارف عليـه تقليدياً بين وزارة الخـارجية والصحـافيين البريطانيين فإنه غير قائم كلياً مع الصحافة العربية، وإذا حصل، فإنه غـير كاف وغـير جدي. وهذه التفرقة المتعمدة بين نمطي مستوى تزويد المعلومات أمر يدركه كل صحافي عربي عندما يحاول الحصول على معلـومات سـواء من وزير دولـة أو رئيس مؤسسة أو موظف صغير. وبودي لو أعرف كم من الصحافيين العرب استطاع الحصول على موعـد من وزير في الدولة ينوي زيارة بلد عربي أو عند عودته منه. ان فرصـة مقابلـة صحافي عربي لموظف أو مسؤول بريطاني له وزنه السياسي تكاد تكـون شبه منعـدمة. وقبـل أن ننسى، لا بد من الإشارة إلى أنه لا يوجـد مراسلـون عرب للـوبي البرلمـاني معترف بهم لدى مجلس العموم، وأن تسعـين في المئة من نـواب البرلمـان ـ بمن فيهم من له عـلاقة بالمجموعات البرلمانية المعنية بالعلاقات العـربية البـريطانيـة ـ لا يعرفـون أي شيء عن وجود صحافة عربية قد تستطيع تقديم مساعدة قيمة لمهماتهم.

إنني ادرك كصحـافي عـربي كم تحـرص وزارة الخـارجيـة والمؤسسـات السيـاسيـة البريطانية على حراسة أسرارهـا. وأنا لا أريـد أن أمس ذلك الجـانب. ولكن بودي رغم هذا، أن أتمتع بقدر من الوصول إلى الأخبار والتزود بالمعلومات على النحو الـذي يجري بالنسبة لزملائي الأوروبيين والأميركيين.

ولا يسعني بالمقابل إلا الاشارة إلى الجهود التي يبذلها كثير من الملحقين الصحافيين البريطانيين في سفاراتهم في بيروت والقاهرة وعمان والكويت وغيرها في جريهم من مكاتب صحيفة إلى مكاتب صحيفة أخرى لمقابلة الصحافيين المحليين لتسريب خبر فات عليه الزمن ويهم حكومة صاحبة الجلالة، بينما ترى هنا في داخل بريطانيا نخبة ممتازة من الصحافيين والكتّاب والمعلقين العرب، ومع ذلك لا أحد يعبأ بأن يقول لهم أين تقف بريطانيا أو كيف تفكر حيال التطورات المختلفة الجارية في العالم العربي. ربما لم يعترفوا بنا بعد كقناة مجدية للاتصال كما هو الحال بالنسبة للصحافيين الأجانب الآخرين.

لقد طرحت يوماً هذه الفكرة متسائلاً: لِم لا يرافق صحافي عربي (أو عدد من الصحافيين العرب) وزير الخارجية البريطاني أو أي وزير بريطاني آخر ذاهب إلى بلد عربي ليغطي زيارته ويعطيها المزية المزدوجة بتغطيتها من الجانبين العربي والبريطاني؟ بالطبع لا أحد من وزارة الخارجية يريد سماع ذلك.

وهذه فكرة ليست جديدة إذ يطبقها الأميركيون والفرنسيون. فعندما يقوم وزراء الخارجية الأميركية بزيارة الدول العربية يصاحبهم عادة صحافيون عرب معتمدون لدى وزارة الخارجية في هذه الرحلات. وكذلك الحال مع وزراء الخارجية الفرنسيين الذين يصاحبهم صحافيون عرب معتمدون لدى «الكي دورسي» في باريس عندما يسافرون إلى الخارج.

ربما تتساءلون فتقولون: إذا كانت بريطانيا مجرد محطة قادت إليها الصدفة بالنسبة للصحافة العربية والصحافيين العرب، فلماذا يتعين على الصحافيين البريطانيين والصحافة والمؤسسات في بريطانيا أن تعبأ بهم؟

الجواب بسيط: ان للصحافيين البريطانيين وأصحاب الصحف البريطانية أن يحولوا لندن من مجرد علم يرفع على سفينة تجارية، إلى مكان ضروري تنطلق منه آفاق تجربة رائدة في التعاون الثقافي والمهني لم يفكر بها أحد من قبل وليس لها نظير في ميدان الصحافة في أي مكان من العالم.

ربما تخرج الصحافة العربية عندئذ من مجرد كونها ظاهرة عابرة!

لندن - (١٩٨٥/٦/١)



نقاط وفواصل



■ أعيدوا لنا مصر

شاءت الصدف أن أكون في واشنطن يوم اغتيال الرئيس أنور السادات. وشاءت الصدف أن أكون مواطناً عربياً مقهور الخاطر، بسيط الحدس، وحدوي النظرة، تفاؤلي الطبع، كغيري من الملايين العربية التي تسكن ما بين جبال طوروس وبحر العرب وما بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وما بين تخوم الجزيرة العربية ووديان بلاد الشام وضفاف دجلة والفرات. وبكثير من الضيق وبلا شيء من الصبر أدركت ـ ربما بسذاجة ـ أنه ممنوع على العرب أن يستعيدوا مصر. مصر الكنانة التي سرقها منا أنور السادات ومعه إسرائيل وأميركا وسرق معها كل أبطال وجمال شبابنا.

لقد كان من الصعب عليّ، لو لم أكن عربياً، أن أصدق أن أنور السادات لم يكن بطلاً أميركياً سقط في ساحة من ساحات الوغى في حرب الاستقلال الأميركية. وقد كان من الأصعب عليّ أيضاً أن أدرك طوال أسبوع كامل في واشنطن، وأنا مسمّر إلى محطات التلفزيون العديدة، وغارق وسط اكداس الصحف الأميركية الثقيلة، ان أكثر ما أزعج الأميركيين من كل حادثة اغتيال السادات، ان مصر لم تبكه كما يجب وأن التلفزيون الأميركي لم يستطع أن يصوّر لقطة واحدة تحمل أي صورة جماهيرية لتفجع شعبي حقيقي. في الوقت الذي تابعت محطات التلفزيون هذه بث مشاهد من جنازة جمال عبد الناصر لتقارن عواطف شعب مصر تجاه رئيسين خلال عقد واحد من الزمن.

وكانت عينا كل أميركي ـ وخاصة إذا كان مسؤولاً يعمل في الحقل العام ـ تحمل إليك كعربي نوعاً من التأنيب، إذا لم تُظهر حزناً يعادل حزنهم بقدر ما تعلن استغرابها ـ وبالتالي جهلها ـ إذا حاولت أن تفسّر لها لماذا لم تبك مصر السادات ولا بكاه العرب، كما بكوا جمال عبد الناصر.

من السهل أن تكرر ما قاله كل العالم ان من أسباب مقتل السادات أنه أصبح بطلاً

أميركياً، لكن من الصعب أن تقنع الأميركيين أن الأبطال الأميركيين لا يتمتعون بشعبية واسعة في العالم العربي.

وأميركا تحب الاغتيالات والجنازات والقداديس: تجيد عمليات التحضير لها والمشاركة فيها وتغطيتها الاعلامية. فإذا اغتيل السادات عرضوا لك شريط اغتيال كنيدي. ومارتن لوثر كينغ. وإذا شيّع السادات عرضوا لك شريط تشييع جمال عبد الناصر وكنيدي وفيلماً قديماً عن اغتيال ابراهام لنكولن قبل أكثر من مائة سنة. وإذا أقاموا قداساً احتفالياً عن نفس السادات، دعوا كل طوائف أميركا للمشاركة فيه، وتجد فيه تلاوة من القرآن الكريم وقراءة من الانجيل ومزموراً من مزامير التوراة، فيخيل إليك أن أنور السادات كان حاكماً لولاية أميركية يتمتع بكل الصفات الأميركية التقليدية، لا حاكماً لمصر يتمتع بكل الصفات العربية التقليدية التي عرفها المصريون في كل حاكم مرّ عليهم منذ القدم حتى اليوم.

ربما هذا كان كله في الشكل. أما في المبنى فقد بدت السياسة الأميركية في الشرق الأوسط بعد مقتل السادات وكأنها صحراء قاحلة لا حياة فيها من بعده. لقد ربطت الولايات المتحدة ومعها الغرب إلى حد كبير، سياستها في المنطقة بأشخاص هم ـ مهما عظموا أو كبروا ـ معرضون للسقوط والزوال.

صحيح أن الرجال العظام يصنعون دائماً التاريخ، لكن المبادىء والقيم السياسية الثابتة هي التي تكفل لهم الاستمرار. والتاريخ مليء بنفايات الرجال والدول والامبراطوريات التي أهملت المبادىء وتناست قيم الوطنية السياسية وأخلاقها.

لقد أرادت الولايات المتحدة أن تعطي السادات في مماته ما فشلت في أن تعطيه له من تأييد في حياته، إلا أنها شاءت أن يكون بكاؤها عليه كفّارة لتقصيرها في دفعه إلى طريق النجاح عندما أصبح حليفاً لها فأعطاها كل شيء ولم تعطه أبسط الأشياء.

لقد كان التاريخ دائماً خصماً وحكماً لأي زعيم. خصماً للذي لم يقرأه والذي يعانده، وحكماً عادلاً للذي يعرف أنه عندما يغيّر النهر العظيم مجراه، فإن سكان ضفافه لا بدّ أن يلحقوا بالمجرى الجديد. امتحان قدرة أي زعيم على العمل هو بأن تكون له عين الجواهري الذي ينتقي الماس وقدرته على قطع هذا الماس من دون أن يتفتت في يده. عند تلك اللحظة بالذات تتبلور صورة الزعيم، فإما أن ينصفه التاريخ وإما أن يئده.

إلا أن أخطر ما في مشهد التفجع الأميركي على السادات كان ذلك الاصرار على أن السادات كان رجلاً عظيماً لأنه كان مصرياً وليس عربياً. ولأنه سحب مصر من العالم العربي. ولأنه أدار وجه مصر عن الأمة العربية، ولأنه أوقف تعامل مصر مع العرب. وبهذا كانت شواهد الجهل الأميركي بكل خبرائه في العالم العربي ودارسيه للشرق الأوسط والعلوم الإسلامية تتراكم ساعة إثر ساعة لتؤكد استحالة وجود أي فهم لحقيقة مشاعر مصر العربية وواقع العالم العربي وأحزانه.

عند هذا المنعطف يجب أن يقف المواطن العربي الفرد أولاً ـ لا الدولة ولا النظام ـ

ليعيد مصر إلى العالم العربي بكل أمجادها وبكل هزائمها. بكل ثـرواتها وبكـل فقرهـا. ليمنع أن تصبح مصر ولاية أميركية تحاول واشنطن اليوم سرقتها من جـديد من أيـدينا نحن المـواطنين، الأفـراد العرب، المقهـوري الخاطـر المهزومـين، البسطاء، القـوميـين، العلمانيين، الوحدويين، المتفائلين.

قيل في التاريخ أن بريطانيا جزيرة، وفرنسا أمّة. والمانيا لغة، ومصر نهر.

لا.

مصر هي الشوق إلى الأنهار العربية كلهـا، بل هي الطـريق الوحيـد لشيء اسمه الشـوق العـربي. ومن دونها أي من دون مصر، كمـا أثبتت تجارب السنـوات الخمس العجـاف الماضية، لا مكانة للعـرب في الصراع الدولي. لقـد فشلت كل أشكـال المقاطعـة العربيـة لنظام السادات.

أمـا وقد أصبـح الرجـل اليوم في ذمـة التاريـخ، فإن من حقنـا كمواطنـين أن نطـالب باسترداد مصر التي سرقها منا السادات وإسرائيل وأميركا.

من أجل كل أحلامنا العربية.

من أجل كل طموحاتنا القومية. من أجل كل أحاسيسنا الوطنية. من أجل كـل ذكريـات جيلنا السياسية والثقافية والفكرية والحضارية الذي نما وعاش وتـربى وترعـرع عليها وهو في مصر.

من أجل أن تعود إلينا مصر نحن ـ أنا وأمثالي ـ الذين لا يعرفون مصر.

مرة أخرى.. «أعيدوا لنا مصر». نعم مصر هي نهر. نهر الحيـاة العربيـة العظيم. دعوه يصبّ في أحضاننا!.

واشنطن ـ (١٩٨١/١٠/٢٤)

إلى الفلسطيني عيسى ابن مريم

يا صاحب العيد،

سأستميحك عذراً أيها الناصري لأنني سأثقل عليك في أسبوع ميلادك الذي يحتفل به العالم المؤمن بك وغير المؤمن، لا بك ولا بغيرك. وما سأحاول أن أقوله لك، ليس إلا مثقال ذرة أخرى تضيفها إلى ما يثقل عليك به البشر في كل لحظة من لحظات الدنيا بصلواتهم وابتهالاتهم وتضرعاتهم.

لا شك يا صاحب العيد، بأنك اعتدت على هؤلاء البشر بعد الف وتسعمائة وإحدى وثمانين سنة. لم يعد هناك شيء في الوجود اطلاقاً يمكن أن يصعقك ولا أن يثيرك ولا حتى أن يفاجئك. لقد تكسرت نصال العالم على نصال جراحك، بعد أن اعتدت أن تستمع إلى آلام البشرية وان تفتح صدرك الرحب النحيل إلى أحزانها وأن تمنحها دائماً غفرانك وأن تمدّ إليها يدك المدماة من الطغاة، لعل فيها شيئاً من البلسم الشافي.

ولا أدري، يا صاحب العيد، لماذا تذكرتك هذا العيد بالذات، وهو عيدك أصلاً؟ نسيَ الناس ـ كل الناس ـ مَنْ صاحبه ومِن أجل مَنْ ولأي شيء يحتفلون به. وهذا أمر لا يضيرك. لكنني أعرف جيداً أنني تذكرتك في عصر اليأس العربي الذي نعيشه في الربع الأخير من الألف الثاني لميلادك. تذكرتك لأنني لم أعد قادراً أن أكتب رسالة إلى حبيبتي المتفائلة في بيروت لأنها صارت تخاف أن تفض رسائلي بعد أن ماتت صديقتها تحت انقاض وحشية الهمجية العربية.

تذكرتك أيضاً لأنني لم أعد قادراً أن أخاطب ـ كصحافي ـ أي وزير اعلام عربي اعتدت أن أخاطبه. فالوزراء العرب قد اتخذوا قراراً بعدم قراءة الصحف والمجلات، مكتفين بالاعجاب ببيانات التكذيب التي يصدرونها لكل ما ينشر ويذاع خارج مطبوعاتهم واذاعاتهم في عصر الصدق العربي.

وقد تتساءل يا صاحب العيد، عن علاقة الصديقة التي لا تعرفها بالوحشية التي قتلت صديقتها، بالوزراء العرب أي حقيبة حملوا، في عيد كعيدك. العلاقة في نظري بسيطة: اليأس، اليأس في التوجه إلى أحد في وطننا العربي قابل ـ بل قادر ـ على الاستماع لنا. حتى حرية الشكوى ونغم الأنين أصبحا مستحيلين. لقد تقلّص طموحنا إلى حدود الهمس بين كرسي الاعتراف وكوة المعترِف، حتى يبقى اعترافنا سراً بيننا وبينك.

لكن أرجو أن تغفر لي يا صاحب العيد أولاً، قلة ايماني، ومن ثم أن تعذرني لأنني أريد أن أخاطبك كسوري من دمشق، متوجهاً إليك كفلسطيني من الناصرة. وقد تجد هذا أمراً مستغرباً. لا تعجب. نحن نعيش في عصر القطرية العربية والاقليمية العربية والطائفية العربية والعشائرية العربية والقبلية العربية وكل مفردات التشرذم التي يمكن أن يحفل بها قاموسنا العربي. هذا هو العصر الذي نعيش فيه اليوم. تجار الهيكل أكثر وزناً وأكبر عدداً من كل الفريسيين الذين عرفتهم في أيامك. الهيكل أصبح هياكل،

والتجارة ازدهرت والسامريون اختفوا. ومريدوك واتباعك تشردوا. وأسعار الفضة زادت.

ليتك تستطيع، يا سيدي صاحب العيد، أن تسترجع في ذاكرتك أحداث العرب في الأندلس، ذلك الحلم التاريخي الذي مضى، وكيف شهر أهل الشام السيوف في وجه أهل المغرب، وكيف تقاتل العرب مع البربر، وكيف تذابحت القيسية واليمنية، وكيف بدأت حروب ملوك الطوائف وإلى أي شيء انتهت. كل هذا والفرنجة يزحفون. والفرنجة ينتصرون. إلى أن ضاعت الأندلس.

ليتك توصي، يا سيدي، للحكام العرب ووزارئهم بأن يقرأوا تاريخ الأندلس. فإن لم يتّعظوا، فعلى الأقل يدركوا أن الرواية لم تتم فصولاً، وأن التاريخ يعيد نفسه وأنه إذا كانت المسببات واحدة، فلا بد أن تكون النتائج واحدة. لم يتغير شيء منذ أكثر من ألف سنة. سوى الأسماء والتواريخ.

تذكرت الأندلس في عصر الانكسار العربي الحديث، لأنني تذكرت كيف أبصر أحد تلامذتك: بولس الرسول النور في الطريق إلى دمشق. ومن الطريق إلى دمشق اريد أن اقول لك بأن الطريق إلى الناصرة صار معتماً ومقفراً ومهجوراً ومخيفاً. لقد ضمت إسرائيل التي صلبتك، جزءاً من بلادي لها، متحدية كل شرائع الدنيا ونصوص القوانين وأخلاق البشر ومبادىء الديانات. كيف؟ بسيطة. لأنها هي قوية ونحن ضعفاء. هي منتصرة. ونحن مهزومون. هي حرة ونحن عبيد.

لهذا السبب أردت أن اخاطب الفلسطيني فيك أيها الناصري. أخاطبك كسوري لأني لم اعد قادراً أن أخطابك كعربي. لقد ضاع العربي في عصر التيه القومي. ولم أعد أملك من هوية أخرى أستطيع أن أبرزها في وجه أحد الا هويتي السورية. وهي هوية اعتزّ بها إلى آخر العمر. لسببين بسيطين:

هي هوية أبي.

وهي آخر الهويات التي تحمل في وجدانها، بقدر ما تحمل في قانونها، طموح التوجه القومي والتطلّع الوحدوي إلى العروبة الحقّ. ولعلك تفهمني كفلسطيني في هذا.

وأنا مثلك، يا صاحب العيد ـ واغفر لي هذا التشبيه ـ لست عضواً في حزب ولا في منظمة ولا في تجمع ولا في حركة ولا في فريق كشفي ولا في نادٍ رياضي. أنا عضو في هذا الوطن الذي ضاق عليَّ. منه أتطلّع إلى أبعد من حدوده. ومنه أطمح إلى عروبة جديدة، فيها الحرية والعزة وفيها الخبز والكرامة، وفيها الأمن والأمان. وأنا مثلك مغترب وإن كانت دنياي الأرض ودنياك السماء. وغربتي لا خيار لي فيها. كذلك غربتك.

لذلك لا بد أن تفهمني أيضاً كفلسطيني ضاعت ارضه وبلده، ماذا يعني لي كسوري، أن تضيع الجولان وقد ضاعت قبلها الاسكندرون وأصبحت «اللواء السليب». لهذا: لا أريد للجولان أن يصبح لواءً سليباً آخر، يضاف إلى كتب القراءة في المدارس، وينكس

فوق اسلاب الأرض العربية من عربستان إلى شط العرب ومن المحمّرة إلى الطنب الكبرى، ومن أبو موسى إلى صحراء سيناء. بل مثل مسقط رأسك، بيت لحم، التي لم تنقذها بطولات القدس، مثلما لم تنقذ بطولات القنيطرة الجولان.

ارجوك يا سيدي أن تلقي نظرة من عليائك على القنيطرة لترى نموذج الحرب الإسرائيلية، ولترى كم جميلة ورائعة وأخّاذة هذه الأرض التي سلبتها منا إسرائيل! وكم هي امتداد طبيعي لأرضك وبلدك في ظلال الصفاء القومي العربي وامتداد الوحدة الحتمية!

اتريد منا، يا سيدي، أن لا نبكي على الاطلال؟ حسناً. أنا اعرف أن بلادي لن تسكت على ضيمها. لقد قالت ان حد السيف هو بيننا وبين إسرائيل. وهذا ما أريد أن اشرحه لك يا امير السلام.

من اين أبدأ؟ من الهزائم بالطبع. لأن كذب الانتصارات العربية في عصرنا الحديث يجب أن يتوقف، وأنت اخر منْ يُكذب عليه. منْ المسؤول؟ نحن جيلنا. وهذا كلام اكرره للمرة الالف. لقد سقط جيلنا كله في مستنقع الفشل القومي، وفشل في كسر عقدة تاريخنا الدامي. فلم يستطع هذا الجيل طوال نصف قرن من النضال ضد الاستعمار تحقيق الاستقلال الوطني، أو ان يحقق شيئاً عبر انتشار المبادىء القومية وشعاراتها، وحكم الاحزاب التي ناضلت ووصلت إلى الحكم من خلال المفهوم القومي، الوصول إلى الهوية القومية الواحدة. وهي الهوية العربية التي لا تحمل مجالاً للتأويل الطائفي او العنصري أو العرقي ولا حتى القطري. فنحاسب على مبدأ القومية العربية، فإما أن يُحكم لنا أو علينا بانتمائنا إليها. ولهذا السبب بالذات تذكرت انك فلسطيني وانني سوري.

وبين هزيمة جيلنا وسقوطه، هزمت وسقطت كل القيم التي افترضنا وجودها تلقائياً، واعتقدنا أنها من الثوابت في الحياة السياسية العامة. لذلك ازداد شعوري بالهزيمة التي مُني بها جيلي وانا اهم بمغادرة بوابة كل عاصمة عربية. تاريخ جيلي المختصر كله هزائم. بداية بسقوط الافكار والعقائد السياسية التي دغدغت أحلامه منذ نشأته، ونهاية بانتصار النظام على الفرد، ومروراً بسقوط قيم الحرية والكرامة والمساواة، من حضيض الانحطاط إلى حضيض اليأس المظلم. ومنْ كان تاريخ جيله كله هزائم، فلن يستطيع دفع اغتيال كل الطموحات الكبيرة ووأد كل الاحلام البكر

مع هذا السيل الساقط، فشلت كل التجارب الوحدوية التي مرت على العالم العربي خلال السنوات الثلاثين الماضية. منذ أن كانت شعاراً بزّاقاً إلى ان اصبحت مطلباً قومياً حتى صارت ضرورة مصيرية. لكن اليأس كان قد خدّر عواطف الناس، وبدّلت التجربة شعورهم وقتلت المرارة أحاسيسهم وضاعوا بين ما يصدقون وما يأملون وما يرجون. لقد أصبحت قضية الوحدة بالنسبة إليهم حلماً اكبر من أن يصدّق

ولأن قضية الوحدة ـ هذا الحلم الكبير وهذه الضرورة المصيرية وهذا المطلب القومي

وهذا الطموح التاريخي ـ لم يسأل فيها الناس العاديون في الوطن العربي، وقد تبلدت مشاعرهم وانتحرت أوهامهم وتصلبت شرايين طموحاتهم. ظلوا بلا حماس لها. وماتت فيهم القدرة على الرؤيا أمام هذا الجبل من الفشل المتراكم. ونسي هؤلاء الناس ان الوحدة هي لهم ومن أجلهم وفي سبيل مستقبلهم وتحقيق لتاريخهم.

لذلك تفهمني مرة أخرى يا سيدي، لماذا يخاطب السوري العربي الوحدوي، شخصك الفلسطيني، الذي ارتبطت قضيته منذ أن كانت فلسطين عربية بكل نضال وتاريخ وطموحات ومآسي وأحزان هذه الأمة؟

من أجل ذلك ظلت سيوفنا في غير مواضعها. سيوفنا التي لا تستطيع أن تحمي حرياتنا وكراماتنا وأرزاقنا، هي سيوف لا تستطيع أن تهزم أعداءنا. السيوف التي لا تعرف ما إذا كانت معدّة للسلم أو للحرب، هي سيوف لا تعرف كيف تقاتل. أليس من الأفضل أن نمتلك سيفاً واحداً الآن بدل ألف قصيدة رثاء في ما بعد؟

مَنْ هم الأعداء؟ الأعداء هم عدو واحد. هو إسرائيل.. لا قبلها ولا بعدها. والسيوف التي تحارب إسرائيل لا تحاربنا. والتي تشهر في وجه إسرائيل لا تشهر في وجوهنا. وقد تقول لي ان الحياة السياسية أكثر تعقيداً من ذلك. فأقول لك أبسط. حتى تكون السيوف قوية ضاربة يجب أن نكون نحن وراءها لا أمامها. وحتى نكون وراءها يجب أن تكون أذرعتنا الحرة قابضة عليها: السيّاف المرتزق ليس سيّداً حراً. بل هو عبد مأمور. والسيّاف لا يحارب. الأحرار يحاربون. وتاريخ الأندلس شهيد.

اعذرني، لقد شطّ بي الخيال يا صاحب العيد. أيُحكى بالحرب في حضرة أمير السلام؟ نعم. فمثلما أخرجت الفريسيين من الهيكل بحذائك، كذلك يجب أن نخرج أعداءنا من الجولان والناصرة وبيت لحم بسيوفنا. لكن لنعلن أولاً اسقاط مبادرات السلام كلها. ونقول لشعوبنا بأن خياراتنا محدودة: الإعداد للحرب.. لمجتمع الحرب..لاقتصاد الحرب.. لثقافة الحرب. ونكون بدأنا مرحلة بداية نهاية الضياع العربي، حيث لا دين لنا اليوم ولا دنيا. والتيه العربي يا سيدي لا ينتهي إلا متى وجدنا بوصلة الحرية والكرامة، حين ترتفع سيوفنا كلها دفاعاً عن وطن ننتمي إليه، لا دفاعاً عن بيانات الاذاعة والتلفزيون!

بقي أمر واحد يا سيدي، أريد أن أذكّرك به في عجالة هذا العيد. وصلاتي إليك أن لا تنساه. بيروت يا سيدي. بيروت حبيبتي، حيث يُمارس فيها الانحطاط العربي يومياً، وتمارس فيها الهمجية العربية كل ساعة، وتُمارس عليها الوحشية العربية كل دقيقة. من أجل باعة الأحلام الذين ظلوا فيها، من أجل نهاية الكوابيس التي غرقنا فيها. من أجل أن تبقى كلمة «تفاؤل» في قاموسنا. بيروت كبيت لحم، كالجولان، كالناصرة، بيروت عروس المدائن، التي حوت طموح شبابنا وأمل مستقبلنا، وحمت عروبة أفكارنا وتقدمية مبادئنا وحرية تطلعاتنا.

يا صاحب العيد،
أريد أن أسألك:
هل بقي شيء لم يُسْتَبح في عصر الذل العربي هذا؟
لا شيء.
ميلاداً سعيداً!

لندن - (٢٦/١٢/١٩٨١)

ظلام الذل العربي

في عصر الجبن العربي، لا أحد منّا عنترة بن شداد، لكن شيئاً من الكلام يجب أن يقال مع شيء من الصدق.

إذا كان خريف عام ١٩٨٠ مؤشراً لسقوط الأحلام الفارسية فإن ما نخشاه هو أن يكون صيف ١٩٨٢ بداية سقوط الأحلام العربية وبزوغ الاحلام الإسرائيلية وفي عصر السلام الإسرائيلي المسلح.

أنا لا أعرف ما هي حسابات الأنظمة أو الحكام، لكنني أعرف ما هي مشاعر الشعوب والمحكومين. هذه المشاعر لا تلتقي أبداً مع تلك الحسابات.

يقول بطل قصة جان بول سارتر «الحائط»، انه شعر بحريته التامة المطلقة، وللمرة الأولى في حياته، عندما كان ظهره إلى الحائط قبل أن تُطلق عليه النار. الأمة العربية اليوم ظهرها كله إلى الحائط، بسقوطها نهائياً امام إسرائيل في الحرب اللبنانية. لذلك يجب أن تشعر هذه الأمة المنكوبة بمنتهى حرّيتها، حيث لم يَعُد لديها شيء تخسره قبل أن يطلق عليها أعداؤها النار.

لا أذكر أي قائد عسكري قال، عندما تطلع إلى قواته: «لا أدري ما إذا كانت هذه القوات ستخيف أعدائي، لكنها والله تخيفني».

هكذا هي حال الامة العربية وهي تتطلع إلى إسرائيل وايران معاً اليوم، من دون أن تكون قادرة على منع ايران من اجتياح حدود العراق، وهي التي سمحت لإسرائيل باجتياح حدود لبنان. ان أمة كهذه ليس بمقدورها أن تمنع لا انتصار إسرائيل ولا انتصار ايران.

اقول هذا بشيء من الرعب. وأقوله بشيء من الحذر. إنما اقوله بشيء من التفاؤل الحزين على أمل ان لا يقع. لكني أتساءل: هل ممنوع على العرب ـ أي عرب كانوا ـ الانتصار في أي حرب، كبرت أم صغرت، وضد أي عدو كان؟ يبدو ذلك.

أسأل ذلك وأنا اقف مذهولاً أمام كلام سمعته مراراً وقرأته تكراراً في الآونة الأخيرة تعليقاً على ما وصلت إليه الحرب العربية ـ الإسرائيلية في لبنان والحرب العراقية ـ الايرانية مفاده: «محال أن يتم النصر للعرب في أية معركة سياسية أو عسكرية على أساس قومي أو عقائدي. لقد انهزم العرب لأنهم خاضوا المعارك على أساس قومي وانتصرت إسرائيل وايران لأنهما انطلقتا من اساس ديني. ان العربي لا يجد في أرضه غير السجون والمعتقلات والتعذيب وكبت الحريات».

ـ **اولاً**: الرد البسيط أن تقول لاصحاب هذا القول ان الإسلام حملته سيوف عربية هي التي فتحت الأمصار، وأن الانهيار العربي لم يحدث إلا في عهد المسلمين من غير العرب أصحاب الحركات الشعوبية.

وأن تقول لهم أن النضال القومي العربي بدأ بالثورة العربية ضد الاستعباد العثماني وسياسة التتريك باسم الإسلام. وتقول لهم ان جيلنا بكل هزائمه عاش أسعد لحظاته في ظل نمو المد القومي العربي منذ الثورات الاستقلالية ضد الاستعمار والانتداب حتى التجارب الوحدوية ـ مع كل فشلها ـ وأن كل الانتفاضات الوطنية العربية قد قامت بعامل التضامن القومي، لا الديني.

وان تذكرهم بأن الثورة الفلسطينية مثلاً، هي ثورة عربية علمانية ضد التعصب الديني العنصري الصهيوني، وأن كل نجاحاتها قامت بسبب محتواها القومي. من يقف ويدعم ويسلح ويدافع ويحمي الثورة الفلسطينية؟ مسلمو الفيلبيين أم بنغلادش أم تركيا أم ايران يا ترى؟ أم أن الذي وقف معها وأعطاها من ماله ودمه وحتى أرضه طوال ثلث قرن هم العرب ـ كل العرب ـ بعامل الدافع القومي العربي، لا بعامل الدافع الديني.

ومن وقف إلى جانب الثورة الجزائرية؟ مسلمو تانزانيا أم مسلمو الهند أم مسلمو ماليزيا؟ ان الذي وقف معها هم العرب بكل دولهم وتشرذمهم ومن محيطهم إلى خليجهم بعامل العروبة، لا بعامل الدين.

صحيح أن العربي لا يجد في أرضه غير السجون والمعتقلات والتعذيب وكبت الحريات والاعدامات. صحيح جداً. لكن هل سجون الخميني الايرانية وضياء الحق الباكستانية وكنعان أفرين التركية هي أفضل من سجوننا العربية حتى نختارها بديلاً عنها؟

هل الديموقراطية والحرية المنتشرتان من أندونيسيا إلى بنغلادش مروراً بافغانستان حتى ألبانيا أفضل من الديموقراطية والحرية اللتين في عالمنا العربي حتى ننتصر لهما؟

أم هل نذكّر من يتناسى أن تركيا، أكبر الدول الإسلامية، كانت أول دولة اعترفت بإسرائيل، وما زالت حتى اليوم تقيم أفضل العلاقات الدبلوماسية معها. كذلك كانت ايران الشاه.

ـ **ثانياً**: الرد الصعب هو أن ندرك أن ظلام الذل الذي يخيم على العرب اليوم أمام الشهية الإسرائيلية المفتوحة بعد أن اجتاحت لبنان وسط الصمت العربي الغني في معانيه، المذهّب في أبعاده، الفضي في نتائجه، لا بد وأن يستمر طويلاً.

لقد هوى العرب الظلام في ظل تقهقرهم الذي لم يعرف له التاريخ مثيلاً. وأصبح الجبن العربي سمات العصر الذي تمارس فيه إسرائيل عدوانها وغطرستها وهي ممسكة بسيفها الطويل تحاول أن تؤدب فيه كل من يخرج على طاعتها. لم يعد مطلوباً وسط هذا الظلام الدامس انتصار عربي. لقد أصبح المطلوب موقف بطولة عربية واحداً، حتى لا يسجل علينا في الزمان العربي الرديء الذي نعيشه أننا قبلنا هذا الخنوع المرعب.

في هذه الأيام الحزينة ليس فينا من يجرؤ أن يدين أي طرف عربي يعتبر مسؤولاً عن الكارثة التي لحقت بنا. لكن يجب أن نجرؤ على المطالبة بوقفة عربية تعلن الحرب من

دون أن يكون بينها وبين الآلة العسكرية الإسرائيلية أي تكافؤ، وتسقط شريفة حتى تنقذ شرف هذه الأمة وتبرىء ساحتها، لنؤكد أن العروبة ليست وهماً وأن القومية العربية ليست هراء وأن اللبناني والفلسطيني لا يموتان وحدهما ونحن نتفرج. فإذا كان ممنوعاً علينا الشعور بالنصر أو بالكرامة أو بالعز فإنه على الأقل مسموح لنا أن نموت مع اللبناني والفلسطيني انقاذاً لشرف هذه الأمة الملطخ منذ أكثر من ثلث قرن. ولنبرهن على الأقل أننا نملك رداً أو نملك نبضاً أو نملك دماً.

ان إسرائيل لم تنتصر بجيشها الذي لا يقهر ولا بآلتها العسكرية المنيعة ولا بتقنيتها المتقدمة ولا حتى بتعصبها الديني. لقد انتصرت بفعل عامل واحد لم يعرفه العرب في أجيالهم الثلاثة الأخيرة المتعاقبة، منذ جلاء القوات الأجنبية عن بلادهم واعلان استقلالهم: الحرية.

الحرية التي هي ممارسة ديموقراطية حياتية يومية، المواطن العادي هو صاحب القرار فيها، يرفع الحاكم الذي يعينه على النصر ويحفظ له خبزه مع الكرامة. ويسقط الحاكم الذي يقوده إلى الهزيمة ويسلبه خبزه وكرامته. هذا هو السحر الإسرائيلي الذي استعصى فهمه على العرب. كل العرب. وإذ نحن عاجزون أمام هذا الشيء العظيم البسيط الذي لم نملكه بعد: الحرية والكرامة.

لتسقط كل المؤتمرات وكل البيانات وكل التصريحات وكل الوساطات وكل الشعارات وكل الخطط الخمسية والمشاريع الانمائية والرخاء الاقتصادي والخدمات الاجتماعية في سبيل نسمة حرية واحدة وكسرة خبز صغيرة مع كرامة كبيرة...

إن العالم كله يريد أن يحرم العرب من انتصار لهم. فوجد في التشرذم العربي موطىء قدم له، فأخذ يخطىء في الحساب. حساب التاريخ وحساب الجغرافيا وحساب المصالح الآنية وحساب المكاسب الوقتية وحساب الخلافات الشخصية.

ان الشعوب مهما شاخت أو ذلت، قادرة على أن تنفض الغبار عن أكبر الهزائم، ولكنها غير قادرة على الكذب على تاريخها الذي لا يرحم. كم نعشق نحن العرب عار التاريخ! وكم لبسنا هذا العار طويلاً!

صحيح ان ليس هناك واحد فينا هو عنترة زمانه في عصر الشماتة العربية والخوف العربي والسقوط العربي والذل العربي والتشرذم العربي.. لكن يجب أن يكون فينا من هو قادر أن يستل سيف عنترة من غمده ليعيد إلى هذه الأمة المضرجة بالهزيمة، الملطخة بالكذب، شيئاً من الصدق وشيئاً من الكرامة وأشياء من الحرية.

يبقى أن نعلن نحن الملوثين قهراً وحرماناً، إذ لم يعد هناك مكان لانكسار الجباه، اننا ننتظر الرياح الآتية من بعيد لعلها تحمل في غبارها بعض نسائم ما حرمنا منه دهوراً، وإلاّ فلن يبقى أمامنا إلا أن نكرر ما سبق أن طلبه الشاعر محمد الماغوط في قصيدته «كل العيون نحو الأفق» ـ ان نطلب من الله أن يبيد هذه الأمة!

لندن ـ (١٩٨٢/٦/١٩)

مكر التاريخ وعاره

التاريخ يعيد نفسه. التاريخ لا يعيد نفسه.

بين هذين النقيضين يتأرجح كتبة التاريخ من بحّاثة ودارسين وأكاديميين وصحافيين ومؤرخين محترفين، للعلم الذي قال عنه أحد أشهر المؤرخين البريطانيين أدوار غيبون مؤلف «صعود وسقوط الامبراطورية الرومانية» انه: «ليس أكثر من سجل لجرائم وحماقات ونكبات البشرية».

ولأن سجل الشعوب حافل بالجرائم والحماقات والكوارث، لايهم الصحافي الرافض للأحداث السيّارة أن يتذكّر قولاً لبريطاني آخر هو اللورد ديزرائيلي - رئيس الوزراء في القرن التاسع عشر - الذي قال: «ان ممارسة السياسة في الشرق يمكن تحديدها بكلمة واحدة.. الرياء».

إن ممارسة السياسة في الشرق - أي الرياء - هي التي أوصلت شعوبنا إلى ارتكاب كل هذه الحماقات والجرائم وأوقعت به كل هذه الكوارث. ولأن التاريخ ينذرنا أيضاً أن من عادة الأقدار أن تبدأ الحقائق الجديدة بهرطقة وتنهيها كخرافة. وبين الهرطقة والخرافة يقع الصحافي المراقب في الفخ: التاريخ يعيد نفسه أم التاريخ لا يعيد نفسه؟

التاريخ ليس علم التوقعات. لا أحد يستطيع أن يقرأ منه مسار الأحداث المقبلة. ولا هو شيء ثابت يتكرر باستمرار. ولا هو سلسلة قوانين تنبيء بالمستقبل. لأن التاريخ كفنٍّ تفسيري يستطيع أن ينبئنا عن نزعة الأحداث وأن يلفت نظرنا إلى معنى التطورات بحيث نستطيع أن نميّز بين الممكن وبين المستحيل.

أرجو السماح لهذا الصحافي أن يلجأ إلى حمى التاريخ، بعيداً عن المتغيرات السياسية اليومية في محاولة لطرح قضية الشرق الأوسط من خلال التأرجح بين هذين النقيضين.

لنبدأ من المحاولة الاميركية للعب دور أساسي في المنطقة العربية وفي التأثير على أحداثها، إذ يظن للوهلة الأولى أن الولايات المتحدة قد اتعظت من قراءة ودراسة تاريخ ثلاثة قرون ونيف لهذه البلاد قبل أن تصل إلى تورّطها المعروف اليوم وخاصة أن من الممكن، إما لأسباب تتعلق بعلم الجغرافيا أو علم الاعراق البشرية، أن يعاد تركيب التاريخ بحذافيره في هذه المنطقة، بحيث لا نحتاج إلى أكثر من تغيير اسماء اللاعبين واجراء تعديلات طفيفة في بعض الأدوار في مسرحية الشرق الأوسط المتكررة.

لنرفع الستار عند موت الاسكندر الكبير عام ٣٢٣ ق.م. وانقسام امبراطوريته إلى ما هو معروف اليوم بالشرق الأوسط إلى قسمين، يحملان اسمي قائدين مقدونيين: البطالسة في مصر وعاصمتهم الاسكندرية، الذين سرعان ما حملوا عبء مصر الفرعونية وتقاليدها. والسلوقيون في سورية وبلاد ما بين النهرين، وعاصمتهم في انطاكية وبابل، الذين حملوا عبء الهلال الخصيب في تعددية شعوبه وفردية أبنائه.

وسرعان ما تدخل هاتان القوتان في صراع على بقايا امبراطورية الاسكندر الكبير، الذي كان مسرحه فلسطين. وفي فلسطين اصطدمت مصر البطلسية وسورية السلوقية. وكان قد وصل إلى فلسطين في ذلك الوقت مهاجرون يريدون أن يقيموا فيها دولة دينية عسكرية متعصبة. لقد وصلوا من بابل ولم يصلوا لا من المانيا ولا من روسيا ولا من بولندا.

كان السلوقيون والبطالسة يعانون من متاعب أساسية خارج الحلبة الفلسطينية. مصر لم تكن مؤهلة ولا مهيأة لتكون مركزاً لامبراطورية آسيوية مترامية الأطراف. أما سورية فكانت قد بدأت تشعر بالتمزّق بين جناحها في المتوسط وجناحها الآخر ما بين النهرين الذي أخذ يشهد انبعاث شيء من «القومية الايرانية» في مصطلح اليوم. كما بدأت الضغوط تزداد على طرفها الغربي في انطاكية من قبل اليونان.

وهكذا رسم التاريخ بداية المشهد الأول للدراما الفلسطينية، التي أفرزت في ما بعد المواجهة العالمية بين اليهودية والمسيحية والإسلام.

وخلال الصراع بين السوقيين والبطالسة قررت سورية السلوقية تحقيق انتصار عسكري وثقافي حاسم في فلسطين. عند هذا المنعطف وقع الحدث غير المتوقع إذ وقعت نتيجة للاحتكاك العسكري والاغراءات الثقافية انتفاضة عام ١٦٨ ق.م. التي تحولت بدورها إلى ثورة ناجحة حولت معها فلسطين من بلد ديني يلم شتات البابليين، مستسلماً للغيبيات السماوية، إلى دولة عسكرية محاربة عرفت باسم الدولة المكابية. وتربع المكابيون في فلسطين عقداً وراء عقد.

في هذه الأثناء كانت قوة جديدة قد بدأت تظهر في غرب المتوسط، ذات تنظيم دقيق وانضباط غير معروف في شعوب ذلك الزمان، وذات تكتيك عسكري وسياسي نادر في الدول التي قامت حتى ذلك الوقت. فقد بدأ نجم روما يصعد وبدأ الرومان يصبحون أسياد الغرب.

بدأ التحرك الروماني بقيام حلف بين مصر وروما، لمنع السوريين السلوقيين من الاتحاد مع المصريين البطالسة، أو بكلام آخر منع سورية من ضم مصر. وكان رموز هذا الحلف ومن ثم مأساته كليوباترة ملكة مصر ومارك انطونيو قيصر روما. وكان هذا بداية الزحف الروماني إلى الشرق، الذي امتد إلى اليونان والأناضول وسورية ومن ثم مصر نفسها، حتى وصل إلى فلسطين عام ٧٠ ق.م. ليقضي على دولة المكابيين.

وهكذا قرع الغرب بدخول الرومان إلى فلسطين أبواب الشرق بيد مضرجة ودخله وأقام في أرجائه وورث أعقد قضايا التاريخ قاطبة.

أمام هذه الخارطة الجغرافية السياسية للعالم القديم، سنحاول أن نقوم بلعبة تغيير في الكراسي الاستراتيجية، فنكتب فوق الأسماء القديمة أسماء اليوم الجديدة.

فبينما العراق (بابل) وايران (فارس) يتحاربان فوق رقعة هذا التاريخ، تحاول سورية

(انطاكية) تارة بالتحالف مع مصر وتارة بالعداء معها، احتواء دولة إسرائيل العسكرية (المكابيين) التي تقع بينهما. إلا أن الجزء الأساسي لهذه اللعبة هو القوة العالمية المتصارعة على هذه الرقعة. هنا يصبح تغيير الأسماء فضّاحاً. القوى الكبرى القادمة من الغرب الولايات المتحدة (روما) بالتحالف مع اليونان وتركيا (اناضوليا) تحاول أن تمتحن دبلوماسيتها بالدخول إلى غابة الشرق السياسية بحماس منقطع النظير لتتابع اللعبة التاريخية التي بدأها السلوقيون والبطالسة والمكابيون.

إلى هنا وتنتهي المقارنة. إذ ان هناك فارقاً أساسياً وشاسعاً بين روما والولايات المتحدة يمنعنا من التمادي في ايصال الماضي وربطه بالحاضر. فالمسرحية القديمة تقف عند هذه الحدود إلا إذا جاءت روما جديدة وغزت سورية وجاء امبراطور آخر وسبى القدس. الفارق ليس في عدم التوازن بالثروة أو القوة بين الولايات المتحدة وروما، إنما في الفارق بين كون الولايات المتحدة قارة بعيدة ذات شعب متعدد الأصول، وبين روما الجمهورية الصغيرة غير المستقرة القريبة ذات الشعب الواحد المتجانس.

إلا أن الفارق الحقيقي الحاسم هو أن روما تنتمي إلى حوض البحر الأبيض المتوسط إذ لا بد أن يكون لديها امبراطورية متوسطية، تسعى إليها أرادتها أم لم تردها. بينما الولايات المتحدة لا تنتمي إلى المتوسط لا حوضاً ولا جغرافية ولا شعوباً. وأميركا ليست محكومة كروما بضرورة تواجدها في مياه المتوسط أو في سواحله.

ان ورثة السلوقيين والبطالسة في هذا العصر، كذلك ورثة الفرس والمكابيين الحديثين عندما يرون الأسطول السادس الأميركي يقصف من مياه البحر الأبيض المتوسط جبال لبنان وسورية، يهزون رؤوسهم أسفاً على هؤلاء القادمين من العالم الجديد إلى أقدم شواطىء الدنيا، ويقولون: يوماً ما سيعودون من حيث أتوا.

لم يقل أحد أبداً ذلك عن روما.

لا أريد لهذه المقارنة التاريخية أن تطول أكثر، حتى لا تصبح اللعبة أكثر تعقيداً. لأن كثيراً ما يشعر الإنسان بشيء من الرعشة عندما يغوص في أعماق الماضي، إذ انه في أحيان كثيرة لا بد من أن يتساءل عما إذا كانت كل وقائع التاريخ قد حصلت فعلاً، وكل سجلاته موثوقاً بها.

لذلك توقفت مطولاً وباعجاب عند حديث للدكتور صادق جلال العظم يحذر فيه العرب من الوقوع في «مكر التاريخ». إلا أنني أود أن أذكّر الدكتور العظم لا بما تحدث عنه هيغل، إنما بما قاله كاتب كبير هو عبد الله القصيمي ذات مرة: «كم عاشقون، نحن العرب، لعار التاريخ»!

ومن يقبل بالعار لا يخاف المكر.

لندن - (١٩٨٤/٣/٢٤)

دمشقي في غرناطة

ما علاقة الصحافة بالعمران؟ وما سر علاقة الصحافي بالعمار؟

ارتسم هذان السؤلان على وجهي، عندما دعتني «جائزة الآغا خان للعمارة» لحضور ندوة عن «تعليم الهندسة المعمارية في العالم الإسلامي» في غرناطة في اسبانيا.

وألح هذان السؤالان اكثر فاكثر، عندما اكتشفت أنني سأكون أحد أربعة صحافيين فقط دُعوا لحضور هذه الندوة، برفقة حوالى مئة من أهم وألمع المهندسين المعماريين في العالم، وفي وسط أروع أثر معماري عربي إسلامي في الدنيا. أما الصحافيون الأربعة فكانوا: واحدة من أندونيسيا وواحد من باكستان وواحد من المغرب وأنا.

وشعرت بانقباض شديد عندما اكتشفت أنني لا أملك من المصطلحات الهندسية ولا من مفردات الكتابة المعمارية شيئاً، وبالتالي لست قادراً على صياغة جملة واحدة تهم أحداً من مشاهير المهندسين المعماريين الذين كنت برفقتهم في ندوة غرناطة. وأردت أن أتسلح بزملائي الصحافيين الثلاثة الآخرين، على أمل أن يفوق جهلهم جهلي.

فسألت الزميلة الأندونيسية عن علاقتها بالعمارة الإسلامية، فكان جوابها: لا شيء، سوى أنها كتبت عام ١٩٨٠ سلسلة مقالات عن الأحياء السكنية المكتظة في جاكرتا أسفرت عن مشروع لتحسين الظروف المعيشية لمئات الآلاف من أفقر سكان جاكرتا، مما ساعد على دمج القطاع الشعبي مع اقتصاديات المدينة وشجع المبادرة الفردية في تحسين الاسكان.

وسألت الزميل الباكستاني عن علاقته بالعمارة الإسلامية، فكان جوابه: لا شيء. فهو لا يعرف الدرج من المئذنة. إلا أنه أنتج برنامجاً تلفزيونياً قبل سنوات عن ترميم مقبرة الشاه ركن العلم في مدينة مولتان في باكستان، والتي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر، أدى إلى إحياء بعض الصناعات اليدوية الكبيرة التي مضى عليها ستة قرون، وإلى تشجيع حركة بناء مشابهة في كل أنحاء باكستان.

وسألت الزميل المغربي إذا كان هو كاتباً متخصصاً بالعمارة الإسلامية فرد عليّ بثلاث لغات معاً، فهمت واحدة منها فقط، بأنه صحافي كتب مقالاً منذ عدة سنوات عن البيوت ذات الأقنية في مدينة أغادير في المغرب، وكيف أن تصميمها تجاوب مع المناخ وشروط العزلة.

وشعرت أن حجمي قد تضاءل أكثر فأكثر. فأنا لم أكتب شيئاً عن أي مشروع معماري أو اسكاني أو أثري في كل حياتي الصحافية. لكنني قلت لنفسي: ما دمت قد صرت في غرناطة وفي وسط الحمراء، فلأحاول أن أراهما: المدينة والقصر، بعيون عربية، لعلني بحدس الصحافي ووله العاشق للتاريخ، بأمجاده وعمرانه، وشغف الكاتب وفضوله لسبر

أغوار ما لا يعرفه، أستطيع أن أفهم شيئاً عن العمارة العربية ـ على الأقل ـ في الأندلس.

والأقدار لا يفنيها الزمن، فلكل زمان عند العرب دولة ورجال. والحمراء تاريخياً، هي القصر العربي الوحيد الذي بقي إلى اليوم من العصور الوسطى. ولكن بقاء قصر الحمراء لم يكن ليعني شيئاً للعرب وللعالم، لولا أنه قمة جمالية لا تضاهى. ولعل جمال العمارة الإسلامية ظل يشع في ظلمات الكون قروناً وراء قرون، حتى شكل «ثلاثية» هي آية جمال في أي عصر من العصور، مؤلفة من: قصر الحمراء في غرناطة، وحدائق شاليمار في لاهور، وقصر توبكابي في اسطنبول.

لكن قصر الحمراء كان شيئاً آخر. فالعرب كانوا يبنون ليومهم وليس لغدهم، لأنهم كانوا يعرفون أن «كل من عليها فان» إلا وجه ربهم. لذلك كان الحمراء قصراً ناعماً. هشاً رقيقاً. والمعجزة أنه بقي معنا إلى اليوم. فقد بناه عرب بني الأحمر، كما كان يضرب العرب خيامهم في الصحراء، إنما بأعمدة رخامية وبحجارة وقرميد وأخشاب. وكانوا يعرفون أن هذه الخيمة الكبيرة ستطوى عند رحيلهم مع الزمن. ولكنها كانت أقوى من الزمن. فزالت الدول وزال الرجال وبقي قصر الحمراء.

ولأن قصر الحمراء كان مضرباً كبيراً لعرب قدموا من الصحراء، عطشين للماء والخضرة، فقد جعلوا إلى جانبه حدائق كلوحة من لوحات الجنة فيها يسرح الماء في كل مكان، سواق ونوافير وأقنية. وأثبت عرب الأندلس أن ليس هناك تناقض بين فقر عرب البادية وبين الفن والجمال. كما أثبتوا أن ليس هناك تناقض بين الفن الراقي والجمالية الأخاذة وبين بناء القلاع والحصون لأسباب دفاعية.

بسبب هذه الرقة الجمالية، لم يستطع الملك عبد الله، ملك الأردن، عندما زار الحمراء عام ١٩٤٩، إلا أن يقول وهو يقف في ساحة الأسود يتلمس أحد الأعمدة المطرزة بآيات من القرآن الكريم: «الآن عرفت لماذا ترك العرب اسبانيا». وكان هذا تعليقاً من ملك بدوي جاء من الصحراء، فاعتبر أن هذه الجنة التي بناها العرب في غرناطة وهذه النعومة الفنية هي أكثر مما يطاق احتماله!!

وإذا كان الأحمر هو لون ملوك غرناطة، الذين كانوا يكتبون رسائلهم على ورق أحمر، والتي عرفت فيما بعد «بالرسائل الحمراء»، فإن الأبيض كان اللون الآخر. وإذا بالأحمر والأبيض، هما لونا الملك والجلالة. لكن ملوك الاسبان الذين جاءوا من بعد العرب، حفظوا قصر الحمراء، بلونيه الأحمر والأبيض، بإقامة حزام أخضر من الحدائق والممرات حول القصر، فأضافوا بذلك لوناً آخر ـ الأخضر الزيتوني ـ إلى لوني الملك.

وبين زحام الألوان في قصر الحمراء، دفعني فضولي الصحافي إلى أن أسأل غرناطياً كان رافقني، عن رأيه في الحمراء. فقال لي: «إذا سألت أي اسباني غيري عن الحمراء فسيقول لك انه عربي، ولكنه في الوقت نفسه اسباني، قطعة قطعة. لقد ظل قصر الحمراء معنا أكثر مما ظل مع العرب. إنه مرتبط فينا. مرتبط بهذا البلد المعقد الذي

اسمه اسبانيا. نحن رعيناه وسقيناه وحافظنا عليه خمسمئة سنة. لولا الاسبان لما كان هناك الحمراء. لقد وقعنا في حبائله وعشقناه».

وأدركت أن قصر الحمراء يعيش في غرناطة اليوم لأنه في حماية أكبر القوى التي تشد البشر إلى بعضهم. لقد عاش الحمراء في حماية الحب.

من وقتها لم أشعر أن الصحافة دخيلة على العمران.

□

في غرناطة وضعت يدي على تاريخ الجرح العربي. عثرت على ضالتي. عرفت السر العربي الكبير الذي شغلني طوال السنوات العشر الأخيرة على الأقل. وجدتها، وجدتها. إذ لم يكن هذا السر الضالة إلا مجرد تاريخ. تبدأ به الأشياء وتحدد به الأمور وتنتهي عنده الظروف. كالتقويم: قبل الهجرة وبعد الهجرة. قبل الميلاد وبعد الميلاد. السنة القمرية والسنة الشمسية.

في غرناطة قبضت على تاريخ الذل العربي. عرفته. أحسست به. تلمسته. توقفت عنده وتطلعت فيه طويلاً. ١٦ كانون الثاني ١٤٩٤ يا لتعاسة هذا التاريخ! يوم سقوط غرناطة. آخر دولة عربية في الأندلس وآخر يوم عربي في اسبانيا. واقنعت نفسي، وأنا أطل من «برج دمشق» في قصر الحمراء على رحاب سهول غرناطة وقمم جبال «سييرا نيفادا»، ان الذل العربي بدأ هنا قبل خمسمئة سنة. وإذا كان لكل أمر بداية وبالتالي نهاية. فإن مثلي مَن هو مؤمن بحتمية الدورة التاريخية في حياة الشعوب والأمم، لا بد وأن يقر أن ذلك التاريخ كان اليوم الحاسم في المأساة القومية التي نعيشها في نهاية القرن العشرين.

وقررت، أنا العربي الدمشقي القادم من أعماق التاريخ الأموي إلى بقايا أمجاد العرب في الاندلس، أن اقبض على شخص التاريخ بيدي. ولم يكن لي سوى هاجس واحد في غرناطة: أن أجده.

سألت عنه في كل مكان. بدأت بحثي عنه في قصره، في الحمراء. في ساحة الأسود، وفي ساحة الريحان. في قاعة السفراء وقاعة الملوك. في باب الشريعة وفي رواق البركة. سألت عنه نهاراً وسألت عنه ليلاً، إذ قيل لي إنه قد يكون بين المعماريين الذين بنوا هذا القصر العربي العظيم ـ كما تقول الأسطورة ـ في الليل وعلى ضوء المشاعل، فأعطى لهيبها المحمّر اللون الأحمر للقصر فاصبح الحمراء. لكن القصر كان أحمر بلون حجارته نهاراً وليلاً وبسكانه من ملوك بني الأحمر دائماً.

بحثت عنه في نقوش الجدران وفسيفساء القبب وقناطر الاروقة. «لا غالب إلا الله». «لا غالب إلا الله». شعار بني الأحمر منقوش في كل زاوية ومكان. لعله يكون مختبئاً بين ثنايا هذا التطريز الحجري. قيل لي: قد يكون في غرفة نومه يتلصص على الحريم في الحمامات فيرمي بتفاحة للمرأة التي تعجبه فتاتيه إلى مخدعه. بل نصحني أحدهم بأنه

قد يكون مختبئاً في «برج الحمراء» حيث استقبلت الملكة ايزابيلا، قاهرة العرب في اسبانيا، كريستوفر كولومبوس وأذنت له بالإبحار لاكتشاف أميركا. وتصورت لو أن ملكة عربية كانت هناك لتأذن لبحار كابن ماجد في ارتياد الفضاء.

قيل لي انه يتمشى مع السياح في حدائق القصر التاريخية التي بناها أجداده على صورة جنة، وأنه يقرأ أشعار ابن زَمْرَك الأندلسي وقد نزعها من جدران القصر. بل ان أحد السياح قال لي انه شوهد يتناقش ويتشاجر مع جده يوسف الأول وجده محمد الخامس، بانيا قصر الحمراء، لأنه سلمه إلى الاسبان من دون أن يذكر قول أمه، عندما علمت أنه سيسلم المدينة: «تذكر ان أجدادك ماتوا ملوكاً لغرناطة، وأن هذه المملكة ستموت معك». ولم أجده.

وعدت للسؤال عنه في كل مكان. في كل بيت عربي الملامح. عند كل نافذة تشبه نوافذ حي من أحياء دمشق القديمة. في كل سوق شبيه بسوق المال أو سوق الخيل أو سوق ساروجة في الشام. في كل الدكاكين التي كأنها فروع من دكاكين سوق الحميدية أو البزورية. قرعت كل أجراس الكنائس لعله متنصر كغيره من العرب الذين ظلوا بعد النصر الاسباني، فيسمعني. طرقت باب كل بيت في حي «البايباسين» كما يسميه أهالي غرناطة اليوم أو «البائسين» كما كان يسميه العرب قبل خمسة قرون. لا أحد استطاع أن يقول لي ما إذا كان موجوداً هناك، ولا أحد استطاع أن يقول لي ما إذا كانت تسمية الحي العربي بالبائسين هي من بأس أم من بؤس. ولم أعثر له على أثر.

استفسرت عنه راقصات الغجر في كهوف غرناطة القديمة. قالت لي الغجريات انه غادر غرناطة قبل خمسمئة سنة ولم يعد. وقالت لي راقصات الفلامينكو بعيونهن العربية الجارحة، أنه شوهد لآخر مرة وهو يغادر غرناطة باكياً ملكه كالنساء، لأنه لم يعرف ان يحافظ عليه كالرجال. حدّثتني عنه بلغة العيون العربية ولغة الأقدام الاسبانية. قالت لي غجريات الفلامينكو بقوامهن المشوق وشعرهن المرفوع بكبرياء عربية فوق الجباه، أن أمهاتهن كن يتحدثن عنه بأسىً بالغ ويشدن بكرمه وحبه للرقص والموسيقى، وأن عازفي الغيتار منذ أيامه إلى اليوم لم يعرفوا رجلاً بكرمه وحبه للوتر.

سألت عنه أشجار البرتقال والنارنج في صحن كل بيت دمشقي في غرناطة، وعند كل فسقية ماء، وقرب كل ياسمينة أو ريحانة تطل من فوق سوق «كرمة» اندلسية، أو «كارمن» اسبانية أو حديقة بأية لغة أخرى. وكان الجواب، وقد أعياني البحث، أنه إذا لم يشاهده أحد من زمان، فإن الكل كان يعرفه. إلى أن مل أهالي غرناطة سؤالي وقالوا: لماذا تبحث عنه وبهذا الالحاح؟

قلت: إنني ابحث عن «أبو عبد الله»، آخر ملوك بني الأحمر وآخر سكان قصر الحمراء وآخر العرب في الأندلس، حتى أخنقه بيدي.

قالوا: ولماذا تريد أن تخنقه؟

قلت: أريد أن أخنقه لأن «أبو عبد الله» صاحب غرناطة هو صاحب هذا الزمان العربي

الرديء. هو صاحب مأساة التيه العربي الذي نعيشه اليوم. هو عضو مؤسس ومشارك وفعال وأصيل ورديف في حزب الهزيمة العربية الدائمة.

قالوا: وماذا كنت ستقول له قبل أن تخنقه؟

قلت: كنت سأسأله: كيف يكون طعم الهـزيمة التـافهة خـارج أسوار الحمـراء وخارج غرناطة بالمقارنة بطعم الموت الصامـد المضرج بالـدم الأحمر لآخر ملوك بني الأحمـر. أيهما الأكثر حلاوة؟ كنت سأسأله عن ملوك الطوائف عنده وكيف هزموه. وربما أحـدثه عن زعماء الطوائف في عصرنا اليوم، فنقوم بدراسة مقارنة. كنت أريده أن يحـدثني عن عصر الذل في أيامه فلعله يعزيني كعربي في ذل أيـامي. كنت سأسـأله ألف كيف وكيف وكيف.. لكنني كنت سأصرخ في وجهه:

ويحك يا آخر ملوك العرب في الأندلس، يا آخر الأمجاد، يا بداية الذل. عد إلينـا يا أبـا العباد. الكل غافر لك. حتى أنا.

□

في غـرناطـة توقفت في دكـان صغير يبيـع توافـه الأشياء للسيـاح في حي «البايـاسين» العربي، عند كومة مفاتيح قديمة صدئة مربوطة في سلسلة حديدية ومرميـة على رف من الرفوف إلى جانب أحذية للبيع. عددتها، فوجدتها سبعة عشر مفتـاحاً من النـوع الكبير الذي لم يعد يصلح لأقفال هذه الأيام. وإلى جانبها كانت هناك كومة أخرى من المفاتيح الأصغر حجماً والتي علاها أيضاً الصدأ والعفن في رزمة مربوطة بشريط حديدي رفيع. وكانت أيضاً من النوع الذي لا أقفال له اليوم. وعددتها فوجدتها عشرين مفتاحاً.

وسألت صاحب الدكان، الذي كان رجـلاً مسناً، وإلى جـانبه زوجـه التي تشع نضـارة وحيوية، وإن كانت تزيده بعدد السنين، عن هذه المفاتيح.

قال لي: من أي بلد أنت؟
قلت له: أنا عربي من دمشق.
قال: من عرب النفط؟
قلت: لا. من عرب الأنهار والوديان والأشجار.
قال: والنفط مَن عربه؟
قلت: عرب الصحراء والرمال والبوادي والكثبان.
قال: إذن أنت عربي فقير.
قلت: ربما.
قال: اذن لن تشتري من عندي شيئاً.
قلت: قد اشتري من عندك إذا أجبتني على سؤالي عن هذه المفاتيح.
قال: إنها ليست للبيع.
قلت: انني أسألك عنها، ولا أريد أن أشتريها.

عندما وصل الحديث عند هذا المنعطف، كان الوقت قـد بلغ الظهـر.وقد قـاربت سـاعـة

القيلولة وأخذ الزبائن يغادرون الدكان. تطلع صاحب الدكان العجوز بساعته وكأنه على وشك أن يضحي بأكثر ما يستطيعه أي اسباني، وهو «السييستا»، وتمتم ببضع كلمات بالاسبانية، سرعان ما تدحرجت كتلة اللحم الأبيض النضرة التي هي الزوج وأغلقت الباب وأسدلت الستائر عليه وقلبت يافطة صغيرة مكتوب عليها: «مغلق» من الداخل إلى الخارج، وعادت بالسرعة نفسها إلى جانب زوجها وكأنها تنتظر نطقاً سامياً.

تطلع صاحب الدكان إليّ من فوق إلى تحت، وكأنه يائس من كوني زبوناً شارياً، وقال لي: أتريد الحقيقة التامة أم تريد الحقيقة المتداولة؟ (وضحكت لهذا التمييز بين نوعين من الحقيقة، ولكنني كتمت ضحكتي حتى لا أوحي بعدم جديتي) إذا كنت تريد الحقيقة التامة، فأنا لا أعرف. أما إذا كنت تريد الحقيقة المتداولة، فكل الذي أستطيع قوله لك، هو أنني عندما فتحت هذا الدكان قبل حوالى خمسين سنة ـ وكما ترى هي جزء من بيتي ـ كانت هذه المفاتيح في البيت الذي ورثته عن جدي. وهذا البيت هو ملك لعائلتي منذ سنوات لا حصر لها. وأذكر أن أبي قال لي إنه وجد هذه المفاتيح في البيت عندما توفي جدي، وأن جدي قال له إنها كانت في البيت نفسه وأنه لا يعرف من أين أتت وما الغرض منها ولمن هي. هذه هي الحقيقة التامة.

وتابع محدثي العجوز الاسباني صاحب الدكان كلامه، ومن دون أن ينتظر مني تعليقاً.

قال: أما الحقيقة المتداولة فهي أن في أكثر من بيت في حي الباياسين، مجموعة مفاتيح مماثلة. المفاتيح الكبيرة هي مفاتيح البيوت. والمفاتيح الصغيرة هي مفاتيح الدكاكين والكرمة (الحدائق أو «كارمن» بالاسبانية) والحمامات الخاصة. ومن المتداول في غرناطة انها المفاتيح التي تركها العرب لبيوتهم ومحلاتهم عند من بقي في الحي من معارف وأصدقاء في ذلك الزمان، عندما غادروا غرناطة مع «أبو العباد» آخر ملوك بني الأحمر عند سقوطها، على أمل أن يعودوا فيفتحوا بيوتهم وأرزاقهم حين يستعيد العرب الأندلس.

سكت صاحب الدكان الاسباني، وكأنه يمتحن وقع روايته عليّ، وسألني وكأنه تذكر شيئاً نسيه:

ـ قلت انك من عرب الأنهار. مَن هم هؤلاء العرب؟ هل مروا من هنا؟

أجبته: انا من عرب دمشق. عرب أمية. عرب الفتوحات. نحن الذين فتحنا الأندلس وأقمنا قرطبة واشبيليا وغرناطة.

اتسعت عينا صاحب الدكان، وهتفت الزوج الكهلة: نحن أقرباء. نحن أقرباء. انظر إلى أنفي إنه أنف عربي. انظر إلى جبهتي إنها جبهة عربية. انظر إلى وجهي، تكاوينه عربية. نحن أقرباء. نحن أقرباء (ولو قالت انظر إلى أردافي لقلت لها إنها أرداف عربية). لكن الزوج قاطعها بحدة، وقال لي:

ـ هل تريد أن تشتري هذه المفاتيح؟ أبيعها لك أيها الأموي القادم من دمشق. قد

تحتاجها إذا أردت العودة بعد خمسمئة سنة إلى بيت من بيوتك في البايازين».

وارتج عليّ، فاعتذرت من الاسباني صاحب الدكان بأنني تركت صكوك التمليك لاقطاع بني أمية في الأندلس في دمشق، وبالتالي فليس لي حق بهذه المفاتيح.

لكن صاحب الدكان العجوز ابتسم وهو يشيعني إلى الباب، وكأنه عرف السبب الحقيقي لتمنعي.

ـ لقد خفت إذا اشتريتها أن يعود العرب من أهالي الأندلس ذات يوم إلى غرناطة ليستردوا بيوتهم فلا يجدون المفاتيح حيث تركوها، فيضطرون للنوم في العراء خمسة قرون أخرى!

غرناطة ـ (١٩٨٦/٥/٣)

دمشقي في مراكش

ماذا يفعل صحافي عربي مثلي، شوهته الكتابة السياسية سنوات عجافاً طويلة، وأثقلته متابعة الأخبار، واستعصى عليه فهم أحداث أمته، وأضناه تحليلها، وتاه في تناقض مواقف سياسييها، أمام مشهد ثقافي حضاري وفني لا يتكرر إلا مرة كل عدة سنوات؟

قد يتذكر أنه شاعر سابق، وأنه هاو للفنون الجميلة وجامع متواضع للوحات عدد من رسامي بلاده، وأن له كتاباً في النقد. ويتذكر أكثر، وإن كان قارئاً مقلاً هذه الأيام للأدب والشعر والقصة، انه يريد أن يستعيد هويته الثقافية بانتصار الحيوان الثقافي على الحيوان السياسي في داخله. ويدرك بأن هذا الصراع لن يكون بالأمر السهل لولا أن المدخل إلى الحلبة واحد: هواية التاريخ.

واستحوذ عليه التاريخ، وهو في مراكش حيث تم في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٨٦، توزيع جوائز مؤسسة الاغاخان للعمارة، وهي أكبر جائزة معمارية في العالم (نصف مليون دولار) على ستة مشروعات بارزة ومميزة. وألحت عليه مجموعة من الأسئلة حول البُنى المشيّدة في دنيا الإسلام الواسعة وهو يتطلع حوله في مراكش، تلك الواحة على سفوح جبال الأطلسي وعلى حدود الصحراء، بحثاً عن الثقافة المعمارية العربية وقد شوهتها سياسة التحديث، وان امتلأ قلبه فخراً للأعمال التي ورثها العرب والمسلمون عن ماضيهم.

ولعل السبب الأساسي لالحاح الأسئلة لم يكن جائزة العمارة نفسها، بقدر ما كان مراكش المدينة، التي لم تكن في بدء التاريخ سوى مكان غير مضياف لتقاطع طرق القوافل الذاهبة إلى الجنوب. لكن رواة التاريخ يقولون ـ وهم عادة أصدق من محترفي التاريخ وعلمائه ـ ان في يوم من الأيام جاءت قبيلة من الجانب الآخر من جبال الأطلس تحمل التمور. وحاصرت هذه القبيلة ذلك المكان غير المضياف إلى أن أكلت القبيلة التمور التي حملتها. واستمرت تلك القبيلة في الحصار إلى أن نبتت نوى التمر التي سقطت على الأرض وأصبحت غابات النخيل التي نراها اليوم.

في حوالى ذلك الزمان جاء رجل اسمه أبو بكر، كان زعيماً لقبيلة المرابطين واحد شيوخ الصحراء (المغربية) وأقام في ذلك المكان. لكن اقامته لم تطل هناك، حيث اضطر إلى العودة إلى الصحراء لقمع احدى الفتن، تاركاً ابن عمه يوسف بن تاشفين مكانه. وفي عام ١٠٦٢ قرر يوسف بن تاشفين أن يبني مدينة في المكان الذي تركه فيه عمه. وتقول « طورة أن يوسفا قام ببناء المدينة بيديه وأنه هو الذي صمم نظام القطارة، وهي الأقنية الشهيرة تحت الأرض التي تربط بين الآبار وبيوت وحدائق المدينة، وانه هو الذي أبدع نظام الري الذي كان سبباً في شهرة بساتين المدينة بنخيلها وحمضياتها عبر التاريخ. وهكذا ولدت مراكش ـ المدينة.

وكان يوسف بن تاشفين رجلاً فاضلاً ومتقشفاً. لذلك لم يتردد في أن يلبي نداء أمراء

الأندلس عندما استعانوا به بعد سقوط طليطلة. فحزم أمره وقاد جماعته وعبر بهم مضيق جبل طارق إلى اسبانيا، ليدرأ هزيمة طليطلة العربية. وحقق يوسف الانتصار تلو الانتصار ضد الاسبان، وحوّل مراكش، بعد أقل من ٤٠ سنة من انشائها، إلى عاصمة لامبراطورية متنامية الأطراف، تمتد من كاتالونيا الاسبانية إلى المحيط الأطلسي، ومن الجزائر إلى حدود جبال السودان، عرفت بدولة المرابطين.

ومات يوسف، ولم يعد عمه أبو بكر من الصحراء. فورثه ابنه علي بن تاشفين الذي انصرف إلى إتمام بناء مدينة مراكش. فكان أول من أقام الأسوار الواقية حول المدينة، وكل متاريس تلك الحقبة. لكن دولة المرابطين لم تعمر طويلاً. ففي عام ١١٤٧، جاء الموحدون، وكانوا جماعة اصلاحية دينية، واحتلوا مراكش. وأمر زعيم الموحدين الروحي، ابن تومرت، بتدمير المدينة عن بكرة أبيها ومحو آثار أسلافهم.

لكن عبد المؤمن أول أمير للموحدين، أمر بإعادة بناء مراكش على الطراز الأموي، كما عرف بالأندلس، بحدائقه وبركه وصحونه، وكما يبدو واضحاً في المنارة اليوم. ولما جاء ابنه يوسف الى الحكم، بنى المدرسة، وهي أهم كلية علمية من نوعها أقيمت في دولة الموحدين. وفي عهد يعقوب المنصور أهم أمراء الموحدين، والذي لقب بالمنصور لانتصاراته العسكرية في الأندلس، وسّع من بناء مراكش وحسّن من أسواقها وحدائقها وأسوارها، وأتم بناء أهم منجزاته وهو جامع الكُتبية. وفي عصر دولة الموحدين وعهد يعقوب المنصور أصبحت مراكش قبلة للفكر والثقافة والعلم. وامتلأ بلاط يعقوب بالشعراء والعلماء والفلاسفة الذين كان من أشهرهم الفيلسوف العربي الأندلسي ابن رشد.

وكما يحدث عادة في التاريخ، ما أن تصل الدولة إلى قمة امجادها، حتى تبدأ بالانحدار. ففي عام ١٢٦٢، انهارت دولة الموحدين تحت وطأة الأدارسة الذين كانوا يحكمون فاس لأكثر من نصف قرن. لكن الأدارسة بقوا في فاس. ولم تعد مراكش إلى أوجها إلا عام ١٥٢٠، عندما وصلها السعديون، وهم من أشراف الجزيرة العربية، وبقيام الدولة السعدية عادت أمجاد العرب إلى مراكش ومعها حياة ألف ليلة وليلة. وازدهرت مراكش في ذلك العصر أكثر من أي وقت مضى، خصوصاً في عهد أحمد المنصور الذهبي بطل معركة الملوك الثلاثة بين المغاربة والبرتغاليين وفاتح الصحراء، الذي بنى قصر البادي، ليبقى على مر القرون علامة فارقة على ثرائه.

وحرر التاريخ عصراً للانحطاط في مراكش، ولم يبقِ سوى قبور ودواسر لأمراء، واطلال أكل الدهر عليها وشرب، كشاهد على زمانهم الذي ولى وانقضى. إلى أن جاءت الأسرة العلوية من مكناس بزعامة مولاي اسماعيل لتشيّد دولتها. وانتظرت مراكش حتى عام ١٨٧٣ لتستعيد عظمتها في عهد مولاي حسن (الحسن الأول) الذي أعلن نفسه ملكاً على بلاد المغرب الأقصى، والتي كانت تعرف في حينه باسم مراكش.

□

أمام تاريخ مراكش المقتضب هذا، وقفت أحدّق في أسواقها وعماراتها وأنـا أتساءل عن تلك الصلة التي تربط مدن الحضـارة الإسلاميـة بتعاليم المـاضي العظيمة وبـالمنجزات الثقافية النموذجية التي حققهـا. وإذا بالإسـلام، هذا المـذهب الإنساني المتفتـح الذي يتخذ من التسامح والتحريـر شعاراً لـه، كان ذلـك الالهام الـروحي الذي هـو سمة من سمات تراثنا المشترك. وتأملت طويلاً هذا التراث، الذي عـرف في كل مكـان، وما يـزال يعرف، فترات ركود تاريخية طويلـة، كيف يقاوم محـاولات شتى لتدمـيره أو الغائـه أو نسيانه.

ان مراكش تعيدك إلى مجرى التاريخ، الذي واصل السير منذ القرن السـابع عشر عـلى الأقل بدون مشاركتنا كعرب أو كمسلمين فيـه، فتشعر كم أوهنت الضربـات التي جاءت من الخـارج هذا التـراث الجميل العـريق، وكم شوهتـه ومزقت أوصـاله. فتكتشف كم ابتعد الإسلام اليوم عن فتوحاته الإنسانية ونأى عن ثقافته، فبعدت الشقـة بينه وبـين العالم المعاصر. فبدل الانغلاق في مفهوم جامد، كما هـو حال ثقـافتنا اليـوم، كان علينـا ترك باب التفكير والتأمل مفتوحاً في ما يمثله التراث الإسلامي ومن ضمنه طابع العمارة الإسلامية وما تمثله الحداثة وهنا كان من الممكن لمصيرنا ان يصبح على أفضل مما هو عليه، فليس كل ما في التراث قـديماً أو عفى عليـه الزمن، وليس ـ بـالطبع ـ كـل ما في الحداثة بشيراً بالتقدم أو بمزيد من الكفاءة.

ولما كانت مراكش تضج بحديث العمارة الإسـلامية فقـد طُرح السؤال الصعب، الـذي حـاول أكثر من مئـة مهندس معمـار من مختلف المشارب الفنيـة والخلفيات الثقـافيـة والأقطار الشرقية والغربية أن يجيب عليه، وكل وبطريقته: كيف تضفي المكانة التعبيرية عـلى منجزات التـراث المعماري الإسـلامي العظيمة مـع احترام أسـاليبهـا التعبـيريـة الاقليمية والدور الحقيقي الذي لعبه الإسلام في إلهام تصميمها، في الوقت نفســه الذي تسعى فيه إلى الاستفادة من أساليب التصميم الحديثة ومن تقنيات التنفيـذ التي تتيح تلبية احتياجات مجتمعاتنا الجديدة وتنوعها؟

بل كيف تتجنب خطرين ما يزالان يتهددان المعمار: أولهما تحديث يستـورد من الخارج ويقحم دون تمييز على مجتمعات إسلاميـة، والثاني، وهـو نقيض الأول، نزعـة تقليديـة تتمثل في اقحام اشكال ومواد وعناصر مستقاة من آثار تقليدية على مبانٍ عامة أو خاصة بقصد اضفاء طراز أو طابع عام يوصف بأنه إسلامي؟

لم تستطع نخبة معماريي العالم التي اجتمعت في مـراكش أن تجيب على هـذا السؤال الصعب. لأن الاجـابة عليـه لا تكمن في مشروع واحد او في محـاولـة مـا او حتى عـدة محاولات. ان الاجابة عليه هي جزء من مسار التاريخ السيـاسي والحضاري للشعـوب، وهو مسار أجيال. والاجابة عليه أيضاً هي رهن بأن يستـوعب المعمار عـلى مر الـزمان الثراء الثقافي والطفرة الابداعية، بقدر ما عليه أن يستـوعب أحلام المجتمـع ذاتها لكي يغدو هو ذاته قوة دمج للزمان والمكان الـذي يتم فيه الاحتكـاك المتبادل بـين البشر. ان

الفكر الإسلامي المعاصر اليوم، والثقافة الإسلامية بمفهومها العريض، تحتاج إلى المشاركة بايجابية في مغامرة التحديث الجارية، كما كانت تفعل دائماً خلال عصور الازدهار، عندما كانت تملك طاقة روحية متجددة لا تساوم في الجماليات ولا تخاف من عبقرية الإبداع ولا من طموحات العباقرة.

ان جائزة العمارة قد حملت هذا التحدي إلى العالم الثالث. إلا انها حملت الأهم من ذلك وهو طلبها الوقوف في وجه ظاهرة الاجتثاث الثقافي. وذلك يتطلب الوصول إلى حالة، تكررت كثيراً في تاريخ الإسلام الثقافي، مؤداها أن أي ثقافة تبلغ مستوى كفاءتها واشعاعها واخصابها الأمثل وسط أولئك الذين يعيشونها وينتجونها عندما تلتقي جميع الأنشطة التي تؤلفها وتتضافر في سبيل تحقيقها.

ان هذا التحدي المطروح في العمارة يتطلب فتح باب الاجتهاد على مصراعيه. الاجتهاد في التحليل والدرس والفهم والتفسير بهدف تزويد الفكر الإسلامي المعاصر بكافة الوسائل التي تتيح له الوقوف بطريقة موضوعية على ماضيه، والمشاركة على نحو ايجابي في مغامرة التحديث الجارية. لكن هذه المغامرة غير ممكنة ما لم تتجاوز الأوضاع القائمة في العالم الثالث اليوم (وفي المجتمعات الإسلامية بالذات)، فنثري، في جو مطلق من الحرية، وعلى غرار ما حفل الإسلام به في الماضي، البحوث والمنجزات التي يجري تحقيقها في أعظم البلاد تقدماً. عندئذ قل نلحق بركب الزمن وبحضارة العصر، أو أن نبقى محكومين بأبدية التخلف. والخيار يكمن فقط في حرية الاجتهاد.

في مراكش شعرت بأنني كنت قريباً من هذه الحرية. فما أحلى الرجوع إلى متاهات التاريخ، وإن أنكره أصحابه ثلاثاً كل يوم وقبل صياح الديك!

مراكش - (١٩٨٦/١٢/٦)





إخوانيات



اخوانيات

■ كامل مروة:
جناح النسر

كامل مروة، هل تعرف حكاية الحب التي بيني وبينك؟

لم يعد مهماً في كل هذه الحكاية، إلا أن الرصاصة المجرمة الجبانة، لم تجسر أن ترفع أزيزها فوق صوت كلماتك، فكانت صامتة خرساء. ولم تكن حتى في وسع الثقب الذي أحدثته في قلبك الكبير.

أما الحكاية فتبقى ـ بيني وبينك ـ وقد انسكبت قارورة الطيب، وأصبح الشذا ملكاً لكل إنسان.

كلماتنا فيك اليوم تافهة، ثكلى، مخنوقة بالاستنكار والغضب. ما أتفه الكلمة ـ أية كلمة كانت ـ عند مقام استشهادك.

كم واحداً منا تمنى اليوم أن يقول: مات كامل مروة على صدري، وقد تذوقناك خمراً، ولمسناك رؤيا، وتخيلناك أسطورة. لكن الكروم أقفرت بعد موتك. وغدت مرتعاً للثعالب والذئاب، وأصبح الزناد بيد الأشرار.

ما كان أمتع وأروع الخلاف معك على الكلمة، وأنت تكتبها، لا كما يكتبها غيرك، كنت تغمس قلمك في قلبك، وتطرح هذا القلب على الورق.

كانت الحرية سدرة المنتهى عند ايمانك، فمن هدرت حريته، هدرت انسانيته. فوضعتك الحرية عند محكها النهائي، وكنت قربانها الحقيقي.

كنت لا ترى من دنيا العرب، وأنت تقفز من التخوم الذبيحة إلى التخوم الجريحة، إلا الإيمان الذي لم يعط إلا لصاحب رسالة. فكان قلمك في هجير المعركة روحاً، وفي ملاحم الوطن بطولة، وفي هول الطغيان ثورة.

فأسكرت قارورة الطيب دنيا العرب ثلاثين عاماً، واندلقت. وإذا بقارورة الطيب، قارورة دم. أما إذا خانتك الحياة اليوم، فحسبك أن كثيرين مشوا في ظلالك. وهذه حياة الأبطال، وميتة الأبطال.

وبقيت أسطورة القلم الذي تمرد، فأضحى في يدك سلاحاً خطيراً، يرد الرصاص بالمداد، ويمسك بحد السيف، كما كان يمسك بحد الحرف. وإذا هناك بقية من سيوف لم تصدأ.

ولم يبق من حكاية الحب التي بيننا، إلا أمتار قليلة، تلك التي تفصل مكتبك عن مكتبي، لا أدري كيف سأمشيها اليوم في غيابك، وقد عشناها معاً حيناً، وخلفتني على الدرب الذي ضيعك.

لقد أصبحت الكلمة أعجز وأضحل وأتفه من أن تقف في وجه الرصاص الصامت الجبان، ولم يعد لدينا من القدرة على الحب، إلا التحدي الحزين.

أما وقد هدرت ريش جناحيك في العاصفة كأشد ما تفعل كواسر النسور، فنم أيها النسر، فلست مخيراً: مقامك فوق السحاب أو تحت التراب.

□

كامل مروة، كان بينه وبين العالم حوار طويل، وكان العالم صغيراً بين يديه.

حدود عقله، تجاوزت آفاق الدنيا، وحدود أنفه الصحافي امتدت إلى أبعاد العالم الواسع. عالم، ولكنه كان صغيراً بالنسبة إلى كامل مروة.

عند اللقاء الأول، اختلفنا.

كان يرى العالم جذوراً بعيدة المدى، منظاره، منظار العارف بأدق التفاصيل، ونظرته نظرة الخبير الذي رافق سير أحداثه وعاشها سنوات طوالاً طوالا.

وأعطاني مدى التطلع الذي أريده بمنظاري، وكأنني كنت اذكّره بما كان يراه، عندما كان مثلي منذ أكثر من عشرين سنة.

وانطلقت في العالم الذي أراه، وكتبت عن الذي أعرفه. وكان يناقشني دائماً، من دون أن يصر على أن ينتزع قلمي مني. كان يرى، أن العالم يتغير، ونحن جزء من هذا العالم الذي يتغير. جزء صغير. كل ريح تعصف بزاوية منه، تحمل إلينا نحن القابعين في ملتقى التيار، كل العاصفة، وكان يقول لي، نحن مجرد حصاة صغيرة في مهب الرياح: «عالم يا رياض، ولكنه صغير».

ويمتد الحديث إلى ساعات طويلة، يكون فيها الكثير من الفكر السياسي لكامل مروة. بكين، فيتنام، بوروندي، واشنطن، طشقند، موسكو، لندن، جاكرتا. مجرد محطات صغيرة، في خريطة العالم التي كانت تقبع على جدار مكتبه. وكانت بداية الأسطر في البرقيات. وكانت البداية.

المسافات دائماً قصيرة عنده، لا يمسك أطرافها إلا خيوط رفيعة، تشتد وترتخي عندما تتوتر أسلاك البرق بحادث، أو قضية أو خبر.

أما الأحداث فهي سلسلة من الحلقة الدولية التي تتداخل في مصير الناس والأشياء. وكان يحب أن ينقل أحجار الشطرنج، بمهارة اللاعب المحترف من فوق بقع العالم الملونة، ويحركها مستبقاً دلائلها.

وكانت متعة الترقب، ومنطقية التحليل عنده، تشده دائماً بعيداً عن الانجراف في منزلق التهور. كانت الوقائع هي قاموس الأحداث.

ولم ينقطع الحوار أبداً بينه وبين العالم الذي دخل به إلى الصحافة. كان أحب شيء إليه، وكان أمتع ما يحن إليه.

كان بداية درب شقاء المهنة الطويل. وكان النهاية. وفي النهاية اتفقنا. وقضى كامل مروة.

بيروت - (١٩٦٦/٥/٢٠)

سعيد فريحة:
انطفاء الأنوار

بموت سعيد فريحة يموت آخر من بقي من رعيل الصحافة العربية الأول، وبرحيل سعيد فريحة تطوى آخر صفحة من احلى ما كتب في الصحافة العربية خلال هذا القرن، وبغياب سعيد فريحة يأفل نجم من كانت أنواره تطل على الدنيا العربية كلها.

كان سعيد فريحة آخر وأندر وأجمل من في جيله.

مات سعيد فريحة في دمشق، المدينة التي أحبها كثيراً على تعاقب ما تقلب عليها من حكام وعهود. لقد كانت دمشق توأم حياته مع بيروته. اذكر أن في بداية الاستقلال والحكم الوطني في سورية كانت دمشق عرساً ومزاراً دائماً له. ولا اعتقد أن سعيد فريحة كره دمشق مرة، كما كرهها يوم وقوع الانفصال، لأنه حرم من دخولها. وظل سعيد فريحة على حب مقيم لدمشق، وفيها من ذكريات شبابه أحلاها.

وفي دمشق ولد سعيد فريحة في ذكرياتي وذاكرتي. كان صديقاً حبيباً لأبي، جلست في حضنه مرات ومرات وشاركت مجالسه صبياً يافعاً وعملت معه صحافياً شاباً وسهرت في صحبته أحلى الليالي رجلاً. ولعل من دواعي اعتزازي ان أول راتب قبضته عند احترافي الصحافة عام ١٩٦١ كان ٣٠٠ ليرة لبنانية كان منه. وان أول مقال موقع نشر لي كان في «الصياد»، وأن أول احترافي المهنة كان في داره.

في ٩ شباط ١٩٥٢، عندما مات نجيب الريس، جاء سعيد فريحة إلى مدرستي في برمانا ليحملني في سيارته البويك الزرقاء الى دمشق. ولا أنسى أنه بكى اكثر مني، وأن الطريق بين بيروت ودمشق كان ممطراً وموحشاً وطويلاً.

وفي بيتنا في دمشق فتحت عيني على قراءة «الصياد». اذكر أن أبي كان يقرأ ثلاث مطبوعات بشكل منتظم: «الصياد» و«الصحافي التائه» لاسكندر الرياشي و«الهلال» لاميل وشكري زيدان. ومن على صفحات «الصياد» أخذت اسماء معينة كانت تزور بيتنا ترسخ في ذهني: رياض الصلح وبشارة الخوري وشكري القوتلي وسعد الله الجابري وعشرات من الأعلام في تلك الحقبة من الزمن. وكانت «جعبة الصياد» زاداً أسبوعياً لصبي في الحادية عشرة من عمره كبر معها، وتعلم من خلالها معنى الكاريكاتور السياسي يوم كان «أبو خليل» الشخصية اللبنانية الحقيقية ويوم كان طربوش رياض الصلح رمزاً لسياسة تلك الأيام.

وعندما كبرت، ما ترددت لحظة بأن تكون «الصياد» أول باب صحافي أطرقه في حياتي العملية، وهكذا كان. وفي دار الصياد عرفت رفاق وزملاء اليوم. كان هشام أبو ظهر - رحمه الله - رئيس تحرير «الصياد» وقتئذ، أولهم. وكانت رفقة ولا أحلى، انتقلت من

بعدها إلى «المحرر» الأسبوعية التي أصدرناها سوية حتى حولها إلى يومية، عام ١٩٦٤. وكان هناك الصديق نبيل خوري صاحب «القنديل الأزرق» ملك شباب ليل تلك الأيام والقاص الأول قبل أن ينتقل إلى «الحسناء» والاذاعة وما بعدهما. وكان سليم نصار يسلسل روايته «وسام على الوجه» في الشبكة التي كان يرأس تحريرها. وكان سمير عطا الله المحرر الذي ينام على الطاولات ملتحفاً الصحف في صالة تحرير «الأنوار». وكان وكان وكان... عشرات غيرهم من زملاء المهنة أصدقاء اليوم ورفاق الأمس.

في تلك الأيام تعرفنا على عادة النزول «بالروب دي شامبر» من البيت إلى المكتب وعرفنا كيف تكتب «الجعبة» وكيف تحرق السجائر والأعصاب معاً، وكيف تضج المكاتب بالضحك عند النكتة الخارقة وكيف يصنع الأسلوب الذي يجرح ولا يُسيل الدماء.

أكثر من خمس عشرة سنة مرت على تلك الأيام وما زال طعمها على لساني وصورها في ذاكرتي ومنابعها في مخيلتي.

وفرقتني ظروف المهنة وفرص العمل عن سعيد فريحة سنوات طوالاً، إلا أن الصلة بقيت بيننا وقد انتقلت من الأب إلى الابن. وعندما كنت ألتقي به من وقت إلى آخر، كنا نتحدث بحرارة في الصحافة والسياسة وذكرياته القديمة المتجددة مع دمشق ونجيب الريس الذي أحبه كثيراً.

ومن سخريات الاقدار أن أحداً لم يستطع أن يبز سعيد فريحة لا في موهبته في الكتابة ولا في أسلوب ظرفه ولا في كرمه ولا في وفائه لأصدقائه. فـ «الصياد»، مجده الأول والأخير. قد انتكست بوفاته بقدر ما انتكس قبله الوطن الذي عاش عمره كله يدعو إلى وحدته وعذوبته ووفاقه كالصيغة المثلى للوطنية الصحيحة.

وإذا تودع الصحافة العربية اليوم هذه الموهبة النادرة وهذا الصحافي الكبير وهذه الروح الساخرة الضاحكة، يكفيها عزاءً وفرحاً أن سعيد فريحة قد عاش حياته حتى الثمالة.

لندن - (١٩٧٨/٣/١٨)

■ الياس الرابع: بطريرك العرب

كان لي شرف معرفتك وشرف محبتك وشرف رفقتك في رحلتين تاريخيتين.

لم أعرف من قبلك لا بطاركة ولا أحباراً ولا رجال دين. لقيتك للمرة الأولى بعد اعتلائك سدة البطريركية الانطاكية في دمشق عام ١٩٧٠. فأشعرتني أنا الصغير المنزلة، أن بيني وبينك تاريخاً سورياً عربياً خاصاً مشتركاً يبدأ في حماه عند المطران حريكه ويمتد إلى البطريرك الكسندروس طحان في دمشق، ولا ينتهي عند أعتاب بطريركيتك الأرثوذكسية في باب شرقي في الشام القديمة. كان تاريخ الحركة الوطنية السورية ـ اللبنانية ضد الانتداب، هو حديثنا الخاص.

ونمت بيننا ألفة أخذت تغذيها أنت بحديثك المستمر عن دور مسيحيي سورية ولبنان وفلسطين ضد المستعمر الأجنبي طوال عهود الانتداب إلى اليوم. كانت ذكرياتك مسلسلاً خصباً عن أمانة أرثوذكسية المشرق للنضال العربي عبر التاريخ. وكنت تفيض بوجهك الصبوح وصوتك الأجش محبة وايماناً وشرحاً عن دور الكرسي الانطاكي في وحدة المصير العربي. وما زرت دمشق مرة وعرفت انني فيها إلا وتساءلت لماذا تأخرت في الحضور إليك، سواء في البطريركية أم في صيدنايا. وكنا نتشاكى الهموم السياسية «الصغيرة» عن أصحاب مشتركين لنا. وكنت تقول لي «صاحبك»، وأقول لك: «صاحبك وصاحبي». ولم أرك منذ سنتين. باعد منفاي الجغرافي الطوعي بيني وبينك. ولم أعد أرى من كان «صاحبي وصاحبك».

سافرت معك إلى المؤتمر الإسلامي في لاهور في شباط ١٩٧٤، وكنت المسلم الوحيد في عداد الوفد المسيحي. وكدت تشعرني بجهلي لكثرة ما حدثتني عن الإسلام وعلاقته بمسيحية المشرق وعن دور الكرسي الانطاكي عبر التاريخ بالتراث الإسلامي العربي. وهناك وأمام رؤساء مسلمي العالم وقفت لتذكرهم بأن القدس ليست لهم وحدهم. وصفقوا لك طويلاً.

وسافرت معك أيضاً إلى المملكة العربية السعودية في نيسان ١٩٧٥ من ضمن وفد مسيحي للتعزية بوفاة الملك فيصل. وكنت أيضاً المسلم الوحيد في عداد الوفد المسيحي. وعندما التقينا بالملك خالد والأمير فهد والأمير عبدالله وغيرهم من كبار المسؤولين السعوديين عدت إلى هاجسك ـ القدس. وطرحت في هذا اللقاء فكرة عقد مؤتمر مسيحي ـ إسلامي للبحث في مسألة القدس.

منذ أيام فم الذهب يوحنا الدمشقي إلى أن جاء دورك لتكون سادس بطريرك عربي يتربع على سدة انطاكية وسائر المشرق، وفرسان الكنيسة الأرثوذكسية العرب يحملون عبء التراث القومي العربي فكراً وأخلاقاً ونضالاً. وإذا فزت أنت بلقب «بطريرك

العرب»، فغيرك ينتظر دوره اليوم ـ وفي أصعب الأوقات وأحرجها ـ ليحمله عنك. وما أغنى كنيستك بالرجال!

تمنيت لو كنت قريباً من الكاتدرائية المريمية في دمشق، لأودعك وأقول لك شكراً للكثير الذي أوحيته لي من دون أن تدري.

كلماتي بسيطة أيها البطريرك العظيم. حبي كبير.

لندن ـ (١٩٧٩/٧/٧)

■ عبد الحميد شرف:
موت الفارس الأسمر

تاعس حظ هذه الأمة. بائس مصيرها. سيىء طالعها. مهزوم مستقبلها. حزينة أقدارها.

كان أمل جيلنا كله. كان طموحنا في السلطة. كان مثالنا في السياسة. كان ضمانتنا في الأخلاق. كان تفاؤلنا في الحكم.

موت عبد الحميد شرف أعلن هزيمتنا. هزيمة جيلنا في وجه الأقدار الظالمة. وإذا بآمالنا تطوى وجدار ذكريات ٢٥ سنة من شبابنا ينهار. ويمضي هذا الهاشمي الشجاع سليل أشراف الحجاز إلى غير رجعة الينا، وندرك كم هي تافهة الحياة حين لا ينفع فيها الغضب ولا يقدر عليها البكاء.

عندما دخل عبد الحميد شرف ميدان السياسة خفنا عليه. خفنا عليه من أحلامنا. خفنا عليه من فشلنا. خفنا عليه من مطالبنا. وعندما تألق نجم عبد الحميد شرف في السلطة خفنا عليه من النجاح. خفنا أن يحيله الحكم إلى سياسي آخر من عشرات السياسيين الذين لفظهم العالم العربي في الربع الأخير من هذا القرن. خفنا عليه أن يتغير. خفنا عليه من نجاحه، بقدر ما خفنا عليه من فشلنا،. وتابعنا تحركاته في أروقة السلطة، كما كنا نتابع جلساته في مطعم «فيصل» أو نشاطاته في الجامعة الأميركية في بيروت والنادي الثقافي العربي أيام الصبا. كنا نخاف عليه من أنفسنا.

فرحنا كثيراً عندما لم يتغير عبد الحميد شرف. ظل كما عرفناه وأحببناه واحترمناه. رجلاً عصرياً. عصرياً في تفكيره. عصرياً في تعاطيه السياسة. عصرياً في آفاقه التي لا حدود لها. ثبت كإنسان حضاري. حضاري التعامل. حضاري الثقافة الممزوجة بالتجربة السياسية الواقعية التي تعلمها أيام التشرد. يعرف كيف يتعامل مع سكان «تحت»، كما يعرف كيف يتعايش مع سكان «فوق». عرف كيف يمزج بين واقعيته السياسية وبين آفاق الإنسان السياسي المثقف النظيف عن طريق تعاطيه المباشر مع جيله. ودخل عبد الحميد شرف تجربة الحكم في الأردن في أحلك الظروف العربية وأكثرها قساوة وخطورة. وربما فتح طريق التغيير في حياة الأردن السياسية المعاصرة.

وشاء الموت أن يختار أجود ما عندنا. وحتمت الأقدار أن لا تستمر تجربة عبد الحميد شرف في الحكم. وسخرت الظروف منا كلنا. كان من الممكن أن يموت عبد الحميد شرف اغتيالاً. وهذه أقدار العمل السياسي، العربي. كان من الممكن أن يموت كهولة. وهذه سنّة الحياة. وكان من الممكن أن يموت فشلاً. ولعل الحكمة الإلهية شاءت أن تأخذه إلى جوار ربه حتى لا يبقينا شهود زور إلى جانبه في خيبته من أوحال الواقع السياسي العربي.

اذن، ليمت في فراشه شاباً يافعاً، ولنمت نحن حسرة عليه وعلى الطموح الذي سرق منا

وهو أن نرى أحدنا، شريفاً نظيفاً مثقفاً حضارياً عصرياً، يصل إلى السلطة من خارج مستنقع السياسة العربية.

ما بيني وبين عبد الحميد شرف لا يعني أحداً. ما بين عبد الحميد شرف والناس يعني كل الناس. كان حديثنا ـ في لقائي الأخير معه في منزله في عمان في شباط ١٩٨٠، وكانت المرة الأولى التي أراه فيها منذ أن أصبح رئيساً للوزراء ـ حديث الأحلام الدائم. الصحافي الذي يحلم بسياسي يتبوأ السلطة من دون أن يخسر أحلامه، والسياسي الذي يريد أن يقنع الصحافي أن الحكم لم يُسقط كل الأحلام. وافترقنا على موعد للقاء. وكان الموت أسرع من مواعيدي ومواعيده.

عندما كنت معه على مائدة الغداء في منزله في عمان في ذلك اليوم البارد الثلجي من شباط ١٩٨٠، لم أكن أطمح تحت ستار كل المبررات المهنية التي يختبىء وراءها الصحافي، بأكثر من أن أتأكد من أن عبد الحميد شرف رئيس وزراء الأردن، هو نفسه عبد الحميد شرف رفيق الكتب والندوات والمقاهي والآمال والطموح. عزائي أنني تأكدت.

واحد كعبد الحميد شرف لا يرثيه صديق مثلي. واحد كعبد الحميد شرف يرثيه جيلي وجيله بافتقاده يوماً إثر يوم. كان بريقه وهاجاً بمقدار حزننا عليه. كان ككل الأشياء الجميلة في الكون، التي لا تعمر طويلاً. والأشياء الجميلة عادة تموت واقفة.

كنت دائماً أعيش هاجس الخوف عليه. مني. من الناس. من عقوق السياسة العربية الظالمة. لذلك ما تطلعت إلى صديق في السلطة طموحاً كما تطلعت إليه. وما ابتعدت عن صديق في الحكم كما ابتعدت عنه. وما تعلقت بسياسي صديق كما تعلقت به. كان فيه دائماً طعم الشيء الآخر.

تاعس هذا الوطن الذي اسمه الأردن.

حزين هذا الملك الذي اسمه الحسين.

مسكين هذا الجيل، جيل عبد الحميد شرف.

لقد مات فارسنا الأسمر.

ما نفع العزاء.

لندن ـ (١٩٨٠/٧/٢٦)

نجيب عبد الهادي:
موت الجياد الخاسرة

في زمن الوطن الذليل المُستباح كنت الوطن الذي هجرته. في زمن القهر والاجتياح كنت الأرض الصلبة التي أقف عليها. في زمن الجُبن والعار كنت السيف الشجاع الذي أضرب به. في زمن الظلمة واليأس كنت عهد الضياء الدائم.

نجيب عبد الهادي كان صديقي.

كان آخر مجموعة النبلاء في مهنتنا العقوقة الساقطة. كان احلانا. كان أكثرنا حياة وأكثرنا تفاؤلاً وأكثرنا وفاء. كان أمير هذه المجموعة النبيلة التي شارفت على الانقراض.

لم يكن نجيب عبد الهادي صديقاً عادياً في زمن عزّ فيه الأصدقاء. ولم يكن حبيباً غالياً في عصر انتحر فيه الحب. ولم يكن خلاً وفياً في عالم خانه الوفاء. كان كل هذا وكل هؤلاء. كان تجسيداً لاستحالة حلم ممكن لم يعمر طويلاً.

كانت شراكة الأحلام التي بيننا هي رباط صداقتنا السحري. لم يكن صديقي. كان توأمي الآخر. كان شريك أحلامي. كانت قدرته على اختراع الأحلام لي في أقاصي المعمورة قدرة عجيبة وعجائبية. كان تفاؤله المزمن قادراً على أن يستدعيني في أية لحظة إلى أي مكان في العالم، لنبحث في المستحيل الذي كان يبدو ممكناً بالنسبة له.

وكنا نضحك. نضحك معاً ونضحك كثيراً، كلما كان يصطدم المستحيل عندي بالممكن عنده. ونتنافس في الضحك على أكوام المشاريع الفاشلة التي تكدست امامنا عبر سنوات صداقتنا الطويلة.

كان شريكي في الرهان على كل الجياد الخاسرة. ولما يئست أنا ولم ييأس هو، أراد أن يكون رهانه الأخير على الحياة. وخسرنا الرهان معاً. هو بالموت وأنا بالفاجعة.

خلال السنوات الخمس والأربعين من عمره وعمري سقط عدد كبير لا يحصى من الأصدقاء. سقطوا في امتحان الصداقة البسيط. ونجحنا هو وأنا. نجحنا في البساطة لأن شراكة الأحلام تجاوزت كل تعقيد.

كان أحلى الرواة. كان أنيس المجالس. كان نديم اللقاءات. كان رفيق السفر الدائم. كنا نقتسم الدينار معاً ونحن نشهره ضاحكين في وجه الفقر والديون. وعندما وقف على أبواب النصر هزمه الموت. وهزمني موته.

حاولت ان اكون بطلاً. رفضت تصديق خبر نعيه. ورفضت البكاء عليه. اعدت رسم ابتسامتي وجلجلت ضحكتي وأصررت على انتظار قدومه إليّ. وقلت لحبيبتي وأطفالي ورفاقي انه قادم غداً. ولما أتى الغد ورنين الهاتف لم يُسْمَعْ قلت لهم ان الهاتف مقطوع لأن نجيب لم يسدد الفاتورة عني. وضحكت وبكوا.

أوديت المآدب وأحضرت الولائم وحجزت الفنادق وعممت خبر قدومه. ولما أتى الغد ولم يحضر قلت لهم انه انشغل في حلم جديد لم يطلعني عليه هذه المرة ولم يشاركني فيه. وابديت عتبي عليه.

أمرتهم أن يطلبوه على الهاتف، كما كنت أفعل كلما مر يوم أو أكثر ولم نتصل. وعندما قالوا لي إنه رحل، أدركت أنه أراد الاستئثار بالموت وحده من دون أن يُخبرني بأنه راحل. وتذكرت بأنه هتف لي ساعة واحدة قبل رحيله وكأنه أراد وداعي.

كان يلومني أنني لا أنفعل إلا متأخراً عندما كان يُغلق في وجهنا أحد الأبواب. وكنت أقول له إنني لا أبكي إلا عندما تجف مآقي الآخرين. لكنني أبكيه اليوم بدموع كان يعلم أنني لا أذرفها إلا في كبار المصائب.

سأعتذر اليوم من الأصدقاء لأنني لن أزورهم في الكويت لأن نجيب ليس هناك ليأخذني اليهم. وأنا لا أعرف طريق بيوت هؤلاء الأصحاب في الكويت وحدي من دونه. وسأعتذر أيضاً لأنني لم ازر بيته الجديد في عمّان الذي بناه من حبات العرق المملوءة برمال الجهد والكرامة خلال ٢٧ سنة من اقامته في الصحراء. سأعتذر لأنني لا أريد أن تنتزع المأساة من ذهني صورة بيته المتواضع في الكويت الذي كنا نبني فيه سوية أحلام بيوت جنين ونابلس وعمّان وبيروت ودمشق. ذلك قدري.

لم يكن نجيب عبد الهادي بطلاً قومياً ولا زعيماً سياسياً ولا مناضلاً صنديداً. كان صحافياً متواضعاً يحترم مهنته، يصون اسرارها ويحفظ كرامتها. كان إنساناً رائعاً يتسع قلبه الكبير وصدره العريض لكل الناس. كان زميلي وصديقي. كنت له الوطن الذي اضاعوه له وكان لي الوطن الذي أضعته.

لذلك أخاف الآن من قوته إذا ضعفت، وأخجل من صبره إذا جزعت، واشفق من جَلَدِه إذا تفجعت، فاذَن لي يا صديقي أن اقف عند هذا الحد.

ما شعرت باليتم الحقيقي في حياتي إلا مرتين: يوم مات أبي نجيب الريّس ويوم مات صديقي نجيب عبد الهادي.

ولا تسألوني فأنا لا أملك رداً إلا قول الشاعر:

فاسألنها واجعل بكاك جوابا ... تجد الدمع سائلاً ومجيبا.

افتقدك أيها الغائب ـ الحاضر.

افتقدك نجيب عبد الهادي.

افتقدك من غير حزن، وأذكرك دائماً بفرح كبير.

الكويت ـ (١٩٨٢/٧/١٧)

نجيب عبد الهادي (١٩٣٧ ـ ١٩٨٢) من مواليد جنين في فلسطين المحتلة. هاجر إلى الكويت في العام ١٩٥٧ وعمل في الصحافة الكويتية: «الهدف» و«الرأي العام» و«الوطن»، إلى جانب عمله في الصحافة العربية: «النهار» البيروتية و«المنار» اللندنية و«المستقبل» الباريسية. توفي في الكويت في ١٠ تموز ١٩٨٢، ودفن في عمّان.

■ ناديا تويني: موت الآخرين

أنا لا أعرف ناديا تويني كما يعرفها غيري. بل لعلّني أقل الناس معرفة بها. إنما أعرف الرجل الذي يحبّها كثيراً وأعرف انها كانت عالمه.

كنت أعرفها امرأة جميلة، ساحرة، انيقة، محدثة، شاعرة. وعندما كنت في شبابي قريباً من الشعر، كان جهلي بالفرنسية، التي تكتب بها، يقف حاجزاً بيني وبين اختراق عواطفها. إنما ظلت بالنسبة لي المرأة التي ملكت الرجل الذي أعرفه.

بالأمس ماتت المرأة التي هرسها المرض طويلاً، وعاشت أكثر سنوات عمرها تقاومه بعناد قلّ نظيره عند أحد. تكاد مقاومتها ان تكون أسطورة إنسانية بحد ذاتها. ولعل الأهم من مقاومتها للمرض، كانت مقاومة ذلك الرجل للبقاء معها في عزّ الحياة.

نحن الذين نعرفه، كنّا نحس بفداحة المأساة وهي تتفاعل في داخله. نحن الذين كنا قريبين منه، كنا نشعر ماذا كانت تعني ناديا له في أيام صعوده وفي أيام هبوطه. كنا نتساءل باستمرار عن أعصاب ذلك الرجل الحديدية. إلا أننا كنا نعرف أن في أعماقه بئراً من الحزن لا يغوص فيها إنسان. كنا نعرف كم كان يُمتحن ايمانه.

لا أحد منا قادر على عزاء غسان تويني. كلمات، كلمات، كلمات. بعضها تقليدي وبعضها الآخر شكلي... والبقية الباقية منها شكسبيرية. ولعل الكلمات الوحيدة التي يمكن أن تعني شيئاً لغسان تويني ما قاله أرنست همنغواي:

«... عندما كنت شابا، أعطيت الموت اهتماماً كبيراً، أما الآن فلم تعد تعطيه شيئاً. إنك تكرهه فقط للأشخاص الذين يختطفهم منك».

موت الآخرين، كان دائماً قضية شعرية. مع ناديا تويني لم يعد كذلك. صار يجابه الشك باليقين. صار يتخطى الآخرين: صار يدير له ظهره ثم يُعود يبحث فيه ويسأل عنه من جديد.

أشعرنا موت ناديا تويني كأن الزمان انتهى، الزمان الذي عرفناها فيه، وكأن الزمان لم يقف، وكأن آخر ما فينا قد مات مع الآخرين.

بوجود غسان تويني وبغياب عالم حبه العظيم، لا مجال لنا، نحن أصدقاءه ـ في أن نقول كلمة عزاء واحدة. كل الذي نستطيع فعله هو أن نعطيه القليل القليل من الحب الذي فقده. فهو يعرف أننا لا نملك سواه.

وقد يكون في هذا بعض العزاء لنا وله.

باريس ـ (١٩٨٣/٦/٢٥)

■ الشاعر القروي:
أسئلة الزمن المخنوق

شيخ وقور في السابعة والتسعين من عمره مات في أيلول ١٩٨٥. رجل عربي مسيحي قادم من العمق اللبناني التاريخي، رحل إلى ربه راضياً مرضياً.

نصف الجيل العربي الحالي لا يعرفه، والنصف الآخر والأقدم من هذا الجيل ظن انه مات من زمان.

لم تكتب عنه الصحافة العربية اكثر من كلمات قليلة. لم يمنحه بلده بعد مماته وساماً من أوسمة الاستحقاق التقليدية. لم يشيعه سياسي أو مفكر أو «مناضل» عربي واحد. لم يرثه شاعر أو كاتب عربي بقصيدة أو مقالة. لم يُعرِّف به أي «عروبي» أو «انعزالي». لم يذكره أحد من الذين كانوا يحفظون قصائده. مات في الزمان الخطأ وفي المكان الصحيح.

كان شاعراً كبيراً من دون أن يتنطح لامارة الشعر. وكان سياسياً من دون أن يكون عضواً في حزب. وكان مناضلاً من دون أن يكون منتسباً إلى جبهة نضال. وكان مقاتلاً من دون أن يكون عنده ميليشيا. وكان قومياً عربياً لأنه كان لبنانياً مسيحياً، بل على الرغم من كونه لبنانياً مسيحياً.

في لحظة واحدة انطفأت مئة سنة من أعراس الأحلام العربية. مات الشاعر القروي رشيد سليم الخوري.

هل تعرفونه؟ هل تذكرونه؟ هل تحفظون قصائده؟ ربما!

مات الشاعر القروي، والحرب العراقية ـ الايرانية تدخل عامها الخامس، والحرب اللبنانية تدخل عامها العاشر، والحرب الفلسطينية على أبواب عامها الخمسين. أما الحروب العربية الأخرى، من صغيرة وكبيرة، فتحتفل بتراكم السنين قدر احتفالها بتراكم الجثث في خنادقها.

والشاعر القروي ليس مسؤولاً بالطبع عن كل هذه الحروب. لكنه مسؤول عن افراح هذه الأمة التي لم تتم. مسؤول لأنه نظم أشجع القوافي تحريضاً على الاستقلال العربي، وتلا أجمل القصائد دفاعاً عن الحق العربي. الشاعر القروي مسؤول لأنه غنى للقومية العربية وللوحدة العربية أحلى أيامها المضيئة. مسؤول لأنه دعانا نحن أبناء جيل عربي في الأربعينات والخمسينات إلى هذه الافراح. فغنينا معه شعره وتلونا قصائده، ورقصنا على أنغام مفرداته وتظاهرنا تحت شعارات كلماته. فإذا بالأعراس التي دعانا إليها تتحول ـ وهو ما زال على قيد الحياة ـ إلى مآتم لكل الاحلام العربية. أحلامنا وأحلامه.

لعل مأساة الشاعر القروي أنه عاش أطول مما يجب. عاش ليشهد انهيار كل القيم التي آمن بها وعلمها، وسقوط كل المبادىء التي صرف عمره في الوطن والمهجر يرص القوافي ويشحذ الهمم في سبيلها. مأساته انه عاش قرناً كاملاً، شهد فيه ارتفاع أحلام القومية والوحدة العربية، وشهد سقوطهما. عاصر بزوغ عصر «السلام الاسرائيلي»، وعايش «ملوك الطوائف» الجدد. وراقب اندلاع «الصليبية العربية» الإسلامية والمسيحية المشتركة في الأرض التي هزمت صليبية الفرنجة.

مأساته ـ مأساتنا أننا في عصر الجبن العربي لا أحد منا يحسده على السبع والتسعين سنة التي عاشها، حتى وصلنا إلى «جيل الردة». جيل حملة سيوف التعصب باسم الإسلام الذين يقولون أن العرب لم ينتصروا في أية معركة سياسية أو عسكرية على أساس القومية والعروبة. وجيل حملة بنادق التعصب باسم المسيحية المقاتلة الرافضة أية علاقة للعروبة بالمسيحية والمتاجرة بالخوف من أن يبتلع الإسلام المسيحية. ويعامل المسلمون المسيحيين معاملة أهل الذمة. ويصطدم «جيل الردة» بشقيه بالشاعر القروي.

ويأتي الجواب المفحم من ذلك المسيحي اللبناني الذي ولد في قرية البربارة الواقعة على هضبة مشرفة على البحر الأبيض بين مدينتي جبيل والبترون من جبل لبنان عام ١٨٨٧. فهاجر منها إلى البرازيل عام ١٩١٣. وبقي في المهجر حتى عام ١٩٥٨، حين عاد إليها. فعاصر نهاية الامبراطورية العثمانية ومراحل الاستعمار الغربي والوصول إلى الاستقلال، وعاش سنوات توهج الوعي القومي ومات في أواخر فترات سقوطه. فكان شاهداً حياً لمعاناة قرن عربي بكامله.

ليس عندي رد أفضل من أن أنقل على لسان الشاعر القروي ـ نثراً وشعراً ـ ما كان يؤمن به ويدعو إليه. اقرأوا معي:

«أنا واحد من سبعين مليوناً من العرب. كل واحد منهم أنا فينبغي أن أحبهم قدر سبعين مليون نفس كنفسي. من افتداهم فكأنما أحياني سبعين مليون مرة، ومن خانهم فكأنما قتلني مثلها. ولذا تراني أصب جامات غضبي على الظالمين، وصنائع الظالمين، والصابرين على الظلم، بعنف من يدرأ الموت والعار لا عن نفسه فحسب، بل عن سبعين مليون نفس كنفسه محشودة فيه (...)».

□

«قولوا العروبة شعار الأمة العربية وروحها، وشمس أوطانها، ومهوى أفئدتها، وملتقى ما تعدد من أقاليمها ولهجاتها. العروبة دين الأمة الشامل، والدين ايمان ومحبة وتعاون وخير عميم. وبرنامج العروبة ليس أبجدية مواد وبنود، بل هو معان تعمر بها القلوب، ومناقب حفلت بها سير أبطالكم في العصور. وبدون هذه المعاني وهذه المناقب باطل كل مجلس وكل حزب وكل مبادىء (...)».

□

«العروبة روح حاتم ومعن والسموأل في سلوك كل نبيل عربي. وروح عنترة وطرفة وامرىء القيس والأخطل والمتنبي في خيال كل شاعر عربي. وروح خالد وأسامة وطارق وصلاح الدين ويوسف العظمة على سيف كل جندي عربي. وروح علي وأبي بكر وعمر على قلب كل متسلط عربي (...)».

□

«العروبة أن يشعر اللبناني ان له زحلة في الطائف، والعراقي أن له فراتاً في النيل (...)».

□

«مَنْ سار على درب العروبة لم يضل، ومَنْ عمل بوحيها لم يضر. باسفنجة العروبة يمسح الضغن، وبميثاقها تزول القطيعة، وعلى شاطىء وحدتها يتكسر الاستعمار، وعند آفاقها يقف زحف الليل، وفي ظل علمها تغمض عين الأمن، وفي ميادينها الواسعة تعم الحركة وتثمر المواهب وينشد اليسر والرخاء. من أحشائها تولد العبقرية، ومن عروقها يتفجر دم الأصالة، فأين كانت خيلها فهناك تعقد ألوية النصر وتتفتح أبواب السبق في المضامير. كل حزب لا يولد من صلبها فهو دخيل عليها، متربص بها (...)».

□

«أمتي: انا مكثراً، وطني: أنا مكبراً. إذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة فكأنما أكلوا جارحة من جوارحي، وإذا هدروا عربياً في لبنان أو تطوان فكأنما شربوا نُخبة من دمي. وكأن كل بلد قوي من بلادي ساعدي مفتولاً، وكل شعب خامل فيها زندي مشلولاً (...)».

من.. «أعمال القروي النثرية»

بيروت ١٩٨٤

ما أصعب إرث الشاعر القروي اليوم، في عصر الشماتة العربية والخوف العربي والسقوط العربي والذل العربي والتشرذم العربي. ليس بين أي نبيل عربي حاتم أو سموأل. وليس هناك على سيف أي جندي عربي خالد أو طارق. وليس في خيال أي شاعر عربي عنترة أو متنبي. لكن، أليس من الممكن أن يكون فينا مَنْ هو قادر أن يستل سيف صلاح الدين مصحوباً بقصيدة لعنترة وفرس لحاتم وعدل من عمر؟ فيعيد إلى هذه الأمّة المضرجة بالهزيمة، الملطخة بالكذب، شيئاً من الصدق وشيئاً من الكرامة وشيئاً من الحرية وأشياء وأشياء من النصر. صعب هذا في الزمان المخنوق، حيث لم يعد هناك مكان لانكسار الجباه.

كيف يمكن أن يكون للسوري ربوة أو دمر في الصحراء، وللبناني روشة في الخليج، وللعراقي دجلة في المغرب، وللفلسطيني بيّارة في السودان، إذا كان لا يستطيع المواطن

العربي أن يسافر ببساطة إلى أي بلد عربي آخر من دون تـأشيرة دخـول أو اذن زيارة أو كفيل.

كيف يستطيع المواطن العربي أن يجتاز حـواجز الـرواسب الاقليمية والنعـرات القبلية والتخلف العشائري والتعصب الطائفي بحد آدني من إراقة ماء الـوجه، ليشعـر أن كل بلد قوي من بلاده ساعده مفتولاً، لا زنده مشلولاً.

ما أصعب ارثك أيها القروي أمام طموحات الناس العاديين.

ما أجمل ان نمتلك سيفاً واحداً الآن، بدل ألف قصيدة رثاء فيمـا بعد، وقـد ماتت كـل التجارب الوحدوية في زماننا وسقطت كل الأفكار القـومية. ونحن مـا زلنا عـاجزين عن الوقوف في وجهها أو التصدي لها. ولم نعد نجرؤ على أن نسأل لماذا. بـل لم نعد نـريد أن نسأل لماذا؟ ومَن كان تاريخ جيله كلهِ هزائم، فلا يستطيع دفع اغتيال كل الطموحات الكبيرة ووأد كل الأحلام البكر.

تذكرت، وأنا متكيء على حائط هذه الأمة الحزينة، ما أنشده الشاعر القروي قبل حوالى خمسين سنة وفي عز أيام النضال القومي، مما يؤكد، بعد أن مات رشيد سليم الخوري اليوم، حجم الهزيمة التي لحقت بنا في السنوات العشر الأخيرة على الأقل.

ينشد القروي قائلاً:

«صياماً إلى ان يفطرَ السيفُ بالدم ... وصمتاً إلى ان يصدحَ الحقُّ يا فمي
افطرٌ واحرارُ الحمى في مجاعة ... وعيدٌ وابطال الجهاد بمأتمِ
بلادك قدمها على كل ملّة ... ومن اجلها إفطرْ.. ومنْ اجلها صمِ
ولكنني اصبو إلى عيد امةٍ ... محررةِ الاعناق من رِقِّ اعجمي
إلى علمٍ من نسجِ عيسى واحمد ... وآمنة في ظلها اختُ مريمِ
هبوني عيداً يجعلُ العُربَ امةً ... وسيروا بجثماني على دين برهم
لقد فرّقت هذي المذاهب شملنا ... وقد حطمتنا بين ناب ومبسمِ
سلامٌ على كفرٍ يوحد بيننا ... واهلاً وسهلاً بعده بجهنم»

ديوان «الاعاصير» ـ البرازيل ١٩٣٢

وداعاً أيها القروى العظيم، فقد كنتَ ذاكرة هذه الأمة وضميرها الحي ولسانها الشجاع وحادي قوافل أبطالها ومغني أيامها المضيئة. لكن.. ما أروع شعرك وأصعب إرثك.

لندن ـ (١٥/٩/١٩٨٤)

■ سهى تميم طوقان: المرأة التي قتلتها بيروت

عزيزتي سهى،

كان لي صديق اسمه نجيب عبد الهادي، مات في الصحراء قبل أربع سنوات عطشاً إلى وطن. مات في فراشه متعباً من طموحاته البسيطة: أن يكون له بيت، وأن يتعلم أولاده، وأن لا يمد يده إلى الناس، وأن يعيش بكرامة وحرية.

ولم يكن نجيب عبد الهادي بطلاً قومياً، ولا زعيماً سياسياً، ولا مناضلاً صنديداً. كان صحافياً متواضعاً يحترم مهنته، يصون أسرارها ويحفظ كرامتها. ولكنه كان إنساناً رائعاً يتسع قلبه الكبير وصدره العريض لكل الناس. إنما الأهم من ذلك كله كان الوجه المضيء في المجموعة الصغيرة من الأصدقاء ـ النبلاء التي يبدو أنها شارفت على الانقراض.

أردت أن أحدثك عن نجيب عبد الهادي ـ وإن كنت لا تعرفينه ـ لأنني عندما عرفت في ساعة متأخرة من تلك الليلة المشؤومة بنبأ رحيلك السخيف من هذه الدنيا، رفضت أن أقع في فخ الحزن الفوري، وتذكرت ما كان يقوله لي بأنني لا انفعل إلا متأخراً، عندما كانت تحل بنا الكوارث. وكنت أقول له انني لا أبكي إلا عندما تجف مآقي الآخرين. وإذا كنت قد بكيته بدموع كان يعلم أنني لا أذرفها إلا في كبار المصائب، فإنني أريدك أن تعرفي أنني لا أبكيك اليوم إلا بدموع فيها كل فرح الذكريات وتألق الشباب وإرث الحب المضيء.

وتذكرت نجيب عبد الهادي معك أيضاً، ربما لأنني كنت بحاجة إلى استعادة ذكراه، كلما سقط في امتحان الصداقة البسيط عزيز من الرفاق، أو كلما احتجت إلى كتف أتكيء إليها في زمن الضياء الضرير. ولأنك تشبهينه. كنت امرأة متواضعة تمسكت بالوطن في حدود المستحيل. لذلك كنت امرأة نادرة. لم تكوني زعيمة سياسية ولا مناضلة عظيمة ولا خطيبة مفوهة ولا سيدة المجتمعات المخملية ولا رئيسة جمعية نسائية ولا مؤلفة أو كاتبة أو رسامة عبقرية ولا حتى فنانة صالونات الشرف.

كنت سيدة وطنية، رفضت أن تغادري بيروت وأنت الوحيدة فيها. ولأنك كنت سيدة شريفة، اعتبرت أن ثروتك الوحيدة هي أصدقاؤك، وأن حبل الوفاء واللهفة والمحبة معهم هو رباط أبدي.

لذلك قررت أن تغادرينا على عجل برصاصة حاجز في المدينة التي أحببتيها أكثر من أي شيء في الدنيا، وعلى بعد أمتار من بيتك في البطريركية، الذي كان قلعتك وحصنك وحياتك. ولم تودعي أحداً. قررت أن تحسمي الأمر بالسرعة اللازمة. فتركت أوراقك ورسومك وطبختك على النار. وما ازال أسمع صوت ضحكتك يرن في أذني، كلما انتصبت أمامي واقفة وأنت تسألين: «ما هو هذا الحب المريض الذي اسمه بيروت»؟

أحببت بيروت بجنون المرأة العاشقة. قتلتك بيروت بعنف العاشق الشرس المدمّر.

ولا أدري إذا كنت تذكرين، ان حبك لبيروت، (التي كانت بالنسبة إليك لبنان كله، والعروبة كلها، والوطنية كلها، كما كانت كل الثقافة والفن والأصدقاء والحب والحياة) قد دفعك لأن تعاتبيني قبل سنوات بكلام ما زال عالقاً بحرفيته في ذاكرتي - وإن بهتت فيها بعض الألوان واختلطت - عندما زرت لندن عام ١٩٨٠، بعد أن اشتدت الحرب الأهلية في لبنان، وقلت لي: «لماذا لا تعود إلينا؟ ماذا أنت فاعل في لندن، وقد فقدت حتى الضباب الذي كنت تحبه في شبابك، وتكاد يوماً بعد يوم تثير فيّ الشعور أنك في بنغلادش».

وضحكت من قلبي لسؤالك. ولم أجب في حينه عليه، ولكنني سأحاول اليوم.

عزيزتي سهى،

تذكرت كيف اغتالتك بيروت بحزن ممزوج بالمرارة مما زاد من شعوري بالهزيمة التي مني بها جيلي الذي غادر بيروت وكل عاصمة عربية. تاريخ جيلي المختصر كله هزائم، بداية بسقوط الأفكار والعقائد السياسية التي دغدغت أحلامه منذ الخمسينات، ونهاية بانتصار النظام على الفرد، ومروراً بسقوط قيم الحرية والكرامة إلى حضيض الانحطاط، ووقوفاً عند إحباط كل الطموحات الكبيرة.

انت تعرفين يا سهى أنني أنتمي إلى قلة ضائعة، ولكنها منتشرة في أنحاء المعمورة كلها. حزنها كحزني وتعبها كتعبي. هذه القلة أضاعت وطنها، ويبست جذورها في أرض غريبة، وفقدت بوصلتها اتجاه الشمال. ونبت العشب على معالم شوارعها، وغزا الشيب مفرقها، وبدأ الترهل يتسلل إلى جسدها.

أتعرفين ماذا يقول الكاتب المسرحي الانكليزي نويل كوارد: «ان منتصف العمر هو تقاطع طرق. إما أن تكبر سناً أو تصغر». ونحن قد شخنا. شخنا كثيراً.

هذه القلة الضائعة لا تملك قرار العودة، ولا تملك قرار البقاء. لأن قرار العودة أصبح في يد مجهولة لا تريد للقيم الأصيلة أن تعود. وقرار البقاء في يد لا تعرفها ولا تريدها أن تطيل الاقامة على أرضها.

هل تريدينني أن أكون أكثر وضوحاً؟

سأحاول أن أقول لك اننا لم نتعلم كيف نمارس الحرية التي حرمنا منها. اننا نخاف منها ونخاف عليها. ولم نعرف كيف ننزع رداءنا العربي لنلبس معطف الغربة. حتى «الغيتو» الذي يجمعنا في أوطان الغربة ليس فيه شيء من «الغيتو» اليهودي التقليدي. ليس فيه الوطنية. وليس فيه الولاء. وليس فيه التضامن. وليس فيه الصمود. فيه الخوف فقط. الخوف مما هو في داخله أكثر مما هو في خارجه.

حتى العمل الذي نمارسه لا مبرر له حيث نحن. من الممكن أن نمارسه في أي مكان في

وطننا العربي ـ أو في أي بقعة في العالم إن شئنا ـ لأن مبررات هجرتنا المهنية قد انهارت بسقوط ممارستنا لها، من غير أصول ولا قواعد ولا منهجية. نمارسها لأننا لا نعرف مهنة غيرها. ولأننا نريد أن نأكل ونشرب ونلبس ونطعم أطفالنا ونفرح أمهاتنا ونسدد ديوننا.

آه لو تعرفين كم منا نحن معشر الصحافيين، أصحاب الأسماء والصور المطبوعة، يكتب بحماس. يحلل بشغف. يقرأ بلذة. ربما لا أحد. مع الاعتذار للكل وللبعض. لو تعرفين كيف تطير الأفكار من رؤوسنا خوفاً من أن تتحول إلى هواجس. لو تعرفين كيف لا نريد الابقاء عليها. كيف ندعها تتسلل من عقولنا عن سابق تصور وتصميم. كيف أصبحنا نخاف النهار ونكره الليل!

ليس في الحياة التي نعيشها في أوروبا أي مظهر للاغراء إلا لمن بقي في أرضه ويريد أن يرحل. اغراء الاقامة خارج الحدود. اغراء الهرب من واقع مر يعرفه، إلى واقع أمرّ لا يعرفه. اغراء البعد عن خلاف أهل الحارة والأهل والأقارب الذي انتقل معنا. اغراء الرحيل إلى بلد شوارعه نظيفة، وتكسياته غالية، ومواصلاته متوفرة، وحليبه يوزع على الأبواب، وصحفه تصدر بحرية.

كنت أقول لك اننا بتنا نحسد العامل الأوروبي عندما يضرب. والحزب السياسي عندما يختلف أعضاؤه من دون أن تنصب المشانق. والجريدة المعارضة التي لا قراء لها. والسياسي الذي يعرف متى يتقاعد ليكتب مذكراته. والكاتب الذي يقرر أن يتوقف عن الكتابة لأنه نضب. والفنان الذي يرسم على الرصيف لأنه يحب الرسم أكثر مما يحب أصحاب صالات العرض وحفلات الكوكتيل المعدة للأميين من أصحاب الأموال لاغرائهم بشراء لوحات لا يعرفون كيف يميزون بين ألوانها. والمؤلف الذي يعيش بالكفاف ليكتب رواية قد تبيع مليون نسخة. والشرطي الذي يستطيع أن يقبض على اللص. والقاضي الذي يقدر على اصدار حكم بسجن مجرم. والجندي الذي يعرف كيف يحارب.

كنت أريد أن أسألك أنا عن باعة الأحلام يا سهى، بعد أن لملموا بضاعتهم عن أرصفتنا ورحلوا. لم تعد بضاعتهم رائجة. احلامهم أصبحت مستهلكة. من منا يريد أن يرى الحلم ذاته كل ليلة؟ فكيف بالكوابيس؟ كل منا يحارب اليوم، لا من أجل أن يحقق أحلامه، بل من أجل أن يحتفظ بالحلم حلماً لا واقعاً. نريد عودة باعة الأحلام الينا. من أي مصدر جاؤوا وبأية بضاعة أتوا. اعطونا حلماً وخذوا حرباً ضروساً. كنت سأرجوك أن تشجعي باعة الأحلام على فرش بسطاتهم من جديد على أرصفتنا في أي مكان يختارونه من الوطن العربي.

كنت اريد أن أقول لك يا سهى: احتفظي لنا ببيروت ـ أو ما تبقى منها ـ ورديها الينا عندما نعود. ضمي تفاؤلك إلى يأسنا. أما الآن فاعذريني يا سهى لأن صوتك قد أسقط كل الأحلام. واعذريني أيضاً إذا لم اتصل بك في بيروت في زيارة مقبلة. ذلك لأنني لا

أستطيع أن أرد على أسئلتك ولا أقدر أن أزرع تفاؤلك في صدري. القلة الضائعة لا تريد أن تصل إلى الواحة. تريد أن تحتفظ بالسراب فقط، لأنها تريد للواحة أن تبقى حلماً بعيد المنال.

عزيزتي سهى،

كان اللقب الذي أطلقناه عليك في «الميتم» هو «البومة». و«الميتم» كان الاسم الذي اخترناه لشلتنا التي كانت تضم من اعتبرناه نحن نخبة ظرفاء المثقفين من صحافيين وأدباء وشعراء وفنانين وكتّاب، من الذين يحبون الحياة والود. وحكاية «الميتم» حكاية تطول روايتها، وربما تدخل في صلب حياة بيروت الثقافية في ابان عزها وازدهارها، يوم تكتب. «والبومة» كانت بالنسبة لنا ذلك الطائر الرائع ذو العينين الجميلتين، صاحب الحكمة الدائمة والرأي السديد والنظر الثاقب. وكانت «البومة» طائرنا الجميل، الضاحك أبداً، رمز تفاؤلنا ورباطنا الجميل، الدائم. لكن «البومة» كانت مجرد امرأة عادية، لذلك فمقتلها لن يغير شيئاً من مجرى التاريخ ولا من أحداث المنطقة ولا من أزمة بيروت. وربما لأن «البومة» توصلت إلى القناعة بأن بيروت قد ماتت، أدركت أن لا جدوى من الحياة فيها ولا خارجها. فارتأت أن تموت معها، إنما برصاصها لا برصاص غيرها، حيث لم يعد فيها متحدث شجاع بلسانها ولا حادٍ لقوافل أبطالها ولا مغنٍ لأيامها المضيئة.

كنت أنتِ يا سهى تميم طوقان آخرهم.

فاعذريني أيتها الصديقة الحبيبة، إذ ليس عندي من عزاء إلا قول المتنبي:

الحزن يقلق والتجمّل يردع والدمع بينهما عصيّ طيّع.

لندن - (١٩٨٦/٥/٢٤)

سهى تميم طوقان قتلت برصاصة أطلقها عليها حاجز امام بيتها في حي البطريركية في بيروت في ٢٦ نيسان ١٩٨٦. كانت تعمل كمديرة مساعدة في مكتب النشر في الجامعة الأميركية في بيروت، إلى جانب كونها فنانة اقامت عدة معارض ولها عدد كبير من اللوحات والرسوم التي تعكس الحياة في بيروت. ساهمت باصدار وتحرير عدد كبير من كتب ومطبوعات الجامعة الاميركية في السنوات العشرين الأخيرة. درست في الجامعة الاميركية في بيروت وتخرجت من دائرة التربية بدرجة ماجستير في الآداب عام ١٩٥٩.

عام ١٩٥٤، تزوجت سهى تميم البيروتية الدكتور نمر طوقان النابلسي ورئيس دائرة الباثولوجيا في مستشفى الجامعة الأميركية. وفي عام ١٩٦٣، قتل نمر طوقان في حادث طائرة سقطت في البحر مع صديقه اميل البستاني.

■ كريم خلف، بسام الشكعة:
آثار أقدام

هل تعرفون نكتة «الفيل والقضية...»؟ ليس مهماً!

لقد كنت هارباً من افكاري، وأنا غارق في قراءة عشرات الصحف في الطائرة المسافرة إلى الخليج، وهي تنتظر مرور عواصف الرياح والغبار، التي تؤخر إقلاعها من لا مكان إلى لا مكان، وكأنني اعتدت الانتظار في مطارات ليست على الخارطة إلى مطارات ليس لها خارطة. ربما هي أقدارنا.

تذكرت ـ والحديث ما زال عن «الفيل والقضية...» ـ أن خلال ربع قرن تقريباً من العمل الصحافي، لم تكن القضية الفلسطينية بالنسبة لي إلا تعاطياً حياتياً وطنياً مرتبطاً ارتباطاً يومياً مصيرياً بكل ما يجري حولي. وأدركت من خلال الممارسة المهنية وتقلبات ظروف القضية الفلسطينية نفسها أن فيها من الخبراء والاختصاصيين أكثر مما فيها من المناضلين ـ حتى من قبل وجود مؤسسات للدراسات ومراكز للأبحاث. وقلت إن هكذا قضية، وبهذه المصيرية، تحتاج إلى خبير بالناقص لا إلى خبير بالزايد.

لذلك لم أتطرق إلى الكتابة فيها، إلا بقدر ما يفرضه العمل الصحافي الدائم وتفرضه الأحداث الإخبارية على كل ممارس لهذه المهنة، لاعتقادي الحقيقي ان هناك من هو أكثر كفاءة مني في هذا المضمار، ولايماني بأن الصحافة ـ مهما كانت ـ لا بد وأن يكون فيها شيء من الاختصاص. وصار اختصاصي بعيداً عنها.

ولما أصدرت «المنار» في لندن عام ١٩٧٦، وأصبح تعاملي المهني ومسؤولياتي أوسع من اختصاصي الضيق، بدأت من جديد أعيش يوماً إثر يوم كل التفاعلات الفلسطينية، بمعنييها السياسي والبشري الحقيقيين، بعيداً عن مأساة الحرب اللبنانية وما علق بها من شائبات.

وكنا في «المنار» أول من أفرد صفحات عن الوطن المحتل من الداخل. وكانت صاحبة الفضل في ذلك الزميلة العزيزة سميرة الخطيب ـ رد الله غربتها ـ وكانت سميرة الخطيب (خريجة السجون الاسرائيلية) التي تحرر صفحات الوطن المحتل، على اتصال هاتفي دائم مع كريم خلف وبسام الشكعة، اللذين يزودانا بالاخبار والتعليقات، وكأنها في لندن تقاوم المحتل الاسرائيلي في شوارع القدس. ونمت بيننا وبين كريم خلف وبسام الشكعة صلة هاتفية لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها نوع فريد من الصداقة الودودة والعمل المشترك.

وأشاع بيننا هاتف كريم خلف وبسام الشكعة الشبه أسبوعي ـ وكنا مجموعة من الصحافيين المتنوعي المشارب والآراء ـ جواً فلسطينياً نقياً صافياً ورائعاً. وسمعنا من كريم وبسام أسماء مناضلين لا تقرأ عنهم في البيانات الرسمية ولا ترى صورهم في المؤتمرات. وعرفنا منهما معنى النضال في الداخل ومعنى مقاومة الارهاب الاسرائيلي

والاحتلال الشرس. وكان لكريم وبسام الفضل الأكبر في تفرد «المنار» في حينـه بكثير من الأخبار الفلسطينية والمواقف التي كان لـ «المنار» شرف تبنيها والدعوة لها.

وتـوقفت «المنار». وتـوقف الهاتف. وغـاب عن أذني صوت الـرجلين الصـامدين في قلب الـوطن الأسير. وصـارت سميرة الخطيب في الطـرف الآخر من الـدنيا، وبقينـا نحن في لندن. هي مسافرة من غير طريق ونحن مسافرون من غير حقائب.

واهتز الهاتف من جـديد. لم تكن القـدس على الخط. لم تكن رام اللـه. لم تكن نابلس. كانت وكالات الأنباء. لقد سقط كريم خلف وبسام الشكعـة ضحية الارهـاب الصـهيوني والعنف الاسرائيـلي. لقد سقطـا واقفين من غـير أقدام. سقطـا على ركبتيهمـا من أجل فلسطين. بترت ساقاهما. يا للهول! سقط الهاتف الذي كنت احتضنه دائماً، عندما كانـا على الطرف الآخر منه. كم وددت البكاء لو استطعت.

وانتـابني احساس اعتقـدت أنني تجاوزتـه. احساس من يـريد أن يضم كـريم وبسام ويقول لهما: هل تريدان ساقي. لكن من أنا؟ ما نفع ساقي؟ مقابل صورة بسام مبتسماً وهـو محمول إلى المستشفى رافعـاً يده بعـلامة النصر، هـاتفاً بحيـاة فلسطين: الـوطن الحقيقي والتراب الحقيقي والنضال الحقيقي. وأدركت أن الـذي سقط على ركبتيـه من أجل فلسطين لا يحتاج إلى ساقين ليتابع النضال. كم سذج نحن البعيدين!

وأخذني شعور طفولي بالاطمئنان. الاطمئنان إلى أن القضيـة بخير. وأنهـا لا تحتاج إلى قدمين لتخوض المعارك وتصمد وتنتصر ـ ولو عـلى ركبتيها. ان من عنـده قلب وعزيمـة ككريم وبسام لا يحتاج إلى قدمين. مثلهما يتـركان آثـار أقدامهمـا على طـريق النضـال الفلسطيني، ولا تطويهما رمال القضية.

لكن ما نفع كل هذا الكلام يكتبه صحافي عربي بعيـد عن مواقـع القتال؟ ربمـا لا شيء. يكفي هذا الصـحافي أنه شعر ببعض الحياة في جذوره التي كـادت أن تجف، وأن الروح قد ردت إلى أطراف قلمه، وأن الإخضرار قد لاح في اليباس.

وإذا كان لا يستطيع هـذا الصـحافي أن يعيـد لبسام ولكـريم أطرافهمـا، فقد أعـادا له كرامته وهويته، ووطنه في غربة الأرض اليباب.

ما أحلاكما!

لندن ـ (٢١/٦/١٩٨٠)

فهرس الاعلام

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

فهرس الاماكن

أ

ب

ت

ج

ح

د

ر

س

ل

م

ن

هـ

و

ي



كتب صدرت للمؤلف

١ ـ موت الآخرين ـ شعر ـ ١٩٦٢

٢ ـ الفترة الحرجة ـ دراسات نقدية ـ ١٩٦٥

٣ ـ صراع الواحات والنفط ـ هموم الخليج العربي ـ ١٩٧٣.

٤ ـ البحث عن توفيق صايغ ـ شعر ـ ١٩٧٥

٥ ـ المسار الصعب ـ المقاومة الفلسطينية منظماتها وشخصياتها وعلاقاتها ـ ١٩٨٦ (مع دنيا نحاس) [صدر بالانكليزية ايضاً]

٦ ـ ظفار ـ الصراع السياسي والعسكري في الخليج ـ ١٩٧٨

٧ ـ الخليج العربي ورياح التغيير ـ مستقبل الوحدة والقومية والديموقراطية ـ ١٩٨٦

٨ ـ وثائق الخليج العربي ـ طموحات الوحدة وهموم الاستقلال ـ ١٩٨٧

٩ ـ جواسيس العرب ـ صراع المخابرات الاجنبية ـ ١٩٨٧

١٠ ـ شخصيات عربية من التاريخ ـ ١٩٨٧

١١ ـ المسيحيون والعروبة ـ مناقشة في المارونية السياسية والقومية العربية ـ ١٩٨٨

١٢ ـ العرب وجيرانهم ـ الاقليات القومية في الوطن العربي ـ ١٩٨٩

الغلاف الاخير كاريكاتور للمؤلف

للفنان بيار صادق ١٩[illegible]

تصميم الغلاف والكتاب محمد حمادة



قبل أن تبهت الألوان

صحافة ثلث قرن

ولعل نقطة الضعف في رسائل رياض نجيب الريس الصحافية أنها كانت ذات صبغة أدبية وأحياناً شعرية. فقال الصحافيون المحترفون فيه: صحافي بارع لولا أنه أديب. وقال الأدباء فيه: أديب بارع لولا أنه صحافي.

مجلة شعر - العدد ٣٩ - صيف ١٩٦٨

1855130165